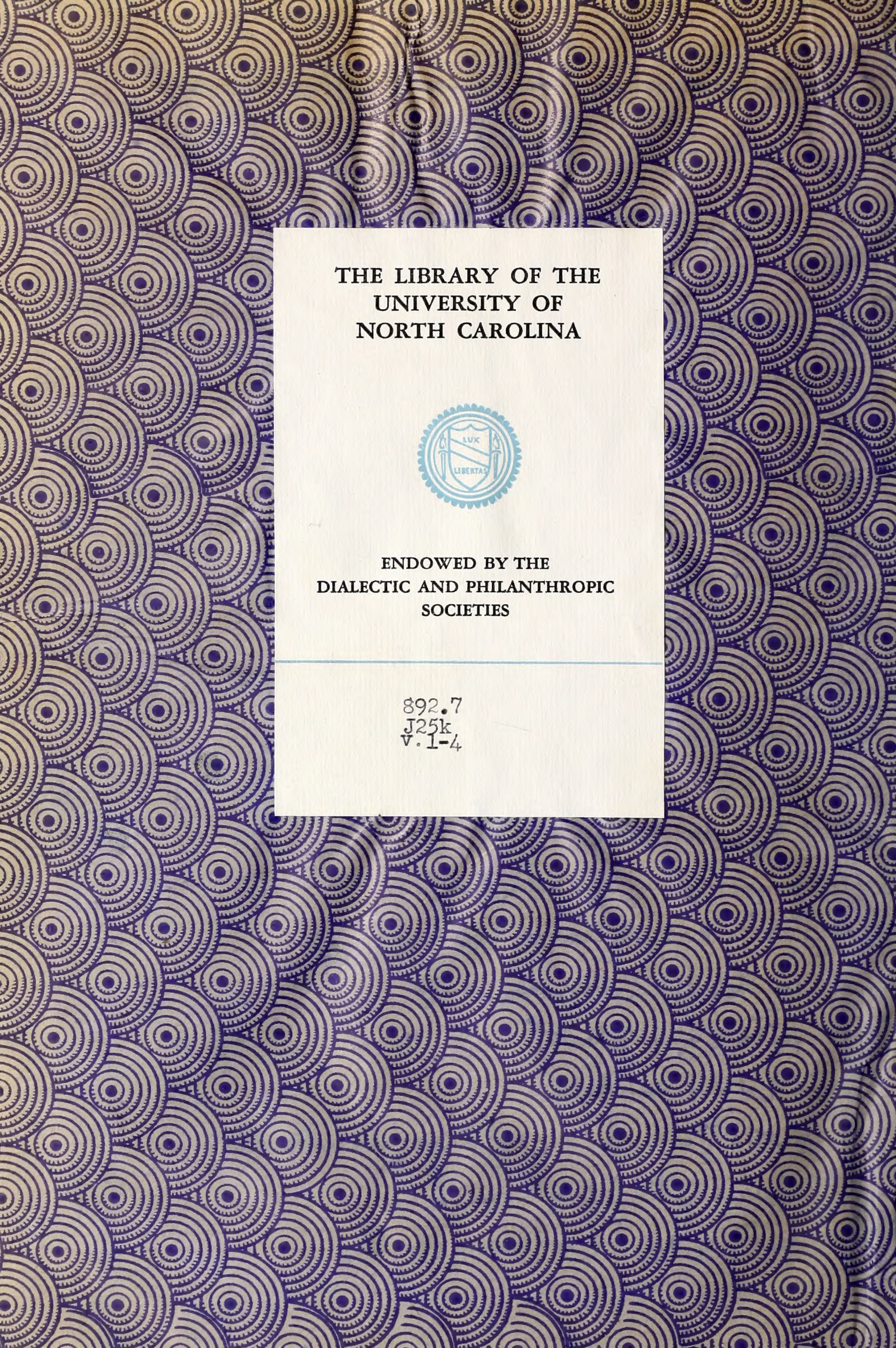






فهرست

الجزء الأول من كتاب الحيوان

صحيفه

صحيفه

﴿ تم الفهرست ﴾

(هــذا)

كتاب الحيوان لأبي عثمان بن بحر

الجاحظ البصرى المتوفى سنة

مائتين وخمس وخمسين

رحمه الله تعالى

آمين

﴿طبع على نفقة الحاج محمد الساسى المغربى تاجر بالفحامين بمصر﴾

(طبع بالمطبعة الحميدية المصرية الكائنة بشارع الحلوجى بجوار

الرياض الأزهرية سنة ١٣٢٣ هجرية)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسبا وبين الصدق سببا وحبب اليك التثبت وزين فى عينك الانصاف وأذاقك حلاوة التقوى وأشعر قلبك عز الحق وأودع صدرك البر واليقين وطرد عنك ذل اليأس وعرفك مافى الباطل من الذلة ومافى الجهل من القلة ولعمري لقد كان غير هذا الدعاء أصوب فى أمرك وأدل على مقدار وزنك وعلى الحال التى وضعت نفسك فيها ووسمت عرضك بها ورضيتها لعرضك حظاً ولمروءتك شكلا لدينك اذاكان ضارا فى العاجل والكذب اذا كان نافعا فى الآجل ولم جعل الصدق ابدا محمودا والكذب أبدا مذموما والفرق بين الغيرة واضاعة الحرمة وبين الافراط فى الحمية والانفة وبين التقصير فى حفظ حق الحرمة وقلة الاكتراث بسوء القالة وهل الغيرة اكتساب وعادة أم بعض ما يعرض من جهة الديانة ولبعض التزيد فيه والتحسن به أو يكون ذلك فى طباع الحرية وحقيقة الجوهرية ماكانت العقول سليمة والآفات منيفة والاخلاط معتدلة وعبتنى بكتاب الصرحاء و الهجناء ومفاخرة السودان والحمران وموازنة مابين حق الخؤلة والعمومة وعبتنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والاعناب وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات وبكتاب فضل مابين الرجال والنساء وفرق مابين الذكور والاناث وفى أى موضع يغلبن ويفضلن وفى أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ونصيب أيهما فى الولد أوفر وفي أي موضع يكون حقهن أوجب و أي عمل هو بهن أليق وأي صناعة هن فيها أبلغ وعبتني بكتاب القحطانية والعدنانية فى الرد على القحطانية وزعمت أني تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية

وانى لم أصل الى تفضيل العدنانية الا بتنقيص القحطانية وعبتنى بكتاب العرب والموالي
وزعمت انى بخست الموالى حقوقهم كما انى أعطيت العرب ماليس لهم وعبتنى بكتاب
العرب والعجم وزعمت ان القول في فرق مابين العرب والعجم هو القول فى فرق
مابين الموالى والعرب ونسبتني الى التكرار والترداد والى التكثير والجهل بما فى المعاد
من الخطل وحمل الناس المؤن وعبتنى بكتاب الاصنام وبذكر اعتلالات الهند لها
وسبب عبادة العرب اياها وكيف اختلفا فى جهة العلة مع اتفاقهما على جملة الديانة
وكيف صار عبادة البدرة والمتمسكون بعبادة الاوثان المنحوتة والاصنام المنجورة أشد
الديانين الفا لما دانوا به وشغفا لما تعبدوا له وأظهرهم جدا وأشدهم على من خالفهم
ضغنا وبما دانوا ضنا وما الفرق بين البد والوثن وما الفرق بين الوثن والصنم وما
الفرق بين الدمية والجثة ولم صوروا فى محاريبهم وبيوت عباداتهم صور عظمائهم
ورجال دعوتهم ولم تأنقوا فى التصوير وتجردوا فى اقامة التركيب وبالغوا في التحسين
والتفخيم وكيف كانت أولية تلك العبادات وكيف افترقت تلك النحل ومن أى شكل
كانت خدع تلك السدنة وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددا وكيف شمل ذلك
المذهب الاجناس المختلفة وعبتنى بكتاب المعادن والقول فى جواهر الارض وفى
اختلاف أجناس الفلز والاخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها وكيف يسرع
الانقلاب الى بعضها ويبطىء عن بعضها وكيف صار بعض الالوان يصبغ ولا ينصبغ
وبعضها ينصبغ ولا يصبغ وبعضها يصبغ وينصبغ وما القول فى الاكسير والتلطيف
وعبتنى بكتاب فرق مابين هاشم وعبد شمس وكتاب فرق مابين الجن والانس وفرق
مابين الملائكة والجن وكيف القول فى استيلاء العفريت على سليمان وفي الهدهد وفى
الذى كان عنده علم من الكتاب وما الذى هو ذلك العلم وما تأويل قولهم كان وعبتني
بكتاب الاوفاق والرياضات وما القول فى الارزاق والانفاقات وكيف تجرد التجار
الحرفاء وكيف الاحتيال للودائع وبكل ما كتبت الى اخوانى وخلطائى من مزح
وجد ومن افصاح وتعريض ومن تغافل وتوقيف ومن هجاء لايزال ميسمه باقيا

ومديح لا يزال أثره ناميا ومن ملح تضحك ومواعظ تبكي وعبتني برسائلي الهاشميات واحتجاجي فيها واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة واظهاري لها في أتم حلية وزعمت اني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الى حد الزيدية ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حد السرف والافراط فيه وزعمت ان مقالة الزيدية خطيئة مقالة الرافضية وان مقالة الرافضة خطيئة مقالة الغالية وزعمت ان في أصل القضية والذي جرت عليه العادة ان كل كبير فأوله صغير وان كل كثير فانما هو قليل جمع قليل وأنشدت قول الراجز

قد يلحق الصغير بالجليل * وانما القرم من الافيل * وسحق النخل من الفسيل

وأنشدت قول الشاعر

رب كبير هاجه صغير * وفي البحور تغرق البحور

وقلت وقال يزيد بن الحكم

فاعلم بني فانه * بالعلم ينتفع العليم ان الامور دقيقها * مما يهيج له العظيم

وقلت وقال الآخر

صار جدا ما مزحت به * رب جد ساقه اللعب

وأنشدت قول الآخر وهو قول عنترة (١)

ماتنظرون بحق وردة فيكم * تقضى (٢) الامور ورهط وردة غيب

قد يبعث الامر الكبير صغيره * حتى تظل له الدماء تصبب

وقالت كبشة بنت معدي كرب

جدعتم بعبد الله آناف قومه * بني مازن ان سب راعي المخزم

وقال الآخر أية نار قدح القادح * وأي جد بلغ المازح

وتقول العصى من العصية ولا تلد الحية الا حية وعبت كتابي في خلق القرآن كما عبت كتابي في الرد على المشبهة وعبت في القول في أصول الفتيا والاحكام كما عبت

(١) والصواب ان البيتين لطرفة وهما من جملة أبيات في ديوانه (٢) وورواية الشنتمري صغر البنون

كتابي فى الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه وعبت معارضتى للزيدية وتفضيل الاعتزال على كل نحلة كما عبت كتابي فى الوعد والوعيد وكتابي على النصرانى واليهودى ثم عبت جملة كتبي فى المعرفة والتمست تهجينها بكل حيلة وصغرت من شأنها وحططت من قدرها واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها فعبت كتاب الجوابات وكتاب المسائل وكتاب أصحاب الالهام وكتاب الحجة فى تثبت النبوة وكتاب الاخبار ثم عبت انكارى بصيرة غنام المرتد وبصيرة كل جاحد وملحد وتفريقى بين اعتراض الغمر وبين استبصار المحق وعبت كتاب الرد على الجهمية فى الادراك وفى قولهم فى الجهات وكتاب فرق مابين النبي والمتنبي والفرق مابين الحيل والمخارق وبين الحقائق الظاهرة والاعلام الباهرة ثم قصدت الى كتابى هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه والاغماض على لفظه والتحقير لمعانيه فزريت على نحته وسبكه كما زريت على معناه ولفظه ثم طعنت فى الغرض الذى اليه نزعنا والغاية التى اليها قصدنا على انه كتاب معناه أنبه من اسمه وحقيقته آنق من لفظه وهو كتاب يحتاج اليه المتوسط العامي كما يحتاج اليه الخاص و يحتاج اليه الريض كما يحتاج اليه الحاذق أما الريض فللتعلم والدربة وللترتيب والرياضة وللتمرين وتمكين العادة اذ كان جليله يتقدم دقيقه واذ كانت مقدماته مرتبة وطبقات معانيه منزلة وأما الحاذق فلكفاية المؤنة لان كل من التقط كتابا جامعا وبابا من أمهات العلم مجموعا كان له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وكان له نفعه وعلى صاحبه كده مع تعرضه لمطاعن البغاة ولاعتراض المنافسين ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ومعانيه على الجهابذة وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة ومتى ظفر بمثله صاحب علم أو هجم عليه طالب فقه وهو وادع رافه ونشيط جام ومؤلفه متعب مكدود فقد كفى مؤونة جمعه وخزنه وطلبه وتتبعه واغناه ذلك عن طول التفكير واستنفاد العمر وفل الحد وأدرك أقصى حاجته وهو مجتمع القوة وعلى ان له عند ذلك ان يجعل هجومه عليه من التوفيق وظفره به بابا من التسديد ﴿ وهذا كتاب ﴾ تستوي فيه رغبة الامم وتتشابه فيه العرب والعجم

لانه وان كان عربيا اعرابيا واسلاميا جماعيا فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المجد ذو الحزم ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الاريب ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن وعبتني بحكاية سرقول العثمانية والضرارية كما سمعتني أقول فى أول كتابى وقالت العثمانية الضرارية كما سمعتنى أقول قالت الرافضة والزيدية فحكمت على بالنصب لحكايتي فهلا حكمت على بالتشيع لحكايتى وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتى حجج الغالية كما كنت عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة وقد حكينا في كتابنا قول الاباضية والصفرية كما حكينا قول الازارقة والزيدية وعلى هذه الاركان الاربعة بنيت الخارجية وكل اسم سواها فانما هو فرع ونتيجة واشتقاق منها ومحمول عليها والا كنا عندك من الخارجية كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة فكيف رضيت بان تكون أسرع من الشيعة أسرع الى اعراض الناس من الخارجية اللهم الا ان تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع وأتم وأجود وعبتنى بكتاب العباسية فهلا عبتني بحكاية مقالة من أبى وجوب الامامة ومن يرى الامتناع من طاعة الائمة الذين زعموا ان ترك الناس سدى بلا قيم أردّ عليهم وهملا بلا راع أربح لهم وأجدر ان يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل وان تركهم نشرا لانظام لهم أبعد من المفاسد وأجمع لهم على المراشد بل ليس ذلك بك ولكنه بهرك ماسمعت وملأ صدرك الذي قرأت وأبعلك وأبطرك فلم تتجه للحجة وهى لامعوضة ولم تعرف المقابل وهى لابادية ولم تعرف باب المخرج اذ جهلت باب المدخل ولم تعرف المصادر اذ جهلت الموارد رأيت ان سب الاولياء أشفى لدائك وأبلغ في شفاء سقمك ورأيت ان ارسال اللسان أحضر لذة وأبعد من النصب ومن اطالة الفكرة ومن الاختلاف الى أرباب هذه الصناعة ولو كنت فطنت لعجزك وصلت نقصك بتمام غيرك واستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك وحبيس

على تقويم اشباهك كان ذلك أزين فى العاجل وأحق بالمثوبة فى الآجل وكنت ان أخطأتك الغنيمة لم تخطك السلامة وقد سلم عليك المخالف بقدر ما ابتلى منك الموافق وعلى انه لم يبتل منك الا بقدر ما ألزمته من مؤنة تثقيفك والتشاغل بتقويمك وهل كنت فى ذلك الا كما قال العربى هل يضر السحاب نبح الكلاب والا كما قال الشاعر

هل يضر البحر أمسى زاخرا * ان رمى فيه غلام بحجر

وهل حالنا فى ذلك الا كما قال الشاعر

ما ضر تغلب وائل أهجوتها * أم بلت حيث تناطح البحران

وكما قال حسان بن ثابت

ما أبالى أنبَّ بالحزن تيس * أم لحانى بظهر غيب لئيم

وما أشك انك قد جعلت طول اعراضنا عنك مطية لك ووجهت حلمنا عنك الى الخوف منك وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرحق الصفح فجعل العفو سببا الى سوء القول فان عدت والله الذي فوق عرشه * منحتك مصقول الغرارين أزرقا فان من الجهل ان تضرب الطلى وان تلمس العريض حتى يغرقا وقال الاول

وضغائن داويتها بضغائن * حتى شفيت وبالحقود حقودا

وقال الآخر

وما تعى عنك قوما أنت خائفهم * كمثل رقمك جهالا بجهال

فاقعس اذا حربوا واحرب اذا قعسوا * ووازن الشر مثقالا بمثقال

فانا وان لم يكن عندنا اسنان زفر بن الحارث ولا معارضة هؤلاء الشر بالشر والجهل بالجهل والحقد بالحقد فان عندي ما قال المسعودى

فما تراب الارض منه خلقتما * وفيه المعاد والمصير الى الحشر

ولا تأنفا ان ترجعا فتسلما * فما كسى (١) الافواه شرا من الكبر

فلو شئت أولى فيكما غير واحد * علانية أو قال عندى فى السر (٢)

(١ حشى) (٢) وروى فلو شئت ان أتى عدوا وطاعنا * لالفيته أو قال عندى في السر

فان أنا لم آمر ولم أنه عنكما * ضحكت له كيما يلج ويستشري

وقال النمر بن تولب

جزى الله عني حمزة ابنة نوفل * جزاء مقل بالامانة كاذب

بما خبرت عني الوشاة ليكذبوا * علي وقد أوليتها في النوائب

يقول أخرجت خبرها فخرج من أحب ان يعاب عندها ولو شئت ان نعارضك لعارضناك في القول بما هو أقبح أثرا وأبقي وسما وأصدق قيلا وأعدل شاهدا وليس كل من ترك المعارضة فقد صفح كما انه ليس من عارض فقد انتصر وقد قال الشاعر قولا ان فهمته فقد كفيتنا مؤونة المعارضة وكفيت نفسك لزوم العار وهو قوله

ان كنت لا ترهب ذمي لما * تعرف من صفحي عن الجاهل

فاخش سكوتي اذا أنا منصت * فيك لمسموع خنا القائل

فالسامع الذم شريك له * ومطعم المأكول كالآكل

مقالة السوء الى أهلها * أسرع من منحدر سائل

ومن دعى الناس الى ذمه * ذموه بالحق وبالباطل

فلا تهج ان كنت ذا اربة * حرب أخي التجربة العاقل

فان ذا العقل اذا هجته * هجت به ذا خبل خابل

تبصر في عاجل شداته * عليك غب الضرر الآجل

وقد يقال ان العفو يفسد من اللئيم بقدر اصلاحه من الكريم وقد قال الشاعر

والعفو عند لبيب القوم موعظة * وبعضه لسفيه القوم تدريب

فانا كنا أسأنا في هذا التقريع والتوقيف فالذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن ولا بأدب الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يفزع الى ما في الفطن الصحيحة والى ما توجبه المقاييس المطردة والامثال المضروبة والاشعار السائرة أولى بالاساءة وأحق بالللائمة قال الله عز وجل ولا تزر وازرة وزر أخرى وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام لا تجن يمينك على شمالك وهذا حكم الله تعالى وآداب رسوله والذي انزل به الكتاب ودل

عليه من حجج العقول فأما ماقالوا فى المثل المضروب وقول الشعراء وذم الخطباء لمن أخذ انسانا بذنب غيره وماضربوا فى ذلك من الامثال كقول النابغة حيث يقول فى شعره

﴿ شعر ﴾

وكلفتنى ذنب امرئٍ وتركته * كذي العر يكوى غيره وهو راتع

وكانوا اذا أصاب ابلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم فاسقموا الصحيح من غير ان يبرؤا السقيم وكانوا اذا كثرت ابل أحدهم فبلغت الالف فقئوا عين الفحل فان زادت الابل على الألف فقئوا العين الأخرى وذلك المفقا والمعمى اللذان سمعت فى اشعارهم قال الفرزدق *غلبتك بالمفقأ والمعمى وبيت المحتبي والخافقات* وكانوا يقولون فى موضع الكفارة والامنية كقول الرجل اذا بلغت ابلى كذا وكذا وكذلك غنمى ذبحت عند الاوثان كذا وكذا عتيرة والعتيرة من نسك الرجبية والجمع عتائر والعتائر من الظباء فاذا بلغت ابل أحدهم أوغنمه ذلك العدد استعمل التأويل وقال انما قلت انى أذبح كذا وكذا شاة والظباء شاء كما ان الغنم شاء فيجعل ذلك القربان شاء كله مما يصيد من الظباء فلذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكرى

عنتا باطلا وظلما كما تعـ ـتر عن حجرة الربيض الظباء

بعد ان قال

أم علينا جناح كندة ان يغـ ـنم غازيهم ومنا الجزاء

وكانوا اذا أوردوا البقر فلم تشرب اما لكدر الماء أولقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل وكما تتبع أتن الوحش الحمار فقال فى ذلك عوض بن الجزع

تمنت طيىء جهلا وجبنا * وقد خاليتهم فأبوا خلائي

هجونى ان هجوت جبال سلمي * كضرب الثور للبقر الظماء

وقال فى ذلك أنس بن مدرك فى قتله سليك بن السلكة

انى وقتلى سليكا ثم أعقله * كالثور يضرب لما عافت البقر

انفت للمرء اذ نيكت حليلته * وان يشد على وجعائها الثفر

وقال الهيتان الفقمى

كما ضرب اليعسوب ان عاف باقر * وما ذنبه ان عافت الماء باقر

ولما كان الثور أمير البقر وهى تطيعه كطاعة اناث النحل لليعسوب سماه باسم أمير النحل وكانوا يزعمون ان الجن هي التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب حتى تهلك وقال في ذلك الاعشى

فانى وما كلفتمونى وربكم * لاعلم من أمسى أعق واحربا

لكا لثور والجني يضرب ظهره * وما ذنبه ان عافت الماء مشربا

وماذنبه ان عافت الماء باقر * وما ان تعاف الماء الا ليضربا

كانه قال اذا كان يضرب أبدا لانها عافت الماء فكانها انما عافت الماء ليضرب

وقال يحيي بن منصور الذهلي فى ذلك

لكا لثور والجنى يضرب وجهه * وما ذنبه ان كانت الجن ظالمه

وقال نهشل بن حري

أتترك عارض وبنو عدي * وتغرم دارم وهم براء

كدأب الثور يضرب بالبرارى * اذا ماعافت البقر الظماء

وكيف تكلف الشعرى سهيلا * وبينهما الكواكب والسماء

وقال أبو نويرة بن الحصين حين أخذه الحكم بن أيوب بذنب العطرف

أبا يوسف لو كنت تعلم طاعتي * ونصحى اذ ن هاديتنى بالحلق

ولا ساق سراف العرافة صالح * بنى ولا كلفت ذنب المطرّق

وقال خراش بن زهير حين أخذ بذنب ابن محارب

أكلف قتلى معشر لست منهم * ولا دارهم داري ولا نصرهم نصرى

أكلف قتل العيص عيص شواهط * وذلك أمر لم يكلف له قدرى

﴿ وقال الآخر ﴾

اذا عركت عجل بناذنب طيىء * عركنا بتيم اللات ذنب بنى عجل

ولما وجد اليهودي أبا حنبض الضبابى في منزله فخصاه فمات وأخذ حنبض بنى عبس بجناية اليهودى قال قيس بن زهير أتأخذنا بذنب غيرنا وتسألنا العقل والقاتل يهودي من أهل تيماء فقال والله ان لوقتلته هيف الريح لود يتموه فقال قيس لبنى عبس الموت في بني ذبيان خير من الحياة فى بنى عامر ثم أنشأ يقول

أكلف ذا الخصيين ان كان ظالما * وان كنت مظلوما وان كنت شاطنا

خصاه امرؤ من آل تيماء طائر * ولا يعدم الانسى والجن كائنا

فهلا بني ذبيان أمك هابل * رهنت بهيف الريح ان كنت راهنا

اذا قلت قد أفلت من شر حنبض * أتانى بأخرى شره متباطنا

فقد جعلت اكبادنا تجتويكم * كما تجتوي سوق العضاة الكرازنا

ولما قتل لقمان بن عاد ابنته وهي صحر اخت لقيم قال حين قتلها الست امرأة وذلك انه قد كان تزوج عدة نساء كلهن خنه فى أنفسهن فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل كان أول من تلقاه صحر ابنته فوثب عليها فقتلها وقال وأنت أيضا امرأة وكان قد ابتلى بأن أخته كانت محمقة وكذلك كان زوجها فقالت لاحدى نساء لقمان هذه ليلة طهري وهي ليلتك فدعيني أنام فى مضجعك فان لقمان رجل منجب فعسى ان يقع علي فانجب فوقع على أخته فحملت بلقيم فهو قول النمر بن تولب

لقيم بن لقمان من أخته * فكان ابن أخت له وابنما

ليالى حمق فاستحصنت * عليه فغربه مظلما

فأحبلها رجل محكم(٢) * فجاءت به رجلا محكما

فضربت العرب فى ذلك المثل بقتل لقمان ابنته صحرا فقال خفاف بن ندبة فى ذلك وعياش يدب لى المنايا * وما أذنبت الا ذنب صحر

وقال فى ذلك ابن أذينة

(٢) وروي تائه

أتجمع تهياما بليلى اذا نأت * وهجرانها ظلما كما ظلمت صحر

وقال الحارث بن عباد

قربا مربط النعامة منى * لقحت حرب وائل عن حيال

لم أكن من جناتها علم الله * وانى بحرها اليوم صال

وقال الشاعر وأظنه ابن المقفع

فلاتلم المرء فى شأنه * فرب ملوم ولم يذنب

﴿ وقال آخر ﴾

لعل له عذرا وأنت تلوم * وكم لائم قد لام وهو مليم

وقال بعض العرب فى قتل بعض الملوك لسنمار الرومى فانه لما علا الخورنق ورأى بنيانا لم يرمثله ورأى فى ذلك المستشرف وخاف ان هو استبقاه ان يموت فيبنى مثل ذلك البنيان لرجل آخر من الملوك رمى به من فوق القصر فقال فى ذلك الكلبي فى شيء كان بينه وبين بعض الملوك

جزانى جزاه الله شر جزائه * جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

سوى رصه البنيان سبعين حجة * يعلى عليه بالقراميد والسكب

فلما رأى البنيان تم سحوقه * وآض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب

وظن سنمار به كل حبوة * وفاز لديه بالمودة والقرب

فقال اقذفوا بالعلج من رأس شاهق * فذاك لعمر الله من أعظم الخطب

وجاء المسلمون يروى خلف عن سلف وتابع عن سابق وآخر عن أول انهم لم يختلفوا فى عيب قول زياد لآخذن الولى بالولي والسمى بالسمي والجار بالجار ولم يختلفوا فى لعن شاعرهم حيث يقول

اذا أخذ البريء بغير ذنب * تجنب مايحاذره السقيم

قال وقيل لعمرو بن عبيد ان فلانا لما قدم رجلا ليضرب عنقه فقيل له انه مجنون فقال لولا ان المجنون يلد عاقلا لخليت سبيله قال فقال عمر وماخلق الله النار

الا بالحق ولما قاتلت التغلبية للجحاف فى وقعة البشر فض الله فاك وأعماك وأطال سهادك وأقل رقادك فوالله ن قتلت الا نساء اعاليهن ثدى واسافلهن دمى فقال لمن حوله لولا ان تلد هذه مثلها لخليت سبيلها فبلغ ذلك الحسن فقال إما الجحاف فجذوة من نار جهنم قال وذم رجل عند الاحنف بن قيس الكماة بالسمن فقال عند ذلك الاحنف رب مذموم لاذنب له فبهذه السيرة سرت فينا وما أحسن ماقال سعيد بن عبد الرحمن

وان امرء أمسى وأصبح سالما * من الناس الاماجنى لسعيد

وقلت وما بال أهل العلم والنظر وأصحاب الفكر والعبر وأرباب النحل والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل وورثة الانبياء وأعوان الخلفاء يكتبون كتب الظرفاء والملحاء وكتب الفراغ والخلعاء وكتب الملاهى والفكاهات وكتب أصحاب الخصومات وكتب أصحاب المراء وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية لانهم لايحاسبون أنفسهم ولايوازنون بين ماعليهم ولهم ولايخافون تصفح العلماء ولائمة الادباء وشنف الاكفاء وشناة الجلساء فهلا أمسكت يرحمك الله عن عيبها والطعن عليها وعن المشورة والموعظة وعن تخويف مافى سوء العاقبة الى ان تبلغ حال العلماء ومراتب الاكفاء فاما كتابنا هذا فسنذكر جملة المذاهب فيه وسنأتى على التفسير ولعل رأيك عند ذلك ان يتحول وقولك ان يتبدل فتثبت أوتكون قد أخذت من التوقف بنصيب وأقول ان العالم بمافيه من الاجسام على ثلاثة انحاء متفق ومختلف ومتضاد وكلها فى جملة القول جماد ونام وكان حقيقة القول فى الاجسام من هذه القسمة ان يقال نام وغير نام ولوان الحكماء وضعوا لكل ماليس بنام اسما كما وضعوا للنامى اسما لاتبعنا أثرهم وانما ننتهى الى حيث انتهوا وماأكثر ماتكون دلالة قولهم جماد كدلالة قولهم موات وقد يفترقان فى مواضع بعض الافتراق واذاخرجت من العالم الافلاك والبروج والنجوم والشمس والقمر وجدتها غير نامية ولم تجدهم يسمون شيأ منها بجماد ولا موات وليس لانها تتحرك من تلقاء انفسها لم تسم مواتا ولاجمادا وناس يجعلونها مدبرة وناس غير مدبرة ويجعلونها مسخرة وغير مسخرة ويجعلونها احياء من الحيوان

اذ كان الحيوان انما يحي باحيائها له وبما تعطيه وتعيره وانما هـذا منهم رأى والامم فى هذا كله على خلافهم ونحن فى هذا الموضع انما نعبر عن لغتنا وليس فى لغتنا الاماذكرنا والناس يسمون الارض جمادا وربما يجعلونها مواتا اذا كانت لم تنبت قديما وهى موات الارض وذلك كقولهم من أحيا أرضا مواتا فهي له وهم لا يجعلون الماء والنار والهواء جمادا ولا مواتا ولا يسمونها حيوانا مادامت كذلك وان كانت لا تضاف الى النماء والحس والارض هى أحـد الاركان الاربعة التى هى الماء والارض والهواء والنار والاسمان لا يتعاوران عنـدهم الا الارض ثم النامى على قسمين حيوان ونبات والحيوان على أربعة أقسام شيء يمشى وشيء يطير وشيء يسبح وشيء ينساح الا ان كل طائر يمشى وليس الذى يمشى ولا يطير يسمي طائرا والنوع الذي يمشى على أربعة أقسام ناس وبهائم وسباع وحشرات على ان الحشرات راجعة فى المعني الى مشاكلة طباع البهائم والسباع الا اننا فى هذا كله نتبع الاسماء الفارقة المعروفة البائنات بانفسها المتميزات عنـد سامعيها من أهل هذه اللغة وأصحاب هذا اللسان وانما نفرد ماأفردوا ونجمع ماجمعوا والطير كل سبع وبهيمة وهمج والسباع من الطير على ضربين فمنها العتاق والاحرار والجوارح ومنها البغاث وهو كل ماعظم من الطـير سبعا كان أو بهيمة اذا لم يكن من ذوات السلاح والمخالب المعقفة كالنسور والرخم والغربان وماأشبهها من لئام السباع ثم الخشاش وهو مالطف جرمه وصـغر شخصه وكان عديم السلاح كالزرق واليؤيؤ والبادنجار فاما الهمج فليس من الطـير ولكنه ممـا يطير والهمج فيما يطير كالحشرات فيما يمشى والحيات من الحشرات وأي سـبع أدخـل فى معنى السبعية من الافاعى والثعابين ولكن ليس ذلك من أسمائها وان كانت من ذوات الانياب وأكالة اللحوم وأعـداء الانس وجميع البهائم ولذلك تأكلها الاوغال والخنازير والقنافذ والغربان والشاهمرك والسنانير وغير ذلك من البهائم والسباع فمن جعل الحيات سباعا وسماها بذلك عنـد بعض القول والسبب فقد أصاب ومن جعل ذلك لها كالاسم الذى هو العلامة كالكلب والذئب والاسد فقد أخطأ ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه

المخالب كالعقاب وما أشبهها وشيء يكون سلاحه المناقير كالنسور والرخم والغربان وانما جعلناها سباعا لانها أكالة لحوم ومن بهائم الطير ما يكون سلاحه المناقير كالكراكي وما أشبهها ومنه مايكون سلاحه الاسنان كالبوم والوطواط وما أشبهها ومنه مايكون سلاحه الصياصى كالديكة ومنه مايكون سلاحه السلاح كالجاري والثعاب والسبع من الطير ماأكل اللحم خالصا والبهيمة ماأكلت الحب خالصا وفى الفن الذي يجمعها من الخلق المركب والطبع المشترك كلام سنأتى عليه فى موضعه ان شاء الله تعالى والمشترك عندهم كالعصفور فانه ليس بذي مخلب معقف ولا منسر وهو يلقط الحب وهو مع هذا يصيد النحل اذا طار ويصيد الجراد ويأكل اللحم ولا يزق فراخه كما تزق الحمام بل يلقمها كما تلقم السباع من الطير فراخها واشباه العصافير من المشترك كثير وسنذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى وليس كل ماطار بجناحين فهو من الطير قد يطير الجعلان والجعل واليعاسيب والذباب والزنابير والجراد والنمل والفراش والبعوض والارضة والنحل وغير ذلك ولا يسمى بالطير وقد يقال ذلك لها عند الذكر والسبب وقد يسمون الدجاج طيرا ولا يسمون بذلك الجراد والجراد طير والمثل المضروب به أشهر والملائكة تطير ولها أجنحة وليست من الطير وجعفر بن أبى طالب ذو جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء وليس جعفر من الطير واسم طائر يقع على ثلاثة أشياء صورة وطبيعة وجناح وليس بالريش والقوادم والاباهر والخوافى يسمى طائرا ولا بعدمه ليسقط ذلك عنه الاترى ان الخفاش والوطواط من الطير وان كانا أمرطين ليس لهما ريش ولا زغب ولا شكير ولا قصب وهما مشهوران بالحمل والولادة وبالرضاع وبظهور حجم الاذان وبكثرة الاسنان والنعامة ذات ريش ومنقار وبيض وجناحين وليست من الطير وليس أيضا كل عائم سمكة وان كان مناسبا للسمك فى كثير من معانيه ألا ترى ان في الماء كلب الماء وعنز الماء وخنزير الماء وفيه الرق والسلحفاة وفيه الضفدع وفيه السرطان والتبتل والتمساح والدخس والدلفين واللخم والبلبل وغير ذلك من الاصناف والكوسج والد اللخم وليس للكوسج اب يعرف

وعامـة ذا يعيش فى الماء ويبيت خارجا من الماء ويبيض فى الشط ويبيض بيضا له صفرة وقيض وغرقىء وهو مع ذلك مما يكون فى الماء مع السمك ثم لا يخرج الحيوان بعد ذلك فى لغـة العرب من فصيح وأعجم كذلك يقال فى الجملة كما يقال الصامت لما لا يصنع صمتا قط ولا يجوز عليـه خلافه والناطق لما لم يتكلم قط فيحملون مايرغو ويثغو وينهق ويصـهل ويشحج ويخور ويبغم ويعوي وينبح ويزقو ويضغو ويهدر ويصفر ويصوصى ويقوقى وينعب ويزأر ويترب ويكش ويعج وعلى نطـق الانسان اذا جمع بعضه على بعض ولذلك أشـباه كالذكور والاناث اذا اجتمعتا وكالعير التى تسمى لطيمة وكالظعن فان هذه الاشياء اذا وجد بعضها الى بعض أو أخذ بعضها من بعض سميت بانبه النوعين ذكرا وباقواهما والفصيح هو الانسان والأعجم كل ذي صوت لا يفهم ارادته الا ما كان من جنسـه ولعمري ان التعميم عن الفرس والحمار والكلب والسنور والبعير كثيرا من ارادته وحوائجه وقصوره كما نفهم ارادة الصبي فى مهده ونفهمه وهو من جليل العلم ان بكاءه يدل على خلاف مايدل عليـه ضحكه ومن حمحمة الفرس عند رؤية الفحل على خلاف مايدل عليه حمحمته عند رؤية الحجر ودعاء الهرة الهر خلاف دعائها لولدها وهذا كثير والانسان فصيح وان عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية وليس العربى اسوء فهما لطمطمة الرومى لبيان لسان العربى فكل انسان من هـذا الوجه يقال له فصيح فاذا قالوا فصيح واعجم فهذا هو التأويل فى قولهم اعجم واذا قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح واعجم فليس هذا المعنى يريدون انما يعنون انه لا يتكلم بالعربية وان العرب لا تفهم عنـه وقال كثير

فبورك ما اعطى ابن ليلى بنية * وصامت ماأعطى ابن ليلى وناطقه

ويقال جاء بما ضأى وصمت فالصامت مثل الذهب والفضة وقوله ضأى يعنى الحيوان كله ومعناه نطق وسكت فالصامت فى كل شىء سوي الحيوان ووجـدنا كون العالم بما فيه حكمة ووجدنا الحـكمة على ضربين شىء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحـكمة وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبـة الحـكمة

فاستوي بذاك الشيىء العاقل وغير العاقل فى جهة الدلالة على انه حكمة واختلفا من جهة ان أحدهما دليل لايستدل والآخر دليل يستدل فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدلا فشارك كل حيوان سوى الانسان جميع الجماد فى الدلالة وفي عدم الاستدلال وسموا ذلك بيانا واجتمع للانسان بان كان دليلا مستدلا ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوه استدلاله ووجوه ما نتج له الاستدلال وسموا ذلك بيانا وجعل البيان على أربعة أقسام لفظ وخط وعقد واشارة وجعل بيان الدليل الذى لايستدل تمكينه المستدل من نفسه واقتياده فكل فكر فيه الى معرفة مااستخزن من البرهان وحتى من الدلالة واودع من عجيب الحكمة فالاجسام الخرس الصامتة ناطقة من جهة الدلالة ومعربة من جهة صحة الشهادة على ان الذي فيها من التدبير والحكمة مخبر لمن استخبره وناطق لمن استنطقه كما خبر الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال وكما ينطق السمن وحسن النضرة عن حسن الحال وقد قال الشاعر

فعاجوا فاثنوا بالذي انت اهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

﴿وقال آخر﴾

متى تك فى عدوا وصديق * تخبرك العيون عن القلوب

وقد قال العكلى فى صدق شم الذئب وفى شدة حسه واسترواحه

يستخبر الريح اذا لم يسمع * بمثل مقراع الصفا الموقع

وقال عنترة وهو يصف نعيب غراب

خرق الجناح كان لحيي رأسه * جلمان بالاخبار هش مولع

وقال الفضل بن عيسى بن ابان فى قصصه

سل الارض فقل من شق انهارك * وغرس اشجارك وجنى ثمارك

فان لم تجبك حوارا اجابتك اعتبارا فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه وداعية اليه ومهيمنة عليه فالجماد الابكم الاخرس من هذا الوجه قد شارك فى البيان الانسان الحى الناطق فمن جعل اقسام البيان خمسة فقد ذهب أيضا مذهبا له جواز

فى اللغة وشاهد فى العقل فهذا احد قسمى الحكمة واحد معني ما استخزنهما الله تعالى من الوديعة والقسمة الاخرى ماأودع صدورصنوف سائر الحيوان من ضروب المعارف وفطرها عليه من غريب الهدايات وسخر حناجرهاله من ضرب النغم الموزونة والاصوات الملحنة والمخارج الشجية والأغاني المطربة فقد يقال ان جميع اصواتها معدلة وموزونة موقعة ثم الذى سهل لها من الرفق العجيب فى الصنعة مما ذلله الله تعالى لمناقيرها واكفها وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ماهيأ لها من الآلة وكيف اعطى كثيرا منها من الحس اللطيف والصنعة البديعة من غير تأديب وتثقيف ومن غير تقويم وتلقين وعن غير تدريج وتمرين فبلغت بعفوها وبمقدار قوي فطرتها من البديهة والارتجال ومن الابتداء والاقتضاب مالايقدر عليه حذاق رجال الرأى وفلاسفة علماء البشر بيد ولاآلة بل لايبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا وأتمهم خلالا لامن جهة الاقتضاب والارتجال ولامن جهة التعسف والاقتدار ولامن جهة التقدم فيه والتأنى فيه والتأتى له والترتيب لمقدماته وتمكين الاسباب المعينة عليه فصار جهلة الانسان الثاقب الحس الجامع القوى المتصرف فى الوجوه المقدم في الامور يعجز عن عفو كثير منها وهو ينظر الى ضروب مايجىء منها كما أعطيت العنكبوت وكما أعطيت السرفة وكما علم النحل بل وعرف التنوط من بديع المعرفة ومن غريب الصنعة فى غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجدهم العجز فى أنفسهم في أكثر ذلك الا بما قوى عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات ليعلم الانسان ان ذا العقل والتمكين والاستطاعة والتصريف وذا التكلف والتجربة وذا التأنى والمنافسة وصاحب الفهم والسابقة والمتبصر شان العاقبة متى أحسن شيأ كان كل شيء دونه فى الغموض عليه أسهل وجعل سائر الحيوان وان كان يحسن أحدها مالايحسن أحذق الناس متى احسن شيأ عجيبا لم يمكنه ان يحسن ماهو أقرب منه فى الظن واسهل منه فى الرأى بل لايحسن ما هو أقرب منه فى الحقيقة فلا الانسان جعل نفسه كذلك ولاشيء من الحيوان اختار ذلك فاحسنت هذه الاجناس بلا تعلم مايمتنع

على الانسان وان تعلم فصار لايحاوله اذ كان لايطمع فيه ولايحسدها اذلايؤمل للحاق بهاثم جعل تعالى وعز هاتين الحكمتين بازاء عيون الناظرين وتجاه اسماع المعتبرين ثم حث على التفكير والاعتبار وعلى الاتعاظ والازدجار وعلى التعرف والتبين وعلى التوقف والتذكر فجعلها مذكرة منبهة وجعل الفكر ينشيء الخواطر وتجول بأهلها فى المذاهب ذلك الله رب العالمين فتبارك الله أحسن الخالقين وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه وأراك قد عبته قبل ان تقف على حدوده وتتفكر فى فصوله وتتفكر آخره بأوله ومصادره بموارده وقد غلطك فيه بعض مارأيت من مزح لم تعرف معناه ومن بطالة لم تطلع على غورها ولم تدر لم اجتلبت ولالأى علة تكلفت وأي شيء أريغ بها ولأى جد احتمل ذلك الهزل ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة ولم تدر ان المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد وان البطالة وقار ورزانة اذا تكلفت لتلك العاقبة ولما قال الخليل بن احمد لا يصل احد من علم النحو الى مايحتاج اليه حتي يتعلم مالا يحتاج اليه قال ابو شمر اذا كان لايتوصل الى مايحتاج اليه الابما لايحتاج اليه فقد صار مالايحتاج اليه يحتاج اليه وذلك مثل كتابنا هذا لانه ان حملنا جميع من يتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق وصعوبة الجد وثقل المؤونة وحلية الوقار لم يصبر عليه مع طوله الامن تجرد للعلم وفهم معناه وذاق من ثمرته واستشعر قلبه من عزه ونال سروره على حسب مايورث الطول من الكد والكثرة من السآمة وما أكثر من يقاد الى حظه بالزواجر وبالسوق العنيف وبالاخافة الشديدة ثم لم ارك رضيت بالطعن على كل كتاب لى بعينه حتى تجاوزت ذلك الى ان عبت وضع الكتب كيف مادارت بها الحال و كيف تصرف بها الوجوه وقد كنت اعجب من عيبك البعض بلا علم حتى عبت الكل بلا علم ثم تجاوزت ذلك الى التشنيع ثم تجاوزت ذلك الى نصب الحرب فعبت الكتاب ونعم الذخر والعقدة هو ونعم الجليس والعدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل والكتاب وعاء

ملىء علما وظرف حشى ظرفا واناء شحن مزاحا وجدا ان شئت كان أبين من سحبان وائل وان شئت كان أعيا من باقل وان شئت ضحكت من نوادره وان شئت عجبت من غرائب فرائده وان شئت الهتك طرائفه وان شئت أشجتك مواعظه ومن لك بواعظ مله وبزاجر مغر وبناسك فاتك وبناطق أخرس وببارد حار وفى البارد الحار يقول الحسن بن هانى

قل لزهير اذا انتحى لشدا * أقلل أو أكثر فانت مهدار
سخنت من شدة البرودة حتى * صرت عندى كانك النار
لا يعجب السامعون من صفتى * كذلك الثلج بارد حار

ومن لك بطبيب اعرابى ومن لك برومى هندى وبفارس يونانى وبقديم مولد وبميت ممتنع ومن لك بشىء يجمع لك الاول والآخر والناقص والوافر والخفى والظاهر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده (وبعد) فمتى رأيت بستانا يحمل فى ردن وروضة تقلب فى حجر وناطقا ينطق عن الموتي ويترجم عن الاحياء ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى آمن من الارض واكتم للسر من صاحب السر واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة واحفظ لما استحفظ من الآدميين ومن الاعراب المتعربين بل من الصبيان قبل اعتراض الاشتغال ومن العميان قبل التمتع بتمييز الاشخاص حين العناية تامة لم تنقص والاذهان فارغة لم تنقسم والارادة وافرة لم تتشعب والطينة لينة فهى أقبل ماتكون للطبايع والقضيب رطب فهو أقرب مايكون من العلوق حين هذه الخصال لم يخلق جديدها ولم يوهن غربها ولم تتفرق قواها وكانت كما قال الشاعر

أتانى هواها قبل ان أعرف الهوي * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وقال نميرة بن الطبيب

لا تأمنوا قوما يشب صبيهم * بين القوابل بالعداوة ينشع

ومن كلامهم التعلم فى الصغر كالنقش فى الحجر وقد قال جران العود

كوحى فى الحجارة أو وشـوم * بأيدي الروم باقيـة النؤور

وقال آخر وهو صالح بن عبد القدوس

وان من أدبته فى الصبى * كالعود يسقي الماءفى غرسه

حتى تراه مورقا ناضرا * بعد الذى قد كان في يبسه

﴿ وقال آخر ﴾

يقوم من ميل الغلام المؤدب * ولا ينفع التأديب والرأس أشيب

﴿وقال آخر ﴾

وتلوم عرسك بعدماهرمت * ومن العناء رياضة الهرم

وقد قال ذو الرومـة لعيسى بن عمـرا كتب شـعري فالـكتاب أحب الى من الحفظ لان الاعرابى ينسى الكلمةقد سهرفى طلبها ليلته فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لاينسى ولا يبدل كلاما بكلام وعبت الكتاب ولاأعلم جارا أبر ولاخليطا أنصف ولا رفيقا أطوع ولامعلما أخضع ولا صاحبا أظهر كفاية ولاأقل جناية ولا أقل املالا وابراما ولااحفل أخلاقا ولاأقـل خلافا واجراما ولاأقل غيبة ولا أبعد من عضيهة ولاأكثر اعجوبة وتصرفا ولا أقل تصلفا وتكلفا ولا أبعد من مراء ولاأترك لشغب ولا أزهد فى جدال ولا أكف عن قتال من كتاب ولا أعلم قرينا أحسن موافاة ولا أعجل مكافأة ولا أحضر معونة ولا أخف مؤونة ولاشجرة أطول عمرا ولا أجمع أمرا ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مجتني ولاأسرع ادراكاولاأوجد فى كل ابان من كتاب ولا أعلم نتاجا فى حـد ثة سـنه وقرب ميلاده ورخص ثمنـه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والأمثال السائرة والامم البائدة مايجمع لك الكتاب قال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم فوصف نفسه تبارك وتعـالى بان علـم بالقـلم كما وصـف

نفسه بالكرم واعتد بذلك في نعمه العظام وفى اياديه الجسام وقد قالوا القلم أحد اللسانين وقالوا كل من عرف النعمة فى بيان اللسان كان بفضل النعمة فى بيان القلم اعرف ثم جعل هذا الامر قرآنا ثم جعله فى اول التنزيل ومستفتح الكتاب ثم اعلم رحمك الله تعالى ان حاجة بعض الناس الى بعض صفة لازمة فى طبائعهم وخلقة قائمة فى جواهرهم وثابتة لاتزايلهم ومحيطة بجماعتهم ومشتملة على ادناهم واقصاهم وحاجتهم الى ماغاب عنهم مما يعيشهم ويحييهم ويمسك بارماقهم ويصلح بالهم ويجمع شملهم والى التعاون في درك ذلك والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون على معرفة مايضرهم والتوازر على مايحتاجون من الارتفاق بأمورهم التى لم تغب عنهم فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد لاحتياج الادنى الي معرفة الاقصى واحتياج الاقصى الى معرفة الادني معان متضمنة واسباب متصلة وحبال منعقدة وجعل حاجتنا الى معرفة اخبار من كان قبلنا كحاجة من يكون بعدنا الى اخبارنا ولذلك تقدمت فى كتب الله تعالى البشارات بالرسل ولم يسخر لهم جميع خلقه الا وهم يحتاجون الي الارتفاق بجميع خلقه وجعل الحاجه حاجتين احداهما قوام وقوت والاخرى لذة وامتناع وازدياد فى الآلة وفى كل ما اجذل النفوس وجمع لهم المعتاد وذلك المقدار من جميع المصنفين وفق لكثرة حاجاتهم وشهواتهم وعلى قدر اتساع معرفتهم وبعد غورهم وعلى قدر اعتمار طبع البشرية وفطرة الانسانية ثم لم يقطع الزيادة الا لعجز خلقهم عن احتمالها ولم يجزان يفرق بينهم وبين العجز الا بعدم الاعيان اذا كان العجز صفة من صفات الخلق ونعتا من نعوت العبيد لم يخلق الله تعالى احدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له فادناهم مسخر لاقصاهم واجلهم ميسر لادقهم وعلى ذلك احوج الملوك الى السوقة فى باب واحوج السوقة الى الملوك فى باب وكذلك الغنى والفقير والعبد وسيده ثم جعل الله تعالى كل شي للانسان خولا وفى يده مدد الاميسر امابالاحتيال له والتلطف فى اراغته واستمالته واما بالصولة عليه والفتك به واما ان ياتيه سهوا ورهوا على ان الانسان لولا حاجته اليها لما احتال لها ولا صال

عليها الا ان الحاجة تفترق فى الجنس والجهة والجبلة وفى الحظ والتقدير ثم تعبد الانسان بالتفكر فيها والنظر في امورها والاعتبار بمايري ووصل بين عقولهم وبين معرفة تلك الحكم الشريفة وتلك الحاجات اللازمة بالنظر والتفكير والتنقب والتنقير والتشبت والتوقف ووصل معارفهم بمواقع حاجاتهم اليها وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان عنها وهو البيان الذي جعله الله تعالى سببا فيما بينهم ومعبرا عن حقائق حاجاتهم ومعرفا المواضع سد الخلة ورفع الشبهة ومداواة الحيرة ولان اكثر الناس عن الناس افهم منهم عن الاشباح الماثلة والاجسام الجامدة والاجرام الساكنة التى لايتعرف مافيها من رقائق الحكمة وكنوز الاداب وينابيع العلم الا بالعقل الثاقب اللطيف وبالنظر التام النافذ وبالاداة الكاملة وبالاسباب الوافرة والصبر على مكروه الفكر والاحتراس من وجوه الخدع والتحفظ من دواعى الهوي ولان الشكل افهم عن شكله واسكن اليه واصب به وذلك موجود فى أجناس البهائم وضروب السباع والصبى عن الصبي افهم له وله آلف واليه انزع وكذلك العالم والعالم والجاهل والجاهل وقال الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا لان الانسان عن الانسان افهم وطباعه بطباعه آنس وعلى قدر ذلك يكون موقع مايسمع منه ثم لم يرض لهم من البيان بصنف واحد بل جمع ذلك ولم يفرق وكثر ولم يقلل واظهر ولم يخف وجعل آلة البيان التى بها يتعارفون معانيهم والترجمان الذي اليه يرجعون عند اختلافهم فى أربعة أشياء وفى خصلة خامسة وان نقصت عن بلوغ هذه الاربعة فى جهاتها فقد تبدل بجنسها الذى وضعت له وصرفت اليه وهذه الخصال هي اللفظ والخط والاشارة والعقد والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة وصدق الشهادة ووضوح البرهان فى الاجرام الجامدة والصامتة والساكنة التى لاتتبين ولاتحس ولاتفهم ولا تتحرك الا بداخل يدخل عليها أو عند ممسك خلى عنها بعد كان تقييده لها ثم قسم الاقسام ورتب المحسوسات وحصل الموجودات فجعل اللفظ للسامع وجعل الاشارة للناظر واشرك الناظر واللامس فى معرفة العقد الا بما فضل الله به

نصيب الناظر فى ذلك على قدر نصيب اللامس وجعل الخط دليلا على ماغاب من حوائجه عنه وسببا موصولا بينه وبين اعوانه وجعله خازنا لما لا يامن نسيانه مما قد أحصاه وحفظه واتقنه وجمعه وتكلف الاحاطة به ولم يجعل للشام ولذائق نصيبا ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير البسيط ولبطلت معرفة التضاعيف ولعدموا الاحاطة بالباوارات وباوارات الباوارات ولو ادكروا ذلك لما ادكروه الا بعد تغلظ المؤونة وتنتقض المنة ولصاروا فى حال معجزة وحسور والى حال مضيعة وكلال حد مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الدلالة لكان أربح لهم وارد عليهم ان يصرف ذلك الشغل فى أبواب منافع الدين والدنيا ونفع الحساب معلوم والخلة فى موضع فقده معروفة قال الله تعالى الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان ثم قال والشمس والقمر بحسبان وبالبيان عرف الناس القرآن وقال الله تبارك وتعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب فاجرى الحساب مجرى البيان بالقرآن وبحسبان منازل القمر عرفنا حالات المد والجزر وكيف تكون الزيادة في الاهلة وانصاف الشهور وكيف يكون النقصان فى خلال ذلك وكيف تلك المراتب وتلك الاقدار ولولا الكتب المدونة والاخبار المخلدة والحكم المخطوطة التى تحصن الحساب وغير الحساب لبطل أكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ولما كان للناس مفزع الى موضع استذكار ولو تم ذلك لحرمنا أكثر النفع اذ كنا قد علمنا ان مقدار حفظ الناس لعواجل حاجاتهم وأواثلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ولا يغني فيه غنا محمودا ولو كلف عامة من يطلب العلم ويصطنع الكتب الا يزال حافظا لفهرسة كتبه لاعجزه ذلك ولكلف شططا ولشغله ذلك عن كثير مماهو أولى به وفهمك لمعانى كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهم عين الصوت مجردا وابعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك والمعاون لك ما كان صياحا صرفا وصوتا مصمتا ونداء خالصا ولا يكون ذلك الا وهو بعيد من المفاهمة وعطل من الدلالة فجعل اللفظ لاقرب الحاجات والصوت لانفس من ذلك قليلا والكتاب للنازح من الحاجات

فاما الاشارة فاقرب المفهوم منها رفع الحواجب وكسر الاجفان ولى الشفاه وتحريك الاعناق وقبض جلدة الوجه وأبعدها ان تلوي بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظر ثم ينقطع عملها ويدرس أثرها ويموت ذكرها ويصير بعد كل شيء فضل عن انتهاء مدي الصوت ومنتهي الطرف الى الحاجة والى التفاهم بالخطوط والكتب فاى نفع أعظم وأي مرفق أعون من الخط والحال فيه كماذكرناوليس للعقد حظ الاشارة فى بعد الغاية فلذلك وضع الله عز وجل القلم فى المكان الرفيع ونوه بذكره فى المنصب الشريف حين قال « ن » والقلم ومايسطرون فاقسم بالقلم كما أقسم بما يخط بالقلم اذ كان اللسان لايتعاطى شأوه ولايشق غباره ولايجرى فى حلبته ولايتكلف غايته لكن لما ان كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم فى سائر الاماكن وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجة دائمة واكدة وراهنة ثابتة وكانت الحاجة الى بيان القلم أمرا يكون فى الغيبة وعند النائبة الا ماخصت به الدواوين فان لسان القلم هناك أبسط وأثره أعم فلذلك قدموا اللسان على القلم فاللسان الآن انما هو فى منافع اليد والمرافق التي فيها والحاجات التى تبلغها فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الاشارة ثم نصبها فى تقويم القلم ثم خطها فى التصوير ثم خطها فى الصناعات ثم خطها فى العقد ثم خطها فى الدفع عن النفس ثم خطها فى ايصال الطعام والشراب الى الفم ثم التوضؤ والتمسح ثم انتقاد الدنانير والدراهم ولبس الثياب وفي الدفع عن النفس أصناف الرمى وأصناف الضرب وأصناف الطعن ثم النقر بالعود وتحريك الوتر ولولا ذلك لبطل الضرب كله أوعامته وكيف لايكون ذلك كذلك ولها ضرب الطبل والدف وتحريك الصفاقتين وتحريك مخارق خروق المزامير ومافي ذلك من الاطلاق والحبس ولولم يكن فى اليد الا امساك العنان والزمام والخطام لكان من أعظم الحظوظ وقد اضطربوا فى الحكم بين العقد والاشارة ولولا ان مغزانا فى هذا الكتاب سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أحب ان يعرفه اخواننا وخلطاؤنا فلا ينبغى لنا أيضا ان نأخذ فى هذا الباب من الكلام الا بعد الفراغ مما هو أولى بنا منه اذ كنت

لم تنازعني ولم تعب كتبي من طريق فضل ما بين العقد والاشارة ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما وانما قصدنا بكلامنا الى الاخبار عن فضيلة الكتاب والكتاب هو الذي يؤدي الى الناس كتب الدين وحساب الدواوين مع خفة نقله وصغر حجمه صامت ما أسكته وبليغ ما استنطقته ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك ويدعوك في أوقات نشاطك ولا يحوجك الى التجمل له والتذمم منه ومن لك بزائر ان شئت جعل زيارته غبا ووروده خمسا وان شئت لزمك لزوم ظلك وكان منك مكان بعضك والقلم مكتف بنفسه لا يحتاج الى ما عند غيره ولابد لبيان اللسان من أمور منها اشارة اليد ولولا الاشارة لما فهموا عن خاص الخاص اذا كان أخص الخاص قد يدخل في باب العام الا انه أدنى طبقاته وليس يكتفي خاص باللفظ عما أداه كما اكتفى عام العام والطبقات التي بينه وبين أخص الخاص والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يغريك والرفيق الذي لا يملك والمستميح الذي لا يشتريك والجار الذي لا يستبطيك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ولا يحتال لك بالكذب والكتاب هو الذي ان نظرت فيه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بنانك وفخم ألفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك وعرفت به في شهر مالا تعرفه من أفواه الرجال في دهر مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقا وأكرم منه عرقا ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الاغبياء والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر ولا يعتل بنوم ولا يعتريه كلال السهر وهو المعلم الذي ان افتقرت اليه لم يخفرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة وان عزلت لم يدع طاعتك وان هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك ومتى كنت منه متعلقا بسبب أو معتصما بأدنى حبل كان لك فيه غنى من غيره ولم يضطرك وحشة الوحدة الى جليس السوء ولو لم يكن من فضله

عليك واحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة بك مع مافى ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر ومن عادة الحرص ومن ملابسة صغار الناس وحضور ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة وأخلاقهم الردية وجهالاتهم المذمومة لكان فى ذلك السلامة ثم الغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن فى ذلك الا انه يشغلك عن سخف المنى وعن اعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما أشبه اللعب لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنة وقد علمنا ان أفضل ما يقطع به الفراغ نهارهم وأصحاب الفكاهات ساعات ليلهم الكتاب وهو الشيء الذى لا يرى لهم فيه مع النيل أثر فى ازدياد تجربة ولا عقل ولا مروءة ولا فى صون عرض ولا فى اصلاح دين ولا فى تثمير مال ولا فى رب صنيعة ولا فى ابتداء انعام وقال أبو عبيدة قال المهلب لبنيه في وصيته يابني لا تقوموا فى الاسواق الا على زرّادا وورّاق وحدثنى صديق لى قال قرأت على شيخ شامى كتابا فيه من مآثر غطفان فقال ذهب المكارم الا من الكتب وسمعت أبا الحسن اللؤلؤى يقول غبرت أربعين عاما ما قلت ولا بت الا والكتاب موضوع على صدرى وقال ابن الجهم اذا غشيني النعاس فى غير وقت نوم وبئس الشيء النوم الفاصل عن الحاجة قال فاذا اعترانى ذلك تناولت كتابا من كتب الحكم فأجد اهتزازي للفوائد والاريحة التى تعتريني عند الظفر ببعض الحاجة والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعز التبين أشد ايقاظا من نهيق الحمير وهدة الهدم وقال ابن الجهم اذا استحسنت الكتاب واستجدته ورجوت منه الفائدة ورأيت ذلك فيه فلو ترانى وأنا ساعة بعد ساعة أنظر كم بقى من ورقه مخافة استنفاده وانقطاع المادة من قلبه وان كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق كثير المدد فقد تم عيشى وكمل سروري وذكر العتبى كتابا لبعض القدماء فقال لولا طوله وكثرة ورقه لنسخته فقال ابن الجهم لكنى ما رغبنى فيه الا الذى زهدك فيه وما قرأت قط كتابا كبيرا فأخلاني من فائدة وما أحصى كم قرأت من صغار الكتب فخرجت منها كما دخلت وقال العتبي ذات يوم لابن

الجهم ألا تتعجب من فلان نظر في كتاب الاقليدس مع جارية سلموية فى يوم واحد وساعة واحدة فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة على انه حر مخير وتلك أمة مقصورة وهو أحرص على قراءة الكتاب من سلموية على تعاليم جارية قال ابن الجهم قد كنت أظن انه لم يفهم منه شكلا واحدا وأراك تزعم انه قد فرغ من مقاله قال العتبي وكيف ظننت به هذا الظن وهو رجل ذو لسان وأدب قال لانى سمعته يقول لابنه كم أنفقت على كتاب كذا قال أنفقت عليه كذا انما رغبتنى فى العلم انى ظننت انى أنفق عليه قليلا وأكتسب كثيرا فاما اذا صرت أنفق الكثير وليس فى يدى الا المواعيد فانى لا أريد العلم بشيء فالانسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ولا بد من ان تكون كتبه أكثر من سماعه ولا يعلم ولا يجمع العلم ولا يختلف حتى يكون الانفاق عليه من ماله ألذ عنده من الانفاق من مال عدوه ومن لم تكن نفقته التى تخرج فى الكتب ألذ عنده من عشق القيان وانفاق المستهزئين بالبيان لم يبلغ فى العلم مبلغا رضيا وليس ينتفع بانفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب ايثار الاعرابى فرسه باللبن على عياله وحتى يؤمل فى العلم مايؤمل الاعرابى فى فرسه وقال ابراهيم بن السندى مرة وددت ان الزنادقة لو يكونوا حرصى على المقالات بالورق النقى الابيض وعلى تحلل الحبر الاسود المشرق البراق وعلى استجادة الخط والارغاب لمن يخط فانى لم أر كورق كتبهم ورقا ولا كالخطوط التى فيها خطا واذا غرمت مالا عظيما مع حبى للمال وبغض الغرم كان سخاء النفس بالانفاق على الكتب دليلا على تعظيم العلم وتعظيم العلم دليل على شرف النفس وعلى السلامة من سكر الآفات قلت لابراهيم ان انفاق الزنادقة على تحصيل الكتب كانفاق النصارى على البيع ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس وسنن تبيين وتبيين أولو كانت كتبهم كتبا تعرف الناس أبواب الصناعات أو سبل التكسب والتجارات أوكتب ارتفاقات ورياضات أوبعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب وان كان ذلك لا يقرب من غني ولا يبعد من مأثم لكانوا ممن قد يجوز ان يظن بهم تعظيم البيان والرغبة فى

التبيين ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة فانما انفاقهم فى ذلك كانفاق المجوس على بيت النار وكانفاق النصاري على صلبان الذهب أو كانفاق الهند على سدنة البددة ولو كانوا أرادوا العلم لكان العلم لهم معرضا وكتب الحكمة لهم مبذولة والطرق اليها سهلة معروفة فما بالهم لا يصنعون ذلك الابكتب دياناتهم كما يزخرف النصاري بيوت عباداتهم ولو كان هذا المعنى مستحسنا عند المسلمين أوكانوا يرون ان ذلك داعية الى العبادة وباعثة على الخشوع لبلغوا في ذلك بعفوهم مالا تبلغه النصارى بغاية الجهد وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ومن رآه فقد علم ان احدا لا يرومه وان الروم لا تسخوا انفسهم به فلما قام عمر ابن عبد العزيز جلله بالجلال وغطاه بالكرابيس وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب الى ان ذلك الصنيع مجانب لسنة الاسلام وان ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع وان البال لا يكون مجتمعا وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه والذى يدل على ما قلنا انه ليس فى كتبهم مثل سائر ولا خبر ظريف ولا صنعة ادب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسئلة كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة ولا تعليم فلاحة ولا تدبير حرب ولا منازعة عن دين ولا مناضلة عن نحلة وجل مافيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت وذكر الصنديد والتهويل بعمود الصبح والاخبار عن شقلون وعن الهامة وهذروعي وخرافة وسخرية وتكذب لاترى فيه موعظة حسنة ولا حديثا مونقا ولا تدبير معاش ولا سياسة عاملة ولا ترتيب خاصه فأي كتاب اجهل واي تدبير افسد من كتاب يوجب على الناس الاطاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين والناس لا يحبون الا دينا او دنيا فاما الدنيا فاقامة سوقها واستمالة الخاصة ان يصور فى صورة مغلطة ويموه تمويه الدنيا والبهرج والدرهم الذى لا يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقة القليل فليس انفاقهم عليها من حيث ظننت وكل دين يكون اظهر فساد احتاج من الترقيع والتمويه ومن

الاحتشاد له والتغليط فيه الى اكثر وقد علمنا ان النصرانية اشدانتشارامن اليهودية تبدا فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده واحتفالهم فى اظهار تعليمه وقال بعضهم كنت عند بعض العلماء فكنت اكتب عنه بعضا وادع بعضافقال لى اكتب كل ما تسمع فان مكان ماتسمع اسود خير من مكان ابيض وقال الخليل بن احمد تكثر من العلم لتعرف وتقلل منه لتحفظ وقال ابو اسحاق القليل والكثير للكتب والقليل وحده للصدر وانشد قول ابن يسير

اما لو أعى كل ما اسمع * واحفظ من ذاك ماجمع
ولم استفد خبرما قدجمعت لقيل هو العالم المصقع
ولكن نفسى الى كل نو * ع من العلم تسمعه تنزع
فلا انا احفظ ماقد جمعت ولا انا من جمعه اشبع
واحصر بالعي فى مجلسى *وعلمى فى الكتب مستودع
فمن يك فى علمه هكذا * يكن دهره القهقرى يرجع
اذالم تكن حافظا واعيا * فجمعك للكتب لاينفع

وقال ابن اسحاق كلف ابن يسير الكتب ماليس عليها ان الكتب لاتحيي الموتى ولا تحول الاحمق عاقلا ولا البليد ذكيا ولكن الطبيعة اذا كان فيها ادنى قبول فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشفي ومن اراد ان يعلم كل شيء فينبغى لاهله ان يداووه فان ذلك انما تصورله بشيء اعتراه فمن كان ذكيا حافظا فليقصد الى شيئين والى ثلاثة اشياء ولا ينزع عن الدرس والمطارحة ولايدع ان يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ما قدر عليه من سائر الاصناف فيكون عالما بخواص ويكون غير غفل من سائر مايجرى فيه الناس ويخوضون فيه ومن كان مع الدرس لايحفظ شيأ الانسى ما هو أكثر منه فهو من الحفظ من افواه الرجال ابعد وحدثني موسى بن يحي قال ماكان في خزانة كتب يحيي وفى بيت مدارسه كتاب الاوله ثلاث نسخ وقال ابوعمرو ابن العلاء مادخلت على رجل قط ولامررت ببابه فرأيته ينظر فى دفتر وجليسه

فارغ اليدالا اعتقدت انه أفضل منه وأعقل وقال أبو عمرو بن العلاء قيل لنا يومان في دار فلان ناسا قد اجتمعوا على سوءة وهم جلوس على خيرة لهم وعندهم طنبور فتسورنا عليهم فى جماعة من رجال الحى فاذا فتى جالس فى وسط الداروأصحابه حوله واذاهم بيض اللحا واذاهو يقرأ عليهم دفترا فيه شعر فقال الذى سعى بهم السوءة فى ذلك البيت وان دخلتموه عثرتم عليها فقلت والله لأكشف فتى أصحابه شيوخ وفى يده دفتر علم ولو كان فى ثوبه دم يحيي بن زكرياءوأنشد رجل يونس النحوى

استودع العلم قرطاسا فضيعه * فبئس مستودع العلم القراطيس

قال فقال يونس قاتله الله ما أشد ضنانته بالعلم وأحسن صيانته له ان علمك من روحك ومالك من بدنك فضعه منك بمكان الروح وضع مالك بمكان البدن وقيل لابن داحة وأخرج كتاب أبى الشمقمق واذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفتين بخط عجيب فقيل له لقد اضيع من تجود بشعر أبى الشمقمق فقال لاجرم والله ان العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه ولو استطعت ان أودعه سويداء قلبي أو أجعله محفوظا على ناظرى لفعلت ولقد دخلت علي اسحاق بن سليمان فى امرته فرأيت السماطين والرجال مثولا كان على رؤسهم الطير ورأيت فرشته وبزته ثم دخلت عليه وهو معزول واذاهوفى بيت كتبه وحواليه الاسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه فى ذلك اليوم لانه جمع مع المهابة المحبة ومع الفخامة الحلاوة ومع السودد الحكمة وقال ابن داحة كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لايجالس الناس وينزل مقبرة من المقابر وكان لايكاد يري الا وفى يده كتاب يقرأه فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة فقال لم أرا وعظ من قبر ولا أمنع من كتاب ولا أسلم من الوحدة فقيل له قد جاء فى الوحدة ماجاء فقال ما أفسدها للجاهل وضروب من الخطوط بعد ذلك تدل على قدر منفعة الخط قال الله تبارك وتعالى كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون وقال الله عز وجل فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة وقال فاما من أوتى كتابه

بيمينه وقال وأما من أوتى كتابه وراء ظهره وقال اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ولولم تكتب أعمالهم لكانت محفوظة لايدخل ذلك الحفظ نسيان ولكنه تعالى وعز علم ان كتاب المحفوظ ونسخه أوكد وأبلغ في الانذار والتحذير وأهيب فى الصدور وخط آخر وهو خط الحادى والقراف والزاجر وكان فيهم جاس الحطاط الاسدي ولذلك قال شاعرهم فى هجائهم

فانتم عضاريط الخميس اذا غزوا * غناؤكم تلك الاخاطيط فى الترب

وخطوط أخر تكون مستراحا للاسير والمهموم والمفكر كما يعترى المفكر من قرع السن والغضبان من تصفيق اليد وتحجيظ العين وقال تأبط شرا

لتقرعن علي السن من ندم * اذا تذكرت يوما بعض أخلاقي

وفى خط الحزين فى الارض يقول ذو الرمة

عشية مالى حيلة غير انني * بلقط الحصى والخط فى الدار مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده * بكفى والغربان في الدار وقع

وذكر النابغة صنيع النساء وفزعهن الى ذلك اذا سبين واغتربن وفكرن فقال

ويخططن بالعيدان في كل منزل * ويخبأن رمان الثدى النواهد

وقد يفزع الي ذلك الخجل والمتعالل كما يفزع اليه المهموم وهو قول القاسم بن أمية بن أبى الصلت

لاينكثون الارض عند سؤالهم * لتلمس العلات بالعيدان
بل يبسطون وجوههم فترى لها * عند اللقاء كاحسن الالوان

وقال الحارث بن الكندى وذكر رجلا سأله حاجة فاعتراه العبث بلاسنانه فقال

وآض بكفه يحتك ضرسا * يرينا انه وجع بضرس

وربما اعتري هؤلاء عد الحصى اذا كانوا فى موضع حصى ولم يكونوا في موضع تراب وهو قول امريء القيس

ظللت ردائي فوق رأسى قاعدا * أعد الحصى ماتنقضى حسراتى (١)

(١) وروى عبرات

وقال أمية بن أبي الصلت

نهرا جاريا وبيتا عليا * يعتري المعتفين فضل نداكا

في تراخ من المكارم جزل * لم تعلقهم بلقط حصاكا

وقال الآخر وهو يصف امرأة قتل زوجها فهي محزونة تلقط الحصى

وبيضاء مكسال كان وشاحها * على أم أحوى المقتاين خذول

عقات لها من زوجها عدد الحصى * مع الصبح أو في جنح كل أصيل

يقول لم أعطها عقلا عن زوجها ولم أورثها الا الهم الذي دعاها الى لقط الحصى يخبر انه لمنعته لا يوصل منه الى عقل ولا قود ومما قالوا في الخط ما أنشدنا هشام بن محمد ابن السائب الكلبي قال قال المقنع الكندي في قصيدة له مدح فيها الوليد بن يزيد

كالخط في كتف الغلام اجاده * بمراده واسدّ من اقلامه

قلم كخرطوم الحمامة مائل * مستحفظ للعلم من علامه

يسم الحروف اذا يشاء بناءها * لبيانها بالنقط من ارسامه

من صوفة نفث المداد سخامه * حتى تغير لونها بسخامه

يخفي فيقصم من شعيرة أنفه * كقلامة الاظفور من قلامه

وبأنفه شق تلاءم فاستوى * سقى المداد فزاد في تلاءامه

متعجم وهو الفصيح بكل ما * نطق اللسان به على استعجامه

وله تراجمة بالسنة لهم * تبيان مايتلون من ترجامه

ماخط من شيء به كتابه * ما ان يبوح به على استكتامه

وهجاؤه قاف ولام بعدها * ميم معلقة باسفل لامه

ثم قال

قالت لجارتها الغزيل اذ رأت * وجه المقنع من وراء لثامه

قد كان أبيض فاعتراه أدمة * فالعين تنكره من ادهيمامه

كم من بويزل عامها مهرية * سرح اليدين ومن بويزل عامه

وهب الوليد برحلها وزماعها * وكذلك ذاك برحله وزمامه
وقويرح عتد أعد لنيه * لبن اللقوح فعادملء حزامه
وهب الوليد بسرجها ولجامها * وكذاك ذاك بسرجه ولجامه
اهدى المقنع للوليد قصيدة * كالسيف أرهف حده بحسامه
وله المآثر فى قريش كلها * وله الخلافة بعد موت هشامه

وقال الحسن بن خماعة الجذامى فى الخط

اليك سري بات يرقل عالم * أصم الصدى محرورف السن طائع
بصير بما يوحى اليه وماله * لسان ولا اذن بها هو سامع
كان ضمير القلب باح بسره * لديه اذا ماحثحثته الاصابع
له ريقة من غير فرث تمده * ولامن ضلوع صفقتها الاضالع

وقال الطائي يمدح محمد بن عبد الملك الزيات

ومابرحت صورا اليك نوازعا * أعنتها مذرا سلتك الرسائل
لك القلم الاعلى الذي بشباته * يصاب من الامر الكلى والمفاصل
لك الخلوات اللاء لولا تجيثها * لما اختلفت للملك تلك المحافل
لعاب الافاعي القاتلات لعابه * وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل
له ريقة طل ولكن وقعها * بآثارها فى الشرق والغرب وابل
فصيح اذا استنطقته وهو راكب * وأعجم ان خاطبته وهو راجل
اذا ماامتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القناو تقوضت * لنجواه تقويض الخيام الجحافل
اذا استشعر الذهن المجلى وأقبلت * أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رمزته الخنصران وشددت * ثلاث نواحيه الثلاث الآنامل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف * نضى وسمينا خطبه وهو ناحل
أرى ابن أبى مروان أماالقاؤه * فدان وأما الحكم فيه فعادل

وقد ذكر البحتري فى كلمة له بعض كهول العسكر ومن أنبل ابنا كتابهم الجلة فقال

واذا دجت أقلامه ثم انتحت * برقت مصابيح الدجى في كتبه

وكانوا يجعلون الكتاب حفرا فى الصخور ونقشا فى الحجارة وحلقة مركبة فى البنيان فربما كان الكتاب هو الناتئ وربما كان الكتاب هو الحفر اذا كان تاريخا لامر جسيم أوعهدا لأمر عظيم أو موعظة يرتجى نفعها أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره كما كتبوا على قبة غمدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مارب وعلى الركن المشقر وعلى الابلق الفرد وعلى باب الرها يعمدون الى الاماكن المشهورة والمواضع المذكورة فيضعون الخط فى أبعد المواضع من الدثور وامنعها من الدروس واجدر ان يراها من مر بها ولا تنسى على وجه الدهر وأقول لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكاك وكل اقطاع وكل انفاق وكل أمان وكل عهد وعقد وكل جوار وحلف ولتعظيم ذلك والثقة به والاستناد اليه كانوا يدعون فى الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيما للأمر وتبعيدا من النسيان ولذلك قال الحارث بن حلزة فى شأن بكر وتغلب

واذكروا حلف ذي المجاز وما * قدم فيه العهود والكفلاء

حذر الجور والتعدى وهل * ينقض مافى المهارق الاهواء

والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أوكتب عهود وميثاق وأمان وليس بين الرقوم والخطوط فرق ولولا الرقوم لهلك أصحاب البز والغزول وأصحاب الساج وعامة المتاجر وليس بين الرسوم التى تكون على الحافر كله والخف كله والظلف كله وبين الرقوم فرق ولا بين العقود والرقوم فرق ولا بين الخطوط والرقوم كلها فرق وكلها خطوط وكلها كتاب أوفى معنى الخط والكتاب ولا بين الحروف المجموعة والمصورة من الصوت المقطع فى الهواء ومن الحروف المجموعة المصورة من السواد فى القرطاس فرق واللسان يصنع فى جوبة

الفم وفى خارجه وفى لهاته وباطن أسـنانه مثل مايصنع القلم فى المداد والليقة والهواء والقرطاس وكلها صور وعلامات وخلق مواثل ودلالات فيعرف منها ما كان في تلك الصور لكثرة تردادها على الاسـماء ويعرف منها ما كان مصورا من تلك الالوان لطول تكرارها على الابصار كما استدلوا بالضحك على السرور وبالبكا على الالم وعلى مثل ذلك عرفوا معاني الصوت وضروب صور الاشارات وصور جميع الهيآت وكما عرف المجنون لقبه والكلب اسمه وعلى مثل ذلك فهم الصبى الزجر والاغراء وودع المخنوق الوعيـد والتهدد وبمثل ذلك اشتد حضر الدابة مع رفع الصوت حتي اذا رأى سائسـه حمحم واذا رأى الحمام القيم عليـه انحط للقط الحب قبل ان يلقى له مايلقطه ولولا الرسوم ونقوش الخواتم لدخـل على الأموال الخلل الكثير وعلى خزائن الناس الضرر الشديد وليس فى الارض أمة بها طرق أولها مسكة ولا جيل لهم قبض وبسط الاولهـم خط فأما أصحاب الملك والمملكة والسلطان والجباية والديانة والعبادة فهناك الكتاب المتقن والحساب المحكم ولايخرج الخط من الجزم والمسند المنمنم كذا كيف كان ذلك قال الهيثم وابن الكلبى وأبو عبيدة فكل أمـة تعتمد فى استيفاء مآثرها وتحصـين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الاشكال وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بان تعتمد فى ذلك على الشـعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها وعلى ان الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المأثرة على السـيد المرغوب اليـه والممدوح به وذهبت العجم علي ان تقيد مآثرها بالبنيان فبنوا مثل كرد بيداد وبني ازدشير بيضا اصطخر وبيضا المدائن والحضر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس قال ثم ان العرب أحبت ان تشارك العجم فى البناء وتنفرد بالشـعر فبنوا غمدان وكعبة نجران وقصر مارد وقصر مارب وقصر شعوب والابلق الفرد ومارد قالوا تمرد مارد وعز الابلق وغير ذلك من البنيان قال ولذلك لم تكن الفرس تبيح شريف البنيان كما لاتبيح شريف الاسماء الالاهـل البيوتات كصنيعهم فى النواويس والحمـامات والقباب الخضر والشرف على حيطان

الدار وكالعقد على الدهليز وما أشبه ذلك فقال بعض من حضر كتب الحكماء وما دونت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات والآداب والارفاق من القرون السابقة والامم الخالية ومن له بقية أبقى ذكرا وأرفع قدرا وأكثر ردا لان الحكمة أنفع لمن ورثها من جهة الانتفاع بها وأحسن فى الاحدوثة لمن أحب الذكر الجميل والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر لان من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وان يميتوا ذكر أعدائهم فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية وعلى ذلك هم فى أيام الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام التى كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة وكتب ارسطا طاليس ومعلمه أفلاطون ثم بطليموس وذى بقراط وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور وقبل الدهور والاحقاب قبل الاحقاب ويدل على حداثة الشعر قول امرىء القيس بن حجر

ان بنى عوف ابتنوا حسنا * ضيعه الداخلون اذ غدروا
ادوا الي جارهم خفارته * ولم يضع بالمغيب من نصروا
لاحميرى وفي ولاعدس * ولااست عير يحكها الثفر
لكن عوير وفى بذمته * لاقصر عابه ولاعور

فانظر كم كان عمر زرارة وكم كان بين موت زرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام فاذا استظهرنا الشعر وجدنا له الى ان جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام واذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام قال وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لايستطاع ان يترجم ولايجوز عليه النقل ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه وسقط موضع التعجب منه كالكلام المنثور والكلام المنثور المبتدا على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذ

عن موزون الشعر قال وجميع الامم يحتاجون الى الحكم في الدين والحكم في الصناعات والى كل ما أقام لهم المعاش وبوب لهم أبواب الفطن وعرفهم وجوه المرافق حديثهم كقديمهم وأسودهم كأحمرهم وبعيدهم كقريبهم والحاجة الي ذلك شاملة لهم وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية وحولت آداب الفرس فبعضها ازداد حسنا وبعضها ما انتقص شيأ ولوحولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن مع انهم لوحولوها لم يجدوا في معانيها شيأ لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم وقد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ومن قرن الى قرن ومن لسان الى لسان حتي انتهت الينا وكنا آخر من ورثها ونظر فيها فقد صح ان الكتب أبلغ فى تقييد المآثر من البنيان والشعر ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له ان الترجمان لا يؤدى أبدا ماقال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ويؤدى الامانة فيها ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على المجرى وكيف يقدر على ادائها وتسليم معانيها والاخبار عنها على حقها وصدقها الا أن يكون فى العلم بمعانيها واستعمال تصاريف الفاظها وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وأبوقرة وابن فهر وابن وهيلى وابن المقفع مثل ارسطاطاليس ومتى كان خالد مثل أفلاطون ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها حتى يكون فيها سواء وغاية ومتى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علمنا انه قد أدخل الضيم عليهما لان كل واحدة من اللغتين تجذب الاخري وتأخذ منها وتعترض عليها وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه اذا انفرد بالواحدة وانما له قوة واحدة فان تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما وكذلك ان تكلم باكثر من لغتين على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات وكلما كان الباب من العلم اعسر واضيق والعلماء به اقل كان اشد على المترجم واجدران يخطى فيه

ولن تجد البتة مترجما يفي بواحد من هؤلاء العلماء هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين واخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه مما لا يجوز عليه حتى يريد ان يتكلم على تصحيح المعاني في الطبائع ويكون ذلك معقودا بالتوحيد ويتكلم في وجوه الاخبار واحتمالاته للوجوه ويكون ذلك متضمنا بما يجوز على الله تعالى مما لا يجوز وبما يجوز على الناس مما لا يجوز وحتى يعلم مستقر العام والخاص والمقابلات التي تلقى الاخبار العامية المخرج فيجعلها خاصية وحتى يعرف من الخبر ما يخصه الخبر الذي هو أثر مما يخصه الخبر الذي هو قرآن وما يخصه العقل مما تخصه العادة أو الحال الرادة له عن العموم وحتى يعرف ما يكون من الخبر صدقا أو كذبا وما لا يجوز ان يسمى بصدق ولا كذب وحتى يعرف اسم الصدق والكذب وعلى كم معني يشتمل ويجتمع وعند فقد أى معني ينقلب ذلك الاسم وكذلك معرفة المحال من الصحيح وأى شيء تأويل المحال وهل يسمي المحال كذبا أم لا يجوز ذلك وأى القولين أفحش المحال أم الكذب وفي أي موضع يكون المحال أقطع والكذب أشنع وحتى يعرف المثل والبديع والوحى والكناية وفصل ما بين الخطل والهذر والمقصور والمبسوط والاختصار وحتى يعرف ابنية الكلام وعادات القوم وأسباب تفاهمهم والذي ذكرنا قليل من كثير ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلام الدين والخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم واذا كان المترجم الذي قد ترجم لا يكمل لذلك أخطأ على قدر نقصانه من الكمال وما علم المترجم بالدليل عن شبه الدليل وما علمه بالاخبار النجومية وما علمه بالحدود الخفية وما علمه باصلاح سقطات الكلام واسقاط الناسخين للكتب وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات وقد علمنا ان المقدمات لا بد ان تكون اضطرارية ولا بد ان تكون مرتبة وكالخط المندور وابن البطريق وابو قرة لا يفهمان هذا موصوفا منزلا ومرتبا مفصلا من معلم رفيق ومن حاذق طب فكيف بكتاب قد تداولته اللغات واختلاف الاقلام

واجناس خطوط الملل والامم ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمى الى الحاذق بلسان العربية ثم كان العربي مقصرا عن مقدار بلاغة اليوناني لم يجد المعنى والناقل التقصير ولم يجد اليوناني الذى لم يرض بمقدار بلاغته فى لسان العربية بدا من الاغتفار والتجاوز ثم يصير الى مايعرض من الآفات لاصناف الناسخين وذلك ان نسخته لايعدمها الخطأ ثم ينسخ له من تلك النسخة من يزيده من الخطأ الذي يجده فى النسخة ثم لاينقص منه ثم يعارض بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله اذا كان ليس من طاقته اصلاح السقط الذى لايجده فى نسخته ولربما اراد مؤلف الكتاب ان يصلح تصحيفا اوكلمة ساقطة فيكون انشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعانى ايسر عليه من اتمام ذلك النقص حتى يرده الى موضعه من اتصال الكلام فكيف يطيق ذلك المعارض المستأجر والحكيم نفسه قد اعجزه هذا الباب واعجب من ذلك انه يأخذ بأمرين قد اصلح الفاسد وزاد الصالح صلاحا ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لانسان آخر فيسير فيه الوراق الثانى سيرة الوراق الاول ولا يزال الكتاب تتداوله الايدي الجانية والاغراض المفسدة حتي يصير غلطا صرفا وكذبا مصمتا فما ظنكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالافساد وتتعاوره الخطاط بشر من ذلك او بمثله كتاب متقادم الميلاد دهري الصنعة قالوا فكيف تكون هذه الكتب انفع لاهلها من الشعر المقفى قال الآخر اذا كان الامر على ماقلتم والشان على ما نزلتم اليس معلوما ان شيأ هذه بقيته وفضله وسؤره وصبابته وهذا مظهر حاله على شدة الضيم وثبات قوته على ذلك الفساد وتداول النقص حرى بالتعظيم وحقيق بالتفضيل على البيان والتقديم على شعر ان هو حول تهافت ونفعه مقصور على اهله وهو يعد من الأدب المقصور وليس بالمبسوط ومن المنافع الاصطلاحية وليست بحقيقته بينة وكل شي فى العالم من الصناعات والارفاق والآلات فهي موجودات فى هذه الكتب دون الاشعار وها هنا كتب هى بيننا وبينكم مثل كتاب اقليدس ومثل كتاب جالينوس ومثل المجسطى مما تولاه الحجاج وكتب كثيره لاتحصى

فيها بلاغ للناس وان كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومفسرة فالباقى كاف شاف والغائب منها كان تكميلا لتسلط الطبائع الكاملة (فأما فضيلة الشعر) فعلي ماحكينا ومنتهى نفعه الي حيث انتهى بناء القول . وحسبك مافى أيدى الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الاصباغ والعطر والاطعمة والآلات . وهم أتوكم بالحكمة وبالمنفعة التى فى الحمامات وفى الاصطرلابات والقرسطونات وآلات معرفة الساعات وصنعة الزجاج والفسيفساء والاسرنج والزنجفور واللازورد والاشربة والانبجات والاقشارجات *ولكم المينا والنشادر والشبّ وتعليق الحيطان والاساطين ورد مامال منها الى التقويم . ولهم صب الزردج واستخراج النستاشتج وتمليق الخيش واتخاذ الجمازات وعمل الحراقات واستخراج شراب الداذي وعمل الدبابات وكان الحجاج) أول من أجرى في البحر السفن المقيرة المسمرة غير المخرزة والمدهونة والمسطحة وغير ذوات الجؤجؤ وكان أول من عمل المحامل ولذا قال بعض رجاز الاكرياء

أول خلق عمل المحاملا * أخزاه ربى عاجلا وآجلا

(وقال آخر)

شيب أصداغى فهن بيض * محامل لقدها نقيض

(وقال القوم) لولا ماعرفوكم من أبواب الحملانات لم تعرفوا صنعة الشبّ ولولا غضارة الصين على وجه الارض لم تعرفوا النضار على أن الذى علمتم ذاهر فيه التولد منقوص المنفعة عن تمام الصينى وعلى ان الشب لم تستخرجوه وانما ذلك من الامور التي وقعت اتفاقا لسقوط الناطق من يد الاجير في الصفر الذائب نخفتم افساده فلما رأيتم ماأعطاه من اللون علمتم فى الزيادة والنقصان وكذلك جميع ماتهيأ لكم . ولستم تخرجون في ذلك من أحد أمرين اما أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علم ماأورثوكم واما أن يكون ذلك تهيأ لكم من طريق الاتفاق وقد علمتم ان أول شأن الجمازات أن أم جعفر أمرت الرحالين ان يزيدوا فى سير النجيبة التى كانت عليها وخافت فوت

الرشيد فلما حركت مشت ضروبا من المشي وصنوفا من السير فجزت في خلال ذلك ووافقت امرأة تحسن الاختيار وتفهم الامور فوجدت لذلك الجمز راحة ومع الراحة لذة فأمرتهم ان يسيروا بها في تلك السيرة فما زالوا يقربون ويبعدون ويخطئون ويصيبون وهي في كل ذلك تصوّبهم وتخطئهم على قدر ما عرفت حتى شدوا من معرفة ذلك ما شدو اثم انها فرّغتهم لاتمام ذلك حتي تم واستوى *وكذلك لايخلو جميع أمركم من أن يكون اتفاقا أو اتباع أثر

(ثم رجع بنا القول الي الترغيب في اصطناع الكتاب والاحتجاج على من ذرى على واضع الكتب) فأقول ان من شكر النعمة في معرفة مغاوى الناس ومراشدهم ومضارّهم ومنافعهم ان يحتمل ثقل مؤونتهم في تقويمهم وأن تتوخي ارشادهم وان جهلوا افضل مايسدى اليهم فلن يصان العلم بمثل بذله ولن تستبقي النعمة فيه بمثل نشره على ان قراءة الكتب أبلغ في ارشادهم من تلاقيهم اذ كان مع التلاقي يشتد التصنع ويكثر التظالم وتفرط العصبية وتقوى الحمية وعند المواجهة والمقابلة يشتد حب الغلبة وشهوة المباهاة والرياسة مع الاستحياء من الرجوع والانفة من الخضوع وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين واذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة امتنعت من التعرف وعميت عن مواضع الدلالة وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية واصابة الحجة لان المتوحد يدرسها والمنفرد يفهم معانيها لايباهي نفسه ولا يغالب عقله وقد عدم من له يباهى ومن أجله يغالب. والكتاب قد يفضل صاحبه ويتقدم مؤلفه ويرجح قلمه على لسانه بأمور *منها ان الكتاب يقرأ بكل مكان ويظهر مافيه على كل لسان ويوجد مع كل زمان على تفاوت مابين الاعصار وتباعد مابين الامصار وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب والمتنازع في المسألة والجواب. ومناقلة اللسان وهدايته لاتجوز ان مجلس صاحبه ومبلغ صوته وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى أثره ولولا ما أودعت لنا الاوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها حتي شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا الى

قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه الابهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة ولو لجأنا الى قدر قوّتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة وعاد الرأي عقيما والخاطر فاسدا ولكلّ الحدّ وتبلد العقل * وأكثر من كتبهم نفعا وأشرف منها خطرا وأحسن موقعا كتب الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة والاخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة وما زالت كتب الله تعالى فى الالواح والصحف والمهارق والمصاحف وقال الله عز وجل (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقال (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) ويقال لاهل التوراة والانجيل أهل الكتاب وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا فما ينتظر العالم باظهار ما عنده وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيد وهبت ريح العلماء وكسد العيّ والجهل وقامت سوق البيان والعلم وليس يجد الانسان فى كل حين انسانا يدرّبه ومقوّما يثقفه والصبر على افهام الريض شديد وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه . والمتعلم يجد فى كل مكان الكتاب عتيدا وبما يحتاج اليه قائما وما أكثر من فرط فى التعليم أيام خمول ذكره وايام حداثة سنه ولولا جياد الكتب وحسنها ومبينها ومختصرها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونزعت الى حب الادب وأنفت من حال الجهل وان تكون فى غمار الحشو ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة من الجهل وسوء الحال ما عسى ان لا يمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه تفقهوا قبل ان تسودوا . وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيا فما هو الا ان ينظر فى كتب أبى حنيفة واشباه أبى حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمرّ ببابه فتظن انه

من بعض العمال وبالحرى ان لايمر عليه من الايام الا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الامصار أو بلد من البلدان * وينبغي لمن كتب كتابا أن لا يكتبه الا على أن الناس كلهم له أعداء وكلهم عالم بالامور وكلهم متفرغ له ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا ولا يرضى بالرأى الفطير فان لابتداء الكتاب فتنة وعجبا فاذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الاخلاط وعادت النفس وافرة أعاد النظر فيه فتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طبعه فى السلامة انقص من وزن خوفه من العيب ويتفهم معنى قول الشاعر

ان الحديث تغر القوم خلوته * حتى يلج بهم عيٌّ واكثار

ويقف عند قولهم فى المثل كل مجر فى الخلاء يسر فيخاف ان يعتريه ما اعترى من أجرى فرسه وحده أو خلا بعلمه عند فقد خصومه وأهل المنزلة من أهل صناعته ليعلم أن صاحب القلم يعتريه مايعتري المؤدب عند ضربه وعقابه فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة لانه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون ان الصواب فى الاقلال فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد فى غضبه فأراه الغضب ان الرأي فى الاكثار وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة والحفظ مع الاقلال أمكن وهو مع الاكثار أبعد (واعلم) أن العاقل ان لم يكن بالمتتبع فكثيرا مايعتريه مايعتريه من ولده ان يحسن فى عينه منه المقبح فى عين غيره فليعلم ان لفظه أقرب نسبا منه من ابنه وحركته أمس به رحما من ولده لان حركته شيء احدثه من نفسه وبداءته من عين جوهره فصلت ومن نفسه كانت وانما الولد كالمخطة يتمخطها والنخامة يقذفها ولا سواء اخراجك من جزئك شيأ لم يكن منك واظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته وليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى افهام معانيه حتي لايحتاج السامع لما فيه من الروية ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السفلة والحشوة

ويحطه من غريب الاعراب ووحشى الكلام وليس له ان يهذبه جدا و ينقحه ويصفيه ويروّقه حتى لاينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى قد حذف فضوله وتعرنه واسقط زوائده حتى عاد خالصا لاشوب فيه فانه ان فعل ذلك لم يفهم عنه الا بان يجدد لهم انهاما مرارا وتكرارا لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت افهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بان يعكس عليها ويؤخذ بها ألا ترى ان كتاب المنطق الذى قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الاعراب لما فهموا أكثره وفى كتاب اقليدس كلام يدور وهو عربى وقد صفي ولو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ولا يمكن ان يفهمه من يريد تعليمه لانه يحتاج الى ان يكون قد عرف جهة الامر وتعود للفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام (قال معاوية بن أبى سفيان) رضى الله تعالى عنهما الصحار العبدي ما الايجاز قال ان تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ قال معاوية أو كذلك تقول قال صحار أقلني يا أمير المؤمنين لا تخطئ ولا تبطئ فلو أن سائلا سألك عن الايجاز فقلت لا تخطئ ولا تبطئ وبحضرتك خالد ابن صفوان لما عرف بالبديهة وعند أول وهلة ان قولك لا تخطئ متضمن بالقول وقولك لا تبطئ متضمن بالجواب وهذا حديث كما ترى آثروه ورضوه ولو أن قائلا قال لبعضنا ما الايجاز لظننت انه يقول الاختصار والايجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز وكذلك الاطالة وانما ينبغى له أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لاغلاقه ولا لترداده وهو يكتفى من الافهام بشطره فما فضل عن المقدار فهو الخطل (وقلت) لابى الحسن الاخفش أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم قال أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هى من كتب الدين ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعونى اليه قلت حاجاتهم الىّ فيها وانما كانت غايتى المنالة فانا أضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا وانما قد كسبت فى هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب

لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم أكثرها (وأقول) لوأن يوسف السمتي كتب هذه الشروط أيام جلس سلمان بن ربيعة شهرين للقضاء فلم يتقدم اليه رجلان والقلوب سليمة والحقوق على أهلها موفرة لكان ذلك خطلا ولغواً ولو كتب في دهره شروط سلمان لكان ذلك غرارة ونقصاوجهلا بالسياسة وبما يصلح في كل دهر . ووجدنا الناس اذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا واذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا وللاطالة موضع وليس ذلك بخطل وللاقلال موضع وليس ذلك من عجز ولولا أني أتكل على انك لاتمل باب القول في البعير حتى تخرج الى الفيل وفي الذرة حتى تخرج الى البعوضة وفي العقرب حتى تخرج الى الحية وفي الرجل حتى تخرج الى المرأة وفي الذباب حتى تخرج الى الغربان والعقبان وفي الكلب حتى تخرج الى الديك وفي الذئب حتى تخرج الى السبع وفي الظلف حتى تخرج الى الحافر وفي الحافر حتى تخرج الى الخف وفي الخف حتى تخرج الى البرثن وفي البرثن حتى تخرج الى المخلب وكذلك القول في الطير وعامة الاصناف . فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يمل ويعتد عليّ فيه بالاطالة لانه وان كان كتابا واحداً فانه كتب كثيرة وكل مصحف منها فهو أم على حدة فان أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الاول حتى يهجم على الثاني ولا الثاني حتي يهجم على الثالث فهو أبدا مستفيد ومستطرف وبعضه يكون جماما لبعض ولا يزال نشاطه زائدا ومتى خرج من آي القرآن صار الى الاثر ومتي خرج من أثر صار الى خبر ثم يخرج من الخبر الى شعر ومن الشعر الى نوادر ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس شداد ثم لايترك هذا الباب ولعله ان يكون أثقل والملال اليه أسرع حتى يفضي به الى مزح وفكاهة والي سخف وخرافة ولست أراه سخفا اذ كنت انما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء ورأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والاعراب أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحى والحذف واذا خاطب بني اسرائيل أوحكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام فأصوب العمل اتباع آثار العلماء والاحتذاء

على مثال القدماء والاخذ بما عليه الجماعة (قال ابن يسير) فى صفة الكتب فى كلمة له

أقبلت أهرب لا آلو مباعدة * فى الارض منهم فلم يحصني الهرب
فقصر أوس فما والت خنادقه * ولا النواويس فالماخور فالحرب
فأيما موئل منها اعتصمت به * فمن ورائى حثيثا منهم الطلب
لما رأيت بأنى لست معجزهم * فوتا ولا هربا قرّبت أحتجب
فصرت فى البيت مسرورا به جذلا * جارا لبواة لا شكوى ولا شغب
فردا يحدثنى الموتى وتنطق لى * عن علم ما غاب عني منهم الكتب
هم مؤنسون وآلاف غنيت بهم * فليس لى فى أنيس غيرهم أرب
* لله من جاساء لا جليسهمو * ولا عشيرهمو للسوء مرتقب
لا بادرات الاذي يخشى رفيقهم * ولا يلاقيه منهم منطق ذرب *
ابقوا لنا حكما تبقى منافعها * أخرى الليالي على الايام والشعب
فأيما آدب منهم مددت يدي * اليه فهو قريب من يدي كتب
ان شئت من محكم الآثار يرفعها * الى النبي ثقات خيرة نجب *
أوشئت من عرب علما باولهم * فى الجاهلية أبنتنى بها العرب
أوشئت من سير الاملاك من عجم * تنبي وتخبر كيف الرأى والادب
حتى كانى قد شاهدت عصرهمو * وقد مضت دونهم من دهرهم حقب
ياقائلا قصرت فى العلم نهيته * أمسى الى الجهل فيما قال ينتسب
ان الاوائل قد بانوا بعلمهم * خلاف قولك ما بانوا و ما ذهبوا
مامات مثل امرىء ابقي لنا أدبا * نكون منه اذا مامات نكتسب

(وقال) أبو وجرة وهو يصف صحيفة كتب له فيها بستين وسقا

راحت بستين وسقا فى حقيبتها * ما حملت حملها الادنى ولا السددا
ما ان رأيت قلوصا قبلها حملت * ستين وسقا وماجاءت به بلدا

(وقال الراجز)

تعلمي ان الدواة والقلم * تبقى ويفنى حادث الدهر الغنم

يقول كتابك الذي تكتبه على يبقى فتأخذني به وتذهب غنمي فيما يذهب (ومما) يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز ان يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة وما يحدث بالكوفة في بياض يوم حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء

باب ذكر ما يعتري الانسان بعد الخصاء وكيف ما كان قبل الخصاء

(قالوا) كل ذى ريح منتنة وقيل ذي دفر وصنان وكريه المشمة كالنمر وما أشبهه فانه متى خصى نقص نتنه وذهب صنانه غير الانسان فان الخصيّ يكون أنتن وصنانه أحد ويعم أيضا خبث العرق سائر جسده حتى لتوجد لاجسادهم رائحة لا تكون لغيرهم فهذا هذا وكل شيء من الحيوان يخصى فان عظمه يدق فاذا دق عظمه استرخى لحمه وتبرأ من عظمه وعاد رخصا رطبا بعد ان كان عضلا صلبا والانسان اذا خصى طال عظمه وعرض فخالف أيضا جميع الحيوان من هذا الوجه وتعرض للخصيان أيضا طول اقدام واعوجاج فى أصابع اليد والتواء فى أصابع الرجل وذلك من أول طعنهم فى السن وتعرض لهم سرعة التغير والتبدل وانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته وكثرة الماء وبريقه الى التكرش والكمود والى التقبض والتحدد والى الهزال وسوء الحال فهذا الباب يعرض للخصيان ويعرض أيضا لبنات الاكرة من أهل الزرع والنخل لانك ترى الخصى وكأن السيوف تلمع فى لونه وكأنه مرآة صينية وكأنه وذيلة مجلوة وكأنه جمارة رطبة وكأنه قضيب فضة قد مسه ذهب وكأن فى وجناته الورد ثم لا يلبث كذلك الا نسيآت يسيرة حتى يذهب ذلك ذهابا لا يعود وان كان ذا خصب وفى عيش رغد وفى فراغ بال وقلة نصب وكان من طرائف ما يأتى به عبد الأعلى القاص قوله في الخصى. وكان لغلبة السلامة عليه يتوهم عليه الغفلة. وهو الذى ذكر الفقير مرة فى قصصه فقال الفقير. مرقته سلقة وردأوه علقة وجردقته فلقة وسمكته شلقة (قال) ثم ذكر الخصى فقال اذا قطعت خصيته قويت شهوته

وسخنت معدته ولانت جلدته وانجردت شعرته واتسعت فقحته وكثرت دمعته (وقالوا) الخصيّ لا يصلع كما لا تصلع المرأة واذا قطع العضو الذى كان به فحلا تاما أخرجه ذلك من أكثر معانى الفحول وصفاتهم واذا أخرجه من ذلك الكمال صيره كالبغل الذي ليس هو حمارا ولا فرسا وتصير طباعه مقسومة على طباع الذكر أو الانثى وربما لم يخلص له الخلق ولم يصف حتى يصير كالخلق من أخلاق الرجال ويلحق بمثله من أخلاق النساء ولكنه يقع ممزوجا مركبا فيخرج الى أن يكون مذبذبا لاالى هؤلاء ولا الى هؤلاء وربما خرجت النتيجة وما يولده التركيب عن مقدار معاني الابوين كما يجوز عمر البغل عمر أبويه وكذلك ماعددنا فى صدر هذا الكتاب (وقالوا) وللانسان قوي معروفة المقدار وشهوات مصروفة فى وجوه حاجات النفوس مقسومة عليها لا يجوز تعطيلها وترك استعمالها ما كانت النفوس قائمة بطبائعها ومزاجاتها وحاجاتها وباب المنكح من أكبرها وأقواها وأعمها ويدخل فى باب المنكح ما فى طبائعهم من طلب الولد وهو باب من أبوابهم عظيم فمنهم من يطلبه للكثرة والنصرة وللحاجة الى العدد والقوة ولذلك استلاطت العرب الرجال واغضبت على نسب المولود على فراشه وقد أحاط علمه بأنه من الزوج الاول (قال الاشهب بن رميلة)

قال الاقارب لا تغررك كثرتنا * وأغن نفسك عنا أيها الرجل

عل بنيّ يشد الله كثرتهم * والنبع ينبت قضبانا فيكتهل

(وقال الآخر)

عسى بنيّ صبية صيفيون * أفلح من كان له ربعيون

يشكو كما ترى صغر البنين وضعف السن . وما أكثر مايطلب الرجل الولد نفاسة بماله على بني عمه ولاشفاقه من أن تليه القضاة وترتع فيه الامناء فيصير ملكا للاولياء ويقضي به القاضى الذمام ويصطنع به الرجال . وربما هم الرجل بطلب الولد لبقاء الذكر وللرغبة فى العقب أو على جهة طلب الصواب في مباهاة المشركين والزيادة فى عدد المسلمين أو للكسب والكفاية وللمدافعة والنصرة والامتناع وبقاء نوع الانسان ولما طبع الله تعالى بني آدم عليه من حب

الذرية وكثرة النسل كما طبع الله تعالى الحمام والسنانير على ذلك وان كان اذا جاءه الولد زاد في همه ونصبه وفي جبنه وبخله وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم الولد مجبنة مبخلة مجهلة • فيحتمل في الولد المؤن المعروفة والهموم الموجودة لغير شيء قصد له وليس في ذلك أكثر من طلب الطباع ونزوع النفس الى ذلك (وذكر) أبو الاخزر الحمام غير العافة بخلاف ما عليه أصحاب الزواج من الحيوان فقال عند ذكر سفاده * لا مبتغي الذرّ ولا بالعازل * لأن الانسان من بين الحيوان المزاوج اذا كره الولد عزل والمزاوج من أصناف الحيوانات انما غايتها طلب الذرّ والولد لذلك سخرت وله هيئت لما أراد الله تعالى من اتمام حوائج الانسان • والحمار لا يطلب الولد فيكون افراغه في الاتان لذلك ولا اذا كان لا يريد الولد عزل كما يعزل الانسان غير ان غايته قضاء الشهوة فقط ليس يذكر على باله ان ذلك الماء يخلق منه شيء • وعامة اكتساب الرجال وانفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون انما هو مصروف الى النساء والاسباب المتعلقة بالنساء ولو لم يكن الا التنمص والتطيب والتطرز والتخضب والذى يعدّ لها من الطيب والصبغ والحليّ والكساء والفرش والآنية لكان في ذلك ما كفى ولو لم يكن له الا الاهتمام بحفظها وحراستها وخوف العار من جنايتها والجناية عليها لكان في ذلك المؤنة العظيمة والمشقة الشديدة * فاذا بطل العضو الذي من أجله يكون اشتغال النفس بالاصناف الكثيرة من اللذة والألم فباضطرار أن تعلم أن تلك القوى لم تبطل من التركيب ولم تعدمها الخلقة وانما سُدّ دونها بسد وأدخل عليها حجاب فلا بد لها اذا كانت موجودة من عمل لأن عمل كل جوهر لا يعدم الا بعدم ذاته فاذا صرفت من وجه فاضت من وجه ولا سيما اذا جمت ونازعت ولا بد اذا زخرت وغزرت وطفت وطمت من ان تفيض أو تفتح لنفسها بابا وليس بعد المنكح باب له موقع كموقع المطعم فاجتمعت تلك القوى التى كانت للمنكح وما يشتمل عليه باب المنكح الى القوة التي عنده للمطعم فاذا اجتمعت القوتان في باب واحد كان أبلغ في حكمه وأبعد غاية في سبيله ولذلك صار الخصي آكل من أخيه لأمه وأبيه وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه وعلى قدر حاجة طبعه وحاجة الحرارة المتولدة عن الحركة

يكون الاستمراء لان الشهوة من انتن أبواب الاستمراء والحركة من أعظم الحرارة ودوام الاكل في الاناث أعم منه في الذكور . وكذلك الحِجرُ دون الفرس وكذلك الرمكة دون البرذون وكذلك الرمكة دون الكبش وكذلك النساء في البيوت دون الرجال وما أشك ان الرجل يأكل في المجلس الواحد ما لا تأكل المرأة ولكنها تستوفى ذلك المقدار وتربي عليه مقطعاً غير منظوم وهي بدوام ذلك منها يكون حاصل طعامها أكثر وهن يناسبن الصبيان في هذا الوجه لأن طبع الصبي سريع الهضم سريع الكاب قصير مدة الاكل قليل مقدار الطعم فللمرأة كثرة معاودتها ثم تبين بكثرة مقدار المأكول فيصير للخصي نصيبان نصيبه من شبه النساء ثم اجتماع قوى شهوتيه في باب واحد أعنى شهوة المنكح التي تحولت وشهوة المطعم (قال) وقيل لبعض الاعراب أى شئ آكل قال برذونة رغوث . ولشدة نهم الاناث صارت اللبوة أشد عُرَاما وأنزق اذا طلبت الانسان لتأكله ولذلك صارت اناث الاجناس الصائدة كالاناث من الكلاب وما أشبه ذلك أحرص ما تكون عند ارتضاع جرائها حتى صار ذلك منها سببا للحرص والنهم فى ذلك (ويعرض) له عند قطع ذلك العضو تغير الصوت حتي لايخفى على من سمعه من غير ان يرى صاحبه انه خصي وان كان الذى يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابن عمه أو بعض أترابه من خولة جنسه وهذا المعني يعرض لخصيان الصقالبة اكثر مما يعرض للخراسانية وللسودان من السند والحبشان وما أقل من تجده ناقصا عن هذا المقدار الا وله بيضة أو عرق فليس يحتاج في صحة تمييز ذلك ولا الى رقة الحس فيه الى حذق بقيافة بل تجد ذلك شائعا فى طباع السفلة والغثراء وفى اجناس الصبيان والنساء . ومتى خصى قبل الانبات لم ينبت واذا خصي بعد استحكام نبات الشعر في مواضعه تساقط كله الا شعر العانة فانه وان نقص من غلظه ومقدار عدده فان الباقى كثير ولا يعرض ذلك لشعر الرأس فان شعر الرأس والحاجبين واشفار العينين يكون مع الولادة وانما يعرض لما يتولد من فضول البدن (وقد زعم) ناس ان حكم شعر الرأس خلاف حكم اشفار العينين وقد ذكرنا ذلك فى موضعه من باب القول فى الشعر وهذه الخصال من اماكن شعر النساء والخصيان والفحولة فيه سواء وانما يعرض لسوي

ذلك من الشعر الحادث الاصول الزائد في النبات ألا ترى أن المرأة لا تصلع فناسبها من هذا الوجه فان عرض له عارض فانما هو من القرع لا من جهة النزع والجلح والصلع وكذلك النساء في جميع ذلك * والمرأة ربما كان فى قصاص مقاديم شعر رأسها ارتفاع وليس ذلك بنزع ولا جلح اذا لم يكن ذلك حادثا يحدثه الطعن في السن . وتكون مقاطع شعر رأسه ومنتهى حدود قصاصه كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قصاصها وليس شعرها كلما دنا من موضع الملامسة والانجراد يكون أرق حتى يقل ويضمحل ولكنه ينبت في مقدار ذلك الجلد على نبات واحد ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعا واحداً والمرأة ربما كانت سبلاء وتكون لها شعرات رقيقة زغبية كالعذار موصولا باصداغها ولا يعرض ذلك للخصيّ الا من علة في الخصاء ولا يرى أبداً بعد مقطع من صدغيه شيء من الشعر لا من رقيقه ولا من كثيفه * وقد توجد المرأة ذات لحية وقد رأيت ذلك وأكثرما رأيته في عجائز الدهاقين وكذلك الغبب والشارب وقد رأيت ذلك ايضا وهي ليست في رأى العين بخنثى بل انثي تامة الا ان تكون لم تضرب فى ذلك بالسبب الذى يقوي حتى يظهر فى غير ذلك المكان وليس يعرض ذلك للخصي (وقد ذكر) أهل بغداد أنه كان لابنة من بنات محمد بن راشد الخناق لحية وافرة وانها دخلت مع نساء متنقبات الى بعض الاعراس لترى العُرس وجلوة العروس ففطنت لها امرأة فصاحت رجل والله وأحال الخدم والنساء عليها بالضرب فلم تكن لها حيلة إلا الكشف عن فرجها فنزعن عنها وقد كادت تموت * ويفضل ايضا الخصي المرأة في الانجراد والزعر بأن تجد المرأة زباء الذراعين والساقين وتجد ركب المرأة في الشعر كأنه عانة الرجل . ويعرض لها الشعر في إبطيها وغير ذلك . ولا يعرض للخصى مايعرض للديك اذا خصى ان يذبل غضروف عرفه ولحيته . والخصاء ينقص من شدة الاسر وينقص مبرم القوى ويرخي معاقد العصب ويقرب من الهرم والبلى . ويعرض للخصي ان يشتد وقع رجله على ارض السطح حتى لو تفقدت وقع قدمه وقدم اخيه الفحل لوجدت لوقعه ووطئه شيئاً لا تجده لصاحبه وكأن العضو الذي كان يشد توتير عرق النساء ومعاليق الوركين ومعاليق العصب

لما بطل وذهب الذى كان يمسكه ويرفعه فيخف لذلك وقع رجله صار كالذى لا يتماسك ولا يحمل بعضه بعضا . ويعرض له أن أخوين صقلبيين من أم وأب لو كان أحدهما توأم أخيه انه متى خصي احدهما خرج الخصي منهما أجود خدمة وافطن لابواب المعاطاة والمناولة وهو لها اتقن وبها اليق وتجده ايضا اذكي عقلا عند المخاطبة فيخص بذلك كله ويبقى اخوه على غشاوة فطرته وعلى غباوة غريزته وعلى بلاهته الصقلبية وعلى سوء فهم العجمية . ويد الانسان لا تكون الا خرقاء ولا تصير صناعا ما لم تكن المعرفة ثقافا لها واللسان لا يكون أبرأ ذاهبا فى طريق البيان متصرفا في الالفاظ إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به منقلة له واضعة له في مواضع حقوقه وعلى اماكن حظوظه وهو علة له في الاماكن العميقة ومصرفة له فى المواضع المختلفة * فأول ما صنع الخصاء بالصقلبي تزكية عقله وارهاف حده وشحذ طبعه وتحريك نفسه فلما عرف كانت حركته تابعة لمعرفته وقوته على قدر ماجبة * فأما نساء الصقالبة وصبيانهم فليس الى تحويل طبائعهم ونقل خلقهم الى الفطنة الثاقبة والى الحركة الموزونة والى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة سبيل وعلى حسب الجهل يكون الخرق وعلى حسب المعرفة يكون الحذق وهذا جملة القول فى نسائهم وعلى انهن لا حظوظ لهن عند الخلوة ولا نفاذ لهن في صناعة اذ كن قد منعن فهم المعاطاة ومعرفة المناولة . والخصيان مع جودة آلاتهم ووقارة طبائعهم في معرفة أبواب الخدمة وفى استواء حالهم فى باب المعاطاة لم تر أحدا منهم قط نفذ فى صناعة تنسب الى بعض المشقة وتضاف الى شيء من الحكمة مما يعرف ببعد الروية والغوص بادامة الفكرة الاماذكروا من نفاذ دامة في التحريك للاوتار فانه كان في ذلك مقدما وبه مذكورا الا أن الخصي من صباه يحسن صنعة الدبوق ويجيد دعاء الحمام الضوارى وما شئت من صغار الصناعات (وقد زعم البصريون) ان خديجا الخصى خادم مثنى بن زهير كان يجرى مثنى فى البصر بالحمام وفى صحة الفراسة واتقان المعرفة وجودة الرياضة وسنذكر حاله فى باب القول في الحمام ان شاء الله تعالى . هذا قولهم فيمن خصي من الصقالبة . ولو كنا لعقول

خصيان خراسان أحمد وهم قليل ولذلك لم نأت من أمرهم بشيء مشهور وأمر مذكور (وأما السند) فلم يكن فيهم أيضا من الخصيان الا النفر الذين كان خصاهم موسى بن كعب وقد رأيت أنا بعضهم وزعم لى انه خصى اربعة هو أحدهم ورأيت الخصاء قد جذبه الى حب الحمام وعمل التكك والهراش بالديوك وهذا شىء لم يجر منه على عرق وانما قاده اليه قطع ذلك العضو . فأما الخصيان من الحبشان والنوبة وأصناف السودان فان الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم وينقصهم ولا يزيدهم ويحطهم عن مقادير اخوانهم كما يزيد الصقالبة عن مقادير اخوتهم لان الحبشي متى خصى سقطت نفسه وثقلت حركته وذهب نشاطه ولا بد أن يعرض له فساد لأنه متى استقصى جبابه ولم يتماسك بوله وسلس مخرجه واسترخى الممسك له فان هم لم يستقصوا جبابه فانما يدخل الرجل منزله من له نصف ذلك العضو وعلى انك لا تجد منهم خصيا ابداً إلا وبسرته بجرة وبخة شنيعة وذلك عيب شديد وهو ضرب من الفتق مع قبحه فى العين وشنعته في الذكر وكل ما قبح فى العين فهو مؤلم وكل ما شنع في النفس فهو مؤذ وما أكثر ما تجد فيهم الألطع وذلك فاش فى باطن شفاههم ومتي كانت الشفاه هدُلا وكانت المشافر منقلبة كانت أظهر للطع وهو ضرب من البرص والبياض الذي يعرض لغراميل الخيل وخصاؤها ضرب أيضاً من البرص وربما عرض مثل ذلك لحشفة قضيب المختون إما لطبع الحديد وإما لقدم عهده بالاحداد وسقي الماء الا ان ذلك لا يعدو مكانه وكلما عظمت الحشفة انبسط ذلك البياض على قدر الزيادة فيها وإنما ذلك كالبياض الذي يعرض من حرق النار وتشييطه وكالذى يعرض للصقالبة من التعالج بالكى وربما اشتد بياضه حتى يفحش ويرديه الا أنه لا يفشو ولا ينتشر الا بقدر ما ينبسط مكانه ويتحول صاحبه رجلا بعد أن كان صبيا وليس كالذي يعرض من البلغم ومن المرة . وبعض البرص يذهب حتى كأنه لم يكن وبعضه لا يذهب ولا يقف بل لا يزال يتفشي ويتسع حتى ربما سلخه ولا يذهب الا بان يذهب به شيء فيكون ذلك علامة له . ومن البهق الابيض ما يكون ملحقا بالبرص ولكن الذى هون أمره الذي ترون من كثرة برء الناس منه (ثم

الخصاء) يكون على ضروب ويكون في ضروب . فمن ذلك ما يعرض بعد الكبر للاحرار كما يعرض للعبيد وللعرب كما يعرض للعجم كما خصى بعض عباهلة اليمن علقمة بن سهل الخصي وانما قيل لعلقمة بن عبدة الفحل حين وقع على هذا اسم الخصي وكان عبدا صالحا وهو كان جنب الجزيل وداعرا الفحلين الكريمين الى عمان وكان من نازليها وهو كان أحد الشهود على قدامة بن مظعون في شرب الخمر وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أتقبل شهادة الخصي قال أما شهادتك فأقبل وهو علقمة بن سهل بن عمارة فلما سموه الخصي قالوا لعلقمة بن عبدة الفحل وعلقمة الخصي الذى يقول

فلن يعدم الباقون قبرا لجثتي * ولن يعدم الميراث مني المواليا
حراص على ما كنت اجمع قبلهم * هنيأ لهم جمعى وما كنت واليا
ودايت فى زوراء ثمت اعنقوا * لشأنهمو قد أفردونى وشانيا
فاصبح مالي من طريف وتالد * لغيري وكان المال بالامس ماليا

وكما عرض للدلال ونومة الضحي من خصاء عثمان بن حيان والي المدينة لهما بكتاب هشام ابن عبد الملك فمن بنى مروان من يدعى أن عامل المدينة صحف لانه رأي فى الكتاب أحص من قبلك من المخنثين فقرأها أخص من قبلك من المخنثين * وذكر الهيثم عن الكاتب الذى تولى قراءة ذلك الكتاب أنه قال وكيف يقولون ذلك ولقد كانت الخاء معجمة بنقطة كأنها سهيل فقال البقطرى ماوجه كتاب هشام في احصاء عدد المخنثين وهذا لا معنى له وما كان الكتاب الا بالخاء المعجمة دون الحاء المهملة . وذكر عن مشايخ من أهل المدينة أنهم حكوا عنهما أنهما قالا الآن صرنا نساء بالحق كأن الامر لو كان اليهما لاختارا أن يكونا امرأتين (قال) وذكر انهما خرجا بالخصلتين من الخصاء والتخنيث من فتور الكلام ولين المفاصل والعظام ومن التفكك والتثني الى مقدار لم يروا أحدا بلغه لا من مخنثات النساء ولا من مؤنثى الرجال * وكما عرض لابي همام السنوط من امتلاخ لحم مذاكيره وخصييه أصابه ذلك فى البحر فى بعض المغازى فسقطت لحيته ولقب بالسنوط وخرج لذلك نهما وشرها . وقال ذات يوم لو كان النخل بعضه لا يحمل الا الرطب وبعضه لا يحمل إلا التمر وبعضه لا يحمل

الا المخزع وبعضه لا يحمل الا البسر وبعضه لا يحمل إلا الخلال وكنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة خلق الله مكانها بسرتين لما كان بذلك بأس ثم قال استغفر الله لو كنت تمنيت أن يكون بدل نواة التمر زبدة كان أصوب (ومنه) مايمرض من جهة الاوجاع التي تعرض للمذاكير والخصيتين حتى ربما امتلخهما طبيب وربما قطع احداهما وربما سقطتا جميعاً من تلقاء أنفسهما *والعوام يزعمون أن الولد انما يكون من البيضة اليسري وقد زعم ناس من أهل سليمان بن عليٍّ ومواليهم أن ولد داود بن جعفر الخطيب المعتزلي إنما ولد له بعد أن نزعت بيضته اليسرى لامر كان عرض له. والخصيّ الطيان الذي كان في مسجد ابن زغبان ولد له غلام وكان ليس له إلا البيضة اليمنى فجاء أشبه به من الذباب بالذباب والغراب بالغراب ولو أبصره أجهل خلق الله تعالى بفراسة وأبعدهم من قيافة ومن مخالطة النخاسين أو من مجالسة الاعراب لعلم انه سلالته وخلاصته لا يحتاج فيه الى محرز المدلجي ولا الى ابن كريز الخزاعي (ومن) أهل الملل من يخصى ابنه ويقفه على بيت العبادة ويجعله سادنا كصنيع الروم الا أنهم لايحدثون في القضيب حدثا ولا يتعرضون الا للانثيين كأنهم انما كرهوا لاولادهم إحبال نسائهم ودواهيهم فقط فأما قضاء الوطر وبلوغ اللذة فقد زعموا أنهم يبلغون من ذلك مبلغاً لا يبلغه الفحل كأنهم يزعمون انه يستقصي جميع ماعندها ويستجلبه لفرط قوته على المطاولة وكل خصاء في الدنيا فانما أصله من قبل الروم. ومن العجب انهم نصارى وهم يدعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد مالا يدعيه أحد من جميع الاصناف . وحسبك بالخصاء مثلة وحسبك بصنيع الخاصي قسوة ولا جرم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخصيان من طلب الطوائل وتذكر الاحقاد مالم يظنوه عندهم ولا خافوه من قبلهم فلاهم ينزعون ولا الخصيان ينكلون لان الرماية فيهم فاشية وان كان الخصى أسود أو أبلغ منهم وان كان جمع مع الرماية الثروة واتخذ بطرسوس وأذنة الضياع واصطنع الرجال واتخذ العقد والعبيد المغلة فمضرة كل واحد منهم عليهم تفي بمضرة قائد ضخم ولم تر عداوة قط تجوز مقدار عداوتهم لهم وهذا يدل على مقدار فرط الرغبة في النساء وعلى شهوة شديدة

للمباضعة وعلى أنهم قد عرفوا مقـدار مافقدوا وهـذه خصلة كريمة مع طلب المثوبة وحسن الاحدوثة (فأما الصابئون) فان العابد منهم ربما خصى نفسه فهو فى هذا الموضع قد تقدم الرومي فيما أظهر من حسن النية وانتحل من الديانة والعبادة بخصلة الولد التام وبادخاله النقص على النسل كما فعل ذلك أبو المبارك الصابي . وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون اليه ويسمعون منه ويسمر عندهم للذي يجدونه عنـده من الفهم والافهام وطرف الاخبار ونوادر الكتب وكان قد أربى على المائة ولم أسمع قط بأغزل منه وان كان يصدق عن نفسه فما فى الارض أزنى منه (حدثني) محمد بن عباد قال سمعته يقول وجرى ذكر النساء ومحلهن من قلوب الرجال حتى زعموا أن الرجل كلما كان عليهن احرص كان ذلك أدل على تمام الفحولة فيه وكان اذهب له فى الناحية التى هى في خلقته ومعناه وطبعه اذ كان قد جعل رجلا ولم يجعل امرأة قال ابن عباد فقال لنا ألستم تعلمون أني قد أربيت على المائة فينبغى لمن كان كذلك أن يكون وهن الـكبر ونفاد الذكر وموت الشهوة وانقطاع ينبوع النطفـة قد أمات حنينـه الى النساء وتفكيره فى الغزل قال قلنا صدقت (قال) وينبغى أن يكون من عود نفسه تركهن مدداً وتخلى منهن سنين ودهراً أن تكون العادة وتمرين الطبيعة وتوطين النفس قد حط من ثقل منازعة الشهوة ودواعى الباءة وقد علمتم أن العادة هي الطبيعة الثانية قد تستحكم ببعض عمد هجز للامسة النساء قال قلنا صدقت (قال) وينبغى أن يكون من لم يذق طعم الخلوة بهن ولم يجالسهن متبذلات ولم يسمع حديثهن وخلابتهن للقلوب واستمالتهن للأهواء ولم يرهن منكشفات عاريات اذا تقدم له ذلك مع طول الترك أن لا يكون بقى معه من دواعيهن شيء قال قلنا صدقت (قال) وينبغي ان يكون لمن قد علم أنه مجبوب وان سببه الي خلاطهن محسوم أن يكون اليأس من أمتن أسبابه الى الزهـد والسلوة والي موت الخواطر قال قلنا صدقت (قال) وينبغي أن يكون من دعاه الزهد فى الدنيا وفيما يحتويه النساء مع جمالهن وفتنة النساك بهن واتخاذ الانبياء لهن الى أن خصى نفسه ولم يكرهه عليه أب ولا عدوٌ ولا سباه ساب أن يكون مقدار ذلك الزهد هو المقدار الذي يميت الذكر لهن

ويسرّى عنه ألم فقد وجودهن . وينبغي لمن كان في مكانه أن لا ينسى العزم ويختار الارادة التي يصيب بها الى قطع ذلك العضو الجامع لكبار اللذات والى مافيه من الألم ومع مافيه من الخطر والى ما فيه من المثلة والنقص الداخل على الخلقة أن تكون الوساوس في هذا الباب لا تعروه والدواعي لا تطرّوه قال قلنا صدقت (قال) وينبغي لمن سخت نفسه عن السكن وعن الولد وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح أن يكون قد نسي هذا الباب ان كان قدمرّ منه على ذكر . هذا وأنتم تعلمون أني سملت عيني يوم خصيت نفسي فقد نسيت كيفية الصور وكيف تروع وجهلت المراد منها وكيف تراد فما كان ذلك حريا أن تكون نفسه ساهية لاهية مشغولة بالباب الذي احتمل له هذه المكاره قال قلنا صدقت (قال) أو ليس لو لم أكن هرما ولم يكن هاهنا طول اجتناب وكانت الآلة قائمة الا أني لم أذق حيوانا منذ ثمانين سنة ولم تمل عروقي من الشراب مخافة الزيادة في الشهوة والنقصان من العزم لكان في ذلك ما يقطع الدواعي ويسكن الحركة ان هاجت قال قلنا صدقت (قال) فاني بعد جميع ما وصفت لكم لأسمع نغمة المرأة فأظن مرة ان كبدي قد ذابت وأظن مرة انها قد انصدعت وأظن مرة ان عقلي قد اختلس وربما اضطرب فؤادي عند ضحك احداهن حتى اظن أنه قد خرج من فمي فكيف ألوم عليهن غيري * فان كان حفظك الله تعالى قد صدق على نفسه في تلك الحال بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال فما ظنك بهذا قبل هذا الوقت بنحو ستين سنة أو سبعين سنة وما ظنك به قبل الخصاء بساعة وليس في الاستطاعة ولا في صفة الامكان أن يحتجز عن ارادة النساء ومعه من الحاجة اليهن والشهوة لهن هذا المقدار الله تعالى أرحم بخلقه وأعدل على عباده من أن يكلفهم هجران شيء قد وصله بقلوبهم هذا الوصل وأكده هذا التأكيد . وقد خصى نفسه من الصابئين رجال قد عرفناهم بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحاديثهم وفي الذي ذكرنا كفاية ان شاء الله تعالى (وقد ذكر) ان عثمان بن مظعون استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال سياحة أمتي الجماعة واستأذنه في الخصاء فقال خصاء أمتي الصوم والصوم وجاء . فهذا خصاء الديانة

(فأما) من خصى الجلب على جهـة التجارة فانه يجب القضيب ويمتلخ الانثيين الا ان تقلصت احـداهما من فرط القرع فتصير الى موضـع لايمكن ردها الا بعـلاج طويل فللخاصي عنـد ذلك ظلم لايفي به ظلم وظلم يربى على كل ظلم لانه عنـد ذلك لايحفـل بموت المقاص ويقطع ماظهر له فان برئ مجبوب القضيب أوذا بيضة واحدة فقـد تركه لا امرأة ولا رجلا ولا خصيا وهو حينئذ ممن تخرج لحيته وممن لايدعه الناس في دورهم ومواضع الخصوص من بيوتهم فلا يكون مع الخصيان مقربا ومكرما وخصيب العيش منعما ولاهو اذا رمى به في الفحول كان له ماللفحول من لذة غشيان النساء ومن لذة النسل والتمتع بشم الاولاد فلم يزل عند الفحول مستضعفا محتقرا وعند الخصيان مجرحا مطرحا فهو اسوأ حالا من السدم المعنى فلا أعلم قتله اذا كان القتل قتلة صريحة مريحة الا أصغر عند الله تعالى وأسهل على هذا المظلوم من طول التعذيب والله تعالى بالمرصاد ﴿ وأما خصاء البهائم ﴾ فمنه الوجاء وهو ان يشد عصب مجامع الخصية من أصل القضيب حتى اذا ندرت البيضة وجحظت الخصية وجأها حتى يرضها فهى عند ذلك تذبل وتنخسف وتذوى وتستدق حتي تذهب قواها وتنسـد المجارى اليها ويسرى ذلك الفساد الى موضع تربية النطفة فيمنعها من ان تـكثر أو تعـذب أو تخثر (ومنها) مايكون بالشد والعصب وشدة التحزيق والعقد بالخيط الشديد الوتير الشديد الفتل فاذا تركه على ذلك عمل فيه وحز أو أكل ومنعه من أن يجرى اليه الغذاء فلا يلبث ان ينقطع ويسقط (ومنه) الامتلاخ وهو امتلاخ البيضتين (فأما خصاء الناس) فان للخاصي حديدة مرهفـة محماة وهي الحاسمة وهى القاطعة قال أبو زيد خصيت الدابة أخصيها خصاء ووجأتها أجؤها وجاء ويقال برئت اليـك من الخصاء أوالوجاء ولا يقال ذلك الالما كان قريب العهد لم يبرأ منه فاذا برئ لم يقله . وأما الخصاء فهو أن يسل الخصيتين والوجاء ان توجأ العروق والخصيتان على حالهما . والمعصوب من التيوس الذى تعصب خصيتاه حتي تسـقطا . والواحـد من الخصيان خصى ومخصيّ ويقال ملست الخصيتين أملسهما ملسا ومتنتهما أمتنهما متنا وذلك ان تشـق عنهما الصفن

فتسلهما بعروقهما . والصفن جلدة الخصيتين والخصاء في أحداث البهائم وفى الغنم خاصة يدع اللحم رخصا ونديا عذبا فان خصاه بعد الكبر لم يقو خصاؤه بعد استحكام القوة على قلب طباعه. وأجود الخصاء ما كان فى الصغر وهو يسمى بالفارسية بربخت يعني بذلك أنه خصي رطبا والخصىّ من فحولها احمل للشحم لعدم الهيج والنعظ وخروج قواه عما يجامع الفحلة. وكثرة السفاد تورث الضعف والهزال فى جميع الحيوان (وقد ذكر) لمعاوية كثرة الجماع فقال ما اشتهر به أحد الا رأيت ذلك في متنه. والديك يخصى ليرطب لحمه ويطيب ويحمل الشحم . وكانت العرب تخصى فحولة الابل لئلا يأكل بعضها بعضا وتستبقي ما كان أجود ضرابا وأكثر نسلا وكل ما كان مساسا وكان شابا ولم يكن مذكارا وهم يسمون المذكار الحق الخفيّ وما كان منها عياياء طباقاء فنها ما يحمل السدم المعنى . واذا كان الفحل لا يتخذ للضراب شدوا ثيله شدا شديداً وتركوه يهدر ويقبقب في الهجمة ولا يصل اليهن وان أردنه فاذا طلبن الفحل جئ لهن بفحل قعسريٍ ويقولون لقوة لاقت قبيسا والقبيس من الجمال السريع الالقاح واللقوة السريعة القبول لماء الفحل (وشكت) امرأة زوجها وأخبرت عن جهله باتيان النساء وعيه وعجزه وأنه اذا سقط عليها أطبق صدره والنساء يكرهن وقوع صدور الرجال على صدورهن فقالت زوجي عياياء طباقاء وكل داءٍ له داء (وقال الشاعر)

طباقاء لم يشهد خصوما ولم يكن * ركابا الى أكوارها حين تعلف

وكانوا يخصون الخيل للتشبه بذلك ولعلة صهيلها ليلة البيات واذا أكمنوا الكمنا. وكانوا هرابا (ويزعم) من لا علم له أن الخنزير في الخيل هو الخصىّ وكيف يكون ذلك كما قال مع قول خفاف بن ندبة * وخنازير خصية وفحولا * وقال بشر بن أبى حازم

وخنزير ترى الغرمول منه * كطي البرد يطويه التجار

وليس هذا أراد بشر وانما أراد زمان الغزو والحال التي يعتري الخيل فيها هذا المعنى كما قال جد الاحيمر

لا لا أعقّ ولا أحوِ * بِ ولا أغير على مضرِ

لـكنما غزوي اذا * ضج المطيُّ من الدبر

وانما نخر بالغزو في ذلك الزمان وأما الخنزير فهو الـكريم التام وربما وصفوا به الرجل (وقال كثير)

على كل خـنزير الضحى متمطراً * وخيفانة قد هذب الجرى آلها

(وقال القطامي)

كل خنزير السراة مقلص * تخنث منه لحمه المتـكاوس

(ومن الدليل) على انهم ربما جعلوا الرجل اذا ما مدحوه خنزيراً قول بعض القسيسين من قيس بن ثعلبة

دعوت بني سعد إليَّ فشمرت * خنازير من سعد طوال السواعد

(وقال) عبد الله بن الحرث وكتب بها الى عبد الملك بن مروان حين فارق مصعبا

بأيِّ بلاءٍ أم بأية عـلة * يقـدم قبلى مسـلم والمهلب

ويدعي ابن منجوت امامي كأنه * خصىٌّ دنا للماء من غير مشرب

فقلت ليونس أقوى فقال الاقواء أحسن من هذا قال فلما أخذته قيس نصبوه فجعلوا يرمونه بالنبل ويقولون أذاتَ منازلٍ ترى فلما أتى مصعب برأسه قال لسويد يا أبا المنهال كيف ترى قال أيها الأمير هو والله الذي أتى الماء من غير مشرب (وقال أعشى همدان)

وأبو بريذعة الذي حدثته * فينا أذل من الخصيِّ الريذج

(وتعرض) للخصى سرعة الدمعة وذلك من عادة طبائع الصبيان ثم النساء فانه ليس بعد الصبيان أغزر دمعة من النساء وكفاك بالشيوخ الهرمين (ويعرض) للخصي العبث واللعب بالطير وما أشبه ذلك من أخلاق النساء وهو من اخلاق الصبيان ايضاً (ويعرض) له الشره عند الطعام والبخل عليه والشح العام فى كل شئ وذلك من أخلاق الصبيان

(وقال الشاعر)

كأن أبا رومان قيساً اذا غدا * خصي براذين يقاد رهيص

له معدة لا يشتكي الدهر ضعفها * وحنجرة بالدورقـين قموص

(ويعرض) للخصي سرعة الغضب والرضا وذلك من أخلاق الصبيان والنساء (ويعرض) له حب النميمة وضيق الصدر بما أودع من السر وذلك من اخلاق الصبيان والنساء (ويعرض) له دون أخيه لامه وأبيه ودون ابن عمه وجميع رهطه البصر بالرفع والوضع والكنس والرش والطرح والبسط والصبر على الخدمة وذلك يعرض للنساء (ويعرض) له الصبر على الركوب والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز فى ذلك رجال الاتراك وفرسان الخوارج ومتى دفع اليه مولاه دابته ودخل الى الصلاة أو ليغتسل في الحمام أوليعود مريضا لم يترك أن يجرى تلك الدابة ذاهبا وجائياً الى رجوع مولاه اليه (ويعرض) له حب الرمي بالنشاب للذي يدور فى نفسه من حب غزو الروم (ويعرض) له حب ان تملكه الملوك على أن لا تقيم له الا القوت ويكون ذلك أحب اليه من أن تملكه السوقة وان ألحقته بعيش الملوك (ومن) العجب أنهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال الى طبائع النساء لا يعرض لهم التخنيث وقد رأيت غير واحد من الاعراب مخنثاً متفككا ومؤنثاً يسيل سيلا ورأيت عدة مجانين مخنثين ورأيت ذلك في الزنج الاقحاح وقد خبرني من رأى كردياً مخنثاً ولم أر خصياً قط مخنثاً ولا سمعت به ولا أدرى كيف ذلك ولا أعرف المانع منه ولكن كان الامر في ذلك الى ظاهر الرأى ولقد كان ينبغى لهم أن يكون ذلك فيهم عاما (ومما) يزيدنى في التعجب من هذا الباب كثرة ما يعرض لهم من الحلاق مع قلة ما يعرض لهم من التخنيث مع مفارقتهم لشطر معانى الرجال الى شبه النساء (ويزعم) كثير من الشيوخ المعمرين وأهل التجربة المميزين انهم اختبروا أعمار ضروب الناس فوجدوا أطول الاعمار فى الخصيان أعم منه في مثل أعدادهم من جميع أجناس الرجال وأنهم تفقدوا أعمارهم وأعمار اخوتهم وبني أعمامهم الذين لم يخصوا فوجدوا طول العمر في الخصيان أعم ولم يجدوا فى عموم طوال العمر فيهم واحداً نادراً كفلان وفلان من الفحول (وزعموا) أنهم لم يجدوا لطول أعمارهم علة الا عدم النكاح وقلة استفراغ النطف لقوى أصلابهم (قالوا)وكذلك لم نجد فيما يعايش الناس في دورهم من الخيل والأبل والحمير والبقر والغنم والكلاب والدجاج

والحمام والديكة والعصافير أطول أعماراً من البغال (وكذلك) قالوا وجدنا أقلها أعماراً العصافير وليس ذلك إلا لكثرة سفاد العصافير وقلة سفاد البغال وجعل هؤلاء القوم زيادة عمر البغل على عمر أبويه دليلا على ان قول الناس لايعيش أحد فوق عمر أبويه خطأ وأولئك إنما عنوا الناس دون جميع الحيوان (وقالوا) قد وجدنا غرمول البغل أطول من غرمول الحمار والفرس والبرذون وهؤلاء أعمامه وأخواله فقد وجدنا بعض النتاج المركب وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل ووجدنا الحمام الزاغبي أعظم من الورشان الذى هو أبوه ومن الحمامة التى هي أمه ولم نجده أخذ من عمر الورشان شيئاً وخرج صوته من تقدير أصواتهما كما خرج شحيج البغل من نهيق الحمار وصهيل الفرس وخرج الزاغبي مسرولا ولم يكن ذلك في ابويه وخرج مثقلاسيء الهداية وللورشان هداية وان كان دون الحمام وجاء اعظم جثة من ابويه. ومقدار النفس من ابتداء هديله الى منقطعه أضعاف مقدار هديل أبويه. وفوالج البخت اذا ضربت فى اناث البخت لم يخرج الحوار الا أنانا قصير العنق لاينال كلأً ولا ماء الا بأن يرفعا اليه فيصير لمكان نقصان خلقه جزور لحم ولا يكون من اليعملات ولا من السابقة ولو عالوه وكفوه مؤنة تكليف المأكول والمشروب ثم بلغ الى ان يصير جملا يمكنه الضراب. وكذلك الحائل الى أن تصير ناقة فلو القحها الفحل لجاء ولدها أقصر عنقا من الفيل الذى لو لم يجعل الله تعالى له خرطوما يتناول به طعامه وشرابه لمات جوعا وهزالا وليس كذلك العراب. واذا ضربت الفوالج فى العراب جاءت هذه الجواميز والبخت الكريمة التي تجمع عامة خصال العراب وخصال البخت فيكون مايخرج التركيب من هذين الجنسين أكرم وانجم وانفس وأثمن. ومتي ضربت فحول العراب فى اناث البخت جاءت هذه الابل البهوتية فتخرج أقبح منظرا من أبويها وأشد أسرا من أبويها (وبعد) فان هذه الشهرية الخراسانية يخرج لها أبدان فوق أبدان أمهاتها وآبائها من الخيل والبراذين وتأخذ من عتق الخيل ومن وشاجة البراذين وليس نتاجها كنتاج البرذون خالصاً والفرس خالصا . وما أشبه قرابة الحمار بالرمكة والحجر

من قرابة الجمل الفالج البختي بقرابة القلوص الاعرابية . ويقال ان الحمر الوحشية بخاصة الاخدرية أطول الحمير أعمارا وانما هى من نتاج الاخدر فرس كان لازدشير بن بابك صاد حمارا وحشيا فحمى عدة عانات فضرب فيها فجاء أولاده منها أعظم من سائر الحمر وأحسن وخرجت أعمارها عن أعمار الخيل وسائر الحمر أعني حمر الوحش فان اعمارها تزيد على الاهلية مراراً عدة . ولا يعرفون حماراً وحشيا عاش اكثر وعمر أطول من عير أبي سيارة عميلة بن أعزل فانهم لا يشكون انه دفع عليه بأهل الموسم أربعين عاما قال الاصمعي لم يكن عيراً وانما كان اتانا (وزعموا) وكذلك هو في كتبهم ان ملوك فارس كانت لهجة بالصيد الا أن بهرام هو المشهور بذلك في العوام * وهم يزعمون ان فيروز بن قباد الملك الفارسى ألح فى طلب حمار أخدري وقد ذكر له ووصف فطاوله عند طلبه والتماسه وجد فى ذلك فلج به عند طلبه الاغترام وأخرجته الحفيظة الى أن آلى أن لا يأخذه الا أسرا ولا يطارده الا فردا اقتداراً لخيار الارض الرخوة فحمل فرسه عليه فخطه في خبار فجمع جراميزه وهو على فرسه ووثب فاذا هو على ظهره فقمص به فضم فخذيه فحطم بعض أضلاعه ثم أقبل به الى معظم الناس وهم وقوف ينظرون اليه وهو راكبه (قالوا) وكان الملك منهم اذا أخذ عيراً أخدريا وغير ذلك فاذا وجده متينا وسمه باسم وأرخ في وسمه يوم صيده وخلى سبيله (وكان) كثيراً إذا ما صاده الملك الذي يقوم به بعده سار فيه مثله تلك السيرة وخلى سبيله فعرف آخرهم صنيع أولهم وعرفوا مقدار مقادير أعمارها . ولولا ان ناسا من كل جيل وخصائص من كل أمة يلهجون ويكلفون بتعرف معانى آخرين لدرست . ولعل كثيرا من هؤلاء يزري على أولئك ويعجب الناس من تفرغهم لما لا يجدى وتركهم التشاغل بما يجدي فالذي حبب لهذا ان يرصد عمر حمار أوورشان أوحية أو ضب هو الذى حبب الي الآخر ان يكون صياداً للافاعى والحيات يتتبعها ويطلبها في كل واد وموضع وجبل للترياقات وسخر هذا ليكون سائس الاسد والفهود والنمور والببور وترك من تلقاء نفسه ان يكون راعي غنم * والذى فرق هذه الاقسام وسخر هذه النفوس وصرف هذه العقول لاستخراج

هذه العلوم من مدافنها وهذه المعاني من مخابيها هو الذي سخر بطليوس مع ملكه وفلانا وفلانا للتفرغ للامور السماوية ولرعاية النجوم واختلاف مسير الكواكب وكل ميسر لما خلق له لتتم النعمة وتتكمل المعرفة وانما تأبى التيسير للعاصي (فأما الصناعات) فقد تقصر الاسباب بعض الناس على أن يصير حائكا وتقصر بعضهم على أن يكون صيرفيا فهي وان قصرته على الحياكة فلم تقصره على خلف المواعيد وعلى ابدال الغزول وعلى تشقيق العمل دون الاحكام والصدق وأداء الامانة ولم تقصر الصيرفيّ على التطفيف في الوزن والتغليط في الحساب وعلى دس المموّه تعالى الله عزوجل عن ذلك علواً كبيرا * ولوكان أمر النتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج الى تقدير الرأى وما هو أقرب الى الظن لكانت الأخفاف تجري مجرى الحوافر والاخفاف ألا ترى ان قرابة الضأن من الماعز كقرابة البخت من العراب والخيل من الحمير وسبيل نتائج الظلف على خلاف ذلك لان التيس على شدة غلمته لا يعرض للنعجة وكذلك الكبش والعنز فضلا عن أن يكون فيها نتائج لانه قد يضرب الجنس في الجنس الذى لا يلقحه ولا يكون اللقاح الا بعد ضراب ويطلب التيس للنعجة قليلا وأقل من القليل وكذلك الكبش للعنز وأقل من ذلك ان لا يتلاقح ولا يمنع ذلك الولد البتة (وقد تجاسر) ناس على توليد أبواب من هذا الشكل فادعوا أمورا ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان (زعموا) أن الزرافة خلق مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية وبين الذيخ وهو ذكر الضباع . وذلك انهم لما رأوا ان أسماءها بالفارسية (اشتركاويلنك) وتأويل اشتر بعير وتأويل كاو بقرة وتأويل يلنك الضبع لان الضباع عرج كذلك الذكر والانثى يكون بهما خماع كما عرض للذئب القزل وكل ذئب أقزل وكما أن كل غراب يحجل كما يحجل المقيد من الناس وكما ان العصفور لا يمشى ومشيه ان يجمع رجليه أبداً معا فى كل حركة وسكون وقولهم للزرافة اشتركاويلنك اسم فارسي والفرس تسمى الاشياء بالاشتقاقات كما تقول للنعامة اشترمرغ وكانهم في التقدير قالوا هو طائر وجمل فلم نجد هذا الاسم أوجب

أن تكون النعامة نتاج مابين الابل والطير ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سموها بذينك الشيئين وهم يسمون الشيء المرّ الحلو ترش شيرين وهو فى التفسير حلو حامض فجسر القوم فوضعوا التفسير اسما للزرافة حديثا وجعلوا الخلقة ضربا من التراكيب فقالوا قد يعرض الذيخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها فتلقح بولد يجيء خلقه مابين خلق الناقة والضبع . فان كان أنثى فيعرض لها الثور الوحشيّ فيضربها فيصير الولد زرافة . وان كان ولد الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها فتلد زرافة (فمهم) من حجر البتة أن تكون الزرافة الانثى تلقح من الزرافة الذكر . وزعموا ان كل زرافة فى الارض انما هي من النتاج الذى ركبوا وزعموا ان ذلك مشهور في بلاد الحبشة وأقاصى اليمن (وقال آخرون) ليس كل خلق مركب لاينسل ولا يبقى نجله ولا يتلاقح نسله على ماحكينا من شأن الوردانى والزاغبي . وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم ويتهمون الكتب وتغرهم كثرة أتباعهم ممن تجده مستهتراً بسماع الغريب ومغرما بالطرائف والبدائع ولو أعطوا بدلا من هذا الاستهتار نصيبا من التثبت وحظا من التوقى لسلمت الكتب من كثير من الفساد * وأنا رأيت طائراً له صوت غير حسن فقال لى صاحب الطيور انه من نتاج مابين القمرىّ والفاختة . وقناص الطير ومن يأتي كل أودية وغيضة فِي التماس الصيد يزعمون ان أجناساً من الطير الأوابد والقواطع تلتقى على المياه فتتسافد وأنهم لا يزالون يرون أشكالا لم يروها قط فيقدرون أنها من تلافح تلك المختلفة (وقال أبو زيد النحوى) وذكر عمن لقى من الاعراب أنهم زعموا أن ذكر أم حبين هو الحرباء قال وسمعت اعرابيا من قيس يقول لأم حبين حبينة والحبينة هو اسمها قال وقيس تسمى ذكر العظاءة العضرفوط (وقال يحيي الاغر) سمعت اعرابيا يقول لا خير فى العظاءة وان كان ضبا مكونا (قال) فاذاً سامّ أبرص والورل والوحر والضب والحلكاء كلها عنده عظاءة (وزعم يحيي بن عليم) ان الثعلب يسفد الهرة الوحشية فيخرج بينهما ولد وأنشد قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه

أبوك أبوك وأنت ابنه * فبئس البنيُّ وبئس الأب
وأمك سوداء ما دونه * كأن أناملها العنظب
يبيت أبوك بها مُعْرِساً * كما ساور الهرة الثعلب

(وأنشد) أبو عبيدة قول عبد الرحمن بن الحكم

ألا أبلغ معاوية بن حرب * مغلغلة عن الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف * وترضى أن يقال أبوك زاني
فأشهد أن آلك من قريش * كرحم الفيل من ولد الاتان

(قال كيسان) ولأى شي قال * كرحم الفيل من ولد الاتان * انما كان ينبغي أن يقول كرحم الفيل من الخنزير قال أبو عبيدة أراد هو التبعيد بعينه وأنت تريد ماهو أقرب (وزعم) بعض المفسرين وأصحاب الاخبار ان أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفأر فعطس الأسد عطسة فرمى من منخريه بزوج سنانير فلذلك السنور أشبه شئ بالأسد وسلح الفيل زوج خنازير فلذلك الخنزير أشبه شئ بالفيل (قال كيسان) فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السنانير وتلك السنورة حواءها وضحك القوم (ولما) رأى أبو قردودة سعدَ القرقرة أكل عند النعمان مسلوخا بعظامه قال

بين النعام وبين الكلب منبته * وفي الذئاب ظئيرات وأخوال

يقول ان سعداً ضرب فى اعراقه نجل النعام فهو يلتهم الجمر ويلتقم الحجارة فيطفئ الجمر ويميع الصخر وضرب في اعراقه الكلب الذي يرض كل عظم ولا يقبض عليه بكفه الا وهو واثق بفته ولا يسيغه الا وهو على ثقة من استمرائه . فاما الذئب فانه لا يروم بفكيه شيئاً الا ابتلعه بغير معاناة عظما كان أو غيره مصمتا كان أو أجوف ولذلك قال الراجز

اطلس يخفى شخصه غبارُه * فى فمه شفرته وناره

فأبو قردودة لم يرد ان الذئب والكلب خالاه وان النعام نجله وانما قال ذلك على المثل والتشبيه ولم يرد أن له ظئراً من الكلاب وخالا من الذئاب وليس ذلك على

قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس يانطف الخمار وتزايغ الظؤرة وأشباه الخؤلة (وعلى) شبيه بذلك قال سلام بن قتيبة لبعض من ذكره وهو عند سليمان بن علىٍّ أيها الامير ان آل فلان اعلاج خلق الله وأوباشه لئام غدر شرابون مانقع لهم ثم هذا بعد فى نفسه نطفة خمار في رحم صناجة (وقال) لى أبو اسحق قال لى أبو العباس وأبو العباس هذا كان ختن ابراهيم على أخته وكان رجلا يدين بالنجوم ولا يقرُّ بشئ من الحوادث الا بما يجرى على الطباع (قال) أبو اسحق وقال لى مرة أتعرف موضع الحظوة من خلوة النساء قلت لا والله لاأعرفه قال بل اُعلم أن لايكون الحظ الا في نتاج شكلين متباينين فالتقاؤهما هوالا كسير المؤدي الى الخلاص وهو ان تزاوج بين هندية وخراسانيٍّ فانها لاتلد الا الذهب الابريز ولكن احرس ولدها ان كان الولد أنثى فاحذر عليها من شدة لواط رجال خراسان وزناء نساء الهند واعلم ان شهوتها للرجال على قدر حظوتها عندهم واعلم أنها ستساحق النساء على اعراق الخراسانية وتزنى بالرجال على اعراق الهند واعلم انه مما يزيد فى زناها ومساحقتها معرفتها بالحظوة عند الزناة وبالحظ عند السحاقات (وقالوا) فى الخلق المركب ضروبا من الحق والباطل ومن الصدق والكذب . فمن الباطل زعمهم ان الشبوط ولد الزخر من البنيّ وان الشبوط لايخلق من الشبوط وانه كالبغل وتركيبه وأنساله ورووا ذلك عن أبي واثلة اياس بن معاوية (وزعموا) انأم جعفر بنت جعفر بن المنصور حضرت في حوض لها ضخم أو بركة كبيرة عددا كثيراً من الزخر والبنيّ وانها لم تخلط بهما غيرهما فمات أكثره وبقيت بقية كانت الصميم فى القوة وفى احتمال تغير المكان فلم تحمل البيض حمائم انما حملت بالشبابيط (وزعم) حريث انه كان بأيدج فاذا سحابة ضحياء تكاد تمس الارض وتكاد تمس قمم رؤسهم وانهم سمعوا فيها كاصوات المجانيق وكهدير الفحول في الاشوال ثم انها دفعت بأشد مطر رؤى أو سمع به حتى استسلموا للغرق ثم اندفعت بالضفادع العظام ثم اندفعت بالشبابيط السمان الخزال فطبخوا واشتووا وملحوا وادخروا (ورووا) عن أبي واثلة انه زعم ان من الدليل على ان الشبوط كالبغل أن الناس لم يجدوا في

طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بيض قط فان كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً فما أعظم المصيبة علينا فيه وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً وذلك اني سمعت له كلاما كثيرا من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس يدل على ان الرجل حين أحسن فى أشياء وهمه العجب بنفسه انه لا يروم شيئا فيمتنع عليه وغرّه من نفسه الذى غرّ الخليل بن احمد حين أحسن في النحو والعروض فظن انه يحسن الكلام وتأليف اللحون فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما الا المرة المحترقة ولا يؤدي الى مثل ذلك الا الخذلان من الله تعالى فان الله عز وجل لا يعجزه شئ * والشبوط حفظك الله تعالى جنس كثير الذكور قليل الاناث فلا يكون اناثه أيضاً يجمعن البيض واذا جمعن فلو جمعت بيض عشر منهن لما كان كشطر بيض بنية واحدة فقد رأيت بعض الشبوط وذقته للتعرف فوجدته غير طائل ولا معجب وكل صياد تسأله فهو ينبيك ان له بيضا ولكنه اذا كان يكون ضئيلا قليلا لان الشبابيط فى أصل العدد من أقل السمك وكذلك الجنس منه اذا كانت الانثى منه مذكارا على أنه رب نهر يكون أكثر سمكه الشبوط وذلك قليل كنهر رامهرمز والشبوط لا يتربى فى البحار ولا يسكن الا في الاودية والأنهار ويكره الماء الملح ويطلب الاعذب فالاعذب ويكون في الماء الجارى ولا يكون في الساكن وسنذكر شأنه فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى . ولم يصب أبو وائلة وكذبوا على أم جعفر فاذا قالوا فى الزرافة ماقالوا فلا تأمنهم على ماهو دونه . وان كان من كذب على الموتى واستشهد الغيب أحذق فصاحب الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة وصاحب الشبوط يكذب على الاحياء ويستشهد الحضور . وان كان الذى دعا الى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلا على تركيب الخلق فالجاموس بالفارسية كاوماش وتأويله ضاني بقرى لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور وليس ان الكباش ضربت فى البقر فجاءت بالجواميس (وزعم) الفرس ان الحيوان كله الذي يلد حيوانا مثله مما يمشي على أربع قوائم لا تخلو أجناسها من المعز والضأن

والجواميس عندهم ضأن البقر والبخت عندهم ضأن الابل والبراذين عندهم ضأن الخيل (والناس) يقولون في الابل أقاويل عجيبة . فمنهم من يزعم ان فيها عرقا من سفاد الجن وذهبوا الى الحديث انهم انما كرهوا الصلاة فى اعطان الابل لأنها خلقت من اعراق الشياطين فجعلوا المثل والمجاز وجعلوا المجاز على غير جهته وقال ابن ميادة

فلما أتاني ما تقول محارب * تغنت شياطين وجن جنونها

(قال الأصمعي) المأثور من السيوف الذي يقال ان الجن عملته * وهم يسمون الكبر والخنزوانة والنعرة التي تضاف الى أنف المتكبر شيطانا قال عمر حتي انزع شيطانه كما قال حتي انزع النعرة التي فى أنفه . ويسمون الحية اذا كانت داهية منها شيطانا وهو قولهم شيطان الحماطة (قال الشاعر)

تعاجِ متنا حضرمىٍّ كأنه * تعمج شيطان بذي خروع قفر

شبه الزمام بالحية . وعلى مثل ذلك قال الشاعر

شناحية فيها شناح كأنها * حباب بكف الشاو من أسطع حشر

والحباب الحية الذكر وكذلك الايم . وقد نهي عن الصلاة عند غيبوبة الشمس وعند طلوع القرص الى ان يتمّ ذلك وفي الحديث انها تطلع بين قرني شيطان . فللعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وارادتهم ولتلك الالفاظ مواضع أخر ولها حينئذ دلالات أخر فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل فاذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك (وزعم) ناس ان من الابل وحشياً وكذلك الخيل وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير وماسوي ذلك من الحمير والسنانير[٢] والحمام وغير ذلك فزعموا أن تلك الابل تسكن أرض وبار لانها غير مسكونة ولأن الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء اطلب (قالوا) وربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض فيضرب في أدني هجمة من الابل الأهلية . قالوا فالمهرية من ذلك النتاج (وقال) آخرون هذه الابل الوحشية هي الحوش وهى التى من بقايا ابل وبار فلما أهلكهم الله تعالى كما اهلك الأمم مثل عاد وثمود والعمالقة

وطسم وجديس وجاسم بقيت إبلهم في اما كنهم التى لا يطردها احد فان سقط الى تلك الجزيرة بعض الخلفاء أوبعض من اضل الطريق حثا الجن في وجهه فان الحّ خبلته فضربت هذه الوحوش فى العمانية فجاءت هذه المهرية وهذه العسجدية التى تسمى الذهبية (وأنشد) ابن سعدان المكفوف عن أبي العميثل قول الراجز

ماذم ابلى عجم ولا عرب * جلودها مثل طواويس الذهب

(وقال الآخر)

اذا اصطكت بضيق حجرتاها * تلاقي العسجدية واللطيم

والعسجد من أسماء الذهب (قالوا) وانما سميت صاحبة يزيد بن الطثرية حوشية على المعنى هذا وقال رؤبة * جرت رجانا من بلاد الحوش * وأما الذى زعم انهم مطروا الشبوط فانه لماظن ان الضفادع التى تصاب بعقب المطر بحيث لاماء ولا وحل ولا عين ولا شريعة فانهم ربما رأوها وسط الدور والدهناء والسنان ولم يشك انها كانت فى السحاب وعلم انها تكون في الانهار ومنابع المياه وليس ذلك من الذكر والانثى قاس على ذلك الظن السمك ثم جسر فجعل السمك شبوطاً . وتلك الضفادع انما هي شيء يخلق تلك الساعة من طباع الماء والهواء والزمان وتلك التربة على مقادير ومقابلات وعلى ما أجري الله تعالى عليه نشأ الخلق (وقد) تعرف القرابة التي تكون في رأي العين بين الشكلين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافد ولا تلاقح كالضأن والمعز وكالفأر والجرذان فليس بالعجب في البقر والجواميس ان تكون كذلك . وقد رأينا الخلاسيّ من الدجاج والديكة وهو الذى تخلق من بين المولدات والهنديات وهي تحمل اللحم والشحم (وزعم) لى مسعود بن عثمان انه أهدي الى عمرو بن مسعدة دجاجة ووزن فيها سبعة عشر رطلا بعد طرح الاسقاط واخراج الحشوة . ورأينا الخلاسيّ من الناس وهو الذى يتخلق بين الحبشى والبيضاء والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه وأقوى من أصليه ومثمريه . ورأينا اليسري من الناس وهو الذي يخلق من بين البيض والهند لايخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الابوين وقوتهما ولكنه يجيء أحسن وأملح وهم يسمونه

الماء اذا خالطته الملوحة يسيرا قياساً علي هـذا التركيب الذي حكينـا عن البيض والهنديات ، ورأينا الخلاسي من الكلاب وهو الذى يخلق بين السلوقى وكلب الراعي ولا يكون ذلك من الزيني والقلطيّ ومن كلاب الدور والحراس ، وسنقول فى السمع والعسبار وفي غيرهما من الخلق المركب ان شاء الله تعالى (وذكروا) أنهم وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع ، أولها مرو حمير ثم فرغانة ثم اليمامـة وان فى الاعراب لأعماراً أطول على أن لهم فى ذلك كذبا كثيراً والهند تزرى عليهم فى هذا المعنى هكذا يقول علماء العرب (وكان) عثمان ماش ويزال وجذعان يذكرون انهم عدوا أربعين فتى من فتيان قريش وثقيف اعـذار عام واحد فأحصوا عشرين من قريش وعشرين من ثقيف وتوخوا المتجاورين فى المحـلة والمتقاربين فى الدور من الموفرين على النبيذ والمقصورين على التنادم وأنهم أحصوا مثل ذلك العدد واشـباه أولئك في السن ممن لا يذوق النبيذ ولا يعرف شرابا الا المـاء فذكروا انهم وجدوا بعد مرور دهر عامة من كان يشرب النبيذ حياً ومن لا يشرب به قد مات عامتهم وكانوا قد بلغوا في السن ، أما عثمان ويزال فـكانا من المعمرين وقد رأيتهما جميعا ولم أسمع هـذا منهما . وسـنأتي علي هذا الباب في موضـعه من ذكر المعمرين وتمـيز الصدق فيه من الـكذب وما يجوز ومالا يجوز ان شاءَ الله تعالى (وما أكثر مايعرض) للخصيان البول في الفراش وغير ذلك ولا سيما اذا بات أحدهم ممتلئا من النبيذ (ويعرض) لهم أيضا حب الشراب والافراط في شهوته وشدة النهم (ويعرض) لهم أيضاً إيثار المحبس وحب الصرف وذلك أيضاً مما يعرض للنساء والافراط في شهوتهن وشدة الهمة لهن والغيرة عليهن ، ويحتلمون ويجنبون ويغتسلون ويرون الماء غـير الرائق ولا الغايظ الذى له ريح طلع النخل (ويعرض) للخصيّ شـدة الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض حتى ربما كان عنـد مولاه بعض من عسى أن يتقـدم هؤلاء المذكورين الذين يكون الخصى كلفاً بهـم وبتعظيمهم وبخدمتهم في الأدب والحسب وفي بعـد الهمة وكرم الشـيمة فيعمد عنـد دخول ذلك الرجـل الذي له

السلطان والجاه والمال الى متكأ هـذا الأديب الـكريم والحسيب الشريف فينزعه من تحت مرفقه غير محتفل بذلك ولا مكترث لما فيه ويضعه له من غـير أن يكون موضع المرافق بعيـداً اذا كان ذلك مما يفوت بعض الفوت ويفعل ذلك وان كان يعاشر هذا الأديب الـكريم ٠ولاه وهو على يقين انه ليس من حكم الخصاء ان يرى ذلك الموسر وصاحب الجاه أبداً (وقد) حرم بعضهم خصاء الخيل خاصة وبعضهم زاد على ذلك حتي حرم خصاء البهائم ٠ وقال بعضهم اذا كان الخصاء انما اجتلبه فاعله أو تكلفه صاحبه على جهة التماس المنفعة أو على طريق التجارة فذلك جائز وسبيله سبيل الميسم فان الميسم نار وألمه يجوز كلَّ ألم وقد رأينا ابل الصدقة موسومة ووسَمَت العرب الخيل وجميع أصناف النعم في الاسلام على مثل صنيعها في الجاهلية٠ وقد كانت القصواء ناقة النبي صلى الله عليه وسلم موسومة وكذلك العضباء (وقال آخرون) الخصاء غير شبيه بالميسم لان في الخصاء من شدة الألم ومن المثلة ومن قطع النسل ومن ادخال النقص على الاعضاء والنقص لموادّ القوى ماليس في الميسم وغـيره وهو بقطع الألية أشبه والسمة انما هي لذعة والخصاء مجاوز لـكل شدة (قال القوم) ولا بأس بقطع الالية اذا منعت بثقلها أو عظمها الشاة من اللحاق بالقطيع وخيف عليها من الذئب وقطع الالية في جواز القول أشبه من الميسم لأن الميسم ليس للبعير فيه حظ وانما الحظ فيه لرب المال وقطع الالية من شكل الختان ومن شكل البطِّ والفصد ومن جنس الوجور والبيطرة ومن جنس اللدود والحجامة ومن جنس الـكيِّ عند الحاجة وقطع الجارحة اذا خيف عليها الأ كلة (قال الأولون) قل لعمري ان للابل فى السمات لأعظم المنافع لأنها قد تشرب بسماتها ولا تذاد عن الحوض اكراماً لأربابها وقد تضل فتؤوى وتصاب فى الهواشات فترد (قالوا) فانا لا نسألـكم الا عن سمات الخيل والبغال والحمير والغنم وبعـد فـكيف نستجيز أن نعمها بالاحراق بالنار لأمر عسى أن لا يحتاج اليه من ألف بعير بعير واحد ثم عسى أن لا يحتاج ذلك في جميع عمره الى شربة واحدة (وقال القوم) انما المياسم فى النعم السائمة كالرقوم في ثياب البزاز ومتى ارتفعت الرقوم ومنعت المياسم اختلطت الأموال واذا

اختلطت أمكن فيها الظلم والمظلوم باذل نفسه دون المعيشة والهضيمة (وقالوا) ليس قطع الالية كالمجثمة وكالشيء المصبور. وقد نهينا عن احراق الهوام وقيل لنا لاتعذبوا بعذاب الله تعالى والميسم نار وقطع الالية من شكل قطع العروق وصاحب المجثمة يقدر أن يرمي ان كان به تعلم الرماية شيئاً لا يألم ولم ينه عن تعذيبه فيا يرد الشيء المصبور من العذاب مرداً بوجه من الوجوه (وقال آخرون) ليس لك أن تحدث في جميع الحيوان حدثا من نقض أو نقص أو إيلام لأنك لا تملك النشأة ولا يمكنك التعويض له فاذا أذن لك مالك العين بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه وهو الله عز وجل حل لك من ذلك ما كان لا يحل وليس لك في حجة العقل أن تصنع بها إلا ما كان به مصلحة كصلاح الدين وكالبيطرة (وقال آخرون) لنا أن نصنع كل ما كان يصنع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده مما لم يكن مرفوعا عند بعضهم إلا أن يكون نهى ذلك البعض عن جماعتهم في طريق الخلاف والرد والمفارقة ولا يكون عندهم قولا من الأقاويل فان ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلف يعرف وجه الملام والمذهب في ذلك معروف وان كان خارجا من ذلك الحد فقد علمنا أنه أبيح من طريق التعبد والمحنة كما جعل الله تعالى لنا ما أحل ذبحه من البهائم وكما جعل لنا أن نقتل القمل والبراغيث والبعوض وان لم يكن منها إلا مقدار الأذي فقط والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى ولكن لما أباح لنا خالق الشيء والقادر على تعويضه قتله كان قتله أسوغ في العقل مع الأذي من ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى (قال) وليس كل ضرر ولا كل أذي حكم الله تعالى فيه باباحة القتل والله عز وجل بمقادير الأمور وبحكم المختلف والمتفق والقليل من ذلك والكثير أحكم وأعلم . وقد أمر الله تعالى ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح اسحاق أو اسماعيل عليهما الصلاة والسلام فأطاع الوالد وطاوع الولد (والجواب) الماضي على قول من قال بالتعويض هو قول النظام وأكثر المتكلمين يعترضون عليه فيه * ولا يزال يرحمك الله تعالى بعض الملحدين من المعاندين أو بعض الموحدين من الأغبياء المنقوصين قد طعن في ملك

الخصيِّ وبيعه وابتياعه ويذكرون الخصيَّ الذي كان المقوقس عظيم القبط أهداه الى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله مع مارية القبطية أم ابراهيم عليه السلام (قالوا) فقد ملك عليه الصلاة والسلام خصياً بعد أن عرفه وأحاط علمه بأنه خصيٌّ وأنتم تزعمون ان الخصاء حرام وأن من اشترى من الخاصي خصيا ثم زاد على قيمته وهو فحل فقد أعان على الخصاء وحث عليه ورغب فيه وانه من أفحش الظلم وأشد القسوة (وزعمتم) أن من فعل ذلك فهو شريك الخاصي في الاثم وان حاله كحال المعروفين بالابتياع من اللصوص (وقلتم) وكذلك من شهد القمار وهراش الكلاب ونطاح الكباش وقتال الديوك وأصحاب المخارجات وحرب الفئتين الضالتين (وقلتم)لأن هذه المواضع لو لم تحضرها النظارة لما عملوا تلك الاعمال ولو فعلوها ما بلغوا مقدار الشطر لغلبة الرياء والسمعة على قلوب الناس فكذلك الخاصي والمشترى والمبتاع من المشترى شركاء متعاونون وخلطاء مترادفون (واذا) كان المبتاع يزيد فى السلعة لهذه العلة والبائع يزيد فى السوم لهذا السبب وقد أقررتم بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبل له من المقوقس كما قبل مارية واستخدمه وجري عليه ملكه وأمره (فافهم) فهمك الله تعالى ما أنا مجيب به فى هذه المسئلة والله الموفق وعلى الله قصد السبيل ﴿ أقول ﴾ قبل كل شئ لا يخلو هذا الحديث الذى رويتموه من أن يكون مرضيَّ الاسناد صحيح المخرج أو يكون مسخوط الاسناد فاسد المخرج . فان كان مسخوطا فقد بطلت المسئلة . وإن كان مرضياً فقد علمنا انه ليس فى الحديث أنه قبله منه بعد أن علم انه خصيٌّ وعلى أن قبول الهدية خلاف الابتياع لأن بائع الخصيِّ انما يحرم عليه التماس الزيادة وكذلك المبتاع انما يحرم عليه دفع الزيادة اذا كان لو سلم اليه بذلك الثمن فحلا أجمل منه واشب وأخدم منه لم يزده والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سومه بالخصى وقبول الهدية وقبول الهبة وسبيل البيع والابتياع لا بأس به اذا كان على ما وصفنا وانما هدية الخصيِّ كهدية الثوب والعطر والدابة والفاكهة ولأن الخصي لا يحرم ملكه ولا استخدامه بل لا يحل طرده ونفيه وعتقه جائز وجواز العتق يوجب الملك ولو باعه المالك على غير طلب الزيادة أو لو تاب من الخصاء

أو استحله ما أتي اليه لما حرم على الخاصي نفسه استخدامه والخصي مال وملك واستخدامه حسن جميل ولأن خصاءه إياه لا يعتقه عليه ولا يزيل عنه ملكه إلا بمثل ما وجب به ملكه (وأخرى) ان في قبول هدية ذلك المَلِك وتلقى كرامته بالاكرام تدبيراً وحكمة فقد بطلت المسئلة والحمد لله كما هو أهله. وقد رووا مع ذلك أيضا ان زنباعا الجذامي خصي عبداً له وان النبي صلى الله عليه وسلم أعتقه عليه فيما بلغنا والله أعلم. وربما سألوا عن الشيء وليس القول فيه يقع في نسق القول في الخصي وفي الخلق المركب ولكن اذ قد أجبنا في مسئلة كلامية من مسائل الطعن في النبوة فلا بأس ان نضيف اليها أخري ولاسيما اذا لم تطل فتزيد في طول الكتاب (وقد) لا يزال الطاعن يقول قد علمنا أن العرب لم يسموا حروب أيام الفِجار بالعجور وقريش خاصة الا أن القتال في البلد الحرام في الشهر الحرام كان عندهم فجورا وتلك حروب قد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله وهو ابن أربع عشرة سنة وابن أربع عشرة سنة يكون بالغا وقال شهدت الفِجار فكنت أنبل علي عمومتي ﴿ وجوابنا في ذلك ﴾ ان بني عامر بن صعصعة طالبوا أهل الحرم من قريش وكنانة بجريرة البراض بن قيس في قتله عروة الرحَّال وقد علموا أنهم يطالبون من لم يجن ومن لم يعاون وان البراض بن قيس كان قبل ذلك خليعا مطرودا فأتوهم الى حرمهم يلزمونهم ذنب غيرهم فدافعوا عن أنفسهم وعن أموالهم وعن ذراريهم والفاجر لا يكون المسمى عليه ولذلك أشهد الله تبارك وتعالي نبيه عليه الصلاة والسلام ذلك الموقف وبه نصروا كما نصرت العرب على فارس يوم ذي قارٍ به عليه الصلاة والسلام وبمخرجه وهذان جوابان واضحان قريبان والله الموفق للصواب واليه المرجع والمآب

﴿ ثم رجع بنا القول ﴾ الى ذكر محاسن الخصيّ ومساويه . الخصيُّ ينكح ويتخذ الجواري ويشتد شغفه بالنساء وشغفهن به وهو وان كان مجبوب العضو فانه قد بقى له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجب اليهن . وقد يحتلم ويخرج منه عند الوطء ماء ولكنه قليل متغير الريح رقيق ضعيف وهو يباشر بمشقة ثم لا يمنعه من المعاودة الماء الذي

يخرج منه اذا كان قليل المقدار لا يخرجه من القوة الى الضعف مثل الذى يعتري من يخرج منه شيء يكون من انسان وهو أخثر وأكثر وأحدّ ريحا وأصح جوهراً (والخصيّ) يجتمع فيه أمنية المرأة وذلك أنها تبغض كل سريع الاراقة بطيء الافاقة كما تكره كل ثقيل الصدر وخفيف العجز والخصيّ هو السريع الافاقة البطيء الاراقة المأمون الالقاح فتقيم المرأة معه وهي آمنة العار الاكبر فهذا أشد لتوفير لذتها وشهوتها (واذا) ابتذلن الخصيان وحقرن العبيد وذهبت الهيبة من قلوبهن وتعظيم البعول والتصنع لذوى الاقدار باجتلاب الحياء وتكلف الخجل ظهر كل شيء في قوى طبائعهن وشهواتهن فامكنها الشخير والصياح وأن تكون مرة من فوق ومرة من أسفل وسمحت النفس بمكنونها واظهرت أقصى ماعندها وقد تجد في النساء من تؤثر النساء وتجد فيهن من تؤثر الرجال وتجد فيهن من تؤثر الخصيان وتجد فيهن من تجمع ولا تفرّق وتعم ولا تخص . وكذلك شأن الرجال فى الرجال وفى النساء والخصيان فالمرأة تنازع الى الخصى لان أمره أستر وعاقبته أسلم وتحرص عليه لانه ممنوع منها ولان ذلك حرام عليها فلها جاذبان جاذب حرص كما يحرص على الممنوع وجاذب أمن كما يرغب في السلامة (وقال الاصمعي) قال يونس بن عبيد لوأخذنا بالجزع لصبرنا قال الشاعر

وزادها كلفا بالحب أن منعت * أحبُّ شيء الى الانسان مامنعا

والحرص على الممنوع باب لا يقدر علي الاحتجاز منه والاحتراس من خدعه الا كل مبرز في الفطنة ومتمهل العزيمة طويل التجارب فاضل العقل على قوى الشهوات وبئس الشيء القرين السوء (وقالوا) صاحب السوء قطعة من النار وباب من هذا الشكل فيكم أعظم حاجة الي ان تعرفوه وتقفوا عنده وهو مايضع الخبر السابق الى السمع ولا سيما اذا صادف من السامع قلة تجربة فان قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ دخل ذلك الخبر السابق الي مستقره دخولا سهلا وصادف موضعا وطيئا وطبيعة قابلة ونفسا ساكنة ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخا لاحيلة في ازالته ومتى ألقى الى الفتيان شيء من أمور الفتيات فى وقت الغرارة وعند غلبة الطبيعة وشباب الشهوة وقلة التشاغل

وكذلك متى التقى الى الفتيان شيء من أمورهن وأمور الغلمان وهناك سكر الشباب فكذلك تكون حالهم وان الشطار ليخلو أحدهم بالغلام الغرير فيقول له لا يكون الغلام فتى أبداً حتى يصادف فتى فما الماء العذب البادر بأسرع في طباع العطشان من كلمته اذا كان للغلام أدنى هوى فى الفتنة وأدنى داعية الى الشطارة . وكذلك اذا خلت العجوز المذربة بالجارية الحدثة (وقال الشاعر) فيما يشبه وقوع الخبر السابق الى القلب

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الارض يألفه الفتى * وحنينه أبداً لأول منزل

(وقال مجنون بني عامر)

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

(وباب آخر) مما يدعو الى الفساد وهو طول وقوع البصر على الانسان الذى في طبعه أدنى قابل وأدنى حركة عند مثله وطول التدانى وكثرة الرؤية هما أصل البلاء كما قيل لابنة الخس لم زنيت بعبدك ولم تزن بحر وما أغراك به قالت طول السواد وقرب الوساد ولو أن اقبح الناس وجها وأنتنهم ريحا وأظهرهم فقراً وأسقطهم نفسا وأوضعهم حسبا قال لامرأة قد تمكن من كلامها ومكنته من سمعها والله يا مولاتي وسيدتى لقد أسهرت ليلي وأرَّقت عيني وشغلتني عن مهم أمري فما أعقل أهلا ولا مالا ولا ولداً لنقض طباعها ولفسخ عقدها ولو كانت أبرع الخلق جمالا واكملهم كمالا وأملحهم ملحا فان تهيأ مع ذلك من هذا المتعشق ان تدمع عينه احتاجت هذه المرأة ان يكون معها ورع أم الدرداء ومعاذة العدوية ورابعة القيسية والشجا الخارجية وانما قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه اضربوهن بالعرى لأن الثياب هى المدعاة الى الخروج فى الاعراس والقيام في المناحات والظهور في الاعياد . ومتى كثر خروجها لم يعدمها أن ترى من هو من شكل طبعها ولو كان بعلها أتم حسنا والذي رأت انقص حسنا لكان ما لا تملكه اطرف مما تملكه ولكان ما لم تنله ولم تستكثر منه أشد لها اشتغالا وأشد لها اجتذابا ولذلك قال الشاعر

وللعين ملهى بالتلاد ولم يقد * هوى النفس شيء كاقتياد الطرائف

(وقال سعيد بن مسلم) لئن يرى حرمتي ألف رجل على حال تكشف منها وهي لا تراهم أحب الي من أن ترى حرمتي رجلا واحداً غير منكشف (وقال الاول) لا يضرك حسن من لم تعرف لانك اذا أتبعتها بصرك وقد نقضت طبعك فعلمت أنك لا تصل اليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك كان الذى رأيت منها كالخلسة اذ كان ذلك يقضي ما فيه من المنى ورجعت نفسه الى مكانها الأول لم يكن عليه من فقد ما رآه في النوم أو مثلته له الاماني مؤنسة (وقيل) لعقيل بن علقمة لو زوجت بناتك فان النساء لحم على وضم اذا لم يكن غانيات قال كلا اني أجيعهن فلا يأشرن وأعريهن فلا يظهرهن فوافقت احدى كلمتيه قول النبي صلى الله عليه وسلم الصوم وجاء . وقال عمر استعينوا عليهن بالعري وقد جاء ان ترك الشعر مجفرة وقد أتينا على هذا الباب في الموضع الذى ذكرنا فيه شأن الغيرة وأول الفساد وكيف ينبت وكيف يحصد (وقد) رأيت غير خصي يتلوط ويطلب الغلمان على جهة الصداقة ويحمل في ذلك الحديد ويقاتل دون الشجون (وقد) كان في قطيعة الربيع خصي أثير عند مولاه عظيم المنزلة عنده وكان يثق به في ملك يمينه وفي حرمه من بنت وزوجة وأخت لا يخص شيئا دون شيء فأشرف ذات يوم على مربد له وفي المربد غنم صفايا وقد شديدي شاة وركبها من مؤخرها يكومها فلما أبصره برق وبعد وسقط في يديه وهجم عليه أمر لو يكون رآه من خصي لعدوه لما فارق ذلك الهول أبداً قلبه فكيف وانما عاين الذى عاين فيمن كان يخلفه في نسائه من حرمه وملك يمينه فبينا الرجل وهو واجم قد برق وهو ينتظر اليه اذا رفع الخصي رأسه فلما أثبت مولاه مر مسرعا نحو باب الدار ليركب رأسه وكان المولى أقرب الى الباب منه فسبقه اليه وكان الموضع الذي رآه منه موضعا لا يصعد لحدث لشقائه أمر لم يجد مولاه بداً من صعوده فلبث الخصي ساعة ينتفض من حمى ركبته ثم فاظ ولم يمس الا وهو في القبر . ولفرط ارادتهم النساء وبالحسرة التى نالتهم وبالاسف الذي دخلهم أبغضوا الفحول بأشد من تباغض الاعداء فيما بينهم حتى ليس

بين الحاسد الباغي وبين أصحاب النعم المتظاهرة ولا بين الماشي المعني وبين راكب الهملاج الفاره ولا بين ملوك صاروا سوقة وبين سوقة صاروا ملوكا ولا بين بني الاعمام مع وقوع التنافس أووقوع الحرب ولا بين الجيران المتشاكسين في الصناعات من التنفير والبغضاء بقدر مايلتحق عليه الخصيان للفحول . وبغض الخصي للفحل من شكل بغض الحاسد الذي النعمة وليس من شكل مايولده التنافس وتلحقه الجنايات * ولرجال كل فن وضرب من الناس ضرب من النسك اذلابد لاحدهم من النزوع ومن ترك طريقته الاولى فنسك الخصي غزو الروم لما أن كانوا هم الذين خصوهم ولزوم أذنة والرباط بطرسوس وأشباهها فظن عند ذلك أهل الفراسة ان سبب ذلك انما كان لان الروم لما كانوا هم الذين خصوهم كانوا متغايظين عليهم وكانت النفوس متطالبة الى التشفى منهم فأخرج لهم حب التشفى شدة الاعتزام على قتلهم وعلي الانفاق في كل شيء يبلغ منهم . ونسك الخراسانى ان يحج . ونسك الجندي ان يدع الديوان . ونسك المغنى ان يكثر التسبيح وهو يشرب النبيذ والصلاة علي النبي صلى الله عليه وسلم والصلاة فى جماعة . ونسك الرافضى اظهار ترك النبيذ . ونسك السوادي ترك شرب المطبوخ فقط . ونسك اليهودى إقامة السبت . ونسك المتكلم التسرع الى إكفار أهل المعاصي وان يرمى الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة يريد أن يوهم أمورا (منها) ان ذلك ليس الامن تعظيمه للدين والاغراق فيه (ومنها) أن يقال لو كان نطفا [1] أو مرتابا أو مجتنحا على بلية لما رمي الناس ولرضي منهم بالسلامة وما كان ليرميهم الا للعز الذى فى قلبه ولو كان هناك من ذل الريبة شيء لقطعه ذلك التعرض لهم أو التنبيه على ماعسى ان حركهم له ان يتحركوا . ولم نجد فى المتكلمين انطف ولا أكثر عيوبا ممن يرمي خصومه بالكفر *وكان ابو عبد الله الجماز* وهو محمد بن عمرو يتعشق جارية لآل جعفر يقال لها طغيان وكان لهم خصي يحفظها اذا أرادت بيوت المغنين وكان الخصي أشد عشقا لها من الجماز وكان قد حال

---

(١) (نطفا) من نطف كفرح وعني نطفا محركة ونطافة ونطوفة اتهم بريبة وتلطخ بعيب وفسد اه قاموس

بينه وبين كلامها والدنو منها فقال الجماز

ما للمقيت سنانٍ * وللظباء الملاح
ليس خصيّ بزان * غاز بغير سلاح

(وقال أيضاً فيه وفيها)

نفسي الفداء لظبي * يحبني وأحبه
من أجل ذاك سنان * اذا رآني يسبه
هبه أجاب سنانا * ينيكه أين زبُّه

(وقال أيضاً فيهما)

ظبي سنان شريكي * فيه فبئس الشريك
فلا ينيك سنان * ولا يدعنا ننيك

(وقال الماخوري) يذكر محاسن خصال الخصيان

ونساء لمطمئن مقيم * ورجال ان كانت الاسفار

(وقال مزرد بن ضرار)

اذا لام على المرد * نصيح زادني حرصا
ولا والله ما أقلع * ما عمرت أو أخصى

(وقال آخر)

رماك الله من أيرٍ بأفعى * ولا عافاك من جهد البلاء
جزاك الله شرا من رفيق * اذا بلغت بي ركبَ النساء
أجُبناً في الكريهة حين نلقى * وما تنفك تنعظ فى الخلاء
فلا والله ما أمسى رفيقي * ولولا البول عوجل بالخصاء

(وقال بعض عبد القيس)

ماكان مخدم ابن راضخة الخصا * يرجو المناكح في بنى الجارود
ومن انتكاس الدهر أن زُوّجتها * ولكل دهر عثرة بهجود

لو كان منذر اذ خطبت اليهمُ * حيا لـكان خصاك بالمغمود

﴿ وقال أبو عبيدة ﴾ حدثني أبو الخطاب قال كان عندنا رجل أحدب فسقط فى بئر فذهبت حدبته وصاد آدر فقيل له كيف نجدك والذي جاء شر من الذى ذهب (٢)

﴿ وأبو الحسن ﴾ عن بعض رجال الادب قال خرج معاوية ذات يوم يمشى ومعه خصي له اذ دخل على ميسون ابنة بجدل وهى أم يزيد فاستترت منه فقال أتستترين منه وانما هو مثل المرأة قالت أترى أن المثلة به تحل ماحرم الله تعالى

﴿ ذكر ما جاء في خصاء الدواب ﴾

﴿ ذكر آدم بن سليمان ﴾ عن الشعبي قال قرأت كتاب عمر رضى الله تعالى عنه الى سعد ينهي عن حذف اذناب الخيل واعرافها وعن خصائها ويأمره أن يجري من رأس المائتين وهو أربعة فراسخ (وسفيان الثورى) عن عاصم بن عبد الله بن عمر أن عمر رضى الله تعالى عنـه كان ينهى عن خصاء البهائم ويقول هل الانماء الا في الذكور (وشريك ابن عبد الله) قال أخبرنى ابراهيم بن المهاجر عن ابراهيم النخعي أن عمر رضي الله تعالى عنه نهى عن خصاء الخيل (وسفيان الثوري) عن ابراهيم بن المهاجر قال كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لبعض عماله لاتجرين فرسا الا من المائتين ولا تخصين فرسا (قال) وسمعت نافعاً يقول كان عبد الله بن عمر يكره خصاء الذكور من الابل والبقر والغنم (وعبيد الله بن عمر) عن نافع أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما كان يكره الخصاء ويقول لاتقطعوا نامية خلق الله تعالى * وعبيد الله وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تخصى ذكور الخيل والابل والبقر والغنم ويقول فيها نَشْأ الخلق ولا تصلح الاناث الا بالذكور (ومحمد بن أبى ذؤيب) قال سألت الزهرى هل بخصاء البهائم بأس قال أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين نهى عن صبر الروح. قال الزهري والخصاء صبر شديد (وابو جعفر الرازى) قال حدثنا الربيع بن أنس عن أنس بن مالك في قوله

تعالى (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) قال هو الخصاء (وابو جرير) عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس نحوه (ابو بكر الهذلى) قال سألت الحسن عن خصاء الدواب فقال تسألني عن هذا لعن الله من خصى الرجال (ابو بكر الهذلى) عن عكرمة فى قوله تعالى (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) قال خصاء الدواب قال وقال سعيد بن جبير أخطأ هو دين الله (نصر بن طريف) قال حدثنا قتادة عن عكرمة فى قوله تعالى (فليغيرن خلق الله) قال خصاء البهائم فبلغ مجاهداً فقال كذب هو دين الله . فمن العجب ان الذى قال عكرمة هو الصواب ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول كذب والناس لا يضعون هذه الكلمة فى موضع خطأ الرأي ممن يظن به الاجتهاد وكان ممن له أن يقول ولو أن انسانا سمع قول الله تبارك وتعالى (فليغيرن خلق الله) قال انما يعني الخصاء لم يقبل ذلك منه لأن اللفظ ليست فيه دلالة على شيء دون شيء واذا كان اللفظ عاما لم يكن لاحد أن يقصد به الى شيء بعيد الا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك مع تلاوة الآية أو يكون جبريل عليه السلام قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تبارك وتعالى لا يصر ولا ينوى ولا يخص ولا يايم بالقصد وانما الدلالة بنية الكلام نفسه فصار الكلام هو الارادة وهو القصد وليس بينه وبين الله تعالى عمل آخر كالذى يكون من الناس تعالى الله عن قول المشبهة علواً كبيرا ﴿ ابو جرير ﴾ عن عمار بن أبي عمار أن ابن عباس قال فى قوله تعالى (ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) قال هو الخصاء (وابو جرير) عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس مثله (ابو داود النخعي) عن محمد بن سعيد عن عبادة بن نسي عن ابراهيم بن محيريز قال كان أحب الخيل الى سلف المسلمين فى عهد عمر وعثمان ومعاوية رضي الله تعالى عنهم الخصيان فانها أخفى للكمين والطلائع وابقي على الجهد (ابو جرير) قال أخبرني ابن جريج عن عطاء أنه لم ير بأسا بخصاء الدواب (وابو جرير) عن أيوب عن ابن سيرين انه لم يكن يرى بأساً بالخصاء ويقول لو تركت الفحولة لأكل بعضها بعضاً (وعمر ويونس) عن الحسن انه لم يكن يرى بأساً بخصاء الدواب (سفيان بن عيينة) عن ابن طاوس عن أبيه انه خصى بعيراً

﴿ ولنصل هذا الكلام بالكلام على العسابير ﴾ وهي الاجناس المختلفة قال الكميت

وتجمع المتفرقو * ن من الفراعل والعسابر

يرميهم بأنهم أخلاط ومعلهجون (وزعموا) ان السِّمع ولد الذئب من الضبع *ويزعمون أن السمع كالحية لا تعرف العلل ولا تموت حتف أنفها ولا تموت الا بمرض يعرض لها ويزعمون انه لا يعدو شيء كعدو السمع وانه أسرع من الريح والطير (وقال سهم بن حنظلة) يصف فرسه

فاعص العواذل وارم الليل في عرض * بذي شبيب يقاسي ليله خببا

* كالسمع لم ينقب البيطار سرته * ولم يرجه ولم يغمز له عصبا *

(وقال ابو كنانة يصف فرسا)

والعقاب الطلوب يضربها الطا * ل وقد صوّبت على عسبار

(وقال سؤر الذئب)

هو سمع اذا تمطر شيئا * وعقاب يحثها عسبار

يقول اذا اشتد هرب المطلوب الهارب من الطالب الجاد فهو أحث للطالب واذا صار كذلك صار المطلوب حينئذ في معني من يحث الطالب اذ صار افراط سرعته سببا لافراط طلب العقاب (وقال ابن أخت تأبط شراً)

مسبل بالحي أحوى رفل * واذا يعدو فسمع أزل

وانما قال أزل وجعله عاديا ووصفه بذلك لانه ابن الذئب (وقال الاصمعى)

* يدير عيني لاطة عسباره * وقال في موضع آخر * كأن منها طرفه استعاره *

وقال آخر * يلقي بها السمع الأزل الأطلسا * (وزعموا) أن ولد الذئب من الكلبة الديسم (ورووا) لبشار بن برد في ديسم العنزى أنه قال

أديسم يا ابن الذئب من نسل زارع * أتروى هجائي سادراً غير مقصر

وزارع اسم الكلب يقال للكلاب أولاد زارع (وزعم) صاحب المنطق ان أصنافاً أخر من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة معروفة النتاج مثل

الذئاب التي تسفد الكلاب في أرض رومية (قال) وتتولد أيضا كلاب سلوقية من ثعالب وكلاب (قال) وبين الحيوان الذي يسمى باليونانية طاعويس وبين الكلب تحدث هذه الكلاب الهندية (قال) وليس يكون ذلك من الولادة الأولى (وزعم) أن نتاج الاولى يخرج صعبا وحشيا لا يألف ولا يؤلف (وزعم) أن الكلبة تعرض لهذا السبع حتي تلقح ثم تعرض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليل الصعوبة يقبل التلقين وانهم يأخذون اناث الكلاب ويربطونها في تلك البرارى، فتجيء هذه السباع وتسفدها وليس فى الأرض أنثى تجتمع على حب سفادها ولا ذكر يجتمع له من النزوع الى سفاد الاجناس المختلفة أكثر في ذلك من الكلب والكلبة (قال) واذا ربطوا هذه الكلاب الاناث فى تلك البرارى فان كانت هذه السباع هائجة سفدتها وان لم يكن السبع هائجا فالكلبة مأكولة (وقال أبو عدنان)

أيا باكي الاطلال فى رسم دمنة * ترود بها عين المها والجآذر
وعانات جوال وهيق سفنج * وسنداوة فضفاضة وحضاجر
وسمع خفي الرز ثبت ودوبل * وثرملة تعتادها وعسابر

(وقد سمعنا) ماقال صاحب المنطق من قبل ومايليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء وما عندنا في معرفة ما ادعى الا هذا القول . وأما الذين ذكروا فى أشعارهم السمع والعسبار فليس في ظاهر كلامهم دليل على ما ادعي عليهم الناس من هذا التركيب المختلف فأدينا الذي قالوا وأمسكنا عن الشهادة اذلم نجد عليها برهانا. وللناس فى هذا الضرب ضروب من الدعوى وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها كالذى يدعون من أولاد السعالى من الناس كما ذكروا عن عمرو بن يربوع وكما يروى أبو زيد النحوى عن السعلاة التى أقامت فى بني تميم حتى ولدت فيهم فلما رأت برقا يلمع من شق بلاد السعالى حنت وطارت اليهم فقال شاعرهم

رأى برقاً فأوضع فوق بكر * فلا يأياً ماأسال وما أغاما

(وأنشدني) أن الجن طرقوا بعضهم فقال

أتوا ناري فقلت منون أنتم * فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
فقلت الى الطعام فقال منهم * زعيم نحسد الانس الطعاما

ولم أعب الرواية وانما عبت الايمان بها والتوكيد لمعانيها فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه وعلى أن يجعل الرواية سببا لتعريف الناس حق ذلك من باطله وأبو زيد وأشباهه مأمونون على الناس الا أن كل من لم يكن متكلما حاذقاً وكان عند العلماء قدوة واماما فما أقرب افساده لهم من افساد المتعمد لافسادهم (وأنشدوا) في تثبيت أولاد السعلاة

أقول جمع من بُوان ووتد * وحسن ان كافتني مالم أجد
مالم تقل جيء بأبان أوأحد * أوولدالسّعلاةأوجروالاسد
أو ملك الاعجام مأسوراً بقد

(وقال آخر)

ياقاتل الله بنى السّعلاة * عمراً وقابوسا شرار النات

(وذكروا) أن جرهما كان من نتاج مابين الملائكة وبنات آدم وكان الملك من الملائكة اذا عصي ربه فى السماء أهبطه الى الارض فى صورة رجل وفى طبيعته كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأن الزهرة وهي أناهيد ما كان فلما عصى الله تعالى بعض الملائكة وأهبطه الى الارض في صورة رجل تزوج أمّ جرهم فولدت له جرهماً ولذلك قال شاعرهم

لاهُمّ ان جرهما عبادكا * الناس طارف وهم تلادكا

(ومن) هذا النسل ومن هذا التركيب والنحل كانت بلقيس ملكة سبأ وكذلك كان ذو القرنين كانت أمه فيرى آدمية وأبوه عبري من الملائكة . وكذلك لما سمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا ينادي ياذا القرنين فقال أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم الى أسماء الملائكة (وروي) المختار بن أبي عبيد ان علياً كان اذا ذكر ذا القرنين

قال ذلك الملك الأمرط (وزعموا) ان التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والانس لقوله تعالى وشاركهم في الاموال والأولاد وذلك أن الجنيات انما تعرض لصرع رجال الانس على جهة التعشق وطلب السفاد وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء ونساؤهم للرجال والنساء. ومن زعم أن الصرع من المرّة رد قوله تعالى الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس وقال تعالى لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فلو كان الجان لا يفتض الآدميات ولم يكن ذلك قط وليس ذلك فى تركيبه لما قال الله تعالى هذا القول (وزعموا) أن النسناس تركيب ما بين الشق والانسان (ويزعمون) أن خلقا من وراء السد تركيب من النسناس والناس والشق ويأجوج ومأجوج (وذكروا) عن الواق واق والدوال أنهم نتاج ما بين بعض النبات والحيوان (وذكروا) أن أمة كانت في الارض فأمر الله تعالى الملائكة فاجلوهم واياهم عنوا بقولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ولذلك قال الله عز وجل لآدم وحواء ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فهذا يدل على أن ظالما كان (قال الأصمي) أوخلف في أرجوزة مشهورة ذكر فيها طول عمر الحية

أرقش أن أسبط أوثني * حسبت ورسا خالط اليرنا
خالطه من هاهنا وهنا * اذا أتى إدّ الحداة استنا

(قال) وكان يقال لتلك الامة مهنا (وزعم المجوس) أن الناس من ولد مهنة ومهنينة وانهما تولدا فيما بين أرحام الارضين ونطفتين انتدرتا من عيني ابن هرمز حين قتله * وحماقات أصحاب الاثنين كثيرة في هذا الباب ولولا أنى أحببت أن تسمع نوعا من الكلام ومبلغ الرأى لتحدث لله تعالى شكراً على السلامة لما ذكرت لك كثيرا من هذا الجنس (وزعم) ابن هيثم أنه رأى بالكوفة فتى من ولد عبد الله بن هلال الحميرى صديق ابليس وختنه وانهم كانوا لايشكون ان ابليس جده من قبل أمهاته . وسنقول فى ذلك بالذي يجب ان شاء الله تعالى وصلة هذا الكلام تجىء بعد هذا ان شاء الله تعالى (وقلت) ولو تم

للكلب معنى السبع وطباعه لما ألف الانسان واستوحش من السبع وكره الغياض وألف الدور واستوحش من البرارى وجانب القفار وألف المجالس والديار ولو تم له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء لما أكل الحيوان وكلب على الناس نعم حتي ربما كلب ووثب على صاحبه وكلب على اهله (وقد ذكر ذلك طرفة فقال)

كنت لنا والدهور آونة * تقتل حال النعيم بالبؤس
ككلب طسم وقد يربيه * يعله بالحليب في الغلس
ظل عليه يوما يفرفره * الا يلغ في الدماء ينتهس

(وقال) حاجب بن ذبيان المازنى في مثل ذلك

وكم من عدو قد أعنتم عليكم * بمال وسلطان اذا سلم الحبل
كذي الكلب لما أسمن الكلب رابه * باحدى الدواهى حين فارقه الجهل

(وقال عوف بن الاحوص)

فاني وقيسا كالمسمن كلبه * تخدشه أنيابه وأظافره

(وأنشد ابن الاعرابي لبعضهم)

وهم سمنوا كلبا ليأكل بعضهم * ولو ظفروا بالحزم ما سمن الكلب

(وفي الأثر) سمن كلبك يأكلك ﴿وكان﴾ رجل من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف وكان يحضر طعامه فكتب الى أهله يخبرهم بما هو فيه من الخصب وانه قد سمن فكتبت اليه امرأته

أتهدى لى القرطاس والخبز حاجتى * وأنت على باب الامير بطين
اذا غبت لم تذكر صديقا وان تقم * فأنت على مافى يديك ضنين
فأنت ككلب السوء في جوع أهله * فيهزل أهل الكلب وهو سمين

(وفى المثل) سمن كلب فى جوع أهله وذلك انه عند الصواف يصيب المال والاخرج يعرض للنوق وعلى انه حارس محترس منه ومؤنس شديد الايحاش من نفسه واليف كثير الخيانة على الفه وانما اقتنوه على ان ينذرهم بموضع السارق وتركوا طرده لينبئهم على

مكان المبيت ويدل على انه مسروق عندهم قول الشاعر

أخي ان سرى كلب فبيت حلة * وجبجبة للوطب ليلى تطلق

فهو سراق وصاحب بيات وهو نباش وآكل لحوم الناس الا انه يجمع سرقة الليل مع سرقة النهار ثم لا تجده أبداً يمشى في خزانة أو مطبخ أو عرصة دار أو فى طريق أو في براري أو فى ظهر جبل أو في بطن واد الا وخطمه في الارض يتشمم ويستروح وان كانت الارض بيضاء وحصباء ودوية ملساء أو صخرة خلقاء حرصا وجشما وشرها وطمعا ثم حتى لا تجده أيضاً يري كلبا الا اشتم استه ولا يتشمم غير هامنه ولا تراه يرمي بحجر أيضاً أبداً الا رجع اليه فعض عليه لانه لما كان لا يكاد يأكل الا شيئاً رموا به صار ينسى لفرط شرهه وغلبة الجشع على طبعه أن الرامى انما أراد عقره أو قتله فيظن لذلك أنه انما أراد إطعامه والاحسان اليه كذلك يخيل اليه فرط النهم وتوهمه غلبة الشره ولكنه رمى بنفسه على الناس عجزاً ولؤماً وفسولة ونقصاً وخاف السباع واستوحش من الصحارى ولما سمعوا بعض المفسرين يقول في قوله تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) إن المحروم هو الكلب وسمعوا فى المثل إصنعوا المعروف ولو الى الكلب عطفوا عليه واتخذوه في الدور وعلى أن ذلك لا يكون الا من سفلتهم واغبيائهم ومن قل تقذره وكثر جهله ورد الآثار إما جهلا وإما معاندة (وأما الديك) فمن بهائم الطير وبغاثها ومن كاولها والعيال على أربابها وليس من أحرارها ولا من عتاقها وجوارحها ولا ممن يطرب بصوته ويشجى بلحنه كالقمارى والدباسي والشفانين والوراشين والبلابل والفواخت ولا ممن يونق بمنظره ويمتع الابصار حسنه كالطواويس والتدارج ولا ممن يعجب بهدايته ويعقد الذمام بإلفه ونزاعه وشدة أنسه وحنينه وتريده بارادته لك وتعطف عليه لحبه إياك كالحمام ولا هو أيضاً من ذوي الطيران منها فهو طائر لا يطير وبهيمة لا يصيد ولا هو أيضاً ممن يكون صيداً فيمتع من هذه الجهة ويراد لهذه اللذة (والخفاش) أمرط وهو جيد الطيران والديك كاس وهو لا يطير وأى شيء أعجب من ذى ريش أرضى ومن ذى جلدة هوائى وأجمع الخلق لخصال الخير

الانسان وليس الزواج الا في الانسان وفي الطير فلو كان الديك من غير الطير ثم كان ممن لا يزاوج لقد كان قد منع هذه الفضيلة وعدم هـذه المشاكلة الغريبة وحرم هذا السبب الكريم والشبه المحمود فكيف وهو لا يزاوج وهو من الطير الذى ليس الزواج والالف وثبات العهد وطلب الذرء وحب النسل والرجوع الى السكن والحنين الى الوطن الاله وللانسان وكل شيء لا يزاوج فانما دخله النقص وخسر هـذه الفضيلة من جهة واحدة وقد دخل الديك النقص من جهتين ووصف أبو الاخزر الحمانى الحمار وغير العانة خاصة فانه أمثل في باب المعرفة من الاهلى فذكر كيف يضرب في الاتن ووصف استبهامه عن طلب الولد وجهله بموضع الذرء وان الولد لم يجيء منه عن طلب له ولكن النطفة البرية من الاسقام اذا لاقت الارحام البرية من الاسقام وحدث النتاج عن الخلقة وعن ما سويت عليه البنية وذكر أن نزوه على الأتان من شكل نزوه على العير وإنما ذاك على قدر ما يحضره من الشبق ثم لا يلتفت الى دبر من قبل والى ما يلقح فقال لا مبتغي لضنيء ولا بالعازل يقول هو لا يريد الولد ولا يعزل والاشياء التي تألف الناس ولا تريد سواهم ولا تحن الى غيرهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور والديك لا يألف منزله ولا ربعه ولا يحن الى دجاجته ولا طروقته ولا يحن الى ولده بل لم يدر قط أن له ولداً ولو درى لكان على درايته دليل فاذا قد وجدناه لبيضه وفراريجه الكائنة منه كما نجده لما لم يلده ولما ليس من شكله ولا يرجع الى نسبه فكيف تعرف الامور إلا بهذا وشبهه وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهل داره ومبهوت لا يثبت وجه صاحبه وهو لم يخلق الا عنده وفي ظله وفي طعامه وشرابه وتحت جناحه والكلب على ما فيه يعرف صاحبه وهو والسنور يعرفان أسماءهما ويألفان موضعهما وان طردا رجعا وان أجيعا صبرا وان أهينا احتملا والديك يكون في الدار من لدن كان فروجاً صغيراً الى أن صار ديكا كبيراً وهو ان خرج من باب الدار وسقط على حائط من حيطان الجيران أو على موضع من المواضع لم يعرف كيف الرجوع وان كان يرى منزله قريباً وسبيل المطلب يسيراً ولا يذكر ولا يتذكر ولا يهتدي ولا يتصور له كيف يكون الاهتداء ولو حن لطلب

ولو احتاج لالتمس ولو كان هذا الخبر فى طباعه لظهر ولكنها طبيعة بلهاء مستبهمة طامحة وذاهلة ثم يسفد الدجاجة ولا يعرفها هذا مع شدة حاجته اليهن وحرصه على السفاد والحاجة تفتق الحيلة وتدل على المعرفة الا ما عليه الديك فانه مع حرصه على السفاد لا يعرف التي يسفد ولا يقصد الى ولدولا يحضن بيضا ولا يعطفه رحم فهو من هاهنا أحمق من الحبارى وأعق من الضب وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالي عنه كل شيء يحب ولده حتى الحبارى فضرب بها المثل كما ترى فى الموق والغفلة وفى الجهل والبله وتقول االعرب أعق من الضب لانه يأكل حسوله وكرم عندالعرب حظ الهرة لقولهم أبر من هرة وأعق من ضب فوجهوا أكل الهرة أولادها على شدة الحب لها ووجهوا أكل الضب لها على شدة البغض لها وليس ينجوا منه شيء منها الا بشغله بأكل أخوته عنه وليس يحرسها مما يأكلها الا ليأكلها ولذلك قال العملس بن عقيل لأبيه عقيل ابن علفة (١)

أكلت بنيك أكل الضب حتي * وجدت مرارة الكلإ الوبيل
فلو أن الأولى كانوا شهوداً * منعت فناء بيتك من بجيل

﴿ وقال أيضاً ﴾

أكلت بنيك أكل الضب حتى * تركت بنيك ليس لهم عديل

وشبه السيد بن محمد الحميرى، عائشة رضى الله تعالى عنها فى نصبها الحرب يوم الجمل لقتال بنيها بالهرة حين تأكل أولادها فقال

جاءت مع الأشقين فى هودج * تزجى الى البصرة أجنادها
كأنها فى فعلها هرة * تريد أن تأكل أولادها

وتقول العرب أيضاً أحمق من جهيزة وهى عرس الذئب لانها تدع ولدها وترضع ولد الضبع قال وهذا معني قول ابن جزل الطعان

(١) وفي الاغاني ان الابيات لارطاة بن سهية يخاطب بها عقيل لما ضربه بجيل فجاء ابنه عملس فانتقم له وكان عقيل قد طرد بنيه قبل ذلك

كمرضعةأولاد أخرى وضيعت * بنيها فلم ترقع بذلك مرقعا

ويقولون إن الضبع اذا صيدت أوقتلت فان الذئب يأتي أولادها باللحم وأنشد الكميت

كما خامرت في حضنهـا أم عامر * لذي الحبل حتى عال أوس عيالها

وأوس هو الذئب وقال في ذلك

في كل يوم من ذواله * ضغث يزيد على إباله

فلأحشونك مشقصاً * أوسا أويس من الهباله

الأوس الاعطاء وأويس هو الذئب وقال في ذلك الهذلي

ياليت شعرى عنك والأمر أمم * ما فعل اليوم أويس فى الغنم

وقال أمية بن أبى الصلت

وأبو اليتامى كان يحسن أوسهم * وبحوطهم فى كل عام جاحد

ويقولون أحمق من نعامة كما يقولون أشرد من نعامة قالوا ذلك لانها تدع الحضن على بيضها ساعة الحاجة الى الطعم فان هي فى خروجها ذلك رأت بيض أخرى قد خرجت للطعم حضنت بيضها ونسيت بيض نفسـها ولعل تلك أن تصاد فلا ترجع الى بيضها بالعراء حتي تهلك قالوا ولذلك قال ابن هرمة

فانى وتركى ندي الاكرمين * وقدحي بكفى زندا شحاحا

كتاركة بيضـها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

وقـد تحضن الحمام على بيض الدجاج وتحضن الدجاجة بيض الطاووس فاما ان يدع بيضه ويحضن بيض الدجاجة أو تدع الدجاجة بيضها وتحضن بيض الطاووس فلا فاما فروج الدجاجة اذا خرج من تحت الحمامة فانه يكون أكيس فاما الطاووس الذى يخرج من تحت الدجاجة فيكون أقل حسناً وأبغض صوتاً وكل بيضة في الأرض فان اسم االذي فيها والذي يخرج منها فرخ الابيض الدجاج فانه يسمى فروجا ولا يسمى فرخا الا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخا على التوسع في الـكلام ويجوزون فى الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر قال الشاعر

لعمري لأصوات المكاكي بالضحى * وسوء تداعي بالعشى نواعبه
أحب الينا من فراخ دجاجة * ومن ديك انباط تنوس غباغبه

وقال الشماخ بن ضرار

ألا من مبلغ خاقان عني * تأمل حين يضربك الشتاء
فتجعل في جنابك من صغير * ومن شيخ أضر به الفناء
فراخ دجاجة يتبعن ديكا * يلذن به اذا حمس الوغاء

قلت وأى شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك حتي يتفرغ لذكر محاسنهما ومساويهما والموازنة بينهما والتنويه بذكرهما شيخان من علية المتكلمين ومن الجلة المتقدمين وعلى أنهما متى أبرما مدعا الحكم وأفصحا بهذه القضية صار بهذا التدبير بهما حظ وحكمة وفضيلة وديانة وقلدهما كل من هو دونهما وسيعود ذلك عذراً لهما اذا رأيتهما يوازيان بين الذباب وبنات وردان وبين الخنافس والجعلان وبين جميع أجناس الهمج وأصناف الحشرات والخشاش حتى البعوض والفراش والديدان والقردان فان جاز هذا فى الرأى وتم عليه العمل صار هذا الضرب من النظر عوضاً من النظر في التوحيد وصار هذا الشكل من التمييز خلفا من التعديل والتجويز وسقط القول فى الوعد والوعيد ونسى القياس والحكم فى الاسم وبطل الرد على أهل الملل والموازنة بين جميع النحل والنظر فى مراشد الناس ومصالحهم وفى منافعهم ومرافقهم لأن قلوبهم لاتتسع للجميع وألسنتهم لاتنطلق بالكل وانما الرأي أن تبدأ من الفتق بالأعظم والاخوف فالأخوف وقلت هذا باب من أبواب الفراغ وشكل من اشكال التطرق وطريق من طرق المزاح وسبيل من سبل المضاحك ورجال الجد غير رجال الهزل وقد يحسن الشيء بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ ولولا التحصيل والموازنة والإبقاء على الأدب والديانة بشدة المحاسبة لما قالوا لكل مقام مقال ولكل زمان رجال ولكل ساقطة لاقطة ولكل طعام أكلة قد زعم أناس أن كل إنسان فيه آلة المرفق من المرافق وأداة المنفعة من المنافع ولابد لتلك الطبيعة من حركة وان أبطأت ولا بد

لذلك الكامن من ظهور فان أمكنه ذلك بعثه والاسرى اليه كما يسري السم فى البدن وكما ينمى العرق كما أن البزور البرية والحبة الوحشية الكامنة في أرحام الارضين لا بد لها من حركة عند زمان الحركة ومن التفتق والانتشار فى إبان الانتشار واذا صارت الامطار لتلك الارحام كالنطفة وكان بعض الارض كالام الغازية فلا بد لكل ثدى قوي أن يظهر قوته كما قال الأول

ولا بد للمصد وريوما من النفث * ولا بد من شكوى اذا لم يكن صبر

ولذلك صار طلب الحساب أخف على بعضهم وطاب الطب أحب الى بعضهم وكذلك النزاع الى الهندسة وشغف أهل النجوم بالنجوم وكذلك أيضاً ربما تحرك له بعد الكبرة واصرف رغبته اليه بعد الكهولة على قدر قوة العرق في بدنه وعلي قدر الشواغل له وما يعترض عليه فتجد واحدا يلهج بطلب الغناء واللحون وآخر يلهج بشهوة القتال حتى يكتتب مع الجند وآخر يختار وراقا وآخر يختار طلب الملك وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم ثم لا تدري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر إلا بجملة من القول ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض يعلم لما اختار ذلك فى جملة ولا تفسير اذ كان لم يجر منه على عرق ولا اختاره على أرث وليس العجب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور ويحركه في بعض الجهات ولكن العجب ممن يموت مغنيا وهو لا طبع له في معرفة الوزن وليس له جرم حسن فيكون ان فاته أن يكون معلما ومغني خاصة أن يكون مطربا ومغني عامة وآخر قدمات على أن يذكر بالجود وان يسخى على الطعام وهو أبخل الخلق طبعا فتراه كلفا باتخاذ الطيبات ومستهترا بالتكثير منها ثم هو أبداً مفتضح وأبداً منتقض الطباع ظاهر الخطا سيئ الجزع عند مؤاكلة من كان هو الداعي له والمرسل اليه والعارف مقدار لقمه ونهاية أكله فان زعمتم ان كل واحد من هؤلاء انما هو رهن باسبابه وأسير في أيدى علله عذرتم جميع اللئام وجميع المقصرين وجميع الفاسقين والضالين وان كان الامر التمكين دون التسخير أفليس من أعجب العجب ومن أسوإ التقدير والتمثيل

بين الديكة والكلاب قد عرفنا قولك وفهمنا مذهبك فأما قولك وما بلغ من خطر الديك وقدر الكلب فان هذا ونحوه كلام عبد لم يفهم عن ربه ولم يعقل عن سيده الا بقدر فهم العامة أو الطبقة التى تلي العامة كأنك فهمك الله تعالى تظن أن خلق الحية والعقرب والتدبير في خلق الفراش والذباب والحكمة في خلق الذئاب والاسد وكل مبغض اليك أو محقر عندك أو مسخر لك أو واثب عليك ان التدبير فيه مختلف أو ناقص وان الحكمة فيه صغيرة او ممزوجة (اعلم) ان المصلحة فى امر ابتداء الدنيا الي انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر والضار بالنافع والمكروه بالسار والضعة بالرفعة والكثرة بالقلة ولو كان الشر صرفا هلك الخلق أو كان الخير محضا سقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ومتي ذهب التخيير ذهب التمييز ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم ولم يكن علم ولا يعرف باب التدبير ولا دفع المضرة ولا اجتلاب المنفعة ولا صبر على مكروه ولا شكر على محبوب ولا تفاضل في بيان ولا تنافس في درجة وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة ولم يكن علي ظهرها محق بجد عز الحق ومبطل بجد ذل الباطل وموقن بجد برد اليقين وشاك بجد نقص الحيرة وكرب الوجوم ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعبها الاطماع ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس ومن جهل اليأس جهل الامن وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق ومن الانس الذين فيهم الانبياء والاولياء الى حال السبع والبهيمة والى الغباوة والبلادة والى حال النجوم في السخرة فانها أنقص من حال البهائم فى الرفعة ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو برجا من البروج أو قطعة من الغيم أو يكون المجرة بأسرها او مكيالا من الماء أو مقداراً من الهواء وكل شيء فى العالم فانما هو للانسان ولكل مختبر ومختار ولاهل العقول والاستطاعة ولاهل التبيين والروية وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة ولذة السبع بلطع الدم وأكل اللحم من سرور الظفر بالاعداء ومن انفتاح باب العلم بعد ادمان القرع وأين ذلك من سرور السودد ومن عز الرياسة وأين ذلك من حال النبوة والخلافة

ومن عزهما وساطع نورهما وأين تقع لذة درك الحواس الذى هو ملاقاة المطعم والمشرب وملاقاه الصوت المطرب واللون المونق واللبسة اللينة من السرور بنفاذ الامر والنهي وبجواز التوقيع وبما يوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجة ولو استوت الامور بطل التمييز واذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة ولو كان ذلك لبطلت ثمرة التوكل على الله تعالى واليقين بأنه الوزر والحافظ والكافي والرافع وان الذي يحاسبك أجود الاجودين وأرحم الراحمين وانه يقبل اليسير ويهب الكثير ولا يهلك عليه الاهالك ولو كان الامر على مايشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الامور لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو اليه ولتعطلت الارواح من معانيها والعقول من ثمارها ولعدمت الاشياء حظوظها وحقوقها فسبحان من جعل منافعها نعمة ومضارها ترجع الى أعظم المنافع وقسمها بين ملذ ومؤلم وبين مؤنس وموحش وبين صغير حقير وجليل كبير وبين عدو يرصدك وبين عقل يحرسك وبين مسالم يمنعك وبين معين يعضدك وجعل فى الجميع تمام المصلحة وباجتماعها تتم النعمة وفى بطلان واحد منها بطلان الجميع قياسا قائما وبرهانا واضحاً فان الجميع انما هو واحد ضم الي واحد وواحد ضم اليهما ولان الكل أبعاض ولان كل جثة فمن أجزاء فاذا جوزت رفع واحد والآخر مثله فى الوزن وله مثل علته وحظه ونصيبه فقد جوزت رفع الجميع لانه ليس الاول بأحق من الثانى فالحق الذى رجوت فيه ابطال الاول والثاني كذلك والثالث والرابع حتي تأتي على الكل وتستغرق الجميع كذلك الامور المطمئنة والاسباب المفيدة ألاترى أن الجبل ليس بادل على الله تعالي من الحصاة وليس الطاوس المستحسن بادل على الله تعالى من الخنزير المستقبح والنار والثلج وان اختلفا في جهة البرودة والسخونة فانهما لم يختلفا في جهة البرهان والدلالة وأظنك ممن يرى ان الطاوس اكرم على الله تعالى من الغراب وان التدرج اعز على الله تعالي من الحدأة وان الغزال احب الي الله تعالى من الذئب فانما هذه امور فرقها الله تعالى فى عيون الناس وميزها فى طبائع العباد فجعل بعضها بهم أقرب شبها وجعل بعضها انسيا وجعل بعضها وحشيا وبعضها عاديا وبعضها قاتلا وكذلك الدرة والخرزة

والثمرة والجمرة فلا تذهب الى ما تريك العين واذهب الى ما يريك العقل وللامور حكمان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة وقد علمنا أن خزنة النار من الملائكة ليسوا بدون خزنة الجنة وان ملك الموت ليس بدون ملك السحاب وان أتانا بالغيث وجلب الحياة وجبريل الذى ينزل بالعذاب ليس بدون ميكائيل الذى ينزل بالرحمة وانما الاختلاف في المطيع والعاصى وفي طبقات ذلك ومواضعه والاختلاف بين أصحابنا انهم اذا استووا فى المعاصي استووا في العقاب واذا استووا في الطاعة استووا فى الثواب واذا استووا فى عدم الطاعة والمعصية استووا في التفضل هذا هو أصل المقالة والقطب الذى تدور عليه الرحي وقدقال الله عز وجل (والتين والزيتون) فزعم زيد بن أسلم ان التين دمشق والزيتون فلسطين وللغالية في هذا تأويل أرغب عن التعبير عنه وذكره وقد أخرج الله تبارك وتعالى الكلام مخرج القسم وما تعرف دمشق الا بدمشق ولا فلسطين الا بفلسطين فان كنت انما تقف من ذكر التين على مقدار طعم يابسه ورطبه وعلى الاكتنان بورقه وأغصانه والوقود بعيدانه وانه نافع لصاحب السل وهو غذاء قوي ويصلح فى مواضع من الدواء وفي الاضمدة وانه ليس شئ حلو الا وهو ضار بالاسنان غيره وانه عند أهل الكتاب الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام وبورقها ستر السوءة عند نزول العقوبة وان صاحب البواسير يأكله ليزلق عنه الثقل ويسهل عليه مخرج البول وتقف من الزيتون على زيته والاصطباح به وعلى التأدم بهما والوقود بشجرهما وما أشبه ذلك من أمرهما فقد أسأت ظنا بالقرآن وجهلت فضل التأويل وليس لهذا المقدار عظمهما الله عز وجل وأقسم بهما ونوه بذكرهما ولو وقفت على جناح بعوضة وقوف معتبر وتأملته تأمل متفكر بعد أن تكون ثاقب النظر سليم الآلة غواصا على المعانى لايعتريك من الخواطر الاعلى حسب صحة عقلك ولا من الشواغل الا مازاد في نشاطك لملأت مما توجدك العبرة من غرائب الطوامير الطوال والجلود الواسعة الكبار ولرايت ان له من كثرة التصرف في الاعاجيب ومن تقلبه فى طبقات الحكمة ولرايت له من الغزر والريع ومن الحلب والدر ولا ينحبس عليك من كوامن

المعانى ودفائنها ومن خفيات الحكم وينابيع العلم مالا يشتد معه تعجبك ممن وقف على مافي الديك من الخصال العجيبة وفي الكلب من الامور الغريبة ومن أصناف المنافع وفنون المرافق وما فيها من المحن الشداد ومع ما أودعا من المعرفة التي متى تجلت لك تصاغر عندك كبير ماتستعظم وقل فى عينك كثير ماتستكثر كانك تظن ان شيئاً وان حسن عندك فى ثمنه ومنظره ان الحكمة التى هى فى خلقه انما هي على مقدار ثمنه ومنظره وقد قال الله تعالى (ولوان مافي الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله) والكلمات فى هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلف من الحروف وانما يريد النعم والأعاجيب والصلاة وما أشبه ذلك فان كلا من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تام الاداة لما برح ان تحشره المعانى وتغمره الحكم وقد قال المتكلمون والروساء والجلة العظماء في التمثيل بين الملائكة والمؤمنين وفي فرق مابين الجن والإنس وطباع الجن أبعد من طباع الإنس ومن طباع الديك ومن طباع الكلب وانما ذهبوا الى الطاعة والمعصية ويخيل الىّ انك لوسمعتهما يمثلان مابين التدرج والطاووس لما اشتد تعجبك ونحن نرى أن تمثيل مابين خصال الذرة والحمامة والفيل والبعير والثعلب والذيب أعجب ولسنا نعنى ان للذرة ماللطاووس من حسن ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه ولا ان لها غناء الفرس فى الحرب والدفع عن الحريم لكنا اذا أردنا مواضع التدبير العجيب من الخلق الخسيس والحسن اللطيف في الشيء السخيف والنظر في العواقب من الخلق الخارج من حدود الانس والجن والملائكة ولم نذهب الى ضخم البدن وعظم الحجم ولا الى المنظر الحسن ولا الى كثرة الثمن وفي القرد أعاجيب وفى الدب أعاجيب وليس فيهما كبير مرفق الا بقدر ماتكسب به القردة وانما قصدنا الى شيئين يشيع القول فيهما ويكثر الاعتبار مما يستخرج العلماء من خفى أمرهما ولو جمعنا بين الديك وبين بعض ماذكرت وبين الكلب وبين بعض ماوصفت لانقطع القول قبل أن يبلغ حد الموازنة والمقابلة وقد ذكرت ان بعض مادعاك الى الإنكار عليهما والتعجب من أمرهما سقوط قدر الكلب

ونذالته وبله الديك وغباوته وان الكلب لا بهيمة تامة ولا سبع تام وما كان ليخرجه من شيء من حدود الكلاب الى حدود الناس مقدار ماهو عليه من الانس بهم فقد يكون في الشيء بعض الشبه من شيء ولا يكون ذلك مخرجا لهما من أحكامهما وحدودهما وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الانسان بالقمر والشمس والغيث والبحر وبالأسد والسيف وبالحية وبالنجم ولا يخرجونه بهذه المعاني الى حد الانسان واذا ذموا قالوا هو الكلب والخنزير وهو القرد والحمار وهو الثور وهو التيس وهو الذيب وهو العقرب وهو الجعل ثم لا يدخلون هذه الاشياء في حدود الناس ولا أسمائهم ولا يخرجون ذلك الانسان الى هذه الحدود وهذه الاسماء وسموا الجارية غزالا وسموها أيضاً خشفاً ومهرة وفاختة وحمامة وزهرة وقضيبا وخيزرانا على ذلك المعني وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب فذكروا الاسد والثور والحمل والجدى والعقرب والحوت وسموها بالقوس والسنبلة والميزان وغيرها وقال في ذلك ابن عسلة الشيباني

فصحوت والنمرى يحسبها * عم السماك وخالة النجم

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (نعمت العمة لكم النخلة) وهذا الكلام صحيح المعني لا يعيبه الا من لا يعرف مجاز الكلام وليس هذا مما يطرد لنا ان نقيسه وانما نقدم على ما أقدموا ونحجم عما أحجموا وننتهى الى حيث انتهوا ونراهم يسمون الرجل جملا ولا يسمونه بعيراً ولا يسمون المرأة ناقة ويسمون الرجل ثوراً ولا يسمون المرأة بقرة ويسمون الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتانا ويسمون المرأة نعجة ولا يسمونها شاة وهم لا يضعون نعجة اسما مقطوعا ولا يجعلون علامة مثل زيد وعمرو ويسمون المرأة عنزا أو ما علمت ان الانسان الذى خلقت السموات والأرض من أجله وما بينهما كما قال عز وجل (سخر لكم مافى السموات وما فى الارض جميعا) منه انما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير لما وجدوا فيه من جمع اشكال ما في العالم الكبير ووجدنا له الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس ووجدوه يأكل اللحم والحب ويجمع بين ماتقتاته البهيمة والسبع ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر

الذئب وروغان الثعلب وجبن الصفرد وجمع الذرة وصفة السرقة وجود الديك والف الكلب واهتداء الحمام وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقين أو ثلاثة ولا يبلغ أن يكون جملا بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصولته وحقده وصبره على حمل الثقل ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل غدره ومكره واسترواحه وتوحشه وشدة نكره كما ان الرجل يصيب الرأى الغامض المرة والمرتين والثلاث ولا يبلغ ذلك المقدار أن يقال له داهية وذو نكر أوصاحب بزلاء وكما يخطيء الرجل فيفحش خطاؤه في المرة والمرتين والثلاث فلا يبلغ الأمر به أن يقال له غبي وابله ومنقوص وسموه العالم الصغير لأنهم وجدوه يصور كل شيء بيده ويحكى كل صوت يعيه وقالوا ولأن أعضاءه مقسومة على البروج الاثنى عشر والنجوم السبعة وفيه الصفراء وهي من نتاج النار وفيه السوداء وهى من نتاج الارض وفيه الدم وهو من نتاج الهواء وفيه البلغم وهو من نتاج الماء وعلى طبائعه الاربع وضعت الأوتاد الاربعة فجعلوه العالم الصغير اذ كان فيه جميع أجزائه واخلاطه وطبائعه ألا ترى، ان فيه طبائع الغضب والرضي وآلة اليقين والشك والاعتقاد والتمني وفيه طبائع الفطنة والغباوة والسلامة والنكر والنصيحة والغش والوفاء والغدر والرياء والاخلاص والحب والبغض والجد والهزل والبخل والجود والاقتصاد والسرف والتواضع والكبر والانس والوحشة والفكرة والامهال والتمييز والخبط والجبن والشجاعة والحزم والاضاعة والتبذل والتعزز والادخار والتوكل والقناعة والحرص والرغبة والزهد والسخط والرضي والصبر والجزع والذكر والنسيان والخوف والرجاء والطمع واليأس والتنزه والطبع والشك واليقين والحياء والقحة والكتمان والاشاعة والاقرار والانكار والعلم والجهل والظلم والانصاف والطلب والهرب والحقد وسرعة الرضي والحدة وبعد الغضب والسرور والهم واللذة والآلام والتأميل والتمنى والاصرار والندم والجماح والبذات والعى والبلاغة والنطق والخرس والتصميم والتوقف والتغافل والتفاطن والعفو والمكافأة والاستطاعة والطبيعة وما لا يحصي عده ولا يعرف حده فالكلب سبع وان كان بالناس أنيساً ولا تخرجه

الخصلة والخصلتان مما قارب بعض طبائع الناس الى أن يخرجه من الكلبية قال وكذلك الجميع وقد عرفت باطن شبه الكلب بباطن الانسان وشبه ظاهر القرد بظاهر الانسان ترى ذلك فى طرفه وتغميض عينه وفي ضحكه وفى حكايته وفي كفه وأصابعه وفى رفعها ووضعها وكيف يتناول بها وكيف يجهز اللقمة الى فيه وكيف يكسر الجوز ويستخرج لبه وكيف يلقي كلما أخذ به وأعيد عليه وانه من بين جميع الحيوان اذا سقط فِي الماء غرق مثل الانسان ومع اجتماع أسباب المعرفة فيه يغرق الا أن يكتسب معرفة السباحة وان كان طبعه أوفى واكمل فهو من ها هنا أنقص وأ كلّ وكل شيء فهو يسبح من جميع الحيوانات مما يوصف بالمعرفة والفطنة ومما يوصف بالغباوة والبلادة وليس يصير القرد بذلك المقدار من المقاربة الى أن يخرج من بعض حدود القرود الى حدود الانسان وزعمت ان مما يمنع من التمثيل بين الديك والكلب انه حارس محترس منه وكل حارس من الناس فهو حارس غير مأمون تبدله ولقد سأل زياد ليلة من الليالى من على شرطتكم قالوا بلج بن نشبة الجشمى فقال

وساع مع السلطان يسعى عليهم * ومحترس من مثله وهو حارس

ويقال ان الشاعر قال هذا الشعر فِي الفلافس النهشلي حين ولى شرطة الحارث بن عبد الله

أقلى علىّ اللوم يا ابنة مالك * وذمى زمانا ساد فيه الفلافس

وساع مع السلطان يسعى عليهم * ومحترس من مثله وهو حارس

وليس يحكم لصغار المضار على كبارها بل الحكم للغامر على المغمور والقاهر على المقهور ولو قد حكينا ما ذكر هذا الشيخ من خصال الكلب وذكر صاحبه من خصال الديك أيقنت أن العجلة من عمل الشيطان وان العجب بئس الصاحب وقلت وما يبلغ من قدر الكلب ومن مقدار الديك أن يتفرغ لهما شيخان من جلة المعتزلة وهم أشراف أهل الحكمة فأى شيء بلغ غفر الله تعالى لك من قدر جزءٍ لا يتجزأ من رمل عالج والجزء الأقل من أول قطع الذرة للمكان السحيق والصحيفة التي لا عمق لها ولأى شيء

يعنون بذلك وما يبلغ من ثمنه وقدر حجمه حتي يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة والكهول العلية وحتى يختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل وقراءة القرآن وطول الانتصاب فى الصلاة وحتى يزعم أهله انه فوق الحج والجهاد وفوق كل بر واجتهاد فان زعمت ان ذلك كله سواء طالت الخصومة معك وشغلتنا عما هو أولى بنافيك على انك اذا عممت ذلك كله بالذم وجللته بالعيب صارت المصيبة فيك أجل والعزاء عنها أعسر وان زعمت ان ذلك انما جاز لأنهم لم يذهبوا الى اثمان الاعيان فى الأسواق والى عظم الحجم والى ما يروق العين ويلائم النفس وانهم انما ذهبوا الى عاقبة الأمر فيه والى نتيجته وما يتولد عنه من علم النهايات ومن باب الكل والبعض وكان ويكون ومن باب ما يحيط به العلم اومايفضل عنه ومن فرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين فان كان هذا العذر مقبولا وهذا الحكم صحيحا فكذلك يقول فى الكلب لأن الكلب ليس له خطر ثمين ولا قدر فى الصدر جليل لأنه ان كان كلب صيد فديته أربعون درهما وان كان كلب ضرع فديته شاة وان كان كلب دار فديته زنبيل من تراب حق على القاتل أن يؤديه وحق على صاحب الدار أن يقبله فهذا مقدار ظاهر حاله وكوامن خصاله ودفائن الحكمة فيه والبرهانات على عجيب تدبير الرب تعالى ذكره فيه على خلاف ذلك فلذلك استجازوا النظر في شأنه والتمثيل بينه وبين نظيره وتعلم أيضا مع ذلك ان الكلب اذا كان فيه مع خموله وسقوطه من عجيب التدبير والنعمة السابغة والحكمة البالغة مثل هذا الانسان الذى له خلق الله السموات والارض وما بينهما أحق بأن يفكر فيه ويحمد الله تعالى على ما أودعه من الحكمة العجيبة والنعمة السابغة وقلت ولو كان بدل النظر فيهما النظر فى التوحيد وفى نفى التشبيه وفى الوعد والوعيد وفي التعديل والتجويز وفي تصحيح الاخبار والتفضيل بين علم الطبائع والاختيار لكان أصوب والعجب انك عمدت الى رجال لا صناعة لهم ولا تجارة الا الدعاء الى ما ذكرت والاحتجاج بما وصفت والا وضع الكتب فيه والولاية والعداوة فيه ولا لهم لذة ولا همّ ولا مذهب ولا مجاز الا عليه واليه فحين أرادوا أن يقسطوا بين الجميع بالحصص ويعدلوا بين

الكل باعطاء كل شيء نصيبه حتي يقع التعديل شاملا والتقسيط جامعاً ويظهر بذلك
الخفى من الحكم والمستور من التدبير اعترضت بالتعنت والتعجب وسطرت الكلام
وأطلت الخطب من غير أن يكون صوّب رأيك اديب وشايعك حكيم وسأضرب لك
مثلا قد استوجبت أغلظ منه وتعرضت لأشد منه ولكننا نستأني بك وننتظر أوبتك
وجدنا لجميع أهل النقص ولأهل كل صنف منهم نسكا يعتمدون عليه في الجمال
ويحتسبون به في الطاعة وطلب المثوبة ويفزعون اليه على قدر فساد الطباع وضعف
الأصل واضطراب الفرع مع خبث المنشإ وقلة التثبت والتوقف ومع كثرة التقلب
والاقدام مع أول خاطر فنسك المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمى الناس بالريبة
ويتزين باضافة مايجد في نفسه الى خصمه خوفا من أن يكون قد فطن له فهو يستر ذلك
الداء برمي الناس به ونسك الخارجي الذى يتحلى به ويتزيا بجماله اظهار استعظام المعاصي
ثم لا يلتفت الى مجاوزة المقدار والى ظلم العباد ولا يقف على ان الله تعالى لا يحب أن يظلم
أظلم الظالمين وان فى الحق ما وسع الجميع ونسك الخراسانى أن يحج وينام على قفاه ويفقد
الرياسة ويتهيأ للشهادة ويبسط لسانه بالحسبة وقد قالوا اذا نسك الشريف تواضع واذا
نسك الوضيع تكبر وتفسيره قريب واضح ونسك الكوفي والجندى طرح الديوان
والزيارة للسلطان ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ ونسك الخصي لزوم
طرسوس واظهار مجاهدة الروم ونسك الرافضي ترك النبيذ ونسك البستاني ترك سرقة
الثمر ونسك المغني الصلاة في الجماعة وكثرة التسبيح والصلاة على النبي صلي الله عليه
وسلم ونسك اليهودى التشدد في السبت واقامته والصوفى اظهار النسك بين المسلمين
اذا كان فسلا ببعض العمل تطرف وأظهر تحريم المكاسب وعادسائلاوجعل مسألته
وسيلة الى تعظيم الناس له واذا كان النصرانى فسلا نذلا مبغضا للعمل ترهب ولبس
الصوف لأنه واثق أنه متي لبس وتزيا بذلك الزي وتحلى بذلك اللباس واظهر
تلك السيما انه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه ثم لا يرضى بان
ربح الكفاية باطلا حتى استطال بالمرتبة فاذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ظن انه

قد حول ريبته الى خصمه وحول براءة خصمه اليه واذا صار كل واحد من هذه الاصناف الى ما ذكرنا فقد بلغ الامنية ووقف على النهاية فاحذر أن تكون منهم (واعلم) انك قد اشبهتهم في هذا الوجه وصارعتهم في هذا المذهب

باب

مما قدمنا ذكره وبينه وبين ما ذكرنا بعض الفرق يقال أجرأ من الليث واجبن من الصفرد واسخى من لافظة واصبر على الهون من كلب واحذر من عقعق وازهي من غراب واضيع من شرفة واظلم من حية واغدر من الذئب وأخبث من ذئب ضمر وأشد عداوة من عقرب وأروغ من ثعلب وأحمق من حبارى واهدى من قطاة وكذب من فاختة وألأم من كلب على جيفة وأجمع من ذرة وأضل من حمار أهلي وأعق من ضب وأبر من هرة وأنفر من الظليم وأضل من ورل وأضل من ضب وأضل من الحية فيعبرون عن هذه الاشياء بعبارة كالعبارة عن الناس في مواضع الاحسان والاساءة حتي كأنهم من الملومين والمشكورين ثم يعبرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير ويجعلون خيرهم مقصوراً على ما في الخلقة من الغريزة والقوى فيقولون أبصر من عقاب وأسمع من فرس وأطول ذماء من ضب وأصح من الظليم والثاني يشبه العبارة عن الحمد والذم و الاول يشبه العبارة عن السلامة والشكر وانما قلنا ذلك لان كل مشكور محمود وليس كل محمود مشكورا وكل ملوم مذموم وليس كل مذموم ملوما وقد يحمدون البلدة ويذمون الأخرى وكذلك الطعام والشراب وليس ذلك على جهة اللوم ولا على جهة الشكر لان الآخر لايقع الا على جهة التخير والتكلف والا على ما يقال التعني بالاستطاعة والاول انما ينال بالخلقة وبمقدار من المعرفة ولا يبلغ أن يسمى عقلا كما أنه ليس كل قوة تسمى استطاعة والله سبحانه وتعالي أعلم

باب

ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلاب وتعداد أصناف معائبها ومثالبها من لؤمها وخبثها وضعفها وشرها وغدرها وبذائها وجهلها وتسرعها ونتنها وقذرها وما جاء في

الآثار من النهى عن اتخاذها وإمساكها ومن الامر بقتلها وطردها ومن كثرة جناياتها وقلة ودها ومن ضرب المثل بلؤمها ونذالتها وقبحها وقبح معاطاتها وعن سماجة نباحها وكثرة أذاها وتقذر المسلمين من درنها وانها كالخلق المركب والحيوان الملفق كالبغل في الدواب والزاغبي من الحمام وانها لا سبع ولا بهيمة ولا إنسية ولا جنية وانها من الجن دون الجن وانها مطايا الجن ونوع من المسخ وانها تنبش القبور وتأكل الموتي وانها يعتريها الكلب من أكل لحوم الناس فاذا حكينا ذلك حكينا قول من عدد محاسنها وصنف مناقبها وأخذنا من ذكر أسمائها وأنسابها واعراقها وتغذية الرجال إياها واستهتارهم بها وذكر كسبها وحراستها ووفائها وإلفها وجميع منافعها والمرافق التي فيها وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة والحسن اللطيف والأدب المحمود وذلك سوي صدق الاسترواح وجودة الشم وذكر حفظها ونفاذها واهتدائها واثباتها لصور أربابها وجيرانها وصبرها ومعرفتها بحقوق الكرام واهانتها اللئام وذكر صبرها على الجفا واحتمالها للجوع وذكر ذمامها وشدة منعها ومعاقد الذمام منها وذكر يقظتها وقلة غفلتها وبعد أصواتها وكثرة نسلها وسرعة قبولها والقاحها وتصرف أرحامها في ذلك مع اختلاف طبائع ذكورها والذكور من غير جنسها وكثرة أعمامها وأخوالها وترددها في أصناف السباع وسلامتها من اعراق البهائم وذكر لغتها وحكايتها وجودة ثقافها ومهنها وخدمتها وجدها ولعبها وجميع أمورها بالاشعار المشهورة والاحاديث المأثورة وبالكتب المنزلة والامثال السائرة وعن تجربة الناس لها وفراستهم فيها وماعاينوا منها وكيف قال أصحاب الفال فيها وباخبار المتطيرين عنها وعن اسنادها ومنتهى اعمارها وعدد جرائها ومدة حملها وعن اسمائها وألقابها وسماتها وشياتها وعن دوائها وأدوائها وسياستها وعن اللاتى لا تلقي منها وعن اعراقها والخارجى منها وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها (وذكر) صاحب الديك ما يحفظ من أكل الكلاب للحوم الناس فقال قال الجارود بن أبي سمرة في ذلك

ألم تر أن الله ربي بحوله * وقوته أخزى بن عمرة مالكا

فمن كان عنه بالمغيب سائلا * فقد صار فى أرض الرصافة هالكا
تظل الكلاب العاديات ينشنه * اذا اجتن مستوراً من الليل حالكا

وقال نقيع بن الصفار المحاربي من ولد محارب بن خصفة فى حرب قيس وتغلب

أفنت بني جشم بن بكر حربنا * حتي تعادل ميل تغلب فاستوى
أكل الكلاب أنوفهم وخصاهم * فلتبك تغلب للانوف وللخصا

وقال بن يعقوب الخزيمى وهو اسحاق بن حسان بن موسي في قتلى حرب ببغداد

وهل رأيت الفتيان في ساعة المعرك معفورة مناخرها
كل فتي مانع حقيقته * يشقى به فى الوغى مساعرها
باتت عليه الكلاب تنهشه * مخضوبة من دم أظافرها

وقال أبو الشمقمق وهو مروان ابن محمد مولى مروان بن محمد ويكني أبا محمد

يوسف الشاعر فرخ * وجدوه بالأبله
حلق قد تلقى * كامن في جوف جله
خيطوها خشية الكلب * عليه بسله

وذكر لى عن أبى بكر الهذلى قال كنا عند الحسن اذا قبل وكيع بن أبي سود فجلس فقال يا أبا سعيد ماتقول فى دم البراغيث يصيب الثوب ايصلى فيه فقال ياعجبا ممن يلغ في دماء المسلمين كأنه كلب ثم يسأل عن دم البراغيث فقام وكيع يتخلج في مشية كتخلج المجنون فقال الحسن ان الله فى كل عضو منه نعمة فيستعين بها على المعصية اللهم لا تجعلنا ممن يتقوى بنعمتك على معصيتك (وقال) صاحب الديك أشياء من الحيوان تضاف الى نتن الجلود وخبث الرائحة كريح أبدان الحيات وكنتن التيوس وصنان عرقها وكنتن جلد الكلب اذا أصابه مطر وضروب من النتن في سوي ذلك نحن ذاكروها ان شاء الله تعالى وقال روح بن زنباع الجذامي فى امرأته وضرب بالكلب المثل

ريح الكرائم معروف له أرج * وريحها ريح كلب مسه مطر

قال وكانت امرأة روح بن زنباع أم جعفر بنت النعمان بن بشير وكان عبد الملك

زوجه اياها وقال انها جارية حسناء فاصبر على بذاء لسانها وقال الاخر

وريح مجروب وريح جله * وريح كلب في غداة كله

وانشد أبو زيد في ذلك

كان ريحهم من خبث طعمتهم * ريح الكلاب اذا ما مسها مطر

ومما ذكر به الكلب من أكله العذرة قول الراجز

احرص من كلب على عقي صبيّ

وقال مثل ذلك حنظلة بن عرادة لابنه السرندى

ما للسرندى أطال الله ايمته * خلّى اباه بقفر البيد وادلجا

ريح خبيث يعاطي الكلب طعمته * وان رأى غفلة من جارة ولجا

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه * والكلب يلحس من تحت استه الردجا

يقال للذى يخرج من بطن الصبي حين يخرج من بطن أمه عقى بكسر العين ويقال عق الصبي يعقي عقيا فاذا اشتد بطنه للسمن قيل ضرب ليسمن والعقي وهو العقية الغيبة واياه عني ابن عمر حين قيل له هلا بايعت أخاك ابن الزبير فقال ان أخي وضع يده في قيئة ودعا الى البيعة اني لا انزع يدى من جماعة واضعا في فرقة وفي الحديث المرفوع الراجع في هبته كالراجع في قيئه وهذا المثل في الكلب ويقال أبخل من كلب على جيفة وقال بعضهم في الكلب الجيفة أحب اليه من اللحم الغريض ويأكل العذرة ويرجع في قيئه ويشغر ببوله فيصير في جوف فيه وانفه ويحذفه تلقاء خيشومه وقال صاحب الكلب إن كنتم انما تستسفطون الكلب وتستسفلونه بهذا وأشباهه فالجيفة أنتن من العذرة والعذرة شر من القيء والجيفة أحب الى أشراف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغريض الغض والاسد سيد السباع وهو يأكل الجيفة ولا يعرض لشرائع الوحش وافتراس البهائم ولا للسابلة من الناس ما وجد في فريسته فضلة ويبدأ بعد شرب الدم فيبقر بطنه ويأكل ما فيه من القيئة والثفل والحشوة والزبل وهو يرجع في قيئه وعند ورث السنور ذلك وهو المضروب به المثل في النجدة والبسالة وهو في شدة الاقدام

والصولة فيقال ما هو الا الاسد على براثنه وهو أشد من الاسد وهو أجرأ من الليث العادي وفلان أسد البلاد وهو الاسد الاسور وقيل لحمزة بن عبد المطلب أسد الله فكفاك من نبل الاسد انه اشتق لحمزة بن عبد المطلب من اسمه ويقال للملك اصيد اذا ارادوا ان يصفوه بالكبر وبقلة الالتفات وبأن أنفه فى أسلوب ولأن الأسد يلتفت معاً لأن عنقه من عظم واحد وقال أبو حاتم

هلا اذا مطر السماء عليكم * ورفعت رأسك مثل رأس الاصيد

وقال الآخر

يذودون كلبا بالرماح وطيأ * وتغلب والصيد النواظر من بكر

وقال الآخر

وكم لي بها من أب أصيد * نماه أب ماجد أصيد

وبعد فان الذي يأكل الجيفة لم يبعد من طبع كثير من الناس لأن من الناس من يشتهي اللحم الغابّ ومنهم من يشتهى النمكسود وليس بين النمكسود وبين المصلوب اليابس كبير فرق وانما يذبحون الديكة والبط والدجاج والدراج من أول الليل ليسترخي لحمها وذلك أول التجييف فلاسد أجمع لهذه الخصال من الكلب فهلا ذكرتم بذلك الأسد وهو أنبه ذكراً وأبعد صيتا وأما ما ذكرتم من نتن الجلد ومن استنشاق البول فان للتيس في ذلك ما ليس للكلب وقد شاركه فى الحذف ببوله تلقاء أنفه وباينه بشدة الصنان فان الامثال به اكثر ذكراً وفي العنز أيضاً عيوب وفي توجيه التيس ببوله الى حاق خيشومه قال الشاعر لبعض من يهجوه

دعيت يزيد كى تزيد فلم تزد * فعاد لك المسمى فأسماك بالفجر

وما الفجر الا التيس يعتل بوله * عليه فيمذى في لبان وفي نحر

وقال آخر في مثل ذلك

أعثمان بن حيان بن لؤم * عتود فى مفارقه يبول

ولو أني أشافهه لشالت * نعامته ويفهم ما يقول

وبعد فما يعلم من صنيع العنز في لبنها وفى الارتضاع من خلفها الاقبح

وقال ابن أحمر الباهلي في ذلك

إنا وجدنا بني سهم وجاهلهم * كالعنز تعطف روقيها وترتضع

وقلتم هجا ابن غادية السلمحا بعض الكرام حين عزل عن ينبع فقال لمن ظن أنه انما عزل لمكانه

ركبوك مرتحلا فظهرك منهم * دبر الحراقف والفقار موقع

كالكلب يتبع خانقيه وينتحي * نحو الذين بهم يعز ويمنع

وقال ابن هرمة الفهرى

فما عادت لذى يمن رؤسا * ولا ضرت بفرقتها نزارا

كعنز السوء تنطح من خلاها * وترأم من يحد لها الشفارا

وما نعلم الرجوع فى الجرة واعادة الفرث الى الفم ليستقصى مضغه الى السمج وأقذر من الرجوع في القيء وقد اختار الله عز وجل تلك الطبيعة للأنعام وجعل الناس ليسوا لشيء من اللحمان أشد أكلا به ولا أشد عجبا منكم ولا أصلح لأبدانهم ولا أغذا لهم من لحوم هذه الأنعام افتائها ومسانها وقال صاحب الديك مايشبه عود الماشية في الجرة ورجوعها في الفرث تطحنه وتسيغه الرجوع في القيء وقد زعمتم أن جرة البعير أنتن من قيء الكلاب لطول غيوبها في الجوف وانقلابها الى طباع الزبل وانه أنتن من الثلط وانما مثل الجرة مثل الريق الذي ذكره ابن أحمر فقال

هذا الثناء وأجدر أن يصاحبه * وقد يداوم ريق الطامع الأمل

فانما مثل القيء مثل العذرة لان الريق الذى زعمتم ما دام فى فم صاحبه ألذ من السلوى وامتع من النسيم وأحسن موقعا من الماء البارد من العطشان المسهوم والريق كذلك مالم يزايل موضعه ومتى زايل فم صاحبه الى بعض جلده اشتدنتنه وعاد في سبيل القيء

فالريق والجرة فى سبيل واحـد كما أن القيء والعذرة في سبيل واحد ولو أن الـكلب قاس حتى يمتلئ منه فمه ثم رجع فيه من غير مباينة له لـكان فى ذلك أحق بالنظافة من الانعام في جرتها وجشيها وأهليها وإن الارانب لتحيض حيضاً نتناً فما عاف لحمها أصحاب التقذر لمشاركتها الانعام فى الجرة فقال صاحب الـكلب أما ما عبتموه من أكل العذرة فان ذلك عام في الماشية المتخير لحمها على اللحمان لان الابل والشاة كلها جـلالة وهن على يابس ما يخرج من الناس أحرص وعلى أنها اذا تعودت أكل ما قد جف ظاهره وداخله رطب رجع أمرها الى ما عليه الـكلب ثم الدجاج لا ترضي بالعذرة وبما يبقى من الحبوب التي لم يأت عليها الاستمراء والهضم حتى تلتمس الديدان التى فيها فيجتمع نوعان من العذرة لانها اذا أكلت ديدان العـذرة فقد أتت على النوعين جميعاً ولذلك قال عبد الرحمن ابن أم الحـكم فى هجائه الانصار بخبيث الطعام فضرب المثل بالدجاج من بين جميع الحيوان وترك ذكر الـكلاب وهى له معرضة فقال

وللأنصار أكل في قراها * لخبث الاطعمات من الدجاج

ولو قال وللأنصار أكل في قراها * لخبث الاطعمات من الـكلاب

لـكان الشعر صحيحاً مرضياً وعلى أن الـكلاب متي شبعت لم تعرض للعذرة والانعام الجلالة وكذلك الحافر قد جعلت ذلك كالحمض اذا كانت لها خلة فهى مرة تتغذى به ومرة تحمض وقد جاء فى لحوم الجلالة ماجاء وملوكنا وأهل العيش منا لا يرغبون فى شيء من اللحمان رغبتهم فى الدجاج وهم يقدمونها على البط والنواهض والقبج والدراج ثم وعلى الجداء والاعنق الحمر من بنات الصـفايا وهم يعرفون طبعها وشهوتها وهم مع ذلك يأكلون الرواعي كما يأكلون المسـمنات وأطيب مافي الانهار من السـمك وأحسنها قدوداً وخرطاً وأسبطها سبوطا وأرفعها ثمنا وأكثرها تصرفا في المالح والطري أو فى القريش الشبوط وليس فى الماء سـمكة رفيعة الذكر ولا ذات خمول إلا وهي أحرص على أكل العـذرة منها وإنها لا شـد طلبا لها من الخنزير في البر والجرى في البحر وقد علم الناس كيف استطابة أكل لحوم الخنازير وأكل الخنازير لها وكيف كانت

الا كاسرة والقياصرة يقدمونها ويفضلونها ولولا التعبد لجرى عندنا مجراه عند غيرنا وقد علم الناس كيف استطابة أكل الجرى لاذنابها محشواً وفى الجري قال أبو كلدة هو أدم العميان وجيد في الكوشان ودواء فى الكليتين وصالح لوجع الظهر وعجب الذنب وخلاف على اليهود وغيظ على الروافض وفى أكله احياء لبعض السنن واماتة بعض البدع ولم يفلج عليه مكثر منه قط ومحنة بين المبتدع والسنى هلك فيه فتيان مذ كانت الدنيا محلل ومحرم وقال ابو اسحق هو قبيح المنظر عارىء الجلد ناقص الدماغ يلتقم العذرة ويبتلع الجرذان وزعم لايستطاع أكله الا محشواً ولا يتصرف تصرف السمك وقد وقع عليه اسم المسخ لايطيب مملوحا ولا ممقوراً ولا كبابا ولا يختار مطبوخا ويرمي كله الا ذنبه والاصناف التي تعرض للعذرة كثيرة وقد ذكرنا الجلالات من الانعام والجري والشبوط من السمك ويعرض لها من الطير الدجاج والرخم والهداهد وقد بلغ من شهوة الرخمة لذلك ان سموها الانوق حتى سموا كل شيء من الحيوان يعرض للعذرة بانوق وهو قول الشاعر

* ذرق الانوقين القرنبي والجعل *

ولشدة طلب الجعل لذلك قال الشاعر

يبيت في مجلس الاقوام يربؤهم * كأنه شرطى بات فى حرس

ولذلك قال الشاعر

اذا أتوه بطعام وأكل * بات يعشى وحده ألفى جُعَل

هذا البيت يدل على عظم مقدار النجو فهجاه بذلك وعلى أن الجعل يقتات البراز وفى مثل ذلك يقول ابن عبدل ان كان قاله وانما قلت هذا لان الشعر يرتفع عنه والشعر قوله

نعم جاز الخنزيرة المرضع الفر * ني اذا ما غدا أبو كلثوم
ثاويا قد أصاب عند صديق * من ثريد ملبق مادوم
ثم انحي بجعده حاجب الشمس . * فألقي كالمعاف المهدوم

﴿ وقال الراجز ﴾

فردقة ثاردة وصومعا * ثمت البان البخاتى جعجعا
جعجعة العواء تبغى تنجعا * ثمت خوًّا باركاو استرجعا
* عن جاثم يحسب كلباً أبقعا *

وفي طلب الجعل للزبل قال الراجز وهو أبو الغصن الأسدى

ماذا تلاقي طلحات الجرجه * من كل ذات نجنق غملَّجه
ظل لها بين الحلال أرجه * من الضراط والفساء السمجه
لجثتها قاعدة منشجه * تعطيه عنها جعلا مدحرجه

وقال يحي الاغر تقول العرب سرك به جعله وقال الشاعر

اذا أتيت سليمى شبَّ لي جعل * ان الشقى الذى يغري به الجعل

يضرب هذا المثل للرجل اذا لصق به من يكره واذا كان لا يزال يراه يهرب منه قال يحي وكان أصله ملازمة الجعل لمن بات فى الصحراء فكلما قام لحاجة تبعه لانه عنده انه يريد الغائط وفي القرنبي يقول ابن مقبل

ولا أطرق الجارات بالليل قابعاً * قبوع القرنبي أخلفته مجاجره

والقبوع الاجتماع والتقبض والقرنبي دويبة فوق الخنفساء ودون الجعل وهو والجعل يتبعان الرجل الى الغائط ومن الطير الذي يضارع الرخمة في ذلك الهدهد منتن البدن وان لم تجده ماطخا بشيء من العذرة لانه يبنى بيته ويصنع أُفحوصه من الزبل وليس اقتياته منه الا على قدر رغبته وحاجته في أن لا يتخذ بيتا ولا أفحوصا الا منه نخامره النتن فعلق ببدنه وجرى فِي اعراق أبويه اذ كان هذا التضيع عاما في جنبه وتعتري هذه الشهوة الذبان حتى انها لو رأت عسلا وقذرا لكانت الى القذر أسرع وقال الشاعر

قفا خلف وجه قد أطيل كأنه * قفا مالك يقصي الهموم على نبق
واعظم زهواً من ذباب على خرا * وأبخل من كلب عقور على عرق

ويزعمون ان الزنبور لهج بصيد الذبان ولا يكاد يصيد الا وهو ساقط على عذرة

لفرط شهوته لها فيعرف الزنبور ذلك فيجعل غفلته فرصة ونهزة قالوا وانما قلنا ذلك لأنا لم نجده يروم صيده وهو ساقط على ثمرة فما دونها في الحلاوة وقال أبو الشمقمق في ذلك

الطريق الطريق جاءكم الاحمـ * ـق رأس الانتان والقـذره
وابن عم الحمار فى صورة الفيـ * ـل وخال الجاموس والبقـره
يمشى رويدا يريد خلعتكم * مشى خـنزيرة الى عـذره

وقال حماد عجرد في بشار بن برد العقيلى

ما صـور الله شـبها له * من كل من من خلقه صوّرا
اشـبه بالخنزير وجها ولا * بالـكلب اعراقا ولا مكسرا
ولا رأينـا أحـداً مثله * أنجس أو أطفس أو أقذرا
لو طليت جـلدته عنـبرا * لنتّنت جـلدته العنـبرا
او طليت مسكا ذكيا اذا * تحول المسك عليـه خرا

وقال ابو نواس في هجاء جعفر بن يحيي بن خالد البرمكى

اذا مامدحت فتي من خرى * اليس جزاءى أن اعطى الخرا

وقال اعرابي يهجو رجلا يقال له جلمود بن أوس كان منتن العرق

انى اذا عارضنى تألقـا * ورعـدت حافتـه وبرقا
أهلكت جلمود بن أوس غرقا * كان لحمقاء فصار أحمقا
أخبث شيء أحرقا وعرقا

وقال حماد عجرد فى بشار

يا ابن برد اخسأ فمثل الـكلب * في الخلق أنت لا الانسان
بل لعمرى لانت شر من الكلـ * ـب وأولى منه بكل هوان
ولريح الخنزير أطيب من ريـ * ـحك يا ابن الطيان ذي التبان

وقال بعض الشعراء في عبد الله بن عمير

غزا ابن عمير غزوة تركت له * ثناء كريح الجورب المتخرق

وقال حماد عجرد في بشار

قل لشقي الجد في رمسه * ومن يفر الناس من رجسه
للقرد بشار بن برد ولا * تحمل برغم القرد أو نحسه
للقرد بالليث اغترار به * فما الذي أدناك من مسه
يا ابن استها فاصبر على ضغمه * بنابه يا قرد أو ضرسه
نهاره أخبث من ليله * ويومه أخبث من أمسه
وليس بالمقلع عن غيله * حتى يدلى القرد فى رمسه
ما خلق الله شبيها له * من جنه طراً ومن انسه
والله ما الخنزير فى نتنه * من ربعه بالعشر أو خمسه
بل ريحه أطيب من ريحه * ومسه الين من مسه
ووجهه أحسن من وجهه * ونفسه أنبل من نفسه
وعوده أحسن من عوده * وجنسه أكرم من جنسه

وأنا حفظك الله تعالى استظرف وضعه الخنزير بهذا المكان وفي هذا الموضع حين يقول

وعوده أكرم من عوده * أين عود الخنزير من الكرم

قبحه الله تعالى وقال حماد عجرد فى بشار بن برد

إن ابن برد رأى رؤيا فأولها * بلا مشورة انسان ولا أثر
رأي العمى نعمة لله سابغة * عليه اذ كان مكفوفا عن النظر
وقال لولم أكن أعمي لكنت كما * قد كان برد أبي في الضيق والعسر
أكدُّ نفسي بالتطيين مجتهدا * إما أجيراً وإما غير مؤتجر
أو كنت ان لم أقنع بفعل أبي * قصاب شاءٍ شقي الجد أو بقر
كاخوتي دائبا أشقى شقاءهم * في الحر والبرد والادلاج والبكر
فقد كفاني العمى من كل مكسبة * والرزق يأتى بأنواع من القدر

فصرت ذا نشب من غير ما طلب * إلا بمسئلتي ان كنت في صفر
أضم شيئاً الى شئ فأحرزه * مما أجمع من تمر ومن كسر
من كان يعرفني لولم أكن زمناً * أو كان يبذل لي شيئاً سوى الحجر
فقل له لا هداك الله من رجل * فانها عرة تربي على العرد
لا قد فطنت الى شيء تعيش به * يا ابن الخبيثة قد وفّقت في النظر
يا ابن التى نشزت عن شيخ ميتها * لا يرميان بذي الهامات والعجر
أما يكفك عن شتمي ومنقصتي * ما في حر امك من نتن ومن ذفر
نفتك عنها عقيل وهي صادقة * فسل أسيّد أو فاسئل أبا زفر
يا عبد أم الظباء المستطب بها * من اللوى لست مولى الغر من مضر
بل أنت كالكلب ذلا أو أذل وفى * نذالة النفس والخنزير والنقر
وأنت كالقرد في تشويه منظره * بل صورة القرد أبهى منك في الصور

ووصف ابن أبي كريمة حشاله كان هو وأصحابه يتأذون بريحه فقال

ولى كنيف بحمد الله يطرقني * أرواح واري خيال غير فتار
له بدائع نتن ليس يعرفها * من البرية الا خازن النار
اذا أتاني بخيل زادني بدعا * كانه لهج عمداً باضرار
قد اجتواني له الخلان كلهم * وباع مسكنه من قربه جاري
فمن أراد من البرسام أقتله * أو الصداع فره يدخلن داري
استكثف النتن في انفي لكثرته * فليس يوجد فيه غير اضماري

وقيل للمحلول ويلك ما حفظت بيت شعر قط فقال بيتاً واحداً اشتهيته فحفظته فقيل له فهاته فقال أما أنا لا أحفظ إلا بيتاً واحداً قيل فكيف رزق منك هذا البيت فأنشده فأنشدهم

كأنما نكهتها مدة * تسيل من مخطة مجذوم

وزعم اصحابنا أن رجلا من بني سعد وكان أنتن الناس إبطا بلغه أن ناسا من عبد القيس

يحدونه برجل منهم فمضى اليهم شدا فوافاهم وقد زيد ابطاه وهو يقول

أقبلت من جلهة باعثينا * بذى حضيض يعطش المجنونا
يزوى له من شمه الجبينا * حتى ترى لوجهه غضونا
نبئت عبد القيس يا بطونا

قال ومتح اعرابى على بئر وهو يقول

ياريها اذا بدا صنانى * كأنني جانى عبيثرانى

وقال آخر

كأن ابطى وقد طال المدا * لقحة خرءٍ من كواميخ القرى

ويقال انه ليس فى الأرض رائحة انتن ولا أشد على النفس من بخر فم او نتن حر ولا فى الارض رائحة اعصم لروح من رائحة التفاح (وقال صاحب الكلاب) فما نرى الناس يعافون تسميد بقولهم قبل نجومها وتفتق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها حتي ربما ذروا عليها السماد ذرا ثم يرسل عليها الماء حتي يشرب موضع اللب قوى العذرة بل من لهم بالعذرة وعلى انهم مايصيبونها الا مغشوشة مفسدة وكذلك صنيعهم في الريحان فأما النخل فلو استطاعوا أن يطلوا بها الاجذاع طليا لفعلوا وانهم ليوقدون بها الحمامات وأتانين الملال وتنانير الخبز ومن اكرم سمادهم الابعار كلها والاخثاء اذاجفت وما بين الثلط جافا والخثاء يابسا وبين العذرة جافة ويابسة فرق وعلى انهم يعالجون بالعذرة وبخرء الكلاب من الرائحة والخانوق في اقصي مواضع التغزر وهو أقصي الحلق ومواضع اللهات ويضعونها على مواضع الشوكة ويعالجون بها عيون الدواب وقال مسيح الكناس انما اشتق الخير من الخرء وهو في النوم خير وسلحة مدركة ألذ من كوم العروس ليلة العرس ولقد دخلت على بعض الملوك لبعض الاسباب واذا به قماص وزكام وثقل رأس واذا ذلك قد طاوله وقد كان بلغنى انه كان هجر الجلوس على المقعدة واتيان الخلاء فأمرته بالعود الى عادته فما مرت به أيام حتى ذهبت عنه (وزعم) إن الدنيا منتنة الحيطان والتربة والانهار والاودية الا أن الناس قدغمرهم ذلك لنتن المحيط

بهم وقد محق حسهم له طول مكثه في خياشيمهم قال فمن ارتاب بخبري فليقف فى الرد الى أن يمتحن ذلك في أول مايخرج الى الدنيا عن بيت مطيب وليشم تشمم المتشبث على أن البقاع تتفاوت في النتن فهذا قول مسيح الكناس (وزعم) لى سلمويه وابن ماسويه مطيب الخلاء انه ليس على الارض جيفة انتن نتناولا اثقب ثقوبا من جيفة بعير فظننت أن الذي وهمهما ذلك عصبيتهما عليه وبغضهما لاربابه ولأن النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله هو المذكور في الكتب بركوب البعير وأنا أقول في النتن والطيب شيئا لعلك ان تفقدته أن توافقني عليه وترضي قولى اما النتن فانى لم أشم شيئاً أنتن من ريح حش مقير يبول فيه الخصيان ولا يصب عليه الماء فان لابوالهم المتراكمة ولريح القار وريح هوائه وما ينفصل اليه من ريح البالوعة جهة من النتن ومذهبا في المكروه ليس بينه وبين الابدان عمل وانما يقصد الى عين الروح وصميم القلب ولا سيما اذا كان الخلاء غير مكشوف وكان مغموما غير مفتوح فاما الطيب فانى لم أشم رائحة قط احيا للنفس ولا أعصم للروح ولا أفتق ولا أغنج ولا أطيب خمرة من ريح عروس اذا أحكمت تلك الاخلاط وكان عرف رأسها وبدنها سليما وان كانت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فانك ستجد ريحا تعلم انه ليس فوقها الا ريح الجنة ومما قالوا فى النتن وفي ريح جحر الظربان خاصة قول الحكم بن عبدل

ألقيت نفسك فى عروض مشقة * ولحصد أنفك بالمناجل أهون

أنت امرؤ فى أرض أمك فلفل * جم وفلفلنا هناك الدندن

فبحق أمك وهي منك حقيقة * بالبر واللطف الذى لايخزن

لاتدن فاك من الامير ونحه * حتي يداوى ما بأنفك أهون

ان كان للظربان جحر منتن * فلجحر أنفك يامحمد أنتن

وقال الربيع بن أبى الحقيق وذكر الظربان حين رمى قوما بانهم يفسون في مجالسهم لان الظربان أنتن خلق الله تعالى فسوة وقد عرف الظربان ذلك فجعله من أحد سلاحه كما عرفت الحبارى مافي سلاحها من الآلة اذا قرب الصقر منها والظربان يدخل

على الضب جحره وفيه حسوله أو بيضه فيأتي أضيق موضع فى الجحر فيسده بيديه ويحول استه فلا يفسو ثلاث فسوات حتى يدار بالضب فيحز سكران مغشيا عليه فيأكله ثم يقيم في جحره حتى يأتى على آخر حسوله وتقول العرب انه ربما دخل في خلال الهجمة فيفسو فلا تتم له ثلاث فسوات حتي تتفرق الابل عن المبرك تتركه وفيه قردان فلا يردها الراعي الا بالجهد الشديد فقال الربيع وهجاهم بريح التيوس

قليل غناؤهم في الهياج * اذا ماتنادوا لامر شديد
وأنتم كلاب لدى دوركم * تهرهر العقور الصرود
وأنتم ظرابيّ اذ تجلسون * وما إن لنا فيكم من مزيد
وأنتم تيوس وقد تعرفون * بريح التيوس وقبح الجدود

قال ويقال افسي من الظربان ويسمى مفرق النعم يريدون من نتن ريح فسائه ويقال في المثل اذا وقع بين الرجلين شر فتباينا وتقاطعا فسا بينهما ظربان ويقال أنتن من ظربان لأن الضب إنما ينخدع فى جحره ويوغل في سربه لشدة طلب الظربان له وقال الفرزدق فى ذلك

ولو كنت في نار الجحيم لأصبحت * ظرابي من حمان عنى تشير

وكان أبو عبيدة يسمي الحمانى صاحب الاحم يريد هذا المعني كما يسمى كل حمان ظربانا وقال ابن عبدل

لاتدن فاك من الأمير ونحه * حتي يداوى مابأنفك أهرن
إن كان للظربان جحر منتن * فلجحر أنفك يامحمد انتن

فى شعره الذي يقول

ليت الأمير أطاعني فشفيته * من كل من يكفي القصيد ويلحن
متكورا يحثو الكلام كأنما * باتت مناخره بدهن تعرن
وبنى لهم سجنا فكنت أميرهم * زمنا فأضرب من أشاءوا سجن
قل لابن آكلة العفاص محمد * ان كنت من حب التقرب تجبن

القيت نفسك في عروض مشقة * ولحصد أنفك بالمناجل أهون
أنت امرؤ في أرض أمك فامل * جـم وفلفلنا هنـاك الدندن
فبحق أمك وهي منك حقيقة * بالبر واللطف الذي لا يحزن
لا تدن فاك من الامـير ونحه * حتى يداوي ما بأنفك أهرن
ان كان للظربان جحر منتن * فلجحـر أنفك يا محمـد انتن
فسل الامير وأنت غير موفق * وبنوا أبيـه للفصاحة معدن
وسل ابن ذكوان تجده عالما * بسليقة العرب التى لا تخزن
اذا أنت تجعـل كل يوم غمصة * فتجيـد ما عملت يداك وتحسن
أشبهت أمك غير باب واحـد * ان قد ختنت وانهـا لا تختن
فلـئن أصبت دراهما فدفنتها * وفتنت فيهـا وابن آدم يفتن
فبما أراك وأنت غـير مدرهم * اذ ذاك تقصف في القيان وتزفن
اذ رأس مالك لعبـة بصرية * بيضاء معـرية عليها السوسن

وقال ابن عبدل أيضاً

نحوت محمـدا ودخان فيه * كريح الجعر فوق عطين جلد
ركبت اليه في رجل أتاني * كريم يطلب المعروف عندى
فقلت له ولم أعجل عليه * وذلك بعد تقريظي وحمدى
فأعرض مكفحا عني كأني * أكلم صخرة في رأس همد
أقرب كل آصرة ليـدنو * فما يزداد مني غـير بعـد
فأقسم غـير مستثن يمينا * أبا بخر لتتخمن ردي
فلو كنت المهـذب من تميم * لخفت ملامتي ورجوت حمدى
نحوت محمداً فوجدت ريحا * كريح الكلب مات قريب عهد
وقـد لذعتني ثعبان نتن * سيبلغ ان سلمنا أهـل نجد
وأدنى خطمه فوددت أني * قرنت دنوه مـني ببعـد

كما افتقدت المعادن من حواه * بخلعتها ولم ترجع بزند
وقد أدنيت فاه إلى حتي * قتلت بذاك نفسى غير عمد
وفارقها خواة فاستراحت * وكانت عنده كأسير قد
وما يدنو إلى فيه ذباب * ولو طليت مشافره بقند
يذقن حلاوة ويخفن موتا * زعافا ان هممن له بورد
فلما فاح فوه على فوحا * بمثل غثيثة الدبر المفد
فقلت له تنح بعيد عني * فما هذا بريح قتار زند
وما هذا بريح طلا ولكن * يفوح خراك فيه غير سرد
فحدثني فان الصدق أدنى * لباب الحق من كذب وجحد
أبت تجول في عفج طحون * فاعلم إذ أتاك به معدي
فان أهديت لى من فيك حتفى * فاني كالذى اهديت اهدى
لكم شرداً يسرن مغنيات * تكون فنونها من كل فند
أما تخزى خزيت له اذا ما * رواها الناس من شيب ومرد
لأرجو ان نجوت ولم يصبني * جوى اني إذن لسعيد جد
وقلت له متى استظرفت هذا * فقال اصابني من جوف مهدي
فقلت له أما داويت هذا * فتعذر فيه آمالا بجهد
فقال أما علمت له رقاء * فتسديه لنا فيما تسدى
فقلت له ولا الوه عياً * له فيما أسر له وأبدى
عليك بقيئة وبجعر كاب * ومثلى ذاك من لون كمقدى
وحنتيت وكراث وثوم * وعودي حرمل ودماغ فهد
وحنجرة ابن آوى ثم دفلى * ووزن شعيرة من بزر فقد
وكف زرحرح ولسان صقر * ومثالين من صوّان رفد
يدق ويعجن المنخول منه * ببول آجن وبجعر قرد

وتدفنه زمانا في شعير * وترميه فلا يبد ولبرد
فدخن فالك ماعتقت منه * ولا يعجن بأظفار وند
فان حضر الشتاء وأنت حي * أزال الله عنك أمور رشد
فدحرجها بنادق وازدردها * متى رمت التكلم أي زرد
فتقذف بالمصل على مصل * ببلعوم وشدق مسمعد
وويلك مالبطنك مذقعدنا * كأن رويه إرزام رعد
فان لحكة الناسوز عندى * دواء ان صبرت له سيجدى
يميت الدود عنك وتشتهيه * ان أنت سننته سن المقد
به وطليته بأصول سعدي * وشيء من جني نصف ورند
أظنّي ميتا من نتن فيه * أهان الله من ناجاه بعدى

(وقال صاحب الديك) سنذكر اشعار العرب في هجاء الكلب مجردا على وجهه ثم نذكرماذموا من خلاله واصناف أعماله وأمورا من صفاته ونبدأ بذكر هجائه في الجملة قال بشار بن برد

عددت سويدا اذفخرت وتولبا * وللكلب خير من سويد وتواب

(وقال بشار أو غيره)

أتذكر اذ ترعي على الحى شاءهم * وأنت شريك الكلب في كل مطعم
وتلحس مافى القعب من فضل سؤره * وقد عاش فيه باليدين وبالفم

(وقال آخر)

وان شرابي لاتعب بوجهه * كلوم كأن كلبا يهارش أكلبا
ولا أقسم الاعكان بيني وبينه * ولا أتوقاه وان كان مجربا

وهجا الأحوص ابناله فشبهه بجرو كلب فقال

أقبح به من ولدواشقح * مثل جرىّ الكلب لم يفقح
ان يرسوء لم يقم فينبح * بالباب عند خلقه المستقبح

وقال أبو خدانة

يا ابن على برح الخفاء * أنت لغير طلحة الفداء
قد علم الأشراف والأكفاء * انك أنت الناقص اللقاء
حبلق جدعه الدعاء * يغمه المئزر والرداء
بنو على كلهم سواء * كأنهم زينية جراء

وقال عبد بني الحسحاس وذكر قبح وجهه

أتيت نساء الحارثيين غدوة * بوجه يراه الله غير جميل
فشبهنني كلبا ولست بفوقه * ولا دونه ان كان غير قليل

وقال ابن دواب السعدى في هوان الكلب

لكسرى كان أعقل من تميم * ليالى فر من أرض الضباب
وأسكن أهله ببلاد ريف * وأشجار وأنهار عذاب
فصار بنو بنيه لها ملوكا * وصرنا نحن أمثال الكلاب
فلا رحم لاله صدى تميم * فقد أزرى بنا فى كل باب

وأراد اللعين هجاء جرير وجرير من بني كليب فاشتق هجاءه من نسبه فقال

سأقضي بين كلب بنى كليب * وبين القين قين بني عقال
فان الكلب مطعمه خبيث * وان القين يعمل في سفال
كلا العبدين قد علمت معد * لئيم الاصل من عم وخال
فما بقيا على تركيهما لي * ولكن خفتما صرد النبال

وقال رجل من همدان يقال له الضحاك بن سعد يهجو مروان بن الحكم واشتق له إسما من الكلب فجعله كلبا فقال

لج الفرار بمروان فقلت له * عاد الظليم ظليما همه الهرب
أين الفرار وترك الملك إن قبلت * ملك الهوينا فلا دين ولا أدب
فراشة الحلم فرعون العذاب وان * يطلب نداه فكلب دونه كلب

وقال آخر وجعل الكلب مثلا فى اللوم

سرت ماسرت من ليلها ثم عرست * على رجل بالعرج ألأم من كلب

وكذلك قول الأسود بن المنذر فانه قال

فان أمرأ أنتم حوله * تحفون قبته بالقباب

يهين سراتكم جاهدا * ويقتلكم مثل قتل الكلاب

وقال سحيمة بن نعيم

الست كليبيا الكلب وكلبة * لها عند أطناب البيوت هرير

وقال النجراني في ذلك

من منزلى قد أخرجتنى زوجتى * تهر فى وجهي هرير الكلبة

زوجتها فقيرة من حرفتي * قلت لها لما أراقت جرتي

أم هلال ابشرى بالحسرة * وابشري منك بقرب الضرة

ويقال للكلب فلحس وهو من صفات الحرص والالحاح ويقال فلان اسأل من فلحس وفلحس رجل من ابني شيبان كان حريصا رغيبا وملحفا ملحا وكل طفيلى فهو عندهم فلحس والارشم الكلب والذئب وقد اشتق منه للانسان اذا كان يتشمم الطعام ويتبع مواضعه قال جرير فى بعضهم

فتي حملته أمه وهي ضيفة * فجاءت بيتن للضيافة أرشما

وقال جرير فى استرواح الطعام

وبنوا الهجيم سخيفة أحلامهم * ثط اللحي متشابهو الألوان

لو يسمعون بأكلة أو شربة * بعمان أضحى جمعهم بعمان

متأبطين بنيهم وبناتهم * صعر الخدود لريح كل دخان

وقال سهم بن حنظلة الغنوى فى ذلك

وأما كلاب فمثل الكلا * ب لايحسن الكلب الاهريرا

وأما تميم فمثل البغا * ل أشبهن آباءهن الحميرا

وأما هلال فعطارة * تبيع كباء وعطرا كثيرا

ومر جرير يوما بالمربد فوقف عليه الراعي وابنه جندل فقال له ابنه جندل انه قد طال وقوفك على هذا الكلب الكلبي فالى متى وضرب بغلته فمضي الراعي وابنه جندل فقال جرير والله لأثقلن رواحلك فلما أمسي أخذ في هجائه فلم يأته مايريد فلما كان مع الصبح انفتح له القول فقال

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولو جعلت فقاح بني نمير * على خبث الحديد اذاً لذابا

ثم وقف في موقفه فلما مر به جندل قبض على عنان فرسه فانشده قوله حتي اذا بلغ إلى هذا البيت

اجندل مانقول بنو نمير * اذا ماالأير في است أبيك غابا

قال فأدبر وهو يقول يقولون والله شرا وقال الشاعر وضرب بالكلب المثل في قبح الوجه

سفرت فقلت لها هج فتبرقعت * فذكرت حين تبرقعت ضبارا

وضبار اسم كلب له وقال كعب الاحبار لرجل وأراد سفراً ان لكل رفقة كلبا فلا تكن كلب أصحابك وتقول العرب أحب كلب الي أهلهم الظاعن ومن الامثال وقع الكلب على الذئب ليأخذ منه ماأخذ ومن أمثالهم الكلاب كل البقر ومن أمثالهم في الشؤم قولهم على أهلها دلت[1] براقش وبراقش كلبة قوم نبحت على جيش مروا ليلا وهم لايشعرون بالحي فاستباحوهم واستدلوا على مواضعهم بنباحها قال الشاعر

ألم تر ان سيد آل شور * بنابه عضه كلب فماتا

وقال صاحب الكلب قد يموت الناس بكل شيء وقد قال عبد الملك ابن مروان الا تعجبون من الضحاك بن قيس يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوجد ليس به حبض ولا نبض وقال عرفجة ابن شريك يهجو اسلم بن زرعة ووطئت أباه عنز بالمربد فمات فقال

---

(١) ولفظ الميداني على أهلها تجني براقش

ولم أستطع اذبات مني معشرى * مكان قتيل العنز ان أتكلما
فيا ابن قتيل العنز هل أنت ثائر * بزرعة تيسا في الزريبة أزرما

وقال أبو الغول في جعفر بن يحيي

أصبحت محتاجا الى الضرب * فى طلب العرف الى الكلب
قد وقح السب له وجهه * فصار لا يحاش للسب
اذا شكى صب اليه الهوى * قال له مالى وللصب
أعني فتى يطعن في دينه * تشب معه خشب الصلب

قال وقلت لابي عبيدة اليس بقع الكلاب أمثلها قال لا قلت ولم قال

وخفت هجاء هم لما تواصوا * كخوف الذئب من بقع الكلاب
قال ليس هكذا قال انما قال * كخوف الذئب من سود الكلاب

ألا ترى انه حين أراد الهجاء قال

كأنك بالمنازل بعد شهر * تخوض غمورة بقع الكلاب

ويدل على ذلك قول الجدلى

لعمرى لجوّ من جواء سويقة * اسافله ميث وأعلاه أجرع
أحب الينا ان نجاور أهله * ويصبح منا وهو مرءي ومسمع
من الجوسق الملعون بالرى لا ينى * على رأسه داعي المنية يلمع
يقولون لى صبرا فقلت لطال ما * صبرت ولكن لا أري الصبر ينفع
فليت عطاءى كان قسم بينهم * وكان لى الكتمان والحزن أجمع
وكان لهم أجري هنيئا وأصبحت * بي البازل الكوماء بالرمل تضبع
أأجعل نفسى عدل علج كأنما * يموت به كلب اذا مات أبقع

قال فقد بين كما تري ان الابقع شرها قال وقلت فلم قال الشاعر

أرسلت أسدا على بقع الكلاب فقد * أمسي شريدهم فى الارض فلالا

قال فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم واذا صغر شأن من هزموا فقد صغر شأن

الممدوح بل انما قال أرسلت أسدا على سود الكلاب قال وانما جاء الحديث في قتل سود الكلاب لان عقرها أكثر ما تكون سودا وذلك من غلبة أنفسها وليس فى الأرض حيوان من بقرة وثور وحمار وفرس وكلب وانسان الاوالسود أشدها شرا وعصيا وأظهرها قوة وصبرا وقال أبو سعيد المخزومى في هجائه دعبلا

ياثابت بن أبي سعيد انها * دول واحربها بأن تتنقلا
هلا جعلت لها كحرمة دعبل * فى أست كلب لايساوي دعبلا
جنبت على قصواء تنقل سوءة * الينا وكم من سوءة لاتها بها
وتزعم ان لم تخز سلم بن جندل * وقد خزيت بعد الرجال كلابها

وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفر بن يحيي

قفا خلف وجه قد أطيل كأنه * قفا مالك يقضي الهموم على تئق
وأعظم زهوا من ذباب على خرى * وابخل من كلب عقور على عرق

وقال أبو الشمقمق

أهل جود ونائل وفعال * غلبوا الناس بالندى والعطية
جئته زائرا فادنى مكانى * وتلقى بمرحب وتحية
لا كمثل الأصم حارثة اللؤ * م شبيه الكلبية القلطيه
جئته زائرا فاعرض عني * مثل اعراض قحبة سرسيه
وتولى كأنه اير بغل * غاب فى دبر بغلة مصريه

﴿وقال أيضاً﴾

الا قولا لشر ان المخازى * ووجه الكلب والتيس الضروط
له بطن يضل الفيل فيه * ودبر مثل راقود النشوط
واير عارم لاخير فيه * كدور سفينة في بثق روط
ولحية حائك من باب قلب * موصلة الجوانب بالخيوط
اذا نهض الكرام الى المعالى * تري سران يسفل في هبوط

له وجه عليه الفقر باد * مرقعة جوانبه بغوط

﴿ وقال أيضا في ذلك ﴾

يارازق الكلب والخنزير فى سعة * والطير والوحش فى يهما رويه
لو شئت صيرته فى حال فاقته * حتى تقر بتلك الحال عينيه

وقال جرير بن عطيه يهجو الصلتان العبدي

أقول لها والدمع يغسل كحلها * متى كان حكم الله في كرب النخل

فأجابه الصلتان فقال

تعيرنا ان كانت النخل مالنا * وود أبوك الكلب لو كان ذا نخل

يعيره جرير بانه كان هو وأبوه من أصحاب النخل

وقال وضاح اليمن

وأكتم السر غضبانا وفى سكرى * حتي يكون له وجه ومستمع
وأترك القول عن علم ومقدرة * حتى يكون بذاك النجد مطلع
لا قوتي قوة الراعي ركائبه * يبيت يأوي اليه الكلب والولع
ولا العسيف الذى تشتد عقبته * حتى يؤوب وباقى فعله قطع

وقال محمد بن عباد الكاتب مولى بجيلة وأبوه من سبي وابق وكاتب زهير وصديق ثمانية يهجو أبا سعيد دعي بني مخزوم وبعد أن لقى منه مالقي

فعلت نزاربك الذي اسـ * ـتاهلته نفيا وضربا
فهجوت قحطانا لاهجو * هم مكابرة وأربا *
وأردت كيما تشتفى * بهجائهم منهم فتربا
ووثقت انك ما سببـ * ـت حماك لؤمك أن تسبا
كالكلب ان ينبح فايـ * ـس جوابه الاأخس كلبا
خفض عليك وقر مكا * نك لا تطف شرقا وغربا
واكشف قناع أبيك فالآ باء ليس تنال غصبا

وقال آخر يصف كلبا

ولذّ كطعم الصرخدى تركته * بأرض العدامن خشية الحدثان
ومبد لى الشحناء بيني وبينه * دعوت وقد طال السرى فدعانى

فوصفه كما ترى انه يبدى له البغضاء

وقال آخر

سرت ما سرت من ليلها ثم عرست * على رجل بالعرج ألأم من كلب

وقال راشد بن شهاب اليشكرى

فلست اذا هبت شمال عرية * بكلب على لحم الجزور ولا برم

وقال كثير بن عبد الرحمن وهو يصف نعلا من نعال الكرام

اذا طرحت لم يطبي الكلب ريحها * وان وضعت فى مجلس القوم شمت

وقال اللعين في بعض أضيافه يخبر انه قراه لحم كلب وقد قال ابن الاعرابى انما وصف تيساً

فقلت لعبدى اقتلا داء بطنه * واعفاجه اللاءى لهن زوائد
فجاءا بخر شاويٍ شعير عليهما * كراديس من أوصال اعقد سافد

وقال دعبل بن على

ولو يرزق الناس عن حيلة * لما نال كفا من التربه
ولو يشرب الماء أهل العفا * ف لما نال من مائهم شربه
ولكنه رزق من رزقه * يعم به الكلب والكلبه

باب ذكر من هجي بأكل لحوم الكلاب ولحوم الناس

قال سالم بن دارة الغطفانى

يا فقعسى لم اكلته لمه * لو خافك الله عليه حرمه
فما أكلت لحمه ولا دمه

وقال الفرزدق فى ذلك

اذا اسدى جاع يوما ببلدة * وكان سمينا كلبه فهو آكله

وقال مساور بن هند

اذا اسدية ولدت غلاما * فبشرها بلؤم في الغلام
يخرِسها نساء بني دبير * بأخبث ما يكون من الطعام
تري أظفار أعقد ملقيات * براثنها على وضم الشمام

فهذا الشعر وما أشبهه يدل على أن اللعين انما قراهم كلبا ولم يقرهم تيسا وان الصواب خلاف ما قال ابن الاعرابي وقال مساور بن هند أيضا

بنى أسد ان تمحل العام فقعس * فهذا اذن دهر الكلاب وعامها

وقال شريح بن أوس يهجو ابالمهوس الاسدى

وعيرتنا تمر العراق وبره * وزادك إير الكلب شيّطه الجمر

وقال معروف الاسدى في أكلهم لحوم الناس

اذا ماضفت يوما فقعسياً * فلا تطعم له أبدا طعاما
فان اللحم انسان فدعه * وخير الزاد ما منع الحراما

وقد هجيت هذيل وأسد وبالعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس قال حسان بن ثابت يذكر هذيلا

إن سرك الغدر صرفا لامزاج له * فأت الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهم * فالكلب والشاة والانسان سيان

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل

وأنتم أكلتم شحمة بن مخدم * زمانا فلا يأمنكم أحد بعد
تداعوا له من بين خمس وأربع * وقد نسل الاظفار وانسبأ الجلد
ودفّنتم جيرانه لرئيسكم * معاوية الفساء يا لك ما شكد

وقال الشاعر في ذلك في باهلة

ان عفاقا أكلته باهله * تمششوا عظامه وكاهله

* وأصبحت أم عفاق ثاكله *

وهجا شاعر آخر بالعنبر وهو يريد ثور بن شحمة وكان شريفا وكان يقال له مجير الطير فاما مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن جبير فعير الشاعر ثور بن شحمة بأكل الرجل العنبرى لحم المرأة الى أن أتي ثورا من الجبل فقال

عجلتم ما صادكم علاج * من العنوق ومن النعاج
حتي أكلتم طفلة كالعاج

فلما عيره قال ثور

يابنت عمى مايدريك ماحسبي * اذلا تجرخبيث الزاد اضلاعي
انى لذو مرة تخشى بوادره * عندالصياح بنصل السيف قراع

ومن ظريف الشعر قول أبى عدنان

فما كلبة سوداء تفرى بنابها * عراقامن الموتى مراداً وتكدم
أتيح لها كلب فضنت بعرقها * فهارشها وهي على العرق ٢

فقف على هذا الشعر فانه من أعاجيب الدنيا وقال الشاذيربجى

مابال كلب بني كليب سبنا * ان لم يوازن حاجبا وعقالا

وتنازع مالك بن مسمع وشقيق بن ثور فقال له مالك انما رفعك قبر بتشير فقال شقيق حين وضعك قبر بالمشقر يا ابن قتيل النساء وقتيل الكلاب قال وكان يقال لمسمع قتيل الكلاب وذلك انه لجأ فى الردة الى قوم من عبد القيس فكان كلبهم ينبح عليه فخاف أن يدل على مكانه فقتله فقتل به قال والعرب تقول أسرع من لحسة كلب انفه ويقال أحرص من لقوة وهى الكلبة وجمعها لقاء وفى المثل ألأم من كلب على عرق ونعم كلب فى بؤس أهله وفى المثل اصنع المعروف ولو مع الكلب وقال ابن سيرين الكلب فى النوم رجل فاحش فان كان اسود فهو عربي وان كان أبقع فهو عجمى وقال الاصمعى عن حماد بن سلمة عن ابن أخت أبي بلال بن مرداس بن أدية قال رأيت أبا بلال فى النوم كلبا تذرف عيناه وقال انا حولنا بعدكم كلابا من كلاب النار قال ولما خرج شمر بن ذى الجوشن لقتال الحسين بن علىّ رضى الله تعالى عنهما فرأى الحسين فيما يرى النائم

ان كلبا أبقع يلغ في دمائهم فأول ذلك بقتلهم شمر وكان منسلخا برصا قال والمسلمون كلهم يسمون الخوارج كلاب النار وقال صاحب الديك لصاحب الكلب يصفه بالسرعة في الحضر وبالصبر على طول العدو وبسعة الاهاب وانه اذا عدا ضبع وبسط يده ورجليه حتي يمس قفصه الارض وحتى يشرط أذنيه بشباء أظفاره وانه لا يحتشى ريحا مما يصيب الكلاب من اللهث فان كان كما تقولون فلم وصفت الشعراء الفرس وشبهته بضروب من الخلق وكذلك الاعضاء وغير ذلك من أمره وتركوا الكلب في المنسا لا يلتفت اليه أحد وقال ابو دواد الأيادي في ذلك

عن لسان كجثة الورق الاحـ * ـمر مج الندى عليه العرار

ولم يذكره في شيء وقال حماد عجرد الكلابي

كأن لسانه ورق عليه * بدار مضية مج العرار

وقال امرؤ القيس

وخد أسيل كالمسن وبركة * كجؤجؤ هيق دفه قد تمورا

ولم يذكره بشيء وقال عقبة بن سابق

عريض الخد والجـ * ـبهة والصهوة والجنب

ولم يذكره بشيء وقال امرؤ القيس

وسامعتان تعرف العتق فيهما * كسامعتي مذعورة وسط ربرب

ولم يذكره عند ذلك وقال عقبة بن سابق

ولها بركة كجؤجؤ هيق * ولبان مضرج بالخضاب

ولم يذكره بشيء وقال خفاف بن ندبة

عبل الذراعين سليم الشظا * كالسيد يوم نفرة الصادر

وقال امرؤ القيس

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا * اقب كتيس الحلّب العدوان

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال عقبة بن سابق

وارساغ كأعناق * ظباء أربع غلب

وقال الجعدي

كأن تماثيل ارساغه * رقاب وُعول لدى مشرب

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال امرؤ القيس

لها متنتان خظاتا كما * أكب على ساعديه النمر

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال ابو دواد

يمشي كمشي نعامتين * تتابعان اشق شاخص

وقال ابن الصعق

بجنب مثل العقا * ب تخاله للضمر قدحا

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال ربيعة بن جشم ويروي لامرئ القيس

وساقان كعباهما اصمعان * ولحم حماتيهما منبتر

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الانصارى

كأن حمايتها أرنبان * تقبضتا خيفة الاجدل

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال خالد بن عبد الرحمن فى مثل ذلك

كأن حماتها كردوس نخل * مقلصة على ساقى ظليم

ولم يذكره فى شيء من ذلك وقال الاعشى

اما اذا استقبلته فكأنه * جذع سما فوق النخيل مشذب

واذا تصفحه الفوارس مغضبا * فتقول سرحان الغضا المتصوّب

أما اذا استدبرته فتسوقه * ساق يقمصها وظيف أحدب

منه وجاعرة كأن حماتها * لما كشفت الجبل عنه أرنب

ولم يذكره في شيء من ذلك وقال الاسعر الجعفي

أما اذا استقبلته فكأنه * بازيكفكف أن يطير وقد رأي

أما اذا استعرضته متمطرا * فتقول هذا مثل سرحان الغضا

اما اذا استدبرته فتسوقه * ساق قوص الوقع عارية النسا

ولم يذكره فى شئ وقال ابو دواد

كالسيد ما استقبلته واذا * ولى تقول ململم ضرب

لام اذا استعرضته ومشي * متتابعا ما خانه عقب

يمشي كمشي نعامة تبعت * أخرى اذا هي راعها خطب

وقال امرؤ القيس

له ايطلا ظبي وساقا نعامة * وارخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال ابن سنان العبدي

أما اذا ما أقبلت فطارة * كالجذع شذّب نُبّي المنجل

أما إذا ما أعرضت فقليلة * ضخم مكان حزامها والمركل

أما إذا اتشتد فهي نعامة * تنفي سنابكها صلاب الجندل

قال ابو عبيدة ومما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها وقصر ساقيها وعرى نسيبها ومما يشبه من خلقه خلق الارنب صغر كعبيها ومما يشبه من خلقه خلق الحمار الوحشي غلظ لحمه وظمأ فصوصه وسراته وتمحيص عصبه وتمكن ارساغه وعرض صهوته قال صاحب الكتاب قد قال ابو عبيدة ان مما يشبه من خلقه خلق الكلب هرت شدقه وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار فصه وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورحب جلده ولحوق بطنه وقال طفيل الغنوى يصف الخيل

تبادى مراحيها الزجاج كأنها * ضراء أحست نباءة من مكلّب

وقال طفيل أيضا

كان على اعطافه ثوب مائج * وان يلق كلب بين لحييه يذهب

وقال صاحب الديك وأين نقع البيت والبيتان والثلاثة من جميع اشعار العرب وقال صاحب الكلب لعلنا ان تتبعنا ذلك وجدناه كثيرا ولكنك تقدمت فى أمر ولم تشعر بالذى تعنى فتلتقط من الجميع أكثر مما التقطت والانسان شريف الاعضاء وقد تشبه

مواضع منه مواضع من الفرس العتيق وما حضرنا من الاشعار الا قوله

وتري الكميت امامه * وكانه رجل مغاضب

وقال الشاعر فى ذلك

خوص تراح الى الصراخ اذا غدت * فعل الضراء تراح للكلاّب

وقد شبهوا بالكلب كل شئ وكان اسم فرس عامر بن الطفيل الكلب والمزنوق والورد قال صاحب الديك قد قال أوس بن حجر ووصف الناقة ونشاطها والذي يهيجها فقال

كان هرا جنيبا عند مغرضها • والتف ديك برجليها وخنزير

فهلا قال والتف كلب كما قال والتف ديك وقال أبو حية

تزاورت عنه كان بدفها * هرا تنشب ضبعها بالاظفر

وقال الاعشي

بجلالة سرح كان بدفها * هر اذا انتعل المطى ظلالها

وقال عنترة بن شداد العبسى

وكانما ينأى بجانب دفها * الوحشي في هزج العشي مؤوم

هر جنيب كلما عطفت له * غضبي التقاها باليدين وبالفم

وقال المثقب العبدي

فسل الهم عنك بذات لوث * عذا فرة كمطرقه القيون

بصادقة الوجيف كان هرا * يباريها ويأخذ بالوضين

قال صاحب الكلب انما يذكرون فى هذا الباب السباع المنعوتة بالمخالب وطول الاظفار كما ذكروا الهر وابن آوى والكلب ليس يوصف بالمخالب وليس ان الهر أقوى منه ألا ترى ان أوس بن حجر قال فى ذلك

كان هرا جنيبا عند مغرضها * فذكر الموضع الذى يوصف بالخلب والخدش والخمش والتظفير فلما أراد أن يفزعها ويثورها حتي تذهب جافلة في وجهها أو نادة أو كانها مجنونة

من حال المرح والنشاط قال

﴿ والتف ديك برجليها وخنزير ﴾

وقال أبو النجم

لو جرشن خلفها لم يحفـل * من شهوة الماء ورزء معضل

ولو قال أوس (والتف شن برجليها وخنزير) لكان جائزا لولا يبس الشن وقحوله وانه ليس مما يلتوى على رجليها وقال آخر

كأن ابن آوي موثق تحت غرزها * اذا هو لم يكلـم بنابيه ظفّـرا

وقال صاحب الديك حديث عمرو بن شعيب عن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل لرجل يعطي عطية ويرجع فيها الا الوالد فيما يعطى ولده ومثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل حتى اذا شبع قاء ثم عاد فى قيئه وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجع فى هبته الا الوالد من ولده والعائد في هبته كالعائد في قيئه وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد الله بن جعفر ان أبا بكر أمر بقتل الكلاب قال عبد الله بن جعفر وكانت أمى تحت أبى بكر وكان جرولى تحت السرير فقلت له يا أبت وكلبى أيضا فقال لا تقتلوا كلب ابني ثم أشار بإصبعه الي الكلب أى خذوه من تحت السرير وانا لا أدري فقتل واسماعيل بن أمية قال امتان من الجن مسختا وهما الكلاب والحيات ابن المبارك قال اذا عرف الرجل قدر نفسه صار عند نفسه أذل من الكلب قال صاحب الديك وذكر الكلب فقال من لؤمه انه اذا أسمنته أكلك وان أجعته أنكرك ومن لؤمه اتباعه لمن أهانه والفه لمن أجاعه لانه أجهل من أن يأنس بما يؤنس به وأشره وانهم وأحرص والج من ان يذهب بطمعه ما يذهب بمطامع السباع ومن جهله أيضا انا لم نجده يحرس المحسنين اليه بنباحه وأربابه الذين ربوه وواسوه الا كحراسته لمن عرفه ساعة واحدة بل لمن أذله وأجاعه وأعطشه بل ليس ذلك منه حراسة وانما هو فيه من فضل البذاء أو الفحش وشدة التحرش والتسرع وقد قال الشاعر فى ذلك

اذا تخازرت ومابى من خزر * ثم كسرت العين من غير عور
ابز اذا بوزيت من كلب ذكر * اسود فراع تعوى في السحر

وانما ذلك شكل من شكل الجبن ولا الذى يعترى نساء السفلة من الصخب والكلاب جبان وفيه جرءة ولؤم ولو كان شجاعا وفيه بعض التهيب كان أمثل ومن فرط الجبن انه يفزع من كل شيء وينبحه والبرذون ربما رمح البرذون مبتدئا وقلق وصهل صهيلا في اختلاط وليس ذلك من فضل قوة يجدها فى نفسه على المرموح ولكنه يكون جبانا فاذا رأي البرذون الذى يظن انه يعجز عنه أراه الجبن انه واقع به فعندها يقلق واذا قلق رمح وهذه العلة تعرض للمجنون فان المجنون الذى تستولى عليه السوداء ربما وثب على من لايعرفه وليس ذلك الا لان المرّة أو همته انه يريده بسوء وان الرأي انه يبدأه بالضرب وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه فى الماء والنار فاما الذى شهدت أنا من أبى اسحق بن سيار النظام فانا خرجنا ليلة في بعض طرقات الابلة وتقدمته شيأ والح عليه كلب من شكل كلاب الرعاء وكره ان يعدو فيغريه ويضربه وأنف أيضا من ذلك وكان أنفا شديد الشكيمة أباًء للهضيمة وكره أن يجاس مخافة ان يشر عليه ببوله أو لعله ان يعضه فيهرت ثوبه والح عليه فلم ينله بسوء فلما جزنا حده وتخاصنا منه قال ابراهيم فى كلام له كثير يعدد خصاله المذمومة فكان آخر كلامه ان قال ان كنت سبع فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والغياض وان كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم ولاتنكر قولى وحكايتى عنه بقول ملحون من قولى ان كنت سبع ولم أقل ان كنت سبعا وأنا أقول ان الاعراب يفسد نوادر المولدين كما ان اللحن يفسد كلام الاعراب لان سامع ذلك الكلام انما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة فاذا دخلت على هذا الامر الذى انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التى فيها حروف الاعراب والتخفيف والتثقيل وحولته الى صورة الفاظ الاعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة انقلب المعني مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته ثم قال أبو اسحاق ان

أطعمه اللص بالنهار كسرة خبز خلاه ودار حوله ليلا فهو في هذا الوجه مرتش وآكل سحت وهو مع ذلك اسمج الخلق صوتا واحمق الخلق يقظة ونوما ينام النهار كله على نفس الجادة وعلى مدق الحوافر وفي كل سوق وملتقى طريق وعلى سبيل الحمولة وقد سهر الليل كله بالصياح والصخب والنصب والتعب والغيظ والغضب وبالمجيء والذهاب فيركبه من حب النوم على حسب حاجته اليه فان وطئته دابة فاسوأ الخلق جزعا والأمه لؤما واكثره نباحا وعواء فان سلم ولم تطاءه دابة ولا وطئه انسان فليست تتم له السلامة لأنه في حال متوقع للبلية ومتوقع البلية في بلية فان لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالا منه لأنه أسوأهم جزعا واقلهم صبرا ولأنه الجانى ذلك على نفسه وقد كانت الطرق الخالية له معرضة وأصول الحيطان له مباحة وبعد فان كل خلق فارق أخلاق الناس فانه مذموم والناس ينامون بالليل الذي جعله الله تعالى سكنا وينتشرون بالنهار الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحا قال صاحب الكلب لوشئنا أن نقول ان سهره بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية لقلنا ولو كان خلاف ذلك ألذ لكانت الملوك بذلك أولى وأما الذي أشرتم به من النوم في الطرق الخالية وعبتموه به من نومه على شارعات الطرق والسكك العامرة وفي الاسواق الجامعة فكل امرىء أعلم ولولا ان الكلب يعلم ما يلقى من الاحداث والسفهاء وصبيان الكتاب من رض عظامه بألواحهم اذا وجدوه نائما في طريق ليس خال بحضرته رجال يهابون ومشيخة يرحمون ويزجرون السفهاء وان ذلك لا يعتريه في مجامع الاسواق لقل خلافه عليك ولما رقد فى الاسواق وعلى أن هذا الخلق انما يعترى كلاب الحراس وهي التى فى الاسواق مأواها ومنازلها وبعد فمن أخطأ وأظلم ممن يكلف السباع أخلاق الناس وعادات البهائم وقد علمنا أن سباع الارض عن آخرها انما تهيج وتسرح وتلتمس المعيشة وتتلاقي على السفاد والعظال ليلا لانها تبصر بالليل وانما نام الناس بالليل عن حوائجهم لأن التمييز والتفضيل والتبيين لا يمكنهم الا نهارا وليس للمتعب المتحرك بد من سكون يكون جماما له ولولا صرفهم التماس الجمام الي الوقت الذى لولم يناموا فيه والوقت مانع

من التمييز والتبيين لـكانت الطبائع تنتقض فجعلوا النوم بالليل لضر بين أحدهما لأن الليل اذا كان من طبعه البرد والركود والخثورة كان ذلك انزع الى النوم ومادعي اليه لانه من شكله والوجه الآخرفلأن الليل موحش مخوف الجوانب من الهوام والسباع ولأن الاشياء المبتاعة والحاجات الى تمييز الدنانير والدراهم والحبوب والبزور والجواهر واخلاط العطر والبز نهارا وما لا يحصي عـدده فقادتهم طبائعهم وساقتهم غرائزهم الى وضع النوم فى موضعه والانتشار بالتصرف في موضعه على ما قدر الله تعالى من ذلك واحبه وأما السباع فانها تتصرف وتبصر بالليل ولها أيضاً علل أخرى يطول ذكرها وأما ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنهار وسهرهم بالليل وان الملوك لم تجهل فضـل النوم بالليل والحركة بالنهار ولـكن الملوك لـكثرة أشـغالها فضلت حوائجها على مقـدار النهار ولم يتسع لها فلما استعانت بالليل ولم يكن لها بد من الخلوة بالتدبير المـكتوم والسر المخزون وجعت المقدار الفاضل عن اتساع النهار الى المقدار الذي لابد للخلوة بالاسرار منه أخذت من الليل صدراً صالحاً فلما طال ذلك عليها أعانها المرات وخف ذلك عليها بالدّربة وناس منهم ذهبوا الى التناول من الشراب وعلى أن سماع الصوت الحسن مما يزيد في المنـة ويكون مادة للقوة وعلموا أن العوام اذا كانت لا تتناول الشراب ولا تتكلف السماع على هـذا المعني أن ظنها متيسر وقولهـا سيكثر فرأوا أن الليل أستر وأجدر أن يتم به باقي التدبير وقال الراجز * الليل أخفى والنهار أفضح * وقالوا فى المثل الليـل أنفى للويل وما زالت ملوك العجم تاهي المحزون بالسماع وتعلل المريض وتشغله عن التفكير حتي أخذت ذلك ملوك العرب عن ملوك العجم ولذلك قال ابن عسلة الشيباني

وسماع مدجنـة تعللنا * حتى ننام تناوم العجم

فصحوت والنمرى يحسبها * عم السماك وخالة النجم

النجم واحد وجمع وانما يعني في البيت الثريا ومدجنة يعني سحابة دائمـة وفيما يحكى عن امرأة من عقلاء نساء العرب واذا كان نساء العرب في الجملة أعقـل من رجال العجم

فما ظنك بالمرأة منهم اذا كانت مقدمة فيهم فرووا جميعاً أن أم تأبط شراً قالت والله ما ولدته يتناولا سقيته غيلا ولا أبته على مأقة فأما اليتن فخروج رجل المولود قبل رأسه وذلك علامة سوء ودليل على الفساد وأما سقي الغيل فارتضاع لبن الحبلى وذلك فساد شديد وأما قولها فى المأقة فان الصبي يبكى بكاء شديداً متعباً موجعاً فاذا كانت الأم جاهلة حركته فى المهد حركة تورثه الدوار أو نومته بأن تضرب يدها على جنبه ومتى نام الصبي وتلك الفزعة أو اللوعة أو المكروه قائم فى جوفه ولم يعلل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسره حتى يكون نومه على سرور فيسرى فيه ويعمل فى طباعه ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم فان ذلك مما يعمل في الفساد والأم الجاهلة والمرقصة الخرقاء اذا لم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين كثر منها ذلك الفساد وترادف وأعان الثاني الأول والثالث الثاني حتى يخرج الصبي مائقا وفى المثل صاحبى مئق وأنا تئق يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرفيق والزميل وقد استفرغه الضجر لطول السفر فقلبه ملئان فأول شئ يكون في ذلك المئق من المكروه ولم يحتمله بل يفيض ضجره عليه لامتلائه من طول ما قاسى من مكروه السفر فاحتاج حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة أن يداووا أنفسهم بالسماع الحسن ويشدوا من متنهم بالشراب الذي اذا وقع في الجوف حرك الدم واذا حرك الدم حرك طباع السرور ثم لا يزال زائداً في مكيال الدم زائدا في الحركة المولدة للسرور وهذه صفة الملوك وعليه بنوا أمرهم جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه وقال صاحب الكتاب أما تركه الاعتراض على اللص الذى أطعمه أياما وأحسن اليه مراراً فانما وجب عليه حفظ أهله لاحسانهم اليه وتعاهدهم له فاذا كان عهده بين اللص وبينه احدث من عهده بينه وبين اهله لم يكلف الكلب النظر في العواقب وموازنته الامور والذى اضمر اللص من البيات غيب قد ستر عنه وهو لايدرى اجاء ليأخذ ام جاء ليعطى اوهم امروه أو هو المتكلف لذلك ولعل أهله أيضاً يكونوا قد استحقوا ذلك منه بالضرب والاجاعة وبالسب والاهانة واما سماجة الصوت فالبغل اسمج صوتا منه كذلك الطاووس على

انهم يتشائمون به وليس الصوت الحسن الا لاصناف الحمام من القمارى والدباسي واصناف الشفانين والوراشين فاما الاسد والذئب وابن آوى والخنزير وجميع الطير والسباع والبهائم فكذلك وانما لك ان تذم الكلب فى الشيء الذي لايعم والناس يقولون ليس فى الناس شيء أقل من ثلاثة أصناف البيان الحسن والصوت الحسن والصورة الحسنة ثم الناس بعد مختلطون ممتزجون وربما كان من الناس بل كثيراً ماتجده وصوته اقبح من صوت الكلب فلم تخصون الكلب بشيء عامة الخلق فيه أسوء حالا من الكلب وأما عواؤه من وطيء الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان فجزع الفرس من وقع عذبة السوط أسوء من جزعه من وقع حافر برذون وهو في هذا الموضع للفرس أشد منه مناسبة منه للحمار على ان الديك لايذكر بصبر ولاجزع قال صاحب الديك حدثني العتبي قال كان فى اليونانيين ممرور له نوادر عجيبة وكان يسمى ريسيموس قال والحكماء يروون له أكثر من ثمانين نادرة الاوهى غرة وعين من عيون النوادر فمنها انه كان كلما خرج من بيته مع الفجر الى شاطيء الفرات للغائط والطهور ألقى في أصل باب داره وفي دوارته حجرا كى لا ينصفق الباب فيحتاج الى معالجة فتحه والى رفعه كلما رجع من حاجته فكان كلما رجع لم يجد الحجر فى موضعه ووجد الباب منصفقا فكمن له فى بعض الامكنة في بعض الأيام ليرى هذا الباب يصنع مايصنع فبينا هو فى انتظاره اذا قبل رجل حتي تناول الحجر فلما نحاه عن مكانه انصفق الباب فقال له مالك ولهذا الحجر ومالك تأخذه فقال لم أعلم انه لك قال فقد علمت انه ليس لك قال وقال بعضهم مابال ريسيموس يعلم الناس الشعر ولايقول الشعر قال ريسيموس كالمسن الذي يشحذ ولا يقطع ورآه رجل يا كل فى السوق فقال اتا كل في السوق فقال اذا جاع ريسيموس فى السوق أكل من السوق قال واسمعه رجل كلاما غليظا وسطا عليه وفحش في القول وتحلم عنه فلم يجبه فقيل له مامنعك من مكافأته وهو لك معرض قال أرأيت لو رمحك حمار أكنت ترمحه قال لاقال فان ينبح عليك كلب تنبح عليه قال لاقال فان السفيه إما ان يكون حمارا وإما ان يكون كلبا لانه لايخلو

من شرارة تكون فيه أوجهل وما أكثر من يجتمعان فيه وقال صاحب الديك يقال للسفيه انما هو كلب وانما انت كلب نباح ومازال ينبح علينا منذ اليوم وكلب من هذا ويا كلب ابن الكلب واخسأ كلبا وقالوا في المثل احتاج الى الصوف من جز كلبه واجع كلبك يتبعك وأحب شيء الى الكلب خانقه وسمن كلبك يا كلك وأجوع من كلبة حومل وكالكلب يربض في الأرى فلا هو يأكل ولا يدع الدابة تعتلف وفي أمثالهم في الشؤم

(على أهلها دلت براقش) (١)

وبراقش كلبة نبحت على جيش مروا في جوف الليل وهم لا يشعرون بموضع الحي فاستدلوا عليهم بنباح الكلبة فاستباحوهم وقال صاحب الديك روى اسماعيل المكى عن أبي عطاء العطاردى قال سمعت ابن عباس يقول السود من الكلاب الجن والبقع منها الحن ويقال إن الحن ضعفة الجن كما أن الجنى اذا كفر وظلم وتعدى وافسد قيل شيطان وان قوى على البنيان والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد فان زاد فهو عفريت فان زاد فهو عبقرى كما ان الرجل اذا قاتل فى الحرب واقدم ولم يحجم فهو الشجاع فان زاد فهو البطل فان زاد قالوا بهمة فان زاد قالوا ليث فهذا قول أبي عبيدة وبعض الناس يزعم ان الحن والجن صنفان مختلفان وذهبوا الى قول الاعرابى حين اتى بعض ابواب الملوك ليكتتب فى الزمني فقال في ذلك

ان تكتتبوا الزمني فانى لزمن * من ظاهر الداء وداء مستكن

أبيت أهوى فى شياطين ترن * مختلف نجارهم حن وجن

وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب حتى ان المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله ثم نهانا عن قتلها وقال عليكم بالأسود البهيم ذا النكتتين على عينيه فانه شيطان وعن ابي الزبير عن جابر قال امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب فكنا نقتلها كلها حتي قال انها أمة من الامم فاقتلوا البهيم الاسود ذا النكتتين على عينيه فانه شيطان نافع وعبد الله

(١) ولفظ الميداني على أهلها تجني براقش

وأبو بكر انبأنا نافع عن ابن عمر ونافع عن ابى رافع قال أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اقتل الكلاب فكنا نقتلها فانتهيت الى ظاهر بني عامر واذا عجوز مسكينة معها كلب وليس يقربها انسان فقالت ارجع الى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره ان هذا الكلب يؤنسني وليس قربي أحد فرجع إليه فاخبره فأمر ان يقتل كلبها فقتله وقال في حديث آخر انه لما فرغ من قتل كلاب المدينة وقتل كلب المرأة قال الآن استرحت قالوا فقد صح الخبر عن قتل جميع الكلاب ثم صح الخبر بنسخ بعضه وقتل الاسود البهيم منها مع الخبر بانها من الجن والحن وان امتين مسختا وهما الحيات والكلاب ثم روي الاشعث عن الحسن قال ماخطب عثمان خطبة الا أمر بقتل الكلاب وذبح الحمام وعن الحسن قال سمعت عثمان بن عفان يقول اقتلوا الكلاب واذبحوا الحمام قال وقال عطاء في قتل كلب الصيد اذا كان صائداً أربعون درهما وفي كلب الزرع شاة والحسن ابن عمارة عن يعلى بن عطاء عن اسماعيل بن حسان ابن عبد الله بن عمر قال قضي رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلب الصيد بأربعين درهما وفى كلب الغنم بشاة وفى كلب الزرع بفرق من طعام وفي كلب الدار بفرق من تراب حق على القاتل أن يؤديه وحق على صاحب الدار ان يقبضه قالوا والتراب لا يكون عقلا اذا كان في مقدار الفرق وفى قوله وحق على صاحب الدار ان يقبضه دليل علي انه عقوبة على النهي عن اتخاذه وان ذلك علي التصغير لامر الكلب وتحقيره على وجه الارغام لمالكه ولو كان عوضاً او ثوابا اوكان فى طريق الاموال المحروص عليها لما اكره على قبضه احد ولكان العفو افضل قال وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار من هو له كاره ابن ابي عروبة عن قتادة عن ابي الحكم ان ابن عمر سئل عن ذلك فقال المأثم على رب الدار الذي يملكها وعن ابن عمر قال من اتخذ كلبا ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا صيد نقص من اجره كل يوم قيراط فقال رجل فان اتخذه رجل وهو كاره قال انما إثمه على صاحب الدار وصدقه ابن طيلسة المازني قال سألت الحسن قلت ان دورنا في الجنان وهي معورة وليس عليها ابواب افتري ان نتخذ فيها كلابا قال لالا وعن ابن ابي شيبة عن سالم عن ابيه قال قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتني كلبا إلا كلب صيد او كلب ماشية نقص من اجره كل يوم قيراطان وعن ابي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم من اقتني كلبا فانه ينقص من عمله كل يوم قيراط ويونس عن ابيه عن اسحاق قال حدثنا هنيبرة بن خالد الخزاعي قال انطلقت مع نفر من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نعود رجلا من الانصار فلما انتهوا الى باب الدار ثارت اكلب فى وجوه القوم فقال بعضهم لبعض ما يبقي هؤلاء من عمل فلان شيئاً كل كلب منها ينقص قيراطاً في كل يوم هشام بن حسان عن ابي هريرة عن النبي صلي الله عليه وسلم قال من اتخذ كلبا ليس بكلب صيد ولا زرع ولا ضرع فانه ينقص من اجره كل يوم قيراط والقيراط مثل جبل احد يونس عن ابي اسحاق عن مجاهد قال اقبل عبد الله بن عمرو بن العاص حتي نزل ناحية مكة وكانت امرأة عم له تهاديه فلما كانت ذات يوم قالت له لو ارسلت الى الغنم فاستأنست برعائها وكلابها فقد نزلت قاصية فقال لولا كلابها لفعلت ان الملائكة لا تدخل داراً فيها كلب الثورى عن سماك بن حرب ان ابن عباس قال على منبر البصرة ان الكلاب من الجن وان الحن من ضعفة الجن فاذا غشيكم منها شيء فألقوا اليها شيئاً او اطردوه فان لها انفس سوء وهشيم عن المغيرة عن ابراهيم قالوا لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب وعن غلمان ٢ الا الكلاب قال صاحب الديك روى ابراهيم بن ابي يحيي الأسلمي عن محمد بن المنكدر عن ربيعة بن ابي عبد الرحمن قال تقامر رجلان على عهد عمر بديكين فأمر عمر بالديكة ان تقل فأتاه رجل من الانصار فقال امرت بقتل امة من الامم تسبح الله تعالى فأمر بتركها وعن قتادة ان ابا موسي قال لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا اهل قرية وقد سمعتم ما قال الله تعالى في اهل القرى (افأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون) وهذا عندي من ابي موسى ليس على ما يظنه الناس لان تأويله هذا ليس على وجه ولكنه كره للفرسان ورجال الحرب اتخاذ ما يتخذه الفلاح وأصحاب التعيش مع حاجته يومئذ الى تفرغهم لحروب العجم وأخذهم في تأهب الفرسان وفي دربة رجال الحرب فان كان ذهب الى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه (وقال صاحب الكلب)

لصاحب االديك فقد أمر عمر بقتل الديكة ولم يستثن منها شيئا دون شئ ونهي ابو موسي عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء والديكة تدخل فى هذا الاسم واسم الدجاج يجمعها جميعا ورويتم في قتل الحمام مثل روايتكم فى قتل الكلاب ولم أركم رويتم ان الحمام مسخ ولا ان بعضه من الجن وبعضه من الحن ولا ان أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام وزعمتم أن عمر لما أمر بقتل الديكة حين كره الهراش بها والقمار بها فلعل كلاب المدينة فى تلك الايام كثر فيها العقور وأكثر أهلها من الهراش بها والقمار فيها وقد علمتم ان ولاة المدينة ربما دمروا على صاحب الحمام اذا خيف من قبل القمار وظنوا انه السرف وذكروا عنه الرمى بالبندق وخديعة أولادهم بالفراخ فما بالكم لم تخرجوا للكلاب من التأويل والعذر مثل الذي خرجتم للحمام والديكة ورويتم فيه في الجدي والضباب انهما كانتا أمتين مسختا وروى بعضهم في الاربيانة انها كانت خياطة تسرق السلوك وانها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها ودليلا على جنس سرقتها ورويتم فى الفأرة أنها كانت طحانة وفى سهيل انه كان عشارا باليمن وفى الحية انها كانت فى صورة جمل وان الله تعالى عاقبها حتى لاطها بالارض وقسم عقابها على عشرة أقسام حين احتملت دخول ابليس في جوفها حتى وسوس الى آدم من فيها وقلتم في الوزغة والحداة ما قلتم وزعمتم ان الابل خلقت من أعناق الشياطين وتأولتم في ذلك أقبح التأويل وزعمتم ان الكلاب أمة من الجن مسخت والذئب أحق بأن يكون شيطانا من الكلب لانه وحشي وصاحب قفار وبه يضرب المثل فى التعدي والكلب ألوف وصاحب ديار وبه يضرب المثل والذئب ختور غدار والكلب وفي مناصح وقد أقام الناس فى الديار الكلاب مقام السنانير للفأر والذئب مضرة كله والكلب منافعه فاضلة على مضاره بل هي غالبة عليها وغامرة لها وهذه صفة جميع هذه الاشياء النافعة والناس لم يطبقوا على اتخاذها عبثا ولا جهلا والقضاة والفقهاء والعباد والولاة والنساك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر والمحتسبة وأصحاب التكلف والتسليم جميعاً لم يطبقوا على ترك النكير وعلى ما يشاهدوه منها في دور من

لا يعصيهم ولا يمتنع عليهم الا وقد علموا انه قد كان لقتل الكلاب بأعيانها في ذلك الدهر معنى والا فالناس في جميع أقطار الارض لايجمعون على مسالمة أصحاب المعاصى الذين قد خلعوا عذرهم وابرزوا صفحتهم بل ما ترى خصما يطعن على شاهد عند قاض بأن في داره كلبا ولا ترى حكما يرد بذلك شهادة بل لو كان اتخاذ الكلاب مأمورا به لما كان الا كذلك ولو انكم حملتم حكم جميع الهداهد على حكم هدهد سليمان وجميع الغربان على حكم غراب نوح وجميع الحمام على حكم حمام السفينة وجميع الذئاب على حكم ذئب اهبان بن أوس وجميع الحمير على حكم حمار عزير لكان ذلك حكما مردودا وقد تعرض لخصائص الأمور اسباب في دهر الانبياء ونزول الوحي لا يعرض مثلها في غير زمانهم قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الارض على صورة دحية الكلبي وكان ابليس يتراءى في السكك في صورة سراقة المدلجي وظهر في صورة الشيخ النجدى ومثل هذا كثير فان زعمتم ان النبي صلى الله عليه وسلم نظر الى رجل يتبع حماما طيارا فقال شيطان يتبع شيطانا فخبرونا عمن يتبع الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلة البلدان من الحرميين والبصريين ومن بنى هاشم الى من دونهم اتزعمون انهم شياطين على الحقيقة وانهم من نجل الشياطين أو تزعمون انهم كانوا إنسا فمسخوا بعد جنا أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان على مثل قوله شياطين الجن والانس وعلى قول عمر لانزعن شيطانه من نعرته وعلى قول منصور بن رواحة

فلما أتانى ما تقول ترقصت * شياطين راسى وانتشين من الخمر

وقد قال مرة ابو الوجيه العكلي وكان ذلك حين ركبني شيطاني قيل له وأي الشياطين تعني قال الغضب والعرب تسمي كل حية شيطانا وأنشد الاصمعي

تلاعب مثني حضرمى كأنه * تعمج شيطان بذي خروع قفر

وقالت العرب ماهو الا شيطان الحماطة ويقولون ماهو الا شيطان يريدون القبح وما هو الا شيطان يريدون الفطنة وشدة العارضه وروي عن بعض الاعراب فى وقعة كانت والله ما قتلنا الا شيطان برصا لان الرجل الذى قاتلهم كان اسمه شيطان وكان

به برص وفي بني سعد بنو شيطان قال طفيل الغنوى

* وشيطان اذ يدعوهم ويثوب *

وقال ابن ميادة

فلما أتاني ما تقول محارب * تغنت شياطين وجن جنونها

وقال الراجز

إني وان كنت حديث السن * وكان في العين نبوٌّ عني

فان شيطاني كبير الجن

وقال ابو النجم

اني وكل شاعر من البشر * شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وهذا كله على وجه المثل وعلى قول منظور ابن رواحة

أتاني وأهلي بالرماح فغمرة * مسب عويف اللؤم حيَّ بني بدر

فلما أتاني مايقول ترقصت * شياطين رأسي وانتشين من الخمر

وقد رويتم عن عبد الله بن فايد باسناد له يرفعه قال خرافة رجل من بني عذرة استهوته الشياطين فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث فقالت امرأة من نسائه هذا من حديث خرافة قال لا وخرافة حق ورويتم ان شريك بن خناسة دخل الجنة وخرج منها ومعه ورقة من ورقها وان عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوته الجن فقال ما كان طعامكم قال البعر والبول والرمة وسأل عن شرابهم فقال الجدق وقال الاعشى

واني وان كلفتموني وربكم * لاعلم من أمسي أعق وأحوبا

لكالثور والجني يضرب ظهرة * وما ذنبه ان عافت الماء مشربا

وزعمتم ان الجن خنقت حرب بن أمية وخنقت مرداس بن أبي عامر وخنقت الغريض المغني وانها قتلت سعد بن عبادة واستهوت عمرو بن عدى واستهوت عمارة بن الوليد فأنتم أملياء بالخرافات أقوياء على رد الصحيح وتصحيح السقيم ورد بأن التنزيل والحديث

المشهور الى أهوائكم وقد عارضنا كم وقابلنا كم وقارضنا كم وقالوا في الحديث انه من اقتني كلبا ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا قنص فهوائم فهاتوا شيئا من جميع الحيوان يصلح للزرع والضرع والقنص وبعد فهل اتخذوا كلب الضرع الا ليحرس الماشية وأولادها من السباع وهل عند الكلب عند طروق الأسد والنمر والذئاب وجميع مايقتات اللحمان من رؤساء السباع الا صياحه ونباحه وانذاره ودلالته وان يشغلها ببعض الشغل ويهجهج بها بعض الهجهجة الى أن يلحق بها من يحميها ويتوافي اليها من يذود عنها اذ ليس في هذا القياس أنا متي وجدنا دهرا تكثر فيه اللصوص ويفشو فيه السراق وتظهر فيه النقوب ويشيع فيه التسلق ممن اذا افضي الى منزل القوم لم يرض الا بالحربية ليس دونها شيء أو يأتي على الأنفس وهو لا يصل الى ما يريد حتي يمر على النساء مكشفات ومن عسي اذا أخذ المرأة اخذيدان لا يرضى ان يتوعد بذبح الاولاد ان يتقي بالمال حتى يذبح ومن عسي ان تمكن شيئا أو أمن قليلا ان يركب الحرم بالسوءة العظمى وبالتى لاشوى بها فهذه الحال أحق بالحراسة من تلك الاحوال وبعد فلم صار نساء الحرمين يتزاورون ليلا ونساء المصريين يتزاورون نهاراً ونساء الحرمين لا يرين نهاراً ونساء المصريين لا يرين ليلا الا للمكابرات ولمكان كثرة من يستقفى ومن يتخوف للنقب والتسلق واذا كان الامر كذلك فأى الأمور أحق بالتحصيل والحياطة وأيهما أشبه بالتغرير والاضاعة اتخاذ الكلاب التى لا تنام عند نوم من قد داب نهاره او ترك اتخاذها ويقظة السراق على قدر نوم المسروقين وعلى انا لو جعلنا بين حرس الاسواق وما يشتمل عليه من جراية الناس وبين اتخاذ الكلاب لا متنعوا من ضمان الحراسة ولا متنع كل محروس من اعطائه تلك الاجرة ولوجد اللصوص ذلك من أعظم الغنم وأجود الغرض أوما تعلمون ان هذا الحريم وهذه الحرمات وهذه العقائل من الأموال أحق بالمنع والحراسة والدفع عنها بكل حيلة من حفظ الغنم وحريم الراعي وحرمة الأجير وبعد فان الذئاب لا تجتمع على قطيع واحد والذي يخاف من الذئب السلة والخطفة والاستلاب والاختلاس والاموال التي في حوانيت التجار وفي منازل

أهل اليسار يأتيها من العدد والعدة ومن نجب أصحاب النجدة من يحتملها بجذافيرها مع ثقل وزنها وعظم حجمها ثم يجالدون على ذلك بسيوف الهند وبا الاذرع الطوال وهم من بين جميع الخليقة لولا انهم قد احسوا من أنفسهم الجراءة وثبات العزيمة بما ليس من غيرهم لكانوا كغيرهم ولولا ان قلوبهم أشد من قلوب الأسد لما خرجوا على ان جميع الخلق يطالبونهم وعلى ان السلطان لم يولهم الا لمكانهم والانذار بهم وعلى انهم ان نذر بهم قاتلوا قتال من لا ينجيه الا القتال وعلى انهم اذا أخذوا ماتوا كراما ولعل المدينة قد كانت ذلك الدهر مأمونا عليها من أهل الفساد وكان أكثر كلابها عقورا وأكثر فتيانها من بين مهارش أو مقامر والكلب العقور والكلب الكلِب أشد مضرة من الذئب المأمور بقتله وقد يعرض للكلاب الكلب والجنون لأمور منها ان تأكل لحوم الناس ومنها كالجنون الذى يعرض لسائر الحيوان وجهال الناس يقتلون الوزغ على أن اباها وأمهاتها كانت تنفخ على نار ابراهيم وتنقل اليها الحطب فأُحسب ان آباءها وأمهاتها قد كن يعرفن فضل ما بين النبي والمتنبي وانهن اعتقدن عداوة ابراهيم على تقصير فى أصل النظر وعن معاندة بعد الاستبانة حتي فعلن ذلك كيف جاز لنا ان تزر وازرة وزر أخرى الا أن تدّعو ان هذه التى نقتلها هي تلك الجاحدة للنبوة والكافرة بالربوبية وانها لا تتناكح ولا تتوالد وقد يستقيم في بعض الامر ان تقتل اكثر هذه الاجناس امامن طريق المحبة والتعبد واما اذا كان الله عز وجل قد قضي على جماعتها الموت ان يجرى ذلك المجرى على ايدى الناس كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد وهو ملك الموت وبعد فلعل النبي صلى الله عليه وسلم قال هذا القول كان قاله على الحكاية لأقاويل قوم ولعل ذلك كان على معني كان يومئذ معلوما فترك الناس العلة ورووا الخبر سالمًا من العلل مجرداً غير مميز ولعل من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد أوله ولعله عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام الى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه فيه شيء وكل ذلك ممكن سائغ غير مستنكر ولا مدفوع وقد رويتم فى الكلب العقور وكيف يقتل في الحل والحرم فان كنتم فقهاء فقد علمتم أن تسمية الغراب بالفسق والفأرة بالفويسقة

ان ذلك ليس من شكل تسمية القاذق ولا من شكل تسمية إبليس وقد قالو مافجرها الافاجر ولم يجعلوا الفاجر إسما له لايفارقه وقد يقال للفاسق من الرجال خبيث وقد قال صلى الله عليه وسلم من اكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربن مصلانا وهو على غير قوله عز وجل الخبيثات للخبيثين وقد قال بعض الرجاز وذكر ذئباً

أما أتاك عني الحديث * اذ أنا بالغائط استغيث

والذئب وسط غنمي يعيث * وصحت بالغائط ياخبيث

وهذا الباب كثير وليس هذا موضعه وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم وقد يشبه الاسم الاسم في صورة تقطيع الصوت وفى الخط في القرطاس وان اختلفت أماكنه ودلائله فاذا كان كذلك فانما يعرف فضله بالمتكلمين به وبالحالات والمقالات وبالذين عنوا بالكلام وهذه جملة وتفسيرها يطول وقالوا قد أمرنا بقتل الحية والعقرب والذئب والاسد على معنى ينتظم بمعنيين أحدهما الامتحان والتعبد بفكر القلب وعمل الجارحة لا على وجه الانتقام والعقوبة وأمرنا بضرب الباغي بالسيف اذا كانت العصى لا تغني فيه على جهة الدفع وعلى جهة العقاب ولم نؤمر بالقصد الى قتله وانما الغاية فى دفع بأسه عنا فان أتى الى ذلك المقدار عليه كان كسارق مات من قطع يده وقاذف مات من جلد ظهره وقد أمرنا بالقصد الى قتل الحيات والعقارب وان لم تعرض لنافي ذلك الوقت لان جنسها الجنس المتلف متى هم بذلك وليس لنا أن نضرب الباغي بالسيف الا وهو مقبل غير مدبر ولنا أن نقتل الحية مقبله ومدبرة كما يقتل الكافر مقبلا ومدبرا ألا ان قتل الكافر يجمع الانتقام والعقوبة وليس فى قتل الحية الا الامتحان وقد كان يجوز أن يمتحن لجنسها أو الاحتيال لمنعها دون قتلها واذا ولى الباغي من غير أن يريد الرجوع الى فئة فحكمه الأسر والحبس الى أن يونس منه النزوع وسبيل الاحناش والسباع وذوات السموم من الهمج والحشرات القتل مقبلة ومدبرة وقد أبيح لنا قتل ضروب من الحيوان عند مايبلغ من جناياتها علينا الخدش فضلا عن الجرح والقتل كالبعوض والنمل والبراغيث والقمل والبعير قتله فساد فان صال على الناس كان قتله

صلاحا والانسان قتله حرام فان خيف منه كان قتله حلالا والحديث عن مسخ الضب والجريّ وعن مسخ الكلاب والحدأة وأن الحمام شيطان من جنس المزاح الذى كنا كتبنا به الى بعض اخوانا ممن يدعى علم كل شئ فجعلنا هذه الخرافات وهذه الفطن الصغار من باب المسائل فقلنا له ماالشنقناق والشيصبان وتنكوير ودركاذاب ومن قاتل امرأة ابن مقبل ومن خانق الغريض ومن هاتف سعد وخبرنا عن ابن أقيش وعن بني لبنى ومن زوجها وعن بني غزوان ومن امرأته وعن سملقة وزوبعة والميدعات وعن النقار ذى الرقبة وعن آصف ومن منهم أشعار باصغر سليم وعن أظيفش اسم كلب أصحاب الكهف وكيف صارت الكلاب لا تنبح من سماه وأين بلغ كتاب شرطهم وكيف حدثوا عن ابن عباس في الفار والقرد والخنزير والفيل والارنب والعنكبوت والجري انهن كلهن مسخ وهل يحل لنا أن نصدق بهذا الحديث عن ابن عباس وكيف صارت الظباء ماشية الجن وكيف صارت الغيلان تغير كل شيء الا حوافرها ولم ماتت من ضربة وعاشت من ضربتين ولم صارت الأرانب والكلاب والنعام مراكب الغيلان ولم صارت الروافيد مطايا السواحر وبأى شيء زوج أهل السعلاة بن يربوع وما فرق ما بينه وبين عبد الله بن هلال وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي وأبى منصور ولم غضب من ذلك المذهب ولم مضي على وجهه شفشف وما الفرق بين الغيلان والسعالى وبين شيطان الحصر وشيطان الحماطة ولم علق السمك المليح بأذنابه وما بال الفراخ تحمل بأجنحتها والفراريج بأرجلها وما بال كل شيء أصل لسانه مما يلى الفم وطرفه مما يلى الهواء إلا لسان الفيل ولم قالت الهند لو لا أن لسانه مقلوب لتكلم ولم صار كل ماضغ وآكل يحرك فكه الاسفل الا التمساح يحرك فكه الأعلى ولم صار لاجفان الانسان الاشفار وليس ذلك للدواب الا في الاجفان العالية وما بال عين الجرادة وعين الافعى لا تدوران وما بيضة العقر وما بيضة الديك ولم امتنع بيض الانوق وهل يكون الابلق العقوق وما بال لسان سمك البحر وما بال الغريق من الرجال يطفو على قفاه ومن النساء على وجهها ولم صار القتيل اذا قتل يسقط

على وجهه ثم يقلبه ذكره وما بال شقشقة البعير وغرمول الحمار وكبد الكوسج بالنهار ودم الميت وخبرني عن الضفادع لم صارت تنعق بالليل واذا أوقدت النار أمسكت وقالوا قد عارضنا كم بما يجري مجرى الفساد والخرافة لنردكم الى الاحتجاج بالخبر الصحيح المخرج للظاهر فان أعجبتك هذه المسائل واستطرفت هذا المذهب فاقدر رسالتي الى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب والكلاب أصناف لايحيط بها الا من أطال الكلام وجملة ذلك ان ما كان منها للصيد فهي الضراء وواحدها ضار وهي الجوارح والكواسب ونحن لانعرفها الا السلوقية وهي فى اجراء الكلاب وعناقها والجلاسية هجنها ومقاريفها وكلاب الرعاء من زينيها وكرديها فهي كرادتها وقد تصيد الكلاب غير السلوقية ولكنها تقصر عن السلوقية بعيد او سلوق من أرض اليمن كان لها حديد جيد الطبع كريم العنصر حر الجوهر وقد قال الشاعر

تقد السلوقى المضاعف نسجه * وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وقال الاصمعي سمعت بعض الملوك وهو يركض خلف كلب وقددنا خطمه من عجب ذنب الظباء وهو يقول ايه فدتك نفسى وانشد لبعض الرجال * مفديات ومحميات * قال صاحب الديك فلما صار الكلب عندهم يجمع خصال اللؤم والنذالة والحرص والشده والبذاء والتسرع واشباه ذلك صاروا يشتقون من اسمه لمن هجوه بهذه الخصال وقال بشار

واستغن بالوجبات عن ذهب * لم يبق قبلك لامرئ ذهبه

يرد الحريص على متالفه * والليث يبعث حينه كلبه

(قال صاحب الكلب) كلما اشتقوا من اسمه للاشياء المحمودة اكثر قال عامر بن الطفيل

ومدجج يسعي بشكته * محمرة عيناه كالكلب

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة وكلاب بن ربيعة ومكالب بن ربيعة ومكلبة بنو ربيعة وفيهم من السباع أسد وضبيعة وذئب وذؤيب وهم خمسة عشر رجلا ثمانية من جميع السباع ومن الثمانية أربعة مشتقة من اسم الكلب ومن هذا الباب كليب بن يربوع وكلاب ابن ربيعة وكلب ابن وبرة ومنه بنو الكلبة قال الشاعر

سيكفيك من ابنى نزار لواغب * بنو الكلابة الشم الطوال الاشاجع

والكلابة لقب مية بنت علاج بن شحمة العنبرى وبنوها بنو الكلابة الذين سمعت بهم تزوجها خزيمة بن من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار فهى أمهم وفيها يقول شبيل بن غزوة الضبعى صاحب الغريب وكان شيعيا من كبار الشيعة فصار خارجيا من الصفرية

بنو كلبة هرارة وابوهم * خزيمة عبد خامل الاصل اوكس

وفي مية يقول ابوها وهو علاج بن شحمة

ان تك قد بانت بمية غربة * فقد كان ميا لا يمل مزارها

دعتها رجال من ضبيعة كلبة * وما كان يشكى في الحول جوارها

ومما اشتق له من اسم الكلب من القرى والبلدان والناس وغير ذلك قولهم في الوقعة التي كانت بأرض الكلابة الكلابة ومن ذلك قولهم حين نزلنا من السراة صرنا الى نجد الكلابة وكان سبب خروج مالك بن فهم بن غنم بن دوس الى ازدشنوءة من السراة ان بني أخته قتلوا كلبة لجارهم وكانوا اعدّ منه فغضب ومضي فسمى ذلك النجد الذى هبط منه نجد الكلابة ويقولون كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب ومن ذلك قولهم عبادُ بن أنف الكلب ومن ذلك أبو عمر والكلب الجرمي وكان رجلا من العلية عالما عروضيا فرضيا وأبو عمرو الكلب النحوى وعلوية كلب المطبخ وكان أشرب الناس للنبيذ وقد راهنوا بينه وبين محمد بن على والكلب كلب الماء وكلب الرحاء والضبة التى يقال لها الكلب وكذلك الكلبة والكلبتان والكلاب والكلوب وقال راشد بن شهاب في ذلك المعنى

أمكن كلّاب القنا من نحوره * وأخضب ما يبدو من استاهها بدم

فسوف يرى الاقوام دينى ودينكم * اذا كلبت قين ومقراضة أزم

وقال الراجز

ما زال مذ كان غلاما يستتر * له على العير إكاف وثفر

* والكلبتان والعلاة والوتر *

وقال أشهب بن رميلة وكان أول من رمى بنى مجاشع بأنهم قيون

ياعجباً هل يركب القين الفرس * وعرق القين على الخيل نجس

وانما أداته اذا جاس * الكلبتان والعلاة والقبس

وكان اسم المزنوق فرس عامر بن الطفيل الكلب وقد زعمت العلماء أن حرب أيام هراميت انما كان سببه كلب قال صاحب الديك قد قيل للخوارج كلاب النار والنوائح كلاب النار وقد قال جندل بن الراعي فى وقوفه على جرير مالك تطيل الوقوف على كلب بني كليب وقال زفر بن الحارث

يا كلب قد كلب الزمان عليكم * وأصابكم منا عذاب مرسل

ان السماوة لا سماوة فالحقى * بمنابت الزيتون وابنى جحدل

وبأرض عك فى السواحل انها * أرض تذوب بها اللقاح وتهزل

وقال حصين بن القا يرثى [٢] عتيبة بن الحارث

بكر النعىّ بخير خندف كلها * بعتيبة بن الحارث بن شهاب

قتلوا ذؤابا بعد مقتل سبعة * فشفى الغليل وريبة المرتاب

يوم الحليس بذي الفقار كأنه * كَلِبٌ بِضرب جماجم ورقاب

وقال آخر

لله در بنى الحداء من نفر * وكل جار على جيرانه كلب

اذا غدوا وعصى الطلح أرجلهم * كما تنصب وسط البيعة الصلب

واذا كان العود سريع العلوق فى كل زمان وكل أرض أو في عامة ذلك قالوا ما هو إلا كلب وقالوا قال النبي صلى الله عليه وسلم ابن جابر حين خرج من عنده واستأذنه إلى اهله نعم ان لم تدركه ام كلبة يعني الحمى ومما ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما والصفة الواحدة من صفاتهما والفعل الواحد من أفعالهما قال رؤبة لاقينا مطلا كنعاس الكلب يقول مطلا مقرطقا دائما وقال الشاعر فى ذلك

يكون بها دليل القوم نجم * كعين الكلب فى هبا قباع

قال هذه ارض ذات غبرة من الحر لا يبصر القوم فيها النجم الذي يهتدي به إلا وهو كأنه عين الكلب لأن الكلب أبداً مغمض غير مطبق الجفون ولا مفتوحها والهبي الظلمة واحدها هاب والجمع هبأً مثل غاز وغزًّا والقباع التى قبعت في القتام واحدها قابع كما يقبع القنفذ وما أشبهه فى جحره وانشد لابن مقبل

ولا أطرق الجارات بالليل قابعاً * قبوع القَرَنبى أسلمته مجاحره

والقبوع الاجتماع والتقبض والقرنبي دويبة أعظم من الخنفساء وقال الآخر فى صفة بعض مايعرض له من العيوب

ماضر تغلب وائل أهجوتها * أم بلت حيث تناطح البحران

ان الاراقم لا ينال قديمها * كلب عوَى متهتم الاسنان

وقال الشاعر فى منظور بن زبان

لبئس ما خلف الآباء بعدهم * في الامهات عجان الكلب منظور

ومن هذا الضرب قول الاعرابى

لقد شان صغري والياها وزينا * لصغرى فتىً من أهلها لا يزينها

كلاب لعاب الكلب ان ساق هجمة * يعذب فيها نفسه ويهينها

وقال عمرو بن معدى كرب

لحا الله جرماً كلما ذر شارق * وجوه كلاب هارشت فاز بأرّت

وقال أبو سفيان بن حرب

ولو شئت نجتني كميتٌ طمرّة * ولم أجعل النعماء لابن شعوب

ومازال مهرى مزجر الكلب منهم * لدن غدوة حتي دنت لغروب

وقال عبدالرحمن بن زياد

دعته بمسروق الحديث وظالع * من الطرف حتى خاف بصبصة الكلب

وقال شريح بن أوس

وعيرتنا تمر العراق ونخله * وزادك إير الكلب شيّطه الجمر

وقال آخر وهو يهجو قوما

وجاءوا بخرشاوى شعير عليهما * كراديس من أوصال اعقد سافد

وقال الحارث بن الوليد

ذهب الذين اذا رأونى مقبلا * هشوا وقالوا مرحبا بالمقبل

وبقيت فى خلف كأن حديثهم * ولغ الكلاب تهارشت فى منهل

وقال سبرة بن عمرو الفقعسي حين ارتشى ضمرة بن ضمرة النهشلي ونفر عليه عبادة ابن أنف الكلاب الصيداني فقال سبرة

ياضمر كيف حكمت أمك هابل * والحكم مسؤل به المتعمد

أحفظت عهداً أم رعيت أمانة * أم هل سمعت بمثلها لا ينشد

شنعاء فاقرة تجلل نهشلا * دنسا تغوربه الرفاق وتنجد

ان الرفاق أمال حكمك حبها * فلك اللقاء وراكب متجرد

فضح العشيرة واستمر كأنه * كلب يبصبص للعظال ويطرد

لا شيء يعدلها ولكن دونها * خرط القتاد تهاب شوكتها اليد

جوعان يلحس اسكتاز يفيه * غلم يثور على البرائن أعقد

وقال مزرد بن ضرار

وان كناز اللحم من بكراتكم * تهر عليها امكم وتكالب

وليت الذي ألقى فناءك رحله * لتقريه بالت عليه الثعالب

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذكر الاعضاء وقال

ياسبر يا عبد بني كلاب * يا اير كلب موثق بباب

اكان هذا أول الثواب * يا ورلاً رقرق في سراب

لا يعلقنكم ظفرى ونابي

وقال الآخر

كأن بني طهية رهط سلمى * حجارة خارئ يرمي الكلابا

وقال صاحب (الـكلاب) ومما اشتق من اسم الكلاب في موضع النباهة كليب بن ربيعة هو كليب وائل ويقال انه قيل في رجلين من بني ربيعة مالم يقل في أحد من العرب حتى ضرب بهما المثل وهو قولهم أعز من كليب وائل والآخر لاحرّ بوادي عوف قالوا وكانت ربيعة اذا انتجعت معه لم توقد نارا ولم تحوض حوضا وكان يحمى الكلأ ولا يتكلم عنده الا خفضا ويجير الصيد ويقول صيد أرض كذا وكذا في جوارى لايباح وكان له جرو كلب قد كتعه فربما قذف به في الروضة تعجبه فيحميها الى منتهى عوائه ويلقيه بحريم الحوض فلا يرده بعير حتى تصدر ابله وفي ذلك يقول معبد بن شعبة التميمى

أظن ضرار انني سأطيعه * واني سأعطيه الذي كنت امنع
اذا غرورقت عيناه واحمر وجهه * وقد كاد غيظا وجهه يتبتع
تقدم في الظلم المبين عامداً * ذراعا اذا ما قدمت ثك إصبع
كفعل كليب كنت أنبئت انه * يخلط ا كلاء المياه ويمنع
يجير على افناء بكر بن وائل * أرانب ضاح والظباء فترتع

وقال دريد بن الصمة

لعمرك ما كليب حين دلى * بجبل كليبة فيمن يميح
بأعظم من بني سفيان بغيا * وكل عدوهم منه مريح

وقال العباس بن مرداس

كما كان يبغيها كليب بظلمه * من العز حتى طاح وهو قتيلها
على وائل اذ يبرك الكلب مائحا * واذ يمنع الا كلاء منها حلولها

وقال عباس أيضاً لـكليب بن عيمة الظفرى

ا كليب انك كل يوم ظالم * والظلم انكد وجهه ملعون
تبغى بقومك ماأراد بوائل * يوم الغدير سميك المطعون
واخال انك سوف تلقى مثلها * في صفحتيك سنانه المسنون

وقال النابغه الجعدى

كليب لعمري كان اكثر ناصرا * وأيسر ذنبا منك ضرج بالدم
رمي ضرع ناب فاستمر بطعنة * كحاشية البرد اليماني المسهم

وقال قطران العبشمى

ألم تر جساس بن مرة لم يرد * حمى وائل حتى اعتداه جهولها
اجر كليبا اذرمي الناب طعنة * حدت وائلا حتى استخفت عقولها
باهون مما قلت اذانت سادر * وللدهر والايأم دال يديلها

وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة

تحوز النساء تغلب ابنة وائل * بقتل كليب اذطغى وتخيلا
أثابته بالناب التي شق ضرعها * فاصبح موطوء الحمى متذللا

وقال رجل من بني سدوس

وانت كليبي لكاب وكلبة * لها حول اطناب البيوت هرير

وقال ابن مقبل العجلانى

بكت أم بكر اذتبدد رهطها * وان أصبحوا منهم شريدوهالك
وان كلا حييك فيهم بقيـة * لو ان المنايا حالها متماسك
كلاب وكعب لا يبيت أخوهم * ذليلا ولا تعيي عليه المسالك

وقال رجل من بني كلاب من الخوارج لمعاوية بن أبى سفيان

قدسرت سير كليب في عشيرته * لوكان فيهم غلام مثل جساس
الطاعن الطعنة النجلاء عائذها * كطرة البرد اعي فتقها الآسى

وقال أبو اليقظان فى مثل هذا الاشتقاق كان أول عمل وليه الحجاج بن يوسف تبالة فلما سار اليها وقرب منها قال للدليل أين هى وعلى أى سمت هى قال تسترك عنها هذه الا كمة قال لا أرانى أميرا الا على موضع تسترني منه أكمة أهون بها على وكر راجعا فقيل في المثل أهون من تبالة على الحجاج والعامة تقول لهو أهون على من

الاعراب على عركوك قال ولما حضرت الحجاج الوفاة وقد ولى قبل ذلك ما ولى وافتتح ما افتتح وقتل من قتل قال للمنجم هل ترى ملكا يموت قال نعم ولست به أري ملكا يموت اسمه كليب وأنت اسمك الحجاج قال فأنا والله كليب أمى سمتني به وأنا صبي فمات واستخلف على الخوارج يزيد بن أبى مسلم وعلي الحرب يزيد بن أبى كبشة قال والعرب انما كانت تسمى بكلاب وحمار وحجر وجعل وحنظلة وقرد علي التفاؤل بذلك وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفال فان سمع انسانا يقول حجرا ورأى حجرا سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وانه يحطم ما لقى وكذلك ان سمع انسانا يقول ذئبا أو رأي ذئبا تأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب وان كان حمارا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد وان كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب وغير ذلك ولذلك صور عبيد الله بن زياد في دهليزه كلبا وكبشا وأسدا وقال كلب نابح وكبش ناطح وأسد كالح فتطير الى ذلك فطارت عليه وقال آخر(٢) لو كان الرجل منهم(٣) انما كان يسمى ابنه بحجر وجبل وكلب وحمار وثور وخنزير وجعل على هذا المعني فهلا سمي برذون وبغل وعقاب واشباه ذلك وهذه الاسماء من لغتهم قال الاول انما لم يكن ذلك لانه لا يكاد يري بغلا وبرذونا ولعله لا يكون رآهما قط وان كانت الاسماء عندهم عتيدة لأمور لعلهم يحتاجون اليها يوما ما قالوا فقد كان يسمع بفرس وبعير كما كان يسمع بحمار وثور وقد كان يستقيم ان يشتق منهما اشتقاقات محمودة بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمى بنجم ولا يسمى بكوكب الا ان بعضهم قد سمى بذلك عبد الله وفيه يقول

كوكب ان مت فهى ميتتى * لا مت الا هرما يا كوكب

ووجدناهم يسمون بجبل وسند وطور ولا يسمون بأحد ولا بثبير واجإ وسلمي ورضوي وصندد وحميم وهو تلقاء عيونهم متى اطلعوا رؤسهم من خيامهم ويسمون ببرج ولا يسمون بفلك ويسمون بقمر وشمس على جهة اللقب أو على جهة المديح ولم

يسموا بأرض وسماء وهواء وماء الاعلى ماوصفنا وهذه الأصول في الزجر أبلغ كما ان جبلا أبلغ من حجر وطور اجمع من صخر وتركوا أسماء جبالهم المعروفة وقد سموا بأسدوليث وأسامة وضرغامة وتركوا أن يسموا بسبع وسبعة هو الاسم الجامع لكل ذي ناب ومخلب قال الاول قد تسموا أيضاً بأسماء الجبال فتسموا بابان وسلمي قال آخرون انما هذه أسماء ناس سموا بها هذه الجبال وقد كانت لها أسماء تركت لثقلها أو لعلة من العلل والا فكيف يسموا بسلمى وتركوا أجأ ورضوى وقال بعضهم قد كانوا ربما فعلوا ذلك على أن يتفق لواحد ولودولمعظم جليل ان يسمع أو يري حمارا فيسمي ابنه بذلك وكذلك الكلب والذئب ولم يتفق في ذلك الوقت ان يسمع بذكر فرس ولا حجرا وهواء أوماء فاذا صار حمار أوثور أوكلب اسم رجل معظم تتابعت عليه العرب تطير اليه ثم يكثر ذلك في ولده خاصة بعده وعلى ذلك سميت الرعية بنيها وبناتها بأسماء رجال الملوك ونسائهم وعلى ذلك صار كل علي يكنى بابى الحسن وكل عمر يكنى بأبي حفص وأشباه ذلك فالاسماء ضروب منها شيء أصلى كالسماء والارض والهواء والماء والنار وأسماء أخر مشتقات منها على جهة الفال وعلى شكل اسم الاب كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنه عميرا ويسمي عمير ابنه عمران ويسمى عمران ابنه معمرا وربما كانت الاسماء بأسماء الله عز وجل مثل ماسمي الله عز وجل أبا ابراهيم آزر وسمي ابليس بفاسق وربما كانت الاسماء مأخوذة من أمور تحدث في الاسماء مثل يوم العروبة سميت فى الاسلام يوم الجمعة واشتق له ذلك من صلاة يوم الجمعة وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره ثم نعود الى موضعنا الأول ان شاء الله تعالى ترك الناس مما كان مستعملا في الجاهلية أموراً كثيرة فمن ذلك تسميتهم للخراج اتاوة وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان الحملان والمكس وقال خارجي

أفي كل اسواق العراق اتاوة * وفي كل ماباع امرؤ مكس درهم

وكما قال العبدي في الجارود

أكابر المعلى خلتنا أم حسبتنا * صراري نعطي الماكسين مكوسا

وكما تركوا أنعم صباحا وأنعم ظلاما وصاروا يقولون كيف أصبحتم وكيف أمسيتم وقال قيس بن زهير بن جذيمة ليزيد بن سنان بن أبي حارثة أنعم ظلاما أبا ضمرة قال نعمت فمن أنت قال قيس بن زهير وعلى ذلك قال امرؤ القيس

الاعم صباحا أيها الطلل البالي * وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وعلى ذلك قال الاول

أتوا نارى فقلت منون قالوا * سراة الجن قلت عموا ظلاما

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيد المطاع أبيت اللعن كما قيل

* مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه *

وقد زعموا أن حذيفة بن بدر كان يحيي بتحية الملوك ويقال له أبيت اللعن وتركوا ذلك في الأسلام من غير أن يكون كفرا وقد ترك العبدان يقول لسيده ربي كما يقال رب الدار ورب البيت وكذلك حاشية السيد والملك تركوا أن يقولوا ربنا كما قال الحارث بن حلزة

ربنا وابننا وأفضل من يمـ * ـشي ومن دون ما لديه الثناء

وكما قال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر

وأهلكن يوما رب كندة وابنه * ورب معد بين خبت وعرعر

وكما عير زيد الخيل حاتما الطائي في خروجه من طيء ومن حرب الفساد الي بني بدر حيث يقول

وفر من الحرب العوان ولم يكن * بها حاتم طبا ولا متطببا

وريب حصنا بعد ان كان آبيا * ابوة حصن فاستقال وأعتبا

أقم فى بنى بدر ولا ما يهمنا * اذا ما تقضت حربنا أن تطربا

وقال عوف بن محلم حين رأى الملك إنه ربي ورب الكعبة وزوجه أم أناس بنت عوف وكما تركوا أن يقولوا لقوام الملوك بالسدنة وقالوا الحجبة (٢) وقال أبو عبيدة معمر بن المثني عن أبي عبد الرحمن بن يونس بن حبيب النحوي حين أنشده شعر الاسدى

ومركضة صريحي أبوها * تهان لها الغلامة والغلام

قال فقلت له فتقول للجارية غلامة قال لا هذا من الكلام المتروك وأسماء زالت مع زوال معانيها كالمرباع والنشيطة وبقى الصفايا فالمرباع ربع جميع الغنيمة الذى كان خالصاً للرئيس وصار فى الاسلام الخمس على ماسنه الله تعالى وأما النشيطة فانه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلق النفيس يراه اذا استحلاه وبقى الصفي وكان لرسول الله صلي الله عليه وسلم من كل مغنم وهو كالسيف اللهذم والفرس العتيق والدرع الحصينة والشئ النادر وقال ابن غنمة الضبى حليف بني شيبان فى مرثيته بسطام ابن قيس

لك المرباع منها والصفايا * وحكمك والنشيطة والفضول

والفضول فضول المقاسم كالشئ اذا قسم وفضلت فضلة استهلكت كاللؤلؤة والسيف والدرع والبيضة والجارية وغير ذلك وأسماء حدثت ولم تكن وانما اشتقت لهم من أسماء متقدمة على التشبيه مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والاسلام مخضرم كابي رجاء العطاردى بن سالمة وشقيق ابن سالمة ومن الشعراء النابغة الجعدى وابن مقبل وأشباههم من الفقهاء والشعراء ويدل على ان هذا الاسم احدث في الاسلام انهم فى الجاهلية لم يكونوا يعلمون ان ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهلية ولا كانوا يعلمون أن الاسلام يكون ويقال ان أول من سمى الارض التى لم تحفر قط ولم تحرث اذا فعل بها ذلك مظلومة النابغة حيث يقول

الا الأواري لايا ماأبينها * والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

ومنه قيل سقاء مظلوم اذا أعجل عليه قبل ادراكه وقال الحادرة

ظلم البطاح له انهلال حريصة * فصفا النطاف له بعيد المقلع

وقال الآخر

قالت له مى بأعلى ذي سلم * لو ما تزورنا اذا الشعب ألم

ألا بلى يامي واليوم ظلم

يقول ظلم حين وضع الشئ في غير موضعه وقال الآخر

* انا ابو زينب والنوم ظلم *

وقال ابن مقبل

عاد الاذلة فى دار وكان بها * هرت الشقاشق ظلامون للجزر

وقال آخر

وصاحب صدق لم تنلني أذاته * ظلمت وفي ظلمي له عامدا أجر

وقال آخر

لا يظلمون اذا ضيفوا وطابهم * وهم لجودهم فى جزرهم ظلم

وظلم الجزور ان يعرقبوها وكان في الحق ان تنحر نحراً وظلمهم الجزور أيضاً أن ينحروها صحاحا سمانا لاعلة بها قال ومن ذلك قولهم الحرب غشوم وانما سميت بهذا لانها تنال غير الجاني قال ومن ذلك قولهم من أشبه أباه فما ظلم يقول قد وضع الشبه في موضعه ومن المحدث المشتق اسم منافق لمن راآى بالاسلام واستسر بالكفر أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والداماء ومثل المشرك والكافر ومثل التيمم قال الله تعالى (فتيمموا صعيداً طيبا) أي تحروا ذلك وتوخوه وقال (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) منه فكثر هذا في الكلام حتى صار التيمم هو المسح نفسه وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشئ اذا طالت صحبته وملابسته له وكما سموا رجيع الانسان الغائط وانما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها اذا أرادوا قضاء الحاجة للستر ومنه العذرة وانما العذرة الفناء والافنية هى العذرات ولكن لما طال القاؤهم النجو والزبل في أفنيتهم سميت تلك الاشياء التى رموا بها باسم المكان الذي رميت به وفى الحديث اتقوا عذراتكم وقال ابن الرقيات

رحم الله أعظما دفنوها * بسجستان طلحة الطلحات

كان لايحجب الصديق ولا يعـ * ـتل بالبخل طيب العذرات

ولكنهم لكثرة ما كانوا يلقون نجوهم فى أفنيتهم سموها باسمها ومنه النجو وذلك

أن الرجل كان اذا أراد قضاء الحاجة تستر بنجوة والنجو الارتفاع من الارض قالوا من ذلك ذهب ينجوا كما قالوا ذهب يتغوط إذا ذهب الى الغائط لذلك الامر ثم اشتقوا منه فقالوا اذا غسل موضع النجو قد استنجي وقالوا ذهب الى المخرج والي المتوضإ والى المذهب والى الخلاء والى الحش وانما الحش القطعة من النخل وهي الحشان وكانوا بالمدينة اذا أرادوا قضاء الحاجة دخلوا النخل لان ذلك أستر فسموا المتوضأ الحش وان كان بعيداً من النخل كل ذلك هربا من أن يقولوا ذهب للخرإ لانّ الاسم الخرؤ وكل شيء سواه من (١) ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله كناية ومن هذا الباب الملة والملة موضع الخبزة فسموا الخبزة باسم موضعها وهذا عند الاصمعي خطأ ومن هذا الشكل الراوية والراوية هو الجمل نفسه وهو حامل المزادة فسميت المزادة باسم حامل المزادة ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية ومنه قولهم ساق الي المرأة صداقها قالوا وانما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون فى الصداق إبلا وتلك الأبل يقال لها النافجة وقال شاعرهم

وليس تلادي من وراثة والدى * ولا شاد مالي مستفاد النوافج

وكانوا يقولون تهنيك النافجة قال فاذا كانوا يدفعون الصداق عينا وورقا فلا يقال ساق اليها الصداق ومن ذلك انهم كانوا يضربون على العروس البناء كالقبة والخيمة والخيام على قدر الامكان فيقال بني عليها اشتقاقا من البناء ولا يقال ذلك اليوم والعروس إما أن تكون مقيمة فى مكانها وتحول الى مكان أقدم من بنائها قال ومن ذلك قولهم في البغي المكتسبة بالفجور قحبة وانما القحاب السعال وكانوا اذا أرادوا الكناية عن من زنت وتكسبت بالزنا قالوا قحبت أى سعلت كناية وقال الشاعر *ان السعال هو القحاب

واذا ماقحبت واحدة * جاوب المبعد منها فقحب

وكذلك كان كنايتهم في انكشاف عورة الرجل يقال كشف علينا متاعه وعورته وشواره والشوار المتاع وكذلك الفرج وانما الا يروا الحروا لاست وكلمات للنبي صلى الله عليه

---

(٢) بياض بالاصل

وسلم لم يتقدمه فيهن أحد من ذلك قوله اذا لا ينتطح فيها عنزان ومن ذلك قوله مات حتف أنفه ومن ذلك قوله ياخيل الله اركبي ومن ذلك قوله كل الصيد في جوف الفرا وقوله لا يلسع المؤمن من جحر مرتين وقال عمر رضي الله تعالى عنه شنشنة أعرفها من أخزم يعني شبه ابن العباس بالعباس واخزم فحل معروف بالكرم وأما الكلام الذى جاءت به كراهية من طريق الروايات فروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست نفسي كانه كره صلى الله عليه وسلم أن يضيف المؤمن الطاهر الى نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القائل استأثر الله بفلان بل يقال مات فلان ولا يقال استأثر الله بعلم الغيب واستأثر الله بكذا وكذا قال النخعي كانوا يكرهون أن يقال قراءة عبد الله وقراءة سالم وقراءة أبي وقراءة زيد وكانوا يكرهون أن يقولوا سنة أبي بكر وعمر بل يقال سنة الله وسنة رسوله ويقال فلان يقرء بوجه كذا وفلان يقرأ بوجه كذا وكره مجاهد ان يقولوا مسيجد ومصيحف للمسجد القليل الذّرع والمصحف القليل الورق ويقول هم وان لم يريدوا التصغير فانه بذلك شبيه وربما صغروا الشئ من طريق الشفقة والرقة كقول عمر أخاف على هذا العريب وليس التصغير بهم يريد وقد يقول الرجل انما فلان أخي وصديقي وليس التصغير له يريد وذكر عمر ابن مسعود فقال كنيف ملئ علما وقال سلمة بن سلامة وقش يوم السقيفة[1] أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة الحميرا و كقولهم لأبي قابوس الملك أبو قبيس وكقولهم دبت اليه دويهية الدهر وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقة المسلك ويقال ان كل فعيل في أسماء العرب فانما هو على هذا المعني كقولهم المعيدى وكنحو سليم وضمير وكليب وعقير وجميل وحميد وسعيد وجبير وكنحو عبيد وعبيد الله وعبيد الرماح وطريق التحقير والتصغير انما هو كقولهم نجيل ونذيل قالوا ورب اسم اذا صغرته كان أملأ للصدر مثل قولك أبو عبيد الله هو أكبر في السماع من أبي عبد الله

(١) هكذا بالاصل والصواب كما قال الحباب بن المنذر يوم السقيفة

وكعب بن جُعَيل هو أفخم من كعب بن جعل وربما كان التصغير خلقة وبنية لا يتغير كنحو الحميا والسكيت وجنيدة والقطيعا والمريطاء والسميراء والمليساء وليس هو كقولهم القصيري وفي كبيدات السماء والثريا وقال على بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه دققت الباب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من هذا فقلت أنا فقال أنا كانه كره قولى أنا وحدثني أبو على الانصاري وعبد الكريم الغفاري قالا حدثنا عيسى ابن حاضر قال كان عمرو بن عبيدة يجلس في داره وكان لا يدع بابه مفتوحا فاذا قرعه انسان قام بنفسه حتى يفتحه له فاتيت الباب يوما فقرعته فقال من هذا فقلت أنا فقال ما أعرف أحدا يسمي أنا فلم أقل شيئاً وقمت خلف الباب اذ جاء رجل من أهل خراسان فقرع الباب فقال عمرو من هذا فقال رجل غريب قدم عليك يلتمس العلم فقام له ففتح له الباب فلما وجدت فرجة أردت أن ألج الباب فدفع الباب فى وجهى بعنف فاقمت عنده اياما ثم قلت فى نفسي والله انى يوم أتغضب على عمرو بن عبيد لغير رشيد الراي فأتيت الباب فقرعته عليه فقال من هذا فقلت عيسى بن حاضر فقام ففتح لى الباب وقال رجل عند الشعبي أليس الله قال كذا وكذا قال وما علمك وقال الربيع ابن خيثم اتقوا تكذيب الله ليتق أحدكم أن يقول قال الله في كتابه كذا وكذا فيقول الله كذبت لم أقله وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لا يقل أحدكم أهريق الماء ولكن يقول أبول وسأل عمر رجلا عن شيء فقال الله أعلم فقال عمر قد خزينا ان كنا لا نعلم أن الله أعلم اذا سئل أحدكم عن شيء فان كان يعلمه قاله وان كان لا يعلمه قال لا علم لى بذلك وسمع عمر رجلا يدعو ويقول اللهم اجعلني من الاقلين قال ما هذا الدعاء قال انى سمعت الله عز وجل يقول قليل من عبادى الشكور وقال وما آمن معه الا قليل قال عمر عليك من الدعاء بما يعرف وكره عمر بن عبد العزيز قول الرجل لصاحبه ضعه تحت إبطك وقال هلا قلت تحت يدك وتحت منكبك وقال مرة وراث فرس بحضرة سليمان فقال ارفعوا ذلك النثيل ولم يقل ذلك الروث وقال الحجاج لام عبد الرحمن بن الاشعب عمدت الى مال الله فوضعته تحت كانه كره أن يقول على عادة

الناس تحت استك فتلجلج خوفا من أن يقول قذعا أورفثا ثم قال تحت ذيلك وقال النبي صلى الله عليه وسلم لايقولن أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي ولكن يقول فتاى وفتاتي ولا يقول المملوك ربي وربتي ولكن يقول سيدي وسيدتي وكره مطرف بن عبد الله قول القائل للكلب اللهم أخزه وكره عمران بن الحصين أن يقول الرجل لصاحبه أنعم الله بك عينا ولا أنعم الله بك عينا وقد كرهوا أشياء مما جاءت في الروايات لا تعرف وجوهها فرأى أصحابنا لا يكرهونها ولا نستطيع الرد عليهم ولم نسمع لهم في ذلك أكثر من الكراهة ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤنة ولكن أكثر الروايات مجردة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الاخبار عن البرهان وان كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة قال ابن مسعود وأبو هريرة لاتسموا العنب الكرم فان الكرم هو الرجل المسلم وقد رفعوا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم وأما قوله لاتسبوا الدهر فان الدهر هو الله فما أحسن مافسر ذلك عبد الرحمن ابن مهدى قال وجه هذا عندنا ان القوم قالوا وما يهلكنا الا الدهر فلما قال القوم ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الله يعني ان الذى أهلك القرون هو الله عز وجل فتوهم منه المتوهم انه انما أوقع الكلام على الدهر وقال يونس وكما غلطوا فى قول النبي صلى الله عليه وسلم لحسان قل ومعك روح القدس فقالوا قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان قل ومعك جبريل لان روح القدس أيضاً من أسماء جبريل ألاترى أن موسى قال ليت ان روح الله مع كل أحد وهو يريد العصمة والتوفيق والنصاري تقول للمتنبي معه روح دكالا ومعه روح سيفرت وتقول اليهود معه روح بلعزبوث يريدون شيطانا فاذا كان نبيا قالوا روحه روح القدس وروحه روح الله وقال الله عز وجل وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا يعني القرآن وسمع الحسن رجلا يقول طلع سهيل وبرد الليل فكره ذلك وقال ان سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد قط ولهذا الكلام مجاز ومذهب وقد كره الحسن كما ترى وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة ما أخلقها للمطر وهذا كلام مجازه قائم وقد كرهه ابن أنس كأنهم من خوفهم عليهم العود في

شيء من أمر الجاهلية احتاطوا في أمورهم فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدني متعلق ورووا ان ابن عباس قال لا تقولوا والذى خاتمه على فمى فانما يختم الله عز وجل على فم الكافر وكره قولهم قوس قزح وقال قزح شيطان وانما ذهبوا الى التمويج والتلوين كأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية وكان أحب أن يقال قوس الله فيرفع من قدره كما يقال بيت الله وزوار الله وأرض الله وسماء الله وأسد الله وقالت عائشة رضي الله عنها قولوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ولا تقولوا لا نبي بعده فان لا تكن ذهبت الى نزول المسيح فما أعرف له وجها الا أن تكون قالت لا تغيروا ما سمعتم وقولوا كما قيل لكم والفظوا بمثله سواء وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل أسلمت في كذا وكذا وقال ليس الاسلام إلا الله عز وجل وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل وقد كرهه ابن عمر وهو أعلم بذلك وكره ابن عباس رضى الله عنهما قول القائل أنا كسلان وقال عمر لا تسموا الطريق السكة وكره أبو العالية قول القائل كنت في جنازة وقال قل تبعت جنازة كأنه ذهب الى أنه عني انه كان فى جوفها وقال قل تبعت جنازة والناس لا يريدون هذا ومجاز هذا الكلام قائم وقد كرهه أبو العالية وهى عندي شبيه بقول من كره أن يقول أعطاني فلان نصف درهم وقال اذا قلت كيف تكيل الدقيق فليس جوابه أن تقول القفيز بدنينير ولكن يتناول القفيز ثم يكيل به الدقيق ويقول هكذا الكيلة وهذا من القول مسخوط وكره ابن عباس قول القائل الناس قد انصرفوا يريد من الصلاة قال بل قولوا قد قضوا الصلاة وقد فرغوا من الصلاة وقد صلوا لقوله ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم قال وكلام الناس كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة وقد انصرفوا من السوق وانصرف الخليفة وصرف الخليفة الناس من الدار اليوم بخير وكنت في أول المنصرفين وقد كرهه ابن عباس ولو أخبرونا بعلته انتفعنا بذلك وكره حبيب ابن أبي ثابت أن يقال للحائض طامث وكره مجاهد قول القائل دخل رمضان وذهب رمضان وقال قولوا شهر رمضان فلعل رمضان اسم من أسماء الله تعالى قال ابو اسحاق إنما أتى من قبل قوله تعالى شهر رمضان الذي

أنزل فيه القرآن فقد قال الناس يوم التروية ويوم عرفة ولم يقولوا عرفة كان ابو اسحاق يقول لاتسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب اليهم وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدى والضحاك ومقاتل بن سليمان وابو بكر الاصم فى سبيل واحدة فكيف أثق بتفسير واسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله عز وجل وان المساجد لله ان الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها بل انما عنى الجباه وكل ماسجد الناس عليه من يدو رجل وجبهة وأنف وثفنة وقالوا في قوله تعالى (أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت) انه ليس يعني الجمال والنوق وانما يعنى السحاب واذا سئلوا عن قوله وطلح منضود قالوا الطلح هو الموز وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الأمم وان الناس غيروه قوله تعالى (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) وقالوا في قوله تعالى (رب لم حشرتنى أعمي وقد كنت بصيرا) قالوا يعني انه حشره بلا حجة وقالوا في قوله تعالى (ويل للمطففين الويل وادفى جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ومعني الويل في كلام العرب معروف وكيف كان في الجاهلية قبل الاسلام وهو من أشهر كلامهم وسئلوا عن قوله تعالى قل أعوذ برب الفلق قالوا الفلق واد فى جهنم ثم قعدوا يصفونه وقال آخرون الفلق المقطرة بلغة اليمن وقال آخرون فى قوله تعالى عينا فيها تسمى سلسبيلا قالوا أخطأمن واصل بعض هذه الكلمة ببعض قالوا وانما هي سل سبيلا اليها يا محمد فان كان كما قالوا فأين معني تسمى وعلى أى شيء وقع قوله تسمى فتسمى ماذا وما ذلك الشيء وقالوا فى قوله تعالى وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا الجلود كناية عن الفروج كأنه كان لا يري ان كلام الجلد من أعجب العجب وقالوا في قوله تعالى كانا يأكلان الطعام ان هذا انما كان كناية عن الغائط كأنه لا يرى أن في الجوع وما ينال أهله من الذلة والعجز والفاقة وانه ليس فى الحاجة الى الغذاء ما يكتفى به في الدلالة على أنهما مخلوقان حتى يدعي على الكلام ويدعي له شئاً قد أغناه الله تعالى عنه وقالوا في قوله تعالى وثيابك

فظهر انه انما عني قلبه ومن أعجب التأويل قول اللحياني الجبار من الرجال يكون على وجوه يكون جبارا فى الضخم والقوة فتأول قوله تعالى ان فيها قوما جبارين قال ويكون جبارا على معني قتالا وتأول في ذلك (واذا بطشتم بطشتم جبارين) وقوله لموسى صلى الله عليه وسلم (ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض) اى قتالا بغير حق والجبار المتكبر عن عبادة الله تعالى وتأول قوله عز وجل (ولم أك جبارا عصيا) وتأول في ذلك قول عيسى (ولم يجعلني جبارا شقيا) أي لم يجعلني متكبرا عن عبادته قال الجبار المسلط القاهر قال وهو قوله (وما أنت عليهم بجبار) أى مسلط فتقهرهم على الاسلام والجبار الله وتأول أيضاً الخوف على وجوه ولو وجده فى ألف مكان لقال والخوف على ألف وجه وكذلك الجبار وهذا كله يرجع الى معنى واحد الا أنه لا يجوز أن يوصف به الا الله عز وجل وقال رجل لعبيد الله بن الحسن القاضى ان أبى أوصى بثلث ماله في الحصون قال اذهب فاشتر به خيلا فقال الرجل انه انما ذكر الحصون قال أما سمعت قول الاسعر الجعفي

ولقد علمت على تجنبي الورى * ان الحصون الخيل لا مدر القرى

فينبغي فى مثل هذا القياس على هذا التأويل انه ما قيل للمدن والحصون حصون الا على التشبيه بالخيل وخبرني النوشزانى قال قلت للحسن القاضي أوصي جدى بثلث ماله لأولاده وأنا من أولاده قال ليس لك شيء قلت ولم قال أو ما سمعت قول الشاعر

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الاباعد

قال فشكوت ذلك الى فلان فزادنى شرا وقالوا في قوله ماساءك وناءك ٢ أبعدك قالوا وساءك برصك قال لقوله تعالى (تخرج بيضاء من غير سوء) وبئس التكلف وقال ابن قمئة

وحمال أثقال اذا هى أعرضت * على الاصل لا يسطيعها المتكلف

وقال الله وهو يخبر عن نبيه صلي الله عليه وسلم (وما أنا من المتكلفين) وليس يؤتى القوم الا من الطمع ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل وسئل حفص بن غياث عن فقه أبي حنيفة فقال أعلم الناس بما لم يكن وأجهل الناس بما كان وقالوا فى قوله تعالى (ثم

لتسئلن يومئذ عن النعيم) قالوا النعيم الماء الحار في الشتاء والبارد في الصيف ومن الاسماء المحدثة التي قامت مقام الاسماء الجاهلية قولهم فى الاسلام لمن لم يحج صرورة وأنت اذا قرأت أشعار الجاهلية وجدتهم قد وضعوا هذا الاسم على خلاف هذا الموضع قال ابن مقروم الضبي

لو أنها عرضت لأشمط راهب * عبد الاله صرورة متبتل
لدنا لبهجتها وحسن حديثها * ولهم من ناموره بتنزل

والصرورة عندهم اذا كان أرفع الناس فى مراتب العبادة وهو اليوم اسم للذى لم يحج أما لعجز وأما لتضييع وأما الانكار فهما مختلفان كما ترى فاذا كانت العرب يشتقون كلاما من كلامهم وأسماء من أسمائهم واللغة عارية فى أيديهم ممن خلقهم ومكنهم والهمهم وعلمهم وكان ذلك منهم صوابا عند جميع الناس فالذى اعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة وكما ان له ان يبتديء الاسماء فكذلك له ان يبتدئها مما أحب قد سمى كتابه المنزل قرآنا وهذا الاسم لم يكن حتى كان وجعل السجود للشمس كفرا فلا يجوز ان يكون السجود لها كفرا الا وترك ذلك السجود بعينه يكون ايمانا والترك للشيء لا يكون الا بالجارحة حتي كان بها الشيء وفى مقداره من الزمان وتكون بدلا منه وعقبا فواحدة ان يسمى السجود كفرا واذا كان كفرا كان جحودا واذا كان جحودا كان شركا والسجود ليس بجحد والجحد ليس باشراك الا ان تصرفه الى الوجه الذى يصير اشراكا وقال طفيل الغنوى

عوازب لم تسمع نبوح مقامة * ولم تر ناراً تم حول مجرّم

وانما أخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب وذكروا أن الظبي اذا أسن ونبتت لقرونه شعب نبح وهو قول ابن دواد

وقصرى سح الاتشا نباح من الشعب ٢

يعني من جهة الشعب وأنشد بعضهم

وينبح بين الشعب نبحاً كأنه * نباح سلوق أبصرت ما يريبها

وبيضها الهزل المسود غيرها * كما ابيض عن حمض المراحم نيبها

لان الظبي اذا هزل أبيض والبعير يشيب وجهه من أ كل الحمض و كذلك قال ابن لجا،

شابت ولم تدن من ركابها

كما قال الآخر

أ كلن حمضاً فالوجوه شيب * شربن حتي نزح القليب

وقد تصير الناقة الحمراء اذا أتمت حبشية ولذلك قال الشاعر

حمراء لاحبشية الاتمام * وماأشبه ذلك بقول العبدى

وداويتها حتى شتت حبشية * كأن عليها سندسا وسدوسا

والدواء اللبن فلذلك تصير الفرس اذا ألقت شعرها وطرت تستديل هذا اللون وقال

خالد بن الصقعب النهدى

هبطنا بعدعهدك بطن خبت * تظل حمامه مثل الخصوم

كان غريك ايكته تلاع * به جمعان من قبط وروم

نباح الهدهد الحولى فيه * كنبح الكلب في الانس المقيم

ويقال ان الهدهد ينبح وربما جعلوا الهدهد الذي ينبح الحمام الذ كر قال الشاعر وهو

يصف الحمام الذ كر كيف يصنع فيها

واذا استترت أرن فيهاهدهد * مثل المداك خضبته بجساد

وقال طفيل في النبوح والجماعات

واشعث تزهاه النبوح مدفع * عن الزادمما خلف الدهر محثل

وقال الجعدى

فلما دنونا لصوت النباح * ولا نبصر الحى الا التماسا

وقال ابن عبدل

آليت اذ آليت مجتهداً * ورفعت صوتاً مابه بحح

لايدرك الشعراء منزلتي * في الشعر ان سكتوا وان نبحوا

وقال عمرو بن كلثوم

وقد هرت كلاب الحي منا * وشذبنا قتادة من يلينا

وقال بعض العلماء كلاب الحي شعراؤهم وهم الذين ينبحون دونهم ويحمون اعراضهم
وقال آخرون وإن كلاب الحي كل عقور وكل ذي عيون أربع وأما قوله

لعمرك ماخشيت على أبي * رماح بني مقيدة الحمار
ولكني خشيت على أبي * رماح الحي أو اياك حار

والطواعين هي عند العرب رماح الجن وفي الحديث أن الطاعون وخز من الشيطان
وقال أبو سلمى

لابد للسودد من ارماح * ومن سفيه دائم النباح
ومن عديد يتقي بالراح

وقال الاعشى

مثل أيام لنا نعرفها * هر كلب الناس فيها ونبح
رزن الأحلام في مجالسهم * كلما كلب من الناس نبح

وقال

سينبح كلبي جاهدا من ورائكم * وأغني غنائي عنكم أن أؤنبا

وقال أبو ذؤيب

ولاهرها كلبي ليبعد نفرها * ولو نبحتني بالشكاة كلابها

كلابها شعراؤها وهو قول بشر بن أبي خازم

واني والشكاة لآل لام * كذات الضغن تمشي في الرفاق

وقال أبو زبيد

ألم ترني سكنت لأيا كلابهم * وكففت عنكم أكلبي وهي عقر

قال صاحب الكلاب قد علمنا انكم تتبعتم على الكلاب كل شيء هجي به وجعلتم ذلك دليلا على سقوط قدره وعلى لؤم طبعه وقد رأينا الشعراء قد هجوا الاصناف كلها فلم يفلت منهم انسان ولا سبع ولا بهيمة ولا طائر ولا همج ولا حشرة ولا رفيع من الناس ولا وضيع الا أن يسلم بعض ذلك عليهم بالخمول فكفاك بالخمول دقة ولؤماً وقلة ونذالة وقال أمية بن أبي عائذ لإياس بن سهم

فأبلغ إياسا ان عرض ابن أختكم * رداؤك فاصبر خشية أو تبدل
فان تك ذاطول فاني ابن أختكم * وكل ابن أخت من ندى الخال مقتل
فكن أسدا أو ثعلبا أو شبيهه * فمهما تكن أنسب اليك وأشكل
فما ثعلب الا ابن أخت ثعالة * وان ابن أخت الليث ريبال أشبل
ولن تجد الآساد أخوال ثعلب * اذا كانت الهيجا تلوذ بمدخل

فهذا من الثعلب وقال مزرد بن ضرار

وان كناز اللحم من بكراتكم * تهر علينا أمكم وتكالب
وليت الذى التى فناءك رحله * لتقريه بالت عليه الثعالب

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذى كفاك به نذالة قال ابن هرمة

فما عادت بذى يمن رؤسا * ولا ضرت لفرقتها نزارا
كعنز السوء تنطح من فلاها * وترام من يحدلها الشفارا

وهذا قول الشاعر فى العنز وقال ابن أحمر

إنا وجدنا بنى سهم وجاملهم * كالعنز تعطف روقيها فترتضع

وقال الفرزدق

على حين لم أترك على الأرض حية * ولا نابحا الا استقر عقورها
وكان نقيع اذ هجاني لاهله * كباحثة عن مدية تستثيرها

فهذا قولهم فى العنز ولا نعلم في الأرض أقل شرا ولا اكثر خيرا من شاة وقال الخزيمي

ياللرجال لقوم قد ملتهم * أرى جوارهم احدي البليات

دئب رضيع وخنزير تعارضها * عقارب وجنت وجنا بحيات
ماظنكم بأناس خير كسبهم * مصرح السحت سموه الامانات

فهذا قولهم في العقارب والحيات والضباع والخنازير وقال حماد عجرد في بشار

قدكان في حين غزالة شاغل * للقرد عن شتمي وفي ثوبان
أوفي سميعة أختها وشرادها * لمجونها مع سفلة المجان
أوبيت ضيق عرسه وركوبها * شر البغاء بأوكس الأثمان

هذا قول حماد في القرد وقال حماد في بشار بن برد أيضا

ولكن معاذ الله لست بقاذف * بريئا لسواق لقوم نوائح
وما قلت في الأعمى لجهل وأمه * ولكن بأمر بين لي واضح
سأعرض صفحاً عن حصين لأمه * ولست عن القرد بن برد بصافح

وقال الآخر

لما أتيت ابني يزيد بن خثعم * أرى القرد والخنزير محتبيان
امام بيوت القوم من آل خثعم * وراء قبيحات الوجوه بطان

وقال العتابي

أسجد لقرد السوء في زمانه * وان تلقاك بخنزوانه
لا سيما مادام في سلطانه * وقال أبو الشمقمق
ان رياح اللؤم من شمه * لا يطمع الخنزير في سلحه
كفاه قفل ضل مفتاحه * قد يئس الحداد من فتحه

وقال خلف بن خليفة

فسبحان من رزقه واسع * يعم به القرد والقرده

وهذا كثير ولعمري لو جمع كله لكان مثل هجاء الناس للكلاب وكذلك لو جمع جميع ما مدح به الاسد فما دونه والامثال السائرة التي وقعت في حمد هذه الاشياء لما كانت كلها في مقدار مديح الكلاب فهذه حجتنا في مرتبة الكلاب على جميع السباع والبهائم

ولما قال معبد فى قتل الكاب وتلا قول الله عز وجل (واتل عليهم نبأ الذين آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكاب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص) قال أبو اسحاق وان كنت انما جعلت الكاب شر الخلق بهذه العلة فقد قال على نسق هذا الكلام (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل) فالذى قال فى الابل والبقر والغنم أعظم فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام وأدنى ذلك ان تشرك بين الجميع في الذم فانك متى انصفت في هذا الوجه دعاك ذلك الى أن تنصفها في تتبع مالها من الاشعار والامثال والاخبار والآيات كما تتبعت ما عليها وقال صاحب الكاب سنضرب مثلا بيننا يكون عدلا اذا استوى القبيلان فى تقادم الميلاد

ثم كان أحد الابوين كثير الدرء والفرسان والحكماء والاجواد والشعراء وكثير السادات فى العشائر وكثير الرؤساء والارجاء وكان الآخر قليل الذرء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير خملوا أو دخلوا فى غمار العرب وعرفوا في معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك وسلموا من أن يضرب بهم المثل في قلة ونذالة اذا لم يكن شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الاكفاء وكانوا كما قال حميد بن ثور

وقولا اذا جاوزتما أرض عامر * وجاوزتما الحيين نهدا وخثعما

نزيعان من جرم بن ربان انهم * أبوان يريقوا في الهزاهز محجما

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الدرء وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من ان يهجوا ويضرب بهم المثل ولعل أيضا ان تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وامثال تسير على السنة العلماء فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالا في العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولاسيما اذا جاوروا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم

كما لقيت غني أو باهلة ولوأن عبساً اقامت في بني عامر ضعف ما أقامت لذهب شطر شرفها ولكن قيس بن زهير لما رأى دلائل الشر قال لأصحابه الذل في بنى غطفان خير من العز فى بني عامر وقد يكون القوم حلولا مع بني أعمامهم فاذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم وان تركوا شيئا من انصافهم اشتد ذلك عليهم وتعاظمهم بأكثر من قدره فدعاهم ذلك الى الخروج منهم الى أعدائهم فاذا صاروا الى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم فوق الذى كانوا فيه من بني اعمامهم حتي يدعوهم ذلك الى الندم على مفارقتهم فلا يستطيعون الرجوع حمية واتقاء ومخافة أن يعودوا لهم الى شيء مما كانوا عليه ولا المقام فى حلفائهم الذين يرون من احتقارهم ومن شدة الصولة عليهم وقد خرج الاضبط بن قريع السعدى من بني سعد فجاور ناساً فلما رأى مذهبهم وظلمهم وتهكمهم قال بكل واد بنو سعد فارسلها مثلا وقد كان عباس بن ريطة الرّعلى سيد بنى سليم وقد ناله ضيم في بعض الامر فابي الضيم فلما حاول منا فرتهم بني غنم أعز منه فقال في كلمة له

وأمكم تزجى التوام لبعلها * وأم أخيكم كزة الرحم عاقر

وزعم ان أبا عمرو أنشده هذا الشعر وخبر عن هذه القصة فى يوم من أيامه فدمعت عينه فخلف شبيل بن عروة بالطلاق انه لعربى فى الحقيقة لغية أو لرشدة فمن القبائل المتقادمة الميلاد التي فى شطرها خير كثير وفى الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ومثل فزارة ومرة وثعلبة ومثل عبس وعبد الله بن غطفان ثم يحيي وباهلة واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر في عبس وذبيان والمبتلى والملقي والمحروم والمظلوم ومثل باهلة وغنى مما لقيت من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الاقدام ينكب فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش وربما ذكروا اليعسوب والطفاوة ومارية البقعا وأشجع الخنثى ببعض الذكر وذلك مشهور فى خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورهم وجلّ معظم البلالم يقع بغني وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وا كثر فضولا ومناقب حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالا ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر وصار مثلهم كما قال الشاعر

اضرب بذي طلحة الطلحات مبتدئاً * ببخل اشعث واستثبت وكن حكما
تخرج خزاعة من لؤم ومن كرم * ولا تعرك لها لؤما ولا كرما

وقد ظرف في شعره فظلم خزاعة ظلما عبقريا وقال في مثل ذلك الشعر الرقيان الاسدى

بحسبك فى القوم أن يعلموا * بانك فيهم غني مضر
وأنت مليخ كلحم الحوار * فلا أنت حلو ولا أنت مر

وكما قال الشاعر في علباء بن حبيب حيث يقول

أرى العلباء كالعلباء * لا حلو ولا مر
شييخ من بني الجارو * د لا خير ولا شر

فهذا ونحوه من أشد الهجاء والخمول اسم لجميع أصناف النقص كلها أو عامتها ولكنه كالسرو عند العلماء وليس ينفعك العامة إذا ضرتك الخاصة ومن هذا الضرب تيم بن مر وثور وعكل وتيم ومزينة ففى عكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس فى ثور وقد سلم ثور الامن الشى اليسير مما لا يرويه الا العلماء ثم حلت البلية وركد الشر والتحف الهجاء على عكل وتيم وقد شعثوا بين مزينة شيئاً ولكنهم حبهم الى المسلمين قاطبة ماتهيأ لهم من الاسلام حين قل حظ تيم فيه وقد نالوا من ضبة مع مافى ضبة من الخصال الشريفة لان الاب متى نصر ولده في العدد على ولد أخيه فقدر كبهم الآخرون بكل عظيمة حتى يروا تسليم المرباع اليهم حظاً والسير تحت اللواء والحمل على أموالهم فى النوائب وحتي ربما كانوا كالعضاريط والعسفاء والاتباع وفي الاتباع والدخلاء ثم لا يجدون من ذلك بدا كانهم متي امتنعوا خذلوهم فاستباحوهم فرأوا ان النعمة أربح لهم وقد أعان غيلان على الأحنف بكلمة فقال الاحنف عبيد في الجاهلية اتباع في الاسلام فان هربوا تفرقوا فصاروا أشلاء فى البلاد فصار حكمهم حكم من درج وحكم ابيهم كحكم من لم يعقب وان هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤسهم من الذل والغرم والخلف ضربان فأحدهما كانضمام عبس وضبة واسد وغطفان فان هؤلاء أقوياء لم ينهكوا كما نهكت باهلة وغني لحاجة القوم اليهم ولخشونة مسهم ان تذكروا على حال فقد

لقيت ضبة من سعد وعبس من عامر وأسد من عيينة بن حصن مما لقوا وقد رأيت مشقة ذلك على النابغة وكيف كره خروج أسد من بني ذبيان وعيينة بن حصن وان كان أسود من النابغة وأشرف فان النابغة كان أحزم وأعقل وقد سلمت ثور وابتليت عكل وتيم ولولا الربيع بن خيثم وسفيان الثوري لما علمت العامة أن في العرب قبيلة يقال لها ثور ولشريف واحد ممن قتلت تيم أكثر من ثور وما ولد وكذلك بالعنبر قد ابتليت وظلمت وبخست مع مافيهامن الفرسان والشعراء ومن الزهاد ومن الفقهاء ومن القضاة والولاة ومن نوادر الرجال اسلاميين وجاهليين وقد سلمت كعب بن عمرو فانه لم ينلها من الهجاء الا الخمس والنتف ورب قوم قد رضوا بخمولهم مع السلامة على العامة فلا يشعرون حتي يصب الله تعالى على قمم رؤوسهم حجارة القذف بابيات يسيرها شاعر وسوط عذاب يسير به الراكب والمثل كما قال الشاعر

ان منا فقحـة لدارم * كما الظليم فقحة البراجم

وقال الشاعر

وجدنا الحمر من شر المطايا * كما الحبطات شر بني تمـيم

فما الميسم فى جلد البعير باعلق من بعض الشعر واذا كان بيت واحد يربطه الشاعر فى قوم لهم النباهة والعدد والفعال مثل نمير يصير أهله الى ماصارت اليه نمير وغير نمير فما ظنك بالظليم وبعناف وبالحبطات وقد بلغ مضرة جرير عليهم حيث قال

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعباً بلغت ولا كلابا

الى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قوماء آخرين

وسوف يزيدكم ضعة هجاءى * كما وضـع الهجاء بني نمـير

وحتى قال أبو الرديني

أتوعـدني لتقتلني نمـير * متى قتلت نمير من هجاها

ولا أمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء وهذا من أول كرمها كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى علقمة بن علاثة وكما بكي عبد الله بن جدعان من بيت لخراش

ابن زهير وما زال يهجوه من غير أن يكون كان رآه ورأى جماله وبهاءه ونبله الذى يقع فى النفوس من تفضيله ومحبته من اجلاله والرقة عليه أمسك ألا ترى أن النبيت وغسان بن مالك بن عمرو بن نمير ليس يعرفهم بالعجز والقلة الا دغفل من حنظلة والا النخار العذري والا الكيس التميرى والاصحار العبدى والا ابن شرية وابن أبى السطاح وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقتباس من مواريثهم وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربى تميمى فهو يعطي حق القوم فى الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصة والحرمان اسوا حالا في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم اعد واجلد وبلية اخرى ان يكون القبيل متقادم الميلاد قليل الذلة قليل السيادة وتهيأ ان يصير في ولد اخوتهم الشرف الكامل والعدد التام فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكل من رآهم أو سمع بهم أضعاف الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف اخوتهم ومن شؤم الاخوة أن شرفهم ضعة اخوتهم ومن يمن الأولاد أن شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم كعبد الله بن دارم وجرير بن دارم فلو أن الفقيم لم يناسب عبد الله بن دارم وكان جاراً كان خيراً له ولقد ضعضعت قريش لما جاءت به من الخصال الشريفة التامة من أركان كنانة سنام الارض وجبلها وعينها التى تبصر بها وأنفها التي بها تعطس فما ظنك بمن أبصر بني زيد بن عبد الله بن دارم وبني نهشل بن دارم وبني مجاشع بن دارم ثم رأى بني فقيم بن جرير بن دارم وكذلك كل أخوين اذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال فى الجود والافضال أو في الفروسة أو فى البيان فان كان الآخر وسطاً من الرجال قصدوا بحسن مآثره فى الطبقة السفلى لتبين البراعة فى أخيه فصارت قرابته التى كانت مفخرة هي التى بلغت به أسفل السافلين وكذلك عنزة بن اسد في ربيعة ولو كان سودد ربيعة مرة في عنزة ومرة فى ضبيعة أضجم لكان خيراً لهم اليوم ولود كثير من هؤلاء القبائل التى سلمت على الشعراء أو على العوام أن يكون فيهم شطر ما للعنزيين من الشرف ولو أن الناس وازنوا بين خصال القبائل خيرها وشرها لكانوا سعداء وقال صاحب

الكلب ذكرت عيوب الكلب فقلت الكلب اذا كان فى الدار محق أجور أهل الدار حتى يأتى على اقصاها الا ان الاجور اذا أخذ منها كل يوم وزن قيراط والقيراط مثل أحد لم يلبث على ذلك ان يأتى على آخرها وقلت فى الكلب أشد الاذى على الجار والضيف والدخيل يمنعه النوم ليلا والقائلة نهاراً وان يسمع الحديث ثم الذى على سامع النباح من المؤنة من الصوت الشديد ولو لم يكن في الكلب مايؤذي بشدة صوته الا بادامة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك مما يؤذى بشدة صوته الا بادامة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك مما ينغص العيش ويمنع من الكلام والحديث وقال ارطاة ابن سهية في بعض افتخاره

وانى لقوام الى الضعيف موهنا * اذا أغدق الستر البخيل المواكل
دعا فاجابته كلاب كثيرة * على ثقة مني بما أنا فاعل
ومادون ضيفي من تلاد تحوزه * يد الضيف الا أن تصان الحلائل

وقال ابن هرمة

ومستنبح نبهت كلبي لصوته * وقلت له قم في اليفاع فجاوب
فجاء خفى الصوت قدمسه الضوى * بضربة مسنون الغرارين قاضب
فرحبت واستبشرت حتى بسطه * وتلك التى ألقى بها كل آئب

وقال آخر

هجمنا عليه وهو يكعم كلبه * دع الكلب ينبح انما الكلب نابح

وقال مزرد بن ضرار

نشأت غلاما أتقى الذم بالقري * اذا ضاف ضيف من فزارة راغب
فان آب سار اسمع الكلب صوته * أتي دون نبح الكلب والكلب دائب

وقال بشار بن برد

سقي الله القباب بتل عبدى * وبالشرقين أثار القباب
وأياما لنا قصرت وطالت * على فرعان نائمة الكلاب

وقال رجل من بني عبد الله بن غطفان

اذا أنت لم تستبق ود صحابة * على دخن أكثرت بث المعاتب
واني لاستبقي أمرء السوء عدة * لعدوة عريض من الناس جانب
أخاف كلاب الابعدين ونبحها * اذا لم تجاوبها كلاب الاقارب

وقال أحيحة بن الجلاح

ما أحسن الجيد من مليكة * واللبات اذ زانها ترائبها
ياليتني ليلة اذا هجع النا * س ونام الكلاب صاحبها

وقلت وفي الكلب قذرة فى نفسه واقذاره أهله لكثرة سلاحه وبوله على انه لا يرضى بالسلاح على السطوح حتي يحفر ببراثنه وينقب باظافره وفي ذلك التخريب ولو لم يكن الا انه يكون سبب الوكف وفي الوكف من منع النوم ومن افساد حر المتاع مالا يخفى مكانه مع مافيه من عض الصبيان وتفزيع الولدان وشق الثياب والتعرض للزوار ومع مافي خلقه أيضا من الطبع المستدعي للصبيان الى ضربه ورجمه وتهييجه بالعبث ويكون سببا لعقرهم والوثوب عليهم وقلت وبئس الشيء هو في الدار وفيها الحرم والازواج والسرارى والحظيات المعشوقات وذلك ان ذكره أبر ظاهر الحجم وهو أما مقبع وأما قائم وليس معه مايواريه وربما انشط وانعظ بحضرتهن ولعلهن يكن مغيبات أو محتاجات الى مايحتاج اليه النساء عند غيبة خلهن واذا عجز عن أن يممهن وقد رمي ضابئ بن الحرث البرجمى أم أناس من العرب ان الكلب الذي كان يسمى قرحان كان يأتى أمهم حتى استعدوا عليه وحبسه فى ذلك عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه ولولا ان المعنى الذي رماهم به كان مما يكون ويجوز ويخاف مثله لما بلغ منه عثمان مابلغ حتى مات فى حبسه[1] وفى ذلك يقول ضابئ بن الحارث

تجشم نحوى وفد قرحان شقة * تظل بها الوجناء وهى حسير

(١) قوله حتى مات في حبسه اتفق أهل الاخبار أن ضابئاً كسر ضلع عثمان رضي الله عنه يوم الدار وأن الحجاج قتل ضابئاً لما ولى العراق

فزودتهم كلبا فراحوا كأنما * حباهم بتاج المرزبان أمير
فأمكم لا تتركوها وكلبكم * فان عقوق الوالدات كبير
اذا عاينت من آخر الليل دخنة * يبيت له فوق السرير هرير

وزعم اليقطرى انه أبصر رجلا يكوم كلبة من كلاب الرعاء ومر بذلك الزب العظيم في ثفرها والثفر منها ومن السبع كالحر من المرأة والظبية من الاتان والحجر والحياء من الناقة والشاة فزعم انها لم تعقد عليه ولا ندرى أمكنته أم اغتصبها نفسها وأما الناس ففى ملح أحاديثهم ان رجلا أشرف على رجل وقد ناك كلبة فعقدت عليه فبقي أسيرا مستخذيا يدور معها حيث دارت قال فصاح به الرجل اضرب جنبيها فاطلقته فرفع رأسه اليه فقال أخزاه الله أي نياك كلبات هو وخبرني من لا أرد خبره انه أشرف من سطح له قصير الحائط فاذا هو بسواد في ظل القمر في أصل حائط واذا انين كلبة فرأى رأس انسان يدخل فى القمر ثم يرجع الى موضعه من ظلمة القمر فتأمل انسان في ذلك فاذا هو بحارس ينيك كلبة قال فزحمته واعلمته انى قد رأيته فصبحني من الغد يقرع الباب عليّ فقلت له ماحاجتك وماجاء بك فلقد ظننت انك ستركب البحر أوتمضى على وجهك الى البرارى قال جعلت فداك أسألك ان تستر عليّ ستر الله عليك وأنا أتوب على يديك قال قلت ويلك فما أشتهيت من كلبة قال جعلت فداك كل رجل حارس ليس له زوجة ولا نجل فهو ينيك إناثا الكلاب اذا كن عظام الأجسام قال فقلت فما يخاف ان تعضه قال لورام ذلك منها غير الحارس التي هي له وقد باتت معه فأدخلها فى كسائه فى ليالى البرد والمطر لما تركته وعلى انه ان أراد يوعبه كله لم تستقر له قال ونسيت ان أسأله فهل تعقد على أيور الناس كما تعقد على أيور الكلاب فلقيته بعد ثلاثين سنة فقال لا أدرى لعلها لا تعقد عليه لانه لا يدخله فيها الى أصله ولعل ذلك أيضا انما هو شيء يحدث بين الكلب والكلبة فاذا اختلفا لم يقع الالتحام قال فقلت فطيب هو قال قد نكت عامة أناث الحيوانات فوجدتهن كلهن أطيب من النساء قلت وكيف ذلك قال ماذاك الا لشدة الحرارة قال فطال الحديث حتي أنس فقلت له فاذا دار الماء في صلبك وقرب الفراغ قال فربما التزمت

الكلبة وأهويت الى تقبيلها ثم قال أما ان الكلاب أطيب شيء أفواها وأعذب شيء ريقا ولكن لا يمكن ان أنيكها من قدام ولو ذهبت أن أنيكها من خلف وثنيت رأسها الى ان أقبلها لم آمن ان تظن بي اني أريد غير ذلك فتكدم فمي ووجهي قال فقلت فاني أسألك بالذى يستر عليك هل نزعت عن هذا العمل منذ أعطيتني صفقة يدك بالتوبة قال ربما حننت الى ذلك فاحتبس بعهدك قال وقلت وانك لتحن اليها قال والله اني لأحن اليها ولقد تزوجت بعدك امرأتين ولى منهما رجال ونساء ومن تعود شيئا لم يكد يصبر عنه قال فقلت له هل تعرف اليوم في الحراس من ينيك الكلبات قال نعم خذ محمويه الأحمر وخذ يشجب الحارس وخذ قفا الشاة وخذ فارسا الحمامي فان فارسا كان حارسا وكان قيم حمام وكان حلقيا فزعم انه ناك الكلاب خمسين سنة وشاخ وهزل وقبح وتشنج حتى كان لا ينيكه أحد قال فلم يزل يحتال لكلب عنده حتى ناكه قال وكان معه بخير حتى قتله اللصوص ثم أشرف على فاس هذا المحتسب الاحدب وهو ينيك كلبة فرماه بحجر فدمغه قال فالكلاب كما ترى تتهم بالنساء وينيكها الرجال وتنيك الرجال وليس شيء أحق بالنفي والاغراب والاطراد وبالقتل منها ونحن من السباع العادية الوحشية في راحة الا فى الفرق فان لها عراما على بعض الماشية وجناية على شرار العامة وكذلك البهائم وما عسى أن يبلغ من وطيء بعير ونطح كبش أو خمش سنور أو رمح حمار ولعل ذلك يكون في الدهر المرة والمرتين ولعل ذلك أيضاً لا ينال الا عبدا أو خادماً أو سائسا وذلك محتمل فالكلاب مع هذه الآفات شركاء الناس في دورهم وأهاليهم قال صاحب الكلب ان كنتم الى الاذى بالسلاح تذهبون والي قسر طين السطوح بالبرائن تميلون والى نتن السلاح وقذر المأكول والمشروب تقصدون فالسنور أكثر في ذلك وقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك انه قال هن من الطوافات عليكم فاذا كان ذلك في السنانير مغتفراً لانتفاعهم بها في أكل الفأر فمنافع الكلاب أكثر وهى بالاعتقاد أحق وفي اطلاق ذلك في السنور دليل على أنه في الكلاب أجوز وأما ما ذكرتم من انعاظه فلعمري انه ماينبغى للغيور أن يقيم الفرس ولا البرذون والبغل

والحمار والتيس في المواضع التى تراها النساء والكلاب فى ذلك أحسن حالا وقد كره ناس ادخال منازلهم الحمام والديكة والدجاج والبط خاصة لان له عند السفاد قضيباً يظهر وكذلك التيس من الظباء فضلا عن تيوس الصفايا فهذا المعنى الذي ذكرتم يجرى فى وجوه كثيرة وعلى أن الحمام خاصة من الاستشارة والكسح بالذنب والتقبيل الذى ليس الناس مثله ثم التقبيل والتغزل والتنفس والابتهاج بما يكون منه بعد الفراغ وركوب الانثي للذكر وامكانها لغير ذكرها مايكون أهيج للنساء ماذكرتم فلم أفردتم الكلاب بالذكر دون هذه الامور التى اذا عاينت المرأة غرمول واحد منها حقرت بعلها أوسيدها ولم يزل ظل ذلك الغرمول يعارضها فى النوم وينبهها ساعة الغفلة ويحدث لها التمني لما لاتقدر عليه والاحتقار لما تقدر عليه وتركتم ذكر ماهو أجل وأعظم الى ماهو أخس وأصغر فان كنتم تذهبون فى التشنيع عليه الى مايعقرن الصبيان عند العبث والتعرض والتحكك والتهييج والتحريش فلو أن الذي يأتي صبيانكم الى الكلاب من الالحاح بأصناف العبث والصبيان أقسى الخلق وأقلهم رحمة أنزلوه بالاحنف بن قيس وقيس بن عاصم بل بحاجب بن زرارة وحصن بن حذيفة يخرجوا الى أقبح مما يخرج اليه الكلاب ومن ترك منهم الاخذ فوق يد ابنه فهو أحق باللائمة وبعد فما وجدنا كلباً وثب على صبي فعقره من تلقاء نفسه وانه ليتردد عليه وهو في المهد وهو لحم على وضم فلا يشمه ولا يدنو منه وهو أكثر خلق الله تعالى تشمما واستروا حا وما في الارض كلب يلقى كلبا غريبا إلا شم كل واحد منهما أست صاحبه ولا فى الارض مجوسى يموت فيحزن على موته ويحمل الى الناووس إلا بعد أن يدني منه كلب يشمه فانه لا يخفى عليه فى شمه عندهم أحى هو أم ميت للطافة حسه وانه لا يأكل الاحيا فأما اليهود فانهم يتعرفون ذلك من الميت بأن يدهنوا أسته ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناسا بدين اليهودية

اذا مات منهم ميت مسحوا أسته * بدهن وحفوا حوله بقرام

وقالوا فاذا ذكرتم جنايات الكلاب فواحد من جنايات الديكة اعظم من جنايات

الـكلاب لأن عبد الله بن عثمان بن عفان ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم انما مات من نقر ديك في دار عثمان نقر عينه فـكان سبب موته فقتل الديك لعترة رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظم من كثير مما تستعظمونه من جنايات الـكلاب وقد نقر ديك عين ابن حسكة بن عباد أو عين ابن أخته وقـد نقر ديك عين ابن الريان بن أبي المسيح وهو فى المهد فاعورَّ ثم ضربته الحمرة فمات ووثب ديك فطعن بصيصته في عين بنت لثمامة ابن أشرس قال ثمامة فأتاني الصريخ فوالله ماوصلت اليها حتى كمد وجهها كله واسود الانف والوجنتان وغارت العينان وكان شأن هذا الديك فيما زعم ثمامة عجبا من العجب ذكر أن رجلا ذكر أن ديكا عنـد بقال لهم يقاتل به الـكلاب قال فأتيت البقال الذى عنـده فسألته عن الديك فزعم أنه قد وجه به الى قتال الـكلاب وقد تراهنوا فى ذلك فلم أبرح حتي اشتريته وكنت أصونه وجعلته في مكنة فخرجت يوماً لبعض مصلحة وأقبلت بنتي هذه لتنظر اليه فـكان هـذا جزاءى منه قال وديك آخر أقبل الى رأس زيد بن عمر حتي وطئ في ذؤابته ثم أقبل ينقر دماغه وعينيه فقال رجل من قريش لمن حضر ذلك من الخدم أطردوا الديك عن ذؤابة زيد طال ما كان لا تطؤها الدجاج والـكلب ان كان كما يقول فان له يدا تسبح وأخرى تأسوا بل مايدفع الله بحراسته وتجاب من المنافع بعبده أكثر وأغمر وهو الغامر لا المغمور والفاضـل لا المفضول والديك يفقأ العيون وينقر الأدمغة ويقتل الانفس ويشج ولا يأسوا فشره صرف وخيره ممزوج الا أن يزعموا أنه يحرس من الشطان فيكون هذا من القول الذي يحتاج الى البرهان وعارض منافع الكلاب وحراستها أموال الناس من اللصوص ومنع السباع من الماشية وموضع نفع الـكلب في المزارع وذلك عيان ونفعه عام وخطبه عظيم بما يدعى من حراسة الديكة للشيطان لم يكايل ولم يوازن ولم يعرف المقايسة ولا وقف قط على معنى المقاتلة ودل بذلك على أن مبلغ رأيه لا يجوز رأى النساء ويكون العواء للـكلب والذئب والفصيل وقال النابغة (١)

(١) قوله قال النابغة صوابه الحطيئة

ألم أك جاركم فتركتموني * لـكلبي في دياركم عواء

وقال الشاعر

واني امرؤ لا تقشعر ذؤابتي * من الذئب يعوي والغراب المحجل

وقال الشاعر

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه * ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
عوي في سواد الليل بعد اعتسافه * لينبح كلب او ليفزع نوم
فجاوبه مستسمع الصوت للقري * له مع إتيان المهبين مطعم
يكاد اذا ما أبصر الضيف مقبلا * يكلمه من حبه وهو أعجم

وقال ذو الرومة

به الذئب محزونا كان عواءه * عواء فصيل آخر الليل محثل

وقال آخر

ومنهل طامسة اعلامه * يعوى به الذئب وتزقو هامه

وقال عقيل بن علفة يهجو (زبان) بن منظور

لا بارك الله في قوم يسودهم * ذئب عوى وهو مشدود على كور
لم يبق من مازن الا شرارهم * فوق الحصا حول زبان بن منظور

وقال غيلان بن سلمة

ومعرس حين العشاء به * الحبس فالانواء فالعقل
قد بته وهنا وارّقني * ذئب الفلاة كانه جذل
فتركته يعوى بقفرته * ولكل صاحب قفرة شكل
بتنوفة جرداء يجزعها * لجب يلوح كانه سحل

وقال مغلس بن لقيط

عوى منهم ذئب فطرّب عاديا * على فعليات مستشار سخيمها
اذا هن لم يلحسن من ذى قرابة * دماها لست أجسادها ولحومها

وقال الأحمر السعدى

عوي الذئب فاستأنست بالذئب اذعوى * وصوت انسان فكدت أطير

وقال آخر

وعاوعوي والليل مستجلس الندى * وقد زحفت للفور تالية النجم

وذلك أن الرجل اذا كان باغيا أوزائرا أوممن يلتمس القرى ولم ير بالليل نارا عوى ونبح لتجيبه الكلاب فيهتدى بذلك الى موضع الناس وقال الشاعر

ومستنبح أهل الثري يلمس القري * الينا وممساه من الارض نازح

وقال عمرو بن الاهتم

ومستنبح بعد الهدو دعوته * وقدحان من سارى الشتاء طروق

فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب وقال صاحب الكلب ومما قالوا في أنس الكلب وإلفه وحبه لأهله ولمن أحسن اليه وقال ابن الطثرية

يا أم عمرو أنجزي الموعودا * وارعي بذاك أمانة وعهودا

ولقد طرقت كلاب أهلك بالضحي * حتي تركت عقورهن رقودا

يضربن بالاذناب من فرح بنا * متوسدات أذرعا وخدودا

وقال الآخر

لو كنت أحمل خمرا يوم زرتكم * لم ينكر الكلب انى صاحب الدار

لكن أتيت وريح المسك يفعمني * والعنبر الورد أذكيه على النار

فانكر الكلب ريحى حين أبصرنى * وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال أبو الطمحان القيني فى الألف وهو يمدح مالك بن حمار الشمخى

سأمدح مالكا في كل ركب * لقيتهم واترك كل رذل

فما أنا والبكارة من مخاض * عظام جلة سدس وبزل

وقد عرفت كلابهم ثيابي * كأنى منهم ونسيت أهلى

نمت بك من بني شمخ زياد * لها ماشئت من فرع وأصل

وقال الشاعر في أنس الكلاب وألفها يذكر رجلا

عنيف بتسواق العشار ورعيها * ولكن بتلقام الثريد رفيق
سنيد يظل الكلب يمضغ ثوبه * له في ديار الغانيات طريق

وقال الآخر

بات الحويرث والكلاب تشمه * وسرت بأبيض كالهلال على الطوى

وقال ذو الرمة

رأيت كلاب الحي حتى ألفنني * ومدت نسوج العنكبوت على رحل

وقال حسان بن ثابت

أولاد جفنة حول قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه نقية حجراتهم * شم الانوف من الطراز الاول
يغشون حتي ماتهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المقبل

وفي هذا المعني قال الشاعر

وبوات بيتك في معلم * رحيب المباءة والمسرح
كفيت العفاة كلاب الضرام * وقبح الكلاب لمستنبح
ترى دعس آثار تلك المطى * أخاديد كاللقم الأفيح
ولو كنت في نفع زائغ * لكنت على الشرك الاوضح

وفي مثل ذلك وليس في ذكر الف الكلاب ولكنه مما ينبغي ان يكون مجموعا الى هذه الأشعار وبك الى ذلك حاجة شديدة قال أمية بن أبي الصلت

لا الغيابات منتواك ولكن * في ذرى مشرف القصور ذرا كا

وقال البزار الحلي في المعني الأول

الف الناس فيما ينبحهم * من أسيف يبتغي الخير وحر

وقال عمران بن عصام (١)

---

(١) وروي صاحب الاغاني هذه الابيات لنصيب

لعبد العزيز على قومه * وغيرهم منن غامره
فبابك ألين أبوابهم * ودارك آهلة عامره
وكلبك آنس بالمعتفين * من الأم بابنتها الزائره
وكفك حين ترى السائليـ * ـن أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومنا الثناء * بكل محبرة سائره

وقال هلال بن خثعم

انى لعف عن زيارة جارتى * واني لمشنوء الى اغتيابها
اذا غاب عنها بعلها لم اكن لها * زؤورا ولم تأنس الى كلابها
وما أنا بالدارى أحاديث سرها * ولا عالم من اي حول ثيابها
وان قراب البطن يكفيك ملؤه * ويكفيك سوآة الامور اجتنابها

وقال حاتم الطائى وهو حاتم بن عبد الله ويكني أبا سفانة وكان أسره ثور بن شحمة العنبرى مجير الطير

اذا مابخيل الناس هرت كلابه * وشق على الضيف الغريب عقورها
فاني جبان الكلب بيتي موطأٌ * جواد اذا ماالنفس شح ضميرها
ولكن كلابى قد أقرت وعودت * قليل على من يعتريها هريرها

وقال صاحب الكلب ان كثيرا من هجاء الكلب ليس يراد به الكلب وانما يراد به هجاء رجل فيجعل الكلب وصلة في الكلام ليبلغ مايريد من شتمه وهذا أيضا مما يرتفق الناس به من أسباب الكلاب ولذلك قال الشاعر

من دون سيبك لون ليل مظلم * وحفيف نافخة وكلب موسد
وأخوك محتمل عليك ضغينة * ومسيف قومك لائم لا يحمد
والضيف عندك مثل اسود سالخ * لا بل أحبهما اليك الاسود

فهذا قول الشاعر وقال الآخر

وما يك فيَّ من عيب فاني * جبانُ الكلب مهزول الفصيل

فهو لم يرد مدح الكلاب بالجبن وانما أراد نفسه حين قال وحفيف نافخة وكلب موسد)
فان كان الكلاب انما أسره أهله فانما اللؤم على من آسره وانما هذا الضرب كقوله

قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم * قالوا لأمهم بولي على النار

ومعلوم ان هذا لا يكون ولكن حقر أمرهم وصغرهم وقال ابن هرمة

واذا تنور طارق مستنبح * نبحت فدلته على كلاب

وقال ابن مهيه

جلبنا الخيل من شعبي تشكى * حوافرها الدوابر والنسورا
فلما ان طلعن بعين جعدى * وأهل الجوف ان قتلوا غرورا
ولم يك كلبهم ليفيق حتي * يهارش كلبهم كلبا عقورا

ومعلوم ان هذا لا يكون انما هو مثل وقال أعرابي

أخو ثقة قد يحسب المجد فرصة * الى أهله أوذمة لا تخفر
حبيب الى كلب الكريم نباحه * كريه الى الكوماء والكلب أبصر

وقال ابن هرمة

وفرحة من كلاب الحي يتبعها * شحم يزف به الداعي وترعيب

فهذا قول هؤلاء وقال الآخر

هجمنا عليه وهو يطعم كلبه * دع الكلب ينبح انما الكلب نابح

وقال الآخر

وتطعم كلب الحي من خشية القري * ونارك كالعذراء من دونها ستر

وقال أعشي بنى تغلب

اذا احتلَّت معاوية بن عمرو * على الاطواء خنقت الكلابا

فالكلب مرة مطعوم ومرة مخنوق ومرة موسد ومحرش ومرة يجعله جبانا ومرة
وثابا كما قال الراعي فى الحطيئة

ألا قبح الله الحطيئة انه * على كل ضيف ضافه فهو سالح

وقعنا اليه وهو يخنق كلبه * دع الكلب ينبح انما الكلب نابح

وقال اعشي بني تغلب

بكيت على زاد خبيث قريته * الا كل عبسي على الزاد نابح

وقال الفرزدق

ولا تنزع الاضياف الا إلى فتى * اذا ما أبي ان ينبح الكلب أوقدا

وقال الآخر

دع الكلب ينبح انما الكلب نابح

وقال الآخر

الا كل كلب لا أبالك نابح

وقال الفرزدق

اذا ما أبي ان ينبح الكلب أوقدا

ومتى صار الكلب يأبى النباح فهذا يدل على أنهم يتشفون بذكر الكلب ويرتفقون به لا على ان هذا الامر الذى ذكروه قد كان على الحقيقة وقال الآخر وهو جرير

ولو كنت في نجران أو بعماية * اذن لأتاني من ربيعة راكب

يثير الكلاب آخر الليل وطؤه * كضب العرار خطوه متقارب

فبات يمنينا الربيع وصوبه * وينظر من لقاعة وهو كاذب

فذكر تقارب خطوه واخفاء حركته وانه مع ذلك قد آثر الكلاب من آخر الليل وذلك وقت نومها وراحتها وهذا يدل على تيقظها ودقة حسها وفيما ذكروا من حالة الكلب لسبب القرى من البرد والذى يلقي وكيف الشأن في ذلك قال أعشى باهلة

وأجحر الكلب مبيض الصقيع به * والجأ الحيّ من تنفاحه الحجر

وقال الحطيئة

اذا أجحر الكلب الصقيع اتقينه * بأثباج لا خورٍ ولا قفرات

وقال ابن هرمة

أصل الجار المعصب والاضـ * ـياف وهناً اذا تحبوا الديا
كيف يلقونني اذا نبح الكلـ * ـب وراء الكسور نبحا خفيا
ومشي الحالب المبس الى البا * ب فلم يقر أصفر الحى ريا
لم تكن خارجية من تراث * حادث بل ورثت ذاك عليا

وقال الاعشي

وتبرد برد رداء العرو * س في الصيف رقرقت فيها البعيرا
وتسخن ليلة لا يستطيـ * ـع نباحا بها الكلب الا هريرا

وقال الهذلي

وليلة يصطلي بالفرث جازرها * يختص بالنقرى المثرين داعيها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * من الشتاء ولا تسرى أفاعيها

وقال الفرزدق

اذا احمرّ آفاق السماء وهتكت * كسور بيوت الحي نكباء حرجف
وجاء قريع الشول قبل افالها * يزف وجاءت قبله وهي زحف
وهتكت الاطناب كل دفرة * لها تامك من عاتق النيّ أعرف
وباشر راعيها الصلى بلبانه * وكف لحر النار ما يتحرف
وقاتل كلب الحي عن نار أهله * ليربض منها والصلا متكشف
وأصبح مبيض الصقيع كأنه * على سروات النيب قطن مندف

﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ﴾
(أوله باب احتجاج صاحب الكلب بالاشعار المعروفة)

فهرست

﴿ الجزء الثانى من كتاب الحيوان ﴾

صحيفه

﴿ تم الفهرست ﴾

الجزء الثاني من كتاب

الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

البصري المتوفي سنة ٢٥٥ هجريه

وهذا الكتاب هو

« البارع فى الأدب والجامع فى حكم العرب »



الحاج محمد افندى ساسى المغربى التونسى

سنة ١٣٢٣هـ و١٩٠٥م

دار التقدم بشارع محمد على بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

باب

(احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة والأمثال السائرة والأخبار الصحيحة)
(والأحاديث المأثورة وما أوجد العيان فيها وما استخرجت التجارب منها من)
(أصناف المنافع والمرافق وعن مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة)

(ونبدأ بقول العرب) إن دماء الملوك شفاء من داء الكلَب ثم نذكر الأبواب لما قدمنا في صدر كلامنا هذا قال بعض المزنيين

أرى الخلان بعد أبي عمير * بحجر في لقائهمو جفاء
من البيض الوجوه بني سنان * لو أنك تستضيء بهم أضاءوا
لهم شمس النهار إذا استقلت * ونورٌ ما يغيبه العماء
بُناة مكارم وأساة حلم * دماؤهمو من الكلَب الشفاء

وقال الفرزدق

من الدارميين الذين دماؤهم * شفاء من الداء المجنة والخبل

وقال عبد الله بن قيس الرقيات

عاودنى النكس فاشتفيت كما * تشفى دماء الملوك من كلَب

وقال ابن عباس الكندى لبني أسد فى قتلهم حجر بن عمرو

عبيد العصا جئتم بقتل رئيسكم * تريقون تامورًا شفاء من الكلَب

وقال الفرزدق

ولو تشرب الكلبي المراض دماءنا * شفتها وذو الخبل الذي هو أدلف

وذلك أنهم يزعمون أن دماء الأشراف والملوك تشفى من عضة الكلب الكلِب وتشفي من الجنون أيضاً كما قال الفرزدق : ولو تشرب الكلبى المراض دماءنا شفتها . ثم قال وذو الخبل الذي هو أدلف . وقد قال ذلك عاصم بن القرية وهو جاهلي

وداويته مما به من مجنة * دم ابن كهال والنطاسيّ واقف

وقلدته دهراً تميمة جده * وليس لشيء كاده الله صارف

وكان أصحابنا يزعمون أن قولهم دماء الملوك شفاء من الكلب على معنى أن الدم الكريم هو الثار المنيم وأن داء الكلاب على معنى قول الشاعر

كلِب من حس ما قد مسه * وأفانين فؤاد مختبل

وعلى معني قولهم : كلِب يضرب جماجم ورقاب . فإذا كلِب من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلَب وليس أن هناك دما فى الحقيقة يشرب ولولا قول عاصم بن القرية (والنطاسي واقف) لكان ذلك التأويل جائزاً . وقول عوف بن الاحوص

ولا العنقاء ثعلبة ابن عمرو * دماء القوم للكلبى شفاء

وفي الكلب يقول الاعشى

أرانى وعمرا بيننا رِق منسم * فلم يبق إلا أن يجن وأ كلب

ألا ترى أنه فرّق بينهما ولو كان كما قال لبيد بن ربيعة

يسعى خزيمة فى قوم ليهلكهم * على الجهالة هل[1] بالمرء من كلب

لكان ذلك على تأويل ما ذهبوا إليه جائزاً وقال الآخر

وأمر أميرى قد أطعتم فإنما * كواه بنار بين عينيه مكلب

---

(١) وفي نسخه أخرى « الجمالة كل »

وهذا عندي لايدخل في الباب الاول وقد جعلوه منه ٠

قال صاحب الكلب : وزعمتم أنه يبلغ من فضل قوة طباع الديك فى الإلقاح أنه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضاً صغاراً من نتاج الريح والتراب قلبها كلها حيوانًا ولولم يكن سفدها إلا مرة واحدة وجعلتموه في ذلك بغاية الفحلة فطباع الكلب أعجب إلقاحا وأثقب وأقوى وأبعد لان الكلب إذا عض إنسانًا فأول ذلك أن يحيله نبّاحا مثله وينقله الي طباعه فصار ينبح ثم يحبله ويلقحه باجراء صغار يبولها علقًا فى صُوَر الكلاب على بعد مابين العنصرين والطبعين والجنسين والذى يتولد فى أرحام الدجاج أقرب مشاكلة [1] إلى طباع الديك ٠ والكلب وهو العجب العجيب لأنه أحبل ذكرا من خلاف جنسه ولأنه مع الإحبال والإلقاح أحاله نبّاحا مثله فتلك الأدراص وتلك الكلاب الصغار أولاد ونتاج وإن كان لا يبقى ٠ وقد تعلمون أن أولاد البغلات من البغال لاتبقى ٠ وأن اللقاح قد يقع وإنما منع البغل من البغلة بهذه العلة ٠ قال أبو اليقظان وغيره : كان الأسود بن أوس بن الحمرة أتى النجاشي ومعه امرأته وهي بنت الحارث أحد بنى عاصم بن عبيد بن ثعلبة فقال النجاشي لأعطينّك شيئاً يشفى من داء الكلب فأقبل حتى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت فأوصى امرأته أن تتزوج ابنه قدامة بن الاسود وأن تعلمه دواء الكلب ولا يخرج ذلك منهم الى أحد فتزوجته نكاح مقت وعلمته دواء الكلب فهو إلى اليوم فيهم فولد الأسود قدامة وولد قدامة المحل وأمه بنت الحارث فكان المحل يداوى من الكلب فولد المحل عقبة وعمرا فداوى ابن المحل عيينة بن مرداس وهو ابن فسوة الشاعر فبال مثل اجراء الكلب علقا ومثل صور النمل والأضراص فقال ابن فسوة حين برئ :

ولولا دواء ابن المحلّ وعلمه * هررت اذا ما الناس هر كلابها

وأجزع عبد الله أولاد زارع * مولعة أكتافها وجنوبها

وأولاد زارع الكلاب ٠ وأما قوله : لولا دواء ابن المحل وعلمه هررت ٠ فإنما ذهب

---

(١) وفي نسخة أخرى « وأعجب من بيض الريح والتراب على كل حال » وأقرب الخ

إلى أن الذي يعضه الكلب الكلِب ينبح نباح الكلاب ويهر هريرها وقال محمد بن حفص وهو أبو محمد بن محمد بن عائشة : عض رجلا [1] كلب كلِب فأصابه داء الكلب فبال علقاً في صورة الكلاب فقالت بنت المستنثر

أبالك أدراصاً وأولاد زارع * وتلك لعمرى نهبة المتنجب [2]

وحدثني أبو الصهباء عن رجال من بني سعد منهم عبد الرحمن بن شبيب قالوا عض سنجير الكلب الكلِب فكان يعطش ويطلب الماء بأشد الطلب فإذا أتوه به صاح عند معاينته : لا لا أريد وهكذا يصيب صاحب تلك العضة . وذلك أنه يعطش عنها أشد العطش ويطلب الماء أشد الطلب فإذا أتوه به هرب منه أشد الهرب فقال دُلَم (وهو) عبد لبني سعد

لقد جئت يا سنجير أجلو ملقة [3] * إباؤك للشيء الذي أنت طالب

وهي أبيات لم أحفظ منها إلا هذا البيت . وذكر مسلمة بن محارب وعلى بن محمد عن رجاله أن زياداً كتب دواء الكلب وعلقه على باب المسجد الأعظم ليعرفه جميع الناس وأنا حفظك الله تعالى رأيت كلبا مرة في الحي ونحن في الكتاب فعرض له صبي يسمى مهديا من أولاد القصابين وهو قائم يمحو لوحه فعض وجهه فنقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذي دون العظم إلى شطر خده فرمي به ملقيا على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه وبقى الغلام مبهوتا قائما لا ينبس وأسكته الفزع وبقى طائر القلب ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتاب [4] وليس في وجهه من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيط فلم ينبح إلى أن برئ ولا هرّ ولا دعا بماء حتى إذا رآه صاح ردوه ولا بال جروا ولا علقا ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير ولم أجد أحداً من تلك المشايخ يشك أنهم لم يروا كلبا قط أكلب ولا أفسد

(١) من بلعنبر « كما في النسخ التي بأيدينا » (٢) وفي نسخة أخرى « نهبة المتعجب (٣) وفي نسخة أخرى « أحلو ملقة » فليحرر (٤) المكتب

طبعا منه . فهذا الذي عاينت وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقاة فهو الذي قد كتبته لك وفي الكلب الكلِب أنشد الأعرابي

حيا كم الله فإني منقلب * وإنما الشاعر مجنون كلب

أكثر ما يأتي على فيه الكذب

إما أن يكون الشعر لهميان وإما أن يكون للرقيات وأنشدني

فإن كنتمو كلبى فعندي شفاؤكم * وفي الجن إن كان اعتراك جنون

وأنشدني

وما أدري إذا لاقيت عمرا * أكلبي آل عمرو أم صحاح

قال فأما المكلب[1] الذي يصيب كلابه داء في رؤسها يسمى الجحام فتكوى بين أعينها

مسئلة كلامية

وسنذكر مسألة كلامية وإنما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ولو كان أعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالما بالكلام وقد اعترض معترضون في قوله عز وجل (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فزعموا أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لأنه قال «واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها» فما يشبه حال من أعطي شيئاً فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولي ذاهبا وإن تركته شدّ عليك ونبح مع أن قوله يلهث لم يقع في موضعه وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحرّ شديد ومن تعب . وأما النباح والصياح فمن شيء آخر . قلنا له إن قال ذلك مثل القوم الذى كذبوا بآياتنا فقد يستقيم أن يكون المراد لا يسمى مكذبا ولا يقال لهم كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مرارا فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذى

(١) المكلب الذي يربي الكلاب

أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات. وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها. والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلا إليك ومدبرا عنك لهث واعتراه مايعتريه عند التعب والعطش. وعلى أننا مانرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة إلا وهي تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها والذى طبعت عليه من شأنها إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين

وقال صاحب الكلب ليس الديك من الكلب في شيء فمن الكلاب ذوات الاسماء المعروفة والألقاب المشهورة. ولكرامها وجوارحها وكواسبها وأحرارها وعتاقها أنساب قائمة ودواوين مخلدة وأعراق محفوظة ومواليد محصاة مثل كلب جذعان وهو السلهب بن البراق بن يحي بن وثاب بن مظفر بن محارش. وقد ذكر العرب أسماءها وأنسابها قال مزرد ابن ضرار

فعدّ قريض الشعر إن كنت مغذرا * فإن غزير الشعر ماشاء[1] قائل
لنعت ضباحي طويل شقاؤه * له رقميات وصفراء ذابل
يقين له مما يبرّى وأكلب * تقلقل في أعناقهن السلاسل
سخام ومقلاء والقنيص وسلهب * وجدلان[2] والسرحان والمتناول
بنات سلوقيين كانا حياته * فمات فأودى شخصه فهو خامل
وأيقن إذ ماتا بجوع وخلة * وقال له الشيطان إنك عائل
فطوّف في أصحابه يستثيبهم * فآب وقد أكدت عليه المسائل
إلى صبية مثل المغالى وخرمل * رواد ومن شر النساء الخرامل
فقال لها هل من طعام فإنني * أذم اليك الناس أمك هابل

(١) ما زال « كما في نسخة أخرى » (٢) وجدلاء « كما في نسخة أخرى »

فقالت نعم هذا الطويّ وماؤه * ومحترق من خايل الجلد قاحل
فلما تناهت نفسه من طعامه * وأمسى طليحاً مايعانيه باطل
تغشي يريد النوم فضل ردائه * فأعيا على العين الرقاد البلابل

ففكر في هذا الشعر ووقف على فصوله حتى تعرّف غناء الكلاب عنهم وكسبها عليهم وموقعها منهم . وقال لبيد في ذكرها وذكر أسمائها

لتزودهن وأيقنت أن لم تزد * أن قد أحم من الحتوف حمامها
فتقصّدت منها كساب وضرّجت * بدم وغودر في المكرّ سخامها

ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش وإذا كان الشعر مديحاً وقال كانت ناقتي بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة ليس على أن ذلك حكاية عن قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم وقال لبيد في هذا القول الثاني غير القول الأول وذلك على معنى ما فسرت لك فقال في ذلك وذكر أسماءها

فأصبح وانشق الضباب وهاجه * أخو قفرة يسلي وكاحا وسائلا
عرائس كالنشاب ترمى نحورها * بريّ دماء الهاديات نوافلا

ومن أسمائها قولهم : على أهلها جنت براقش . ومن أسمائها قول الآخر ضبار[1]

سفرت فقلت لها هجٍ فتبرقعت * فذكرت حين تبرقعت ضبّارا

وقال الكميت الاسدي

فبات وباتت عليه السما * ء من كل جانبة تهطل
مكبا كما اجتنح الهالكيّ على النصل إذ طبع المنصل

ثم ذكر أسماء الكلاب فقال -

وفي ضين حقف تراجعنه * خطاف وسرحة والأجذل

(١) صبار » في نسخة أخرى »

وأربعـة كقداح السـوا * ء لا عانيات ولا عُبّـل

وقال الآخر

بتنا وبات جليد[1] الليل يضربنا * بين البيوت قرانا نبح درواس
اذا ملا بطنها ألبانها حلبا * باتت تغنيه وضرى ذات أجراس

ودرواس اسم كلب والوضرى استه وغناؤها الضراط وقال ضابى بن الحارث في ذلك

فترملت بدم فراح وقد * أوفى اللحاق وحان مصرعه

وقال الآخر ولو هيّا له الله * من التوفيق أسـبابا
لسمى نفسه عمراً * وسمى الـكلب وثابا

ومثل هذا كثير والـكلب أشد ما يكون حرصا إذا كان خطمه يمس عجب ذنب الظبي والارنب والثور وغير ذلك مما هو من صيده ولذلك قال الشاعر

ربما أغدو معي كلبي * طالبا للصيد في صحب
فشـمرنا للقنيص معا * فدفعناه الى أظب
فاسـتدرته فدرّ لها * يلطم الرفغين بالترب
فادرا وهي لاهيـة * في حمير الحاج والقرب
ففري جماعهن[2] كما * قد مخلولان من عصب

ثم قال غـير يعفور أهل به * جاف دفيـه عن القلب
ضم لحييـه بمخطمـه * ضمك الـكسرين بالشعب
وانتحى للباقيات كما * كسرت شـفواء من لهب
فتعايا التيس حين كبا * ودنا فوه من العجب
ظل بالوعساء ينفضـه * أرما منـه على الصلب
تلك لذاتي وكنت فتي * لم أقل من لذة حسبي

وأما قوله غير يعفور أهل به فالاهلال الذى ذكر هو شيء يعتريه في ذلك

(١) وفي « نسخة أخرى » جليلا (٢) الجماع من كل شيء مجتمع اصله ومنه جماع البدن الرأس

يخرج من جوفه صوت شبيه بالعواء وهو ما بين العواء والأنين وذلك من خلق الحرص وشـدة الطلب وخوف الفوات ويقال أهلت السماء اذا صبت واستهلت اذا ارتفع صوت وقعها ومنه الاهلال بالحج وقال ابن أحمر

يهل بالفرقد ركبانها * كما يهل الراكب المعتمر

ومنه استهلال الصبي ولذلك قال الاعرابي أرأيت مَن لا أكل ولا شرب ولا صاح واستهل اليس ذلك بطلٍّ واذا ضبع الكلب وهو أن يمـد ضبعه كله ولا يكون كالحمار الضيق الإبطَين. والكلب في افتراش ذراعيه وبسط رجليه حتى يصيب قصةُ الارض أكثر من الفرس وعنـد ذلك ماينشط أذنيه حتى يدميهما ولذلك قال الحسن ابن هانئ وقد طال مانعت بهما

فانصاع كالكوكب في انحداره * لفت المشير موهناً بناره

شداً اذا أخصف في احضاره * خرّق أذنيه شبا أظفاره

﴿ وأول هذه الارجوزة ﴾

لما غدا الثعلب من وجاره * يلتمس الكسب على صغاره

وأنا كتبت لك رجزه في هـذا الباب لانه كان عالماً راوية وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها مالا تعرفه الأعراب وذلك موجود في شعره وصفات الكلاب مستقصاة في أراجيزه هـذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة وان تأملت شعره فضلته الا ان تعترض عليك فيه العصبية او ترى ان اهل البـدو ابداً أشعر وان المولدين لا يقاربونهم في شيء فان اعترض هذا الباب عليك فانك لا تبصر الحق من الباطل مادمت مغلوباً قال الحسن بن هانيءٍ

لما غـدا الثعلب من وجاره * يلتمس الكسب على صغاره

عارضه في شتن(١) امتياره * مضمر يمدح في سداره

في حلق الصفر وفي اسياره * منضمة قصراه من اضماره

(١) اى صعوبة طلبه الميرة قال في معيار اللغة الشتن الخشونة والصعوبة اه

قد نحت التسهيم من اقطاره * من بعد ما كان الى اصباره
نحتا كسته الحور من عشاره * ايام لا يحجب عن أظآره
وهو طلي لم يدن من اشفاره * في منزل يحجب عن زواره
يساس فيه طرفي نهاره * حتى اذا أحمد في اختياره
وآض مثل القلب من نضاره * كأن خاق ملتقى اشعاره
جمر غضى يدمن في استعاره * كأن لحييه لدى افتراره
سك مسامير على طواره * يضم قطريه من اضطراره
وان تمطى تم في أشباره * عشراً اذا اقدر في اقتداره
سمع اذا استروح لم تماره * إلا بأن يطلق من عذاره
فانصاع كالكوكب في انحداره * لفت المشير موهناً بشاره
شدًّا اذا أخصف في احضاره * خرق عينيه شبا اظفاره
حتى اذا ما انساب في غباره * عافر ماخرق في عفاره
فتلتل[1] المفصل من فقاره * وشق عنه جانبي صداره

* ما خير الثعلب في ابتكاره *

وقال فى كلب سليمان بن داود الهاشمى وكان الكلب يسمى زنبوراً

اذا الشياطين رأت زنبورا * قد قلد الحلقة والسيورا
بكت لخزان الغلا ثبورا * ادمى ترى في شدقه تأخيرا
ترى اذا عارضته مضرورا * خناجرا قد نبتت سطورا
مشتبكات تنظم السحورا * أحسن في تأديبه صغيرا
حتى توفي السبعة الشهورا * من سنة وبلغ الشغورا
وعرف الايحاء والصفيرا * والكفان تومئ أو تشيرا
يعطيك اقصي حصره المذخورا * شدا ترى من همزه الأظفورا

(١) قال في القاموس تلتل الشيء حركه واقلقه وزعزعه وزلزله وسار شديداً وساق عنيفا

منتشطا من أذنه سيورا * فما يزال والقفا تامورا
من ثعلب غادره مجزورا * أو أرنب كورها تكويرا
أو ظبية تغروْ رشاً غريرا * غادرها دون الطلا عقيرا
فامتع الله به الأميرا * ربي ولا زال به مسرورا

وقد قال كما ترى

شدا ترى من همزه الاظفورا * منتشطا من أذنه سيورا

يأبي قوله حتى يوفي السبعة الشهورا * من سنة وبلغ الشغورا

فان الكلب اذا أشغر برجله وبال فذلك دليل على تمام بلوغه للالقاح وهو من الحيوان الذي لم يحتلم * وأما احتلام الغلام فيعرف بأمور . منها انفراق طرف الارنبة ومنها تغير ريح إبطيه ومنها الانياب ومنها غلظ الصوت ومن الغلمان من لا يحتلم وفي الجوارى جوار لا يحضن وذلك في النساء عيب وليس مثله من الرجال عيبا وقد رأيت رجالا يوصفون بالقوة على النساء وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين وبعضهم لم يحتلم البتة وقد قال الحسن بن هانئ مثل ذلك فى أرجوزة أخرى

يمري اذا كان الجزاء عبطا * برائنا سحم الاثافي ملطا
* ينشط أذنيه بهن نشطا *

وهذه الارجوزة أولها

عددت كلبا للطراد سلطا * مقلداً قلائداً وملطا
فهو الجميل والحسيب رهطا * ترى له شدقين خطاخطا
يمري اذا كان الجزاء عبطا * برائنا سحم الاثافى ملطا
ينشط أذنيه بهن نشطا * تخال مادمين منها شرطا
ماإن يقعن الارض إلا فرطا * كأنما يعجلن شيئا لقطا
أعجل من قول قطاء قطا * فاحتاج خزان الصحاري الرقطا
يلقين منه حكما مشتطا * للعظم حطما والاديم عطا

والشعراء اذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال

يخفى التراب بأظلاف ثمانية * ومسهن اذا اقبلن تحليل

وقال الآخر

وكأنما جهدت اليته * ان لا تمس الارض اربعة

فأفرط الولد فى صفة السرعة وليس ذلك بأجود فقال شاعر منهم يصف كلبة بسرعة العدو كانما يرفع مالا يضع وقال الحسن * ما ان يقعن الارض الا فرطا *

وقال الحسن بن هانئ فى نعت كلب

انعت كلبا اهله فى وده * قد سعدت جدودهم بجده

فكل خير عندهم من عنده * يظل مولاه له كعبده

يبيت أدنى صاحب من مهده * وان غدا جلله ببرده

ذو غرة محجل بزنده * يلذ منه العين حسن قده

ياحسن شدقيه وطول خده * تلقي الظباء عنتا من طرده

يشرب كأسا شدها فى شده * يالك من كلب نسيج وحده

وقال في صفاتها وسماتها وأنسابها وألقابها وتغذية أربابها لها كما ذكرنا قبل ذلك

قداغتدي والطير في مثواتها * لم تعرب الافواه عن لغاتها

با كلب تمرح في فراتها * تعد عين الوحش من أقواتها

قد نحت التقريح واربابها * من شدة التسهيم واقتياتها

وأشفق القانص من حفاتها * وقلت قد أحكمتها فهاتها

وأدن للصيد معلماتها * وارفع لنا نسبة أمهاتها

فجاء يزهيها على شياتها * شم العراقيب موثقاتها

غر الوجوه ومحجلاتها * مشرقة الاكناف موفياتها

فوذ الخراطيم مخرطماتها * سودا وصفرا وخلنجياتها

مسميات ومقلباتها * حمرا وبيضا ومطوقاتها

مختبرات من سلوقياتها * كأن أقماراً على لباتها
ترى على أفخاذها سماتها * مفديات ومحمياتها *
مفروشة الأيدي شرنبثاتها * شم العراقيب مؤلفاتها
حد الأظافير مكعبراتها * زل المواخير عملساتها
تعدعين الوحش من أقواتها * تسمع في الآثار من راحاتها
من نهم الصيد ومن خواتها * لتقتثأ الارنب عن حياتها
إن حياة الكلب في وفاتها * حتى ترى القدر على مثفاتها
كثيرة الضيفان من عفاتها * تقذف جالاها (١) بجوزى شاتها

فقد قال كما ترى

تسمع في الآثار من راحاتها * من نهم الصيد ومن خواتها

وهذا هو معناها الاول وأما قوله * تعد عين الوحش من أقواتها * فعلى قول أبي النجم تعد عانات اللوى من مالها وزعموا أن قوله كطلعة الأشمط من كسائه وهو كما قال الآخر كطلعة الأشمط من برد سمل وقال الحسن بن هانئ

لما تبدى الصبح من حجابه * كطلعة الاشمط من جلبابه
وانعدل الليل الى مآبه * هجناه كلب طالما هجنا به
خرطه القانص واغتدي به * يعزه طوراً على استصعابه
فانصاع للصوت الذى عنى به * كلمعان البرق من سحابه
كأن عينيه لدي ارتيابه * فصا عقيق قد تقابلا به
حتى اذا عفره هاهابه * بابا به يا بعد ما باباه
ينتسس المقود من جرابه * من مرح يعلو اذا علا به
وميعة تعرف من شبابه * كان متنيه لدي أسرابه

(١) الجول الغنم الكثيرة العظيمة والكتيبة الضخمة وجماعة الابل وجماعة الخيل والوعل المسن واسم شجر وجبل اهـ قاموس

متنا شجاع لج فى انسيابه * كأنما الاظفور في قرابه
موسى صناع رد في نصابه * يثرط[1] وجه الارض في ذهابه
كأن نسرانا توكلنا به * يعفو على ماجر من ثيابه
إلا الذي أثر من هدابه * يري سوام الوحش يحتوي به
* وعين أسد ظفره ونابه *

وقال في ثعلب أفلت منه مرارا

قد طال ما أفلتَّ يا ثعلالا * وطالما وطالما وطالا
جات بكلبي يومك المجالا * ما طلت من لا يسأم المطالا

وقال أبو نواس أيضا

يارب بيت لفضاء سبسب * بعيد بين السمك والمطنب
لقيته قد بكروا بأكلب * قد أدبوها أحسن التأدب
من كل أوفى مستبان المنكب * يشب في الغور شباب المعرب
ينشط أذنيه بحد المخلب * فما ثنى وثيقة من أرنب
وجلده مسلوبة من ثعلب * مقلوبة الفروة أو لم تقلب
وجحش عانات لام التولب * ومرجل يهدر هدر المصعب

﴿ صفة مايستدل به على فراهية الكلاب وشياتها وسياستها ﴾

قال بعض من يجيد ذلك أن طول مابين يدي الكلب ورجليه بعد أن يكون قصير الظهر من علامة السرعة قال ويصفونه بأن يكون صغير الرأس طويل العنق غليظهما وأن يشبه بعض خلقه بعضا وأن يكون أغضف مفرط الغضف ويكون بعيد ما بينهما ويكون أزرق العينين طويل المقلتين ناتئ الحدقة طويل الخطم واسع الشدقين ناتئ الجبهة عريضها وأن يكون الشعر الذي تحت حنكه كأنه طاقة ويكون غليظا وكذلك شعر خديه ويكون قصير اليدين طويل الرجلين لأنه اذا كان كذلك كان

(١) قال في القاموس ثرط البعير والثور القيا سرحيهما على الارض رقيقا اه

أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب قالوا ولا يكاد يلحق الأرنب في الصعود إلا كل كلب قصير اليدين طويل الرجلين وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظا ويكون مايلي الأرض من صدره عريضا وأن يكون غليظ العضدين مستقيم اليدين مضموم الأصابع بعضها الى بعض واذا مشي أو عدا أو هوى جدرانا لا يصير بينها من الطين وغير ذلك مايفسدها . ويكون ذكى الفؤاد نشيطا ويكون عريض الظهر عريض مابين مفاصل عظامه عريض ما بين عظمى أصل الفخذين الذين يصيبان أصل الذنب وطويل الفخذين غليظهما شديد لحمهما ويكون رزين المحمل رقيق الوسط طويل الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر ومستقيم الرجلين ولا يكون في ركبته اغناء ويصير قصير الساقين دقيقهما كأنهما خشبة من صلابتهما وليس يكره أن تكون الاناث طوال الأذناب ويكره ذلك للذكور ولين شعرهما يدل على القوة وقد يرغب ذلك في جميع الجوارح من الطير وذوات الاربع من لين الريش لذوات الريش . ولين الشعر لذوات الشعر من عتاق الخيل علامة صالحة قال وينبغى أن يكون الكلب شديد المنازعة للمقود والسلسلة . ولا يكون العظم الذى يلي الجنبين من عظام الجنبين صغيرا في قدر ثلاث أصابع . وزعم أنهم يقولون إن السود منها اقلها صبراً على البرد والحر وإن البيض افره اذا كن سود العيون قال ومن علامة الفره التى ليس بعدها شئ ان يكون على ساقيه او على أحدهما او على رأس الذنب مخلب وينبغى ان يقطع من الساقين مايمنعه من العدو وذكر أن خير الاشياء التى تطعمه الكلاب الخبز الذى قد يبس ويكون الماء الذي يسقاه يصب عليه شئ من زيت فان ذلك كاللفت المحض للخيل ويشتد عليه عدوه وقال خير الطعام في إسمان الكلاب رأس مطبوخ واكارع بشعرها من غير أن تطعم من عظامها شيئاً والسمن اذا طعم منه قدر ثلاث سكرجات مرتين أو ثلاث مرات فان ذلك مما يسمنه ويقال إنه يعيد الهرم شابا حتى يكون ذلك في الصيد وفي المنظر والعظم . والثريد من اردإ ماتأكله للعدو ومما يكون غذاء ومن خير شئ يداوي به الكلب من وجع البطن والديدان أن يطعم قطعة الية وصوف شاة

معجونا بسمن البقر فانه يلقي كل دود وقذر في بطنهوخير مايعالج به للحفا ٢ أن يدهن أسته ثلاثة ايام ويجم فيهاولا يستعمل . أو يمسح على يديه ورجليه القطران وذكر عن خزيمة بن طرخان الاسدى من اهل همدان انه قال ليس من علاج الكلب خير من أن يحقن وقال يقال كدى الجرو يكدي كداء وهو داء يأخذ الجراء خاصة يصيبها منه قيء وسعال حتى تكوى بين عينيها ويقال أكدى الرجل اكداء إذا لم يظفر بحاجته والكدية من الارض ارتفاع في صلابة ويقال في الماء حفر فأكدي . وزعم صاحب المنطق أن الكلاب اذا كان في أجوافها دود أكلت سنبل القمح فتبرأ . وزعم أن الكلاب تأتي حشيشة تعرفها بعينها فتأكل منها فتبرأ وزعم صاحب المنطق أن العقاب تأكل الحيات وأن بينهما عداوة لأن الحية أيضاً تطلب بيضها وفراخها (قال) والغداف يقاتل البومة لأن الغداف يخطف بيض البومة نهاراً وتشد البومة على بيض الغداف ليلاً فتأكله لأن البومة ذليلة بالنهار ردية النظر وإذاكان الليل لم يقو عليها شيء من الطير والطير كلها تعرف البومة بذلك وضيعها فاذا رأيتها فهي تطير حولها البومة وتضربها وتنتف ريشها ومن أجل ذلك صار الصيادون ينصبونها للطير . والغداف يقاتل ابن عرس ليأكل بيضه وفراخه قال وبين الحدأة والغداف قتال لأن الحدأة تخطف بيض الغداف لأنها أشد مخالب وأسرع طيراناً . وبين الاطرغالة ٢ والشقراق[1] قتال لانه يقتل الأطرغالة ويطالبه . وبين العنكبوت والعظاية عداوة والعظاية تأكل العنكبوت وعصفور الشوك يعبث بالحمار وعبثه ذلك قتال له لأن الحمار اذا مر بالشوك وكانت به بدرة ٢ اوجرب تحكك به ولذلك متى نهق الحمار سقط بيض عصفور الشوك وفراخه تخرج من عشها ولهذه العلة يطير العصفور وراء الحمار وينقر رأسه . والذئب مخالف للثور والحمار والثعلب جميعاً لأنه يأكل اللحم الني ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالب . وبين الثعالب والزرق خلاف لهذه العلة لأنهما جميعاً يأكلان اللحم والغراب

(١) الشقراق ويكسر الشين أو كقرطاس والشرقراق بالفتح وبالكسر والشرقرق كسفرجل طائر معروف

تخالف الثور وتخالف الحمار جميعاً ويطير حولهما وربما نقر عيونهما (وقال الشاعر)

عاديتنا لازلت في تباب * عداوة الحمار للغراب

ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق لأن الثعلب لا يجوز أن يعادي من بين أحرار الطير وجوارحها الزرق وحده وغير الزرق أكل اللحم وان كان سبب عداوته له اجتماعهما على أكل اللحم فليبغض العقاب من الطير والذئب من ذوات الأربع فانها آكل للحم والثعلب الى أن يحسد ماهو أقرب وذلك أولى فى القياس فلو زعم أنه يعم أكلة اللحم بالعداوة حتى يعطي الزرق من ذلك نصيبه كان ذلك أجور ولعل المترجم قد أساء فى الأخبار عنه قال والحية تقاتل الخنزير وتقاتل ابن عرس وإنما تقاتل ابن عرس اذا كان مأواهما فى بيت واحد لأن الخنزير يأكل الحيات ويزعمون أن الذى يأكل الحيات القنافذ والأوعال والخنازير والعقبان قال فالحية تعرف هذا من الخنزير فهى تطالبه قال والغراب مصادق الثعلب والثعلب مصادق الحية والأسد والنمر مختلفان قال وبين الفيلة اختلاف شديد وكذلك ذكورها وإناثها وهى تستعمل الأنياب اذا قاتل بعضها بعضاً وتعتمد بها على الحيطان فتهدمها وتزحم النخلة بجنبها فتصرعها واذا صعب من ذكورتها شئ احتالوا له حتى يكومه[1] آخر فاذا كامه خضع أبداً واذا اشتد خلقه وصعب عصبوا رجليه فسكن ويقال ان البعير اذا صعب وخافه القوم استعانوا عليه فبركوه وعقلوه حتى يكومه فحل آخر فاذا فعل ذلك به ذل وأما أصحابنا فحكوا وجوه العداوة التى بين الفيل والسنور وهذا أعجب وذهبوا الى فزع الفيل من السنور ولم يروه يفزع مما هو أشد وأضخم وهذ الباب على خلاف الاول كأن أكثر ذلك الباب بنى على عداوة الاكفاء والشاة من الذئب أشد فرقا منها من الاسد وان كانت تعلم أن الاسد يأكلها وكذلك الحمام يعتريه من الشاهين مالا يعتريه من العقاب والبازى والصقر وكذلك الفأرة من السنور وقد يأكلها ابن عرس وأكثر ذلك يقتلها ولا يأكلها وهى من السنور أشد فرقاً والدجاجة تأكلها أصناف من السباع

---

(١) يكومه ينكحه وأصل الكوم يستعمله في ذوات الحافر

والثعلب يطالبها مطالبة شديدة ولو أن دجاجا على رف مرتفع أو كنّ على أغصان شجرة شاهقة ثم مر تحتها كل صنف مما يأكلها فانها تكون مستمسكة بها معتصمة بالاغصان التى عليها فاذا مر تحتها ابن آوى وهنّ الف لم تبق واحدة منهن إلا رمت بنفسها اليه والسبع لا يأكل الحارّ والسنور لا يذوق الحموضة ويجزع من الطعام الحارّ والله تعالى أعلم (ثم) رجع بنا القول الى مفاخر الكلب ونبدأ بكل ما أشبه فيه الكلب الأسود والانسان وبشيء من صفات العظال قال صاحب المنطق في كتابه الذى يقال له الحيوان فى موضع ذكر فيه الاسد قال اذا ضرب الاسد بمخالبه رأيت موضع آثار مخالبه في أقدار شرط الحجام أو أزيد قليلا إلا أنه من داخل أوسع خرزا كأن الجلد ينضم على سم مخالبه فيأكل ماهنالك فأما عضته فان دواءها دواء عضة الكلب قال ومما أشبه فيه الكلب الأسد انطباق أسنانه ومما أشبه فيه الكلب الأسد النهم فان الأسد يأكل أكلا شديداً ويمضغ مضغاً متداركاً ويبتلع البضع الكبار من خلق ٢ الرغبة ومن الحرص وكالذى يخاف الفوت ولما نازع السنور من شبهه صار اذا القيت له قطعة لحم فإما أن يحملها أو يأكلها حيث لا تراه وإما أن يأكلها وهو يكثر التلفت وان لم يكن بحضرته سنور ينازعه والكلب يعض على العظم ليرضه فإن مانعه شيء وكان مما يسيغه ابتلعه وهو واثق بانه يستمريه ويسيغه والنهم يعرض للحيات والحية لا تمضغ وإنما تبتلع ذوات الراسات وهى غير ذوات الانياب فإنها تمضغ المضغة والمضغتين وان ابتلعت شيئاً فيه عظم أتت عوداً شاخصاً فالتوت عليه فحطمت العظم والحية قوية جداً قال والأسد وإن كان مما لا يفارق الغياض لا يفارق الماء فانه قليل الشرب للماء وليس يلقى رجعه إلا مرة فى اليوم وربما كان في اليومين والثلاثة ورجعه يابس شديد اليبس متعلق شبيه برجيع الكلب ويشبهه أيضاً من جهة أخرى وذلك أنهما جميعاً اذا بالا شغرا والكلب من أسماء الأسد لقرابة مابينه وبين الكلب والكلب يشبه الخنزير فإن الخنزير يسمن فى أسبوع وإن جاع أياما ثم شبع شبعة تبين ذلك تبيناً ظاهراً ألا تراه ينزع الى محاسن الحيوان ويشبه أشراف السباع وكرائم البهائم

ويقال ليس فى الارض فحل من جميع أجناس الحيوان لذكره حجم ظاهر الا الانسان والكلب وليس فى الارض شيئآن يتشابهان من فرط ارادة كل واحد منهما لطباع صاحبه حتى يلتحم عضو الذكر بعضو الأنثى حتى يصير التحامهما التحام الخلقة والبنية كالالتحام الملامسة والملازمة إلا كما يوجد التحام قضيب الكلب لثفر الكلبة وقد يلزق القراد ويغمس العلق مقاديمه في جوف اللحم حتى يرى صاحب القراد انه ثؤلول وما القراد المضروب به المثل فى الالتحام الا دون التحام الكلبين ولذلك اذا ضربوا المثل للمتباضعين بالسيوف والملتقيين للصراع فالتف بعضهم ببعض قالوا كأنهم الكلاب المتعاظلة وليس هذا النوع من السفاد الا للكلاب فزعم صاحب المنطق وغيره ان الذباب فى ذلك كالكلب وكان اسماعيل بن غزوان قد تعشق جارية كانت لموسى بن عمران وكانت اذا وقعت وقعة اليه لم تمكث عنده إلا بقدر ما يقع عليها فاذا فرغ لبست خفها وطارت وكان اسماعيل يشتهى المعاودة وأن يطيل الحديث ويريد القرص والشم والتقبيل والتجريد وليعلم أنه فى الكوم الثانى والثالث أجدر أن ينظر وأجدر أن يشتفى فكان ربما ضجر ويذكرها بقلبه وهو فى المجلس فيقول يارب امسخنى وإياها كلبين ساعة من الليل والنهار حتى يشغلها الالتحام عن التفكير في غضب مولاتها إن احتبست وفى الكلبة أعجوبة أخرى وذلك أنه يسفدها كلب أبقع وكلب أسود وكلب أبيض وكلب أصفر فتؤدى الى كل سافد شكله وشبهه فى أكثر مايكون ذلك وأما تأويل الظالع فى قول الحطيئة

تسديتها من بعد ما نام ظالع الـ * كلاب وأخبى ناره كل موقد

قال الاصمعى يظلع الكلب لبعض ما يعرض للكلاب فلا يمنعه ذلك من أن يهيج فى زمن هيج الكلاب فإذا رأى الكلبة المستحرمة[1] لم يطمع فى معاظلتها والكلاب منتبهة تنبح فلا تزال تنتظر وقت فترة الكلاب ونومها وذلك من آخر الليل وقال أحيحة بن الجلاح مما قيل فى الكلاب من الرجز

(١) المستحرمة طالبة الفحل يقال حرمت الذئبة والكلبة حراماً بالكسر أرادت الفحل

وفتية من آل ذهل فى الذرى * من الرقاشيين فى أعلا العلا
بيض بها ليل كرام المنتمى * باتوا يسيرون الى صوح اللوى
ينفون عن أعينهم طيب الكرى * إلا غشاشا بعد ماطال السرى
يعدين إبلاء الفتى على الفتى * حتى اذاما كوكب الصبح بدا
ماجوا بغضف كاليعاسيب خسا * ثلاثة تقاص حزان الصوى
وحيبة الأشراف عصف فى رقا * تلوى بأذناب قليلات اللحا
سمعمعات الضمر من طول الطوى * من كل مصبور القرى عاري النسا
محملج المتنين منحوض الشوى * شرنبث البرثن خفاق الحشا
تخاف منه القص من غير جنا * مسننة صفراء فى جيد صفا
يلتهب الغائط من غد ان عدا * يقادح المرو وشذان الحصا
حتى اذا استحس فى رأد الضحى * مر بأوفى علم به الربا *
أزانبا من دونها سربا ظبا * نواشظا (١) من أنس الى خلا
فوضي يدعثرن أفاحيص (٢) القطا * لعلمن واستلهثن من غير ظما
مبالغات في نهيم وصأى * كأنما أعينها جمر الغضا
ثم تطلعن معا كالبرق لا * فى أرض يهونى ولالوح الهوا
كأنها من شرطها لما انبرى * كواكب ترمى الشياطين بها
يدمرن بالايسار زمراوأيا * حتى اذا ما كن منهن كها
دارت عليهن من الموت رحا * مخربين ومحدين الشبا
نوامذ يطلعن معبوط الدما * بين خليع الروض مرضوض الصلى
وبين مفرى النياط فلسطا * كأنه مبتهل اذا دعا *
ومائل الفودين مجلوز القنا * يعقر بالاكباد منها والكلى

(١) نواشظاً جمع ناشظ والنشط سرعة في اختلاس (٢) يدعثرن أي يكسرن والافاحيص جمع أفحوص وهو مجثم النعام

* وبالقلوب وكراديس الطلى *

وقال أيضاً

لما تبدى الصبح من حجابه * وانعدل الليل الى مآبه
خرطه القانص واغتدى به * فى مقود يردع من جدابه
يعزه طوراً على استصعابه * وتارة ينصب لانصبابه
كأنما يفتر من أنيابه * عن مرهف السن من جرابه
يرثم أنف الأرض فى ذهابه * حتى اذا أشرف من حدابه
بعد انحدار الطرف وانقلابه * بروضته القاع الى أعجابه
أرسله كالسهم اذ غالى به * يكاد أن ينسل من إهابه
كلمعان البرق في سحابه * حتى اذا ما كاد أو حاراته
فانصاع للصوت الذى يدعي به * كأنما أدمج فى أحصابه
ما بين لحييه الى أقرابه * مستهتر الغدوة فى إيابه

وقال أيضاً

ما البرق في ذى عارض لماح * ولا انقضاض الكوكب المنصاح
ولا انبتات الدلو بالمتّاح * ولا أنسياب الحوت بالنداح
حتى دنا من راحة السياح * أجد في السرعة من سرياح
فكاد عند نهل المزاح * اذا أرى الخاتل للاشباح
يطير فى الجد بلا جناح * يفتر عن مثل شبا الرماح
فكم وكم ذى جدة لياح * ونازب [١] أعفر ذى طماح
* غادره مضرج الصفاح *

---

(١) من نزب الظبي ينزب نزبا ونزيباً صوت

باب آخر في الكلب وشأنه

قال طفيل الغنوى

أناس اذا ما أنكر الكلب أهله * حموا جارهم من كل شنعاء تطلع

يقول اذا تكفروا فى السلاح لم تعرفهم كلابهم ولم يدع جميع أصحاب المعارف إلاّ أن الكلب أشد ثباتاً وأصدق حساً وفى ذلك يقول الآخر

فلا ترفعي صوتا وكونى قصية * اذا صوت الداعى وأنكرنى كلبي

يقول إياك والصياح اذا عاينت الجيش وقوله أنكرنى كلبي يخبر أن سلاحه تام من الدرع والمغفر والبيضة فاذا تكفر [1] بسلاحه أنكره كلبه فينبحه وأما قوله اذا خرس الفحل وسطا الحجون [2] وصاح الكلاب وعق الولد فأما قوله اذا خرس الفحل فان الفحل اذا عاين الجيش وبوارق السيوف لم يلتفت لفت الحجون وأما قوله وصاح الكلاب فان الكلاب فى تلك الحالة تنبح أربابها كما تنبح سرعان الخيل اليهم لأنها لا تعرفهم من عدوهم وأما قوله وعق الولد فان المرأة اذا صبحتهم الخيل ونادى الرجال يا صباحاه ذهلت عن ولدها وشغلها الرعب عن كل شئ فجعل تركها احتمال ولدها والعطف عليه فى تلك الحالة عقوقا منها وهو قولهم نزلت بهم أمور لا ينادى وليدها وإنما استعاروا هذه الكلمة فصيروها في هذا الموضع من هذا المكان وقد ذكر ذلك مزرد بن ضرار وغيره فقال

تبرأت من شتم الرجال بتوبة * الى الله منى لا ينادى وليدها

وقال آخر

اذا عمي الكلب فى ديمة * وأخرسه الله من غير ضر

وقال الآخر

ظهرتم على الأحرار من بعد ذلة * وشقوة عيش لا ينادى وليدها

---

(١) اى دخل في سلاحه من كفر فوق درعه اذا لبس فوقها ثوبا (٢) الحجون الكسلان

والذي يخرسه أفراط البرد والحاح المطر كما قال الهذلي

وليلة يصطلى بالفرث جازرها * يختص بالنقري المثرين داعيها
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * من الصقيع ولا تسرى أفاعيها

وقال ابن هرمة

واسأل الجار والمعصب والاضيا * ف وهناً اذا تحيوا لديا
كيف يلقونني اذا نبح الكـ * ـلب وراء الكسور نبحاً خفيا

يقول الكلب وان أخرسه البرد الذي يكون مع المطر والريح التى تمطر بالصحارى المطيرة فتبرد فان الكلب وان ناله ذلك فان ذلك من خصب وليس ذلك من صر والكلب اذا ألحّت عليه السحائب بالامطار فى أيام الشتاء لقي جنة فتى أبصر غيما نبحه لانه قد عرف مايلقى من مثله وفي المثل لايضر السحاب نباح الكلاب فقال الشاعر

وما لي لا أغزو وللدهر كرة * وقد نبحت نحو السماء كلابها

يقول قد كنت أدع الغزو مخافة العطش على الخيل والانفس فما عذرى اليوم والغدران كثيرة ومناقع المياه موجودة والكلاب لا تنبح السحاب الا من الحاح المطر وترادفه وقال الافوه الأودي فى نبح الكلاب السحاب وذلك من وصف الغيم

له هيدب دان ورعد ولجة * وبرق تراه ساطعاً يتبلج
فباتت كلاب الحى تنبحن مزنه * وأضحت بنات الماء فيها تمعج

وقال أبو خالد النميرى وذكر فرعون ذا الأوتاد عند أبي حية النميرى فقال أبو حية الكلب خير منه وأحزم قال فقيل له كيف خصصت الكلب بذلك قال لأن الشاعر يقول

وما لي لا أغزو وللدهر كرة * وقد نبحت نحو السماء كلابها

وقال الفرزدق

فانك ان تهجوا حنيفة سادراً * وقبلك قد فاتوا يد المتناول
كفرعون اذ يرمى السماء بسهمه * فردعليه السهم أفوق ناضل

فهذا يرمي السماء بجهله وهـذا ينبح السحاب من جودة فطنته فهـذا جزم أن الـكلب انما عرف مخرج ذلك الشيء المؤذي له حتى نبحه بالقياس لانه إنما نبحه بعد أن توالى عليه الاذى من تلك الجهة وكان فهذا يتعصب للكلب فقلت له وكذلك الحمار اذا رفعت عليه السوط مرّ من تحتك مرًّا حثيثًا فالقياس عـلم أن السوط متى رفع حُط ومتى حط أصابه ومتى أصابه آلم فما فضل الكلب فى هذا الموضوع على الحمار والحمار هو الموصوف بالجهل قال الفرزدق

وقد نبح الكلب السحاب ودونها * مهامة تعشي نظرة المتأمـل

وقال الآخر

ما لك لا تنبح يا كلب الدوم * قد كنت نباحا فما بال اليوم

قال كان هـذا رجل ينتظر عيراً له تقدم فـكان اذا جاءت العير نبح فاحتبست عليه العير فقال كالمتمنى وكالمنتظر المستبطيء ما لك لا تنبح أسيء ما للعير لا تأتي وقال حج إياس بن معاوية فسمع نباح كلب فقال هذا كلب مشدود ثم سمع نباحه فقال قد أرسل فانتهوا الى الماء فسألوهم فـكان كما قال فقال له غيلان أبو مروان كيف علمت أنه موثق وأنه أطلق قال كان نباحـه وهو موثق يسمع من مكان واحد فلما أطلق سمعته يقرب مرة ويبعد مرة ويتصرف فى ذلك وقالوا مر إياس بن معاوية ذات ليلة بماء فقال أسمع صوت كلب غريب قيل له كيف عرفت ذلك قال بخضوع صوته وشدة نباح الآخر فسألوا فاذا هو غريب مربوط والكلاب تنبحه وقال بعض العلماء كلب أبقع وفرس أبلق وكبش أملح[1] وتيس أبرق[2] وثور أشيه[3] ويقال كلب وكلاب وكليب ومعز وماعز ومعيز وقال لبيد

---

(١) يقال كبش املح اذا كان اسود يعلو شعره بياض وقيل نقي البياض وقيل ليس بخالص البياض بل فيه عفرة وفيه ملحة وزن غرفة (٢) الابرق كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض فهو أبرق يقال تيس ابرق وعنز برقاء (٣) اشوه من الشية وهي كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره والهاء عوض من الواو الذاهبة من أوله والجمع شيات يقال ثور أشيه كما يقال فرس ابلق وتيس أذرأ

فبتنا حيث أمسينا قريباً * على جسدين تتبعنا الكليب

وقال علقمة بن عبدة

وتصبح عن غب السرى وكأنها * مولعة تخشي القنيص شبوب

تعفق بالأرطي لها وأرادها * رجال فبذت نبلهم وكليب

وقال عباد بن مجبر السعدي

فمن للخيل بعد أبي سراج * اذا ما أشنج الضر الكليبا

وهؤلاء كلهم جاهليون وقال حموية الخرسي وأنشدني

كأنك بالمبارك بعد حين * تخوض عمارة بقع الكلاب

وأنشدوه

أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد * أمسي شريدهم فى الأرض فُلَّا

فقال لا خير فى بقع الكلاب البتة وسود الكلاب أكثرها عقوراً وخير الكلاب ما كان لونه يذهب الى ألوان الأسد من الصفرة والحمرة والتبقيع هجنة وخير السنانير الخلنجية وخير كلاب الصيد البيض قالوا إن الأسد للهراش الحمر والصفر والسود للذئاب وهي شرها وقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها ولكن اقتلوا منها كل أسود بهيم وكل شيء من الحيوان اذا اسود شعره أو جلده أو صوفه كان أقوى لبدنه ولا تكن معرفته بالمحمودة وزعم أن الحمام الهدا إنما هو فى الخضر والنمر فاذا اسود الحمام حتى يدخل فى الاحتراق صار مثل الزنجى الشديد البطش القليل المعرفة والأسود لا يجيء من البعد لسوء هدايته والأبيض وما ضرب فيه البياض لا يجيء من الغاية لضعف قواه وعلى قدر ما يعتريه من البياض يعتريه من الضعف فالكلب هو الأصفر والاحمر والحمام هو الاخضر والأنمر والسنور هو الخلنجى العسال وسائر الألوان عيب وقد يكون فيها ومنها الخارجي كما يكون من الخيل ولكنه لا يكاد ينجب ولا تعدو الامور المحمودة منه رأسه وقد يكون ربما شبه وقرب من النجابة فاذا كان كذلك كهذه الأمهات والآباء

المستجبة إلا أن ذلك لا يتم منها إلا بعد بطون عدة وقال أبو زيد قال ردّاد أقول للرجل الذى اذا ركب الابل فعقر ظهورها من اتعابه هذا رجل معقر وكذلك السرج والقتب ولا يقال للكلب الاعقور ويقال هو ضُروّ للكلب الضارى على الصيد وضروة الكلبة وهذا ضراء كثيرة وكلب ضار وكلاب ضوار وقد ضريت أشد الضراوة وقال ذو الرمة

مقزّع أطلس الاطمار ليس له * إلا الضراء والاصيدها نشب

وقال طفيل الغنوى

تبارى مراخيها الدجاج كأنها * ضراء أحست نبأة من مكلب

ومنه قيل أناء ضار وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إياكم وهذه المجازر فان لها ضراوة كضرواة الخمر وقال الاصمعى كلب أبقع وكلبة بقعاء وفرس أبلق وفرس بلقاء وتيس أبرق وعنز برقاء وكذلك جبل أبرق وكساء أبرق وكلب أبرق وقال ابن راحة نزل عندنا إعرابى ومعه إبنان له صغيران وكان أحدهما مشتهراً باللعب بالكلاب وكان الآخر مشتهراً بالحملان فقال الاعرابي لصاحب الكلب

مالي أراك مع الكلاب جنيبة * وأرى أخاك جنيبة الحملان

قال فرد عليه الغلام

لولا الكلاب وهرشها من دونها * كان الوقير فراسة لذئاب

والوقير اسم للغنم الكثيرة السائمة مع ما فيها من الحمير وغير ذلك وقال الشماخ ابن ضرار

فأوردهن تقريباً وشداً * شرائع لم يكدرها الوقير

وقال الشاعر في تثبيت ما قال الغلام

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقى صولة المستأسد الضار

وقال الآخر

ان الذئاب ترى من لا كلاب له * وتتقى حوزة المستشفر الحامي ٢

وقال محمد بن ابراهيم قدمت إمرأة الى مكة وكانت ذات جمال وعفاف وبراعة وشارة فأعجبت ابن أبي ربيعة فأرسل اليها فخافت شعره فلما أرادت الطواف قالت لأخيها اخرج معي فخرج معها وعرض لها عمر فلما رأى أخاها أعرض عنها فأنشدت قول جرير

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقى حوزة المستاسد الضار

هذا حديث أبى الحسن وأما بنو مخزوم فيزعمون أن ابن أبي ربيعة لم يحل إزاره على حرام قط وإنما كان يذهب في نسيبه الى أخلاق ابن أبي عتيق فان ابن أبى عتيق كان من أهل الطهارة والعفاف وكان من سمع كلامه توهم انه من أجرإ الناس على فاحشة وما يشبه الذي يقول بنو مخزوم ماذكروا عن قريش والمهاجرين فانهم يقولون ان عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة إنما يسمى بعمر بن الخطاب وانه ولد ليلة مات عمر فلما كان بعد ذلك ذكروا فساد هذا وصلاح ذلك فقالوا أي باطل وضع وأي حق رفع ومثل هذا الكلام لا يقال لمن يوصف بالعفة الثابتة ولبعض المزّاح في لعب الصبيان بالكلاب واستهتارهم بها ٢ كتب شريح الى معلم ولد له كان يدع الكتاب ويلعب بالكلاب

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها * طلب الهراش مع الغواة الرجّس
وليأتينك غاديا بصحيفة * يغدو بها كصحيفة المتلمس
فاذا خلوت فعضه (١) بملامة * أوعظه موعظة الاديب الاكيس
واذا هممت بضربه فبدرّة * وإذا ضربت به ثلاثاً فاحبس
واعلم بأنك ما فعلت فإنه * مع ما يجر عني أعز الأنفس

وهذا الشعر عندى لأعشي بني سليم فى ابن له وقد رأيت ابنه هذا شيخاً كبيراً وهو يقوّل بشعر وله أحاديث كثيرة ظريفة (وقال) صاحب الكلب ومما يدل على قدر الكلب كثيراً ما يجرى على السنة الناس من مدحه بالخير والشر وبالحمد وبالذم حتى ذكر في القرآن مرة بالحمد ومرة بالذم وبمثل ذلك ذكر فى الحديث وكذلك فى

(١) يقال عضه فلاناً وأعضهه بهته وقال فيه ما لم يكن

فى الأشعار والامثال حتى استعمل في الاشتقاقات وجرى في طريق الفال والطيرة وفي ذكر الرؤيا والاحلام ومع الجن والحن والسباع والبهائم فإن كنتم إنما قضيتم عليه بالشر وبالنقص وباللؤم وبالسقوط لأن ذلك كله قد قيل فيه فالذى قيل فيه من الخير أكثر ومن الخصال المحمودة أشهر وليس شيء أجمع لخصال النقص من الخمول لأن تلك الخصال المخالفة لذلك تعطى من النباهة وتقيم من الذكر على قدر المذكور من ذلك كما لا تكون الخصال التى تورث الخمول مورثة للنباهة فلذلك خصال النباهة في مجانبة الخمول لأن الملوم أفضل من الخامل وسمع الترجمان بن مريم بن هبيرة رجلا يقول ما جاء الحارث بن شريح بيوم خير قط قال الترجمان إن لا يكون جاء بيوم خير فقد جاء بيوم شر وبعد فأي رئيس كان خيره محضا عدم الهيبة ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة وقتل في موضع القتل وأحي فى موضع الإحياء وعفا في موضع العفو وعاقب في موضع العقوبة ومنع ساعة المنع وأعطى ساعة الأعطاء خالف الرب فى تدبيره وظن أن رحمته فوق رحمة ربه وقد قالوا بعض القتل أحياء للجميع وبعض العفو اغراء كما أن بعض المنع اعطاء ولا خير فيمن كان خيره محضاً وشر منه من كان شره صرفاً ولكن أخلط الوعد بالوعيد والبشر بالعبوس والإعطاء بالمنع والحلم بالإيقاع فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب والإطماع والاخافة ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم يجز وعرف بذلك ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه نخير الخير ما كان ممزوجا وشر الشر ما كان صرفاً ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار وفى جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب دليل على أن الصواب فيه دون غيره واذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع وعلى الخير والشر عاد ذلك الشر خيراً وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً وإنما الشأن في العواقب وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدوم ومن الانقطاع أبعد

وقال الشاعر وهو يمدح قوما

ان يسئلوا الخير يعطوه وان جهدوا * فالجهد يخرج منهم طيب أخبار
وإن تودّدتهم لانوا وان شهموا * كشفت أذمار حرب غير أغمار

وقال العتبي

ولكن بنو خير وشر كليهما * جميعاً ومعروف ألم ومنكر

وقال بعض من ارتجز يوم جبلة

أنا الغلام الأعسر * الخير فيّ والشر
* والشر فيّ أكثر *

وقال عبد الملك بن مروان لزفر بن الحارث وقد دخل عليه في رجالات قيس ألست امرأً من كندة قال وما خير من لا يُتَّقى حسدا ويدعي رغبة وقال ثمامة الشهرة بالشر خير من أن لا أعرف بخير ولا شر وكان يقال يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه وقال ألا ترى أن علياً رضي الله تعالى عنه قال يهلك فيّ فتيان محب مفرط ومبغض مفرط وهذه صفة أنبه الناس وأبعدهم غاية في مراتب الدين وشرف الدنيا ألا ترى أن الشاعر يقول

أرى العلياء كالعليا * ء لا حلو ولا مر
شييخ من بني الجارو * د لا خير ولا شر

وقال الآخر

عيرتني يا شكاتي أمي * أسود مثل الجمل الأجمّ
ينطح عرض الجبل الاصم * ليس بذى القرن ولا الأجم

واذا كان الرجل أبرع الناس براعة وأظهرهم فضلا وأجمعهم لخصال الشرف ثم كانت كل خصلة مساوية لأختها في التمام ولم تغلب عليه خصلة واحدة فان هذا الرجل لا يكاد يوصف إلا بالسيادة والرياسة خاصة اذا لم يكن له مسند عما يكون هو الغالب عليه وقالوا فيما يشبه ما ذكرنا وان لم يكن هو بعينه قال الشاعر

هينون لينون أيسارذوو يسر * سواس مكرمة أبناء أيسار

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقد قال مثل الذى وصفنا جعفر الضبي في الفضل ابن سهل أيها الأمير اسكتني عن وصفك تساوي أفعالك فى السوذد وحيرني فيها كثرة عددها فليس الى ذكر جميعها سبيل وان أردت وصف واحدة اعترضت أختها اذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها ولذلك قالوا أحلم من الأحنف وما هو الا فى حلم معاوية وأحلم من قيس بن عاصم ولم يقولوا أحلم من عبد المطلب ولا هو أحلم من هاشم لأن الحلم خصلة من خصاله كتمام حلمه فلما كانت خصاله متساوية وخلاله مشرفة متوازية وكلها كان غالباً ظاهراً وقاهراً غامراً تسمى بأجمع الأشياء ولم يسم بالخصلة الواحدة فيستدل بذلك على أنها كانت أغلب خصال الخير عليه واذا بلغ السيد في السودد الكمال حسده من الاشراف من يظن أنه الأحق به وفخرت به عشيرته فلا يزال سيفه من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ومن طلب عيباً وجده فان لم يجد عيباً وجد بعض ما اذا ذكره وجد من يغلط فيه و يحمله عنه ولذاك هجي حصن بن حذيفة وهجى زرارة بن عدس وهجي عبد الله بن جدعان وهجى حاجب بن زرارة وانما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سودد هم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عيينة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة ولا ن لقيطاً لم يأمر بسحب صخرة بن ضمرة إلا وهو لو بقى لجاوز ظلم كليب وتهكم عيينة فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون وكان بين أن يظلموا وبين أن يحتملوا ظلماً ممن ظلمهم ولا بد من الاحتمال كما لا بد من الانتصار وقد قال عز وجل (ولكم في القصاص حياة) والى هذا المعنى رجع قول الحكيم الأول بعض القتل إحياء للجميع وعامة هؤلاء السادة لم يكن شأنهم أن يردوا الناس الى أهوائهم والى الانسياق لهم بعنف السوق وبالحرب في

القود بل كانوا لا يؤثرون الترهيب على الترغيب والخشونة على التليين وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء ومتى أحب السيد الجامع والرئيس الكامل قومه أشد الحب وحاطهم على حسب حبه لهم كان بغض أعدائهم له على حسب حب قومه له هذا اذا لم يتوثب اليه ولم يعترض عليه من بني عمه واخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به وحسد الاقارب أشد وعداوتهم على حسب حسدهم وقد قال الأولون رضا الناس شيء لا ينال وقد قيل لبعض العرب من السيد فيكم قال الذى اذا أقبل هبناه واذا أدبر اغتبناه وقدقال الأول بغضاء السوء موصولة بالملوك والسادة وتجرى في الحاشية مجرى الملوك وليس فى الأرض عمل أكد لأهله من سياسة العوام وقد قال الهذلي يصف صعوبة السياسة

وان سياسة الاقوام فاعلم * لها صُعداء مطابها طويل

وقال آخر في شبيه بهذا المعنى

ودون الندى في كل قلب ثنية * لها مصعدحزن ومنحدر سهل

وود الفتى فى كل نيل ينيله * اذا ماانقضي لوأن نائله جزل

وقال عامر بن الطفيل

وإني وان كنت ابن سيد عامر * وفارسها المشهورفي كل موكب

فما سودتني عامر من وراثة * أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنني أحمى حماها وأتقى * أذاها وأرمى من رماها بمنكب

وقال زياد بن ظبيان لابنه عبيد الله بن زياد وزياد يغرغر بنفسه ألا أوصى بك الأمير قال لا قال ولم قال اذا لم (١) للحى الا بوصية الميت فالحى هو الميت وقال آخر فى هذا المعنى والعز لا يأتي بغير تطاب . وقال بشامة ابن القدير في خلاف ذلك وان يثبت أن يكون منه كان

وجدت أبي فيهم وجدى كليهما * يطاع ويؤتى أمره وهو محتبي

(١) بياض بالاصل

فلم أتعمل للسيادة فيهم * ولكن أتتني طائعاً غير متعب

ومن الناس من يقول إن العيش كله في كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر وقال من يخالفه لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير من أن يكون بالأمور عالماً أو يكون بها جاهلاً فان كان بها عالماً فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب علمه لان المعرفة لا تكون كعدمها لانها لو كانت موجودة غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها وفى القول والعمل ما أوجب النباهة وأدنى حالاته أن تخرجه من حد الخمول ومتى أخرجته من حد الخمول فقد صار معرضاً لمن يقدر على سلبه وكما أن المعرفة لا بد لها من عمل ولا بد للعمل من أن يكون قولا أو فعلا والقول لا يكون قولا الا وهناك مقول له والفعل لا يكون فعلا الا وهناك مفعول له وفى ذلك ما أخرج من الخمول وعرف به الفاعل واذا كانت المعرفة هذا عملها فى التنبيه على نفسها فالمال الكثير أحق بأن عمله الدلالة على مكانه والسعاية على اهله والمال أحق بالنميمة وأولى بالشكر وأخدع لصاحبه بل يكون له أشد قهراً وحيه اشد فساداً وان كانت معرفته ناقصة فبقدر نقصانها يجهل مواضع اللذة وان كانت تامة فبقدر تمامها ينفي الخمول ويجاب الذكر وبعد فليس يفهم فضيلة السلامة وحقائق رشد العاقبة الذين ليس لهم من المعرفة الا التشدق والاخلال أوساط الناس ومتى كان ذلك كذلك لم يعرف المدخل الذى من أجله يكره ذو المال الشهرة ومن عرف ذلك على حقه وصدقه لم يدعه فهمه لذلك حتى يدل على فهمه وعلى أنه لا يفهم هذا الموضع حتى يفهم كل ما كان في طبقته من العلم وفي أقل من ذلك ما يبين به حاله من حال الخامل وشروط الأماني غير شروط جواز الأفعال وإمكان الأمور وليس شيء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهي ومن الظفر بالأعداء ومن عقد المنن في أعناق الرجال والسرور بالرئاسة وبثمرة السيادة لأن هذه الأمور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس فأما المطعم والمشرب والمنكح والمشمة وكل ما كان من نصيب الحواس فقد علمنا أن كل ما كان أشد نهماً وأرغب كان أتم لوجدانه الطعم وذلك قياس

على مواقع الطعم من الجائع والشراب من العطشان ولـكنا اذا مثلنا بين الفضيلة التي مع السرور وبين لذة الطعام وبين مايحدث له الشره من ألم السهر والالتهاب والقلق وشدة الـكلب رأينا أن صاحبه مفضول غير فاضل هذا مع ما يسب به ومع حمله له على القبيح وعلى أن نعمته متى زالت لم يكن أحد أشقى منه هـذا مع سرور العالم بما وهب الله لهم من السلامة من آفة الشره ومن فساد الاخلاط وبعدفلا يخلو صاحب الثروة والصامت الـكثير الخامل الذكر من أن يكون ممن يرغب فى المركب الفاره والثوب اللين والجارية الحسنة والدار الجيدة والمطعم الطيب أو يكون ممن لا يرغب في شيء من ذلك فان كان لا يرغب في هذا النوع كله ولا يعمل في ماله للدار الآخرة ولا يعجب بالاحدوثة الحسنة ويكون ممن لا تعدولذته ان يكون كثير الصامت فان هذا حمار او أفسد طبعاً من الحمار وأجهل من الحمار وقد رضي أن يكون في ماله أسوء حالا من الوكيل وبعد فلا بد للمال الكثير من الحراسة الشديدة ومن الخوف عليه فان اعمـل الحراسة له وتعب في حفظه حسب الخوف خرج عليه فضل فان هو لم يخف عليه ولا يكون في سبيل التوكل فهو في طباع الحمار وفى جهله والذى اوجب له الخمول ليؤديه إلى سلامة المال له قد أعطاه الله تعالى من الجهل مالا يكون معه الا مثـل مقـدار لذة في أكل الخبط وان هو ابتاع فره الدواب وفره الخدم والجواري واتخذ الدار الجيدة والطعام الطيب والثوب اللين واشباه ذلك فقد دل على ماله ومن كان كذلك ثم ظهرت له ضيعة فاشية أو تجارة مربحة يحتمل مثل ذلك الذي يظهر من نفقته والا فانه سيوجد في اللصوص عند أول من يقطع عليه أو مكابرة تكون أو تعب يؤخذ لاهله المال العظيم ولو عنى بقوله الخمول وصحة البدن والمال فذهب الى مقدار من المال مقبولا ولكن ما لمن كان ماله لا يجاوز هذا المقدار متهيؤ الخمول في طبقات كثيرة ولعمرى ان الخمول ليكون فى طبقات كثيرة قال أبو نخيلة

شكرتك ان الشكر حبل من التقى * وما كل من أقرضته نعمـة يقضى

(١) فاحييت من ذكري وما كان خاملاً * ولكن بعض الذكر انبه من بعض

قالوا ولسقوط الخامل من عيون الناس قالت الاعرابية لابنها اذا جلست مع الناس فان احسنت ان تقول كما يقولون فقل والا فخالف تذكر وأما الاصمعي فزعم انها قالت خالف ولو بان تعلق في عنقك أير حمار وليس يقول هـذا القول الا من ليس يعرف شكر الغنى وتقلب الاموال الى ما خلقت له وقطعها عقلها وخلعها عذرها وتيه أصحابها وكثرة خطاهم في حفظها وسترها وعجزهم عن إماتة حركتها ومنعها من جميع ماتنازع العمل عليه وقد روينا في الملح ان رجلا قال لصاحب له أبوك الذي جهل قدره وتعدى طوره فشق العصى وفرق الجماعة لاجرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم صلب قال له صاحبه دعني من ذكر هزيمة ابي ومن أسره وقتله وصلبه أبوك هل حدث نفسه بشيء من هـذا قط وليس الى الناس بعد الهمم وقصرها وانما تجرى الهمم بأهلها الى الغايات على قدر ما يعرض لهم من الاسباب الا ترى ان أبعد الناس همة في نفسه وأشدهم تلفتا الى المراتب لا تنازعه نفسه الى طلب الخلافة لان ذلك يحتاج الى نسب والى أمر قد وطيء له بسبب كسبب طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب فان صار من الخوارج فقد حدث له سبب امكان الطلب أكدى أم نجح وقد زعم ناس من العلماء ان رجالا خطبت للسيادة والنباهة والطاعة في العشيرة وكذلك القبيلة ربما سعدت بالحظ وربما حظيت بالجد وانما ذلك على قدر الاتفاق وانما هو كالمعافي والمبتلي وانما ذلك كما قال زهير

وجدت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم *

وكما تحظي بعض الاشعار وبعض الامثال وبعض الالفاظ دون غيرها ودون ما يجرى مجراها أو يكون أرفع منها قالوا وذلك موجود في المرزوق المحروم وفي المحارف والذي تجوز عليه الصدقة من حاذق بصناعته وكثير الجولان في تجارته وقد بلغ فرغانة مرة والاندلس مرة ونقب في البلاد وربع فى الآفاق ومن حاذق

(١) وروي ونوهت لي باسمي

يشاور ولا يستعمل ثم لا تجدهما يستبينان من سوء الحال وكثرة الدين ومن صاحب حرب منكوب وهو الليث على براثنه مع تمام العزيمة وشدة الشكيمة ونفاذ البصيرة ومع المعرفة بالمكيدة والصبر الدائم على الشدة فكم من بيت شعر قد سار واجود منه مقيم في بطون الدفاتر لا تزيده الايام الا خمولا كما لا تزيد الذى دونه الاشهرة ورفعة وكم من مثل قد طار به الحظ حتي عرفته الإماء ورواه الصبيان والنسا وكذلك حظوظ الفرسان وقد عرفت شهرة عنترة في العامة ونباهة عمرو بن معدى كرب وضرب الناس المثل بعبيد الله بن الحر وهم لا يعرفون بل لم يسمعوا قط بعتيبة بن الحارث بن شهاب ولا ببسطام بن قيس وكان عامر بن الطفيل اذ كر منهما نسباً ويذكرون عبيد الله بن الحر ولا يعرفون شعبة بن زهير ولا زهير بن ذؤيب ولا عباد بن الحصين ويذكرون اللسن والبيان والخطيب إبن القرية ولا يعرفون سحبان وائل والعامة لم يصل ذكر هؤلاء اليهما الا من قبل الخاصة والخاصة لم تذكر هؤلاء دون اولئك فتركت تحصيل الأمور والموازنة بين الرجال وحكمت بالسابق الى القلب على قدر طباع القلب وهيبته ثم استوت علل العامة في ذلك وتشابهت والعامة والباعة والاغنيآء والسفلة كانهم اعذار عام واحد وهم في باطنهم أشد تشابها من التوأمين في ظاهرهما وكذلك هم فى مقادير العقول وفي الاعتراض والتسرع وان اختلفت الصور والنغم والاسنان والبلدان وذكر الله عز وجل رد قريش ومشركي العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قوله فذكر الفاظهم وجهد معانيهم ومقادير هممهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع الامم الى انبيائهم فقال تشابهت قلوبهم وقال أتوا صوابه ثم قال وخضتم كالذي خاضوا ومثل هذا كثير ألا تري أنك لاتجد بداً في كل بلدة وفي كل عصر للحاكة فيهم على مقدار واحد وجهة واحدة من السخط والحمق والغباوة والظلم وكذلك النحاسون على طبقاتهم من أصناف ما يبيعون وكذلك السماكون الغلاسون وكذلك أصحاب الخلقان كلهم في كل دهر وفي كل بلد على مثال واحد وعلى جهة واحدة وكل حجام في الارض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ وان اختلفوا في البلدان والاجناس

والاسنان ولا تري مسجوناً ولا مضروبا عند السلطان الا وهو يقول انى مظلوم ولذلك قال الشاعر

لم يخلق الله مسجوناً تسائله * مابال سجنك الا قال مظلوم

وليس في الارض خصمان يتنازعان الي حاكم الا كل واحد منهما يدعى عدم الانصاف والظلم علي صاحبه وليس في الارض انسان الا وهو يطرب من صوت نفسه ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده الا أن الناس في ذلك على طبقات من الغلط فمنهم الغرق المغمور ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطإ ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه فما أحسن حاله مالم يمتحن بالكشف ولذلك احتاج العاقل في استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقى ومن اعادة النظر والتهمة الى أضعاف مايحتاج اليه فى سائر ذلك والعامة تحكم أن حاتماً أجود العرب ولو قدمته على هرم الجواد لمااعترضته عليهم ولكن الذي يحدث عن حاتم لايبلغ مقدار مارووه عن كعب بن مامة لان كعبا بذل نفسه فى أعطية الكرم وبذل المجهود فساوي حاتما من هذا الوجه وباينه ببذل المهجة ونحن نقول إن الاشعار الصحيحة المقدار الذى يوجب اليقين بان كعباً كان كما وصفوا ٢ فلو كان الامر فى هذا الى الجدود والحظوظ والاتفاقات والى علل باطنة تجري الامور عليها وفى الغوص عليها وفي معرفتها بأعيانها عسر لماجرت الامور على هذه المجارى ولو كان الامر فيها مفوضاً الي تقدير الرأى لكان ينبغي لغالب بن صعصعة أن يكون من المشهورين بالجود دون هرم وحاتم فان زعمت أن غالباً كان اسلامياً وكان حاتم فى الجاهلية والناس بمآثر العرب فى الجاهلية أشد كلفاً فقد صدقت وهذا أيضاً ينبئك أن الامور فى هذا على خلاف تقدير الرأى وانما تجرى فى الباطن على نسق قائم وعلى نظر صحيح وعلى تقدير محكم فقد تقدم في تعيينهما وتسويتهما من لا تخفي عليه خافية ولا يفوته شئ ولا يعجزه والا فما بال أيام الاسلام ورجالها لم تكن أكبر فى النفوس وأحل فى الصدور من رجال الجاهلية مع قرب العهد وعظم خطر ماملكوا وكثرة ماجادت به أنفسهم ومع الاسلام الذى شملهم وجعله الله تعالي

أولي بهم من أرحامهم ولو أن جميع مآثر الجاهلية وزنت به وبما كان في الجماعات اليسر ٢
من حالات قريش في الاسلام لأربت عليها أو لكانت مثلها فليس لقدر الكلب
والديك في أنفسهما واثمانهما ومناظرهما ومحلهما من صدور العامة اسبقنا هذا الكلام
وابتدأنا بهذا القول ولسنا نقف على أثمانهما من الفضة والذهب ولا إلى أقدارهما عند
الناس وإنما ننتظر فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنعه وعلى
عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته وفيما استخرجهما من عجائب المعارف وأودعهما من
غوامض الاحساس وسخر لهما من عظام المنافع والمرافق ودل بهما على أن الذي البسهما
ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم يجب أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عز
وجل عندهما فغشي ظاهرهما بالبرهان وعم باطنهما بالحكم وهيج على النظر فيهما
والاعتبار بهما ليعلم كل ذى عقل أنه لم يخلق الخلق سدًى ولم يترك الصور هملا وليعلموا
أن الله عز وجل لم يدع شيئاً غفلا غير مرسوم ونثراً غير منظوم وسدى غير محفوظ
وأنه لايخطئه من عجيب تقديره ولا يعطله من حل تدبيره ولامن زينة الحكم وجلال
قدرة البرهان ثم عم ذلك بين الضآبة والفراشة إلى الافلاك السبعة وما دونها من
الاقاليم السبعة وقد قال تعالى ويخلق مالا تعلمون وقد يتجه هذا الكلام في وجوه
أحدها أن تكون هاهنا ضروب من الخلق لايعلم بمكانهم من الناس ولا بد أن
يعرف ذلك الخلق معني نفسه أو يعلمه صفوة الله وملائكته أو تعرفه الانبياء أو يعرفه
الناس لايجوز إلا ذلك أو يكون الله عز وجل إنما عني أنه خلق أسبابا ووهب عللا
وجعل ذلك رفداً لما يظهر لنا ونظاما وكان بعض المفسرين يقول من أراد أن يعرف
معني قوله ويخلق مالا تعلمون فليوقد ناراً في وسط غيضة أو فى صحراء برية ثم ينظر
الى ما يغشي النار من أصناف الخلق من الحشرات والهمج فانه سيرى صوراً ويتعرف
خلقاً لم يكن يظن أن الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم وعلى أن الخلق الذى يغشي
ناره على قدر اختلاف مواضع الغياض والبحار والجبال ويعلم أن مالم يبلغه أكثر وأعجب
وما أرد هذا التأويل وانه ليدخل عندي في جملة ماتدل عليه الآية ومن لم يقل ذلك

لم يفهم عن ربه ولم يفقه فى دينه كأنك لاترى أن في ديدان الخل والملح والديدان التى تتولد في السموم اذي وعرض لها العفن وهي بعد قواتل عبرة وأعجوبة ولان التفكر فيها مشحذة للاذهان ومنبهة لذوى الغفلة وتحليل لعقدة البلدة وسبب لاعتياد الروية وانفساح الصدور وعز فى النفوس وحلاوة تقتاتها الروح وثمرة تغذى العقل وترق في الغايات الشريفة وتشرف الى معرفة الغايات البعيدة وكانك لا ترى ان في فارة البيش (١) وفي السمندل آية غريبة وصنعة عجيبة وداعية الى التفكر وسببا الى التعجب وكانك لا ترى ان فى الجعل الذى متي دفنته في الورد سكنت حركته وبطل في رأى العين روحه ومتى اعدته الى الروث انحلت عقدته وعادت حركته ورجع حسه أعجب العجب وأحكم الحكم وأي شيء أعجب من الخلد وكيف يأتيه رزقه وكيف يهيء له ما يقوته وهو أعمي لا يبصر وأصم لا يسمع وبليد لا يتصرف وابله لا يعرف ومع ذلك انه لا يجوز باب جحره ولانه لا يتكلف سوى ما يجلب اليه رازقه ورازق غيره وأي شيء أعجب من طائرين يراهما الناس من أدنى جدود البحر من شق البصرة الى غاية البحر من شق السند أحدهما كبير الجثة يرتفع في الهواء مصعداً والآخر صغير الجثة يتقلب عليه ويعبث به فلا يزال مرة يرفرف حوله ويرتقى على رأسه ومرة يطير عند ذناباه ويدخل تحت جناحه ويخرج من بين رجليه فلا يزال بغمه وبكربه حتى يتقيه بذرق فاذا ذرق شحافاه فلا يخطئ اقصي حلقه حتى كانه رما به في بئر وحتى كان ذرقه محتاجا مدحاةً بيد اسوار فلا الطائر الصغير يخطيء فى التلقى وفى معرفته أنه لارزق له إلا الذي فى ذلك المكان ولا الكبير يخطيء التشديد ويعلم أنه لاينجيه منه إلا أن يتقيه بذرقه فاذا أوعي ذلك الذرق واستوسى فى ذلك الرزق رجع شبعان ريان بقوت يومه ومضي الطائر الكبير لطيته وأمرهما مشهور وشأنهما ظاهر لايمكن دفعه ولا تهمة المخبرين عنه فجمل تعالى وعز بعض الوحوش كسوبا محتالا وبعض الوحوش

(١) البيش بالكسر نبات وربما نبت فيه سم قتال لكل حيوان وترياقه فارة البيش وهي فارة تتغذي به

متوكلا غير محتال وبعض الحشرات يدخر لنفسه رزق سنته وبعضاً يتكل على الثقة بان له كل يوم قدر كفايته رزقا معداً وأمراً مقطوعا وجعل الهمج يدخر وبعضه يتكسب وبعض الذكور يعول ولده وبعض الذكور لايعرف ولده وبعض الاناث تخرج ولدها وبعض الاناث تضيع ولدها وتتكفل ولد غيرها وبعض الاجناس معطوفة على كل ولد من جنسها وبعض الاناث لاتعرف ولدها بعد استغنائه عنها وبعض الاناث لاتزال تعرفه وتعطف عليه وبعض الاناث تأكل ولدها وكذلك بعض الذكور وبعض الأجناس يعادي كل شيء ويكسر بيضها أو يأكل أولادها وجعل يتم بعض الحيوان من قبل أمهاتها وجعل يتم بعضها من قبل آبائها وجعل بعضها لايلتمس الولد وان أتاه الولد وجعل بعضها مستفرغ الهم في حب الذرء والتماس الولد وجعل بعضها يزاوج وبعضها لايزاوج ليكون للمتوكل من الناس جهة في تكسبه ولتخطر على بالهم أسباب البر والعقوق وأسباب الحظر والتربية وأسباب الوحشة من الارحام الماسة ولمكان اقتران المعانى واختلاف العلل قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لبعضهم إعقلها وتوكل وقال لبلال انفق بلال ولا تخش من ذى العرش اقلالا فافهموا هذا التدبير وتعلموا هذه الحكم واعرفوا مداخلها ومخارجها ومفرقها ومجموعها فان الله عز وجل لم يردد في كتابه ذكر الاعتبار والحث على التفكير والترغيب في النظر وفي التثبت والتعرف الا وهو يريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة حكماء من هذه التعبئة ولولا استعمال المعرفة لماكان للمعرفة معنى كما أنه لولا الاستدلال بالادلة لماكان لوضع الدلالة معني ولولا تمييز المضار من المنافع والرديء من الجيد بالعيون المجعولة لذلك لما جعل الله عز وجل العيون المدركة ولولا أن الانسان الحساس اذا كانت الامور المميزة عنده أخذ مايحتاج اليه وترك مايستغنى عنه وما يضر من أخذه فيأخذ مايحب ويدع مايكره ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه حتي يُذكر بالمكروه كيفية العقاب ويذكر بالمحبوب كيفية الثواب ويعرف بذلك كيفية التضاعيف ويكون مايغمه راد عاله وممتحنا بالصبر عليه وما يسره باسطاله وممتحنا بالشكر عليه وللعقل فى

خلال ذلك مجال وللرأى تقلب وتنشؤ للخواطر أسباب ويتهيأ لصواب الرأى أبواب ولتكون المعارف الحببية والوجدانات الغريزية وتمييز الامور بها الى ماتميز عنه العقول وتحصره المقاييس وليكون عمل الدنيا سلما الى عمل الآخرة وليترقى من معرفة الحواس الى معرفة العقول ومن معرفة الروية من غاية الى غاية حتي لا يرضي من العلم والعمل الا بما أداه الي الثواب الدائم ونجاه من العقاب الدائم وسنذكر طرفا مما أودع الله عز وجل الكلب مما لا تحسنه أنت أيها الانسان مع احتقارك له وظلمك اياه وكيف لا تكون تلك الحكم لطيفة وتلك المعانى غريبة وتلك الاحساس دقيقة ونحن نعلم ان أدق الناس حساً وأرقهم ذهناً وأحضرهم فهماً وأصحهم خاطراً وأكملهم تجربة وعلما لو رام الشيء الذي يحسنه الكلب في كثير من حالات الكلب لظهر من عجزه وخرقه وكلال حده وفساد حسه ما يعرف بدونه ان الأمور لم تقسم على مقدار رأيه ولا على مبلغ عقله وتقديره ولا على محبته وشهوته وأن الذي قسم ذلك لا يحتاج الى المشاورة والمعاونة والى مكاتفة ومرادفة ولا الى تجربة وروية ونحن ذاكرون من ذلك جملا ان شاء الله تعالى

(اعلم) أن الكلب اذا عاين الظباء قريبة كانت أو بعيدة عرف المقتل وغير المقتل وعرف العنز من التيس وهو اذا أبصر القطيع لم يقصد الا قصد التيس وان علم انه أشد حضراً وأطول وثبة وأبعد شوطاً ويدع العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حضرها وقصر قاب خطوها ولكنه يعلم أن التيس اذا عدا شوطاً أو شوطين حقب ببوله وكل الحيوان اذا اشتد فزعه فانه سيعرض له أما سلس البول والتقطير وأما الاسر والحقب وكذلك المضروب بالسياط على الاكتاف وبالعصي على الاستاه وأما أكثر ما يعتريهم البول والغائط وكذلك صار بعض الفرسان الابطال اذا عاين العدو قطر الى أن يذهب عنه هول الجنان واذا تعب التيس لم يستطع البول مع شدة الحضر ومع النفر والجزع ووضع القوائم معا ورفعها معا فما أسرع فى الطرف فيثقل عدوه ويقصر خطوه ويعتريه البهر حتى يلحقه الكلب فيأخذه والعنز من الظباء اذا اعتراها البول من شدة الفزع لم تجمعه وحذفت به كإيزاغ المخاض الضوارب لسعة السبيل

وسهولة المخرج فتصير لذلك أدوم شداً وأصبر على المطاولة فهذا شيء في طبع الكلب
معرفته دون سائر الحيوان والكلب المجرب لا يحتاج في ذلك الى معاناة ولا الى تعلم
ولا الى روية ولا الى تكلف قد كفاه ذلك الذى خلق العقل والعاقل والمعقول والداء
والدواء والمداوي والمداوى وقسم الأمور عل الحكمة وعلى تمام مصلحة الخليقة ومن
معرفة الكلب ان المكلب يخرجه الى الصيد في يوم الأرض فيه ملبسة من الجليد ومغشاة
بالثلج قد تراكم عليها طبقا على طبق حتى طبقها واستغاض فيها حتى ربما ضربته الريح
ببردها فيعود كل طبق منها وكأنه صفاة ملساء أو صخرة خلقاء حتى لا يثبت عليها
قدم ولا خف ولا حافر ولا ظلف بالتثبيت الشديد أو بالجهد والتفريق فمضى الكلاب
بالكلب وهو إنسان عاقل وصياد مجرب وهو مع ذلك لا يدرى أين جحر الأرنب من
جميع بسائط الارض ولا موضع كناس ظبي ولا مكمن ثعلب ولا غير ذلك من موالج
وحوش الارض فيتخرق الكلب بين يديه وخلفه وعن يمينه وشماله ويتشمم ويتبصر
ولا يزال كذلك حتى يقف على أفواه تلك الجحرة وحتى يثير الذى فيها بتنفيس الذى
فيها وذلك ان أنفاسها وبخار أجوافها وأبدانها وما يخرج من الحرارة المستكمنة فى عمق
الارض مما يذيب ملاقاها من فم الجحر من الثلج الجامد حتى يرق وان لم يثقب وذلك
خفى غامض لا يقع عليه ناقص ولا راع ولا قائف ولا فلاح وليس يقع عليه الا
الكلب الصائد الماهر وعلى أن الكلب فى تنبيح الدراج والاصعاد خلف الارانب في
الجبل الشاهق من الرفق وحسن الاهتداء والتأني مالا يخفى مكانه على البيازو الكلابين
وقد حدثني صديق لي أنه حبس كلبه فى بيت وأغلق دونه الباب فى الوقت الذى كان
طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم ثم أحدّ سكيناً بسكين فنبح الكلب ورام
فتح الباب لتوهمه أن الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفه وهو يحد السكين ليقطع
اللحم قال فلما كان العشى صنعنا به مثل ذلك لنتعرف حاله في معرفة الوقت فلم يتحرك قال
وصنعت ذلك بكلب لى آخر فلم يقلق الا قلقا يسيرا فلم يلبث ان رجع الطباخ فصنع
بالسكين مثل صنيعه فقلق حتى رام فتح الباب قال فقلت والله لئن كان عرف الوقت

بالرصد فتحرك له فلما لم يشم ريح اللحم عرف انه ليس بشيء ثم لما سمع صوت السكين والوقت بعد لم يذهب وقد جيء باللحم من الطبخ وهو في البيت او عرف فضل مابين احداد السكين واحداد الطباخ إن هذا أيضاً لعجب وإن اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان والثلاث الاذرع فما أجد ريحه الا بعد ان أدنيه من أنفي و كل ذلك عجب ولم أجد أهل سكة اصطفانوس ودار جارية وباعة مربعة بين منقر يشكون أن كلباً كان يكون في أعلا السكة وكان لا يجوز محرس الحارس أيام الاسبوع كله حتى إذا كان يوم الجمعة أقبل قبل صلاة الغداة من موضعه ذلك الى باب جارية فلا يزال هناك مادام على معلاق الجزار شيء من اللحم وباب جارية تنحر عنده الجزر في جميع أيام الجمع خاصة وكان ذلك لهذا الكلب عادة ولم يره أحد فى ذلك الموضع في سائر أيام الجمعة حتى اذا كان غداة الجمعة أقبل فليس يكون مثل هذا الا عن مقدارية بمقدار ما بين الوقتين ولعل كثيراً من الناس يتناسون بعض المواضع في يوم الجمعة أما لصلاة وأما لغير صلاة فلا يعد فيهم النسيان من أنفسهم والاستذكار لغير الكلب لم ينس من نفسه ولم يتذكر بغيره وزعم هؤلاء بأجمعهم انهم تفقدوا شأن هذا الكلب منذ انتهوا لصنعه فلم يجدوه غادر ذلك يوماً واحداً فهذا هذا وأنشد أبو الحسن ابن خالويه عن أبي عبيدة لبعض الشعراء

يعود عنه جاره وشقيقه * وينبش عنه كلبه وهو ضاربه

قال أبو عبيدة قيل ذلك لان رجلا خرج الى الجبان ينتظر ركابه فاتبعه كلب كان له فضرب الكلب وطرده وكره ان يتبعه ورماه بحجر فأبى الكلب الا ان يتبعه فلما صار الى الموضع الذى يريد فيه الانتظار ربض الكلب قريباً فبينما هو كذلك اذأتاه أعداء له يطلبونه بطائلة لهم عنده وكان معه جار له وأخوه دنياً فأسلماه وهربا عنه فجرح جراحات ورمى به فى بئر غير بعيدة القعر ثم حثى عليه التراب ثم غطى رأسه ثم كمم فوق رأسه منه والكلب فى ذلك يرحم ويهر فلما انصرفوا أتى رأس البئر فما زال يعوى وينبش عنه ويحثو التراب بيده ويكشفه عن رأسه حتى أظهر رأسه فتنفس وردت

اليه الروح وقد كاد يموت ولم يبق منه الا حشاشة فبينما هو كذلك اذ مر ناس فانكروا مكان الكلب ورأوه كانه يحفر عن قبر فنظروا فاذاهم بالرجل على تلك الحال فاستشالوه فأخرجوه حيا وحملوه حتى أدوه الى أهله فزعم أن ذلك الموضع يدعي ببئر الكلب وهو متيامن عن النجف وهذا العمل يدل على وفاء طبيعى والف عزيزى ومحاماة شديدة وعلى معرفة وصبر وعلى كرم وشكر وعلى غناء عجيب ومنفعة تفوق المنافع لان ذلك كله كان من غير تكلف ولا تصنع وقال مؤمن بن خاقان لاعرابى من بني أسد وقد أكل جرو كلب اتأكل لحم الكلاب وقد قال الشاعر

اذا أسدى جاع يوماً ببلدة * وكان سميناً كلبه فهو آكله

أكل هذا قرماً ألى اللحم قال فأنشد الاسدى يقول

وصباً بحظ الليث ظلما وشهوة * فسائل أخى الخلعاء ان كنت لا تدري

قال وذلك الاسدي لايحرص على شيءٍ من اللحمان حرصه على لحم الكلب وأما العامة فتزعم أن لحوم الشاء أحب اللحمان اليه قالوا ولذلك يطيف الاسد بجنبات القري طلبا لاغترار الكلب لان وثبة الاسد تعجل الكلب عن القيام وهو رابض حتي ربما دعاهم ذلك إلى اخراج الكلب من قراهم إلا أن يكون بقرب ضياعهم خنازير فليس حينئذ شيءٌ أحب اليهم من أن تكثر الاسد عندهم وانما يخرجون عنهم فى تلك الحالات الكلاب لانهم يخافونها على ما هو عندهم أنفس من الكلب وهذه مصلحة في الكلب ولا يكون ذلك الا في القري التى تقرب الغيضة أو المأسدة وقال بعض الدهاقين قولا لاأدرى كيف هو غير أنهم لايشكون انه انما يطلب الكلب لحنقه عليه لامن طريق أن لحمه أحب اللحمان اليه وإن الاسد ليأتى مناقع المياه وشطوط الانهار فيأكل السراطين والضفادع والزق والسلاحف وانه أشره من أن يختار لحماً على لحم قال وانما يكون ذلك منه اذا أرادَ المتطرف من حمير القرية وشائها وسائر دوابها فاذا لج الكلب فى النباح انتبهوا ونذروا بالاسد فكانوا بين أن يحصنوا أموالهم وبين أن يهجهجوا به فيرجعَ خائباً فاذا أراد ذلك بدء بالكلب لانه يأمن الانذار ثم يبيتون في أعلى القرية

بما فيها فانما يطالب الاسد الكلاب لهذه العلة وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحي الموصل وأنا هائب له ورأيت الحديث يدور بينهم ويتقبله جميعهم وزعموا أن الاسد ربما جلل قلس السفينة فيتشبَّث به ليلا والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون أن القلس قد التف على صخرة او تعلق بجذم شجرة ومن عادتهم أن يبعثوا اول المدادين ليحله فاذا رجع اليه الملاح ليمده تمدد الاسد بالارض ولزق بها وغمض عينيه كيلا يبصر وبيصها بالليل فاذا قرب منه وثب عليه فخطفه فلا يكون للملاحين هم الا إلقاء أنفسهم في الماء وعبورهم اليه وربما أكله الا مابقي منه وربما جر فريسته الى عريسه وعرينه والى أجرائه وأشباله وإن ذلك على أميال قالوا فليس الديك من بابة الكلب لانه ان ساوره قهره قهرا ذريعا وسلاح الكلب الذى هو فيه اقوى من صيصة الديك الذى في رجله وصوته الذى أبعد وعينه أيقظ والكلب يحمي نفسه ويحمى غيره ويعول أهله فيكون لصاحبه غنمه وليس عليه غرمه ولما ترمح الدواب من الناس ولما تحذف وتجمح وتنطح وتقتل اهلها في يوم واحد أكثر مما يكون من جميع الكلاب فى عام والكبش ينطح فيعقر ويقتل من غير أن يهاج ويعبث به والبرذون يعض ويرمح من غير أن يهاج به ويعبث وأنت لاتكاد ترى كلبا يعض أحد الا من تهييج شديد وأكثر ذلك أيضاً انما هو النباح والوعيد والكلب يعرف وجه صاحبه وأمته ووجه الزائر ثم ربما غارب عند صاحبه حولا كاملا فاذا أبصره قادما اعتراه من الفرح والبصبصة والالتواء الذي يدل على السرور وعلى شدة الحنين بما لاشيء فوقه وحدثني صديق لى قال كان عندنا جرو كلب وكان عندنا خادم لهجا بتقريبه مولعا بالاحسان اليه كثير المعاينة له فغاب عني الى البصرة أشهرا فقلت لبعض من عندى أتظنون ان فلانا يعني الكلب يثبت اليوم صورة فلان يعني خادمه الغائب وقد فارقه وهو جرو وقد صار كلبا يشغر ببوله قالوا ما نشك انه نسي صورته وجميع بركان يبره قال فبينا انا جالس فى الدار اذ سمعت من قبل باب الدار نباحه فلم أرشكل نابحه من التأنب والتعبث والتوعد ورأيت فيه بصبصة السرور وحنين الالف ثم لم

البث ان رأيت الخادم طالعا علينا وان الكلب ليلتف على ساقيه ويرتفع الى فخذيه وينظر في وجهه ويصيح صياحا يستبين فيه الفرح ولقد بلغ من افراط سروره اني ظننت انه عرض ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة ويمضى الى بغداد ثم يرجع الى العسكر بعد ايام فاعرف بذلك الضرب من البصبصة وبذلك النوع من النباح ان الخادم قدم وحتي قلت لبعضهم عندي ينبغي ان يكون فلان قد قدم وهو داخل عليكم مع الكلب وزعم لى انه ربما التى لهذا الجرو الى أن صار كلبا تاما بعض الطعام فيأكل منه ما أكل ثم يمضى بالباقى ليخبأه وربما القى اليه الشيء وهو شبعان فيحمله حتى يأتى به بعض المخابئ فيضعه هناك حتى اذا جاع رجع اليه فأكله وزعم لي غلمانى وغيرهم من أهل الدرب انه كان ينبح على كل راكب يدخل الدرب الى عراقيب برذونه سائسا كان أو صاحب دابة الا انه كان اذا رأي محمد بن عبد الملك داخلا الى باب الدرب أو خارجا منه لم ينبح البتة لاعليه ولا على دابته بل كان لايقف له على الباب ولا على الطريق ولكنه يدخل الدهليز سريعا فسألت عن ذلك فبلغني انه كان اذا أقبل صاح به الخادم وهوّله بالضرب فيدخل الدهليز وانه مافعل ذلك به الا ثلاث مرات حتى صار إذا رأى محمد بن عبدالملك دخل الدهليز من تلقاء نفسه فاذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكرية ورأيت هذا الخبر عندهم مشهورا قال وكنا اذا تغدينا دنا من الخوان فرجمناه مرة أو مرتين فكان لايقربنا لمكان الرجم ولا يبعد عن الخوان لعلة الطمع فان القينا اليه شيئاً أكله ثم ودنا من أجل ذلك بعض الدنو فكنا نستظهر عليه فيرمي باللقمة فوق مربضه بأذرع فاذا أكلها ازداد فى الطمع فقربه ذلك من الخوان ثم يجوز موضعه الذى كان فيه ولولا ما كنا نقصد اليه من امتحان ماعنده ليصير مايظهر لنا حديثا لكان اطعام الكلب والسنور من الخوان خطأ من وجوه أو لها أن يكون تضرية مضرية له وتدربة حتي ان منها مايمد يده إلى ما على الخوان وربما تناول بفيه ماعليها وربما قاء الذى أكله وربما لم يرض بذلك حتي يعود في قيئه وهذا كله مما لاينبغي ان يحضره الرئيس ويشهده رب الدار وهو على الحاشية اجوز فأنما علماء الفرس والهند واطباء

اليونانيين ودهاة العرب وأهل التجربة من نازلة الامصار وحذاق المتكلمين فانهم يكرهون الاكل بين يدى السباع يخافون نفوسها وعيونها للذى فيها من الشره والحرص والطلب والكلب ويتحلل عند ذلك من أجوافها من البخار الردى وينفصل من عيونها من الأمور المفسدة التي اذا خالطت طبائع الانسان نقضتها وقد روى مثل ذلك عن الثورى عن سماك بن حرب عن ابن عباس أنه قال على منبر البصرة إن الكلاب من الحن وان الحن من ضعفة الجن فاذا غشيكم منها شيء فأطردوها فان لها أنفس سوء ولذلك كانوا يكرهون قيام الخدم بالمذاب والاشربة على رؤسهم وهم يأكلون مخافة النفس والعين وكانوا يأمرون باشباعهم قبل ان يأكلوا وكانوا يقولون في السنور والكلب إما ان تطرده قبل ان تأكل وأما ان تشغله بشيء يأكله ولو بعظم ورأيت بعض الحكماء وقد سقطت من يده لقمة فرفع رأسه فاذا عين غلامه تحدق نحو لقمته واذا الغلام يزدرد ريقه لتحاب فمه من الشهوة وكان ذلك الحكيم جيد اللقم طيب الطعام يضيق على غلمانه فيزعمون ان نفوس السباع وأعينها في هذا الباب أردى وأخبث وبين هذا المعنى وبين قولهم في اصابة العين الشيء العجيب المستحسن شركة وقرابة وذلك انهم قالوا قد رأينا رجالا لا ينسب ذلك اليهم وفيهم من اصابة العين مقدار من العدد لا نستطيع ان نجعل ذلك النسق من باب الاتفاق وليس الى رد الخبر سبيل لمواترته ومرادفته ولان العيان قد حققه والتجربة قد ضمت اليه وفي الحديث المأثور في العين التي أصابت سهل بن حنيف فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك بالذي أمر وذلك مشهور وقالوا لولا فاصل ينفصل من عين المستحسن الى بدن المستحسن حتى يكون ذلك الداخل عليه هو الناقص لقواه لما جاز أن يلقى المكروه من انسان في خيره وموضعه من غير تماس ولا تصادم ولا مناضل ولا عامل لاقى معمولا فيه ولا يجوز أن يكون المعتل بعد صحة معنى بدنه ولا تنتقض الاخلاط ولا تتزايل الا لأمر يعرض لانه حينئذ يكون ليس بأولى بالانتقاص من جسم آخر وان جاز للصحيح ان يعتل من غير حادث جاز للعليل أن يبرء من غير حادث وكذلك القول في الحركة والسكون واذا

جاز ذلك كان الغائب قياسا على الحاضر الذى لم يدخل عليه شيء من مستحسن له فاذا كان لا بد من معنى قد عمل فيه فليس لذلك المعنى وجه الا ان يكون انفصل اليه شيء عمل فيه والا فكيف يجوز أن يعتل من ذات نفسه وهو على سلامته وتمام قوته ولم يتغير ولم يحدث عليه ما يغيره فهو جسم ثابت فى السلامة من الاعراض سواء وهذا جواب المتكلمين جامعاً لاقطار الكلام متمكناً في الصناعة يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين فى وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة والعالم عندنا هو الذي يجمعهما والمصيب الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الاعمال ومن زعم ان التوحيد لا يصح الا بابطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام فى التوحيد وكذلك اذا زعم ان الطبائع لا تصح اذا قرنتها بالتوحيد ومن قال فقد حمل عجزه على الكلام فى الطبائع وانما يأنس منك الملحد اذا لم يرعك التوقير على التوحيد الى تحسن حقوق الطبائع لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها واذا كانت الاعمال الدالة على ذلك قد دفعت الدليل فقد أبطلت المدلول عليه ولعمري ان في الجمع بينهما بعض الشدة وأنا أعوذ بالله تعالى أن أكون كلما غمز قناتى باب من الكلام صعب المدخل نقضت ركناً من أركان مقالتي ومن كان كذلك لم ينتفع به فان قال قائل وما بلغ من أمر هذا الفاضل الذى لا يشعر به القوم الحضور ولا الذي انفصل منه ولا المار بينهما الملتقى له ببدنه وليس دونه شيء وكيف لم يعمل فى الاقرب دون الأبعد والاقرب إنسان مثله ولعله أن يكون طبعه أشد اجتذاباً للآفات وبعد فكيف يكون شيء يصرع الصحيح ويضجع القائم وينقض القوى ويمرض الاصحاء ويصدع الصخر ويهشم العظم ويقتل الثور ويهدى الحمار ويجرى فى الجماد مجراه في النبات ويجرى فى الموات مجراه في الحيوان ويجرى فى الصلابة والملاسة جريه فى الاشياء السخيفة الرخوة وهو مما ليس له صدم كصدم الحجر أو غرب كغرب السيف أو حد كحد السنان وليس من جنس السم وليس من جنس الغذاء فيحمل على نفوذ الغذاء وليس من جنس السحر فيقال إن العمار عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائم فلعل ذلك إنما كان شيئاً وافق

شيئاً قيل لهم قد تعلمون كيف مقدار سم الجرادة أو سم الأفعى وكيف لو وزنتم الجرادة قبل لسعها وبعده لوجدتموها على حال واحدة وأنت ترى كيف تفسخ عقد بدن الفيل وكيف تنقص قوى البعير من غير صدم الحجر أو حد كحد السنان فان قلت وهل ناب الافعي وإبرة العقرب إلا في سبيل حد السنان قلنا إن البعير لو كان انما ينفسخ لطعن العقرب بابرتها لما كان ذلك لا يبلغ منها مقدار التحسن فقط ولكنه لا بد أن يكون ذلك لأحد أمرين إما أن تمج العقرب فيه شيئاً من إبرتها فيكون طبع ذلك السم كالصل والزنديل وإما أن يكون طبع ذلك الدم اذا لاقاه طبع ذلك الناب وتلك الابرة أن يحمل فيقتل بالاجماد أو يذيب فيقتل بالاذابة فأيهما كان فان الأمر على ماصدرتم به المسألة ولا تنازع بين الاعراب والاعراب ناس إنما وضعوا بيوتهم وسط السباع والاحناش والهمج فهم ليس يعبرون إلا بها ولا يعرفون سواها وقد أجمعوا ان الافعي اذا هرمت لم تطعم ولا يبقى في فمها دم وانها تنكز بانفها ولا تطعن به ولا تعض بفيها فيبلغ النكز بها ما كان يبلغ قبل ذلك اللدغ وهل عندنا فى ذلك الا تكذيبهم والرجوع الى الفاصل الذى أنكرتموه لان أحداً لا يموت من تلك النخسة وان كان ليس هناك أكثر من تلك الغمزة وقال العجاج أو ابنه رؤبة

كنتم كمن أدخل في جحر يدا * فاخطا الافعى ولاقى الاسودا

ثم قال * بالشم الا بالسم منه أقصدا * وقال الآخر

أصم ماشم من خضراء أيبسها * أو مس من حجر أوهاه فانصدعا

وقد حدثني الاصمعى بفرق مابين النكز وغيره عند الاعراب وههنا أمثال نضربها وأمور قد عاينتموها يذال بها المعني عندكم ويسهل بها المدخل قولوا لنا مابال العجين يكون فى أقصى الدار ويقلق انسان بطبخه فى أدنى الدار فلا يفلح ذلك العجين أبداً ولا يختمر فما ذلك الفصل وكيف يقولون يصدم ذلك كصدم الحجر أو يغرب كغرب السيف وكيف لم يعرض ذلك الفساد في كل معجون هو أقرب اليه من ذلك العجين وعلى ان نكز الحية التي تصف الشعراء بان المنكوز

ميت لا محالة فى سبيل ماحدثنى به حذاق الاطباء ان الرجل يصيب الحية من دواهى الحيات بعصاة فيموت الضارب لانهم يرون ان شيئاً فصل من الحية فجرى فيها حتي داخل الضارب فقتله والاطباء أيضا والنصارى اجراء علي دفع الرؤيا والعين وهـذه الغرائب التى تحكى عن الحيات وصرع الشـيطان الانسان من غيرهم فاما الدهرية فمنكرة للشياطين والجن والملائكة والرؤيا والرقى وهم يرون ان أمرهم لايتم لهم الا بمشاركة أصحاب الجهات وقد نجد الرجل ينقف شحم الحنظل وبينه وبين صاحبه مسافة صالحة فيجد في حلقه مرارة الحنظل وكذلك السوس اذا عولج به وبينه وبين الانسان مسافة متوسطة يجد فى حلقه حلاوة السوس وناقف الحنظل لاتزال عينه تهمل مادام ينقفه ولذلك قال أبو عبيدة وهو الذى يقول (١)

كأنى غداة البين يوم تحملوا * لدى سمرات الحى ناقف حنظل

يخبر عن بكائه ويصف درور دمعته فى أثر الحمول فشبهه بناقف الحنظل ذكره امرؤ القيس فى شعره

عوجا على الطلل المحيل لعلنا * نبكى الديار كما بكى ابن حذام

ويزعمون أنه أول من بكى فى الديار وقد نجد الرجل يقطع البصـل ويكسر الخروب فتدمع عيناه وننظر الانسان يديم النظر فى العين الحمرة فتعترى عينـه حمرة والعرب تقول لهو اعدى من الثوباء كما تقول لهوا عـدي من الجرب وذلك ان من تثاءب مرارا وهو تجاه عين انسان اعترى ذلك الانسان التثاؤب ورأيت ناسا من الاطباء وهم فلاسفة المتكلمين منهم معمر ومحمد بن الجهم وابراهيم بن السندى يكرهون دنو الطامث من اناء اللبن لتسوطه أو تعالج منه شيئاً فكأنهم يرون ان لبـدنها مادام ذلك العرض يعرض لها رائحة لهـا حدة وبخار غليظ يكون لذلك المسوط مفسدا ولا تبعدن هـذا من قلبك تباعدا يدعوك الى انكاره والى تكذيب أهله فان ابيت الانكار ذلك فما تقول فى فرس تحصن تحت صاحبه وهو فى وسط موكبه وغبار الموكب قد حال بين استبانة بعضهم لبعض وليس في الموكب حجر ولا رمكة فيلتفت

(١) البيت لامرئ القيس

صاحب الحصان فيرى حجرا او رمكة على قاب عرض اوعرضين او غلوة أو غلوتين حدثني كيف شم هذا الفرس تلك الفرس الانثى وما باله يدخل دارا من الدور وفي الدار الاخرى ذكر فيتخصى مع دخوله من غير معاينة وسماع صهيل وهذا الباب سيقع في موضعه ان شاء الله تعالى وقال أبو سعيد عبد الملك بن قريب كان عندنا رجلان يعينان الناس فمر أحدهما بحوض من حجارة فقال تالله مارأيت كاليوم قط فبطل الحوض فرقتين فأخذه أهله فضببوه بالحديد فمر عليه ثانية فقال وأبيك لقل ما اضررت اهلك فيك فتطاير اربع فرق قال وأما الآخر فانه سمع صوت بول وراء حائط فقال انه لين الشخب فقالوا له انه فلان ابنك قال وانقطاع ظهراه الله قالوا انه لا بأس عليك قال لا يبول والله بعدها ابدا قال فما بال حتى مات قال الأصمعي ورأيت انا رجلا عيونا يدعي عليه بقود قال اذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني وقال وسمع بقرة تحلب فأعجبه صوت شخبها فقال أيتهن هذه فخافوا عينه فقالوا الفلانية الأخرى وروا بها عنها فهلكتا جميعاً المورى بها والمورى عنها وقد حمل الناس كما ترى على العين مالا يجوز ومالا يسوغ في كتاب من المجازات وقول الذى عان اذا رأيت الشيء يعجبني وجدت حرارة تخرج من عيني من أعظم الحجج في الفاصل من صاحب العين الى المعين قال ويقال ان فلانا لعيون اذا كان يستشرف للناس ليصيبهم بعين ويقال عنت فلانا أعينه عيناً اذا أصبته بعين ورجل معين ومعيون اذا أصبته بالعين وقال عباس بن مرداس

قد كان قومك يحسبونك سيداً * واخال أنك سيد معيون

ويقال للعيون إنه لنفوس وما أنفسه أي ما أشد عينه وقد أصابته نفس اوعين وأما قول القائل ان من لؤم الكلب وغدره أن اللص اذا أراد دار أهله أطعم الكلب الذى يحرسهم قبل ذلك مراراً ليلاً ونهاراً ودنا منه ومسح ظهره حتى يثبت صورته فاذا أتاه ليلا أسلم اليه الدار بما فيها فان هذا التأويل لا يكون إلا من نتيجة سوء الرأي فان سوء الرأى يصور لأهله الباطل في صورة الحق وفيه بعض الظلم للكلب

وبعض المعاندة للمحتج عن الكلاب وقد ثبت للكلاب استحقاق المدح من حيث أراد أن يهجوه منه فان كان الكلب لفرط الفه وشكره كف عن اللص عند ذكر احسانه واثبات صورته فما أكثر من يفرط عليه الحياء حتى ينسب الى الضعف والكرم وحتى ينسب الى الغفلة وربما شاب الرجل بعض الفطنة ببعض التغافل ليكون أتم لكرمه فان الفطنة اذا تمت منعت من أمور كثيرة مالم يكن الخيم كريماً والعرق سليما وانك أيها المتأول حين تكلف الكلاب مع ماقد عجل اليه اللص من اللطف والاحسان أن يتذكر نعمة سالفة وأن يحترس من خديعة المحسن اليه مخافة أن يكون يريد باكرامه سوء لحسن الرأي فيه بعيد الغاية في تفضيله ولو كان للكلاب آلة يعرف بها عواقب الامور وحوادث الدهور وكان يوازن بين عواجلها وأواجلها وكان يعرف مصادرها ومواردها ويختار أنقص الشرين وأتم الخيرين ويتثبت في الامور ويخاف الغيب ويأخذ بحجة ويعرف الحجة من الشبهة والثقة من الريبة ويتثبت في العلة ويخاف زيغ الهوى وسرف الطبيعة لكان من كبار المكلفين ومن رؤس الممتحنين والعادة القائمة والسن الذى لا يخطي ولا يغادر النظام الذي لا ينقطع ولا يختلط في ذوى التمكين والاستطاعة وفي ذوى العقول والمعرفة إن أبدانهم متى أحست بأصناف المكروه والمحبوب وازنوا وقابلوا وغيروا وميزوا بين أتم الخيرين وأنقص الشرين ووصلوا كل مضرة ومنفعة في العاجل والآجل وتتبعوا مواقعها وتدبروا مساقطها كيما يعرفوا أوزانها واختاروا بعد ذلك أتم الخيرين وأنقص الشرين فأما الشر صرفا والخير محضا فانهم لا يتوقفون عندهما ولا يتكافون الموازنة بينهما وانما ينتظرون فى المكروه وفي بعض ما يخشي في معارضته ولا يوثق بعراه ويكتشفه فيحملونه على خلاص الذهن كما يحمل الذهب على الكير وأما ذوات الطبائع المسخرة والغريزة المجهولة انما تعمل من جهة التسخير والتنبيه كالسم الذى يقتل بالكمية ولا يغذو وكالغذاء الذى يغذو ويقتل بالمجاوزة بمقدار الاحتمال وان هيأ الله عز وجل أصناف الحيوان المسخرة لدرك مالا تبلغه العقول اللطيفة بلغته بغير معاناة ولا روية ولا توقف ولا خوف من عاقبة

ومتى تقدمت أهل العقول المبسوطة المتمكنة بطبائعها المقصورة غير المبسوطة لم يمكنها أن تعرف من تلك الطبيعة ما كان موازيا لتلك الأمور ببديهة ولا فكرة واذا كانت كذلك فليس بواجب أن تكون كلما أحسنت أمراً أمكنها أن تحسن ما كان في وزنه في الغموض والالطاف وفي الصنعة التي لا تمكن الا بحسن التأني وببعد الروية وبمقابلة الأمور بعضها ببعض وهذا الفن لا يصان إلا عند من جهته العقل ويمكنه لاستدلال والكف عنه والقطع له اذا شاء وباتمامه اذا شاء وبلوغ غايته والانصراف عنه الى عقيبه من الافعال ومن جهته تعرف العلل ويمكنه اكراه نفسه على المقاييس والتكلف والتأني ومتى كانت الآلة موجودة فانها تنبيك على مكانها والا كان وجودها كعدمها وبأحسن الغريزى تشعر صاحبها بمكانها لا يحتاج في ذلك الى تلقين واشارة والى تعليم وتأديب وان كان صاحب الآلة أحمق من الحبارى وأجهل من العقرب والعاقل الممكن لا يفضل في هذا المكان على الاشياء المسخرة ولا ينفصل منها في هذا الباب وليس عند البهائم والسباع الا ما صنعت له ونصبت عليه وألهمت معرفته وكيفية تكلف أسبابها والتعلم لها من تلقاء أنفسها فاذا أحسن العنكبوت نسج ثوبه وهو من أعجب العجب لم يحسن عمل بيت الزنبور واذا صنع النحل خلاياه مع عجيب القسمة التي فيها لم يحسن أن يعمل مثل بيت العنكبوت والسرفة التى يقال أصنع من سرفة لا يحسن أن يبني مثل بيت الأرضة على جفاء هذا العمل وغلظه ودقة ذلك العمل ولطافته وليس كذلك العاقل وصاحب التميز ومن ملك التصرف وحول الاستطاعة لانه يكون ليس بنجار فيتعلم النجارة وله بعد الحذق الانتقال الى الفلاحة ثم ربما ملها بعد أن حذقها وصار الى التجارة وقال صاحب الكتاب وزعمت أن قولهم أسمح من لافظة ان اللافظة الديك لانه يعض على الحبة بطرفي منقاره ثم يحذف بها قدام الدجاجة وما رأينا أحداً من العلماء ومن الذين رووا هذا المثل يقول ذلك والناس في هذا المثل رجلان زعم أحدهما أن اللافظة العنز لأن العنز ترعى في روضة وتأكل من معلفها وهي جائعة فيدعوها الراعي وصاحبها باسمها الى الحلب فتترك ما هي فيه

حتى تنهك حلباً وقال الآخر اللافظة الرحى لانها لا تمسك في جوفها شيئاً مما صار في بطنها وكيف تكون اللافظة الديك وليس لنا أن نلحق في هذه الكلمة تاء التأنيث في الاسماء المذكرة واللافظة مع هاء التأنيث أشبه بالعنز والرحي وإنما سمينا الجمل راوية وحامل العلم راوية وعلامة حين احتج أهل اللغة على ذلك ولا يختلفوا فيه وكيف ولا اختلاف بينهم ان الديك خارج من هذا التأويل وإن اختلافهم بين العنز والرحى وبعد فقد زعم ثمامة بن أشرس رحمه الله تعالى أن ديكة مرو تطرد الدجاج عن الحب وتنزع الحب من أفواه الدجاج وقال صاحب الديك قولهم أسمح من لافظة لا يليق بالرحى لان الرحي صخرة صماء والذي يخرج مافي بطنها المدبر لها والعرب انما تمدح بهذه الاسماء الانسان وما جرى مجراه في الوجوه الكثيرة ليكون ذلك مشحذة للاذهان وداعية الى السباق وبلوغ الغايات وأما ترك الشاة للعلف فليس بلفظ للعلف الا أن يحملوا ذلك على المجازات البعيدة وقد يكون ذلك عند بعض الضرورة والشاة ترضع من خلفها حتى تأتي على أقصى لبن في ضرعها وتنثر العلف وتقلب المحاب وتنطح من قام عليها وأتاها بغذائها وهى من أموق البهائم وزوجها شتيم المحيا منتن الريح يبول في جوف فيه وفي حلق خياشيمه وتقول العرب ما هو الا تيس في سفينة اذا أرادوا به الغباوة وما هو الا تيس اذا أرادوا به نتن الريح والعنز خرقاء وأبوها وهو التيس أخرق منها وأمر الديك وشأنه كيف يلفظ ماقد صار في منقاره وكيف يؤثر به طروقته من ذات نفسه شيء يراه الناس ويراه جميع العباد وهذه المكرمة وهذا التعزل وهذا الايثار شيء يراه الناس لم يكن في ذكر قط ممن يزاوج الا الديك والديك أحق بهذا المثل فان كنتم قد صدقتم على العرب في تأويل هذا المثل فهذا غلط من العرب وعصبية للبن وعشق الدقيق والمثل انما يلفظ به رجل من الاعراب وليس الاعرابى بقدوة الا في الجر والنصب والرفع وفي الاسماء وأما غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب فالديك أحق بهذا المثل الذى ذكرنا وسائر خصاله الشريفة والذى يدل على ان هذا الفعل في الديك انما هو من جهة الغزل لا غير وانه لا يفعل

ذلك اذا هرم وعجز عن السفاد وانصرفت رغبته عنهن وهو في أيام شبابه انهم وأحرص على المأكول وأضن على الحب فماله لم يؤثرهن به عند زهده ويؤثرهن عند رغبته وما باله لم يفعل ذلك وهو فروج صغير وصنع ذلك حين أطاق السفاد فتركه لذلك في العجز عنهن وبذله في الاوقات القوت عليهن دليل على ذلك قلنا وهذا بين لا يرده الا جاهل أو معاند وقال صاحب الكلب لسنا ننكر خصال الديك ومناقبه من الاخبار المحمودة ولولا ذلك ما مثلنا بينه وبين الكلب ومن يمثل بين العسل والخل في وجه الحلاوة والحموضة وكيف يفضل شيء على شيء وليس في المفضول شيء من الفضل والذي قلتم من قذفه الحب قدام الدجاج صحيح وليس هذا الذي انكرنا وانما انكرنا موضع المثل الذي صرفتموه الى محبتكم وتركتم ما زال الناس يقلدونهم الشاهد والمثل وان جاز لكم ان تردوا عليهم هذا المثل جاز لكل من كره مثلا أو شاهدا ان يرد عليهم كما رددتم وفي ذلك افساد أمر العرب كله فان زعمت ان الديك كان أحق به فخصومك كثير ولسنا نحيط بأوائل كلامهم على أى مقادير كانوا يضعونها ومن أي شيء اشتقوها وكيف كان السبب ورب شيء انكرناه فاذا عرفنا سببه أقررنا به وقال الحسن مر اياس بن معاوية بديك ينقر حباً ولا يفرقه فقال ينبغي ان يكون هرما وان الهرم اذا القى له الحب لم يفرقه ليجتمع الدجاج حوله والهرم قد فنيت رغبته فيهن فليس همه الا نفسه ورووا عنه انه قال اللافظة الديك الشاب وانه يأخذ الحبة يؤثر بها الدجاج والهرم لا يفعل ذلك وانما هو لا فظة ما دام شابا وقال صاحب الكلب وذكر ابن سيرين عن أبي هريرة ان كلباً مر بامرأة وهو يلهث عند بئر فنزعت خفها فسقته فغفر الله تعالى لها وعنه قال غفر الله لبغى أو لمؤمنة مر بها كلب فنزعت خفها فسقته وقال صاحب الكلب وقال ابن راحة ضرب ناس من السلطان جارا لهم ولببوه وسحبوه وجروه وله كلب قد رباه فلم يزل ينبح عليهم ويشقق ثيابهم ولولا ان المضروب المسحوب كان يكفه ويزجره لقد كان عقر بعضهم أو منعه منهم قال ابراهيم النظام قدمتم السنور على الكلب ورويتم ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب واستحياء السنانير وتقريبها

وتربيتها كقوله عندمسألته عنها انهن من الطوافات عليكم وكل منفعة عند السنور انما هى أكل الفأر فقط وعلى انكم قلما تجدون سنوراً يطلب الفار فان كان مما يطلب ويأكل الفار ولم يعدمكم ان يأكل حمامكم وفراخكم والعصافير التى يتلهى بها أولادكم والطائر يتخذ لحسنه وحسن صوته والذى لابد منه الوثوب على صغار الفراريج فان هو عف عن أموالكم لم يعف عن أموال جيرانكم ومنافع الكلب لا يحصيها الطوامير والسنور مع ذلك يأكل الاوزاغ والعقارب والخنافيس وبنات وردان والحيات ودخالات الاذان والفار والجرذان وكل خبيثة وكل ذات سم وكل شيء تعافه النفس ثم قلتم فى سؤر السنور وسؤر الكلب ماقلتم ثم لم ترضوا به حتى أضفتموه الى نبيكم صلى الله عليه وسلم ولا رحم الله ابراهيم النظام ولا من قال بقوله ولا يشك الناس ان ليس في السباع أطيب أفواها من الكلاب وكذلك كل انسان سائل الريق سائل اللعاب والخلوف لايعرض للمجانين الذين تسيل أفواههم ومن كان لايعتريه الخلوف فهو من البخر أبعد وكما أن طول انطباق الفم يورث الخلوف فكثرة تحلب الافواه بالريق تنفى الخلوف وحتي ان من سال فوه من اللعاب فانما قضوا له بالسلامة من فيه وان استنكهوه مع أشباهه وجدوه طيبا وان كان لايقرب سواء كان على الريق وكذلك يقال ان أطيب الناس أفواها الزنج وان كانت لا تعرف سنوها سواكا على ان الكلب سبع وسباع الطير وذوات الاربع موصوفة بالبخر والذي يضرب به في ذلك المثل الاسد وقد ذكره محمد بن عبدل فى هجائه محمد بن حسان فقال

فنكهته كنكهة اخدرى * شتيم شابك الانياب ورد

وقال بشار

وافسي من الظربان في ليلة الكرى * واخاف من صقر وان كان قد طعم

يهجو بها حماد عجرد ويقال ليس فى البهائم أطيب أفواها من الظباء وزعم علماء البصريين وذكر أبو عبيدة النحوى وأبو اليقظان سحيم بن حفص وأبو الحسن المدائني

وذكر ذلك عن محمد بن حفص عن مسلمة بن محارب وهو حديث مشهور في مشيخة أصحابنا من البصريين ان طاعونا جارفا جاء على أهل دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير ولا كبير وقد كان فيها صبي يرتضع ويحبو ولا يقوم على رجليه فعمد من بقي من المطعونين من أهل تلك المحلة الى باب تلك الدار فسده فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها بعض ورثة القوم ففتح الباب فلما أفضى الى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع أجراء كلبة وقد كانت لاهل الدار فراعه ذلك فلم يلبث ان أقبلت كلبة كانت لاهل الدار فلما رآها الصبي حبا اليها فأمكنته من أطبائها فمصها فظنوا أن الصبي لما بقي فى الدار وصار منسياً واشتد جوعه ورأى أجراءها تستقي من أطبائها حبا اليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت ذلك له وأدام هو الطلب والذى الهم هذا المولود مص إبهامه ساعة يولد من بطن أمه ولم يعرف كيفية الارتضاع هو الذي هداه الى الارتضاع من أطباء الكلبة ولم تكن الهداية شيئاً مجعولا فى طبيعته لما مص الابهام وحلمة الثدى فلما أفرط عليه الجوع واشتدت حاله وطلبت نفسه وتلك الطبيعة فيه دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة الى الطلب والدنو فسبحان من دبر هذا وألهمه وسواه ودل عليه ومثل هذا الحديث ما خبر به عن بابويه صاحب الحمام ولو سمعت بقصصه فى كتاب اللصوص علمت أنه بعيد من الكذب والتزيد وقد رأيته وجالسته ولم أسمع هذا الحديث منه ولكن حدثني به شيخ من مشايخ البصرة ومن النزول بحضرة مسجد محمد بن زغبان وقال بابويه كان عندى زوج حمام مقصوص وزوج حمام طيار وفرخان من فراخ الزوج الطيار قال وكان فى الغرفة ثقب فى أعلاها وقد كنت جعلت قدام الكوة رفاً ليكون مسقطاً لما يدخل ويخرج من الحمام فتقدمت في ذلك مخافة أن يعرض لي عارض فلا يكون للطيار منفذ للتكسب ولورود الماء فبينا أنا كذلك إذ جاءني رسول السلطان فوضعني فى الحبس فنسيت قدر الزوج الطيار والفرخين وما لهما من الثمن وما فيهما من الكرم ومت من رحمة الزوج المقصوص وشغلني الاهتمام بها عن كثير مما أنا فيه فقلت أما الزوج الطيار

فانهما يخرجان ويرجعان ويزقان ولعلهما أن يسلما ولعلهما أن يذهبا وقد كنت ربيتهما حتى تحصنا ووردا فاذا شب الفرخان ونهضا مع أبويهما وسقطا على المعلاة فاما أن يثبتا وأما أن يذهبا ولكن كيف يكون حال المقصوصين ومن أسوأ حالا منهما فخلي سبيلي بعد شهر فلم يكن لي هم الا النظر الى ماخلفت خلفي من الحمام واذا الفرخان قد ثبتا واذا الزوجان قد ثبتا واذا الزوجان الطياران ثبتا على حالهما إلا أني رأيتهما زافين اذ علامة ذلك في موضع الغبب وفي القرطمتين وفي أصول المناقير وفي عيونهما فقلت فكيف يكونان زافين مع استغناء فرخيهما عنهما ولا أشك في موت المقصوصين ثم دخلت الغرفة فاذا هما على أفضل حال فاشتد تعجبي من ذلك فلم البث ان دنوا الى أفواه الزوج الكبار يصنعان كما يصنع الفرخ في طلب الزق ورأيتهما حين زقاهما فاذا هما لما اشتد جوعهما وكانا يريانهما يزقان الفرخين ويريان الفرخين كيف يستطعمان ويستزقان حملهما الجوع وحب العيش وتلهب العطش وما في طبعهما من الهداية على أن طلبا ما يطلب الفرخ فزقاهما ثم صار الزق عادة في الطيار والاستطعام عادة في المقصوص ومن الحمام حمام يزق فراخه ولا يزق شيئاً من فراخ غيره وان دنا منه مع فراخ غيره وشاكل فرخيه في السن واللون طردهما ولم يزقهما ومن الحمام ما يزق كل فرخ دنا منه كما أن من الحمام حمام لا يزق فراخه البتة حتى يموت وانما تعظم البلية على الفرخ اذا كان الاب هو الذي لا يزق لأن الولادة وعامة الحضن والكفل على الام فاذا ظهر الولد فعامة الزق على الأب كأنه صاحب العيال والكاسب عليهم وكالام التي تلد وترضع وأعجب من هذا الطائر الذي يقال له كاسر العظام فانه يبلغ من بر الفراخ كليهما بعد القيام بشأن فراخ نفسه أنه يتعاهد فرخ العقاب الثالث الذي تخرجه من عشها لانه أشره وأرغب بطناً وأقسى قلباً وأسوء خلقا من أن يحتمل إطعام ثلاثة وهي مع ذلك سريعة الجزع فتخرج ما فضل عن فرخين فاذا أخرجته قبله كاسر العظام وأطعمه لأن العقاب من اللائي تبيض ثلاث بيضات في أكثر حالاتها قال وعيّر رجل من بني اسد بأكل لحوم الكلاب وذهب الى قوله

يا فقعسى لِمَ أكلته لِمَه * لو خافك الله عليه حرمه
* فما أكلت لحمه ولا دمه *

قال فقال الاعرابي اما علمت أن الشدة والشجاعة والبأس والقوة من الحيوان في ثلاثة أصناف العقاب في الهواء والتمساح في ساكن الماء والاسد في ساكن الغياض وليس في الارض لحم أشهى الى التمساح ولا الى الاسد من لحم الكلب فان شئتم فعدوه عدواً لهما فانهما يأكلانه من طريق الغيظ وطلب الثار وان شئتم فقولوا غير ذلك وبنو أسد أسد الغياش وأشبه شئ بالأسد فلذلك تشتهي من اللحمان أشهاها الى الأسد والدليل على أنهم أسد وفى طباع الأسد انك لو أحصيت جميع القتلى من سادات العرب وعن فرسانهم لوجدت شطرها أو قريباً من شطرها لبني أسد قالوا ثم بعد ذلك كله إن الكلب لا يرضى بالنوم والربوض على بياض الطريق وعلى عفر التراب وهو يرى ظهر البساط ولا يرضى بالبساط وهو يجد الوسادة ولا يرضى بالمطارح دون مرافق المطارح فمن نبله في نفسه أن يتخير أبداً أنبل موضع فى المجلس وحيث يدعه رب المجلس صيانة له وابقاء عليه الا ان يتصور فيه من لا يجوز الا أن يكون صدراً فلا يقصر الكلب دون أن يرقى عليه وقد كان فى حجج معاوية فى اتخاذ المقصورة بعد ضرب أياه بالسيف أنه أبصر كلباً على منبره هذا على ما طبع عليه من إكرام الرجل الجميل اللباس حتى لا ينبح عليه ان دنا من باب أهله مع الوثوب على كل أسود وعلى كل رث الهيئة وعلى كل سفيه تشبه حاله حال أهل الريبة ومن كبره وشدة تجبره وفرط حمايته وانفته واحتقاره انه متى نبح على رجل في الليل ولم يمنعه حارس ولم يمكنه الفوت فدواؤه عند الرجل انه لا ينجيه منه إلا أن يقعد بين يديه مستخزيا مستسلما وانه اذا رآه فى تلك الحال دنا منه فشفر عليه ولم يهجه كأنه حين ظفر به ورآه تحت قدرته انه يسمه بميسم ذل كما كانت العرب تجز نواصي الاسرى من الفرسان اذا رامت أن تخلى سبيلها وتمن عليها ولو كف العربي عن جز ناصيته لوسمه الأسير من الشعر والقوافى الخالدات البواقي التي هي أبقى من الميسم بما هو أضر عليه من جز

ناصيته ولعله لا يبلغ أهله حتى يستوي مع سائر شعر رأسه ولكن ذل الجز لا يزال يلوح في وجهه ولا يزال له أثر في قلبه وذكر أن مطرف بن عبد الله كان يكره أن يقال للكلب اخسأ وما أشبه ذلك وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان أربابه لا يمنعونه من دخول مصلاه قال اللهم امنعهم بركة صيده دليل على حسن رايه فيه قالوا ومر المسيح بن مريم في الحواريين بجيفة كلب فقال بعضهم ما أشد نتن ريحه قال فهلا قلت ما اشد بياض اسنانه قالوا وقال رجل لكلب اخسأ ويلك فقال همام بن الحارث الويل لأهل النار والهراش الذي يجري بينها وهو شر يكون بين جميع الاجناس المتفقة كالبرذون والبرذون والبعير والبعير والحمار والحمار وكذلك جميع الأجناس فأما الذي يفرط ويتم ذلك فيه ويتمتع ناس من الناس ويقع فيه القمار ويتخذ لذلك وينفق عليه ويغالى به فالكلب والكلب والكبش والكبش والديك والديك والسمان والسمان فأما الجراد فانه لا يقاتل الجراد حتى يشد رجل احدهما في طرف خيط ويشد الجراد الآخر بالطرف الآخر ويكون بينهما من المساواة والالتفات والعض والخمش واراقة الدم وفري الجلود مالا يكون بين شيئين من الانواع التي يهارش بها والذي يحدث للجراد طبيعة القتال الرباط نفسه فان انقطع الخيط وانحل العقد اخذ هذا شرقا وهذا غربا ولم يلتفتا ابداً واذا تقابلت جحرة الفأر وخلا لهما الموضع فبينهما شر طويل ولكنه لا يعدو الوعيد والصخب ولا يلتقي منهما اثنان أبداً وحدثني ثمامة بن اشرس قال كان بقى في الحبس جحر فأر وتلقاءه جحر آخر فيرى لكل واحد منهما وعيداً وصياحاً ووثوباً حتى يظن أنهما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه فبينا كل واحد منهما في غاية الوعيد إذ مر هارباً حتى دخل جحره فما زالا كذلك حتى اتى الله تعالى بالفرج وخلى سبيلي وزعم أن السلوقية الطويلة المناخر اجود شما والشم العجيب والحسن اللطيف من ذلك إلا ان ذلك في طلب الذكور للاناث والاناث للذكور خاصة واما شم المأكول واسترواح الطعم فللسباع في ذلك ماليس لغيرها وان الفأر ليشم وان الذر والنمل ليشم وان السنانير لتشم وكذلك الكلب وله في ذلك

فضيلة ولا يبلغ ما يبلغ الذئب وقال إعرابى

كان أبو الصحيم من أربابها * صب عليه الله من ذئابها

اطلس لا يخاش من كلابها * يلتهم الطائر فى اهابها

* فى الجرية الاولى فلا مشى بها *

الا تراه يجتهد فى ذئب لا يخاش من الكلاب

باب ما يشبه بالكلب وليس هو منه

واذا جرى الفرس المحجل شبهوا قوائمه بقوائم الكلب اذا ارتفعت فى بطنه فيصير تحجيلها كأنه اكلب صغار تعدو كما قال العمانى

كأن تحت البطن منه اكلبا * بيضاً صغاراً ينتهشن المنقبا

وقال البدرى

كأن أجراء كلاب بيض * دون صفاقيه الى التغريض

وقال الآخر

كأن قطاً أو كلاباً أربعاً * دون صفاقيه اذا ماضبعا

ويصفون الطلع اول ما يبدو صغاراً باذان الكلاب البيض وقال في ذلك الراجز

أنعت جماراً على سحيض * يخرج بعد النجم والتبميض

* طلعاً كآذان الكلاب البيض *

ويوصف صوت الشخب فى الاناء بهرير هراش الكلاب وقال إعرابي

كأن خلفيها اذا ماهرا * جرو كلاب هورشا فهرا .

وقال الآخر

كأن صوت شخبها المسحنفر * بين الأباهيم وبين الخنصر

* هراش اجراء ولما تثغر *

وقال أبو داود

طويل طامح الطرف * الى وهوهة الكلب

وزعم الهيثم بن عرابي قال كان رجل يسمى كلباً وكان له بني يلعب في الطريق فقال له رجل ابن من انت فقال ابن وَوْ وَوْ وَوْ ويحبون ان يكون ذنب الكلب الصائد يابساً ليس له من اللحم قليل ولا كثير ولذلك قال * تلوى باذناب قليلات اللحام

وقال الشاعر

انى وطلب ابن غلاق ليقربني * كالطالب الكلب يبغى الطرق في الذيب

الطرق الشحم اليسير يقال ليس به طرق ويقال ليس في الأرض فرخ ولا جرو ولا شيء من الحيوان أسمن ولا أرطب ولا أطيب من اجراء الكلب وهي أشبه شيء بالحمام فان فراخ الحمام أسمن شيء ما دامت صغاراً من غير ان تسمن فاذا بلغت لم تقبل الشحم وكذلك أولاد الكلاب وقال الآخر

واغضف الأذن طاوى البطن مضطمر * لِوَ هوه ردم الخيشوم هرار

الاصمعي قال قال اعرابي أصابتنا سنة شديدة ثم أعقبتها سنة تتابع فيها الامطار فسمنت الماشية وكثرت الالبان والاسمان فسمن ولدان الحي حتى كان است أحدهم جرو يتمطى أبو الحسن قال قال أبو العباس أمير المؤمنين لابي دلامة سل قال كلباً قال ويلك ما تصنع بالكلب قال قلت أصيد به قال فلك كلب قال ودابة قال ودابة قال وغلاما يركب الدابة ويصيد قال وغلاماً قال وجارية قال وجارية قال يا أمير المؤمنين كلب وغلام وجارية ودابة هؤلاء عيال ولا بد من دار قال ودار قال ولا بد لهؤلاء من غلة ضيعة قال أقطعناك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة قال وأي شيء الغامرة قال ليس فيها نبات قال إنا أقطعك خمسمائة جريب من فيافي بني أسد غامرة قال قد جعلنا لك المائتين عامرتين كلهما ثم قال أبقى لك شيء قال نعم اقبل يدك قال أما هذه فدعها قال مامنعت عيالي شيئاً أهون عليهم فقد امنه أبو الحسن عن أبي مريم قال كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدين حتى توارى من غرمائه ولزم منزله فأتاه غريم له عليه شيء يسير فتلطف حتى وصل اليه فقال له ما تجعل لي ان أنا دللتك على حيلة تصير بها الى

الظهور والسلامة من غرمائك قال أقضيك حقك وأزيدك مما عندي مما تقر به عينك فتوثق منه بالايمان فقال له اذا كان غدا قبل الصلاة مر خادمك يكنس بابك وفناءك ويرش ويبسط على دكانك حصراً ويضع لك متكأ ثم امهل حتى يصبح ويمر الناس ثم تجلس وكل من يمر عليك ويسلم انبح له فى وجهه ولا تزيدن على النباح أحداً كائنا من كان ومن كلمك من أهلك أو خدمك أو من غيرهم أو غريم أو غيره حتى تصير الى الوالي فاذا كلمك فانبح له واياك أن تزيده أو غيره على النباح فان الوالى اذا أيقن ان ذلك منك جد لم يشك انه قد عرض لك عارض من مس فيخلى عنك ولا يغرى عليك قال ففعل فمر به بعض جيرانه فسلم عليه فنبح فى وجهه ثم مر آخر ففعل مثل ذلك حتى تسامع غرماؤه فأتاه بعضهم فسلم عليه فلم يزده على النباح ثم آخر فتعلقوا به فرفعوه الى الوالى فسأله الوالى فلم يزده على النباح فرفعه معهم الى القاضي فلم يزده على ذلك فأمر بحبسه أياما وجعل عليه العيون وملك نفسه وجعل لا ينطق بحرف سوى النباح فلما رأي القاضى ذلك أمر باخراجه ووضع عليه العيون فى منزله وجعل لا ينطق بحرف الا النباح فلما تقرر ذلك عند القاضى أمر غرماءه بالكف عنه وقال هذا رجل به لمم فمكثت ما شاء الله تعالى ثم ان غريمه الذي كان علمه الحيلة أتاه متقاضياً لعدته فلما كلمه جعل لا يزيدة على النباح فقال له ويلك يافلان وعلي أيضاً وأنا علمتك هذه الحيلة فجعل لا يزيده على النباح فلما يئس منه انصرف يائساً مما يطالبه به قال أبو الحسن عن سلمة بن خطاب الازدى قال لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم الى ملكهم فقالوا له قد أمكنتك الفرصة من العرب بتشاغل بعضهم مع بعض لوقوع بأسهم بينهم فالرأى لك ان تغزوهم الى بلادهم فانك ان فعلت ذلك بهم نلت حاجتك فلا تدعهم حتى تنقضى الحرب التى بينهم فيجتمعوا عليك فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم فأبوا عليه الا ان يغزوا العرب في بلادهم فلما رأى ذلك منهم أمر بكلبين فحرش بينهما فاقتتلا قتالا شديداً ثم دعا بثعلب فخلاه فلما رأى الكلبان الثعلب تركا ما كانا فيه وأقبلا عليه حتى قتلاه فقال ملك الروم كيف ترون

هكذا العرب تقتتل بينها فاذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا فعرفوا صدقه ورجعوا عن رأيهم قال وقال المغيرة لرجل خاصم اليه صديقاً له وكان الصديق توعده بصداقة المغيرة فاعلمه الرجل ذلك وقال ان هذا يتوعدني بمعرفتك اياه وزعم انها تنفعه عندك قال أجل انها والله لتنفع وانها لتنفع عند الكلب العقور فاذا كان الكلب العقور كذلك فما ظنك بغيره وأنت لا تصيب من الناس من تنفع عنده المعرفة من الف واحد وهذا الكرم في الكلاب عام والكلب يحرس ربه ويحمي حريمه شاهداً وغائباً وذاكراً وغافلاً ونائماً ويقظان ولا يقصر عن ذلك وان جفوه ولا يخذلهم وان خذلوه والكلب أيقظ الحيوان عينا في وقت حاجتهم الى النوم وانما نومه نهاراً عند استغنائهم عن حراسة ثم لا ينام الا غراراً والا غشاشاً وأغلب ما يكون النوم عليه وأشد اسكارا له ان يكون كما قال رؤبة * لاقيت مطلاً كنعاس الكلب * يعني بذلك القرمطة في المواعيد وكذلك فانه أنوم ما يكون ان يفتح عينه بقدر ما يكفيه للحراسة وذلك ساعة وهو في هذا كله أسمع من فرس وأحذر من عقعق مع بعد صوته و قيل لرجل من العرب ما الجمال فقال غؤور العينين واشراف الحاجبين ورحب الأشداق وبعد الصوت هذا مع قلة السآمة والصبر على الجفوة واحتمال الجراحات الشداد وجوائف الطعان ونوافذ السهام واذا ناله ذلك لم يزل ينظفه بريقه لمعرفته بان ذلك هو داوؤه حتى يبرء لا يحتاج الى طبيب ولا الى مرهم ولا الى علاج وتقول العرب الضب أطول شيئاً ذماء والكلب أعجب في ذلك منه وانما عجبوا من الضب لانه يغبر ليلته مذبوحا مفرى الأوداج ساكن الحركة حتى اذا قرب من النار تحرك كانهم يظنون انه قد كان حياً وان كان في العين ميتاً والافعي تبقى أياماً تحرك فاما الذي يعتريه الاختلاج بعد جموده ليلة فلحم البقر والجزر تختلج وهي على المعاليق اختلاجاً شديداً والحية يقطع ثلثها الأسفل فتعيش وينبت ذلك المقطوع قال والكلب أشد الاشياء التي تعيش على الجراح التي لا يعيش عليها شيء الا الكلب والخنزير والخنفساء والكلب أشد الاشياء فكا وأرهفها ناباً وأخبثها فما وأكثرها ريقاً يرمي بالعظم المدمج فيعلم بالغريزة انه ان

عضه رضه وان باعه استمرأه وهو الوف للناس مشارك من هذا الموضع العصافير والخطاطيف والحمام والسنانير بل يزيد على ذلك في باب الخاص وفي باب العام فاما باب الخاص فان من الحمام من هو طوراني وحشي ومنه ماهو آلف أهلي والخطاف من القواطع غير الأوابد اذا قطع الى الأنس لم يبن بيته الا في أبعد المواضع من حيث لا تناله أيديهم فهو مقسوم على بلاده وبلاد من اضطرته اليه الحاجة والعصافير تكون في القرب حيث تمتنع منهم في أنفسها والكلاب مخالطة لها ملابسة ليس منها وحشي وكلها أهلي وليس من القواطع من الأوابد ما يكون آنس بالناس من كثير مما يوصف بالانس والالف من الناس دون سواهم وفي السنانير الوحشية والاهلية وعلى ان الف الكلب فوق الف الانسان الألوق وهو في الكلب أغرب منه في الحمام والعصفور لانه سبع والحمام بهيمة والسبع بالسباع أشبه فتركها ولم يناسبها ورغب عنها وكيف وهو يصيد الوحوش ويمنع جميع السباع الافساد فذلك أحمد له وأوجب لشكره ثم يصير في كثير من حالاته آنس بالناس منه بالكلاب دنية وقصره ٢ ولا تراه يلاعب كلباً ما دام انسان يلاعبه ثم لم يرض بهذه القرابة وهذه المشاكلة وبمقدار ما عليه من طباع الخطاف والحمام والعصفور وبمقدار ما فضلها الله تعالى به من الانس حتى صار الى غاية المنافع سلماً والى أكثر المرافق لحارس الناس ولحارس أموالهم بدّ من كلب وكلما كان أكثر كان أحب اليه ولا بد لأقاطيع المواشي من الكلاب والا فانها نهب للذئاب ولغير الذئاب ثم كلاب الصيد حتى كان أكثر أهل البيت عيالا على كل كلب وقد صار اليوم عند الكلب من الحكايات وقبول التلقين وحسن التصريف في أصناف اللعب وفي فطن الحكايات وفي الجوارح المذللة لذلك المصرفة فيه ما ليس عند الدب والقرد والفيل والغنم المكية والببغا والكلب الزيني الصيني يسرج على رأسه ساعات كثيرة من الليل فلا يتحرك وقد كان في بني ضبة كلب زيني صيني يسرج على رأسه فلا ينبض فيه نابض ويدعونه باسمه ويرمي اليه ببضعة لحم والمسرجة على رأسه فلا يميل ولا يتحرك حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه فاذا ازيل رأسه وثب على اللحم

فأكله درّب فدرب وثقّف فثقف وأدب فقبل وتعلق في رقبته الزنبلة والدوخلة وتوضع فيها رقعة ثم يمضي الى البقال ويجيء بالحوائج ثم صار القراد وصاحب الرياح ثم يستخرج فيما بين الكلب والقرد ضروبا من العمل واشكالا من الفطن حتى صاروا يطحنون عليه فاذا فرغ من طحنه مضوا به الى التمعك فيمعك كما يمعك حمار المكارى وبغل الطحان وقرابة أخرى بينه وبين الانسان انه ليس شيء من الحيوان لذكره حجم باد الا الكلب والانسان والكلب بعد هذا أسبح من حية ولا يتعلق به في ذلك الثور وذلك فضيلة له على القرد مع كثرة فطن القرد وتشبهه بالانسان لان كل حيوان في الأرض فانه اذا التقى في الماء الغمر سبح الا القرد والفرس الأعسر والكلب أسبحها كلها حتى انه ليقدم في ذلك على البقرة والحية وفي طباع ارحام الكلاب أعجوبة لانها تلقح من أجناس غير الكلاب ويلقحها كما يلقح منها وتلقح من كلاب مختلفة الالوان فتؤدى شبه كل كلب وتمتلئ ارحامها أجراء من سفاد كلب ومن مرة واحدة كما تمتلئ من عدة كلاب ومن كلب واحد وليست هذه الفضيلة الا لارحام الكلاب قالوا والزنج صنفان قبيلة زنجية فوق قبيلة وهما صنفان النمل والكلاب فقبيلة هم الكلاب وقبيلة هم النمل فخر هؤلاء بالكثرة وفخر هؤلاء بالشدة وهذان الاسمان هما اختاراهما لانفسهما ولم يكرها عليهما قال ويقال ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يالهب بن أبي لهب أكلك كلب الله فأكله الأسد فواحدة قد ثبت بذلك ان الأسد كلب الله والثانية ان الله تبارك وتعالى لا يضاف اليه الا العظيم من جميع الخير والشر فاما الخير فقولك بيت الله وأهل الله وزوار الله وكتاب الله وسماء الله وأرض الله وخليل الله وكليم الله وروح الله وما أشبه ذلك وأما الشر فكقولهم دعه في لعنة الله وسخط الله ودعه في نار الله وسعيره وما أشبه ذلك وقد يسمي المسلمون والناس كلباً وقد زعم آخرون ان بنات آوى والثعالب والضباع والكلاب كلها كلاب ولذلك تسافد وتلاقح وقال آخرون لعمرى انها الكلاب اذا أردتم ان تشبهوها فامَا ان تكون كلاباً لعلة أو علتين والوجوه التي تخالف فيها الكلاب أكثر فان هذا مما لا يجوز وقول من زعم ان الجواميس بقر وان الخيل

حمر أقرب الى الحق من قولكم وقول من زعم ان الجواميس ضان البقر والبقر ضان أيضاً ولذلك سموا بقر الوحش نعاجا كأنهم انما ابتغوا اتفاق الاسماء وما بال من زعم ان الاسد والذئب والضبع والثعاب وابن آوي كلاب أحق بالصواب ممن زعم أن الجواميس ضان والبقر ضان الماعز كلها شيء واحد وهذا أقرب الى الامكان لتشابهها في الظلف والقرون والكبوش وانها تجتر والسنور والفهد والنمر والببر والاسد والذئب والضبع والثاعب الى ان تكون شيئاً واحداً أقرب وعلى انا لم نتبين الى الساعة ان الضباع والكلاب وبنات آوى والذئاب تتلاقح وما رأيناها على هذا قط ولا عسباراً ولا كل ما يعدون وما ذكرهم لذلك الا من طريق الإخبار عن السرعة أو عن بعض ما يشبه ذلك فأما التلاقح والتركيب العجيب الغريب فالاعراب أفطن والكلام عندهم أرخص من أن يكونوا وصفوا كل شيء يكون في الوحش وكل شيء يكون في السهل والجبل مما اذا أجمع جميع اعاجيبه لم يكن أظرف ولا أكثر مما يدعون من هذا التسافد والتلاقح والتراكيب في الامتزاجات فكيف يدعون ما هو أظرف والذي هو أعجب وأرغب الى ما يستوى في معرفته جميع الناس وقال آخرون ليس الكلب من أسماء الأسد كما ان ليس الاسد من أسماء الكلب الا على ان تمدحوا كلبكم فيقول قائلكم ماهو الا الأسد وكذلك القول في الأسد اذا سميتموه كلباً وذلك عند ارادة التصغير والتحقير والتأنيب والتقريع كما يقال ذلك للانسان على جهة التشبيه فان كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا قط وان كان قاله فعلى صلة كلام أو على حكاية كلام وقال صاحب الكلب قد وضح الأمر وتلقاه الناس بالقبول في ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أكلك كلب الله وهو يعني الأسد ومن رفع هذا الحديث فقد أنكر علامات الرسول صلى الله عليه وسلم والناس قد سموا الناس بكلب وكليب وكلاب وأكلب ومكاليب ومكالبة بنو ربيعة وكليب بن ربيعة بن عامر وفي العرب من القبائل كلب وبنو الكلبة وبنو كلاب وأكلب بن ربيعة بن نزار عمارة ضخمة وكلب بن وبرة جذم من الاجذام وهم نفر جمجمة وكل سادات فهو يكني أبا كليب

ومن ذلك عمرو ذوا الكلب وأبو عمرو الكلب الجرمي وأبو عامر الكلب النحوي وكيف لا يجوز مع ذلك ان يسمي الأسد بالكلب وكل هؤلاء أرفع من الأسد وقد قالوا كلب الماء وكلب الرحى والضبة التي في الرحل يقال لها الكلب والكلب الخشبة التي تمنع الحائط من السقوط وتشخص في القناطر والمسنيات والكلب الذي في السماء ذو الصور ويقال داء الكلب وقد اعتراه في الطعام كلب وقد كلب عليهم في الحرب ودماء القوم للكلبي شفاء ومنه الكلبة والكلبتان والكلاب والكلوب ثم المكلب والمكلّب وهذا مختلف مشتق من ذلك الأصل ومنه علوبة كلب المطبخ وحموية كلب الجن ولما شهد أبو علقمة المزني عند سوار بن عبد الله أو غيره من القضاة توقف في قبول شهادته قال له أبو علقمة لم توقفت في اجازة شهادتي قال بلغني انك تلعب بالكلاب والصقور قال من خبرك انى العب فقد أبطل واذا بلغك انى اصطاد بها فقد صدقك من أبلغك وانى أخبرك انى جاد في الاصطياد بها غير لاعب ولا هازئ فقد وقف المبلغ بك على فرق ما بين الجد واللعب قال ما وقف ولا وقفته عليه فاجاز شهادته وقد قال الله تعالى يسألونك ماذا أحل لهم فقال لنبيه قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين فاشتق لكل صائد وجارح كاسب من باز وصقر وعقاب وفهد وشاهين وزرق ويؤيؤ وباشق وعناق الارض من أسم الكلب وهذا يدل على انه أعمها نفعاً وأبعدها صيتاً وأنبهها ذكراً ثم قال تعلموهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه فذكر تعليمهم لها اذ أضاف ذلك الى نفسه ثم أخبر عن أدبها وانها تمسك على أربابها لا على أنفسها وزعم أصحاب الصيد ان ليس في الجوارح شئ أجدر ان يمسك على صاحبه ولا يمسك على نفسه من الكلب قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً اذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً نخبر كما ترى عن دعائهم واخلاصهم ثم قال جل وعز فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ثم قال عز وجل نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم

هدي وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذاً شططاً ثم قال فاووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقاً وترى الشمس اذا طعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ثم قال بعد هذه الصفة لحالهم والتمكين لهم من قلوب السامعين والاعجوبة التى أتاهم بها وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ثم قال لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً نخبر انهم لم يستصحبوا من جميع من يألف الناس ويرتفقون به ويسكنون اليه شيئاً غير الكلب فان مما يألف الناس ويرتفقون به ويسكنون اليه الفرس والبعير والحمار والبغل والثور والشاة والحمام والديكة كل ذلك مما يرتفق ويستصحب فى الأسفار وينقل من بلد الى بلد والناس يصطادون بغير الكلب ويستمتعون بأمور كثيرة نخبر عنهم بعد أن جعلهم خياراً ابراراً انهم لم يختاروا استصحاب شئ سوى الكلب وليس يكون ذلك من الموفقين المعصومين المؤيدين إلا لخاصة فى الكلب لا تكون في غيره ثم أعاد ذكر الكلب ونبه عن حاله بان قال عز وجل اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا وفى قولهم فى الآية ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم دليل على ان الكلب رفيع الحال نبيه الذكر اذ جعل رابعهم وعطف ذكره على ذكرهم وأشتق ذكره من أصل ذكرهم حتى كانه واحد منهم ومن أكفائهم أو من أشباههم أو مما يقاربهم ولولا ذلك لقال سيقولون ثلاثة معهم كلب لهم وبين قول القائل معهم كلب لهم وبين قوله رابعهم كلبهم فرق بين وطريق واضح فان قلتم هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسه وانما حكاه عن غيره وحيث يقول ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم وقد صدقتم والصفة على من ذكرتم لان الكلام لو كان منكرا لانكره الله تعالي ولو كان

معيباً لعابه الله فاذا حكاه ولم يعبه وجعله قرآنا وعظمه بذلك المعني مما لا ينكر في العقل ولا فى اللغة كان الكلام اذا كان على هذه الصفة مثله اذكان الله عزوجل المنزل له ومثل ذلك مثّل بعض المخالفين في القدر فانه سأل بعض أصحابنا فقال هل تعرف في كتاب الله تعالى انه يخبر عن الاستطاعة انها قبل الفعل قال نعم أتى كثير من ذلك قوله تعالى قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال المخالف سألتك ان تخبرني عن الله فاخبرتني عن عفريت لو كان بين يدى لبزقت في وجهه قال صاحبنا أما سليمان النبي صلى الله عليه وسلم فقد ترك النكير عليه ولو كان مثل هذا القول كفراً وافتراء على الله ومغالبة وتفويضا للمشيئة الى نفسه لكان سليمان ومن حضره من المسلمين من الجن والانس أحق بالانكار بل لم يكن العفريت في هذا الموضع هو الذى يسرع فيه ويذكر الطاعة ولا يتقرب فيه بذكر ساعة النفوذ ويبشر فيه بأن معه من القوة المجعولة مايتهيأ لمثله قضاء حاجته فيكذب ثم لا يرضى بالكذب حتى يقول ولا مستنكر أو يدعى قوة لا تجعل له ثم يستقبل بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه والاستغناء عنه من بيننا وقد ملك الجن والانس والرياح والطير وتسيير الجبال ونطق كل شيء ثم لا يزجره فضلا عن ان يضربه ويسجنه فضلا عن ان يقتله وبعد فان الله تبارك وتعالى لم يجعل ذلك القول قرآنا ويترك التنبيه على مافيه من العيب الا والقول كان صدقا مقبولا وبعد فان هذا القول قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاه على الناس وما زالوا يتلونه فى مجالسهم ومحاريبهم أفما كان فى جميع هؤلاء واحد يعرف معرفتك أو يغضب لله تعالى غضبك قال صاحب الكتاب لو اعترضت جميع أهل البدو فى جميع الآفاق من الأرض ان يصيب أهل خيمة واحدة ليس عندهم كلب واحد فما فوق الواحد لما وجدته وكذلك كانوا في الجاهلية وعلى ذلك هم في الأسلام فمن رجع بالتخطئة على جميع طوائف الأمم والتأنيب والاعتراض على جميع اختيارات الناس فليتهم رأيه فان رأي الفرد ولاسيما الحسود لا يفي برأى واحد ولا يرى الاستشارة حظا وكيف

بان يبني لجميع أهل من العرب والعجم والدليل على ان البدو قد يكون فى اللغة لها جميعاً قول الله عزوجل (وجاء بكم من البدو من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتى) ولو ابتلى صاحب هـذا القول بان ينزل البادية لتحول رأيه واستبدل به رأي من قد جرب تقريب الكلاب وابعاده وقال أحمد الحاركني لا تصير القرية قرية حتى يصير فيها حائك ومعلم قال أبو عباد يامجنون اذا صارت إلى هذا فقد صارت مدينة والكلاب اثباته وجه صاحبه ونظره فى عينيه وفي وجهه و حبه له ودنوه منه حتى ربما لاعبه ولاعب صبيانه بالعض الذى لا يؤثر ولا يوجع وهي الاضراس التى لو نشبها فى الصخر لنشبت والأنياب التى لو انحاها على الحصا لرضها وقد تراه وما يصنع بالعظم المدمج وبالفقرة من الصلب القاسى الذى ليس بالنخر البالى ولا بالحديث العهد بالودك الذي يلين معه بالمضغ ويطيب فتراه كيف يرضه ويفتته ثم ان مانعه بعض الممانعة ووافق منه بعض الجوع كيف يبتلعه وهو واثق باستمرائه وهضمه أو باذابته وحله وله ضروب من النغم واشكال من الاصوات وله نوح وتطريب ودعاء وخوار وهرير وعواء وبصبصة وشيء يصنعه عند الفرح وله صوت شبيه بالانين اذا كان يغشى الصيد وله اذا لاعب أشكاله في غدوات الصيف شيء بين العواء والأنين وله وطؤ للحصا مثله بان لو وطيء الحصا على أرض السطوح لايكون مثله وطؤ الكلب يربى على وزنه مرارا واذا مر على واد جامد ظاهر الماء تنكب مواضع الخرير في أسفاه قال الشاعر ورأى رجلا اسمه وثاب واسم كلبه عمرو فقال

ولو هيأ له الله * من التوفيق أسبابا

لسمى نفسه عمرا * وسمي الكلب وثابا

قال والكلبة كثيرة الاطباء وكذلك الخنزيرة وللفهدة أربعة أطباء من لدن صدرها وقرب إبطيها الى رفغيها وللفيل حلمان يصغران عن جثته وهما مما يلى الصدر مثل الانسان والذكر فى ذلك يشبه بالرجل لان للرجل ثديين صغيرين عن جثته ويقال ان الكلاب واقية من عبث السفهاء والصبيان بها قال دريد بن الصمة حين ضرب

امرأته بالسيف ولم يقتلها

أقر العين ان عصبت يداها * وما ان يعصبان على خضاب

فابقاهن ان لهن جلدا * وواقية كواقية الكلاب

وقال آخر ان يقنا الله من شرها * فان الكلب لها واقية

ويروى * سينجيه من شرها شره * وقال غيره

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت * ان الكلاب طويلة الاعمار

وقال بشر بن المعتمر

رأى الناس رأيا في طلاب الثرى * فكلهم من شأنه الختر

* كاذؤب تنهشها أكلب لها عواء ولها زفر

قال ويقال قزح الكلب ببوله يقزح قزحاً اذا بال قال وقال أبو الصقر يقزح ببوله حين يبول وشغر الكلب يشغر اذا رفع رجله بال أو لم يبل ويقال شغرت بالمرأة أشغرها شغرا اذا رفعت رجلها للنكاح قال ويقال عاظل الكلب معاظلة يعني السفاد قال أبو الزحف

كمشيه الكلب مشي للكلبة * يبغى العظال مصخرا بالسوءة

قال ويقال كلب عاظل وكلاب عظل وعظالى وقال حسان بن ثابتِ الانصارى

ولست بخير من يزيد وخالد * ولست بخير من معاظلة الكلب

قال مالك بن عبد الله الجعدي يوم فيف الريح حدثني أبى لقد نظرت يومئذ الى بني عبد الحارث بن نمير فما شبهتهم الا بالكلاب المتعاظلة حول اللواء وقال أبو براء عامر بن مالك ملاعب الاسنة لاعبه الحارث واليوم ١ قال فقال منذ يومئذ قال والسلوقية منسوبة الى سلوق من بلاد اليمن لها سلاح جيد وكلاب فرهٌ وقال القطامي

معه ضوار من سلوق له * طورا تعانده وتنفعه

قالوا وليس فى الارض بهيمة فلا تزال تنوله ٢ وتماطله مرت عليه الأيام كان وقت منعها له أطول حتى اذا قوى على أكل اللحم أو العشب فطمته قال لبيد فى مثل ذلك

أفتلك أم وحشية مسبوعة * خذلت وهادية الصوار قوامها
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم * عرض الشقايق طوفها وبغامها
لمعفر قهد تنازع شلوه * غبس كواسب لايمن طعامها
صادفن منها غرة فاصبنها * ان المنايا لا تطيش سهامها

لان البقرة اذا كانت بحضرة ولدها لم تضيعه ومنعت السباع منه وقاتلت دونه بقرونها أشد القتال حتى تحيه أو تعطب (كان) ابن لسان الحمرة يكنى أبا كلب وكان زوج حبى المدنية يقال له ابن أم كلاب وقل الشاعر يذكرها

وما وجدت وجدي به أم واحد * ولا وجد حبي بابن أم كلاب
رأته طويل الساعدين شمردلا * كما انبعثت من قوة وشباب

وقال آخر يصف عيون الكلاب اذا أبصرت الصيد

مجزعة غضف كأن عيونها * اذا آذن القناص بالصيد عضرس

مجزعة في اعناقها جزع وهو الودع يجعل فى القلائد يقول تبيض عيونها حين تختل الصيد والعضرس هاهنا البرد وقال الآخر

خوص تراح الى الصراخ اذا عدت * فعل الضراء تراح الكلاب

وقال آخر وذكر الضراء وهو يصف الشيخ وضعفه

ومنها ان يقاد به بعير * ذلول حين تهترش الكلاب

وقال وهم عند الحاجة يعدون الكلاب والمطية وأنشد

فاعقب خيراً كل أهوج مبرج * وكل معدات العلالة صلدم

وقال الآخر * معديات وملقيات *

وأنشد قول ابن ذؤيب فى شبيه بالمعنى الأول

شغف الكلاب الضاريات به * فاذا يرى الصبح المصدق يفزع

يقول هذه الثيران لما قد لبس مع الصبح والاشراق من الكلاب حتى صار يرى ساطع الصبح فزع وذلك انها تمطر ليلتها فتشرق في الشمس فعندها ترسل عليها

الـكلاب ويقال ان أكثر ما يعرض الذئب للغنم مع الصبح وانما رقب فترة الـكلب وكلاله لانه بات ليلته دائباً يحرس وقال اعرابي وكسر ذئب شاة له مع الصبح فقال

أودى بوردة أم الورد ذو عسل * من الذئاب اذا ما راح أو بكرا
لولا ابنها وسليلات لها غرر * ما انفكت العين تذرى دمعها دررا
كأنما الذئب اذ يعدو على غنمى * في الصبح طالب وتركان فاتأرا
* أعتامها اعتامه شثن براثنه * من الضوارى اللواتى تقصم القصرا

ولما قال النبي عليه الصلاة والسلام لزيد الخيل من الخير ما قال وسماه زيد الخير ماسأله زيد شيئاً ولا ذكر له حاجة الا انه قال يارسول الله فينا رجلان يقال لأحدهما ذريح والآخر يكنى أبا دجانة ولهما أكلب خمسة تصيد الظباء فما ترى فى صيدهم فأنزل الله عز وجل (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) فأول شيء يعظم فى عينك شأن الـكلب أن هذا الوافد الكريم الذي قيل له ماقيل وسمى بما لم يسم به أحد لم يسئل الا عن شأن الـكلب وثانية وهي أعظمها ان الله تعالى أنزل فيه عند ذلك آيا محكما احل لكم الطيبات فسمى صيدها طيباً ثم قال وما علمتم من الجوارح مكلبين مخبراً عن قبولها للتعليم والتأديب ثم قال مما علمكم الله ولولا ان ذلك الباب من التعليم والعلم مرضى عند الله عز وجل لما أضافه الى نفسه ثم فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه فأول شيء يعظم به في عينك امساكه عليك وهكذا يقول أصحاب الصيد ان كل صائد فانما يمسك على نفسه الا الـكلب فانه يمسك على صاحبه ولو كان الجواب لزيد الخيل سنة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم لـكان فى ذلك الرفعة فكيف والكتاب فوق السنة وقد روى هشام ان ابن عباس سمى كلاب ذريح هذه وكلاب أبى دجانة فقال المختلس وغلاب والقنيص وسلهب وسرحان والمغناطيس وزعم الاطباء ان من اجود أدوية الذبحة والخانوق ان ينفخ فى حلق من كان ذلك به ما جف من رجيع الـكلاب وأجود ذلك ان يكون يتغرغر به وربما طلوه على جلد لحوم الحديد المحمى وأجود رجيع

الكلاب انى يشتد بياضه وليس يعتريه البياض الا عن أكل الطعام وذلك ردىء للقانص منها والجمور قد تبيض اذا كان قوت صاحبها اللبن ولذلك قال ابو كلاب وهو ابن لسان الحمرة ومر به رجل من بني اسد فقال قد علمت العرب يامعشر بني أسد انكم أشدها بياض بعور فعكف عليه فضربه بالسيف حتى برد وذلك انه عيره بأنهم لا يعرفون البقل ولا يعرفون الا اللبن وقال الشاعر يهجو ناساً منهم

عراجلة بيض الجعور كأنهم * بمنعرج الغيطان شهب العناكب

والعرب تقول اللحم أقل الطعام بخرا وقال صاحب الكلب وما للديك وللكلاب والكلاب ينزل فيها القرآن ويحدث فيها السنن ويشتق من أسمائها للناس والاسد ولها أسماء معروفة واعراق منسوبة وبلدان مشهورة والقاب وسمات ومناقب ومقامات وما للديك الا ما تقول العوام انه اذا كان فى الدار ديك أبيض افرق لم يدخله شيطان وليس يقوم خبر ذلك ولو كان ذلك حقاً بشؤمه لان القوم تقضى على من كان فى داره ديك ابيض افرق بالزندقة والذين يقولون ان الدار اذا كان فيها ديك أفرق لم يدخلها شيطان هم الذين يقولون من أكل لحم سنور أسود لم يضره سحر واذا دخنت الدار بالدخنة التي سموها بدخنة مريم او باللبان لم يكن عليها لعمار الدار سبيل فان مرت ساحرة تطير سقطت وهم الذين لا يشكون ان من نام بين البابين تخبطه العمار وخبلته الجن قال ويقال لولد الكلب والذئب والسنور وأشباه ذلك جرو ويقال للصغير من الحنظل على مثل ذلك جرو وقال النمر بن تولب

بجرو يلقى فى سقاء كأنه * من الحنظل العامي جرو مفلق

ومما زاد فى ذكر الكلب قول السيد بن محمد فى شأن عائشة فى الحديث الذى رووه وكان السيد رافضياً غالياً وليس فى ذكره شرف ولكنه أجمع للفن

تهوى من البلد الحرام فنبهت * بعد الهدو كلاب أهل الحوءب

قال ويقال صرفت الكلبة صرافاً وصروفا وظلعت تظلع ظلوعاً قال ومن الامثال فى ذلك لا افعل حتى ينام ظالع الكلاب قال الاصمعي هذا باطل انما ذلك اذا اصاب الكلب

ما يظلع منه لم يطق سفاد الكلبة حتى تهدا الرجل وحتى تمل الكلاب النباح وتفوق وتحتاج الى النوم أطول التعب واذا كان في ذلك الوقت يلتمس الظالع ورام سفاد الكلبة لم يعرف ظلعه الا الكلبة وأنشد فقال

تسديتها من بعد مانام ظالع الـ * ـكلاب وأخبى ناره كل موقد
وأنشد غيره لجران العود

وكان فؤادي قد صحا ثم هاجه * حمائم ورق بالمدائن هتف
كان الهزيل الظالع الرجل وسطها * من البغي شريب يغرد مترف

وقالوا أبياتاً في غير هذا الباب قال الاعرابي

نزلنا بعباد فاشلى كلابه * علينا فكدنا بين بابيه نوكل
فقلت لاصحابي أسر اليهم * اذا اليوم أو يوم القيامة أطول

وقال آخر

أعددت للضيفان كلباً ضارياً * عندي وفضل هراوة من ارزن

وقال في خلاف ذلك مالك بن خرتم الهمداني

وواحدة الا أبيت بغرة * اذا ما سوام الحي بات مصرعا
وثانية ان لا تفزع جارتى * اذا كان جار القوم فيهم مفزعا
وثالثة ان لا اصمت كلبنا * اذا نزل الأضياف حرصا لتوزعا

قال ويقال لحز الكلب الاناء فهو يلحزه لحزاً ولحسه فهو يلحسه لحساً قال أبو يزيد وذلك اذا لحس الاناء من باطنه والقرو ميلغة الكلب فاذا كان للكلب فانما هو من أسفل كوز أو ما أشبه ذلك والا فالقرو اسفل نخلة ينجر وينقوب وينتبذ فيه وقال الاعشى

ارمي بها البيد اذا اعرضت * وانت بين القرو والعاصر
في مجدل شيد بنيانه * يزل عنه ظفر الطائر *

ومما يحاجي به الناس بعضهم بعضاً أن يقولوا أتعرفون شيئاً اذا قام كان أقصر منه اذا قعد يريدون الكلب لان الكلب قعوده اقعاؤه وهو اذا اقعى كان أرفع لسمكه وأرفع

فى الهواء طولا منه اذا قام وقال عمرو بن لجا

عليه حيوف مستقدم * مقع كافعاء الكلب بالمعصم

ويقال أقعي الكلب اقعاء ولا يقال قعد ولا جلسَ وفى الحديث أنه نهي ان يقعي احدهم فى الصلاة اقعاء الكلب قال صاحب الكلب يعرف فتاء الكلب وهرمه بالاسنان فاذا كانت سوداء كانت دليلا على كبره واذا كانت بيضا حادة دلت على الفتاء والحداثة وقال أسنان الذكر اكثر واصناف الحيوان المشقوقة الافواه كالكلب والاسد والفهد موصوفات بشدة الماضيغ والفك والخراطيم كالكلب والخنزير والذئب فأشبه الكلب الاسد في شحو الفم واتساعه وعلى ان شحو فمه على مقدار جسمه وأشبه الذئب والخنزير فى طول الخطم وامتداد الخرطوم ولذلك كان شديد القلب جيد الاسترواح فجمع الكلب دون هذه الاصناف مايصلح للارض والحطم كما جمع مايصلح للابتلاع والالتهام والحطم الاستمراء والاسد حريص واسع الشحو فهو يبتلع البضعة التى لو رآها الانسان لم يظن ان حلقه يتسع لمرور ذلك ويقال ان عنقه عظم واحد واللقم لاتجول فيه وهو فى ذلك قليل الريق فلا يسلس فى حلقه ما يرفيه بل يبتلع لفرط نهمه وشحو لحييه ضمنى ذلك المقدار وقد زعم ناس ان الذى يدل على ان عنق السبع عظم واحد ضمنه عن تصريفه عنقه فلا يلتفت الا معا فيسمى الا صيد وقال جران العود فى صفة الذئب

شد الماضغ منه كل ملتفت * وفى الذراعين والخرطوم تسهيل

وقالوا فى أسنان الذئب وفي اسنان بعض الحيات بانها ممطولة فى الفكين يذهب بأنه عظم مخلوق فى الفك وانه لايثغر وأنشدوا

مطلن في اللحيين مطلا الى * رأس وأشداق رحيبات

والحيات توصف بسعة الاشداق والافاعي خاصة هى المنعوتة بذلك وقال الشاعر وهو جاهلى

ويدير عينا للوقاع كأنها * سمراء طاحت من نفيض برير

وكان شدقيه اذا استعرضته * شدقا عجوز مضمضت لطهور

ومما أشبه فيه الكلب الانسان والاسدان كل واحد من هذه الاجناس اعماله بطن واحد وبعد البطن المعا الا أن بعض بطنها أعظم من بعض ويشابهها فى الذى ذكرنا الذئب والدب فما أكثر ما يناسبان الكلب فلذلك صارا يتناكحان ويتلافحان وهذا قول صاحب المنطق قال وامعاء الكلب أشبه شيء بامعاء الحية وهذا أيضاً مما يزيد فى قدره لانه اما ان يشبه الانسان واما ان يشبه رؤساء السباع ودواهي الحشرات وكلما كانت هذه المعانى فيه أكثر كان قدره أكبر قال والكلب يحلم ويحتلم وكذلك الفرس والحمار والصبي يحلم ولا يحتلم والثور فى هذا كله كالصبي ويعرف ذلك فى الكلب اذا تفرغ وأنعظ وزعم ان الاحتلام قد عوين من الفرس والبرذون والحمار قالوا وليس المظال والتحام الفرجين الا فى الكلب والذئاب ومن أراد ان يفرق بين الكلاب اذا تعاظلت وتسافدت رام أمراً عسيراً قالوا والحيوان الذى يطاول عند السفاد معروف مثل الكلب والديك والعنكبوت والجمل وان لم يكن هناك التحام واذا أراد العنكبوت السفاد جذبت الانثى خيوط نسجها من الوسط فاذا فعلت ذلك فعل الذكر مثل ذلك فلا يزالا يتدانيان حتى يتشابكان فيصير بطن الذكر قبالة بطن الانثى وذلك شبيه بعادات الضفادع وقال أبو الحسن عن بعض الاعراب قال اذ هجم الرجل على الذئب والذئبة وهما يتسافدان وقد التحم الفرجان قتلهما ذلك الهاجم عليهما كيف شاء لانهما قليلا مايوجد ان كذلك لان الذئب وحشي جدا وشهي جداً صاحب قفرة وخلوة وانفراد وتباعد واذا أراد الذئبة توخي موضعا من القفار لايطؤه الأنيس خوفا على نفسه ومنعا بالذى يجد فى المطاولة من اللذة وحدثني أحمد بن المثنى قال خرجت الى صحراء خوخ لجناية جنيتها وخفت الطلب وأنا شاب اذ عرض لى ذئب فكنت كلما درت من شق استدار بي فاذا درت له دار من خلفى وأنا وسط برية لا أجد معيناً إلا بشيء أسند اليه ظهرى وأصابنى الدوار وأيقنت بالهلكة فبينا انا كذلك وقد أصابني ماأصابني وذلك هو الذي أراده الذئب وقدره اذا ذئبة قد عرضت وكان من الصنع وتأخير الأجل ان ذلك كان فى زمن اهتياجها وتسافدها فلما عاينها تركني

وقصد نحوها فما تلعثم ان ركبها وقد كنت قرأت فى بعض الكتب انها تلتحم فقومت سهمي وهما ينظران الى فلما لم أر عندهما نكيرا حقق ذلك عندى ما كان في الكتاب من تلاحمهما فمشيت اليهما بسيفى حتى قتلتهما قال ومما يعد للكتاب انها كثير ماتلقح وتلقح لحال الدفء أو الخصب والكلب والخنزير فى ذلك سواء ولا يكاد غيرهما من الاصناف يتلاقح فى ذلك الزمان فالكلب كما تري ينازع أيضاً مواضع الاساءة والمحاسن فى جميع الحيوان قال وإناث الكلاب تصعب اخلاقها اذا كان لها جراء وكل شيء له بيض أو جراء أو فراخ فأسوء ما يكون خلقا وأنزق وأكثر ما يكون إذا وأعرم واذا كان كذلك الا إناث البقر والكلب كلما كان أسن كان صوته أجهر وأغلظ قال والكلب ينزو اذا تمت له ستة أشهر وربما كان ذلك منه وهو ابن ثمانية أشهر والكلبة الأنثي تحمل واحداً وستين يوما أطول ما يكون ولا تضع قبل ان يتم لحملها ستون يوما ولا يبقى الجرو ولا يتربى اذا قصر عن ذلك والانثي تصلح ان ينزى عليها بعد ستة أشهر والكلبة والحجر والمرأة وغير ذلك يكون أول نتاجها أصغر جثة وكذلك البيض اذا كان بكرا وكذلك مايخرج منه من فروج او فرخ وذكور الكلاب تهيج قبل الاناث فى السن والاناث تهيج قبلها فى وقت حركتها وكلما تأخر وقت الحدث الى تمام الشباب كان أقوى لولده والكلاب لاتريد السفاد عمرها كله بل الى وقت معلوم وهى تلقح إلى أن تبلغ ثمانى عشرة سنة وربما ابتدرت الكلبة فبلغت العشرين والكلاب اجناس كثيرة الكلب السلوقى يسفد اذا كان ابن ثمانية أشهر والانثي تطلب ذلك قبل الثمانية وذلك عند شغور الذكر ببوله والكلبة تحمل من نزو واحد وقد عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب وحضروا ليعرفوا ذلك قال والكلبة السلوقية تحمل سدس السنة ستين يوما وربما زادت على ذلك يوما او يومين والجرو اذا وضع يكون أعمى اثنى عشر يوما ثم يبصر والكلبة تسفد بعد وضعها فى الشهر الثاني ولا تسفد قبل ذلك ومن اناث الكلاب ماتحمل خمس السنة يعني اثنين وسبعين يوما واذا وضعت الجراء تكون عمياء اثنين وعشرين يوما ومن أصناف الكلاب مايحمل

ربع السنة أعني ثلاثة أشهر وتضع جراء وتبقى كذلك سبعة عشر يوما ثم ترضع جراءها على عدد أيامها التي لاتبصر فيها وزعم ان إناث الكلاب تحيض فى كل سبعة أيام وعلامة ذلك ورم أثفارها ولا تقبل السفاد في ذلك الوقت بل فى السبعة التى بعدها ليكون ذلك تمام أربعة عشر يوما أكثر مايكون وربما كان كذلك لتمام ستة عشر يوما قالوا وإناث الكلاب تلقى بعد وضع الجراء رطوبة غليظة بلغمية واذا وضعتها بعد الجراء اعتراها هزال وكذلك عامة الاناث ولبنها يظهر في أطبائها قبل ان تضع بخمسة أيام أكثر ذلك وربما كثر اللبن فى أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام وربما كان ذلك فى مقدار أربعة أيام ولبنها يظهر ويجود اذا وضعت من ساعتها قال فاما السلوقية فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوما ويكون لبنها أول ماتضع غليظاً فاذا أزمن رق ودق ولبن الكلاب يخالف لبن سائر الحيوان بالغلظ بعد لبن الخنازير والارانب وقد تكون علامة مبلغ سفادها مثل مايعرض للنساء من ارتفاع الثديين ومعرفة ذلك عسيرة وهذه علامات تظهر لاناث الكلاب وذكورة الكلاب ترفع أرجلها وتبول لتمام ستة أشهر ومنها مالا يفعل ذلك الى أن يبلغ ثمانية أشهر ومنها ما يعجل قبل ذلك قال ونقول بقول عام إن الذكور تفعل ذلك اذا قويت فاما الاناث فهي تبول مقعية ومنها ماتشغر وأكثر ماتضع الكلبة اثنا عشر جروا وذلك في الفرط وأكثر ذلك الخمسة والستة وربما وضعت واحدا فاما اناث السلوقية فهى تضع ثمانية اجراء واناثها وذكورها تسفد ماتقت ويعرض للكلاب السلوقية عرض خاص وهي انها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد وذكورة السلوقية تعيش عشر سنين والاناث تعيش اثني عشر سنة واكثر اجناس الكلاب تعيش أربع عشرة سنة والخاص تبقى عشرين سنة قال واناث الكلاب اطول اعمارا من الذكور وكذلك هي في الجملة وليس يلقي الكلب من اسنانه سنا ماخلا النابين وانما يلقيهما اذا كان ابن أربعة أشهر قال ومن أجل ذلك ان الكلاب لا تلقى غير هذين النابين يشك بعض الناس انها لاتلقى سنا البتة قال وللكلاب ثلاثة أصناف من المرض وأسماؤهم

الكلب بفتح اللام والذبحة والنفوس والكلب جنون فان عرض لشيء من الحيوان كلب أيضاً أماته ما خلا الانسان وهو داء يقتل الكلاب وتقتل به الكلاب كل شيء عضته إلا الانسان فانه يعالج فيسلم قال وداء الكلب يعرض للحمار فأما الجنون وذهاب العقل فإنه يصيب كل شيء فن ذلك ما يصيب الدواب فان منها مايصرع كما يصرع المجنون والسائس من لدواب الذاهب العقل وقد كان شأن أعين الطبيب عجباً وذلك انه كان يصرع واتفق انه كان له بغل يصرع فكان ربما اتفق أن يصرعا جميعاً وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا البصريين والصرع عام في الحيوان ليس يسلم منه صنف منها حتى لا يعرض له منه شيء والانسان فوق جميع الحيوان تعذيباً وكذلك هو في العقل والمعرفة والاحتيال له مع دفع المضرة واجتلاب المنفعة وما أكثر ما يعتريهم ذلك ومن ذلك ما يذهب ومن ذلك مالا يذهب وقد كان بختيشوع المتطبب عرض له ذلك وقد كان عرض لعبد الملك بن قريب فذهب عنه وربما عرض للرجل الذي لا يظن به ذلك في بيان ولا تبيين ولا في أدب ولا في اعتدال من الاخلاط والصحة من المزاج ثم لا يعرض من ذلك إلا مالا حيلة له فيه كما يعرض لبشر بن أبي عمرو ابن العلاء النحوي المازني وكما عرض لعبد الرحمن ومنصور الأسديين فما زالا كذلك حتى ماتا ولم يبلغنا انهما صرعا والموتة جنس من الصرع إلا أن صاحبه اذا أفاق عاد الى كمال عقله كالنائم والسكران والمغشى عليه وان عاش صاحب الموتة في ذلك مائة عام وليس يلقى شيء من الحيوان في هذا الباب كما يلقي الورشان وأما السكر فليس شيء من الحيوان إلا وهو يسكر واختلاف سكره كاختلاف سكر الإنسان فإن من الناس من تراه يتحدث وهو يشرب فلا تنكر منه شيئاً حتى يغلب عليه نوم السكر ضربة واحدة ومنهم من تراه والنبيذ يأخذ منه الأول فالأول وتراه كيف تقل حركته ويغلظ حسه ويتمحق حتى يطيش عليه السكر بالعبث ويطبق عليه النوم ومنهم من يأخذه بالعبث لا يعدوه ومنهم من لا يرضى بدون السيف والا بأن يضرب أمه ويطلق امرأته ومنهم من يعتريه البكاء ومنهم من يعتريه الضحك ومنهم

من يعتريه الملق والتفدية والتسليم على المجالس والتقبيل لرؤوس الناس ومنهم من يرقص ويثب ويكون ذلك على ضربين أحدهما من العرض وفضل الأشر والآخر تحريك المرارة وهي علة الفساد وهيجان الآفة وكل هذه الحالات والصور والنعوت والاجناس والتوليد الذي يختلف في طبائع الناس وطبائع الأشربة وطبائع البلدان والأزمان والاسنان وعلى قدر الاعراق والاخلاق وعلى قدر القلة والكثرة وعلى قدر التصريف والتوفيق وقد وجدوه في جميع أصناف الناس والحيوان الا أن في الناس واحدة لم توجد في سائر الحيوان قط فان في الناس من لا يسكر البتة كان محمد بن الجهم وأبو عبد الله العمى وكان بين عقل زيد بن حميد اذا شرب عشرة أرطال وبين عقله اذا ابتدأ الشرب مقدار صالح وأما العمى فان بني عبد الملك الزياديين دعوني مرة ليعجبوني منه ولم ينبهوني على هذه الخاصة التي فيه لأكون أنا الذي أنتبه عليه فدخلت على رجل ضخم فدم غليظ اللسان غليظ المعاني عليه من الكلام أثقل المؤنة وفي معانيه اختلاف ليس منها شيء يواتي صاحبه ولا يعاونه ولا يشاركه ولا يناسبه وحتى ترى أن أذنه في شق ولسانه في شق وحتى تظن أن كلامه كلام محموم أو مجنون وان كل واحد منهما يقطع نظام المملي ويخلط بين الأسافل والأعالي فشرب القوم شرب الهيم وكانت لهم أجساد مدبرة وأجواف منكرة وكنت كأني رجل من النظارة فما زال العمي يشرب رطلا بعد رطل ويرق لسانه ويحل عقده ويصفو ذهنه ويذهب كدره ولو قلت اني لم أر مثله حسن نفس كنت صادقا فالتفت الى القوم أجمعهم فقالوا لولا هذا العجب ما عاك اليوم مع حداثة عهدنا بك وزعم العمى وكان كثير المنازعة عند القضاة انه كان اذا قارب العشرة الارطال ثم نازع الخصوم كان ذلك اليوم الذي يفوت فيه ذرع الخصوم للحن بحجته ويستميل فيه رأى القاضى المنعقد فى مجلسه الطويل القطوب في وجه من نازع اليه وقال الشاعر

وجدت أقل الناس عقلا اذا انتشى * أقلهم عقلاً إذا كان صاحيا
تزيد حسى الكاس السفيه سفاهة * وتترك أخلاق الرجال كما هيا

قال وهـذا شعر بعض المولدين والأعاريب لا تخطي هـذا الخطأ قد رأينا أسفه الناس صاحياً أحلم الناس سكران وهو مرداس صاحب زهير ورأينا أحسن الناس خلقاً وأوزنهم حلماً حتى اذا صار في رأسه رطل كان أخف من فراشة وأكثر نزواً من جرادة رمضـة فان المثل بها يضرب وكان ممن ماله عرف أصحابنا سكر البهائم أن محمـد بن علي بن سليمان الهاشمي لما شرب على علوية كلب المطبخ وعلى الدهمان وعلى شراب البصريين وعلى كل من نزع اليه من الأقطار وتحداه من الشراب الجواد من الشراب أحب أن يشرب على الإبل من البخاتي والعراب ثم على الظلف من الجواميس والبقر ثم على الخيل العتاق والبراذين فلما فرغ من كل عظيم الجثة واسع الحفرة صار الى الشاء والظباء ثم صار الى النسور والكلاب والى ابن عرس وحتى أتاهم حاوي فأرغبوه فكان يحتال لأفواه الحيات حتى يصب في حلوق أجوافها بالاقماع المدنية وبالمساعط ويتخذ لكل شيء شكله وكان ملكاً تواتيه الأمور وقطيعة الرجال فأبصروا تلك الاختلافات في هذه الاجناس المختلفة فخبرني أبو اسحاق ابراهيم النظام وقد كان جالسه حيناً وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب ولم أزعم انه قليل الزيغ والزلل على أن ذلك قد كان يكون منه وان كان قليلا بل إنما قلت على مثل قولك فلان قليل الحياء وأنت لست تريد هناك حياء البتة وذلك انهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس وإنما كان عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التماس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظناً فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته فحدثني ابراهيم قال شهدت أكثر هذه التجربة التي كانت منهم في إسكار البهائم وأصناف السباع ولقد احتال لأسد

مقلم الاظفار ينادى عليه العجب العجب حتى سقاه وعرف مقداره في الاحتمال فزعم انه لم يجد في جميع الحيوان أملح سكراً من الظبي ولولا انه من الترفه لـكنت لا يزال عندى الظبي حتي أسكره وأرى طرائف ما يكون منه قال وإناث الكلاب السلوقية أسرع تعلماً من المذكورة قال وجميع أصناف السباع ذكورتها اجرا وأمضا وأقوى الا الفهود والذيبة والعامة تزعم أن اللبوة أجرأ من الأسد وليس ذلك بشيء وهو انزق واحد وأفرق من الهجهجة وأبعد من التصميم وشدة الصولة قال بشر بن سعيد كان بالبصرة شيخ من بني نهشل يقال له عروة بن مرثد نزل ببني اخت له في سكة بني مازن وبنو أخته من قريش فخرج رجالهم الى ضياعهم وذلك في شهر رمضان وبقت النساء يصلين في مسجدهم فلم يبق في الدار الا كلب يعس فرأى بيتاً فدخل وانصفق الباب فسمع الحركة بعض الاماء فظنوا ان لصاً دخل الدار فذهبت احداهن الى أبي الأعز وليس في الحي رجل غيره فاخبرته فقال أبو الأعز ما يبتغي اللص منا ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال إيه يا ملأمان أما والله انك بى لعارف واني بك أيضا لعارف فهل أنت الا من لصوص بني مازن شربت حامضاً خبيثاً حتى اذا دارت الاقداح فى رأسك منتك نفسك الأمانى وقات دور بني عمرو والرجال خلوف والنساء يصلين فى مسجدهن فاسرقهن سوءة والله ما يفعل هذا الاحرار ليس والله ما منتك نفسك فاخرج والا دخلت عليك فصدمتك مني العقوبه لأيم الله لتخرجن اولاهتفن هتفة مشؤمة عليك يلتقي فيها الحيان عمرو وحنظلة ويصير أمرك الى تباب ويجيء سعد بعدد الحصى ويسيل عليك الرجال من هاهنا وهاهنا ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود في بني تميم فلما رأى انه لا يجيبه أخذه باللين وقال اخرج يابني وأنت مستور انى والله ما أراك تعرفني ولو عرفتني لقد قنعت بقولى واطمأننت الى أنا عروة بن مرثد أبو الاعز المرثدي وأنا خال القوم وجلدة ما بين أعينهم لا يعصونني في أمر وأنا لك بالذمة كفيل خفير أصيرك بين شحمة أذني وعاتقى لاتضار فاخرج فانت في ذمتي والا فإن عندي قوصرتين احداهما الى ابن أختي

البار الوصول فخذ احداهما فانتبذها حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وكان الكلب اذا سمع الكلام أطرق واذا سكت وثب يريغ المخرج فتهافت الاعرابى أى تضاحك ثم قال ياالأم الناس وأوضعهم الايانى لك أنا منذ الليلة في واد وأنت في آخر اذا قلت لك السوداء والبيضاء تسكت وتطرق فاذا سكت عنك تريغ المخرج والله لتخرجن بالعفو عنك أو لالجن عليك البيت بالعقوبة فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الحى فقالت اعرابي مجنون والله ما أرى في البيت شيئاً ودفعت الباب فخرج الكلب شدا وحاد عنه أبو الأعز مستلقياً وقال الحمد لله الذى مسخك كلباً وكفانى منك حربا ثم قال تالله مارأيت كالليلة ما أراه الا كلباً أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه قال صاحب الديك في الديك الشجاعة وفى الديك الصبر عند اللقاء وهم لايجدون الصبر تحت السياط والعصا الا ان يكون ذلك موصولا بالصبر فى الحرب على وقع السلاح وفي الديك الجولان وهو ضرب من الروغان وجنس من تدبير الحرب وفيه الثقافة والتسديد وذلك انه يقدر ايقاع صيصيته بعين الديك ويتقرب الى المذبح فلا يخطئ وهم يتعجبون من الجزار ويضربون به المثل اذ كان لا يخطئ اللبة ومن اللحام اذ كان لا يخطيء المفصل ولذلك قالوا في المثل يطبق الحز ولا يخطيء المفصل وهذا القول يذمون به ويمدحون والديك في ذلك أعجب وله مع الطعنة سرعة الوثبة والارتفاع في الهوآء وسلاحه طرير وفى موضع عجيب وليس ذلك الاله وبه سمي قرن الثور صيصية ثم سموا الآطام التى كانت بالمدينة للامتناع بها من الاعداء صياصي قال الله عز وجل وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم والعرب تسمى الجارح وذا الجثة صاحب سلاح فلما كان اسم سلاح الديك وما يمتنع به صيصية سموا قرن الثور الذى يجرح صيصية وعلى انه يشبه في صيصية صورته بصيصية الديك وان كان أعظم ثم لما وجدوا تلك الآطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم وكانت فى مجرى الترس والدرع والبيضة أجروها مجرى السلاح ثم سموها صياصى ثم اسموا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية اذا كانت مشبهة بها في

الصورة فان كانت أطول شيئاً ولانها مانعة من فساد الحوك والغزل ولانها في يده كالسلاح متى شاء ان يجأ به انسانا وجأه به وقال دريد بن الصمة

نظرت اليه والرماح تنوشه * كوقع الصياصي فى النسيج الممدد

وقد تسمى العرب ابرة العقرب شوكة كما تسمى صيصية الديك شوكة وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل ويقال لمن ضربته الحمرة قد ضربته الشوكة لان الشوكةاذا ضربت انساناً فما أكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة وقد قال القطامي في تسمية ابرة العقرب شوكة

سري فى جليد الأرض حتى كأنما * تخزم بالاطراف شوك العقارب

وتوصف الحجر وتشبه بالشوكة لان الشوكة غليظة المتاخر لطيفة المقادم والشوك والسلاء سواء وقال فى ذلك علقمة بن عبدة يصف الحجر

سلاّءة كعصا النهدي عل بها * ذو فيئة من نوى قران معجوم

ومن سمى ابرة العقرب حمة فقد أخطأ وانما الحمة سموم ذوات الشعر كالدبر والزنابير وذوات الانياب والاسنان كالافاعي وسائر الحيات وسموا ذوات الابر من العقارب فانما البيش وماأشبهه من السموم فليس يقال له حمة وهاهنا أمور لها سموم فى خراطيمها كالذبان والبعوض وأشياء من الحشرات تعض وربما قتلت كالشبث وسام أبرص والطبوع شديد الأذي والرتيلا ربما قتلت والصحيح دون ذلك وعقارب طيارة ولم نرهم يسمون جميع السموم بالحمة فقلنامثل ماقالوا وانتهينا الى حيث انتهوا وقد يعرف بعض الناس بانه متى عض قتل كان منهم صفوان أبو جشم الثقفي وداود القراد وسيقع هذا الباب فى موضعه على ما يمكننا ان شاء الله تعالى والناس يسمون الرجل اذا بلغ من حرصه ان لا يدع ذكراً غلاماً كان أو رجلاً أو خصياً كان أو خلا الا نكحه من فرط غلمته ومن قوة خلته صيصية ويقولون ما فلان الا صيصية وهو عندهم اسم لمن اشتد لواطه تشبيها منهم بصيصية الديك فى الحدة والصلابة وللديك انتصابة اذا قام ومباينته صورة في العين لصورة الدجاجة وليس هذا الفرق الواضح من جميع

الإناث والذكور موجودا الا فيه وليس ذلك للحمام والحمامة ولا للحمار والحمارة ولا للبرذون والرمكة ولا للفرس والحجر ولا للجمل والناقة وليس ذلك الا لهذه الفحولة لانها كالرجل والمرأة والتيس والضائنة والديك والدجاجة وكالنخلة والفحال والنخلة المطعمة الا ترى انك لو رأيت ناقة مقبلة لم تدرا ناقة هي أم جمل حتى تنظر الى موضع القبل والضرع والى موضع الحيا وكذلك العنز وكذلك جميع ما وصفت الا ان يدعوا ان للعامة أو لبعض الخاصة فى ذلك خصوصية ولذلك ضربوا المثل بالتيس والنخلة والفحال فاشتقوا من هذا الفحل وهذا أيضاً من خصال الديك ثم للديك لحية ظاهرة وليست تكون اللحى الا للجمل فانه يوصف بالعثنون والا للتيس والا للرجل وقال الراجز في الجمل

مختلط العثنون كالتيس الاحم * سام كان رأسه فيه وذم

اذضم من قطريه هياج قطم

ثم الديك بعد صاحب اللحية والفرق وقالت امرأة في ولدها وزوجها

أشهب ذي رأس كراس الديك

أما قولها أشهب فانها تريد ان شعر جسده قد ابيض من الكبر وانما جعلت شعر رأسه كرأس الديك لانه كان مخضوب الرأس واللحية بالحمرة ثم لم ترض له بشبه الرجال من هذا الوجه حتى جعلت رأسه أفرق وذلك شيء من الجمال والوقار والفضل لا يتهيأ للناس مع كمالهم وتمامهم الا بالتكلف والاحتيال فيه ثم يبلغ من شدة تعجله ومن قوته على السفاد وعلى الباب الذي يفخر به الانسان اذا كان ذا حظ منه وهو مما يذكى النفس لانه كنحو ما ذكر عن التيس المراطى وكنحو ما تراهم يبركون للبختى الفالج عدة قلاص فاذا ضرب الاولى نخافوا عليها ان يحطمها وهو فى ذلك قد رمى بمائه مراراً أفلته الرجال على التى تليه فى القرب حتى يأتى على الثلاث والاربع على ذلك المثال وما دعاهم الى تحويله عن الثالثة الى الرابعة الا تخوفهم من العجز منه وزعم أبو عبد الله الابرص العمي وكان من المعتزلين ان التيس المراطى قرع في أول يوم من أول هيجه نيفا وثمانين قرعة والناس يحكون ما يكون من العصفور في الساعة الواحدة من العدد

الكثير والناس يدخلون هذا الشكل في باب الفضل وفي باب شدة العجلة وتظاهر القوة والديك يكون له وحده الدجاج الكثير فيوسعها قمطا وسفاداً وقد قلنا فى حالة البيض الكثير الترابى وقلبه اياه بسفاد الى الحيوانية وعلى الذي يخصيه انما يخرج له من بين الزمكا وموضع القطاة بيضتين عظيمتين معروفتين وأنا رأيت ديكا هنديا تسنم دجاجة هندية فلم يتمكن منها فرأيت نطفته حين مجها وقد زلق عن ظهرها عن مذرة وكانت الدار مثارة لتجعل بستانا فاذا تلك المجة كالبزقة البيضاء فاخذها بعض من كان معنا فشمها حين رأي بياضها وخثورتها وكثرتها ليعلم هل تناسب ريحها ريح نطفة الانسان وريح طلع الفحال فلم يجد ذلك ثم معرفة الديك بالليل وساعاته وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته يعرف آناء الليل وعدد الساعات ومقادير الاوقات ثم يقسط أصواته على ذلك تقسيطا موزونا لا يغادر منه شيئا ثم قد علمنا ان الليل اذا كان خمس عشرة ساعة أنه يقسط أصواته المعروفة بالعدد عليها كما يقسطها والليل تسع ساعات ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة واعطاء الحصص على حساب ذلك فليعلم الحكماء انه فوق الاسطرلاب وفوق الجزر والمد على منازل القمر وحتى كان طبعه فلك على حدة لجمع المعرفة العجيبة والرعاية العجيبة ورب معرفة تكون نبيلة وأخرى لا تكون في طريق النبالة وان كانت المعارف كلها مفصلة مقدرة الا انها فى منازل ومراتب وليس في الارض معرفة بدقيق ولا جليل وهي فى نفسها شريفة كريمة والمعرفة كلها بصر والجهل كله عمى والعمى كله شين ونقص والاستبانة كلها خير وفضل ثم له بعد ذلك ارتفاق الناس لهذا المعنى منه ومن ذلك بعد صوته وانه يدل على ان موضعه ما هول مأنوس ولذلك قالوا لا يكون البنيان قرية حتى يصقع فيها ديك وليس في الارض طائر أملح ملحا من فروج وليس ذلك الاسم الا لولد الديك والا فكل شئ يخرج من البيض فانما هو فروج والفروج حين تنصدع عنه البيضة يخرج كاسيا عارفا بموضع لقط الحب وسد الخلة وهو أصيد للذباب من السوداني ويدرج مع الولادة بلا فصل ومع ما أعطي من محبة النساء ورحمة الرجال وحسن الرأي من جميع الدار ثم اتباعه لمن دعاه والفه لمن قربه ثم ملاحة

صوته وحسن قده ثم الذى فيه مما يصلح له الفروج ويتفرج فيه وكان جعفر بن سعيد يزعم ان الديك أحمد من الطاوس وانه مع جماله وانتصابه واعتداله وتعلقه اذا مشي سليم من مقابح الطاوس ومن تشاؤم أهل الدار من قبح رجليه ونذالة مرآته وزعم أنه لو ملك طاوسا لالبس رجليه خفا وكان يقول وانما يفخر له بالتلاوين وبتلك التعاريج والتهاويل التي لألوان ريشه وربما رأيت الديك النبطى وفيه شبيه بذلك الا ان الديك أجمل من التدرج لمكان الاعتدال والانتصاب والاشراف وأسلم من العيوب من الطاوس وكان يقول ولو كان الطاوس أحسن من الديك النبطى وتلاوين ريشه لكان فضل الديك عليه بفضل القد والخرط وبفضل حسن الانتصاب وجودة الاشراف من مقدار فضل حسن الوانه على الوان الديك ولكان السليم من العيوب فى العين والعين فيه أعمل لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حسن الطاوس فى عين الناظر اليه وأول منازل الحمد السلامة من الذنب وكان يزعم أن قول فلان أحسن من الطاوس وما فلان الا طاوسا وأن قول الشاعر * جلودها مثل طواويس الذهب

وانهم لما سموا جيش بن الاشعث الطواويس لكثرة من كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال وأما لان العامة لا تبصر الجمال ولفرس رائع كريم أحسن من طاوس فى الارض وكذلك الرجل والمرأة وانما ذهبوا من حسنه الى حسن ريشه فقط ولم يذهبوا الى حسن تركيبه وتنصبه لحسن البازي وانتصابه ولم يذهبوا الى الإعضاء والجوارح والى الثياب والهيئة والرأس والوجه الذى فيه وكان جعفر يقول لما لم يكن فى الطاوس الا حسنه فى الوانه ولم يكن من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويشغل عنه ذكر وتبين وظهر وخصال الديك كثيرة وهي متكافئة فى الجمال ونقول لم يكن لعبد المطلب فى قريش نظير كما انه ليس في العرب لقريش نظير وكما انه ليس في العرب للناس نظير وذلك حين لم تكن فيه خصلة أغلب من أختها وتكاملت فيه وتساوت وتوافت اليه فكان الطبع فى وزن المعرفة فقالوا عند ذلك سيد الأبطح وسيد الوادي وسيد قريش واذا قالوا سيد قريش فقد قالوا سيد العرب واذا قالوا سيد

العرب فقد قالوا سيد الناس ولو كان مثل الاحنف الذي برع في حلمه وبرع في سائر خصاله لذكره بالحلم ولذلك ذكر قيس بن زهير فى الدهاء والحارث بن ظالم فى الوفاء وعتيبة بن الحارث فى النجدة والثقافة ولو أن الاحنف بن قيس رآى حاجب بن زرارة أو زرارة بن عدس أو حصن بن حذيفة لقدمهم على نفسه وهؤلاء عيون أهل الوبر لا يذكرون بشئ دون شئ لاستواء خصال الخير فيهم وفى منحول شعر النابغة

فالفيت الامانة لم تخنها * كذلك كان نوح لا يخون

وليس لهذا الكلام وجه وإنما ذلك كقولهم كان داود لايخون وكذلك كان موسى لايخون عليهما السلام وهم وان لم يكونوا فى حال من الحالات أصحاب خيانة ولا تجوز عليهم فان الناس انما يضربون المثل بالشيء النادر من فعل الرجال ومن سائر أمورهم كما قالوا عيسى بن مريم روح الله وموسى كليم الله وابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم وسلم ولو ذكر ذاكر الصبر على البلاء فقال كذلك كان أيوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً ولو كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطيت حقها ولو ذكر الاحتيال وتجرع الغيظ فقال وكذلك كان معاوية لا يسفه وكان الاحنف لا يفحش لكان كلاماً مصروفا عن جهته ولو قال كذلك كان حاتم لا يبخل لكان ذلك كلاما معروفا ولكان القول قد وقع موقعه وان كان حاتم لا يعرف بقلة الاحتمال وبالتسرع الى المكافاة ولو قال سألتك فمنعتني وقد كان الشعبي لا يمنع وكان النخعي لا يقول لا لكان غير محمود فى جهة البيان وان كان ممن يعطى ويختارنعم على لا ولكن لما لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما لم تصرف الأمثال اليهما ولم تضرب بهما قال جعفر وكذلك القول فى الديك وجماله لكثرة خصاله وتوازن خلاله ولأن جمال لديك لا يلهج بذكره الا البصراء بمقادير الجمال والتوسط في ذلك والاختلاط والقصد ومما يكون ممزوجا خالصاً وحسن الطاوس حسن لا تعرف العوام غيره فلذلك لهجت بذكره ومن الدجاج الخلاسي والهندى ومن الدجاج الزنجي ومنها الكسركري ومن الديكة ما يخصى فلا يبلغه فى الطيب والسمن شيء

وان اشتد لحمه وان كان غير خصي فقد يمدح ذلك من وجه هو رد عليه من باب الفخر ومن رخاوة اللحم واستطابة الاكل وعلى أنه لو كان أدناه من بعض سباع الطير أو عدا خلفه إنسان فكان يريد أخذه حتى اذا فسخه البهر ارتد فى موضعه لا يبرحه ثم ذبحه على المكان لجمع به الخصال كلها ولو علق فى عنقه حجر ليلته بعد أن ذبحه أو أولج بطنه شيئاً من حلتيت لجمع به الخصال فانه من أعمل فيه البورق وقشور البطيخ فى اللحم المفضل وهو بعد غيور يحمي دجاجته وقال الراجز

* يغار والغيرة خلق فى الذكر * وقال الآخر * الفحل يحمي شوله معقولا *

ولحم الدجاج فوق جميع اللحمان فى الطيب والبياض وفى الحسن والملوك تقدمه على جميع الفراخ والنواهض والبط والدراج وهم للدراج آكل منهم للجداء الرضّع وللعنق الحمر من أولاد الصفايا والدجاج أكثر اللحوم تصرفاً لانها تطيب شواء ثم حاراً وبارداً ثم تطيب فى البز ما ورد ثم تطيب في الهرائس ويحدث لهابه نفحة لا تصاب مع غيرها وتطيب طبيخا وتطيب فصوصها وان قطعتها مع اللحم دسم ذلك اللحم وتصلح للحشاوي وللملافسطي وتصلح في الاسفرجات وسمينها يقدم في السكباجة على البط الا أنها تطعم المقصود وليس ذلك للبط قال والديكة دجاج اذا ذكرت فى جملة الجنس وهذا الباب مما تغلب فيه الاناث على الذكورة وقال آخرون لا ولكن الديك نفسه دجاجة إلا أنهم أرادوا ابانته بأنه ذكر فقالوا ديك كما يسمون الذكر والانثى فرسا بلا هاء فاذا أرادوا أن يثبتوا إناثها قالوا حجر وان كانت حجرا فهى فرس وقال الأخطل

نازعته فى الدجى الراح الشمول وقد * صاح الدجاج وحانت وقفة الساري

وقد بين ذلك القرشي حيث يقول

أطردوا الديك عن ذؤابة زيد * كان ما كان لا تطاه الدجاج

وذلك انه كان رأى رأس زيد بن عمر فى دار يوسف بن عمر فجاء ديك فوطئ شعره ونقره في لحمه ليأكله قالوا قد أخطأ من زعم أن الديكة إنما تجاوب بل إنما ذلك

منها شيء يتوافق فى وقت وليس ذلك بتجاوب نباح الكلاب لأن الكلب لا وقت له وإنما هو صامت ساكت ما لم يحس بشيء يفزع منه فاذا أحس به نبح واذا سمع نباح كلب آخر أجاب ثم أجاب ذلك آخر ثم أجابهما الكلب الأول وتبين انه المجاوب جميع الكلاب والديك ليس من أجل انه أنكر شيئاً اذا استجاب أو سمع صوتاً صفع وإنما يصفع لشيء فى طبعه اذا قابل ذلك الوقت من الليل هيجه فعدد أصواته فى الوقت الذى يظن انه تجاوب فيه الديكة كعدد أصواته في القرية وليس فى القرية ديك غيره وذلك هو فى المواقيت والعلة التي لها يصقع في وقت بعينه شائعة فيها فى ذلك الوقت وليس كذلك الكلاب قد تنبح الكلاب فى الخريبة وكلاب فى بنى سعد غير نابحة وليس يجوز أن تكون ديكة المهالبة تصفع وديكة المسامعة ساكتة فان أراد مريد بقوله إن الديكة تجاوب على مثل قول العرب هذه الجبال تتناظر اذا كان بعضها قبالة بعض واذا كان الجبل من صاحبه بالمكان الذي لو كان إنسان رآه جاز ذلك وعلى هذا المثال قال النبي صلى الله عليه وسلم فى نار المشركين ما قال حيث قال لا تتراءى ناراهما ومع قول الشاعر * لا تتراءى قبورهما * وقال ابن مقبل العجلاني

سل الدار من جنبي جبير فراهب * وحيث ترى هضب القليب المضيح

وتقول العرب اذا كنت بمكان كذا وكذا حيث ينظر اليك الجبل فخذ عن يسارك أو عن يمينك وقال الراجز * وكما ترى شيخ الجبال ثبيرا * وشيخ الجبال عنده أبو قبيس وقال النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله الاخيار أنا بريء من كل مسلم مع كل مشرك قيل ولم يارسول الله قال لا تتراءى ناراهما وقال الكسائى تقول العرب دارى تنظر الى دار فلان ودورنا تتناظر وقال الله تبارك وتعالى وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وإنما قال القوم فى تجاوب الديكة بيت شعر سمعوه للطرماح جهلوا معناه وهو

فيا صبح كمش عبر الليل مصعدا * بنم وبنها كالعفاء الموشح

اذا صاح لم يخذل وجاوب صوته * حماش الشوى يصدحن من كل مصدح

وكذلك غلطوا فى قول عبد الله بن الطيب

اذ صفق الديك يدعو بعض أسرته * الى الصباح وهم قوم معازيل

وإنما أرادا توافى ذلك منها معاً فجعلها دعاء وتجاوباً على ما فسرناه قال صاحب الكلب لولا أنا وجدنا الحمار المضروب به المثل فى الجهل يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولاً ومذهباً غير مردود ولو أن متفقداً يتفقد ذلك من الحمار لوجده منظوما يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم ولوجد ذلك مقسوما على ساعات الليل ولكان لقائل ان يقول فى نهيق الحمار فى ذلك الوقت ليس على تجاوب إنما ذلك شيء يتوافى معاً لاستواء العلة ولم تكن للديك الموصوف بانه فوق الاسطرلاب فضيلة ليست للحمار وعلى ان الحمار أبعد صوتاً وقد بلغ من شدة صوته ما ان حلف أحمد بن عبدالعزيز ان الحمار ما ينام قيل له وما ذاك قال لانى أجد صياحه ليس بصياح شيء انتبه تلك الساعة ولا هو صياح من يريد ان ينام بعد انقضاء صياحه هذا والحمار هو الذي ضرب به القرآن المثل فى بعد الصوت وضرب به المثل فى الجهل فقال كمثل الحمار يحمل اسفاراً فلو كان شيء من الحيوان أجهل بما في بطون الأسفار من الحمار لضرب الله المثل به دونه وعلى ان فيه من الخصال ما ليس في الديك وذلك ان العرب وضعته من الامثال التى هى له فى عشرة أماكن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل الصيد في جوف الفرا وكفاك به مثلاً اذا كان لرسول الله عليه وسلم في تفضيل هداية أبي سفيان وقالت العرب انكح من الفراء والفراء مهموز مفتوحة الفاء مجموعة فرا قال الشاعر

بضرب كآذان الفراء فضوله * وطعن كايزاغ المخاض النوازع

وتقول العرب العير أوفى لدمه وقولهم من ينك العير ينك نياكا وقالوا الجحش إذا فاتتك الاعيار وقالوا اصبر من عير أبي سيارة لانه كان دفع بأهل الموسم على ذلك الحمار أربعين عاماً وقالوا ان ذهب عير فعير في الرباط وقالوا في المديح لصاحب الرأى جحيش وحده وعيير وحده والعير يضرط والمكواة في النار وقالوا حماراً يحمل أسفاراً وأضل من حمار أهله

وأخزى الله الحمار مالا لا يزكى ولا يذكى وقد حيل بين العير والنزوان فالذى مدح به أكثر فقد وجدنا الحمار أبعد صوتاً ووجدناه يعرف من أوقات الليل ويميز عدداً معلوما الى الصبح الا ان له في الاسحار فضيلة والحمار أجهل الخلق فليس ينبغى للديك ان يقضي له بالمعرفة والحمار قد ساواه فى سيد علمه ثم باينه ان الحمار أحسن هداية والديك ان سقط على حائط جاره لم يحسن ان يهتدى الى داره وان خرج من باب الدار ضل وضلاله من أسفل كضلاله من فوق قال صاحب الديك حدثونا عن صالح ابن كيسان عن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة قال صرخ ديك عند النبي صلى الله عليه وسلم فسبه بعض أصحابه فقال لا تسبه فانه يدعو الى الصلاة وعن ابن الماجشون عن صالح ابن كيسان عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن يزيد بن خالد الجهني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن سب الديك وقال انه يؤذن للصلاة الحسن بن عمارة عن عمرو بن مرة وعن سالم مولى أبي الجعد يرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان مما خلق الله تعالى لديكا عرفه تحت العرش وبراثنه فى الارض السفلى وجناحاه فى الهوى فاذا ذهب ثلثا الليل وبقي ثلثه ضرب بجناحه ثم قال سبحو الملك القدوس سبوح قدوس أي انه لا شريك له فعند ذلك تضرب الطير باجنحتها وتصيح الديكة وأبو العلاء عن كعب ان لله تعالى ديكا عنقه تحت العرش وبراثنه في أسفل الارضين فاذا صاحت الديكة يقول سبحان الملك القدوس الملك الرحمن لا اله غيره قال والديكة أكيس شيء وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الديك الأبيض صديقي وعدو عدو الله يحرس دار صاحبه وسبع دور وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيته معه فى البيت وروى ان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسافرون بالديكة وزعم أصحاب التجربة انه كثيراً ما يرون الرجل اذا ذبح الديك الأبيض الافرق انه لا يزال ينكب فى أهله وماله ومما فى المحاجاة ان يقال كيف تعرف الديك من الدجاجة اذا كان صغيراً حين يخرج من البيضة فقالوا يعلق بمنقاره فان تحرك فهو ديك وان لم يتحرك فهو دجاجة قال الشاعر في حسن الدجاجة ونبل الديك

غدوت بشربة من ذات عرق * أبا لد هناء من حلب العصير
وأخرى بالعقنقل ثم رحنا * نرى العصفور أعظم من بعير
كأن الديك ديك بني نمير * أمير المؤمنين على السرير
كان دجاجهم فى الدار رقطا * بنات الروم في قمص الحرير
فبت أرى الكواكب دانيات * ينلن أنامل الرجل القصير
ادافعهن بالكفين عني * وأمسح جانب القمر المنير

وقال صاحب الكلب الاشياء التي تألف الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور والديك مما يتخذه الناس وليس مما يحن اليهم فيقطع البلاد نزاعاً فيكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطاف ولا هو من الأوابد كالعصفور الذي حيث مادار رجع اليهم ولا هو كالكلب الذي يعرف سواهم ولا هو كالاهلي من السنانير التي متى الفتهم لم تفارقهم وتعس بالليل وتطوف فى القبائل من دار الى دار ثم لا يكون مرجعها إلا اليهم والديك فى خلاف ذلك كله ثم لا يألف منزله ولا يعرف ربعه ثم لا يحن الى دجاجه ثم لا تتوق نفسه الى طروقته ولا يشتاق الى ولده ولا يعرف الذين غذوه وربوه بل لم يدر قط ان له ولداً ولو كان دري لكان على درايته دليل فاذ قد وجدناه لفراريجه وبيضه المخلوقة منه ومن نجله كما نجده لما لم يلد ولما ليس من شكله أيضاً ولا يرجع الى نسبه فكيف لا نقضي عليه بالنقص اذ كانت الامور لا تعرف الا بهذا وشبهه وهو لا يعرف أهل داره ولا يثبت وجه صاحبه الذى لم يخلق الا عنده وفي ظله وتحت جناحه ولم يزل فى رزقه وعياله والحمام ترجع اليه من مائتى فرسخ ويصطاد فيتحول عن وطنه عشر حجج ثم هو على ثبات عهده وقوة عقده وعلى حفاظه والفه والنزاع الى وطنه فان وجد فرجة ووافق جناحه وافياً وافاه وصار اليه وان كان جناحه مقصوصاً حذف الى أهله وتكلف المضى الى سكنه فاما بلغ وإما أعذر والخطاف يقطع اليهم من حيث لا يبلغه خبر ولا يطؤه صاحب سفر على انا لا نراه يتخذ وكره اذا صار اليهم الا في أحصن موضع ولا يحمله الانس

بهم على ترك التحرز منهم والحزم في ملابستهم ولا يحمله الخوف منهم على منع نفسه لذة السكون اليهم ولا يبخس الارتفاق بهم حظه والعصافير لا تقيم في دار الا وهي مسكونة فان هجرها الناس لم تقم فيها العصافير والسنور يعرف ربة المنزل ويألف فرخ الحمام ويعابث فراريج الدار ان سرق وربط شهراً عاد عند انفلاته وانحلال رباطه والهرة تعرف ولدها وان صار مثلها وان أطعمت شيئاً حملته اليه وأثرته به وربما التى اليها الشئ فتدنو لتأكله ويقبل ولدها فتمسك عنه وتوضه له وربما طرح لها الشئ وولدها غائب عنها ولها ضروب من النغم وأشكال من الصياح فتصيح ضربا من الصياح يعرف أهل الدار انه صياح الدعاء لاغير ذلك ويقال أبر من هرة ومتى أرادت ما يريد صاحب الغائط أتت موضع تراب فى زاوية من زوايا الدار فتبحثه حتى اذا جعلت له مكاناً كهيئة الحفرة جعلته فيها ثم غطته من ذلك التراب ثم تشممت أعلى ذلك التراب وما ظهر منه فان وجدت شيئاً من الرائحة زادت عليها ترابا فلا تزال كذلك حتى تعلم انها قد أخفت المرئى والمشموم جميعاً فان هي لم تجد ترابا خمشت وجه الارض أو ظهر السطح حتى تبلغ فى الحفر المبلغ ومن ستر ذلك المجهود وزعم ناس من الاطباء ان السنور يعرف وحده ريح رجعه فانما يستره لمكان شم الفار له فانها تفر الى تلك الرائحة وتغطيه لما يكون من خلق من أخلاق الأسد ما يشا كل فيه الأسد فى الخلق على قدر مايشا كله في الخلق وتعداد ذلك كثير والديك لا تراه الا سالحاً ثم لا يتوقى ثوب رب الدار ولافراشه ولا بساطه هذا وحياته التراب ولم يدفن نفسه فيه ويدخله فى أصول ريشه ثم لا ترى سلاحاً أنتن منه لا يشبه ذرق الحمام وصوم النعام وجعر الكلب ثم مع ذلك لا تراه الا سائلاً رقيقاً ولو كان مدحرجا كأبعار الشاء والابل والظباء ومتعلقاً يابساً كبعر الكلب والاسد ثم لو كان على مقدار نتنه لكان أهون فى الجملة وقال أبو نواس فى ديك بعض أصحابه

آذيتنا بديكك السلّاح * فنجنا من منتن الارواح

وقال صاحب الكلب ومن مرافق الكلب ان الخناقين يظاهر بعضهم بعضاً فلا

يكونون في البلاد الا معا ولا يسافرون الا معافر بما استولوا على درب بأسره أو على طريق بأسره ولا ينزلون الا في طريق نافذ ويكون خلف دورهم إما صحارى وإما بساتين وإما مزابل وأشباه ذلك وفي كل دار كلاب مربوطة ودفوف وطبول ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم فاذا خنق أهل دار منهم انسانا ضرب النساء بالدفوف وضرب بعضهم الكلاب نسمع المعلم فصاح بالصبيان إنجوا وأجابهم أهل كل دار بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء أهل القرى وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حمارا لما شعر بمكانه أحد كما كان ذلك بالرقة وكيف أخذوا أهل درب بأسره وذلك ان بعضهم رغب فى ثويب كان على جمال وفيه دريهمات معه فالقى الوهق فى عنقه فغشى عليه ولم يمت وتحرك بطنه فاتى المتوضأ وتحرك الجمال والساجور فى عنقه فرجعت نفس الجمال فلما لم يحس بأحد عنده قصد نحو باب الدار وخرج وزيادة في عنقه وتلقته جماعة فاخبرهم الخبر وتصايح الناس فاخذوا عن آخرهم وقد كان بالكوفة شبيه بذلك وفى غيرها من البلدان فقال حماد الراوية وذكر المرميين بالخنق من القبائل وأصحاب القبائل والنحل وكيف يصنع الخناق وسمى بعضهم فقال

اذا سرت فى عجل فسر فى صحابة * وكندة فاحذرها حذارك للخسف
وفى شيعة الاعمى زياد وغيلة * وقشب وأعمال مخذلة القذف
وكلهم شر على ان رأسهم * حميدة والميلا وصاحبة الكسف
متى كنت في حي بجيلية فاستمع * فان لهم قصفاً يدل على حتف
اذا اعتزموا يوما على خنق زائر * تداعوا عليه بالنباح وبالعزف

وأما ذكره لبني عجل فلمكان ذى الضفرتين وغيره من بني عجل وأما ذكره كندة فقد أنشدنا سفيان بن عيينة وأبو عبيدة النحوى

اذا ما سرك العيش * فلا تأخذ على كنده

ومن كندة أبو قصبة أخذ بالكوفة وقتل وصاب وكان بالكوفة ممن يأكل لحوم الناس عدية المدنية الصغرى وكان بالبصرة رادويه صاحب قصاب رادويه وأما

الاعمى في بني ضبة الذى ذكره فهو المغيرة بن سعيد صاحب المغيرية وهم صنف ممن يعمل فى الخنق بطريق المنصورية والمغيرة هذا من موالي بجيلة وهو الخارج على خالد ابن عبد الله القسرى وعند ذلك قال خالد وهو على المنبر اطعموني ماء وفى ذلك يقول بحر بن نوفل

وقلت لما أصابك اطعمونى * شرابا ثم بلت على السرير
لاعلاج ثمانية وشيخ * كبير السن ذى بصر ضرير

وأما حميدة فقد كانت لها رياسة فى الغالية وهي ممن استجاب لليلى الشبابية الناعظية والميلى صاحبة أبي منصور صاحب المنصورية وهو الكسف قالت الغالية اياه عنى الله تبارك وتعالى وان يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم وقد ذكره أبو السرى معدان الاعمى السميطى فى قصيدته التى صنف فيها الرافضة ثم الغالية وقدم السميطية على جميع أصناف الشيعة فقال

ان ذا الكسف صد آل كميل * وكميل زول من الازوال
تركا بالعراء داء دويا * ضل فيه تلطف المحتال
منهم جاعل المسيب اماما * وفريق يرض زند الشمال
وفريق يقول إنا براء * من علي وجندب وبلال
وبراء من الذى سلم الأمـ * ـر على قدرة بغير قتال
وفريق يدين بالنصر حتما * وفريق يدين بالاهمال

لان الكميلية لا تجيز الوكالة فى الإمامة وتقول لابد من امام صامت أو ناطق ولابد من علم يمد الناس اليه أعناقهم وأبو منصور يقول بخلاف ذلك وأما قوله

وفى شيعة الأعمى زياد وغيلة * وقشب وأعمال مجزلة القذف

فقد قال معدان حبشى وكافر سبياني * حربى وناسخ قتال
تلك تيمية وهاتيك صمت * ثم دين المغيرة المغتال
خنق مرة وشنق بخار * ثم رضخ بالجندل المتوالى

لان من الخناقين من يكون جامعاً وبذلك يسمونه اذا جمع الخنق والتشميم وحمل معه في سفره حجرين مستديرين مدملكين وملمامين فاذا خلا برجل من أهل الرفقة استدبره فرما بأحدهما قمحدوته وكذلك ان كان ساجداً فان دمغه الاول سلبه وان هو رفع رأسه طبق بالآخر وجهه وكذلك ان الفاه نائماً أوغافلاً ولقد صحب منهم ناس رجلا خرج من الري وفي حقوه هميان فكان لا يفارق معظم الناس فلما رأوه قد قرب من مفرق الطريقين ورأوا احتراسه وهم نزول أما في صحراء وأما في بعض سطوح الخانات والناس متشاغلون بأمورهم فلم يشعر صاحب الهميان نهاراً والناس حوله الا والوهق في عنقه وطرحه الآخر حين القاه في عنقه ووثب اليه وجلس على صدره ومد الآخر برجليه والقى عليه ثوباً وأذن في أذنه فقام اليهم بعض أهل الرفقة كالمعين والمتفجع فقالوا له مكانك فانه ان رآك خجل واستحى فأمسك القوم عنهم وارتحل القوم وأعجلوا بصاحبهم فلما خلوا به أخذوا ما أحبوا وتركوا ما أحبوا ثم حملوه على أيديهم حتى اذا برزوا رموه في بعض الأودية وقد ذكر أعشي همدان السبيلية وشأنهم في كرسي المختار

شهدت عليكم انكم سبلية * واني بكم ياشرطة الكفر عارف
وأقسم ما كرسيكم بسكينة * وان كان قدلفت عليه اللفائف
وان ليس كالتابوت فيناوان سعت * سنام حواليه وفيهم زخارف
واني امرؤ أحببت آل محمد * وآثرت وحيا ضمنته المصاحف
وان شاكراً طافت به وتمسحت * باعواد ذاو دبرت لاتساعف
ودانت به لابن الزبير رقابنا * ولا غبن فيها أو تحز السوالف
واحسب عقباها لآل محمد * فينصر مظلوم ويأمن خائف
ويجمع ربي أمة قد تشتت * وهاجت حروب بينهم وحسائف

أبو عبيدة الحسيفية الضغينة وجمعها حسائف وما أكثر من قتل نفسه بيده اما لخوف المثلة واما لخوف التعذيب والهوان وطول الاسر وقد كان الحكم بن الطفيل

أخو عامر بن الطفيل وأصحابه خنقوا أنفسهم فى بعض الايام فعيروا بذلك تعييرا شديداً فقال خراشة ابن عامر بن الطفيل

وقدتهم للموت ثم خذلتهم * فلا وألت نفس عليك تحاذر
فهل تبلغنى عامرا ان لقيته * أسليت عن سلمان أم أنت ذاكر
فان وراء الحى غزلان أيكة * مضمخة آذانها والغدائر
وانكم اذ تخنقون نفوسكم * لكم تحت اظلال المضاه جرائر

وقال عروة بن الورد في يوم ساحوق ويذكر خنق الحكم بن الطفيل وأصحابه أنفسهم فقال

ونحن صبحنا عامرا في ديارها * علالة ارماح وعضبا مذكرا
بكل رقيق الشفرتين مهند * ولدن من الخطي قدطر أسمرا
عجبت لهم اذ يخنقون نفوسهم * ومقتلهم عند الوغي كان أعذرا
لشد الحليم منهم عقد حلة * الا يأتى الامر الذى كان أعذرا

وقال أبو زيد فى كلب له كان يساور الاسد ويمنعه من الفساد حين حطمه الاسد وكان اسمه أكدر فقال

أخال أكدر مختالا كعادته * حتى اذا كان بين الحوض والعطن
لاقى الذي جلل الاطواد داهية * أشوت وأكدر تحت الليل فى قرن
حطت به سنة ورهاء تطرده * حتى تناهى الى الاهوال في سنن
الى مقارب خطو الساعدين له * فوق السراة كذفرى القارح الغضن
ريبال ظلمى لا فخم ولا ضرع * كالبغل خط به العجلان في سكن
فاسريا وهما سنا همومهما * الى عرين كعش الارمل اليفن
هذا بما علقت اظفاره بهم * وظن أكدر غير الامن والحسن
حتى اذا ورد الغروال وانتهت * لحسنه أن احدى سنه سدن
بادى جناحهما حصاء قد أفلت * لهن يهرن تعبيرا على سدن
أتين اكدرا أن تموا ثمانية * ان قد تحلل أهل البيت باليمن

نخاف عـزتهـم لمادنا لهـم * فخاص اكدر مشفيا من الوسن
باربع كلها فى الخلـق داهيـة * غضف عليهن ضافى اللحم واللبن
الفاه متخـذ الانيـاب جنتـه * وكان بالليـل ولاّجا إلى الجنن

(وقال)صاحب الكتاب قال اعرابى واكل ذيب شاة له تسمى وردة وكنيتهاأم وردة

أودى بوردةأم الوردذوعسل * من الذئاب اذا ماراح أو بكرا
لولا ابنها و سليلات لها غرر * ماانفكت العين تذرى دمعهادررا
كانما الذئب اذ يعدوعلى غنمي * فى الصبح طالب وتركان فاتأرا
اعتامها اعتامـه شـثن براثنه * من الضواري اللواتى تقصم القصرا

قال فى هذا الشعر دليل ان الذئب انما يعدو عليها مع الصبح عند فتور الكلاب عن النباح لانه بات ليلتـه كلها دائبا يقظان يحرس فلما جاء الصبح جاءوقت نوم الكلاب وما يعتريها من النعاس ثم لم يدعوا الله على الذئب بأن يأ كله الأسـد حتي يختاره ويعتامه الاوالأسد يأ كل الذئاب ويختار ذلك وانما استطاب لهم الذئب بفضل شهوته للحم الكلاب (وقال) صاحب الديك لم نر شريفا قط اجاز شاعرا بكلب ولاحبابه زائرا قدرا يتهم يجيزون الشعراء بالدجاج واعظم من ذلك أن لقيم الدجّاج لما قال فى افتتاح خيبر وهو يعني النبى صلى الله عليه وسلم

رميت قطاة من النـبي بفيلق * شـهباء ذات منا كب وفقار

وهب له دجاج خيبر عن آخرها رواه أبو عمر والمدائنى عن صالح ابن كيسان ولتلك الدجاج قيـل لقيم الدجاج (وقال) صاحب الـكلب قال أبو الحسـن كان اياس بن معاوية وهو صغير ضعيفا دقيقا دميما وكان له أخ أشـد حركة منـه وأقوى فكان معاوية يقدمه على اياس فقال له اياس يو ما ياابت تقدم أخي على وسأ ضرب لك مثلي ومثله هو مثل الفروج حين تنفلق عنـه البيضة يخرج كافيابنفسه يلتقط ويستخفه الناس وكلما كبر انتقص حتى اذاتم فصار دجاجـة لم يصلح الا للذبح وانا مثـل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على حركة فابواه يغذوانه حتي يقوى

وينبت ريشه ثم يحسن بعد ذلك ويطير فيجد به الناس ويكرمونه ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء فيصان لذلك ويكرم فقال أبوه لقد أحسنت المثل فقدمه على أخيه فوجد عنده أكثر مما كان يظن فيه (قال) صاحب الكتاب وقد أغفل إياس في هذا القول بعض مصالح الدجاج وذلك ان الدجاج من له أن يخرج من حد الصغر والكيس الى أن يدخل في حد الكبر واحتمال اللحم والشحم يكون أخبث حالا لانه لا يصلح فيه للذبح وقد خرج من حد الكيس والاستملاح وإياس هو الذي يقول لست بخب والخب لا يخدعني ولا يخدع ابن سيرين وهو يخدع أبي ويخدع الحسن

باب ما يحتاج الى معرفته

يقال فرج المرأة والجمع فروج وهو القبل والفرج كناية والاسم الحر وجمعه احراح وقال الفرزدق

اني أقود جملا ممراحا * في قبة موقرة أحراحا

قالوا وانما جمعوه على احراح لان الواحد حرح هكذا كان أصله وقد يستعار ذلك وهو قليل قال الشاعر

تراها الضبع أعظمهن رأسا * جراهمة لها حرة وثيل

فلم يرض الاستعارة حتى ألحق فيها الهاء وهو الكعثب وقال الفرزدق

اذا بطحت فوق الاثافى رفعها * بثديين مع نحر كريم وكعثب

وقال الاغلب * حياكة عن كعثب لم يصمح * وهو الاخثم وقال الراجز بائنة الرجل فما تضمها * وقال وقد يسمى الشكر بفتح الشين واسكان الكاف وأنشدوا وكنت كليلة الشهباء هبت * بمنع الشكر أتامها القبيل أفضاها وأما قوله

قد أقبلت عمرة من عراقها * ملصقة السرج بخاق باقها

قال وهو ان أراد الحر فليس ذلك من أسمائه ولكنه سماه بذلك على المزاح قالوا والظبية إسم الفرج من الحافر والجمع الظبيات وقد استعاره أبو الاحرز فجعله للخف فقال

ساورها عند القروء الوحم * في الارض ذات الظبيات الجحم

وقد قال الاول

فجاء بغرمول وفلك مدملك * فخرق ظبييها الحصان المشبّق

وهو من الظلف والخف الحيا والجمع أحيية وهو من السبع ثفر وقد استعاره الاخطل للظلف فقال

جزى الله عنا الاعورين ملامة * وعبلة ثفر الثورة المتضاخم

فلم يرض ان استعاره من السبع للبقرة حتي جعل البقرة ثورة وقد استعاره النابغة الجعدي للحافر كما استعاره الاخطل للظلف فقال

بريذنة بلّ البراذين ثفرها * وقد شربت من آخر الليل أيلا

وقد قالوا برذونة وقال الراجز

تزحزحي اليك يابرذونه * ان البراذين اذا جرينه

* مع الجياد ساعة أعيينه *

وقد استعاره آخر فجاله للنعجة فقال

وما عمرو الا نعجة شاخسية * تحرك تحت الكبش والثفر وارم

والشاخسية ضأن في تغلب وقد استعاره آخر فجعله للمرأة فقال

نحن بنو عمرة في انتساب * بنت سويد أكرم الضباب

* جلدتنا من ثفرها المنجاب *

ويقال لجردان الحمار غرمول وقد يقال ذلك للانسان وقضيب البعير وهو لكل شيء ومقلم الجمل فقط ومن السباع العقرة وأصله للكلب والذئب وقال جرير

اذا روين على الخنزير من سكر * نادين ياأعظم القسين جردانا

ويقال صرفت الكلبة صرافا وصروفا وظلعت تظلع ظلوعاً وقالوا في الأمثال لاأفعل

حتى ينام ظالع الكلاب أي الصارف ولم يعرف الاصمعى ظلعت الكلبة بمعنى صرفت واستحرمت وجعلت واستجعلت واستطارت والذئبة فى ذلك كالكلبة قال ويقال في السباع قد وضعت وولدت ورمضت مثل ما يقال للناس والغنم قال ويقال فى السباع كلبة وكلب وذئبة وذئب وبرذون وبرذونة وأنشد

أريت اذا ماجالت الخيل جولة * وأنت على برذونة غير طائل

ويقال رجل ورجال وامرأة ونساء وليس لها جمع من واحدها ويقال بعير وناقة وجمل ولا يقال جملة ولا بعيرة وقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخة ويقال كبش ونعجة ولا يقال كبشة كما لا يقال اسدة ويقال أسد ولبوة ويقال لبوات وذئبة وذئب وقال الشاعر

كأنها ضبعانة فى مغارة * وذئبة محل أم جروين تعسل

ويقال انسان وانسانة وسبع وسبعة وحمام وحمامة وحمار وحمارة وسرحان وسرحانة وسيد وسيدة ومقل ومقلة والق والقة وقال رؤبة * جدوجدت القة من الألق *
وزعم انه يقال ضبع وضبعة وثعلب وثعلبة وأصحابنا لا يقولون هذا ويضحكون ممن يقولون ضبعة عرجاء ويقال ثرملة ويقال من الفراخ فرخ وفرخة ومن النمور نمر ونمرة قال ويقال ذيخ وذيخة وضبعان وضبعانة وجيئل وجيئلة ويقال عقرب وعقربة والعقربان الذكر وحده وقال الشاعر

كان مرعى أمكم اذا غدت * عقربة يكومها عقربان

ومن الضفادع ضفدع وضفدعة ومن القنافذ قنفذ وقنفذة وشيهم وشيهمة ومن القرود قرد وقردة ويقال إلقة وقشة ولا يقال الق وقش ويقال لولد القرد رباح والأنثى القة وقال الشاعر والقة نزعت رباحها * والسهل والنوفل والنمر
ومن النعام مقل ومقلة وهيق وهيقة وصعل وصعلة وسفنج وسفنجة ونعام ونعامة والواحد من فراخها الرأل والجمع رئال ورال وأرؤل والانثى رألة وحقانة والجمع حقان وقد يكون الحقان أيضاً للواحد ويقال لها قلاص والواحدة قلوص ولا

يقال قلوصة ويقال ظليم ولا يقال ظليمة ويقال نفيق ولا يقال نفيقة ويقال من الارانب أرنب ولا يقال أرنبة والذكر خزز ويقال للأنثى عكرشة ولولدها خرنق ويقال هذه أرنب وهذه عقاب ولا يقال هـذا الأرنب ولا هـذا العقاب وقال الشماخ

فما تنفك بين عويرضات * تجر براس عكرشة زموع

قال ويقال لولد الكلب جرو والانثى جروة وهو درص والجمع ادراص ويقال لمن عضه الكلب الكلب بال كادراص الكلاب وجرو الكلب يكون أعمى عشرة أيام وأكثر وقد يعرض شبيه بذلك لكثير من السباع ويقال بصبص الجرو وفقح وجصص اذا فتح عينيه شيئاً وصأصأ اذا لم يفتح عينيه ولذلك قال عبد الله بن جحش والسكران ابن عمرو للمسلمين ببلاد الحبشة انا فقحنا وصأصأتم ثم قال بعض الرجاز في بعض الصبيان

أقبح به من ولد وأشقح * مثلُ جرو الكلب لم يفتّح

ان يسر سار لم يقم فينبح * بالباب عند حاجة المستفتح

ويقال لولد الأسد جرو واجراء وجراء وهي لجميع السباع ويقال له خاصة شبل والجمع أشبال وشبول وقال زهير

ولانت أشجع حين تتجه الابـ * ـطال من ليث أبي أجر

وحدثني صديق لي قال تعجب أخ لنا من خبث الثعلب وكان صاحب قنص وقال لي ما أعجب أمر الثعلب يفصل بين الكلب والكلاب فيحتال للكلاب بما يعلم انه يجوز عليه ولا يحتال مثـل تلك الحيلة للكلب لان الكلب لا يخفى عليه الميت من المغشى عليه ولا ينفع عنده التماوت ولذلك لا يحمل من مات من المجوس الى النار حتى يدنى منه كلب لانه لا يخفى عليه مغمور الحس أهو حي أو ميت وللكلب عند ذلك عمـل يستدل به المجوس قال وذلك اني هجمت على ثعلب في مضيق ومعي بني لي فاذا هو ميت منتفخ فصددت عنه فـلم البث ان لحقتني الكلاب فلما أحس بها وثب كالبرق بعد ان تحاير عن السنن فسألت عن ذلك فاذا ذلك من فعله معروف وهو ان يستلقي وينفخ خواصره ويرفع قوائمه فلا يشك من رآه من الناس انه ميت منذ دهر وقد

أتذكر إنتفاخ بدنه فأتعجب من ذلك اذا مررت في الزقاق الذي في أصل دار العباسية ومنفذه الى مازن فاذا جرو كلب مهزول سيء الغذاء قد ضربه الصبيان وعقروه ففر منهم ودخل الزقاق فرمى بنفسه في أصل إصطوانة وتبعوه حتى هجموا عليه فاذا هو قد تمرد فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك فانصرفوا عنه فلما جاوزوا تأملت عينه فاذا هو يفتحها ويغمضها فلما بعدوا عنه وأمنهم عدا وأخذ في غير طريقهم فأذهب الذى كان في نفسي للثعلب اذ كان الثعلب ليس فيه الا الروغان والمكر وقد ساواه الكلب في أجود حيله ومع الكلب بعد ما ليس معه الا ان يفخر بفروته فى موضع انتفاع الناس به فجعر الكلب للذبحة أنفع منه اذ كان في الذبحة الموت وليس يقوم مقامه شئ وجلد الثعلب منه عوض (قال) صاحب الديك شرار عباد الله من قتل أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم نجد شعراء الناس شبهوا أولئك القاتلين بشئ سوى الكلاب قال أبو نضلة الأبار فى قتل سلم بن أحوز المازنى صاحب شرطة نصر بن سيار الليثى يحي بن زيد وأصحابه فقال

ألم تر ليثاً ما الذي ختمت به * لها الويل في سلطانها المتخاذل
كلاب تعاوت لا هدى الله سبلها * فجاءت بصيد لا يحل لآ كل
بنفسى وأهلي فاطمي تقنصوا * زمان عمي من أمة وتخاذل
لقد كشفت للناس ليث عن استها * وغاب قبيل الحق دون القبائل

(قال) صاحب الديك وروى هشيم عن المغيرة عن ابراهيم قال لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحن غلمان إلا الكلاب وذكر محمد بن العجلان المدائنى عن زيد بن أسلم أنه كان لا يري بأساً بالبيض الذى يتقامر به الفتيان أن يهدي اليه منه شئ أو يشتريه فيأكله وهشام بن حسان قال سئل الحسن عن البيض يلعب به الصبيان يشتريه الرجل فيأكله فلم ير به بأساً وإن أطعموه أن يأكل منه والجوز الذي يلعب به الصبيان وحاتم بن اسماعيل الكوفي قال حدثنا عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه لم يكن يري بأساً بالبيض الذي يلعب به الصبيان قال وحدثني

ابن جريج قال وأخبرني عبد الله بن عبيد بن عمير قال أخبرنى أبو الطفيل انه سمع علي بن أبي طالب يقول اقتلوا الحيات ذا الطفيتين والكلب الأسود البهيم ذا العزتين قال والعزة حوة تكون بعينيه (قال) صاحب الكلب قد أخبرنى أبو حرب عن منصور القصاب قال سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون به فكرهه وما رأينا قط أحداً يريد الادلاج ينتظر صقاع الديك وإنما يوالي الديك بين صياحه قبيل الفجر ثم مع الفجر الى أن ينبسط النهار وفيما بين الفجر وامتداد النهار لا يحتاج الناس الى الاستدلال لأن يصوت الديك ولها فى الاسحار أيضاً بالليل الصيحة والصيحتان وكذلك الحمار على أن الحمار أبعد صوتاً وأجدر على أن ينبه كل نائم لحاجة ان كانت له وما رأينا صاحب سحور يستعمله وكذلك صاحب الأذان وما رأيناه يتكل فى وقت أذانه على صياح الديك لأن صورة صوته ومقدار مخرجه فى السحر الاكبر كصياحه قبل الفجر وصياحه قبل الفجر كصياحه وقد نور الفجر وقد أضاء النهار ولو كان بين الصيحتين فرق وعلامة كان لعمري ذلك دليلا ولكنه من سمع هتافه وصقاعه فانما يفزع الى مواضع الكواكب والى مطلع الفجر الكاذب والصادق والديك له عدة أصوات بالنهار لا يغادر منها شيئاً وتلك أوقات لا يحتاج فيها الناس اليه ولو كنا وعلماؤنا يستعملون بالنهار الاسطرلابات وبالليل المنكابات ولهم بالنهار سوى الاصطرلابات خطوط وظل يعرفون به ما مضى من النهار وما بقى ورأيناهم يتفقدون المطالع والمجارى ورأينا أصحاب البساتين كل من كان بقرب الرياض يعرفون ذلك بريح الأزهار ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير وبكورها وغدوها وأصواتها ولذلك قالوا فى وصف الرجل له وثبة الأسد وروغان الثعلب وانسلاب الذئب وجمع الذر وبكور الخنزير والراعي يعرف ذلك فى بكور الابل وفى حنينها وغير ذلك من أمرها وللحمام أوقات صياح ودعاء مع الصبح وقبيل ذلك على نسق واحد ولكن الناس انما ذكروا ذلك فى الديك والحمار لامتداد أصواتهما وهديل الحمام ودعاؤه لا يجوز بعيداً الا ما كان من الوارشين والفواخت فى

رؤوس النخل وأعالي الاشجار فلعمرى ان ذلك لما يسمع من موضع صالح البعد وللعصافير والخطاطيف وعامة الطير مما يصفر أو يصرصر ومما يهدل مع الفجر الى بعيد ذلك صياح كثير ثم الذى لايدع الصياح فى الاشجار مع الصبح أبداً الصوع والصداء والهامة والبومة وهذا الشكل من الطير وقد كتبنا فى غير هذا الموضع الاشعار فى ذلك قال وقد يصيح مع الصبح البوم والصداء والهام والصوع والخطاطيف والعصافير والحمير فى ذلك الوقت أكثر من الديكة قال الوليد بن يزيد في ذلك

سليمى تيك في العير * قفي ان شئت أو سيري
فلما أن دنا الصبح * بأصوات العصافير

وقال كلثوم أبو عمرو العتابى

ياليلة لي فى حوران ساهرة * حتى تكلم فى الصبح العصافير

فالعصافير والخطاطيف والحمير والحمام والصوغان وأصناف البوم كلها تقوم مقام الديك

وقال ثعلبة بن صعير المازني

أعمير ما يدريك ان رب فتية * بيض الوجوه ذوى ندى ومآثر
حسن الفكاهة لا تذم كماهم * سبط الاكف لدى الحروب مساعر
باكرتهم بسباء جون مترع * قبل الصباح وقبل لغو الطائر

قال ويقال لصوت الديكة الدعاء والزقاء والهتاف والصراخ والصقاع وهو يهتف ويصقع ويزقو ويصرخ وقال جران العود

تميل بك الدنيا ويغلبك الهوى * كما مال جوان الفتى المتقصف
ونلقى كأنا مغنم قد حويته * وترغب عن جزل العطاء وتصدف
فموعدك الشط الذى بين أهلنا * وأهلك حتى تسمع الديك يهتف

وقال الممزق العبدي

وقد تخذت رجلاي فى جنب غرزها * نسيفاً كأفحوص القطاة المطرّق
أنيخت بجو يصرخ الديك عندها * وباتت بقاع كارى النبت سملق

وقال لبيد

لدن ان دعا ديك الصباح بسحرة * الى قدر ورد الخامس المتأوب

ويقال للطائر الذي يخرج من وكره بالليل البومة والصدى والهامة والضوّع والوطواط والخفاش وغراب الليل يصيد بعضها والفار وسام أبرص والقطا وصغار الحشرات وبعضها يصيد البعوض والفراش وما أشبه ذلك والبوم يدخل بالليل على كل طائر فى بيته ويخرجه منه ويأكل فراخه وبيضه وهذه الاسماء مشتركة وقال خزيمة بن أسلم

فلا تزقون لي هامة فوق مرقب * فان زقاء الهام أخبث خابث

وقال عبد الله بن حازم أو غيره

فان تك هامة بهراة تزقو * فقد أزقيت بالمروين هاما

وقال توبة بن الحمير

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت * علي ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا * اليها صدا من جانب القبر صائح

وقال الراجز

ومنهل طامسة اعلامه * يعوي به الذئب ويزقو هامه

وأنشدنى فى الصداء

تجشمت من جراك والبوم والصدى * له صائح ان كنت أسريت من أجلي

وقال سويد بن أبى كاهل في الضوع

لن يضرني غير ان يحسدني * فهو يزقو مثل ما يزقو الضوع

قال في قراءة ابن مسعود ان كانت الازقية واحدة ونفخ في الزقية يريد الصور وصوت الدجاجة القوقأة تقول هي تقوقئ وقال اعرابى

اليس يرى عيني جبيرة زوجها * ومحجرها قامت عليه النوائح
تجنبها لا أكثر الله خيره * رميصاء قد شابت عليها المسائح
لها أنف خنزير وساقا دجاجة * ورؤيتها ترح من العيش تارح

قال العجير السلولى

لانوم الاغرار العين ساهرة * حتى أصيب بغيظ آل مطلوب

إن تهجروني فقد بدلت أيكتكم * زرق الدجاج بحفاز اليعاقيب

وقال أبو الأسود الدئلي

ألم تعلما يا ابني دجاجة انني * أغش اذا ماالنصح لم يتقبل

(وقال) صاحب الكتاب وسنروي في الدجاج ونذكر كل من هجاها وهجا من اتخذها وأشبهها في وجه من الوجوه قال الراجز

أقبلن من بر ومن سواج * بالحي قد ملّ من الادلاج

٢ فهم دجاج ٢ على دجاج * يمشون أفواجا الى أفواج

مشى الفراريج الى الدجاج

وقال عبد الله بن الحجاج

فان يعرض أبو العباس عني * ويركب بي عروضاً عن عروض

ويجعل وده يوما لغيري * ويبغضني فاني من بغيض

فنصر الله يأسو كل جرح * ويجبر كسر ذى العظم المهيض

فدى لك من اذا ماجئت يوما * تلقاني بجامعة ريوض

لدي جنب الخوان وذاك لحش * وبئست خبزة الشيخ المريض

كاني اذ فزعت إلي أحيح * فزعت إلى مقوقية ربوض

إوزة غيضة لقحت كشافا * لفقحتها اذا اركت نقيض

وقالت امرأة في زوجها وهى ترقص ابنا لها منه

وهبته من سلفك أفوك * ومن هبتل قد عسا حنيك

أشهب ذى رأس كرأس الديك

تريد بقولها أشهب انه شيخ وشعر جسده أبيض وان لحيته حمراء وقد قال الشاعر وهو الاعشي

وبني المنذر الاشاهب بالحيـ * ـرة يمشون غـدوة كالسيوف

وانما أراد الاعشى ان يعظم ويفخر أمرهم وشأنهم بان يجعلهم شيوخا وأما قولها ذي رأس كرأس الديك فانما تعني انه مخضوب الرأس واللحية وقال الآخر

حلت خويلة في حي مجاورة * أهل المدائن فيها الديك والفيل

يقارعون رؤوس العجم ضاحية * منهم فواراس لا عزل ولا ميل

قال ابن أحمر

في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة * لا يبتغى دونها سهل ولا جبل

الا كمثلك فينا غير ان لنا * شوقا وذلك مما كلفت جلل

هيهات حتى غدوأمن بحر منزلهم * حتى بنجران صاح الديك فاحتملوا

وقال أبعد حلول بالركاء وجامل * غدا سارحا من حولنا وتنشرا

تبدلت اصطبلا وتلا وجرة * وديكا اذاما آنس الفجر فرفرا

وبستان ذى ثورين لا لين عنده * اذا ما طغا ناطوره وتغشمرا

وقال أوس بن حجر

كان هرا جنيباً عند مغرضها * والف ديك برجليها وخنزير

وقال الحكم بن عبدل

مررت على بغل تزفك نعسة * كانك ديك مائل الرأس أعور

تخيرت أثوابا لزينة منظر * وأنت الى وجه يزينك أفقر

وقال النمر بن تولب

أعذنى رب من حصر وعى * ومن نفس اعالجها علاجا

ومن حاجات نفسى فاعصمنى * فان لمضمرات النفس حاجا

وأنت وليها وبرئت منها * اليك وما قضيت فلا خلاجا

وأنت وهبتها كوما جلادا * أرجي النسل منها والنتاجا

وتأمرني ربيعة كل يوم * لاشربها وأقتني الدجاجا

وما تغني الدجاج الضيف عنى * وليس بنافعي الانضاجا
أأهلكها وقد لاقيت فيها * مرار الطعن والضرب الثجاجا
وتذهب باطلاً غدوات صحبي * على الاعداء تختلج اختلاجا
جموم الشدِّ شائلة الذنابا * تخال بياض غرتها سراجا
وشد في الكريهة كل يوم * اذا الاصوات خالطت العجاجا

وقال عبد الرحمن بن الحكم

وللانصار أكل فى قراها * لخبث الاطعمات من الدجاج

وقال الآخر لصاحبه

آذيتنا بديكك السلاح * فنجنا من منتن الارواح

وقالوا هو أسلح من حباري ساعة الخوف ومن دجاجة ساعة الامن وقال عقيل بن علفة

وهل أشهدن خيلا كان غبارها * بأسفل علكدّ دواخن تنضب
تبيت على رمض كان عيونهم * فقاح الدجاج في الودى المعصب

(وقال) صاحب الديك حدث الاصمعي قال أخبرنى العلاء بن أسلم قال أردت الخروج الى مكة المعظمة شرفها الله تعالى فجاءنى هشام بن عقبة وهو أخو ذى الرمة فقال لى يا ابن أخي إنك تريد سفراً يحضر الشيطان فيه حضورا لا يحضره فى غيره فاتق الله وصل الصلوات لوقتها فانك مصليها لا محالة فصلها وهى تنفعك واعلم ان لكل رفقة كلباً ينبح عليهم فان كان نهب شركوه فيه وان كان عار تقلده دونهم فلا تكن كلب الرفقة وقدرووا شبيها بذلك عن تبيع بن كعب وقال زيد الخيل

يانصر نصر أبى قعين انما * أنتم إماء يتبعن الاشترا
يتبعن فضلة اير كاب منعظ * عض الكلاب بعجبه فاستثفرا

قال فلما قدم زيد من عند النبى صلى الله عليه وسلم قال ابرح فتى ان لم تدركه أم كلبة يعني الحمى وقال جرير في البعيث

اذا أنت لاقيت البعيث وجدته * اشح على الزاد الخبيث من الكلب

وقال صاحب الكلب وقد قال عمرو بن معدى كرب

وقد كنت اذا ما الحـــى يوماً كرهوا صلحى

ألف الخيل بالخيـ*ـل وا كفى النبح بالنبح

قال ومن الاستعارات من اسم الكلب قول الرجل منهم ان أوطن نفسه على شيء قد ضريت جروه وضريت عليه وقال أبو النجم

حتى اذا ما أبيض جرو التتفل * وبدلت والدهر ذو تبدل

وقال من * لحنظل العامى جرو مفلق * وقال عتبة الأعور

ذهب الذين احبهم * وبقيت فيمن لا أحبه

اذ لا يزال كريم قو * مي فيهم كلب يسبه

فخرتم علينا بصيد الكلب وهجرتم الديك اذ كان مما لا يصيد ولا يصاد به وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد فمن ذلك قول عمرو بن معدى كرب

ابني زياد أنتم في قومكم * ذنب ونحن فروع أصل طيب

نصل الخميس الى الخميس وأنتم * بالقهر بين مربق ومكلب

لا يحسبن بنو طليحة حربنا * سوق الحمير بجانة فالكوكب

حيد عن المعروف سعى أبيهم * طلب الوعول بوفضة وبأكلب

حتى يكهن بعد شيب شامل * ترحاله من كاهن متكذب

وأما قول زهير

وان يقتلوا فيشتفى بدمائهم * وكانوا قديما من مناياهم القتل

فهذا البيت نفسه ليس يدل على قولهم ان كل من كان به جنون أو كلب ثم حسا من دم ملك أو سيد كريم أفاق وبرئ وقد ضربوا لصاحب الكلب أمثالا فى شدة طلبه الماء وفى شدة فراره منه اذا عاينه وقالوا وقلتم فالماء المطلوب اذا عاينه من غير أن يمسه وهو الطالب له ولم يحرص عليه الا من حاجة اليه فكيف صار اذا رآه صاح قالوا وقد يعترى الناظر الى الماء والذي يديم التحديق اليه وهو يمشي على قنطرة أو جرف

أو جسر الدوار فانه ربما رمى بنفسه من تلقاء نفسه الى الماء وان كان لا يحسن السباحة وذلك انما يكون على قدر مايصادف ذلك من المرار ومن الطباع فممن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجاه محمد بن مسعود فكاد يموت حتى استخرج ومنهم منصور بن اسماعيل التمار وجماعة قد عرفت حالهم وهذا كما يعترى الذى يصيبه الأسن من البخار المختنق في البئر اذا صار فيها فانه استقى واستخرج وقد تغير عقله وأصحاب الركايا يرون ان دواءه ان يلقوا عليه دثاراً ثقيلا وان يزمل تزميلا وان كان في تموز وآب ثم يحرس ان كان قريباً من رأس البئر فانه ان لم يحل بينه وبينها طرح نفسه في تلك البئر أتاها سعياً في أول مايفتح عينه ويرجع اليه اليسير من عقله حتي يكفي نفسه فيها من ذات نفسه فى الموضع الذى قد لقى منه ما لقى وقد كان عنده معلوماً ان القوم لو تركوه طرفة عين لهلك هكذا كان عنده أيام صحة عقله فلما فسد أراه الفساد ان الرأي في العود الى ذلك الموضع وكما يعترى الممرور حتى يرجم الناس فان المرة تصور له أن الذى رجمه قد كان يريد رجمه فيرى ان الصواب ان يبدأه بالرجم وعلى مثل ذلك تريه المرة أن طرحه نفسه في النار أجود وأحزم وليس في الارض إنسان يذبح نفسه أو يختنق أو يتردى في بئر أو يرمى نفسه من حالق الا من خوف المثلة أو التعذيب أو التعبير وتقريع الشامتين أو لان به وجعاً شديدا فيحرك عليه المرة فيحمى لذلك بدنه ويسخن جوفه فيطير من ذلك شئ الى دماغه أو قلبه فيوهمه ذلك ان الصوب في قتل نفسه وان ذلك هو الراحة وان الحزم مع الراحة ولا يختار الخنق الوادع الرابح الرافه السليم العقل والطباع وللغيظ ربما رما بنفسه فى هذه المهالك وقذف به في هذه المهاوى وقد يعتري الذى يصعد على مثل سنسيرة أو عقرقوب أو خضراء زوج فانه يعتريه أن يرميه بنفسه من تلقاء نفسه فيرون عند ذلك ان يصعد اليه بعض المعاودين المجربين ولا يصنع شيئاً حتى أنه ليسد عينيه ويحتال لانزاله فهذا المعنى عام فمن كانت طبيعته تثور عند مثل هذه العلة وما أكثر من لايعتريه ذلك وقد قال الناس في عذر هؤلاء ولان فيهم ضروبا من الاقاويل وانما تكلمنا على المغلوب فاما من كانت هذه العوارض

لا تفسد عقله ولا تنقص استطاعته فليس بيننا اختلاف فى أنه ملوم على ان الزامه اللائمة لايكون الا من بعد خصومة طويلة لا يصلح ذكرها فى هذا الباب (وقال صاحب الكتاب) الغراب من لئام الطير وليس من كرامها ومن بغاثها وليس من احرارها ومن ذوات البراثن الضعيفة والقصار الكلية وليس من ذوات المخالب المعقفة والاظفار الجارحة ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسر وهو مع ذلك قوي البطن لا يتعاطي الصيد وربما راوغ العصفور ولا يصيد الجرادة الا أن يلقاها فى سدمن الجراد وهو فسل ان أصاب جيفة نال منها والا مات هزالا ويتقمم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها وليس ببهيمة لمكان أكله الجيف وليس بسبع لعجزه عن الصيد وهو مع ذلك يكون حالك السواد شديد الاحتراق ويكون مثله من الناس الزنج فانهم شرار الناس وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً كمن بردت بلاده فلم تطبخه الارحام أو سخنت فأحرقته الأرحام وانما صارت عقول أهل بابل وأقليمها فوق العقول وجمالهم فوق الجمال لعلة الاعتدال والغراب اما أن يكون شديد الاحتراق فلا يكون له معرفة ولا جمال واما ان يكون أبقع فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضائه دليلا على فساد أمره والبقع الام من السود وأضعف ومن الغربان غراب الليل وهو الذي ترك أخلاق الغربان وتشبه باخلاق البوم ومنها غراب البين وغراب البين نوعان أحدهما غربان صغار معروفة بالضعف واللؤم والآخر انما لزمه هذا الاسم لان الغراب اذا بأن أهل الدار للنجعة وقع في مرابض بيوتهم ويتلمس ويتقمم فيتشاءمون به ويتطيرون منه اذ كان لايعترى منازلهم الا اذا بانوا فسموه غراب البين ثم كرهوا اطلاق ذلك الاسم له مخافة الزجر والطيرة وعلموا أنه نافذ البصر صافى العين حتي قالوا أصفى من عين الغراب كما قالوا أصفى عن عين الديك فسموه الأعور كما كنوا عن الطير الاعمى بالبصير وبها اكتني الأعشي بعد ان عمى ولذلك سمو الملدو والمنهوش سليما وقالوا للمهالك من الفيافى المفاوز وهذا كثير والفرقان جنس من الغربان وهي لئام جداً من أجل تشاءمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة والاغتراب والغريب وليس

ـفي الأرض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعضب ولا شيء مما يتشاءمون به الا والغراب عندهم أنكد منه يرون ان صاحبه أكثر أخبارا وان الزجر فيه أعم وقال عنترة

خرق الجناح كأن لحيي رأسه * جلمان بالاخبار هش مولع

وهو عندهم عاروهم يتعايرون باكل لحمه ولو كان ذلك منهم لانه يأكل اللحوم ولانه سبع فكانت الضوارى والجوارح أحق بذلك عندهم وقد قال وعلة الجرمي

فما بالعار ما عيرتمونا * سواء الناهضات مع المبيض

فما لحم الغراب لنا بزاد * ولا سرطان أنهار البريض

قال والغربان جنس من الأجناس التى أمر بقتلها فى الحل والحرم وسميت بالفسق وهي فواسق اشتق لها من اسم ابليس وقالوا رآى فيما يرى النائم أنه يسقط أعظم صومعة بالمدينة غراب فقال سعيد ابن المسيب يتزوج أفسق الفاسقين امرأة من أهل المدينة فلم يلبثوا الا أياماً حتى كان ذلك وقالوا فى المثل لا يرجع فلان حتى يرجع غراب نوح وأهل البصرة يقولون حتى يرجع نشيط من مرو وأهل الكوفة يقولون حتي يرجع مسعر من سجستان فهو مثل فى كل موضع من المكروه وزعم الاصمعى عن خلف الاحمر أنه قال رأيت فرخ غراب فلم أر صورة أقبح ولا أسمج ولا أبغض ولا أقذر ولا أنتن منه وزعم ان فراخ الغربان أنتن من الهدهد على أن الهدهد مثل فى النتن فذكر عظم رأس وصغر بدن وطول منقار وقصر جناح وأمرط اسود وساقط النفس ومنتن الريح وصاحب المنطق يزعم أن رؤية فرخ العقاب أمر صعب وشيء عسير ولست أحسن ان أقضى بينهما والغربان عندنا بالبصرة أوابد غير قواطع وهى تفرخ عندنا فى رؤوس النخل الشامخة والاشجار العالية فالغراب عند العرب مع هذا كله قد خدع الديك وتلعب به ورهنه عند الخمار وتخلص من الغرم وأغلقه عند الخمار فصار له الغنم وعلى الديك الغرم ثم تركه تركا ضرب به المثل فان كان معنى الخبر على ظاهر لفظه والديك هو المغبون والمخدوع والمسخور به ثم كان المتلعب به أنذل الطير والأمه وإن كان هذا القول منهم يجري مجرى الامثال المضروبة فلولا

أن عليًا الديك في قلوبهم دون محل الغراب على لؤم الغراب ونذالته وموقه وقلة معرفته لما وضعوه في هذا الموضع فان أردتم معرفة ذلك فانظروا في أشعارهم المعروفة وأخبارهم الصحيحة ثم ابدؤا بقول أمية بن أبي الصلت فقد كان داهية من دواهي ثقيف وثقيف من دهاة العرب وقد بلغ من اقتداره في نفسه انه قد كان هم بادّعاء النبوة وهو يعلم كيف الخصال التي يكون الرجل بها نبيًا أو متنبيًا اذا اجتمعت له نعم وحتى ترشح لذلك بطلب الروايات ودرس الكتب وقد بان عند العرب علامة ومعروفًا بالجولان في البلاد رواية وفي كثير من الروايات مع أحاديث العرب أن الديك كان نديمًا للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئًا وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب ورهن الديك نخاس به فبقي محبوسًا وأن نوحًا صلى الله عليه وسلم حين بقي في اللجة أيامًا بعث الغراب فوقع على جيفة ولم يرجع ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعًا يكون للسفينة مرفأ واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها فرشاها بذلك أي فجعل ذلك جعلاً لها وفى جميع ذلك يقول أمية بن أبي الصلت

بآية قام ينطق كل شيء * وخان أمانة الديك الغراب

يقول حين تركه فى أيديهم وذهب وتركه والعامة تضرب به المثل وتقول ما هو إلا غراب نوح ثم قال

وأرسلت الحمامة بعد سبع * تدل على المهالك لا تهاب
تلمس هل ترى فى الارض عينا * وغايته من الماء العباب
فجاءت بعدما ركضت بقطف * عليها الثأط والطين الكباب
فلما فرسوا الآيات صاغوا * لها طوقا كما عقد السّخاب
اذا ماتت تورثه بنيها * وان تقتل فليس لها استلاب
كذى الافعي يربيها لديه * وذي الجني أرسله تباب
* فلا رب المنية يأمنها * ولا الجني أصبح يستتاب

الجني إبليس لذنوبه والأفعي هى الحية التى كلم إبليس آدم من جوفها ومن لا علم عنده

يروي أيضاً أن ابليس قد دخل جوف الحمار مرة وذلك أن نوحا لما دخل السفينة تمنع الحمار بعسره ونكده وكان إبليس قد أخذ بذنبه وقال آخرون بل كان فى جوفه فلما قال نوح للحمار ادخل يا ملعون ودخل الحمار دخل ابليس معه إذ كان في جوفه قال فلما رآه نوح فى السفينة قال يا ملعون من أدخلك السفينة قال أنت أمرتني قال ومتى أمرتك قال حين قلت ادخل ياملعون ولم يكن ثم ملعون غيري قال أمية بن أبي الصلت

هو أبدى كل ما يأثر النا * س أماثيل باقيات سفورا
خلق النخل مصمدات ترّاها * تقصف اليابسات والخضّورا
والتماسيح والتماثيل والأيل شتى والريم واليعفورا *
وصواراً من النواشط عينا * ونعاماً خواضباً وحميرا
وأسوداً عواديا وفيولاً * وذياباً والوحش والخنزيرا
وديوكا تدعو الغراب لصاح * وإوزين أخرجت وصقورا

قال ثم ذكر الحمامة فقال

سمع الله لابن آدم نوح * ربنا ذو الجلال والافضال
حين أوفى بذى الحمامة والنا * س جميعا فى فلكه كالعيال
فأتته بالصدق لما رشاها * وبقطف لما غدا عثكال

ووصف فى هذه القصيدة أمر الحمامة والغراب صفة ثانية وغير ذلك وبدأ بذكر السفينة فقال

ترفع فى جرى كان أطيطه * صريف محال يستعيد الدواليا
على ظهر جون لم يعد لراكب * سراه وغيم البس الماء راجيا
فصارت بها أيامها ثم سبعة * وست ليال دائبات عواطيا
تشق بهم تهوى بأحسن أمره * كأن عليها هاديا ونواتيا
وكان لها الجودى نهيا وغاية * وأصبح عنه موجه متراخيا

وما كان أصحاب الحمامة جيفة * غداة غدت منهم تضم الخوافيا
رسولا لهم والله يحكم أمره * يبين لهم هل يونس الثوب باديا
فجاءت بقطف آية مستبينة * فأصبح منها موضع الطين جاريا
على خطمها واستوهبت ثم طوقها * وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليا
ولا ذهبا انى أخاف نبالهم * يخالونه مالي وليس بماليا
وزدنى على طوقى من الحلى زينة * تصيب إذا أتبعت طوقى خضابيا
وزدنى لطرف العين منك بنعمة * وارث اذا مامت طوقى حماميا
يكون لاولادى جمالا وزينة * ويهوين زيني زينة أن يرانيا

ثم عاد أيضاً فى ذكر الديك فقال

ومرهنه عن الغراب حبيبه * فأوفيت مرهونا وخلفا مسابيا
أدل علىّ الديك انى كما ترى * فأقبل على شأنى وهاك ردائيا
أمنتك لا تلبث من الدهر ساعة * ولا تصفها حتى تؤب مآبيا
ولا تدركنك الشمس عند طلوعها * فأعلق فيهم أو يطول ثوائيا
فرد الغراب والرداء يحوزه * الى الديك وعداً كاذباً وأمانيا
* بأية ذنب أو بأية حجة * أدعك فلا تدعو عليّ ولا ليا
فانى نذرت حجة أن أعوقها * فلا تدعونّي مرة من ورائيا
تطيرت منها والدعاء يعوقني * وأزمعت حجا أن أطير أماميا
فلا تبتإس انى مع الصبح باكر * أوافى غداً نحو الحجيج الغواديا
لحب أمرئ فاكهته قبل حجتي * وأثرت عمداً شانه قبل شانيا
هنالك ظن الديك إذ زل دولة * وطال عليه الليل أن لا مفاديا
فلما أضاء الصبح طرب صرخة * الا ياغراب هل سمعت ندائيا
على وده لو كان ثم مجيبه * وكان له ندمان صدق مواتيا
وأمسى الغراب يضرب الارض كلها * عتيقاً وأضحى الديك فى القد عانيا

فذلك مما أسهب الخمر لبه * ونادم ندمانا من الطير عاديا .

قال ومن الطير من يلقم فراخه مثل العصفور لان العصفور لا يزق وكذلك اشباه العصفور ومن الطير ما يزق فراخه مثل الحمام وما أشبه ذلك كبهائم الطير الخالصة لان الدجاجة تأكل اللحم وتلغ فى الدم وولدها حين يخرج من البيض يخرج كاسياً مليحاً كيساً بصيراً بما يعيشه ويقوته ولا يحتاج الى تلقيم سباع الطير والعصافير لاولادها لان أولادها اذا لم ترضع ولم تلقط الحب كالفراريج أول ما تخرج من البيض ولم تزقها الآباء ولا الامهات كاجناس الحمام فلا بد لها من تلقيم والفروج مشترك الطبيعة قد أخذ من طبائع الجوارح نصيباً وهو أكله للحم وحسوه للدم وأكله للديدان وماهو أقذر من الذباب والعصفور أيضاً مشارك الطباع لانه يجمع بين أكل الحبوب واللحمان وبين لقط الحبوب وصيد أجناس كثيرة من الحيوان كالنمل اذا طار وكالجراد وغير ذلك وليس فى الأرض رأس أشبه برأس الحية من العصفور والعصفور يتعالى ويطير ويهتدى ويستجيب ولقد بلغني انه قد رجع من قريب من فرسخ وهى تكون عندنا بالبصرة فى الدور فاذا أمكنت الثمار لم تجد منها الا اليسير فيصير من القواطع الى قاصي النخل وذلك انها اذا مرت بعصافير القرى وقد سبقت الى ما هو اليها أقرب جاوزتها الى ماهو أبعد ثم تقرب الايام الكثيرة الى ما هو أبعد ثم تقرب الايام الكثيرة المقدار فى المسافة أكثر مما ذكرت من الفرسخ اضعافا والعصافير لا تقيم في دور الامصار اذا شخص أهلها عنها الا ما كان منها مقيما على بيض أو فراخ فانه ليس في الارض طائر أحن على ولده ولا أشد تعطفاً من عصفور والذى يدل على ان فى طبعها من ذلك ما ليس في طبع سواها من الطير الذي تجد من أشعار بعضهن لبعض . اذا دخلت الحية الى جحر بعضهن لتأكل فرخا او تبتلع بيضاً فان لأبوى الفرخ عند ذلك صياحاً وقلقاً وطيراناً وتدفيفاً وترفيفاً فوق الجحر ودونه وحواليه فلا يبقى عصفور من حيث يسمع صياحهما أو يسمع أصواتهما الا جئن ارسالا مسعدات يصنعن معهما كما يصنعان وليس في الارض أصدق حذراً منه ويقال انه فى ذلك لأكثر من العقعق

والغراب وخبرني من يصيد العصافير قال ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بحذائي فيغمني صياحه وحدة صوته فأصيح اليه وأومئ بيدي وأشير كاني أرميه فمايطير حتى ربما أهويت الى الارض كانى أتناول شيئاً كل ذلك لا يتحرك له فان مست يدي أدنى حصاة أو نواة وأنا أريد رميها طار قبل ان تستمكن منها يدي وليس فى الطير أكثر عدد سفاد من العصافير ولذلك يقال انها أقصر الطير أعماراً ويقال انه ليس شيء مما يألف الناس ويعايشهم فى دورهم أقصر عمراً منها يعنون من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والكلاب والسنانير والخطاطيف والزرازير والحمام والدجاج ولا يقدر العصفور على المشي وليس عنده الا النقزان ولذلك يسمى النقاز وانما يجمع رجليه ثم يثب وذلك فى جميع حركاته وفي جميع ذهابه ومجيئه فهي الصقور العصافير والنقاقيز وان هو مشي هذه المشية التي هي نقزان على سطح وان ارتفع سمكه فكانك تسمع لوطئه وقع حجر لشدة وطئه ولصلابة مشيه وهو ضد الفيل لان انساناً لو كان جالسا ومن خلف ظهره فيل لما شعر به لخفة وقع قوائمه مع سرعة مشي وتمكين في الخطى والرخم والنسر سباع وانما قصر بها عدم السلاح فاما البدن والقوة ففوق جميع الجوارح ولكنها في معنى الدجاج لمكان البراثن ولعدم المخالب ولقد رأيت سنوراً وثب على فرخ عصفور فاخصاه فتناول الفرخ بعض الغلمان فوضعه فى البيت فكان أبوه يجيء حتى يطعمه فلما قرب وكاد يطير جعله فى قفص فرأيت أباه يجيء يتخرق السنانير وهي تهم به حتى يدخل اليه من أعلى فتح الباب وهي تهم بالوثوب والاختطاف له حتى يسقط على القفص فينازعه ساعة فاذا لم يجد الى الوصول سبيلا طار فسقط خارجا من البيت ثم لا يصبر حتى يعود فكان ذلك دأبه فلما قوى فرخه أرسلوه معه فطارا جميعاً وعرفنا انه الاب دون الام لسواد اللحية قال و لدليل على ان صوت الديك كريه فى السماع غير مطرب قول الشاعر

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا * وأمله ديك الصباح صياحا
أوفى على سعف الجدار بسدفة * غردا يصفق بالجناح جناحا

قال ويدل على صغر قدر الدجاج عندهم قول بشار بن برد الاعمى

بجدك يا ابن أفرع نلت مالا * الا ان اللئام لهم جدود
فمن نذر الزيادة في الهدايا * اقمت دجاجة فيمن يزيد

قال واذا كثر الدجاج فى دار أو اصطبل أو قرية لم يكن عدد بيضها وفراريجها على حسب ما كان يبيض القليل منهن ويفرخه يعرف ذلك تجار الدجاج ومن اتخذها للغلة وهي بمصر ترعى كما يرعى الغنم ولها راع وقيم والموت الى الدجاج سريع جداً والعادة فى صغار فراريجها على ما عليها نتن فراخ الحمام لان الفروج تتصدع عنه البيضة فهو كيس ظريف مليح مقبول محب غنى بنفسه مكتف بمعرفته بصير بموضع معيشته من لقط الحب ومن صيد الذباب وصغار الطير من الهوام ويخرج كاسياً حتى كأنه من أولاد ذوات الأربع ويخرج سريع الحركة شديد الصوت حنينه يدعى بالنقر فيجيب ولا يقال له قرقر ثلاث مرات حتى يلقنه فان استدبره مستدبر ودعاه عطف عليه وتبع الذي يطعمه ويلاعبه وان تباعد من مكانه الاول فهو آلف شئ ثم كلما مرت عليه الأيام ماق وحمق ونقص كيسه وأقبل قبحه وأدبر ملحه فلا يزال كذلك حتى ينسلخ من جميع ما كان يحب له الى ضد ذلك ويصير من حالة الى حال لم يبلغ الانتفاع بذبحه وبيضه وفراريجه وذهب عنهم الاستمتاع بكيسه ولا يكاد يقبل الشحم حتى يلحق بأبيه وكذلك ان كانت انثى لا تقبل السمن ولا تحمل اللحم حتى تكاد تلحق بأمها في الجثة والفرخ يخرج حارضاً ساقطاً أنقص من أن يقال له مائق وأقبح شئ وهو فى ذلك عارى الجلد مختلف الاوصال متقارب الأعضاء ضعيف القوة عظيم المنقار فكلما مرت به الايام زادت فى لحمه وشحمه وفى معرفته وبصره حتى اذا بلغ خرج منه من الأمور المحمودة ما عسى لو ان واصفاً تتبع ذلك لملأ منه الاجلاد الكثيرة ثم اذا جاز حد الفراخ الى حد النواهض الى حد العتق والمخالب قل لحمه وذهب شحمه على حساب ذلك ينقص فاذا تم وانتهى لم تكن فى الارض دابة ولا طائر أقل شحماً ولا أخبث لحما منه ولا أجدر ان لا يقبل شيئاً من السمن ولو تخيروا له فوراة المسمنات وما يسمن به ما

سمن وسألت عن السبب الذى صار له الدجاج اذا كثرن قل بيضهن وفراخهن فزعموا انها في طباع النخل فان النخلة اذا زحمت أختها بل اذا مس طرف سعفها طرف سعف الاخرى وجاورتها ضيقت عليها فى الهواء وكذلك أطراف العروق فى الارض كان ذلك كرباعليها وغما قالوا فتدانيها وتضاغطها وأنفاسها وأنفاس أبدانها يحدث لها فساداً قال وكما ان الحمام اذا كثر فى الكنة والشريعة احتاجت الى شمس والى ماء تغتسل فيه فى بعض الاحايين والى ان تكون بيوتها مكنونة فى بعض الاوقات ومرشوشة والا لم يكن لها كبير بيض على انه اذا كان لها الدفء فى الشتاء والكن فى الصيف لم تغادر الدهر كله ان تبيض قال صاحب الديك نخرتم للكاب بكثرة ما اشتق للاشياء من اسم الكاب وقد أشتق لاكثر من ذلك العدد من البيض فقالوا لقلانس الحديد بيض وقالوا فلان يدفع عن بيضة الاسلام وقالوا قال على بن أبي طالب رضى الله عنه أنا بيضة البلد وفى موضع الذم من قولهم

تأبى قضاعة ان تدرى لكم نسباً * وابنا نزار وأنتم بيضة البلد

ويسمي رأس الصومعة والقبة بيضة ويقال للمجاس اذا كان معموراغير مطول بيض جائمة ويقال للوعاء الذى يكون فيه الجبن والخراج وهو لذي يجتمع فيه القيح بيضة وتسمى قلانس الحديد بيضا وقال الأشتر بن عبادة

يكف غروبها ويغض منها * وراء القوم خشية ان يلاموا

مظاهر بيضتين على دلاص * به من وقعة أخرى كلام

وقال النابغة فصبحهم مامامة رداحاً * كأن رؤوسهم بيض النعام[1]

وقل العجيز السلولى

اذا البيضة الصماء عضت صفيحة * بجربائها صاحت صياحاً وصلت

ولما أنشدوا أبا عباد النمرى قول ابن ميادة وهو الرماح

ولقد غدوت على الفتى في رحله * قبل الصباح بمترع نشاج

(١) ويروي فصبحهم بها صهباء صرفا * كأن رؤسهم قيض النعام وهذه الرواية أصح

جاد القلال له بدر ضبابة * حمراء مثل سخينة الاوداج
حبست ثلاثة أخرس في دارة * قوراء بين جوازل ودجاج
تدع القوي كأنه فى نفسه * ملك يعصب رأسه بالتاج
ويظل يحسب كل شيء حوله * نجب العراق نزلن بالاحداج

فحين سمعه أبو عباد يقول

حبست ثلاثة أخرس فى دارة * قوراء بين جوازل ودجاج

قال لو وجدت خمرا زيتية ذهبية أصفى من عين الديك وعين الغراب ولعاب الجندب وماء المفاصل وأحسن حمرة من النار ومن نجيع غزال ومن قوة الضباع لما شربتها حتى اعلم انها من عصير الارجل وأنها نبات القرى ومالم تكدرفي الزقاق وان العنكبوت قد نسجت عليها وانها لم تصر كذلك الاوسط دسكرة وفى قرية سوادية وحولها دجاج وفراريج وان لم تكن رقطاء أوفيها رقط فانهالم تتم كما أريد وأعجب من هذا انى لا أنتفع بشربها حتى يكون بائعها على غير االاسلام ويكون شيخاً لا يفصح بالعربية ويكون قميصه متقطعاً بالقار وأعجب من هذا ان الذى لابد منه ان يكون اسمه إن كان مجوسياً شهريازومازيار وما أشبه ذلك مثل أديروا ردان ويازان فان كان يهوديا فاسمه مانشا واشلوما وأشباه ذلك وان كان نصرانياً فاسمه يوشع وشمعون وأشباه ذلك ويقال حمس الشر وأحمس اذا اشتد ويقال قد احتمس الديكان احتماساً اذا اقتتلا اقتتالا شديداً ويقال وقع الطائر يقع وقوعاً وكل واقع فمصدره الوقوع ومكانه موقعه والجمع مواقع وقال الراجز

كان متنية من النفى * مواقع الطير على الصفى

يقال صفا وصفى والنفى مانفا الرشاء من الماء وماتنفيه مشافر الابل من الماء المدير فشبه مكانه على ظهر الساقى والمستقى بذرق الطير على الصفا ويقال وقع الشيء من يدى وقوعا وسقط من يدى سقوطا ويقال وقع الربيع بالارض ويقال سقط وقال الراعى

وقع الربيع وقد تقارب خطوه * ورأى بعقوته أزل نسولا

قال وكان عندنا فروج وفي الدار سنانير تعابث الحمام وفراخه وكان الفروج يهرب منها الى الحمام فجاءنا بدراج فترك الحمام وصار مع الدراج ثم اشترينا فروجاً كسكريا للذبح فجعلناه فى قفص فترك الدراج ولزم قرب القفص فجئنا بدجاجة فترك الديك وصار مع الدجاجة فذكرت قول الغرير عبد بني فزارة وكانت باذنه ضربة ان اللؤم يسرع فى جميع العطش لا يقرب العنز الضأن ماوجدت المعز وتنفر من المخاب ولا تتأنس بالخف فجملها كما ترى تنفر ولا تأنس منزله وكذلك حدثنا الاصمعى قال قلت للمنتجع ابن نبهان وكانت باذنه ضربة أكان تميم مسلما قال ان كان هو الذى سمى ابنه زيد مناة فما كان مسلما والا يكن هو الذى سماه فلا أدرى ولم يقل والا يكن هو سماه فقد كان مسلما والوءام المشاكلة وقالوا تقول العرب لولا الوءام لهلك الأنام وقال بعضهم تأويل ذلك لولا ان بعض الناس اذا رآى صاحبه قد صنع خيراً فتشبه به لهلك الناس وقال الآخرون انما ذهب الى أنس بعض الناس ببعض كأنه قال انما يتعايشون على مقادير الأنس الذى بينهم ولو عمتهم الوحشة عمتهم الهلكة وقال قوم ابن مالك فى الوآم

علام أوائم البخلاء فيها * فاقعد لا أزور ولا أزار

وقال الاخطل

نازعته فى الدجي الراح الشمول وقد * صاح الدجاج وحانت وقعة السارى

وقال جرير

لما مررت على الديرين أرقنى * صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

قالوا وقد وجدنا الديكة والدجاج وأفعالها مذكورات فى مواضع كثيرة قال ذو الرمة

كان لاصوات من إيغالهن بنا * أواخر الميس أصوات الفراريج

وقال الهذلى ومن أينها بعد ابدانها * ومن شحم أثباجها الهابط

تصيح جنادبه ركدا * صياح المسامير فى الواسط

فهو على كل مستوفز * سقوط الدجاج على الحائط

وقال مروان بن محمد

ضبع ماورثه راشد * من كيلة الاكداس في صفه
فرب كدس قد علا رمسه * كالديك اذ يعلو على رفه

ويقال فى المثل الذى يعطى عطية لا يعود في مثلها كانت بيضة الديك فان كان معروف له قيل بيضة العقر ويقال دجاجة بيوض فى دجاج بيض وبيض باسكان موضع العين من الفعل من لغة سفل مضر وضم موضع العين من نظيره من الفعل مع الفاء من لغة أهل الحجاز ويقال عمد الجرح يعمد عمدا اذا أعصر قبل ان ينضج فورم ولم يخرج بيضته وذلك الوعاء والغلاف الذى يجمع المدة يسمى بيضة واذا خرج ذلك بالعصر من موضع العين فقد أفاق صاحبه ويقال حضن الطائر فهو يحضن حضانا ويقال هو السافد من الطير والتعاظل من السباع ويقال قمط الحمام الحمامة وسفدها ويقال قعى الفحل يقعو قعوا وهو ارساله بنفسه عليها في ضرابه والفحل من الخف يضرب وهو القعو والضراب ومن الظلف والحافر ينزو نزوا وكذلك السنانير والظليم يقعو وكل الطير يقعو قعوا وأما الخف والظلف فانه يقعو بعد التسنم وهو ضرابه كله ماخلا التسنم وأما الظلف خاصة فهو قافط يقال قفط يقفط قفطا أو القفط نزوة واحدة وليس فى الحافر الا النزو قال وتوضع بيض الطاوس تحت الدجاجة وأكثر ذلك لان الذكر يعبث بالانثي اذا حضنت قال ولهذه العلة كثير من إناث طير الوحش يهربن بيضهن من ذكورتها ثم لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتهن قال ويرضع تحت الدجاجة بيضتان من بيض الطاوس لا تقوى على تسخين أكثر من ذلك على انهم يتعهدون الدجاجة بجميع حوائجها خوفا من ان تقوم عنه فيفسده الهواء قال وخصا ذكور أجناس الطير يكون في أوان أول السفاد أعظم وكل ما كان من الطير أعظم سفادا كانت خصيته أعظم مثل الديك والقبج والحجل وخصية العصفور أعظم من خصية ما يساويه فى الجثة مرتين قال وكل ما كان من الدجاج أصغر جثة يكون أكبر لبيضه وبعض الدجاج يكون يبيض بيضا كثيراً وربما باض بيضتين في يوم واحد واذا عرض له ذلك كان

من أسباب موته وقال آخر فى صفة الديك

ماذا يؤرقنى والنوم يعجبني * من صوت ذى رعثات ساكن الدار
كأن حمَّاضة فى رأسه نبتت * من آخر الليل قد همت بإثمار

وقال الطرماح

فياصبح كمش غير الليل مصعداً * ينم وفيه ذا العفاء الموشح
اذا صاح لم يخذل وجاوب صوته * حماش الشوى يصدحن من كل مصدح

قال والفروج اذا خرج من بيضه عن حضن الحمام كان أكيس له وبيض الطاوس اذا لم تحضنه الانثى التى باضته خرج الفرخ أقمأ وأصغر قال واذا أهرمت الدجاجة فليس لأواخر ما تبيض صفرة وقد عاينوا للبيضة الواحدة محتين خبرني بذلك جماعة ممن يعرف الامور واذا لم يكن للبيضة مح لم يخلق من البيضة فروج ولا فرخ لانه ليس له طعام يغذوه ويربيه اذا كان فيه محتان وكان البياض وافراً ولا يكون ذلك للمسنات فاذا خلق الله تعالى من البياض فروجين وهناك محتين تربى الفروجان وتم لخلق لان الفرخ انما يخلق من البياض والصفرة غذاء الفروج قال ويقال قفط الطائر يقفط قفطا وسفد يسفد سفادا وهما واحد ويكون السفاد للكلب والشاة ويقال قمط الحمام يقمط قمطا ويقال ذرق الطائر يذرق ذرقا وخزق يخزق خزقا ويقال ذلك للانسان فاذا اشتق له من الحذقة نفسه ومن اسمه الذى هو اسمه قيل خرئ وهو الخرؤ والخراة ويقال للحافر راث يروث وللمعز والشاة بعر يبعر ويقال للنعام صام وللطير نجو واسم نجو النعام الصوم واسم نجو الطير العرة وقال الطرماح

في شناظي أقن بينها * عرة الطير كصوم النعام

ويقال للصبي عقئ مأخوذ من العق ويقال لحمت الطير ويقال لحم طائرك لحاما أى أطعمه لحما واتخذ له ويقال هى لحمة النسب ويقال ألحمت الثوبَ إلحاما وألحمت الطائر إلحاما وهى لحمة الثوب ولحمة بالفتح والضم ومن خصال الديك المحمودة قولهم فى الشراب اصفى من عين الديك واذا وصفوا عين الحمام الفقيع بالحمرة أوعين الجراد قالوا كأنها عين

الديك واذاقالوا اصفى من عين الغراب فانما يريدون حدته ونفاذ البصر وفى عين الديك يقول الأعشى

وكأس كعين الديك باكرت حدها * بفتيها اذ غاب عنها بغاتها

وقال آخر

وكأس كعين الديك باكرت حدها * بفتيان صدق والنواقيس تضرب

وقال آخر

قدمته على عقار كعين الديـ ـك صفا زلالها الراووق

وقال الآخر

ثلاثة أحوال وشهرا محرما * تضيء كعين العترفان المجاوب

والعترفان من أسماء الديك وسماه بالمجاوب كما سماه بالعترفان واذا وصفوا الماء والشراب بالصافي قالوا كانه الدمع وكانه ماء قطر وكانه مفصل وكانه لعاب الجندب الا ان هذا الشاعر قال

مطبقة مـلآنة بابلية * كان حمياها عيون الجنادب

وقال آخر

وما قرقف من أذرعات كانها * اذا سكبت من دنها ماء مفصل

والمفاصل ماء بين السهل والجبل وقال أبو ذؤيب

مطافيل أبكار حديث نتاجها * تشاب بماء مثل ماء المفاصـل

وقال أبو نجيم انما عنوا مفاصل فقار الجمل لان لكل مفصل حقا فيستنقع فيه مالا تجد ماء أبداً أصفى ولا أحسن منه وان رق ولا قول ٢ أصحابنا وقال مرة قطرب وهو محمد ابن المنتشر النحوي والله لفلان ابصر من كلب وأسمع من كلب وأشم من كلب فقيل له أنشدنا فى ذلك ما يشبه قولك فانشد قوله

يا ربة البيت قومى غير صاغرة * حطي [1] اليك رحال القوم فالقربا

---

(١) وروي ضمي

في ليلة من جمادى ذات اندية * لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * حتى[1] يجر على خيشومه الذنبا

وأنشد هذا البيت في ثقوب بصره والشعر لمرة بن محكان السعدي ثم أنشد في ثقوب السمع

خفي السرى لا يسمع الكلب وطأه * أتى دون نبح الكلب والكلب دابب

(قال أبو الحسن) قال نصر بن سيار الليثي كان عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة لابد أن تكون فيه عشر خصال من أخلاق الحيوان سخاء الديك وتحنن الدجاجة وقلب الأسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب وختل الذئب وقد كتبنا هذا في باب ما للدجاج والديك لان صاحب هـذا الكلام قسم هذه الخصال فاعطى كل جنس منها خصلة واحدة وأعطى جنس الدجاج خصلتين وعباد بن ابراهيم عن عبد الرحمن بن زيد قال كان مكحول يسافر بالديك وعنه في هذا الاسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الديك صديقي وصديق صديقي وعـدو عدو الله يحفظ داره وأربع دور من حواليه (والمسيب) بن شريك عن الاعمش نحسبه عن ابراهيم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تذبحوا الديك فان الشيطان يفرح به قال وليس جناح الا وفيه عشرون ريشة فاربع قوادم وأربع مناكب وأربع أباهن وأربع طلي وأربع خواف ويقال سبع قوادم وسبع خواف وسائره لقب قال وكل شيء من ذوات الاربع فركبتاه في يديه وركبة الانسان في رجليه قال والانسان كفه في يده والطائر كفه في رجله قال وفي الفم ثنيتان ورباعيتان ونابان وضاحكان وأربعة ارحاء سوى ضرس الحـلم والنواجذ والعوارض سواء ومثلها أسفل (قال) صاحب الديك والدجاجة يتفاءل بذكرها ولذلك لما ولد لسعيد ابن العاص عنبسة بن سعيد قال لابنه يحيي أي شيء تنحله قال دجاجة بفراريجها يريد إحتقاره بذلك اذ كان ابن أمة ولم يكن ابن حرة فقال سعيد أو قيل له ان صدق الطير ليكونن أكثرهم ولداً فهم اليوم أكثرهم ولداً وهم بالكوفة والمدينة وقال الشاعر

غدوت بشربة من ذات عرق * أبا الدهناء من حلب العصير

(١) وروى الاولف

وأخرى بالعقنقل ثم سرنا * نرى العصفور أعظم من بعير
كأن الديك ديك بني نمير * أمير المؤمنين على السرير
كأن دجاجهم في الدار رقطاً * بنات الروم في قمص الحرير
فبت أرى الكواكب دانيات * ينلن أنامل الرجل القصير
ادافعهن بالكفين عني * وأمسح جانب القمر المنير

قال ويوصف بالدعاء وبالمنطق قال لبيد بن ربيعة

وصدهم منطق الدجاج عن القصـ * ـد وضرب الناقوس فاجتنبا

وقال لدن ان دعا ديك الصباح بسحرة * الى قدر ورد الخامس المتأوب

(قال أبو الحسن) حدثني اعرابي كان ينزل بالبصرة قال قدم إعرابي من البادية فأنزلته وكان عندي دجاج كثير ولي امرأة وابنان وابنتان منها فقلت لامرأتي بادري واشوى لنا دجاجة وقدميها الينا نتغداها فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والاعرابي قال فدفعنا اليه الدجاجة فقلنا له اقسمها بيننا نريد ان نضحك منه فقال لا أحسن القسمة فان رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم قلنا فانا نرضى فأخذ رأس الدجاجة فقطعها فناولنيه وقال الرأس للرأس وقطع الجناحين وقال الجناحان للابنين ثم قطع الساقين فقال الساقان للابنتين ثم قطع الزمكى وقال العجز للعجز وقال الزور للزائر قال فاخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا قال فلما كان من الغد قلت لامرأتي اشوي لنا خمس دجاجات فلما حضر الغداء قلت اقسم بيننا قال انى أظن انكم وجدتم فى أنفسكم قلنا لا لم نجد فى أنفسنا فاقسم قال أقسم شفعاً أو وتراً قلنا اقسم وتراً قال أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ثم رمى الينا بدجاجة ثم قال وابناك ودجاجة ثلاثة ثم رمى اليهما بدجاجة ثم قال وابنتاك ودجاجة ثلاثة ثم رمى اليهما بدجاجة ثم قال أنا ودجاجتان ثلاثة وأخذ دجاجتين وسخر بنا قال فرآنا ونحن ننظر الى دجاجتيه فقال ماتنظرون لعلكم كرهتم قسمة الوتر لايجيء الا هكذا فهل لكم في قسمة الشفع قلنا نعم فضمهن اليه ثم قال أنت وابناك ودجاجة أربعة ورمى الينا بدجاجة ثم قال والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة ورمى اليهن

بدجاجة ثم قال أنا وثلاث دجاجات أربعة وضم اليه الثلاث ورفع يديه الى السماء وقال اللهم لك الحمد أنت فهمتنيها (قال صاحب الكلب) من أعظم مفاخر الديك والدجاج على سائر الحيوان ان الفروج يخرج من البيضة كاسبا يكفى نفسه ثم يجمع كيس الخلقة وكيس المعرفة وذلك كله مع خروجه من البيضة فقد زعم صاحب المنطق أن ولد العنكبوت يأخذ فى النسج ساعة يولد وعمل العنكبوت عمل شاق ولطيف دقيق لا يبلغه الفرّوج ولا أبو الفروج على ان ما مدحوا الفروج به من خروجه من البيضة كاسياً قد شركه فى حاله غير جنسه وكذلك ذوات الاربع كلها تولد كواسى كواسب كولد الشاء وفراخ القبج والدراج وفراخ البط الصيني فى ذلك كله لاحقة بالفراريج وتزيد على ذلك انها تزداد حسناً كلما كبرت فقد سقط هذا الفخر ومن الشعر الذى قيل فى الديك مما يكتب للهزل وليس للجد والفائدة قول أبي الشمقمق

هتفت أم حصين * ثم قالت من ينيك

فتحت فرجا رحيباً * مثل صحراء العتيك

فيه وز فيه بط * فيه دراج وديك

قال ومما فيه ذكر الدجاج وليس من شكل مابنينا كلامنا عليه ولكنه يكتب لما فيه من العجب قال قال الهامرز قال صاحب الاهواز مارأينا قوماً أعجب من العرب أتيت الاحنف ابن قيس فكلمته فى حاجة لى الى ابن زياد وكنت قد ظلمت فى الخراج فكلمه فاحسن الى وحط عني فاهديت اليه هدايا كثيرة فغضب وقال إنا لا نأخذ على معونتنا أجراً فلما كنت في بعض الطريق سقطت من ردائي دجاجة فلحقني رجل منهم فقال هذه سقطت من ردائك فأمرت له بدرهم ثم لحقني بالابلة فقال أنا صاحب الدجاجة فأمرت له بدراهم ثم لحقني بالاهواز فقال أنا صاحب الدجاجة فقلت له ان رأيت زادى بعد هذا كله قد سقط فلا تعلمني وهولك (قال صاحب الكلب) كان يقال لابي العاصى بن الربيع بن عبد العزي بن عبد شمس وهو زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاخيه كنانة بن الربيع جرو البطحاء قال صاحب الديك لصاحب الكلب وسنضرب لك المثل الذى ضربه الموريانى للديك

والبازى وذلك ان خلاد بن زيد الأرقط قال بينا أبو أيوب الموريانى جالس في أمره ونهيه اذ أتاه رسول أبى جعفر فانتقع لونه وطارت عصافير رأسه وأذن بيوم باسه وذعر ذعرا نقض حبوته واستطار فؤاه ثم عاد طلق الوجه فتعجبنا من حاليه وقلنا له انك لطيف الخاصة قريب المنزلة فلم ذهب بك الذعر واستفزعك الوجل فقال ساضرب لكم مثلا من أمثال الناس زعموا ان البازى قال للديك مافى الارض شئ أقل وفاء منك قال وكيف قال أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم فاطعموك على اكفهم ونشأت بينهم حتى اذا كبرت صرت لايدنو منك أحد الا طرت هاهنا وهاهنا وضججت وصحت وأخذت أنا من الجبال فعلمونى وألفونى ثم يخلى عنى فآخذ صيدى في الهواء فاجئ به الى صاحبي فقال له الديك انك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم مثل مارأيت من الديوك لكنت أنفر مني ولكنكم أنتم لو علمتم ماأعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكن حالى (قال صاحب الكتاب) ذكر محمد بن سلام عن سعيد بن صخر قال أرسل مسلم ابن عمرو بن عم له الى الشام ومصر يشترى له خيلا فقال له لاعلم لى بالخيل وكان صاحب قنص قال ألست صاحب كلاب قال بلى قال فانظر كل شئ تستحسنه فى الكلب فاستعمله فى الفرس فقدم بخيل لم يكن فى العرب مثلها قال محمد ابن سلام استأذن رجل على امرأة فقالت له ماله من حاجة قالت الجارية يريد أن يذكر حاجة قالت لعلها حاجة الديك الى الدجاجة (محمد) بن سلام عن سلام أبي المنذر قال حبس خالد بن عبد الله الكميت بن زيد وكانت امرأته تختلف اليه في ثياب وهيئة حتى عرفها البوابون فلبس يوماً ثيابها وخرج عليهم فسمى في شعره البوابين النوابح وسمي خالدا المشلي

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل * على الرغم من تلك النوابح والمشلي
على ثياب الغانيات وتحتها * صريمة عزم أشبهت سلة النصل

(قال وأخبرنا خشرم) قال سمعت فلانا البقال يسأل الحسن قال ان الصبيان يأتونني ببيضتين مكسورتين يأخذون مني صحيحة واحدة قال ليس به بأس (محمد) بن سلام عن

بعض أشياخه قال قال مصعب بن الزبير على مسجد البصرة لبعض بنى أبى بكرة انما كانت أمكم مثل الكابة ينزو عليها الاعفر والاسود والابقع فتؤدى الى كل كاب شبهه هذا فى هذا الموضع هجاء وأصحاب الكلاب يرون هذا من باب النجابة وان ذلك من صحة طباع الارحام حين لاتختلط النطف فتجيء جوارح الاولاد مختلفة مختلطة وقال صاحب الكلب في وصية عثمان الخياط للشطار اللصوص اياكم اياكم وحب النساء وسماع ضرب العود وشرب الزبيب المطبوخ وعليكم باتخاذ الغلمان فان غلامك هذا أنفع لك من أخيك وأعون لك من ابن عمك وعليكم بنبيذ التمر وضرب الطنبور وما كان عليه الساف واجعلوا النقل باقلاء وان قدرتم على الفستق والريحان وشاهبتر ثم ان قدرتم على الياسمين ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقناع والقانسوة كفر والخف شرك واجعل لهوك الحمام وهارش الكلاب واياك والكباش واللعب بالصقورة والشواهين واياكم والفهود فلما انتهي الى الديك قال والديك فان له صبرا ونجدة وروغانا وتدبيرا وإعمالا للسلاح وهو يهربهر الشجاع ثم قال وعليكم بالنرد ودعوا الشطرنج لاهلها ولا تلعبوا فى النرد الا بالطويلتين والودع رأس مال كبير وأول منافعه الحذق باللقف ثم حدثهم بحديث يزيد ابن مسعود القيسي (وقال صاحب الديك) ذكر محمد بن سلام عن يحيي بن النضر عن أبى أمية عبد الكريم المعلم قال كان الحسن بن ابراهيم يكره صيد الكاب الأسود البهيم وأنشد صاحب الكاب قول أحمد بن زياد بن أبي كريمة فى صفة صيد الكلب قصيدة طويلة أولها

وغب غمام مزقت عن سمائه * شآمية حصاء جون السحائب
مواجه طلق لم يرد رجامها * تذاب بارواح الصبا والجنائب
بعثت وأثواب الدجي قد تقلصت * لغرة مشهوب من الصبح ثاقب
وقد لاح ناعى الليل حتي كانه * لسارى الدجا فى الفجر قنديل راهب
بهاليل لا يثنيهم عن عزيمة * وان كان جم الرشد لوم القرائب
بتجنيب غضف كالقداح لطيفة * مشرطة آذانها بالمخالب

تخال سياطا من سلاها منوطة * طوال الهوادي كالقداح الشواذب
اذا افترشت جبتا أثارت بمتنه * عجاجا وبالكدان نار الحباحب
يفوت خطاها الطرف سبقا كأنها * سهام مغال أو رجوم الكواكب
طراد الهوادي لاحها كل شتوة * بطامية الأرجاء مرت المسارب
تكاد من الاخراج تسأل كلما * رأت شبحاً لولا اعتراض المناكب
تسوف وتوفى كل نشز وفدفد * مرابض أبناء النفاق الأرانب
كأن بها ذعرا يطير قلوبها * أنين المكاكى أو صرير الجنادب
تدير عيوناً ركبت في براطل * كجمر الغضا خزر دواب الأنائب
اذا ما استحثت لم يحن طريدها * لهن ضراء أو مجارى المقانب
وان باصها صلب مدى الدهر أمسكت * عليه بدون الجهد سبل المذاهب
تكاد تفرى الاهب عنها اذا انتحت * لنبأة شخت الجرم عارى الرواجب
كأن غصون الخيزران متونها * اذا هى جالت فى طراد الثعالب
كواشر عن أنيابهن كوالح * مذلقة الآذان شوس الحواجب
كأن بنات القفر حين تفرقت * غدون عليها بالمنايا الشواعب

ثم وصف الفهود :

بذلك أبقى الصيد طورا وتاره * بمخطفة الاكفال رحب الترائب
مرققة الاذناب ثم ظهورها * مخططة الآماق غلب الغوارب
مذربة ورق كأن عيونها * حواجل تستدمى متون الرواكب
اذا قابلتها الفجاج حسبتها * سنا ضرم فى ظلمة الليل ثاقب
مولعة قبج الجباه عوابس * تخالي على أشداقها خط كاتب
نواصب آذان لطاف كأنها * مداهن للأحراس من كل جانب
ذوات أثاف ركبت في أكفها * نوافذ فى صم الصخور نواشب
ذراب بلا ترهيف قين كأنها * تعقرب أصداغ الملاح الكواعب

فوارس ما لم تلق حربا ورحلة * اذا آنست بالبيد شهب الكتائب
ترود تسكين يكون دريئة * لهن بذى الاسوار في كل لاحب
تضاءل حتى لا تكاد تبينها * عيون لدى الضرات غير كواذب
حراص يفوت البرق أمكث جريها * ضراء مبلات بطول التجارب
توسد اجياد الفوارس اذرعا * مزملة تحكى عتاق الجنائب

(قال دعبل الشاعر) أقمنا عند سهل بن هارون فلم نبرح حتى كدنا نموت من الجوع فلما اضطررناه قال ياغلام ويلك غدنا قال فأتينا بقصعة فيها مرق فيه لحم ديك ليس قبلها ولا بعدها غيرها لا تحز فيه السكين ولا تؤثر فيه الاضراس فاطلع فى القصعة وقلب بصره فيها ثم أخذ قطعة خبز يابس فقلب جميع ما في القصعة حتى فقد الرأس من الديك وحده ثم رفع رأسه الى الغلام فقال أين الرأس فقال رميت به قال ولم رميت به قال لم أظنك تأكله قال ولاى شئ ظننت اني لا آكله فوالله انى لامقت من يرمي برجليه ثم قال له لو لم أكره ما صنعت الا للطيرة والفال لكرهته الرأس رئيس وفيه الحواس ومنه يصدح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه قرنه الذى يتبرك به وعينه التى يضرب بها المثل يقال شراب كعين الديك ودماغه عجيب لوجع الكلية ولم أر عظما قط أهش تحت الاسنان من عظم رأسه فهلا اذ ظننت انى لا آكله ظننت ان العيال يأكلونه وان كان بلغ من نبلك انك لا تأكله فان عندنا من يأكله أو ما علمت إنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق انظر أين هو قال والله ما أدري أين رميت به قال لكنى ادرى انك رميت به في بطنك والله حسيبك

﴿ تم الجزء الثانى من كتاب الحيوان بحمد الله تعالى وحسن عونه ﴾
﴿ ويتلوه الجزء الثالث ان شاء الله أوله ذكر الحمام ﴾

فهرست

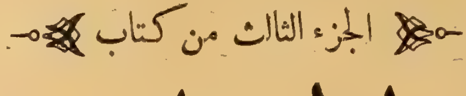
﴿ الجزء الثالث من كتاب الحيوان ﴾

صحيفه

صحيفة

﴿تم الفهرست﴾

الجزء الثالث من كتاب



الحيوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
البصري المتوفى سنة ٢٥٥ هجريه

وهذا الكتاب هو
« البارع فى الأدب والجامع في حكم العرب »

الحاج محمد افندي ساسي المغربي التونسي

سنة ١٣٢٤هـ — و١٩٠٦م

مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

باب ذكر الحمام

وما أودعها الله عز وجل من ضروب المعرفة ومن الخصال المحمودة ولتعرف بذلك حكمة الصانع واتقانه وصنعه المدبر وان كنا قد أمللناك بالجد وبالاحتجاجات الصحيحة والممزوجة لتكثر الخواطر وتشحذ العقول فاستنشطتك ببعض البطالات وبذكر العلل الظريفة والاحتجاجات الغريبة فرب شعر يبلغ بفرط غباوة صاحبه مالا يبلغه أحر النوادر وأجود المعانى وأنا استظرف أمرين استظرافا شديداً أحدهما استماع حديث الاعراب والأمر الآخر احتجاج متنازعين فى الكلام وهما لا يحسنان منه شيئاً فانهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل ثكلان وان تشدد وكل غضبان وان أحرقه لهيب الغضب ولو ان ذلك لا يحل لكان فى باب اللهو والضحك والسرور والبطالة والتشاغل ما يجوز كل فن وسنذكر من هذا الشكل عللا ونورد عليك من احتجاجات الاغبياء حججاً فان كنت ممن يستعمل الملالة وتعجل اليه السامة كان هذا الباب تنشيطاً لقلبك وجماما لقوتك ولنبتدئ النظر فى باب الحمام فقد ذهب الكلال وحدث النشاط وان كنت صاحب علم وجد وكنت ممرنا موقحا وكنت الف تفكير وتنقير ودراسة كتب وحلف تبيين وكان ذلك عادة لك لم يضرك مكانه من الكتاب وتخطيه الى ماهو أولى بك وعلى انى قد عزمت والله الموفق انى أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الاحاديث ليخرج قاوئ هذا

الـكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل فانى رأيت الاسماع تمل الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والاوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها وما ذلك الا فى طريق الراحة التى اذا طالت أورثت الغفلة واذا كانت الاوائل قد سارت فى صغار الـكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح وماغايتنا من ذلك كله الا ان تستفيدوا خيراً وقال أبو الدرداء انى لأجم نفسى ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها فمن الاحتجاجات الطبية ومن العلل الملهية ما حدثنى به ابن المديني قال تحول أبو عبد الله الكرخي اللحيانى الى الحربية فادعى انه فقيه وظن ان ذلكَ يجوز له لمكان لحيته وسمته قال فالقى على باب داره البواري وجلس اليه الجيران فأتاه رجل فقال يا أبا عبد الله رجل أدخل إصبعه في انفه فخرج عليها دم أي شي يصنع قال يحتجم قال قعدت طبيباً أو قعدت فقيها وحدثني شمئون الطبيب قال كنت يوما عند ذى اليمينين طاهر بن الحسين فدخل عليه أبو عبد الله المروزى فقال يا أبا عبد الله مذ كم دخلت العراق قال منذ عشرين سنة وأنا صائم منذ ثلاثين سنة قال ياأبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين وحدثني أبو الجهجاه قال أدعى شيخ عندنا انه من كندة قبل ان ينظر فى شئ من نسب كندة فقلت له يوما وهو عندي ممن أنت يافلان قال من كندة قلت من أيهم أنت قال ليس هذا موضع الـكلام عافاك الله ودخلت على ختن بريرة وكان شيخاً ينتحل قول الإباضية فسمعته يقول العجب ممن يأخذه النوم وهو يزعم الاستطاعة مع العقل قلت ما الدليل على ذلك قال الأشعار الصحيحة قلت مثل ماذا قال مثل قوله * ما ان يقعن الارض الافرطا * وكقوله أيضاً

مكر مفر مقبل مدبر معا * كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكقوله

أكف يدى عن ان تمس أكفهم * اذا نحن أهوينا وحاجتنا معا

ثم أقبل علي فقال أما في هذا مقنع قلت بلى وفى دون هذا وذكر محمد بن سلام عن أبان بن عثمان قال قال رجل من أهل الـكوفة لهشام بن الحكم أترى الله عز وجل في عدله وفضله كلفنا مالا نطيق ثم يعذبنا قال قد والله فعل ولـكنا لا نستطيع ان نتكلم

به وحدثني محمد بن الصباح قال بينا أبو يوسف القاضي يسير بظهر الكوفة وذلك بعد ان كتب كتاب الحيل اذ عرض له ممرور عندنا أطيب الخلق فقال له ياأبا يوسف قد أحسنت فى كتاب الحيل وقد بقيت عليك مسائل فى الفطن فان أذنت لى سألتك عنها قال قد أذنت لك فسل قال أخبرنى عن الحر كافر هو أو مؤمن فقال أبو يوسف دين الحر دين المرأة ودين صاحبة الحران كانت كافرة فهو كافر وان كانت مؤمنة فهو مؤمن قال ماصنعت شيئاً قال فقل أنت اذا لم ترض بقولى فقال الحر كافر قال وكيف علمت ذلك قال لان المرأة اذا ركعت أو سجدت استدبر الحر القبلة واستقبلت هى القبلة ولو كان دينه دين المرأة لصنع كماتصنع هـذه واحدة يا أبا يوسف قال صدقت فتأذن لى فى أخرى قال نعم قال أخبرني عنك اذا أتيت صحراء فهجمت على بول وخرا كيف تعرف أبول امرأة هو أم بول رجل قال والله ماأدرى قال أجل والله ماتدرى قال فتعرف أنت ذاك قال نعم اذا رأيت البول قد سال على الخراو بين يديه فهو بول امرأة وخرا امرأة واذا رأيت البول بعيداً من الخرا فهو بول رجل وخرا رجل قال صدقت قال وحكى لى جواب مسائل فنسيت منها مسألة فعاودته فاذا هو لا يحفظها (وحدثني) أيوب الاعور قال قائل للحجاج العبسي مابال شعر الأست إذا نبت أسرع والتف قال لقربه من السماء والماء هطل عليه وحدثني محمد بن حسان قال وقفت على نوفل عريف الكناسين واذا موسوس قد وقف عليه وعنده كل كناس بالكرخ فقال له الموسوس ما بال بنت وردان تدع قعر البئر وفيه كل خرا وهولها مسلم وعليها موفر وتجئ تطلب اللطاخة التى فى أست أحـدنا وهو قاعد على المقعد فتلزم نفسها الكلفة الغليظة وتتعرض للقتل وانما هذا الذي فى استاهنا قيراط من ذلك الدرهم وقد دفعنا اليها من الدرهم وافراً قال فضحك القوم فحرك نوفل رأسه ثم قال أتضحكون قد والله سأل الراجل فاجيبوا وأما أنا فقد والله فكرت فيها منذ سنين ولـكنكم لا تنظرون في شئ من أمر صناعتكم لاجرم أنكم لاترتفعون أبداً فقال نوفل قد علمنا ان الرطب أطيب من التمر والحديث أطرف من العتيق والشئ من معدنه أطيب والفاكهة من أشجارها أطرف قال فغضب شريك مسيح الـكناس ثم قال والله لقد وبختنا وهولت

علينا حتى ظننا انك ستجيب بجواب لا يحسنه أحد ما الأمر عندنا وعند أصحابنا هكذا قال فقال لنا الموسوس ما الجواب عافاكم الله فانى ما نمت البارحة من الفكرة فى هذه المسألة قال مسيح لو ان لرجل ألف جوارى حساناً ثم عتقن عنده لبردت شهوته عنهن وفترت ثم ان رأى واحدة دون أخسهن فى الحسن صبا اليها ومات من شهوتها فبنت وردان تستظرف تلك اللطاخة وقد ملت الأولى وبعض الناس الفطير أحب اليه من الخمير وأيضاً ان الكثير يمنع الشهوة ويورث الصدود قال فقال الموسوس واستحسن جواب مسيح بعد ان كان لا يري جواباً الا جواب نوفل لا تعرف مقدار العالم حتى تجلس الى غيره أنتم أعلم أهل هذه المدرة ولقد سألت علماءها عنه منذ عشرين سنة فما تخلص أحد منهم الى مثل ما تخلصتم اليه وقد والله أنعمتم عيني وطاب بكم عيشى وقد علمنا ان كل شئ يستاب استلابا انه ألذ وأطيب ولذلك صار الديب الى الغلمان ونيكهم على جهة الضبط ألذ وكل شئ يصيبه الرجل فهو أعز عليه من المال الذى يوجب له قال وحدثني أبان بن عثمان قال قال الحجاج بن يوسف والله لطاعتى أوجب من طاعة الله لان الله تعالى يقول اتقوا الله ما استطعتم فجعل فيها مثنوية وقال واسمعوا وأطيعوا ولم يجعل فيها مثنوية ولو قلت لرجل ادخل من هذا الباب فلم يدخل لحل لى دمه قال (وأخبرنى) محمد بن سليمان بن عبد الله النوفلي قال قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة نحن أشد حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله منكم يا أهل المدينة فقال المدنى فما بلغ من حبك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله قال وددت أنى وقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن وصل اليه يوم أحد ولا في غيره من الأيام بشيء يكرهه الا كان بى دونه فقال المدني أفعندك غير هذا قال وما يكون غير هذا قال وددت ان أبا طالب كان آمن فسر به النبي صلى الله عليه وسلم وانى كافر وحدثني أبان بن عثمان قال قال ابن أبى ليلى انى لأساير رجلا من وجوه أهل الشام أذمر بحمال معه رمان فتناول منه رمانة فجعلها فى كمه فعجبت من ذلك ثم رجعت الى نفسي وكذبت عيني حتى مر به سائل فقير فاخرجها فناوله اياها قال فعلمت انى رأيتها فقلت له رأيتك قد فعلت عجبا قال وماهو قلت رأيتك أخذت رمانة من حمال وأعطيتها سائلا

قال وانك ممن يقول هذا القول أما علمت انى أخذتها وكانت سيئة وأعطيتها فكانت عشر حسنات قال فقال ابن أبي ليلى أما علمت انك أخذتها فكانت سيئة وأعطيتها فلم تقبل منك وقال الربيع قلت لاعرابى أتهمز أم اسرائيل قال انى اذاً لرجل سوء قلت فتجر فلسطين قال انى اذا لقوى قال (وحدثنا) حماد بن سلمة قال كان رجل فى الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة فاذا قيل له سرقت قال لم أسرق إنما سرق محجني قال فقال حماد لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب أبي حنيفة قال وحدثني محمد بن القاسم قال قال الأعمش لجليس له أما تشتهى بناتى زرق العيون نقية البطون سود الظهور وأرغفة حارة لينة وخلا حاذقا قال بلى قال فانهض بنا قال الرجل فنهضت معه ودخل منزله قال فأومأ الى ان خذ تلك السلة قال فكشفها فاذا برغيفين يابسين وسكرجة كامخ شبث قال فجعل يأكل قال فقال لي تعال كل فقلت وأين السمك قال ماعندى إنما قلت لك تشتهى قال وسئل حفص بن غياث عن فقه أبى حنيفة قال كان أجهل الناس بما يكون وأعرفهم بما لا يكون وأما علة خشنام بن هند فان خشنام ابن هند كان شيخا من الغالية وكان ممن إذا أراد ان يسمى أبا بكر وعمر قال الجبت والطاغوت ومنكر ونكير واف وتف وعوير وكان لا يزال يدخل داره حمار كساح ويضربه مائة عصى على أن أبا بكر وعمر في جوفه ولم أر قط أشد احتراقا منه وكان مع ذلك نبيذيا وصاحب حمام ويشبه في القدو الخرط شيوخ الحربية وكان من غير صميمهم وكان له بني يتبعه فكان يزني أمه عند كل حق وباطل وعند كل جد وهزل فقلت له يوما ونحن عند بنى ربعى ويحك بأى شئ تستحل ان تقذف أمه بالزنا فقال لو كان على فى ذلك حرج لما قذفتها قلت فلم تزوجت امرأة ليس فى قذفها حرج قال إنى قد احتلت حيلة حتى حل لى من أجلها ما كان يحرم قلت وماتلك الحيله قال أنا رجل حديد وهذا غلام عارم وقد كنت طلقت أمه فكنت اذا افتريت عليها أثمت فقلت فى نفسى ان أعبث بها وخدعتها حتى أنيكها مرة واحدة حل لى بعد ذلك افترائى عليها بل لا يكون قولى حينئذ فرية وعلمت ان زنية واحدة لاتعدل عشر آلاف فرية فانا اليوم أصدق ولست أكذب والصادق مأجور اني والله ما أشك ان الله اذا علم انى لم أزن بها تلك

المرة الا من خوف الاثم اذا قذفتها أنه سيجعل تلك الزنية طاعة لله تعالى فقلت أنت الآن على ان زناك طاعة لله تعالى قال ثم قال الشيخ الإباضي وهو ختن أبي بكر بن برة وجرى يوماً ذكر التشيع والشيعة فانكر ذلك واشتد غضبه عليهم فتوهمت ان ذلك انما اعتراه للاباضية التي فيه وماعلى ان سألته فانه يقال ان السائل لا يعدمه ان يسمع في الجواب حجة أو حيلة فقلت وما أنكرت من التشيع والشيعة قال أنكرت منه مكان الشين التي في أول الكلمة لاني لم أجد الشين في أول كلمة قط الا وهي مسخوطة مثل شؤم وشر وشيطان وشغب وشح وشمال وشجر وشيب وشين وشراسة وشنج وشك وشوكة وشبث وشوكة وشرك وشارب وشطير وشطور وشعر وشناني وشتم وشتيم وشطرنج وشنعة وشناعة وشوصة وشتر وشحوب وشجة وشطون وشاطن وشن وشلل وشيص وشاطر وشاطرة وشاحب قلت ماسمعت متكلما قط يقول هذا ولايبلغه ولا يقوم لهؤلاء القوم قائمة بعد هذا قال وتعشي أبو كعب القاص بطفشيل كثير اللوبيا وأكثر منه وشرب نبيذ تمر وغلس الى بعض المساجد ليقص على أهله اذا انفتل الامام من الصلاة فصادف زحاما كثيراً ومسجدا مستورا بالبوارى من البرد والريح والمطر واذا محراب غائر فى الحائط واذا الامام شيخ ضعيف فلما صلى استدبر المحراب وجلس فى زاوية منه يسبح وقام أبو كعب فجعل ظهره الي وجه الامام ووجهه الى وجوه القوم وطبق المحراب بجسمه وفروته وعمامته وكسائه ولم يكن بين فقحته وبين أنف الامام كبير شئ وقص وتحرك بطنه فاراد ان يتفرج بفسوة وخاف ان تصير ضراطا فقال في قصصه قولوا جميعا لااله الا الله وارفعوا بها أصواتكم وفسا فسوة فى المحراب فدارت فيه وجشمت على أنف الشيخ واحتملها ثم كده بطنه فاحتاج الى أخرى فقال قولوا لااله الاالله وارفعوا بها أصواتكم فارسل فسوة أخرى فلم تخطئ أنف الشيخ واختنقت فى المحراب فخمر الشيخ أنفه فصار لايدرى مايصنع ان هو تنفس قتلته الرائحة وان هولم يتنفس مات كربا فما زال يدارى ذلك وأبو كعب يقص فلم يلبث أبو كعب ان احتاج الى أخرى وكلما طال لبثه تولد في بطنه من النفخ على حسب ذلك فقال قولوا جميعا لا اله الاالله وارفعوا بها أصواتكم فقال الشيخ من

المحراب لاتقولوا لاتقولوا قد قتلني انما يريد ان يفسو ثم جذب اليه ثوب أبي كعب وقال جئت الى هاهنا لتفسو أوتقص فقال جئنا لنقص فاذا نزلت بليـة فلابد لنا ولكم من الصـبر فضحك الناس واختلط المجلس وأبو كعب هـذا هو الذى كان يقص في مسجد عتاب كل أربعا فاحتبس عليهم في بعض الأيام وطال انتظارهم له فبينما هم كذلك إذ جاء رسوله فقال يقول لكم أبو كعب انصرفوا فانى قد أصـبحت مخموراً (وأما) علة عبـد العزيز فان عبـد العزيز كان له مال وكان اذاجاء وقت الزكاة وجاء القواد بغلام مؤاجر قال يا غلام ألك أم أم لك خالات فيقول الغلام نعم فيقول خذ هذه العشرة الدراهم أو خـذ هـذه الدنانير من زكاة مالى فادفعها اليهن وان شئت ان تلزمني بعد ذلك على جهة المكارمة وان شئت ان تنصرف فانصرف فيقول ذلك وهو واثق ان الغلام لا يمنعه بعد أخذ الدراهم وهو يعلم أنه لن يبلغ من صلاح طباع المؤاجرين ان يؤدوا الأمانات فعبر بذلك ثلاثين سنة وليس له زكاة الا عند أمهات المؤاجرين واخواتهم وخالاتهم (وحدثني) محمد بن عباد بن كاسب قال قال لي الفضل ابن مروان من طياب الكوفيين وأغنيائهم ان ولد لك مائة ذكر فسمهم كلهم محمداً فانك سترى فيهم البركة أو تدري لأي شيء كثر مالى قلت لا والله ما أدري قال انما كثر مالي لانى سميت نفسى فيما بيني وبين الله محمداً واذا كان اسمي عند الله محمداً فما أبالي ماقال الناس وشبه هذا الحديث قول المروزى قلت لاحمـد ابن رياح الجوهرى اشتريت كساء أبيض طبريا باربعمائة درهم وهو عند الناس فيما ترى عيونهم قومسى يساوي مائة درهم قال اذا علم الله انه طبرى فما علي مما قال الناس وكان عندنا حارس يكنى أبا خزيمة فقلت يوما وقد خطر على بالى كيف اكتنى هذا العلج الا لكن أبا خزيمة ثم رأيته فقلت له خبرنى عنك أكان أبوك يسمى خزيمة قال لا قلت فجدك أو عمك أو خالك قال لاقلت فلك ابن يسمى خزيمة قال لاقلت فلم اكتنيت أباخزيمة وأنت علج الكن وأنت فقير وأنت حارس قال هكذا اشتهيت قلت فلأى شيء اشتهيت هذه الكنية من بين جميع الكنى قال مايدريني قلت فتبيعها الساعة بدينار وتكتني باى كنية شئت قال لا والله ولا بالدينار وما فيها وحدثني مسعدة بن طارق قلت للزيادي

ومررت به وهو جالس في يوم غيم حار ومد على باب داره في شروع نهر الحونان باردية واذا ذلك البحر ينجر فى أنفه قال فقلت له بعت دارك وخطك من دار جدك زياد ابن أبي سفيان وتركت مجالسك فى ساباط عيث وأشرافك على رحبة بنى هاشم وجلست على هذا النهر فى مثل هذا اليوم ورضيت به جارا قال نلت أطول آمالي فى قرب هؤلاء قلت لو كنت بقرب المقابر فقلت نزلت هذا الموضع للاتعاظ به والاعتبار كان ذلك وجهاً ولو كنت بقرب الحدادين فقلت لا تذكر بهذه النيران والكيران نار جهنم كان ذلك قولا ولو كنت اشتريت داراً بقرب العطارين فاعتللت بطلب رائحة الطيب كان ذلك وجهاً فاما قرب البزارين فقط فهذا مالا أعرفه أفلك فيهم دار غلة أو هل لك عليهم ديون حالة أو هل لك فيهم أو عندهم غلمان يؤدون الضريبة أو هل لك معهم شركة مضاربة قال لا قلت فما ترجو اذا من قربهم (وحدثني) ثمامة بن أشرس قال كان رجل ممرور يقوم كل يوم فيأتى دالية لقوم ولا يزال يمشى مع رجال الدالية على ذلك الجزع ذاهباً وجائياً فى شدة الحر والبرد حتى اذا أمسى نزل اليهم وتوضأ وصلى وقال اللهم اجعل لنا من هذا فرجا ومخرجا ثم انصرف الى بيته فكان كذلك حتى مات (وحدثنى) المكى قال كان رجل يقود أعمى بكراء وكان الاعمى ربما عثر العثرة ونكب النكبة فيقول اللهم ابدل لى به قائداً خيراً منه قال فقال القائد اللهم ابدل لى به أعمي خيراً منه (وحدثنى) يزيد مولى اسحاق بن عيسى قال كنا فى منزل صاحب لنا اذ خرج واحد من جماعتنا ليقيل فى البيت الآخر فلم يلبث الا ساعة حتى سمعناه يصيح أوه أوه قال فنهضنا بأجمعنا اليه فزعين فقلنا له مالك واذا هو نائم على شقه الايسر وهو قابض على خصيتيه بيده فقلت له لم صحت قال اذا غمزت خصيتي اشتكيتها واذا اشتكيتها صحت قال فقلنا له لا تغمزها بعد حتى لا تشتكى قال نعم ان شاء الله تعالى قال يزيد وكانت لعيسى بن علي مولاة عجوز خراسانية تصرخ بالليل من ضربان ضرس لها فكانت قد أرقت الامير اسحاق فقلت له انها مع ذلك لا تدع أكل التمر قال فبعث اليها بالغداة فقال أتأكلين التمر بالنهار وتصيحين بالليل فقالت اذا اشتهيت أكلت واذا أوجعنى صحت (وحدثنى) ثمامة قال مررت في غب مطر والارض ندية

والسماء متغيمة والريح شمال واذا شيخ أصفر كأنه جرادة وقد جلس على قارعة الطريق وحجام زنجي يحجمه وقد وضع على كاهله وأخدعيه محاجم كل محجمة كأنها قعب وقد مص دمه حتى كاد ان يستفرغه قال فوقفت عليه فقلت ياشيخ لم تحتجم قال لمكان هذا الصفار الذى بى (وحدثنى) ثمامة قال حدثنى سعيد بن مسلم قال كنا بخراسان فى منزل بعض الدهاقين ونحن شباب وفينا شيخ قال فأتانا رب المنزل بدهن طيب فدهن بعضنا رأسه وبعضنا لحيته وبعضنا مسح شاربه وبعضنا مسح يديه وأمرهما على وجهه وبعضنا أخذ بطرف إصبعه فأدخل في أنفه ومسح به شاربه وتعمد الشيخ الى بقية الدهن فصبها فى أذنه فقلنا له ويحك خالفت أصحابك كلهم هل رأيت أحدا اذا أتوه بدهن صبه في أذنه قال فانها مع ذلك تضرني (وحدثنى) مسعدة بن طارق قال والله إنا لوقوف على حدود دار فلان للقسمة ونحن فى خصومة اذا قبل سيد بنى تميم ومؤمرهم والذى يصلى على جنائزهم فلما رأيناه مقبلا الينا أمسكنا عن الكلام فاقبل علينا فقال حدثوني عن هذه الدار هل ضم منها بعضها الى بعض أحدنا قال مسعدة فأنا منذ سنين أفكر فى كلامه ما أدرى ماعنى به (وحدثنى الخليل) ابن يحي السلولى قال نازع التميمي بعض بنى عمه في حائط فبعث الينا لنشهد على شهادته فأتاه جماعة منهم الحميرى والزهرى والزيادى والبكراوى فلما صرنا اليه وقف بنا على الحائط وقال أشهدكم جميعاً ان نصف هذا الحائط لى قال وقدم ابن عم له الي عمر بن حبيب وأدعى عليه الف درهم فقال ابن عمه ماأعرف مما قال قليلاً ولا كثيراً ولا له علي شيء قال أصلحك الله تعالى فا كتب بإنكاره قال فقال عمر الانكار لايفوتك متى أردته فهو بين يديك قال وقلت لابن عتاب الجرار الا ترى عبد العزيز الغزال وما يتكلم به فى قصصه قال وأى شيء قلته قال ليت الله تعالى لم يكن خلقنى وأنا الساعة أعور قال ابن عقاب ليت الله تعالى لم يكن خلقنى وأنا الساعة أعمى مقطوع اليدين والرجلين ودخل أبو عتاب على عمر بن هداب وقد كف بصره والناس يعزونه فمثل بين يديه وكان كالجمل المحجوم له صوت جهير فقال ياأبا أسيد لا يسؤك ذهابها فلو رأيت ثوابها في ميزانك تمنيت ان الله تعالى قد قطع يديك ورجليك ودق ظهرك وأدمي صلعك وبينا داود بن المعتمر الصبيرى جالس معى اذ مرت به امرأة جميلة

لها قوام وحسن وعينان عجيبتان وعليها ثياب بيض فنهض داود فلم أشك انه قام ليتبعها فبعثت غلامي ليعرف ذلك فلما رجع قلت له قد علمت انما قمت لتكلمها فليس ينفعك الا الصدق ولا ينجيك مني الجحود وانما غايتي ان أعرف كيف ابتدئت القول وأي شيء قلت لها وعلمت انه سيأتي بآبدة وكان مليا بالأوابد قال ابتدئت القول بان قلت لولا ما عليك من سيماء الخير لم أتبعك قال فضحكت حتى استندت الى الحائط ثم قالت انما يمنع مثلك من اتباع مثلي والطمع فيه ما يرى من سيماء الخير فاما اذ قد صار سيماء الخير هو الذي يطمع فى النساء فانا لله وإنا اليه راجعون وتبع داود بن المعتمر إمرأة فلم يزل يطربها حتى أجابت ودلها على المنزل الذى يمكنها فيه ما يريد فتقدمت الفاجرة وعرض له رجل فشغله وجاء الى المنزل وقد قضى القوم حوائجهم وأخذت حاجتها فلم تنتظره فلما أتاهم ولم يرها قال أين هي قالوا والله قد فرغنا وذهبت قال فأى طريق أخذت قالوا والله ما ندرى قال فان عدوت فى أثرها حتى أقوم في جامع الطريق أترونى ألحقها قالوا والله ما تلحقها قال فقد فاتت الآن قالوا نعم قال فعسى أن يكون خيراً فلم أسمع قط بانسان يشك ان السلامة من الذنوب خير وسأل بعض أصحابنا أبا لقمان الممرور عن الجزء الذى لا يتجزء ما هو قال الجزء الذى لايتجزء على بن أبى طالب عليه السلام فقال له أبو العيناء محمد أفليس فى الارض جزء لايتجزء غيره قال بلى حمزة جزء لايتجزء وجعفر جزء لايتجزء قال فما تقول في العباس قال جزء لا يتجزء قال فما تقول فى أبى بكر وعمر قال أبو بكر يتجزء قال فما تقول فى عثمان قال يتجزء مرتين والزبير يتجزء مرتين قال فاى شيء تقول فى معاوية قال لا يتجزء فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الأنام اجزاء لا تتجزء الى أى شيء ذهب فلم نقع عليه الا ان يكون كان أبو لقمان اذا سمع المتكلمين يذكرون الجزء الذى لا يتجزء هاله ذلك وكبر في صدره وتوهم انه الباب الاكبر من علم الفاسفة وان الشيء اذا عظم خطره سموه بالجزء الذى لا يتجزء قد تسخفنا فى هذه الاحاديث واستجزنا ذلك بما تقدم من العذر وسنذكر قبل ذكرنا فى الحمام جملا من غرر ونوادر وأشعار ونتف وفقر من قصائد قصار وشوارد وأبيات لنعطي قارئ الكتاب من كل نوع تذهب اليه النفوس نصيباً ان شاء الله ولكل

ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعانى نوع من الاسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والافصاح فى موضع الافصاح والكناية فى موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال وان كان موضع الحديث على انه مضحك وملهى وداخل فى باب المزاح والطيب فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته وان كان فى لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذى وضع على ان يسر النفوس يكربها ويأخذ باكظامها وبعض الناس اذا إنتهى الى ذكر الحر والاير والنيك ارتدع وأظهر التعزز واستعمل باب التورع وأكثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا الشكل من التصنع ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق الا عن لؤم مستعمل ونذالة متمكنة وقد كان لهم فى عبد الله بن عباس مقنع حين سمعه بعض الناس ينشد فى المسجد الحرام

وهن يمشين بنا هميسا * ان تصدق الطير ننك لميسا

فقيل له فى ذلك فقال انما الرفث ما كان عند النساء قال شبيب بن يزيد الشيبانى ليلة فى بيت عتاب بن ورقاء * من ينك العير ينك نياكا * وقال الضحاك لو كان ذلك القول رفثاً لكان قطع لسانه أحب اليه من أن يقول هجراً وقال علي بن أبى طالب رضي الله عنه حين دخل على بعض الامراء فقال له من فِي هذه البيوت فلما قيل له عقائل من عقائل العرب قال على من يطل اير أبيه ينتطق به فعلي رضي الله تعالى عنه يقدم فى تنزيه اللفظ وشرف المعانى وقال أبو بكر رضى الله عنه حين قال بديل بن ورقاء للنبي صلى الله عليه وسلم جئتنا بعجرانك وسودانك ولو قدمس هؤلاء وخز السلاح لقد أسلموك فقال أبو بكر رضى الله عنه عضضت ببظر اللات وقد رووا مرفوعا قوله من يعذرنى من أم سباع مقطعة البظور ولو كان ذلك الموضع موضع كناية هي المستعملة وبعد فلو لم يكن لهذه الالفاظ مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأى ان لا يلفظ بها لم يكن لاول كونها معنى الا على وجه الخطإ لكان فى الحزم والصون لهذه اللغة ان ترفع هذه الاسماء منها وقد أصاب كل الصواب الذى قال لكل مقام مقال ولقد دخل علينا فتى حدث كان قد وقع الى أصحاب عبد الواحد بن زيد ونحن عند موسي

ابن عمران فدار الحديث الى ان قال الفتى أفطرت البارحة على رغيف وزيتونة وما علم الله من أمرى فقال موسى ان من الورع ما يبغضه الله علم الله وأظن ورعك هذا من ذلك الورع وكان العتبي ربما قال فقال لى المأمون كذا وكذا حين صار النجم على قمة الرأس أوحين جاز بى شيئاً أو قبل ان يوارى هامتى هكذا هو عندى وفى أغلب ظني وأكره أنْ أجزم على شئ وهو كما قلت ان شاء الله تعالى وقريباً مما نقلت فيتوقف فى الوقت الذى ليس من الحديث فى شئ وذلك الحديث ان كان مع طلوع الشمس لم يزده ذلك خيراً وان كان مع غروبها لم ينقصه ذلك شيئاً هذا ولعل الحديث في نفسه لم يكن قط ولم يصل هو فى تلك الليلة البتة وهو مع ذلك زعم انه دخل على أصحاب الكهف فعرف عددهم وكانت عليهم ثياب شثنية وكلبهم ممعط الجلد وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعبا وسنذكر من نوادر الشعر جملة فان نشطت لحفظها فاحفظها فانها من أشعار المذاكرة قال الثقفي

من كان ذا عضد يدرك ظلامته * ان الذليل الذى ليست له عضد
تنبو يداه اذا ماقل ناصره * وتأنف الضيم ان أثرى له عدد

وقال أبو قيس بن الاسلت

اني أمرؤ[1] مستبسل حازم * للدهر جلد غير مجزاع
الكيس والقوة خير من ال * إشفاق والقمية والعاع[2]

وقال عبدة بن الطبيب

رب حبانا باموال مخولة * وكل شئ حباه الله تخويل
والمرء ساع لامر ليس يدركه * والعيش شح واشفاق وتأميل

وكان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يردد هذا النصف الآخر ويعجب من جودة ماقسم وقال المتلمس

وأعلم علم حق غير ظن * وتقوى الله من خير العتادي
لحفظ المال أيسر من فناه * وضرب فى البلاد بغير زادى

(١) وروى بزامرئ (٢) وروي الحزم والقوة خير من الاد * هان والفكة والهاع

واصلاح القليل يزيد فيه * ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال آخر

وحفظك مالا قد عنيت بجمعه * أشد من المال الذى أنت طالبه

وقال حميد بن ثور الهلالى

أتشغل عنا يا ابن عم فلا ترى * من البخل لا سوف تعتل بالشغل

وقال ابن أحمر

هذا الشقاء وأجدر أن صاحبه * وقد يدوم ريق الطامع الأمل

وقال ابن مقبل

هل الدهر الا تارتان فمنهما * أموت وأخري ابتغى العيش أكدح

وقال عمرو بن هند

وان الذي ينها كم عن طلابها * يناغى نساء الحي فى طرة البرد

نعلل والأيام تنقض عمرنا * كما تنقض الايام من طرف الزند

وقال أمية ان كان قالها

ربما تجزع النفوس من الامـ * ـر له فرجة كحل العقال

وقال آخر

رمتني وستر الله بيني وبينها * عشية آرام الكناس رميم

الارب يوم لو رمتني رميتها * ولكن عهدي بالنضال قديم

رميم التى قالت لجارات بيتها * ضمنت لكم ان لا يزال يهيم

وقال آخر

لم أعطها بيدى إذ بت أرشفها * ألا تطاول غصن الجيد للجيد

كما تطاعم فى خضراء ناعمة * مطوقات أصاخت بعد تغريد

فان سمعت بهلك للبخيل فقل * بعدا وسحقا له من هالك مودى

وقال أبو الاسود الدؤلى

المرء يسعى ثم يدرك مجده * حتى يزين بالذي لم يفعل

وترى الشقى اذا تكامل غيه * يرمى ويقذف بالذى لم يعمل

وقال آخر

وان امرأً يمسى ويصبح سالما * من الناس الا ما جنا لسعيد

وقال أكثم بن صيفي

نربى ويهلك آباؤنا * وبينا نربى بنينا فنينا

وقال بعض المحدثين

فالآن أسمحت للخطوب فلا * يلفي فؤادى من حادث يجب

قلبنى الدهر في قوالبه * وكل شيء ليومه سبب

وقال آخر

لدوا للموت وابنوا للخراب * وكلكم يصير إلى التراب

الا ياموت لم أر منك بدا * أبيت فما تخيف ولاتحابى

كانك قدهجمت على مشيبى * كما هجم المشيب على الشباب

وقال منهم آخر

يانفس خوضى بحار العلم أوغوصي * فالناس من بين مغموم ومخصوص

لا شيء في هذه الدنيا يحاط به * الا احاطة منقوص بمنقوص

وأنشد الاحيمر

باقب منطلق اللسان كأنه * سيد تنصل من حجور سعالى

وقال الآخر

يراقب لمحا من سهيل كأنه * اذا مابدا من دجية الليل يطرف

وقالوا قال خلف الاحمر لم أر أجمع من بيت لامرئ القيس وهو قوله

أفاد وجاد وساد وقاد * وعاد وزاد وزاد وأفضل

وقالوا وقال خلف الاحمر لم أر أجمع من بيت امرئ القيس

له ايطلا ظبي وساقا نعامة * وارخاء سرحان وتقريب تتفل

وقالوا ولم نر في التشبيه كقوله حين شبه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين فى بيت

واحد وهو قوله

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالى

وسنذكر قطعة من أشعار النساء قالت اعرابية

رأت نضو أسفار أميمة شاحبا * على نضو أسفار فجن جنونها
فقالت من أى الناس أنت ومن تكن * فانك مولى فرقة وقرينها

وقالت امرأة من خثعم

فان تسألونى من أحب فانني * أحب وبيت الله كعب بن طارق
أحب الفتي الجعد السلولى ناضلا * علي الناس معتادا لضرب المفارق

وقالت أخرى

وما أحسن الدنيا وفي الدار خالد * وأقبحها لما تجهز غاديا

وقالت أم فرق الغطفانية

فما ماء مزن أى ماء نقوله * تحدر من غرطوال الذوائب
بمنعرج أو بطن واد تحدرت * عليه رياح الصيف من كل جانب
نفي نسم الريح القذا عن متونه * فما إن به عيب يكون لعائب
باطيب ممن يقصر الطرف دونه * تقى الله واستحياء بعض العواقب

وقال بعض العشاق

وأنت التى كلفنى دلج السرى * وجون القطا بالجلهتين جثوم
وأنت التى أورثت قلبى حرارة * وقرّحت قرح القلب وهو كليم
وأنت التى أحفظت قلبي فكاهم * بعيد الرضا داني الصدود كظيم

فقالت المعشوقة

وأنت الذى أخلفتني ما وعدتني * وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس حتى تركتني * لهم غرضا أرمى وأنت سليم
فلو ان قولا يكلم الجسم قد بدا * بجلدى من قول الوشاة كلوم

وقال آخر

شهدت وبيت الله انك غادة * رداح وان الوجه منك عتيق
وانك لا تجزينني بمودة * ولا أنا للهجران منك مطيق

فأجابته

شهدت وبيت الله انك بارد ال * ثنايا وان الخصر منك رقيق
وانك مشبوح الذراعين حلجم * وانك إذ تخلو بهن رفيق

وقال كعب بن سعد الغنوي

وحدثمانى إنما الموت بالقرى * فكيف وهاتا هضبة وقليب
وما وسماع كان بين مجمة * بذى شربة تجرى عليه جنوب
ومنزلة فى دار صدق وغبطة * وما أقتات في حكم على طبيب

وقال دريد بن الصمة

رئيس حروب لا يزال ربيئة * مشيح على محرورف الصلب ملبد
صبور على رزء المصائب حافظ * من اليوم اعقاب الاحاديث فى غد
وهون وجدى انى لم أقل له * كذبت ولم أبخل بما ملكت يدى

وقطعة من البديع قولهم

اذا حداها صاحبي ورجما * وصاح فى آثارها فاسمعا
يتبعهن منهن حلالا اتلعا * أدمك فى ماء المهاوى منقعا

وقال الراجز فى البديع المحمود

قد كنت اذ حبل صباك مدمش * واذا أهاضيب الشباب تنعش

ومن هذا البديع المستحسن منه قول حجر بن خالد بن مرثد

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد * كفعل أبى قابوس حزما ونائلا
يساق الغمام الغر من كل بلدة * اليك فأضحى حول بيتك نازلا
فأصبح منه كل واد حللته * وان كان قد حوى المرابيع سائلا
فان أنت تهلك يهلك الباع والندا * وتضحى قلوص الحمد جرباء حائلا
فلا ملك ما يبلغنك سعيه * ولا سوقة ما يمدحنك باطلا

باب فى صدق الظن وجودة الفراسة

قال أوس بن حجر

مليح نجيح أخو مازق * نقاب يحدث بالغائب

وقال أبو الفضة قاتل أحمد بن شميط

فان لا يأتكم خبر يقين * فان الظن ينقص او يزيد

وقيل لابى الهذيل انك اذا راوغت واعتللت وأنت تكلم النظام فاحسن حالاتك ان يشك الناس فيك وفيه قال خمسون شكا خير من يقين واحدوقال كثير في عبدالملك

رأيت أبا الوليد غداة جمع * به شيب وما فقد الشبابا

فقلت له ولا أعيا جوابا * اذا شابت لدات المرء شابا

ولكن تحت ذاك الشيب حزم * اذا ماقال امرض أو أصابا

وليس في جودة الظن بيت شعر أحسن من بيت لبلعا بن قيس

وأبغى صواب الظن اعلم انه * اذا طاش ظن المرء طاشت مقادره

وقال الله عز وجل ولقد صدق عليهم ابليس ظنه وقال ابن أبى ربيعة فى الظن

ودعانى الى الرشاد فؤاد * كان للغى مرة قد دعانى

ذاك دهر لو كنت فيه قريني * غير شك عرفت لي عصيانى

وتقلبت فى الفراش ولا تعـ * ـلم الا الظنون أين مكانى

وقال ابن أبى ربيعة في غير هـذا الباب

وخل كنت عين النصح منه * اذا نظرت ومستمعاً مطيعا

أطاف بغيه فنهيت عنها * وقلت له أرى أمراً شنيعا

أردت رشاده جهدى فلما * أبى وعصى أتيناها جميعا

وقال معبد بن حماد البارقى

الشعر لب المرء يعرضه * والقول مثل مواقع النبل

منها المقصر عن رميته * ونوافذ يذهبن بالخصل

وأبيات للمحدثين قال العتابي

وكم نعمة آتى بها الله جزلة * مبرأة من كل خلق يذيمها
فساط اخلاقا عليها ذميمة * تعاورنها حتى تفرى أديمها
ولوعا وأشفاقا ونطقا من الخنا * بعوراء يجرى في الرجال نميمها
وكنت أمرءًا لو شئت ان تبلغ المدى * بلغت بأذني نعمة تستديمها
ولكن فطام النفس أعسر محملا * من الصخرة الصماء حين ترومها

وقال أيضاً

وكنت امرء هيابة تستفزني * رضاعي بادنى ضجعة تستليها
أوافى أمير المؤمنين بهمة * توغل فى نيل المعالى فنونها
رعي أمة الاسلام فهو امامها * وأدى اليها الحق فهو أمينها
ويستنتج العنقاء حتى كأنما * تغلغل في حيث استقر جنينها
وما كل موصوف له الحق يهتدى * ولا كل من أم الصوى يستبينها
مقيم بمستن العلى حيث تلتقى * طوارق أبكار الخطوب وعونها

وقال الحسن بن هانئ

قولا لهارون امام الهدي * عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحة الفضل واشفاقه * أخلي لهوجهك من حاسد
بصادق الطاعة ديانها * وواحد الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة * ما أنت مثل الفضل بالواجد
أوجده الله فما مثله * لطالب ذاك ولا ناشد
وليس على الله بمستنكر * ان يجمع العالم في واحد

وقال عدي بن الرقاع العاملي

وقصيدة قد بت أجمع بينها * حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته * حتى يقيم ثقافه منادها
وعلمت حتى لست أسأل عالما * عن حرف واحدة لكي ازدادها

صلى الاله على امرئ ودعته ٥ وأتم نعمته عليه وزادها

قال واجتمع ناس من الشعراء بباب عدى بن الرقاع يريدون مما تنته ومساجلته فخرجت اليهم بنت له صغيرة فقالت

تجمعتم من كل أوب ومنزل * على واحد لازلتم قرن واحد

وقال عبد الرحمن بن حسان الانصارى وهو صغير

الله يعلم اني كنت مشتغلا * في دار حسان اصطاد اليعاسيبا

وقال لأبيه وهو صبي ورجع اليه وهو يبكى ويقول لسعني طائر قال فصفه لي يابنى قال كأنه ثوب حبرة قال حسان قال ابنى الشعر ورب الكعبة وكان الذى اسعه زنبور

وقال سهل بن هارون وهو يختلف الى الكتاب لجار لهم

٢ نبت بفلك مبطونا فقلت له * فهل تماثل أو يأتيه عواد

وقال طرفة وهو صغير

يالك من قبرة بمعمر * خلالك الجو فبيضى واصفري

وقال بعض الشعراء

اذا ما مات ميت من تميم * فسرك ان يعيش فجئ بزادى

بخبز أو بلحم أو بسمن * أو الشئ الملفف في البجادى

تراه يطوف بالآفاق حرصا * ليأكل رأس لقمان بن عاد

وقال الاصمعى الشيء الملفف فى البجاد الوطب وقال اعرابى

الا بكرت تلحى قتيلة بعدما * بدا في سواد الرأس أبيض واضح

لتدرك بالامساك والمنع ثروة * من المال أفنتها السنون الجوائح

فقلت لها لا تعذليني فانما * بذكر الندى تبكى على النوائح

وقال بشار أبياتاً تجوز في المذاكرة وفي باب الحزم وفي باب المشورة وناس يجعلونها لغيره وهى قوله

اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن * برأى نصيح أو نصيحة حازم

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة * مكان الخوافى راية للقوادم

وادن من القربى المقرب نفسه * ولا تشهد الشورى امرءً غير كاتم
وما خير كف أمسك الغل أختها * وما خير نصل لم يؤيد بقائم
فانك لا تستطرد الهم بالمنى * ولا تبلغ العليا بغير المكارم

وقال بعض الانصار

وبعض خلائق الاقوام داء * كداء الشيخ له شفاء
وبعض القول ليس له عماد * كمخض الماء ليس له اتاء

وقال تأبط شرا ان كان قالها

شامس فى القر حتى اذا ما * ذكرت الشعرى فبرد وظل
وله طعمان أرىٌ وشرْى * وكلا الطعمين قد ذاق كل
مسبل فى الحى أحوى رفل * واذا يغدو فسمع أزل
ووراء الثار منه ابن أخت * مصع عقدته ما تحل *
مطرق يرشح سما كما * أطرق أفعي ينفث السم صل
* خبر ما نابنا مصمئل * جل حتى دق فيه الأجل
كل ماض قد تردى بماض * كسنا البرق اذا ما يسل
فاسقنيها يا سواد بن عمرو * ان جسمى بعد خالي لخل

وقال سلامة بن جندل

سأجزيك بالود الذى كان بيننا * أصعصع إنى سوف أجزيك صعصعا
سأهدى بتثليث اليك هدية * توافيك لو حلت بيوتك لعلعا
فان يك محموداً أبوك فإننا * وجدناك محمود الخلائق أروعا
فان شئت أهدينا اليك ثنائنا * وان شئت أهدينا لكم مائة معاً

فقال صعصعة بن محمود بن بشر بن عمرو بن مرثد الثناء والحمد والمدح أحب الينا وكان أحمد بن جندل أسيراً فى يده فخلى سبيله من غير فداء وقال أوس بن حجر في هذا الشكل من الشعر وهو يقع فى باب الشكر والحمد

لعمرك ما ملت ثواء ثويها * حليمة اذ ألقي مراسي ومقعد

ولـكن تلقت باليدين ضمانتي * وحـل بفلج فالقنافذ عودى
وقد عبرت شهرى ربيع كليهما * بحمل البلايا والخباء الممددى
ولم تلهها تلك التكاليف انها * كما شئت من أكرومة وتخوّدى
سنجزيك أو يجزيك عنا مثوب * وحسبك أن يثني عليك وتحمد

وقال أبو يعقوب الأعور

فلم أجزه إلا المودة جاهداً * وحسبك مني أن أود وأحمدا

وأشياء تضاف الى الايجاز وحذف الفضول قال بعضهم ووصف كِلاباً فى حال شدها وعدوها وفى سرعة رفع قوائمها ووضعها فقال * كأنما ترفع ما لم يوضع * ووصف آخر ناقة بالنشاط والقوة فقال * إلا أنها صناع * وقال الآخر * الليل أخفى والنهار أفضح * ووصف الآخر فرساً فقال * فى كفه معطية منوع * وقال الآخر

ومهمه فيه السراب يسبح * يداب فيه القوم حتى يطلحوا
* كأنما باتوا بحيث أصبحوا *

ومثل هذا البيت الآخر

وكأنما بدر وصيل كتيفة * وكأنما من عاقل أرمام

ومنه قول الآخر

تجاوزت حمران فى ليلة * وقلت قساس من الحرمل

ومن الباب الأول قوله * عادني الهم فاعتاج * كل هم الى فرج * وهذا الشعر لجعيفران الموسوس وقال الآخر

لم أقض من صحبة زيد أربى * فتى اذا نبهته لم يغضب
أبيض بسام وان لم يعجب * ولا يضن بالمتاع المحقب
موكل النفس بحفظ الغُيَّب * أقصى رفيقيه له كالأقرب

وقال دكين وقد تعلت ذميل العنس * بالسوط فى ديمومة كالترس
* اذ عرج الليل بروح الشمس *

وقال دكين أيضاً

بموطن يميط فيه المحتسى * بالمشرفيات لطاف الأنفس

وقال الراجز

طال عليهن تكاليف السرى * والنص في حين الهجير والضحي

حتى عجاهن فما تحت العجى * رواعف يخضبن مبيض الحصى

وفى هذه الارجوزة يقول

* وضحك البرق بها ثم بكى *

ومن الايجاز المحذوف قول الراجز ووصف سهمه حين رمى عيراً كيف صرعه وهو يقول * حتى نجا من جوفه وما نجا * ومما يجوز في باب الاتعاظ قول المرأة وهي تطوف بالبيت

أنت وهبت الفتية السلاهب * وهجمة يحار فيها الطالب

وغنما مثل الجراد السارب * متاع أيام وكل ذاهب

وقال الفرار وكان سيد عنزة فى الجاهلية

أهلكت مهرى فى الرهان لجاجة * ومن اللجاجة ما يضر وينفع

وقال الاخطل

شمس العداوة حتى يستقاد لهم * وأعظم الناس أحلاماً اذا قدروا

وقال حارثة بن بدر

طربت بغانور وما كدت أطرب * سفاها وقد جربت فيمن يجرب

وجربت ما ذا العيش إلا تعلة * وما الدهر الا منجنون يقلب

وما اليوم إلا مثل أمس الذى مضى * ومثل غد الجائى وكل سيذهب

وقال حارثة بن بدر الفزارى أيضاً

اذا الهم أمسى وهو داء فألقه * ولست بمضيه وأنت تعادله

فلا تنزلن أمر الشديدة بامرئ * اذا رام أمراً عوقته عواذله

وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة * من الروع افرخ أكثر الروع باطله

وقال الحارث بن يزيد وهو جد الاحيمر السعدى وهو يقع في باب الغزو وتمدحهم ببعد المغزى

لالا أعق ولا أحو * ب ولا أغير على مضر
لكنما غزوى اذا * ضج المطي من الدبر

وقال ابن مخفض المازنى

ان تك درعى يوم صحراء كلبة * أصيبت فما ذاكم على بعار
ألم تك من أسلابكم قبل ذاكم * على وقابوس ويوم سفار
ونحن طردنا الحي بكر بن وائل * الى سنة مثل الشهاب ونار
وموم وطاعون وحمى وحصبة * وذى لبد يغشى المهجهج ضارى
وحكم عدو لا هوادة عنده * ومنزل ذل في الحياة وعار

وقال آخر

خذوا العقل ان أعطاكم القوم عقلكم * وكونوا كمن سيم الهوان فأتبعا
ولا تكثروا فيها الضجاج فانه * محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

وقال أبو ليلى

كأن قطاتها كردوس فحل * مقاصة على سلفى ظليم

وقال أبو سليمى

لا بد للسود من أرماح * ومن سفيه دائم النباح
* ومن عديد يتقى بالراح *

وقال الهذلي وان سيادة الاقوام فاعلم * لها صعداء مطلبها طويل

وقال الحارث بن بدر وأنشده سفيان بن عيينة

خلت الديار فسدت غير مسود * ومن الشقاء تفردى بالسودد

وقال أبو نخيلة

وان بقوم سودوك لفاقة * الى سيد لو يظفرون بسيد

وقال إياس بن قتادة فى الاحنف بن قيس

وان من السادات من لو أطعته * دعاك الى نار يفور سعيرها

وقال آخر

فأصبحت بعد الحلم في الحي ظالماً * تخمط فيهم والمسود يظلم

وقال حميصة بن حذيفة

أيظلمهم قسراً فتباً لسعيه * وكل مطاع لا أبالك يظلم

وكان أنس بن مدركة يقول

عزمت على إقامة ذي صباح * لأمر ما يسوَّد من يسود

وقال آخر

إني رأيت أبا العوراء مرتفقاً * بشط دجلة يشرى التمر والسمكا
كشدة الخيل تبقى عند مذودها * والموت أعلم اذ قفي بمن تركا
هذه مساعيك فى آثار سادتنا * ومن تكن أنت ساعيه فقد هلكا

وقال شتيم بن خويلد

* وقلت لسيدنا يا حليـ * ـم انك لم تأس أسوا رفيقا
أعنت علينا على شأوها * تعادي فريقاً وتبقى فريقاً
زجرت بها ليلة كلها * فجئت بها مريداً حنفقيقا

وقال آخر

أتيت ابن قشراء العجان فلم أجد * لدى بابه إذناً يسر ولا نزلا
وإن الذي ولاك أمر جماعة * لأنقص من يمشي على قدم عقلا

وقال آخر

ورثنا المجد عن آباء صدق * أسأنا في ديارهم الصنيعا
اذا المجد الرفيع تعاورته * بناة السوء أوشك أن يضيعا

وقال الآخر

اذا المرء أثرى ثم قال لقومه * أنا السيد المفضي اليه المعمم
ولم يعطهم خيراً أبوا أن يسودهم * وهان عليهم رغمه وهو أظلم

وقال الآخر

تركت لبحر درهميه ولم يكن * ليدفع عني خلني درهما بحرى

فقلت لبحر خذهما واصطرفهما * وأنفقهما فى غير حمد ولا أجر

أتمنع سؤال العشيرة بعد ما * تسميت بحراً واكتنيت أبا الغمر

وقال الهذلى

وكنت اذا ما الدهر أحدث نكبة * أقول شوى مالم يصبن صميمي

وقال آخر فى غير هذا الباب

سقى الله أرضاً يعلم الضب انها * بعيد من الادواء طيبة البقل

بنا بيته في رأس نشز وكدية * وكل امرئ فى حرفة العيش ذو عقل

وحدثني المكى قال نظر أبو الحارث الى برذون يستقى عليه ماء فقال المرء حيث يضع نفسه هذا لو قد هملج لم يبتل بما ترى وقال عبد العزيز بن زرارة الكلابي

وما لبث اللبيب بغير حظ * بأغني فى المعيشة من فتيل

رأيت الحظ يستر كل عيب * وهيهات الحظوظ من العقول

وقال الآخر

ذهب الذين أحبهم سلفاً * وبقيت كالمقهور فى خلق

من كل مطوى على حنق * متضجع يكفي ولا يكفى

وقال آخر

ومولى كعبد العين أما لقاؤه * فيرضى وأما غيبه فظنون

ويقال للمرائى ولمن اذا رآى صاحبه تحرك له وأراه الخدمة والسرعة في طاعته فاذا غاب عنه وعن عينه خالف ذلك إنما هو عبد عين وقال الله عز وجل (ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً) وقد ذكرنا أبياتاً تضاف الى الإيجاز وقلة الفضول ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن لتعرف بها ما بين الايجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات فاذا قرأتها رأيت فضلها في الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ

القليلة فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة فقال (لا مقطوعة ولا ممنوعة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني وقال اعرابى من بني أسد

يقولون ثمر ما استطعت وانما * لوارثه ما ثمر المال كاسبه
فكله واطعمه وخالسه وارثا * شحيحا ودهرا تعتريك نوائبه

وقال رجل من بني عبس

أبلغ فؤادى لقد حركتموا رجلا * لا يعرف النصف بل قد جاوز النصفا
كان امرأ ثائراً والحق يغلبه * فجانب السهل سهل الحق واعتسفا
وذاكم أن ذل الجار حالفكم * وان انفكم لا يعرف الأنفا
ان المحكم ما لم يرتقب حسبا * أو يرهب السيف أوحد القنا جنفا
من لاذ بالسيف لاقى قرضه عجبا * موتاً على عجل أو عاش منتصفا
بيعوا الحياة بها إذنام طالبها * إما رواحاً وإما ميتة أنفا *
ليس امرؤ خالداً والموت يطلبه * هاتيك أجساد عاد أصبحت جيفا
أبلغ لديك أبا كعب مغلغلة * ان الذي بيننا قد مات أو دنفا
كانت أمور فجابت عن حلومكم * ثوب العزيمة حتى انجاب وانكشفا
إني لأعلم ظهر الضغن أعدله * عنى واعلم أين آكل الكتفا

وقال أسقف نجران

منع البقاء تصرف الشمس * وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها بيضاء صافية * وغروبها صفراء كالورس
اليوم اعلم ما يجيء به * ومضي بفصل قضائه أمس

وقال آخر

وكل ذى غيبة يؤوب * وغائب الموت لا يؤوب
من يسأل الناس يحرموه * وسائل الله لا يخيب

أفلح بما شئت فقد يبلغ ٭ بالضعف وقد يخدع الأريب
المرء ما عاش في تكذيب ٭ طول الحياة له تعذيب

وقال آخر

اذا الرجال ولدت أولادها ٭ واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أوصابها تعتادها ٭ فهى زروع قد دنى حصادها

وقالت بنت عيسى بن جعفر وكانت ملكها محمد المخلوع حين قتل

أبكيك لا للنعيم والأنس ٭ بل للمعالى والرمح والفرس
أبكي على فارس فجعت به ٭ أرملني قبل ليلة العرس

وقال سلم الخاسر

تبدت فقلت الشمس عند طلوعها ٭ بجيد نقى اللون من أثر الورس
فلما كررت الطرف قلت لصاحبي ٭ على مرية ما هاهنا مطلع الشمس

وقال الآخر

كفى حزناً بدفنك ثم أنى ٭ نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت فى حياتك لي عظات ٭ وأنت اليوم أوعظ منك حيا

باب من المديح بالجمال وغيره

قال مزاحم العقيلي

يزين سنا الماذيّ كل عشية ٭ على غفلات الزين والمتحمل
وجوه لو أن المدلجين اعتشوا بها ٭ صدعن الدجي حتى ترى الليل ينجلي

وقال الشمردل

اذا جرى المسك يندي فى مفارقهم ٭ راحوا كأنهم مرضى من الكرم
يشبهون ملوكاً من تجلتهم ٭ وطول أنضية الأعناق واللمم

وقال القتال الكلابي

ياليتني والمنا ليست بنافعة * لمالك أو لحصن أو اسيار
طوال أنضية الاعناق لم يجدوا * ريح الاماء اذا راحت بازفار
لم يرضعوا الدهر الأثدي واضحة * لواضح الوجه يحمي باحة الدار

وقال آخر

اذا كان عقل قلتم ان عقلنا * الى الشاء لم تحلل علينا الاباعر
وان امرءً بعدى يبادل ودكم * بود بني ذبيان مولى لخاسر
أولئك قوم لايهان هديهم * اذا صرحت كحل وهبت أعاصر
مداليف بالخيل العتاق اذا عدوا * بايديهم خطية وبواتر

وقال أبو الطمحان القيني في المعني الذي ذكرنا

كم فيهم من سيد وابن سيد * وفى بعقد الجارحين يفارقه
يكاد الغمام الغرير عدان رآي * وجوه بني لأم وينهل بارقه

وقال لقيط بن زرارة

وانى من القوم الذين عرفتم * اذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غار كوكب * بدا كوكب تأوى اليه كوا كبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم * دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

وقال بعض التميميين يمدح عوف بن القعقاع بن معبد بن زرارة

بحق إمرئ مرو عتيبة خاله * وأنت لقعقاع وعمك حاجب

وقال طفيل الغنوى

وكان هريم من سنان خليفة * وعمرو ومن أسماء لما تغيبوا
نجوم ظلام كلما غاب كوكب * بدا ساطعاً فى حندس الليل كوكب

وقال الخزيمي يمدح بنى خزيم من آل سنان بن أبى حارثه

بقية أقوام من العز لو خبت * لظلت معد فى الدجى تتكسع
اذا قمر منهم تغور أو خبا * بدا قمر في جانب الليل يلمع

وقال بعض غني وهو يمدح جماعة أخوة أنشدنيها أبو قطن الذى يقال له شهيد الكرم

خير ثناءى بني عمرو فانهم * أولو فضول وانفال واخطار
ان يسألو الخير يعطوه وان جهدوا * فالجهد يخرج منهم طيب أخبار
وان تودتهم لانوا وان شهموا * كشفت اذمار حرب غير أغمار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقال رجل من بني نهشل

انى لمن معشر أفنى أوائلهم * قيل الكماة الا أين المحامونا
لو كان في الالف منا واحد فدعوا * من فارس خالهم إياه يعنونا
وليس يذهب منا سيد أبداً * الا افتلينا غلاما سيدا فينا

وفى المعنى الاول يقول النابغة الذبياني

وذاك لان الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب * اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وفي غير ذلك من المديح يقول الشاعر

وأتيت حياً في الحروب محلهم * والجيش باسم أبيهم يستهزم

واذا قام بالدعوى خامل الذكر والنسب فلا يحسده من أكفائه أحد وأما مذكور بيمن النقيبة وبالظفر المتتابع فذلك أجود ما يكون وأقرب الى تمام الامر وقال الفرزدق

تذكر حبي ودبكر بن وائل * وما كان ودى عنهم يتصرم
قوارص تأتيني ويحتقرونها * وقد يملا القطر الاناء فيفعم

وقال الفرزدق

وقالت أراه واحداً لا أخاله * يؤمله فى الوارثين الاباعد [1]
لعلك يوماً ان تراني كأنما [2] * بني حوالى الاسود الحوارد
فان تميما قبل ان يلد الحصا * أقام زماناً وهو في الناس واحد

وقال الفرزدق أيضاً

فان كان سيف خان أو قدراتي * لميقات يوم حتفه غير شاهد

---

(١) وروي يؤمله يوماً ولا هو والد (٢) وروي فقلت عسي أن تبصريني كانما

فسيف بني عبس وقد ضربوا به * نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها * ويقطعن احيانًا مناط القلائد

وان أحببت ان تروى من قصار القصائد شعراً لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق فانك لم تر شاعراً قط يجمع التجويد فى القصار والطوال غيره وقد قيل للكميت الناس يزعمون انك لاتقدر على القصار قال من قال الطوال فهوعلى القصار أقدر هذا الكلام يخرج في ظاهر الرأى والظن ولم نجد ذلك عند التحصيل على ماقال وقيل لعقيل بن علفة لم لا تطيل الهجاء قال يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق وقيل لجرير الى كم تهجوا الناس قال اني لا أبتدى ولكنى أعتدى وقيل له لم لا تقصر قال الجماع يمنع الاذى قال عبيد بن الابرص

نبئت أن بنى جديلة أوعبوا * من ٢ سلمى لنا وتنكبوا
وأبوا الفراخ على خشاش هشيمة * متنكب إبط الشمائل ينعب
ظعنوا بمران الوشيج فما ترى * خلف الاسنة غير عرق يشخب
وتبدلوا اليعبوب بعد الههم * صنما ففروا يا جديل وأوعبوا

وقال آخر

ألم تر حسان بن ميسرة الذى * يجوع الى جيرانه كيف يصنع
متى ريب ما تنفك منه عصابة * اليه سراعاً يحصدون ويزرع

وقال آخرمثل قوله * يريد ان يعربه فيعجمه * وقال آخر * كان من يحفظها يضيعها * وقال آخر * أهوج لا ينفعه التثقيف * وقال بعض المحدثين

اذا حاولوا ان يشعبوها رأيتها * مع الشعب لا تزدادالا تداعيا

وقال صالح بن عبد القدوس

والشيخ لايترك أخلاقه * حتى يواري في ثرى رمسه
اذا أرعوي عاد الى جهله * كذى الضنا عاد الى نكسه

ومثل هذا قوله

وتروض عرسك بعد ماهرمت * ومن العناء رياضة الهرم

وقال الحسن بن عرفطة

ليهنيك بغض فى الصديق وظنه * وتحديثك الشئ الذى أنت كاذبه
وانك مشنوء الى كل صاحب * قلاك ومثل الشريكره جانبه
وانك مهداء الخنا نطف الثنا * شديد السباب رافع الصوت غالبه
فلم أر مثل الجهل يدعو الى الرخا * ولا مثل بغض الناس غمض صاحبه

وقال الاصمعى قال الزبرقان بن بدر خصلتان كبيرتان في أمرئ السوء شدة السباب وكثرة اللطام وقال ابن نضلة

لعمري لرهط المرء خير بقية * عليه ولو عالوا به كل مركب
من الجانب الاقصي وان كان ذانداً * كثيراً ولا ينبيك مثل المجرب
اذا كنت فى قوم عدى لست منهم * فكل ما علفت من خبيث وطيب
فان تلتبس بى خيل دودان لا ارم * وان كنت ذا ذنب وان غير مذنب

قال ولما تأذى الأضبط بن قريع فى بنى سحيم تحول عنهم الى آخرين فآذوه فقال بكل واد بنو سعد وقال سحيم بن وثيل

الا ليس زين الرحل قطع ونمرق * ولكن زين الرحل يامى راكبه

وقال اعرابى

فما وجد ملواح من الهيم خليت * عن الماء حتى جوفها يتصلصل
تحوم وتغشاها العصي وحولها * أقاطيع انعام تعل وتنهل
بأكثر مني غلة وتقطعا * الى الورد الا انني أتجمل

وقال خالد بن علقمة بن الصهبان فى عيب أخذ العقل والرضى بشئ دون الدم فقال

وان الذي أصبحتم تحلبونه * دم غير ان اللون ليس بأحمرا
فلا توعدوا أولاد حيان بعدما * رضيتم وحولتم بسالة مشقرا
وأحكم فرداً يقصم الفيل جالباً * اذا عب منها فى النقيبة بربرا
اذا سكبوا فى العقب من ذى إنائهم * رأوا لونه فى العقب ورداً وأشقرا

باب آخر

﴿ في مثل ذلك من الغضب وفي ذكر الجنون في المواضع التي يكون ذكره فيها محموداً ﴾

قال الاشهب بن رميلة في ذلك

هـذ المقادة من لا يستقيد لها * وأعصوصب السير وارتد المساكين
من كل أشعث قد مالت عمامته * كانه من ضرار الضيم مجنون

وقال في شبيه ذلك أبو الغول الطهوى

فدت نفسى وما ملكت يميني * معاشر صدقت فيهم ظنونى
معاشر لا يملون المنايا * اذا دارت رحي الحرب الطحون[1]
ولا يجزون من خير بشر[2] * ولا يجزون من غلظ بلين
ولا تبلى بسالتهم وان هم * صلوا بالحرب حيناً بعد حين
هم أحموا[3] حمى الوقبا بضرب * يؤلف بين أشتات المنون
فنكب عنهم درء الاعادي * وداووا بالجنون من الجنون

وقال ابن الطثرية

حمراء تامكة السنام كأنها * جمل بهودج أهله مظعون
جادت بها يوم الوداع يمينه * كلتا يدى عمرو الغداة يمين
ما إن يجود بمثلها فى مثلها * الا كريم الخيم أو مجنون

وفى هـذا المعنى يقول حسان أو ابنه عبد الرحمن بن حسان

ان شرخ الشباب والشعر الاسـ * ـود مالم يعاص كان جنونا
ان يكن غث من رقاش حديث * فبما نأكل الحديث سمينا

وفى شبيه بذلك قول الشنفرى

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت * فلو جن انسان من الحسن جنت

وقال القطامى حين وصف افراط ناقته فى المرح والنشاط

---

(١) وروي الزبون (٢) وروي ولا يجزون من حسن بسوء (٣) وروى منعو

يتبعن نامية العينين تحسبها * مجنونة أو ترى مالا ترى الابل

وقال ابن احمر في معنى التشبيه والاشتقاق

بهجل من قساذفر الخزامى * تهادى الجربياء به الحنينا
تفقأ فوقه القلع السوارى * وجن الخازباز به جنونا

وفى مثل ذلك يقول الأعشى

واذا الغيث صوبه وضع القد * ح وجن التلاع والآفاق
لم يزدهم سفاهة نشوة الخمـ * ـر ولا اللهو فيهم والسباق

وقال آخر في باب المزاح والبطالة مما أنشدنيه أبو الاصبع بن ربعى

أتونى بمجنون يسيل لعابه * وماصاحبي الا الصحيح المسلم

وأنشد ابراهيم بن هانيء وعبد الرحمن بن منصور

جنونك مجنون ولست بواجد * طبيبا يداوى من جنون جنون

وكان ابراهيم لا يقيم شعرا ولا أدرى كيف أقام هذا البيت وكان يدعى بحضرة أبى اسحاق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون وانه يقول الشعر فقال أبو اسحاق نحن لم نمتحنك في هذه الامور فلك أن تدعيها عندنا كيف صرت تدعى قول الشعر وأنت اذا رويته لغيرك كسرته قال فإنى هكذا طبعت أن أقيمه اذا قلت وأكسره اذا أنشدت قال أبو اسحاق ما بعد هذا الكلام كلام وقلت لاعرابى أيما أشد غلمة المرأة أو الرجل فأنشد

فوالله ما أدرى وإنى لسائل * أ ألاير أدنى للفجور أو الحر
وقد جاء هذا مرخيا من عنانه * وأقبل هذا فاتحا فاه يهبر

وأنشد بعضهم

أصبح الشيب في المفارق شاعا * واكتسي الرأس من بياض قناعا
ثم ولى الشباب الا قليلا * ثم يأتي القليل الا نزاعا

وانشد محمد بن يسير

قامت تخاصرنى لقبتها * خودتا طرنا عم بكر

كل يرى ان الشباب له * في كل مبلغ لذة عذر

وقال الآخر في خلاف ذلك انشدنيه محمد بن هاشم السيدرى

فلا تعذرانى في الإساءة انه * أشر الرجال من يدىء فيعذر

وقال ابن قترب

فليت قلوصى عريت اذ رحلتها * الى حرمىّ دارمىّ بن جعفر
الى معشر لا يخصفون نعالهم * ولا يلبسون السبت مالم يخصر

وقال الطرماح بن حكيم وهو أبو نقير

لقد زادنى حبا لنفسى اننى * بغيض الى كل امرىء غير طائل
اذا ماراآنى قطع الطرف بينه * وبينى فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الارض حتى كأنها * من الضيق فى عينه كفة حائل

وقال آخر

اذا أبصرتني أعرضت عني * كأن الشمس من قبلي تدور

وقال الخزيمي وذكر عماه

أصغى إلى قائدى ليخبرنى * اذا التقينا عمن يحييني
أريد أن أعدل السلام وان * أفصل بين الشريف والدون
أسمع مالا أرى فأكره ان * أخطى والسمع غير مأمون
لله عينى التى فجعت بها * دهرا تولى فما تواتينى
لو كنت خيرت ما أخذت بها * تعمير نوح فى ملك قارون

وقال بعض القدماء

ألم تر حوشباً أضحى يبنّي * قصورا نفعها لبني نفيله
يؤمل أن يعمر عمر نوح * وأمر الله يحدث كل ليله

وقال أبو يعقوب الخزيمى

إن ياخذ الله من عينى نورهما * فني لسانى وقلبي منهما نور
قلبي ذكى وعقلى غير ذى دخل * وفي فمى صارم كالسيف مأثور

وقال بعض الاعراب يذكر الخصب والجدب

مطرنا فلما أن روينا تهادرت * شقاشق فيها رائب وحليب
ورابت رجالا من رجال ظلامة * وعدت ذحول بينهم وذنوب
ونصت ركاب للصبي فتراجعت * لهن بما هاج الحليب خبيب
وظن فناء الحي حتى كأنه * رحي منهل من كرهن نحيب
بني عمنا لا تعجلوا ينضب الثرى * قليلا ويشفى المترفين طبيب
فلو قد تولى النبت وابتزت القوى * وحنت ركاب الحي حين تثوب
وصار عنوق الجود وهي كريمة * على أهلها ذو جدتين عشوب(١)
أولئك أيام تبين ما الفتى * أكاب سكيت أم أشم نجيب

وقال ولما ولى حارثة بن بدر سرف كتب اليه أنس بن أبي إياس

أحار بن بدر قد وليت ولاية * فكن جرذاً فيها تخون وتسرق
وباه تميماً بالغنى إن للغني * لسانا به المرؤ الهيوبة ينطق
فان جميع الناس إما مكذب * يقول بما يهوى وإما مصدق
يقولون أقوالا ولا يعرفونها * ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

وقال بعض الاعراب

فلما رأينا القوم ساروا بجمعهم * رعينا الحديث وهو فينا مضيع
وأدركنا من عز قيس حفيظة * ولا خير فيمن لا يضر وينفع

ويقال ان رجلا قال لبعض السلاطين الدنيا بما فيها حديث فان استطعت ان تكون من أحسنها حديثاً فافعل وقال حذيفة بن بدر لصاحبه يوم جفر الهباة حين أعطاهم بلسانه ماأعطا اياك والكلام السائر وأنشد الاصمعى

كل يوم كأنه يوم أضحى * عندعبدالعزيز أ ويوم فطر

وقال وذكر لى بعض البغداديين أنه سمع مدنيا مر بباب الفضل بن يحيي وعلى بابه جماعة من الشعراء فقال

(١) كذا بالاصل فليحرر

مالقينا من جود فضل بن يحيي * ترك الناس كلهم شعراء

وقال الاصمعي قال لى خلف الاحمر الفارسى اذا تطرف تساكت والنبطي اذا تطرف أكثر الكلام وقال الاصمعى لاعرابى كيف فلان فيكم قال مرزوق أحمق قال هذا الرجل الكامل قال وقال اعرابى لرجل كيف فلان فيكم قال غني حظي قال هذا من أهل الجنة (الاصمعي) قال أخبرنى جوسق قال كان يقال بالبدو اذا ظهر البياض قل السواد واذا ظهر السواد قل البياض قال الاصمعى يعني بالسواد التمر وبالبياض اللبن والا قط يقول اذا كانت السنة مخصبة كثر الاقط واللبن وقل التمر واذا كانت السنة مجدبة كثر التمر وقل اللبن وقال اذا كان العام خصبا ظهر البياض يعني الاقط واذا كان جدباً ظهر السواد يعنى التمر وتقول الفرس اذا زخرت الأودية بالماء كثر السمن واذا اشتدت الرياح كثر الحب وحدثني محمد بن سلام عن شعيب بن حجر قال جاء رجل على فرس فوقف بماء من مياه العرب فقال أعندكم الريح التى تكب البعير قالوا لا قال فتذرى الفارس قالوا لا قال فكما تكون يكون مطركم وحدثني العتبي قال هجمت على بطن بين جبلين فلم أر واديا أخصب منه واذا رجال يتوكأون على مساحيهم واذا وجوه مهجنة وألوان فاسدة فقلت واديكم أخصب واد وأنتم لاتشبهون المخاصب قال فقال شيخ منهم ليس لنا ريح وقال النمر بن تولب

كأن حمدة أو عزت لها شبها * في العين يوما تلاقينا بأرمام
ميثاء جاد عليها وأبل هطل * فأمرعت لاحتيال بعد أعوام
إذا يجف ثراها بلها ديم * من كوكب بزل بالماء سجام
لم يرعها أحد واربتها زمنا * فأومن الارض محفوفا باعلام
تسمع للطير فى حافاتها زجلا * كأن أصواتها أصوات حوام
كأن ريح خزاماها وحنوتها * باثليل ريح يلتجوج وأهضام

قال فلم يدع معني من أجله يخصب الوادي ويتم نبته إلا ذكره وصدق النمر وقال الاسدى فى ذكر الخصب ورطوبة الاشعاب ولدونة الاغصان وكثرة الماء

وكأن أرجلنا بجو محصب * بلوى عنيزة من مقيل الترمس
فى حيث خالطت الخزامي عرفجا * يأتيك قابس أهلها لم يقبس

ذهب الى أنه قد بلغ من الرطوبة في أغصانه وعيدانه انها إذا حك بعضها ببعض لم يقدح وفي شبيه بذلك يقول الآخر وذهب إلى كثرة الالوان والازهار والانوار

كأنها من زبل وشاره * والحلى حلي التبر والحجاره

* مدفع ميثاء الى قراره *

وقال بشار وحديث كأنه قطع الرو * ض وفيه الحمراء والصفراء

﴿ باب من الفطن وفهم الرطانات والكنايات والفهم والافهام ﴾

(الاصمعى) قال كانت امرأة متنحية من الحى وتحب العزلة وكان لها غنم فطرقها اللصوص فقالت لابنتها اخرجي من ها هنا حيان والحمارس وعامراً والحارث وراس عتر وبارق وراعينا بيهسا فلما سمعوا ذلك ظنوا أن عندها بنيها وقال الاصمعي مرة فلما سمعت حسهم قالت اخرجى سلح بني من ها هنا قال وسلح جمع سلاح وحيان والحمارس أسماء تيوس لها قال الاصمعي تزوج رجل امرأة فساق اليها مهرها ثلاثين شاة وبعث بها رسولا وبعث بزق خمر فعمد الرسول فذبح شاة فى الطريق فأكلها وشرب بعض الزق فلما أتى المرأة نظرت الى تسع وعشرين ورأت الزق ناقصاً فعلمت أن الرجل لا يبعث إلا بثلاثين وزقا مملوءً فقالت للرسول قل لصاحبك إن سحيما قد رثم وإن رسولك جاءنا فى المحاق فلما أتاه الرسول بالرسالة قال ياعدو الله أكلت من الثلاثين شاة شاة وشربت من رأس الزق فاعترف (الاصمعي) قال أخبرني شيخ من بنى العنبر قال أسر بنوا شيبان رجلا من بني العنبر قال دعونى حتى أرسل إلى صاحبي يفدونى قالوا على أن لا تكلم الرسول إلا بين أيدينا قال نعم قال فقال للرسول إئت أهلى فقل إن الشجر قد أورق وقل إن النساء قد اشتكت وجررت القرب ثم قال له أتعقل قال نعم قال إن كنت تعقل فما هذا قال الليل قال أراك تعقل انطلق الى أهلى فقل لهم عروا جملى الاصهب واركبوا ناقتى الحمراء وسلوا حارثا عن أمري وكان حارث صديقا له فذهب الرسول فأخبرهم فدعوا حارثا فقص عليه الرسول القصة فقال أما قوله إن

الشجر قد أورق فقد تسلح القوم وأما قوله إن النساء قد اشتكت وجررت القرب فيقول قد اتخذت الشكا وجررت القرب للغزو وأما قوله هذا الليل فانه يقول أتاكم جيش مثل الليل وأما قوله عروا جمالي الاصهب فيقول ارتحلوا عن الصمان وأما قوله اركبوا ناقتي الحمراء فيقول انزلوا الدهناء وكان القوم قد تهيئوا لغزوهم نخافوا أن ينذرهم وهم لا يشعرون فجاء القوم يطلبونهم فلم يجدوهم وكذلك صنع العطاردى فى شأن جبلة وهو كرب بن صفوان وذلك أنه حين لم يرجع لهم قولا حين سألوه أن يقول ورمى بصرتين فى إحداهما شوك والاخرى تراب فقال قيس بن زهير هذا رجل مأخوذ عليه ان لا يتكلم وهو ينذركم غدرا وشوكة قال الله عز وجل (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) قال ابن نخيلة

لما رأيت الدين دينا يؤفك * وأمست القبة لا تمسك
يفتق من أعراضها أويهتك * سرت من الباب قطارد كدك
منها الدجوجي ومنها الارمك * كالليل إلا أنها تحرك

وقال منصور النمري

ليل من النقع لا شمس ولا قمر * إلا جبينك والمدرية الشرع

وقال آخر كأنهم ليل اذا استفزوا * أو لجة ليس لها ساحل

وقال آخر كأنما نهاره إذا جهر * ليل وزور وعرة اذا وعر

سار سرى من قبل العير فجر

وفي هذا الباب وليس منه يقول بشار

كأنما النقع يوماً فوق أرؤسهم * سقف كواكبه البيض المباتير

وهذا المعنى قد غلب عليه بشار كما غلب عنترة على قوله

فترى الذباب بها يغني وحده * هزجا كفعل الشارب المترنم
غرداً يحك ذراعه بذراعه * فعل المكب على الزناد الاجذم

فلو ان امرأ القيس عرض في هذا المعنى لعنترة لافتضح وقال بعضهم غير هذا

وفلاة كأنما اشتمل الليـ * ـل على ركبها بابناء حام

خضت فيها الى الخليفة بالشـ * رفة بحري ظهـيرة وظلام

وقال آخر

سـميتني خلقا بخلة قدحت * ولا جديد اذا لم يلبس الخلق

ياأيهـا المتحلى غـير شـيمته * ومن خلائقه الاقصاد والملق

ارجع الى خيمك المعروف ديدنه * ان التخلق يأتي دونه الخلق

وقال آخر

أودى الخيار من المعاشر كلهم * واستب بعدك يا كليب المجلس

وتنازعوا فى كل أمر عظيمة * لو قد تكون شهدتهم لم ينبسوا

وأبيات أبي نواس على أنه مولد شاطر أشعر من شعر مهلهل فى إطراق الناس في مجلس كليب وهو قوله

على خبز اسماعيل واقيـة البخل * وقد حل فى دار الأمان من الا كل

وما خـبزه الا كآوى يرى ابنها * ولم ترآوى فى الحزون ولا السهل

وما خـبزه الا كعنقاء مغرب * تصور فى بسط الملوك وفى المثل

يحدث عنها الناس من غير رؤية * سوي صورة ما ان تمر ولا تحلى

وما خـبزه الا كليب بن وائل * ليالى يحمى عزه منبت البقل

واذ هو لا يستب خصمان عنده * ولا القول مرفوع بجد ولا هزل

فان خبز اسماعيل حـل به الذى * أصاب كليباً لم يكن ذاك عن بذل

ولـكن قضاء ليس يسطاع دفعه * بحيلة ذى دهي ولا فكر ذى عقل

والقصيدة هذه احتشم منها ولا أطاب الخصومة فيها اذ عامة العرب والاعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من شعراء الامصار والقرى من المولدة والثانية ٢ وليس ذلك بواجب لهم فيما قالوه وقد رأيت نشأتهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط الا في راوية للشعر غير بصير بجوهر مايروى ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أى زمان كان وأنا قد سمعت أباعمرو وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد يوم الجمعة ان كاف رجلا حتى أحضره دواة

وقرطاسا حتى كتبتهما له وأنا أزعم ان صاحب هذين البيتين لايقول شعراً أبدا ولولا ان أدخل في بعض القيل لزعمت ان ابنه أشعر منه وهما قوله

لاتحسبن الموت موت البلي * وانما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ولكن ذا * أفظع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ الى إستحسان المعنى والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى وانما الشأن فى اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة السبك فانما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير وقد قيل للخليل بن أحمد مالك لاتقول الشعر قال الذى يجيئني لا أرضاه والذى أرضاه لايجيئني فانا أستحسن هذا الكلام كما استحسن جواب الاعرابى حين قيل له كيف تجدك قال أجد مالا أشتهى وأشتهى مالا أجد وقيل لابن المقفع مالك لاتجود البيت والبيتين والثلاثة قال ان جودتها عرفوا صاحبها فقال له السائل وما عليك ان تعرف بالطوال الجياد ونقول ان الفرق بين المولد والاعرابى أن المولد يقول بنشاطه وجميع باله فيشبه اللاحقة باشعار أهل البدو واذا أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه وفي شبيه بمعنى مهلهل وأبى نواس فى التعظيم والاطراق عند السادة يقول الشاعر في بعض بني مروان

في كفه خيزران ريحه عبق * فى كف أروع في عرنينه شمم

يغضى حياء ويغضي من مهابته * فما يكلم الا حين يبتسم

ان قال قال بما يهوي جميعهم * وإن تكلم يوماً ساخت الكلم

كم هاتف بك من داع وهاتفة * يدعوك ياقثم الخيرات ياقثم

وقال أبو نواس في مثل ذلك

فترى السادات مائلة * لسليل الشمس من قمره

فهم شتى ظنونهم * حذر المطوى من خبره

وقال ابراهيم بن هرمة في مديح المنصور وهو شبيه بهذا وليس منه

له لحظات فى خفا من سريره * اذا كرّها فيها عقاب ونائل

فأم الذى أمنت آمنتة الردى * وأم الذي أوعدت بالثكل ثاكل

وقال مهلهل وهو يقع في باب حلف وكّد بعقد

دفعت عنه الرماح مجتهـداً * حفظا للحلف وحفظ ذي يمني
أذكر من عهدنا وعهدهم * عهداً وثيقاً بمنحر البدن
ما بل بحر كفا بصوفتها * وما أناف الصخور من حصن
يزيده الليل والنهار معا * شدا خراط الجموع فى الشطن

وقال ضابئ بن حينا التغلبي

ولسنا كأقوام قريب محلهم * ولسنا كمن يرضيكم بالتملق
فسائل شريكا نائباً ومحكماً * غداة نكر الخيل في كل خندق
لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا * لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مغضبا * فأمسك من ندمانه بالمخنق
وعممه عمداً على الراس ضربة * بذى شطب صافى الحديد محقق

وقال المتلمس

على كلهم آسي وللاصل زلمة * فزحزح عن الادنين أن يتصدعوا
وقد كان اخوانى كريما جوارهم * ولكن أصل العود من حيث ينزع

وقال المتلمس

ولو غير اخوالى أرادوا نقيصتى * جعلت لهم فوق العرانين ميسما
وما كنت إلا مثل قاطع كفه * بكف له أخرى فأصبح أجـذما
يداه أصابت هذه حتف هـذه * فلم تجـد الاخرى عليها مقـدما
فأطرق إطراق الشجاع ولو يري * مساغا لنابيـه الشجاع لصمما
أحارث إنا لو تساقط دماؤنا * تزايلن حتى لا يمس دم دما

قال وسألت عن قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لابى مريم الحنفي والله لأنا أشد بغضاً لك من الأرض للدم قال لأن الدم الجارى من كل شئ بين لا يغيض فى الارض ومتى جف ففرقته رأيت مكانه أبيض الا أن صاحب المنطق قال فى كتابه

في الحيوان كذلك الدماء الادم البعير وقال النمر بن تولب

إذا كنت في سعد وأمك منهم * غريباً فلا تغررك أمك من سعد

وقال وإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه * إذا لم يزاحم خاله بأب جلد

وقال آخر

تخيره الله الغداة لدينه * على علمه والله بالعلم أفرس

وقال آخر

وما ترك الهاجون لي في أديمكم * مصحاً ولكنى أرى مترقعاً

وقال العجلي أو الكلبي لنوح بن جرير

ولقد رأونا والقضا متخون * يا نوح إن أباك لا يوفينا

وقال عمرو بن معد يكرب

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

وصله بالزماع فكل أمر * سما لك أو سموت له ولوع

وقال المقنع الكندي

وصاحب السوء كالداء العياء إذا * ما ارفض في الجوف يجري ها هنا وهنا

ينبي ويخبر عن عورات صاحبه * وما رأى عنده من صالح دفنا

كمهر سوء إذا رفعت سيرته * رام الجماح وإن خفضته حرنا

إن يحي ذاك فكن منه بمعزلة * أو مات ذاك فلا تعرف له جننا

باب ذكر خصال الحرم

فمن خصاله أن الكلب يصيد الظبي ويريغه ويعارضه فإذا دخل الحرم كف عنه ومن خصاله أنه لا يسقط عليه الحمام ما دام صحيحاً ومن خصاله انه اذا حاذى أعلى الكعبة عرف من الطير كاليمام وغيره انفرقت فرقتين ولم يعلمها طائر منها ومن خصاله اذا أصاب المطر الباب الذي من شق العراق كان الخصب والمطر في تلك السنة في شق العراق واذا عم جوانب البيت كان المطر والخصب عاماً في سائر البلدان ومن خصال

الحرم ان حصى الجمار يرمى بها فى ذلك المرمى مذ يوم حج الناس البيت على طوال الدهر ثم كانه على مقدار واحد ولولا موضع الآية والعلامة والاعجوبة التى فيها لقد كان ذلك كالجبال هذا من غير أن تكسحه السيول ويأخذ منه الناس ومن سنتهم ان كل من علا الكعبة من العبيد فهو حر لايرون الملك على من علاها ولا يجمعون بين علوها وبين الملك وبمكة رجال من الصلحاء لم يدخلوا الكعبة قط وكانوا فى الجاهليه لايبنون بيتا مربعا تعظيما للكعبة فكان أول من بني بيتا مربعاً حميد بن زهير أحد بني أسد ابن عبد العزى ثم البركة والشفاء الذى يجده من شرب من ماء زمزم على وجه الدهر وكثرة من يقيم عليه يجد فيه الشفاء بعد ان لم يدع في الارض حمة الا أتاها وأقام عندها وشرب منها وانتقع فيها هذا مع شأن الفيل والطير الابابيل والحجارة السجيل وانها لم تزل أمنا ولقاحاً لا تؤدى إتاوة ولا تدين للملوك ولذلك سمى البيت العتيق لانه لم يزل حراً لم يملكه أحد وقال حرب ابن أمية فى ذلك

أبا مطر هلم الى صلاح * فتكفيك الندامي من قريش
فتأمن وسطهم وتعيش فيهم * أبا مطر هديت لخير عيش
وتنزل بلدة عزت قديما * وتأمن ان يزورك رب جيش

وقال الله عز وجل (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال عز وجل حكاية عن ابراهيم (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) (والمدينة) هى طيبة ولطيبها قيل تلفظ خبثها وينصع طيبها وفى ريح ترابها ونسيم هوائها والنعمة التى توجد فى سككها وفى حيطانها دليل على انها جعلت آية حين جعلت حرماً وقيل من خرج من منزل مطيب الى استنشاق الهوى والبرية فى كل بلدة لابد عند الاستنشاق والتثبت من ان يجدها منتنة فذلك على طبقات من شأن البلدان الاما كان في مدينة الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فللصباح والعطر والبخور والتضوع من الرائحة الطيبة اذا كان فيها أضعاف ما يوجد له فى غيرها من البلدان وان كان الصباح أجود والعطر أفخر والبخور أثمن وربت بلدة يستحيل فيها العطر

وتذهب رائحته كقصبة الاهواز وقد كان الرشيد هم بالاقامة بانطاكية وكره أهلها ذلك فقال شيخ منهم وصدقه ياأمير المؤمنين ليست من بلادك ولا بلاد مثلك لان الطيب الفاخر يتغير فيها حتي لاينتفع منه بكثير شيء والسلاح يصدأ فيها ولو كان من فلق الهند ومن قلع اليمن ومطارها ربما أقام شهرين ليس فيه سكون فلم يقربها ثم ذكر المدينة فقال وان الجويرية السوداء لتجعل فى رأسها شيأ من بلح وشيأ من نضوح مما لا قيمة له لهوانه على أهله فتجد ذلك خمرة طيبة وطيب رائحة لايعد له بيت عروس من ذوى الاقدار حتي ان النوي المنقع الذي يكون عند أهل العراق فى غاية النتن اذا طال انقاعه يكون عندهم فى غاية الطيب والله سبحانه وتعالى أعلم

باب ذكرا لحمام

قال صاحب الحمام الحمام وحشى وأهلي وبيوتى وطورانى وكل طائر يعرف بالزواج وبحسن الصوت والهديل والدعاء والترجيع فهو حمام وإن خالف بعضه بعضا فى الصوت واللون وفي بعض النوح والهديل والدعاء والترجيع فهو حمام وقد يختلف الدجاج على مثل ذلك ولا يخرجها من أن تكون دجاجا كالديك الهندي والخلاسي والنبطي ومثل السندي والزنجي وغير ذلك وكذلك الابل العراب والبخت والفوالج والمهاري والصراصر انيات والحوش والنجب وغير ذلك من فحول الابل ولا يخرجها من أن تكون إبلا وما ذاك إلا كمخالفة الجرذان والفأر والنمل والذر ومثل اختلاف في الضأن والمعز وأجناس البقر الاهلية والبقر الوحشية وكقرابة ما بينهما وبين الجواميس وقد تختلف الحيات والعقارب بضروب الاختلاف ولا يخرجها من أن تكون عقارب وحيات وكذلك الكلاب والغربان وحسبك بتفاوت مابين الناس كالزنج والصقالبة فى الشعور والألوان وكيأجوج ومأجوج وعاد وثمود ومثل الكنعانين والعمالقة فقد تخالف الماعزة الضانية حتى لايقع بينهما تسافد ولا تلاقح وهى فى ذلك غنم وشاء قال والقمري حمام والفاختة حمام و لورشان حمام والسفنين حمام وكذلك اليمام واليعقوب وضروب أخرى كلها حمام ومفاخرها التي فيها ترجع الى الحمام الذي

لا يعرف الا بهذا الاسم (قال) وقد زعم أقليمون صاحب الفراسة ان الحمام يتخذ لضروب منها مايتخذ للانس والنساء والبيوت ومنها مايتخذ للرجال والسباق ومن مناقب الحمام حبه للناس وأنس الناس به وانك لم تر حيوانا قط أعدل موضعاً ولا أقصد مرتبة من الحمام وأسفل الناس لايكون دون ان يتخذها وأرفع الناس لايكون فوق ان يتخذها وهي شتي يتخذها مابين الحجام الى الرجل الهمام والحمام مع عموم شهوة الناس له ليس شئ مما يتخذونه هم أشد شغفا ولا أشد صيانة منهم بالحمام ثم تجد ذلك فى الخصيان كما تجده في الفحول وتجده في الفتيان كما تجده في الشيوخ وتجده فى النساء كما تجده في الرجال والحمام من الطير الميامين وليس من الحيوان الذي تظهر له عورة وحجم قضيب كالكلب والحمار وأشباه ذلك فيكون ذلك مما يكون يجب على الرجال ان لا يدخلوه دورهم (قال) مثني بن زهير ومن العجب ان لحمام ملق والسكران موق فأنشده ابن بشير بيت الحزيمي

وأعددته ذخرا لكل ملمة * وسهم المنايا بالذخائر مولع

ومتي رأى إنسان عطشان الديك والدجاجة يشربان الماء أو رأى ذئباً وكلبا يلطعان الماء لطعا ذهب عطشه من قبح حسو الديك نغبة نغبة ومن لطع الكلب وانه ليرى الحمام يشرب الماء وهو ريان فيشتهى ان يكون في ذلك الماء معه والديك والكلب فى طلب السفاد كما قال أبو الاحزر الحمانى * لا مبتغي الضر ولا بالعاذل *

والحمام أكثر معانيه الذرء وطلب الولد فاذا علم الذكر أنه قد أودع الانثى مايكون منه الولد تقدما فى إعداد العش ونقل القصب وتشقيق الخوص وأشباه ذلك من العيدان الخور الرقاق حتى يعملا الخوص وأشباه ذلك وينسجاه نسجا مداخلا وفي الموضع الذى قد اتخذاه واصطنعاه بقدر جثمان الحمامة ثم أشخصا لتلك الاخوصة حروفا غير مرتفعة لتحفظ البيض وتمنعه من التدحرج ليكون رفدا لصاحب الحضن وسندا للبيض ثم يتعاوران ذلك المكان ويتعاقبان ذلك الغرموص وتلك الاخوصة يسخنانها ويرفيانها ويطيبانها وينفيان عنها طباعها الاول ويحدثان لها طبيعة اخرى مشتقة من طبائعهما ومستخرجة من رائحة ابدانهما وقواهما الفاضلة من ارحامهما مع الحضانة والاثارة لكن

لاتنكسر البيضة بيبس الموضع ولئلا ينكر طبائعها طباع المكان وليكون على مقدار من البرد والسخانة والرخاوة والصلابة ثم ان ضربها المخاض وطرقت ببيضتها ففصلت ارحامها بدرت الى الموضع الذى قدأعدته وتحاملت الي المكان الذى اتخذته وصنعته الا ان يفزعها رعد قاصف او ريح عاصف فانها ربّما رمت بهادون كنها وظل عشها وبغير موضعها الذى اختارته والرعد ربما مرق عنده البيض وفسد كالمرأة التي تسقط من الفزع ويموت جنينها من الروع واذا وضعت البيض في ذلك المكان فلا يزالان يتعاقبان الحضن ويتعاورانه حتى اذا بلغ ذلك البيض مداه وانتهت ايامه وتم ميقاته الذى وظفه خالقه ودبره صاحبه انصدع البيض عن الفرخ فخرج عارى الجلد صغير الجناح قليل الحيلة منسد الحلقوم فيعينانه على خلاصه من بيضه وترويحه من ضيق هوانه وهما يعلمان ان الفرخين لا تتسع حلوقهما وحواصلهما للغذاء فلا يكولهما عند ذلك هم الان ينفخا في حلوقهما الريح لتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق بعد ارتتاقها ويعلمان انه ان امتنعت الحوصلة شيئاً لا يحتمله فى أول غذائه ان يزق بالطم فيزق باللعاب المختلط بقواها وقوى الطم وهم يسمون ذلك اللعاب اللباء ثم يعلمان ان طبع حواصلهما يضعف عن استمراء الغذاء وهضم الطم وأن الحوصلة تحتاج الى دبغ وتقوية وتحتاج الى أن يكون لها بعض المتانة والصلابة فيأكلان من صروح أصول الحيطان وهي شيء بين الملح والحمض وبين التراب الخالص فيزقان الفرخ حتى اذا علما أنه قداندبغ واشتد زقاه بالحب الذى هو أقوى وأطرى فلا يزالان يزقانه بالحب والماء على مقدار قوته ومبلغ طاقته وهو يطلب ذلك منهما ويبض نحوهما حتى اذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط فيتعوده حتى إذا علما ان ذاته قد تمت وان اسبابه قداجتمعت وانهما انفطماه فطما مقطوعا مجذوذا قوي على اللقط وبلغ لنفسه منتهى حاجته ضرباه إذا سألهما الكفاية ونفياه متي رجع اليهما للعادة ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما له وينسيان ذلك العطف المتمكن عليه ويذهلان عن تلك الأثرة والكد المضني من الغد وعليه والرواح اليه ثم يبتديان العمل ابتداء ثانياً على هذا النظام وعلى هذه المقامات فسبحان من عرفهما وألهمهما وهنأهما وجعلهما دلالة لمن استدل ومخبراً

صادقا لمن استخبر ذلكم الله رب العالمين وما أعجب حالات الطعم الذى يصير فى أجواف الحيوان وكيف تتصرف الحالات وتختلف فى أجناسها الوجوه فمنها ما يكون مثل زق الحمام لفرخه والزق فى معنى القئ او في معنى التقئ وليس هما وجرة البعير والشاة والبقرة فى معنى ذلك وليس به والبعير يريد أن يعود فى خضمه الاول واستقصاء طعمه وربما كانت الجرة رجيعا والرجيع أن يعود على ماقد أعاد عليه مرة حتى ينزعه من جوفه ويقلبه عن جهته والحمام يخرجه من حوصلته ومن مسكنه وقرابه وموضع حاجته واستمرائه بالأثرة والبر الى حوصلة ولده ملك ذلك وطابت به نفسه ولم تتعاث عليه نفسه ولم يتقذر من صنيعه ولم تخبث نفسه ولم تتغير شهوته ولعل لذاته فى إخراجه أن تكون كلذاته فى ادخاله وانما اللذة فى مثل هذا كالمجارى كنحوما يعترى مجري النطفة من استلذاذ مرور النطفة فهذا شان قلب الحمام ما فى جوفه واخراجه بعد ادخاله والتماس اخراجه على أنه رجعه ونحوه الذى لامخرج له ولافرج في سواه وقد يعترى ذلك الانسان لما يعرض من الداء فلايعرف إلا الاكل والقئ ولا يعرف النجوالا فى الحين على بعض الشدة وليس ما عرض بسبب آفة كالذى يخرج على أصل تركيب الطبيعة والسنور والكلب على خلاف ذلك كله لانهما يخرجانه بعارض يعرض لهما من خبث النفس ومن الفساد ومن التثوير والانقباض ثم يعود ان بعد ذلك فيه من ساعتهما مشتهيين له حريصين عليه والانسان اذا ذرعه ذلك لم يكن شئ أبغض اليه منه وربما استقاء وتكلف ذلك لبعض الامر وليس التكلف فى هذ الباب الاله وذوات الكروش كلها تقعص بجرتها فاذا أجادت مضغه أعادته والجرة هو الفرث وأشد من ذلك أن يكون رجيعا فهى تجيد مضغها واعادتها الى مكانها الا ان ذلك لا يجوز أفواهها وليس عند الحافر من ذلك قليل ولا كثير بوجه من الوجوه ثم الذى تري من كسحه بذنبه وارتفاعه بصدره ومن ضربه بجناحه ومن فرحه ومرحه بعد قمطه والفراغ من شهوته ثم يعتريه ذلك في الوقت الذي يفتر فيه انكح الناس وتلك الخصلة يفوق بها جميع الحيوان لان الانسان الذي هو أكثر الخلق فى قوة الشهوة وفى دوامها فى جميع السنة وأرغب الحيوان فى التغزل والتمتع والشكل والتقبيل أفتر

ما يكون إذا فرغ عنـدها يركبه الفتور ويحب فراق الزوج الى أن يعود الى نشاطه وترجع اليه قوته والحمام أنشط ما يكون وأفرح وأقوى ما يكون وأمرح مع الزهو والشكل واللهو والجذل أبرد ما يكون الانسان وأفتره وأقطع مايكون وأقصره هذا وفي الانسان ضروب من القوى أحدها فضـل الشهوة والأخرى دوام الشهوة فى جميع الدهر والأخرى قوة التصـنع والتكلف وأنت اذا جمعت خصاله كلها كانت دون قوة الحمام عند فراغه من حاجته وهذه فضيلة لا ينكرها أحد ومزية لايجحدها أحد ويقال ان الناس لم يجدوا مثل نشاط الحمام فى وقت فترة الانسان الا ماوجـدوه فى البغال فان البغال تحمل أثقالها عشية فتسير بقية يومها وسائر ليلتها وصدر نهارها من غدها حتى إذا حطوا عن جميع ما كان محملا من أصناف الدواب أحمالها لم يكن لشيء منها همة ولا لمن ركبها من الناس إلا المراغة والماء والعلف وللانسان الاستلقاء ورفع الرجلين والغمز والتأوه الا البغال فانها فى وقت إعياء جميع الدواب وشدة كلالها وشغلها بانفسـها مما مر عليها ليس عليها عمل الا أن تدلى أيورها وتنعظ وتضرب بها بطونها وتحطها وترفعها وفى ذلك الوقت لو رآى المكارى امرأة حسناء لما انتشر لها ولا هم بها ولو كان منعظا ثم اعتراه بعض ذلك الاعياء لنسي الانعاظ وهذه خصلة تخالف فيها البغال جميع الحيوان وتزعم العملة انها تلتمس بذلك الراحة وتتداوى به فليس العجب إن كان ذلك حقاً الا في امكان ذلك لها فى ذلك الوقت وذلك لا يكون إلا عن شهوة وشبق مفرط وشبه آخر وشكل من ذلك وذلك كالذى يوجد عند الاتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله وبعض النهار فان الناس في ذلك الوقت ليس لهم الا ان يتمددوا ويقيـدوا دوابهـم والتركى فى ذلك الوقت اذا عاين ظبياً أو بعض الصيد ابتدأ الركض بمثل نشاطه قبل أن يسير ذلك السير وذلك وقت يهم فيه الخارجي والخصى أنفسـهما فانهما المذكوران بالصبر على ظهر الدابة وليس فى الارض بهيمة تفطم ولدها عن اللبن دفعة واحدة بل تجد الظبية أو االبقرة أو الاتان أو الناقة اذا ظنت ان ولدها قد أطاق الاكل منعته بعض المنع ثم لاتزال تترك ذلك المنع وترتبه وتدرجه حتي اذا علمت ان به غنى عنها ان هي فطمته فطاما لارجعة فيه منعته كل المنع

والعرب تسمى هذا التدبير من البهائم التعفير ولذلك قال لبيد

لمعفر قهد تنازع شلوه * غبس كواسب مايمن طعامها

وعلى مثل هذه السيرة والعادة يكون عمل الحمام فى فراخه وخصلة أخرى محمودة فى الحمام وذلك أن البغل المتولد بين الحمار والرمكة لا يبقى له نسل والزاغبي المتولد فيما بين الحمام والورشان يكثر نسله ويطول عمر ولده والبخت والفوالج إن ضرب بعضها بعضا خرج الولد منقوص الخلق لا خير فيه والحمام كيف ما أدرته وكيف ما زاوجت بين متفقها ومختلفها يكون تام الخلق مأمول الخير فمن نتاج الحمام إذا كان مركبا مشتركا كالزاغبي والوردانى وعلى أن للوردانى غرابة لون وظرافة وللزاغبي فضيلة في عظم البدن والفراخ وله في الهديل والقرقرة ما ليس لأبويه حتى صار ذلك سببا للزيادة في ثمنه وعلة للحرص على اتخاذه والغنم على قسمين ضأن ومعز والبقر على قسمين أحدهما الجواميس إلا ماكان من بقر الوحش إذا اختلفا لم يكن بينهما تسافد ولا تلاقح فهذه فضيلة للحمام فى جهة الانسان والالقاح واتساع الارحام لاصناف القبول وعلى أن بين سائر أجناس الحمام من الوراشين والقماري والفواخت تسافد وتلاقح ومما أشبه فيه الحمام الناس أن ساعات الحضن أكثرها على الانثى وإنما يحضن الذكر فى صدر النهار حضنا يسيرا والانثي كالمرأة التى تكفل الصبي فتفطمه وتمرضه وتتعهده بالتمهيد والتحريك حتى إذا ذهب الحضن وانصرم وقته وصار البيض فراخا كالعيال في البيت يحتاجون إلى الطعام والشراب صار أكثر ساعات الزق على الذكر كما كان أكثر ساعات الحضن على الانثى ومما أشبه فيه الحمام الناس قال مثنى بن زهير وهو إمام الناس في البصرة بالحمام وكان جيد الفراسة حاذقا بالعلاج عارفا بتدبير الخارجى إذا ظهرت فيه مخيلة الخير والخارجي عندهم المجهول وعالماً بتدبير العريق المنسوب إذا ظهرت فيه علامات الفسولة وسوء الهداية وقد يمكن أن يخلف ابن قريشيين ٢ وليدين من بيضة وإنما فضلنا نتاج العلية على نتاج السفلة لأن نتاج النجابة فيهم أكثر والسقوط فى أولاد السفلة أعم فليس بواجب أن يكون السفلى لا يلد إلا السفلى والعلية لا يلد إلا العلية وقد يلد المجنون

العاقل والسخي البخيل والجميل القبيح وقد زعم الاصمعي أن رجلا من العرب قال لصاحب له اذا تزوجت امرأة من العرب فانظر إلى أخوالها وأعمامها وإخوتها فانها لاتخطئ الشبه بواحد منهم وان كان هذا الموصى والحكيم جعل ذلك حكما عاما فقد أسرف في القول وإن كان ذهب الى التخويف والزجر والترهيب كي يختار لنفسه لان المتخير أكثر نجاة فقد احسن وقال مثنى بن زهير لم أر شيأ قط فى رجل وامرأة الا وقد رأيت مثله فى الذكر والانثى من الحمام رأيت حمامة لاتريد الا ذكرها كالمرأة لا تريد الا زوجها وسيدها ورأيت حمامة لاتمنع شيأ من الذكورة ورأيت أمراة لا تمنع يد لامس ورأيت الحمامة لا تزيف إلا بعد طرد شديد وكثرة طلب ورأيتها تزيف لأول ذكر يريدها ساعة يقصد اليها ورأيت من النساء كذلك ورأيت حمامة لها زوج وهي تمكن ذكراً آخر لاتعدوه ورأيت مثل ذلك من النساء رأيتها تزيف لغير ذكرها وذكرها يراها ورأيتها لا تفعل ذلك الا وذكرها يطير أو يحضن ورأيت الحمامة تقمط الحمام الذكور ورأيت الحمامة تقمط الحمامة ورأيت أنثى كانت لا تقمط الإناث ورأيت أخرى تقمط الإناث فقط ولا تدع أنثى تقمطها ورأيت ذكراً يقمطها ويدعها حتى تقمطه ورأيت ذكر يقمط الذكور وتقمطه ورأيت ذكراً يقمط الذكور ولا يدعها تقمطه ورأيت أنثى تزيف للذكورة ولا تدع شيأ منها يقمطها قال ورأيت هذه الاصناف كلها فى السحاقات من المذكرات والمؤنثات وفي الرجال الحلقيين واللواطين وفى الرجال من لا يريد النساء وفي النساء من لا يريد الرجال قال وامتنعت على خصلة فوالله لقد رأيت من النساء من تزنى أبداً ولا تتزوج وتساحق أبداً ولا تتزوج أبداً ورأيت حماما ذكراً يقمط مالقى ولا يزاوج ورأيت حمامة تمكن كل حمام أرادها من ذكر وأنثى وتقمط الذكورة والاناث ولا تزاوج ورأيتها تزاوج ولا تبيض وتبيض فيفسد بيضها كالمرأة تتزوج وهى عاقر وكالمرأة تلد وتكون خرقاء ورهاء ويعرض لها الغلطة والعقوق للأولاد كما يعترى ذلك العقاب وأما أنا فقد رأيت الجفاء للأولاد شائعاً في اللواتى حملن من الحرام ولربما ولدت من زوجها فيكون عطفها وتحننها كتحنن العفيفات الستيرات فما هو الا أن تزنى أو تقحب -

فكان الله لم يضرب بينها وبين ذلك شبكة رحم كأنها لم تلده قال مثنى ابن زهير ورأيت ذكراً له انثيان وقد باضتا منه وهو يحضن مع هذه ومع تلك ويزق مع هذه ومع تلك ورأيت أنثي تبيض بيضة ورأيت أنثى تبيض فى أكثر حالاتها ثلاث بيضات وزعم أنه إنما جزم بذلك فيها ولم يظنه بالذكر لانها قد كانت قبل ذلك عند ذكر آخر وكانت تبيض كذلك ورأيت أنا حمامة فى المنزل لم يعرض لها ذكر الا اشتدت نحوه بحدة وترق وتسرع حتى تنفر أين صادفته منه حتى يصدعنها كالهارب منها وكان زوجها جميلا فى العين رائعاً وكان لها في المنزل بنون وبنو بنين وبنات بنات وكان في العين كانه أشب من جميع بنيه وقد بلغ من حظوته انى قل ما رأيته أراد واحدة من عرض تلك الحمام الاناث فامتنعت عليه وقد كن يمتنعن من غيره فبينا أنا ذات يوم جالس بحيث أراهن اذ رأيت تلك الانثي قد زافت لبعض بنيها فقلت لخادمى ماالذى غيرها عن ذلك الخلق الكريم فقال إنى رحات زوجها من القاطول فذهب ولهذا شهر فقلت هذا عذر قال مثني ابن زهير وقد رأيت الحمامة تزاوج هذا الحمام ثم تحول منه الى آخر ورأيت ذكراً يفعل مثل ذلك فى الأناث ورأيت الذكر كثير النسل قويا على القمط ثم يصفى كما يصفي الرجل اذا أكثر من النسل والجماع ثم عدد مثني أبوابا غير ماحفظت مما يصاب مثله فى الناس وزعموا أن مثني كان ينظر الى القائق والمخاف فيظن أنه يجئ من الغاية وكان اذا أظهر إبتياع حمام أغلوه عليه وقالوا لم يطلبه إلا وقد رآى فيه علامة المجئ من الغاية وكان يدس في ذلك ففطنوا له وتحفظوا منه فربما إشترى نصفه وثلثه فلا يقصر عند الرجل من الغاية وكان له خصى يقال خديج يجرى مجراه فكانا اذا تناظرا فى شأن طائر لم تخلف فراستهما قال والحمام تبيض عشرة أشهر من السنة فاذا صانوه وحفظوه وأقاموا له الكفاية وأحسنوا تعهده باض فِي جميع السنة قالوا والدجاجة تبيض فى كل السنة خلا شهرين ومن الدجاج ماهو عظيم الجثة يبيض بيضاً كبيراً وما أقل ما يحضن ومن الدجاج مايبيض ستين بيضه وأكثر الدجاج العظيم الجثة يبيض بيضاً كبيراً قال أما الدجاج التى نسبت الى أبى ريانوس الملك فهو طويل البدن ويبيض في كل يوم وهى صعبة الخلق وتقتل فراريجها ومن الدجاج الذي يربى

فى المنازل مايبيض مرتين في اليوم ومن الدجاج ما اذا باض كثيراً مات سريعاً لذلك الفرض قال والخطاف تبيض مرتين فى السنة وتبني بيتها في أوثق مكان وأعلاه فأما الحمام والفواخت والاطرغلات والحمام البرى فانها تبيض مرتين فى السنة والحمام الاهلى يبيض عشر مرات وأما القبج والدراج فهما يبيضان بين العشب ولاسيما فيما طال شيئاً والتوى واذا باض الطير بيضاً لم تخرج البيضة من حد التحديد والتلطيف بل يكون الذي يبدء بالخروج الجانب الاعظم وكان الظن يسرع الى أن الرأس المحدد هو الذي يخرج أولا وما كان من البيض مستطيلا محدد الاطراف فهو للاناث وما كان مستديراً عريض الاطراف فهو للذكور قال والبيضة عند خروجها لينة القشر غير قاسية ولا يابسة ولا جامدة قال والبعض الذى يتولد من الريح والتراب اصغر والطف وهي أطيب من الآخر ويكون بيض الريح من الدجاج والقبج والحمام والطاوس والاوز قال وحضن الطائر وجثومه على البيض صلاح لبدن الطائر كما يكون صلاحاً لبدن البيض وكذلك الحضن على الفراخ والذراريج والاوز وربما هلك الطائر عن ذلك السبب وزعم ناس أن بيض الريح انما تكون من سفاد متقدم وذلك خطأ من وجهين أما أحدهما فان ذلك قد عرض من فراريج لم يرين ديكا قط والوجه الآخر أن بيض الريح لم يكن منه فروج قط الا أن يسفد الدجاجة ديك بعد أن يمضي ايضاً خلق البيض قال وبيض الصيف المحضون أسرع خروجا منه فى الشتاء ولذلك تحضن الدجاجة البيضة في الصيف خمس عشرة ليلة قال وربما عرض غيم فى الهواء أو رعد فى وقت حضن الطائر فيفسد البيض وعلى كل حال ففساده فى الصيف أكثر والموت فيها فى ذلك الزمان أعم وأكثرما يكون فساد البيض فى الجنائب ولذلك كان ابن الجهم لا يطلب من نسائه الولد الا والريح شمال وقال بعضهم يسمى بيض الريح البيض الجنوبى لأن أصناف الطير تقبل الريح فى أجوافها وربما افترخ بيض الريح بسفاد كان لكن لونه يكون متغيراً وإن سفد الانثى طائر من غير جنسها غير خلق المخلوق الذى كان من الذكر المتقدم وهو فى الديكة أعم ويقولون ان البيض يكون من أربعة أشياء فمنه مايكون من السفاد ومنه ما يكون من النسيم اذا وصل الى أرحامهن وفى بعض الزمان ومنه شئ

يعترى الحجل وما شاكله في الطبيعة فان الانثى ربما كانت على سفالة الريح التى تهب من جهة الذكر فى بعض الزمان فتحتشي من ذلك بيضاً ولم أرهم يشكون ان النخلة المطعمة تكون بقرب الفحال وتحت ريحه فتلقح بتلك الريح وتكتفى بذلك قال وبيض أبكار الطير أصغر وكذلك أولاد النساء الا أن تتسع الارحام وتنفتح الجوانب ويكون هديل الحمام ضئيلا فاذا زق مراراً فتح الزق جلدة عينه وحوصلته فخرج الصوت أغلظ وأجهر وهم لا يثقون بحيات ولد البكر من النساء كما يثقون بحيات الثانى ويرون أن طبيعة الشباب والابتداء لا يعطيان شيئاً الا أخذه تضايق مكانه من الرحم ويحبون أن تبكر بجارية وأظن أن ذلك إنما هو لشدة خوفهم على الذكر وفي الجملة لا يتمنون للبكر الذكر فان كان البكر ابن بكر تشاءموا به فان كان البكر إبن بكرين فهو فى الشؤم مثل قيس بن زهير والبسوس فان قيساً كان أزرق وبكرا ابن بكرين ولا أحفظ شأن البسوس حفظا أجزم عليه قال وأما الحمام فانه اذ قمط تنفش وتكبر ونفض ذنبه وضرب بجناحه وأما الاوز فانه اذا سفد أكثر من السباحة واعتراه فى الماء من المرح مثل ما يعترى الحمام فى الهواء قال وبيض الدجاج يتم خلقه فى عشرة أيام وأكثر شيأ وأما بيض الحمام ففى أقل من ذلك والحمامة ربما احتبس البيض في جوفها بعد الوقت لأمور تعرض لها اما لأمر عرض لعشها واما لنتف وإما لعلة وجع من أوجاعها وإما لصوت رعد فان الرعد اذا اشتد لم يبق طائر على الأرض واقع إلا عدا فزعا وإن كان يطير الارمى بنفسه الى الأرض قال علقمة بن عبدة

رغا فوقهم سقب السماء فداحض * بشكته لم يستلب وسليب
كأنهم صابت عليهم سحابة * صواعقها لطيرهن دبيب

قال وليس التقبيل إلا للحمام والانسان ولا يدع ذلك ذكر الحمام إلا بعد الهرم وكان في أكثر الظن انه أحوج مايكون ذلك التهييج به عند الكبر والضعف وتزعم العوام أن تسافد الغربان هو تطاعمها بالمناقير وان القاحها إنما يكون من ذلك الوجه ولم أر العلماء يعرفون هذا قال وإناث الحمام اذا تسافدت أيضاً قبل بعضهن بعضاً

ويقال إنها تبيض عن ذلك ولكن لا يكون عن ذلك البيض فراخ وانه في سبيل بيض الريح قال ويستبين خلق الفراخ اذا مضت لها ثلاثة أيام بلياليها وذلك فى شباب الدجاج وأما فى المسنان منها فهو أكثر وفى ذلك الوقت توجد الصفرة من الناحية العلياء من البيضة عند الطرف المحدد حيث يكون أول نقرها ثم يستبين فى بياض البيضة مثل نقطة من دم وهى تختلج وتحرك والفرخ إنما يخلق من البياض ويغتذي الصفرة ويتم خلقه لعشرة أيام والرأس وحده يكون أكبر من سائر البدن قال ومن الدجاج ما يبيض بيضاً له صفرتان فى بعض الأحايين خبرنى بذلك شيث من ثقاة أصحابنا (وقال صاحب المنطق) وقد باضت فيما مضى دجاجة ثماني عشرة بيضة لكل بيضة محتان ثم سخنت وحضنت فخرج من كل بيضة فروجان ما خلا البيض الذي كان فاسداً في الأصل وقد يخرج من البيضة فروجان ويكون أحدهما أعظم جثة وكذلك الحمام وما أقل مايغادر الحمام أن يكون أحد الفروجين ذكراً والآخر أنثى قال وربما باضت الحمامة وأشباهها من الفواخت ثلاث بيضات فأما الاطرغلات فالفواخت فانها تبيض بيضتين وربما باضت ثلاث بيضات ولكن لايخرج منها أكثر من فرخين وربما كان واحداً فقط قال وبعض الطير لا يبيض إلا بعد مرور الحول عليه كاملاً والحمامة فى أكثر أمرها يكون أحد فرخيها ذكراً والآخر أنثى وهي تبيض أولاً البيضة التى فيها الذكر ثم تقيم يوماً وليلة ثم تبيض الأخرى وتحضن ما بين السبعة عشر يوماً الى العشرين على قدر اختلاف طباع الزمان والذى يعرض لها من العلل والحمامة أبر بالبيض والحمام أبر بالفراخ وجميع أجناس الطير مما يأكل اللحم فلم يظهر لنا أنه يبيض ويفرخ أكثر من مرة واحدة ماخلا الخطاف فانه يبيض مرتين والعقاب يبيض ثلاث بيضات فيخرج لها فرخان واختلفوا فقال بعضهم لأنها لا تحضن الا بيضتين وقال آخرون قد تحضن ويخرج لها ثلاثة أفراخ ولكنها ترمي بواحدة استثقالا للتكسب على ثلاثة وقال آخرون ليس ذلك الا بما يعتريها من الضعف عن الصيد كما يعترى النفساء من الوهن والضعف وقال آخرون العقاب طائر سيئ الخلق رديء التربية وليس يستعمان على تربية الأولاد الا بالصبر وقال آخرون لكنها شديدة النهم والشره

واذا لم تكن أم الفراخ ذات أثرة لها ضاعت وكذلك قالوا في العقعق عند إضاعتها لفراخها حتى قالوا احمق من عقعق كما قالوا احذر من عقعق وقالوا واما الفرخ الذى يخرجه العقاب فان المكافئة وهي طائر يقال لها كاسر العظام تقبله وتربيه والعقاب يحضن ثلاثين يوما وكذلك كل طائر عظيم الجثة مثل الاوز واشباه ذلك فاما الوسط فهو يحضن عشرين يوماً مثل الحدأة ومثل أصناف البزات كالبواشق واليائى والحدأة تبيض بيضتين وربما باضت ثلاث بيضات وخرج منهن ثلاثة فراخ قالوا واما العقبان السود الالوان فانها تربى وتحضن وجميع الطير المعقف المخالب تطرد فراخها من أعشتها عند قوتها على الطيران وكذلك سائر الاصناف من الطير فانها تطرد الفراخ لاتعرفها ماعدا الغداف فانها لا تزال لولدها قابلة ولحاله متفقدة وقال قوم ان العقبان والبزاة التامة والجهاد انك والسمنان والزمامج والزرانة انها كلها عقبان وأما الشواهين والصقورة والبوازي فانها أجناس أخر وأما الأوز فانها تحضن دون الذكورة وأما الغربان فعلي الاناث الحضن والذكورة تأتى الإناث بالطعمة وأما الحجل فان الزوج منهما يهيئآن للبيض عشين وبيضتين مقسومتين عليهما فيحضن أحدهما الذكر والآخر الأنثى وكذلك هما فى التربية وكل واحد منهما يعيش خمساً وعشرين سنة ولا تلقح الأنثى البيض ولا يلقح الذكر الا بعد ثلاث سنين قال وأما الطاوس فاول ماتبيض فانها تبيض ثلاث بيضات وتبيض أيضاً بيض الريح والطاوس يلقى ريشه فى زمن الخريف فاذا بدا أول ورق الشجر يسقط واذا بدأ الشجر يكتسى ورقاً بدأ الطاوس يكتسي ريشاً قال وما كان من الطير الثقيل الجثة فليس يهيئ لبيضه عشاً من أجل أنه لا يجد الطيران ويثقل عليه النهوض ولا يتخلق مثل الدراج والقبج وفراخ الطاوس والتدارج يخرج كفراريج الدجاج وكذلك فراريج البط الصينى فان هذه كلها تخرج من البيض كاسية تلقط من ساعتها وتكفى نفسها قال اذا دنا الصياد من عش القبجة ولها فراخ مرت بين يديه مراً غير معين وأطمعته فى نفسها فيتبعها فتمر الفراخ فى رجوعها الى موضع عشها والفراخ ليس معها من الهداية مامع أمها وعلى ان القبجة سيئة الدلالة والهداية وكذلك كل طائر يعجل له الكيس والكسوة ويعجل له الكسب فى صغره وهذا إنما اعتراها لقرابة ما بينها وبين الديك

قال فاذا أمعن الصائد خلفها وقد خرجت الفراخ من موضعها طارت وقد نحت الى حيث لا يهتدى الرجوع منه الى موضعها فاذا سقطت قريباً دعتها بأصوات لها حتى يجتمعن اليها قال وإناث القبج تبيض وهى تفر ببيضها من الذكر لان الأنثي تشتغل بالحضن عن طاعة الذكر فى طلب السفاد والقبج الذكر يوصف بالقوة على السفاد كما يوصف الديك والحجل والعصفور قال فاذا شغلت عنه بالحضن طلب مواضع بيضها حتى يفسده فلذلك ترتاد الانثى فى مخافى اذا أحست بوقت البيض واذا قاتل بعض ذكورة القبج بعضاً فالمغلوب منها مسفود والغالب سافد وهذا يعرض للديكة ولذكور الدراريج فاذا دخل بين الرمكة ديك غريب فما أكثر ما تجتمع عليه حتى تسفده وسفاد ذكورة هذه الاجناس انما يعرض لها لهذه الأسباب فاما ذكورة الحمير والخنازير والحمام فان ذكورها تثب على بعض من جهة الشهوة وكان عند يعقوب بن صباح الاشعثي هران ضخمان أحدهما يكوم الآخر متى أراده من غير إكراه ومن غير أن يكون المسفود يريد من السافد مثل مايريده منه السافد وهذا الباب شائع في كثير من الاجناس الا أنه فى هذه أوجد (ثم رجع بنا القول الى ذكر) الحمام من غير انتساب بذكر غيره زعم صاحب المنطق ان البزاة عشرة أجناس فمنها ما يضرب الحمامة والحمامة جاثمة ومنها مالا يضرب الحمام الا وهو يطير ومنها مالا يضرب الحمام فى حال طيرانه ولا فى حال جثومه الا أن يجده فى بعض الاغصان أو على الانشاز والاشجار فعدد أجناس صيدها ثم ذكر ان صاحب الحمام لايخفى عليه فى أول مايرى البازي فى الهواء أي البزاة هو وأى نوع ضده فيخالف ذلك ولمعرفة الحمام بذلك من البازى إشكال أول ذلك ان الحمام فى أول نهوضه يفصل بين النسر والعقاب وبين الرخمة والبازى وبين الغراب والصقر فهو يرى الكركي والطيران ولا يستوحش منهما ويرى الزرق فيتضاءل فان رأي الشاهين فقد رأى السم الذعاف الناقع والنعجة ترى الفيل والزنديل والجاموس والبعير فلا يهزها ذلك وترى السبع وهي لم تره قبل ذلك وعضو من أعضاء تلك البهائم وهى أهول فى العين وأشنع ثم تري الأسد فتخافه وكذلك الببر والنمر فان رأت الذئب اعتراها منه وحده مثل مااعتراها

من تلك الاجناس لو كانت مجموعة في مكان واحد وليس ذلك عن تجربة ولالان منظره أشنع وأعظم وليس فى ذلك عليه الا ما طبعت عليه من تمييز الحيوان عندها فليس بمستنكر ان تفصل الحمامة بين البازى والبازى كما فصلت بين البازى والكركى فان زعمت انها تضرب مخالب فمنقار الكركي أشنع وأفظع وأطول وأعرض فما طرف منقار ليبالغه (قال صاحب الديك) وكيف يكون للحمام من الحركة والفطنة ماتذكرون وقد جاء فى الحديث (كونوا بلهاء كالحمام) وقال صاحب الديك تقول العرب أخرق من حمامة ومما يدل على ذلك قول عبيد بن الابرص

عيوا بأمرهم كما * عيت ببيضتها الحمامة

جعلت لها عودين من * نشم وآخر من ثمامة

فان كان عبيد إنما عنى حمامة من حمامكم هذه الذى أنتم به تفخرون فقد أكثرتم فى ذكر تدبيرها لمواضع بيضها وأحكامها الصنعة أعشتها وأفاحيصها وإن قلتم إنه إنما عنى بعض أجناس الحمام الوحشي والبرى فقد أخرجتم بعض الحمام من حسن التدبير وعبيد لم يخص حماما دون حمام (وحدث أسامة بن زيد) قال سمعت بعض أشياخنا منذ زمان يحدث ان عثمان بن عفان رضى الله تعالي عنه أراد أن يذبح الحمام ثم قال لولا أنها أمة من الأمم لامرت بذبحها ولكن قصوهن على انها انما تذبح لرغبة من يتخذهن ويلعب بهن من الفتيان والاحداث والشطار وأصحاب المراهنة والقمار والذين يشرفون على حرم الناس والجيران ويخدعون بفراخ الحمام أولاد الناس ويرمون بالجلاهق وما أكثر من قد فقاعينا وهشم أنفاً وهتم فما وهو لايدرى مايصنع ولا يقف على مقدار ما ركب به القوم ثم ذهبت جنايته هدراً ويعود ذلك الدم مطلولا بلا عقل ولا قود ولا قصاص ولا أرش اذ كان صاحبه مجهولا وعلى شبيه بذلك أراد عمر رضي الله عنه أن يذبح الديكة وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب قالوا ففيما ذكرنا دليل على ان أكل لحوم الكلاب لم يكن من دينهم ولا أخلاقهم ولا كان في دواعي شهواتهم ولولا ذلك لما جاء الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهما بذبح الديكة والحمام وقتل الكلاب وفي تفريقهم بينها دليل على افتراق الحالات عندهم قال

حدثني أسامة بن زيد وابراهيم بن أبي يحيي ان عثمان شكوا اليه الحمام وأنه قال من أخذمنهن شيأ فهو له وقد علمنا ان اللفظ وان كان قد وقع على شكاية الحمام فان المعنى إنما هو على شكاية أصحاب الحمام لانه ليس في الحمام معنى يدعوالى شكايته (قال وحدثنا عثمان) قال سئل الحسن عن الحمام الذى يصطاده الناس قال لاتأكله فانه من أموال الناس فجعله مالا ونهى عن أكله بغير اذن أهله وكل ما كان مالا فبيعه حسن وابتياعه حسن فكيف يجوز لشئ هذه صفته ان يذبح الا أن يكون ذلك على طريق العقاب والزجر لمن اتخذه لما لايحل قال ورووا عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال نهى عثمان عن اللعب بالحمام وعن رمي الجلاهق فهذا يدل على ماقلنا والناس يقولون آمن من حمام مكة ومن غزلان مكة وهذا شائع على جميع الالسنة لا يرد ذلك أحد ممن يعرف الامثال والشواهد قال عقبة الاسدى لابن الزبير

ما زلت مذ حجج بمكة ملحدا * في حيث يامن طائر وحمام

فلتنهضن العيس تنفخ في البرا * تجتبن عرض مخارم الاعلام

أبنو المغيرة مثل آل خويلد * يا للرجال لخفة الاحلام

وقال النابغة فى الغزلان وامنها كقول جميع الشعراء في الحمام

والمؤمن العائذات الطير تمسحها * ركبان مكة بين الغيل والسعد

ولو ان الظباء ابتليت بمن يتخذها مثل الذى ابتليت به الحمام ثم ركبوا المسلمين فى الغزلان بمثل ماركبوهم به فى الحمام لساروا فى ذبح الغزلان كسيرتهم فى ذبح الحمام وقالوا إنه ليبلغ من تعظيم الحمام لحرمة البيت الحرام ان أهل مكة يشهدون عن آخرهم انهم لم يروا حماما قط سقط على ظهر الكعبة الا من علة عرضت له فاذا كانت هذه المعرفة اكتسابا من الحمام فالحمام فوق جميع الطير وكل ذى أربع وان كان هذا إنما كان طريق الالهام فليس مايلهم كما لايلهم وقال الشاعر في أمن الحمام

لقد علم القبائل ان بيتي * تفرع فى الذوائب والسنام

وأنا نحن أول من تبني * بمكتها البيوت من الحمام

وقال كثير أو غيره فى بنى سهم فى أمن الحمام

لعن الله من يسب عليا * وحسينا من سوقة وإمام
أيسب المطيبون جدودا * والكرام الاخوال والاعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأ * من آل الرسول عند المقام
رحمة الله والسلام عليهم * كلما قام قائم الإسلام

وذكر شأن إبن الزبير وشأن إبن الحنفية فقال

ومن يرهذا الشيخ بالخيف من مني * من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمى النبي المصطفى وابن عمه * وفكاك أغلال ونفاع غارم
أبى فهو لا يشري هدى بضلالة * ولا يتقي في الله لومة لائم
ونحن بحمد الله نتلوا كتابه * حلولا بهذا الخيف خيف المخارم
بحيث الحمام آمنات سوا كن * وتلقى العدو كالولى المسالم

(وقال صاحب الحمام) أما العرب والاعراب والشعراء فقد أطبقوا على أن الحمامة هي التى كانت دليل نوح ورائده وهي التى استجعلت عليه الطوق الذى فى عنقها وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة بدعاء نوح عليه السلام حين رجعت اليه ومعها من الكرم ما معها وفي رجليها من الطين والحماة ما برجليها فعوضت من ذلك الطين خضاب الرجلين ومن حسن الدلالة والطاعة طوق العنق وفى طوقها يقول الفرزدق

فمن يك خائفا لأذات شعرى * فقد أمن الهجاء بنو حرام
هم قادروا سفيهم وخافوا * قلائد مثل أطواق الحمام

وقال فى ذلك بكر بن النطاح

إذا شئت غنتني ببغداد قينة * وإن شئت غناني الحمام المطوق
لباسي الحسام أو إزار معصفر * ودرع حديد أو قميص مخلق

فذكر الطوق ووصفها بالغناء والاطراب وكذلك قال حميد بن ثور

رقود الضحى لاتعرف الجيرة القصا * ولا الجيرة الادنين الا تجشما
وليست من اللاءي يكون حديثها * أمام بيوت الحي أن وانما *

ثم قال

وماهاج هذا الشوق الاحمامة * دعت ساق حر ترحة وترنما
مطوقة خطباء تصدح كلما * دنا الصيف وانجاب الربيع فانجما

ثم قال بعد ذكر الطوق

اذا شئت غنتني باجزاع بيشة * أو النخل من تثليث أو بيلملما
عجبت لها انى يكون غناؤها * فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما
ولم أر محزونا له مثل صوتها * ولا عربياً شاقه صوت أعجما

وقال في ذكر الطوق وأن الحمامة نواحة عبد الله بن أبي بكر وهو شهيد يوم الطف وهو صاحب ابن صاحب

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها * ولا مثلها في غير جرم تطلق
أعاتك لاأنساك ماهبت الصبا * وما ناح قمرى الحمام المطوق

وقال جهم بن خلف وذكرها بالنوح والغناء والطوق ودعوة نوح وهو قوله

وقد شاقني نوح قمرية * طروب العشى هتوف الضحي
من الورق نواحة باكرت * عسيب إشاء بذات الغضا
تغنت عليه بلحن لها * يهيج للصب ما قد مضى
مطوقة كسيت زينة * بدعوة نوح لها اذ دعا
أضلت فريخا فطافت له * وقد علقته حبال الردى
فلم أر باكية مثلها * تبكي ودمعتها لا ترى
فلما بدا اليأس منه بكت * عليه وما ذا يرد البكا
وقد صاده ضرم ملحم * خفوق الجناح حثيث النجا
حديد المخالب عارى الوظيـ * ـف ضار من الورق فيه قنا
ترى الطير والوحش من خوفه * جوامز منه اذا ما اغتدي

(قال صاحب الديك) واما قوله

مطوقة كساها الله طوقا * ولم يخصص بها طيراً سواها

كيف لم يخصص بالاطواق غير الحمام والتدارج أحق بالاطواق وأحسن أطواقامنها وهى فى ذكورتها أعم وعلى انه لم يصف بالطوق الحمامة التي فاخرتم بها الديك لان الحمامة ليست بمطوقة وإنما الاطواق للمذكورة الوراشين ثم نوائح الطير وهواتفها ومغنياتها ولذلك قال شاعركم حيث يقول * أعاتك لا أنساك ماهبت الصبا * البيتين وقال الآخر

وقد شاقني نوح قمرية * طروب العشى هتوف الضحي

ووصفها فقال

مطوقة كسيت زينة * بدعوة نوح لها إذ دعا

فان زعمتم ان الحمام والقمري واليمام والفواخت والديسى والشفانين والوراشين حمام كله قلنا إنا نزعم أن ذكورة التدارج وذكورة القبج وذكورة الحجل ديوك كلهافان كان ذلك كذلك فالفخر بالطوق نحن أولى به (قال صاحب الحمام) العرب تسمي هذه الاجناس كلها حماما فجمعوها بالاسم العام وفرقوها بالاسم الخاص ورأينا صورها متشابهة وان كان في الاجسام بعض الاختلاف وفي الجثث كذلك وكذلك المناقير ووجدناها تشابه من طريق الزواج ومن طريق الدعاء والغناء والنوح وكذلك هي في القدود وصور الاعناق وقصب الريش وصفة الرؤوس والارجل والسوق والبرائن والاجناس التى عددتم ليس يجمعها إسم ولا بلدة ولا صورة ولا زواج وليس بين الديكة وبين تلك الذكورة نسب الا أنها من الطير الموصوفة بكثرة السفاد وان فراخها وفراريجها تخرج من بيضها كاسية والبط طائر مثقل وقد ينبغي ان تجعلوا فرخ البطة فروجا والانثى دجاجة والذكر ديكا ونحن نجد الحمام ونجد الوراشين تتسافدوتتلاقح مع ماذكرنا من التشابه في تلك الوجوه وهذا كله يدل على ان بعضها من بعض كالبخت والعراب ونتائج ما بينهما وكالبراذين والعتاق وكلها خيل وتلك كلها إبل وليس بين التدارج والقبج والحجل والدجاج هذه الامور التى ذكرنا وعلى انا قد وجدنا الاطواق عامة فى ذوات الاوضاح من الحمام لان فيها من الالوان ولها من الشيات وأشكال الوان الريش ما ليس لغيرها من الطير ولو احتججنا بالتسافد دون التلاقح لكان لقائل مقال ولكنا

وجدنا ما يجمع الخصلتين لانا قد نجد سفهاء الناس ومن لا يتقذر من الناس والاحداث ومن تشتد غلمته عند احتلامه وتقل طروقته وتطول عزبته كالعزب من الرعاء فان هـذه الطبقة من الناس لم يرعوا ناقة ولا بقرة ولا شاة ولا اتانا ولا رمكة ولا حجرا ولا كلبة إلا وقد وقدوا عليها واولا ان في نفوس الناس وشهواتهم ما يدعو الى هذه القاذورة لما وجدت هذا العمل شائعا في أهل هذه الصفة ولو جمعتهم لجمعت أكثر من أهل بغداد والبصرة ثم لم يلقح واحد منهم شيئاً من هـذه الاجناس وعلى أنها تتلقى ذلك بالشهوة المفرطة ولقد خبرني من اخواني من لا اتهم خبره ان مملوكا كان لبعض أهل القطيعة اعني قطيعة الربيع وكان ذلك المملوك يكوم بغلة وانها كانت تودق وتلمظ فانها في بعض تلك الوقعات تاخرت وهو موعب فيها تطلب الزيادة فلم يزل المملوك يتأخر وتتـأخر البغلة حتى اسندته الى زاوية من زوايا الاصطبل فاضغطته حتي برد فدخل بعض من دخل فرآه على تلك الحال فصاح بها وخر الغلام ميتا وأخبرني صديق لى قال بلغني عن برذون لوزقان المتكلم انه كان يسمح للبغال والحمير والبراذين حتى تكومه قال فاقبلت يوما في ذلك الاصطبل فتناولت المحرفة فوضعت رأس عود المحرفة على مراثه وهو أكثر من ذراع ونصف وانه لخشن غليظ غير محكوك ولا ملين فدفعته حتى بلغ أقصى العود وأمتنع من الدخول ببدن المجرفة فخاف انه ماراه ناطر ولا أنثى (قال صاحب الحمام) فهذا فرق ما بيننا وبينكم وذكر ماوصف به الحمام من الاشعار ومن حسن الغناء والاطراب والنوح والشجا قال الحسن بن هانئ

إذا ثنته الغصون جللني * فينان ما في أديمه جرب
يهب شوقي وشوقهن معا * كأنما يستخفنا الطرب
تبيت في مأتم حمائمه * كما ترن الفواقد السلب

وقال آخر

لقد هتفت في جنح ليل حمامة * على فـنن تبكي واني لنائم
فقلت اعتذاراً ذا عندك وإنني * لنفسي مما قـد سمعت للائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقا * لما سبقتني بالبـكاء الحمائم

وقال نصيب

ولو قبل مبكاها بكيت صبابة * بسعدي شفيت النفس قبل التندم
ولـكن بكت قبلي فهيج لي البكا * بكاها فقلت الفضل للمتقدم

وقال إعرابى

عليك سلام الله قاطمة القوى * على ان قلبي للفراق كليم
قريح بتغريد الحمام اذا بكت * وان هب يوما للجنوب نسيم

لمجنون أو غيره

ولو لم يهجنى الرائحون لهاجني * حمائم ورق فى الديار وقوع
تجاوبن فاستبكين من كان ذا هوى * نوائح لا تجرى لهن دموع
الا ياسيالات الاخايل باللوى * عليكن من بين السيال سلام
أرى الوحش اجلالا اليكن بالضحي * لهن الى أفنا نكن بغام
وإني لمجلوب لى الشوق كلما * ترنم فى أفنانكن حمام

وقال عمرو بن الوليد

حال من دون ان أحل به النا * ى وصرف النوى وحرب عقام
فتبدلت من مساكن قومي * والقصور التى بها الآطام
كل قصر مشيد ذى أواس * تتغني على ذراه الحمام *

وقال آخر

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد * فقد هاج لى مسراك وجداً على وجد
أأن هتفت ورقاء فى رونق الضحي * على غصن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الوليد ولم تكن * جليداً وأبديت الذى كنت لاتبدى
وقد زعموا ان لمحب اذا نآى * يمل وان النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف مابنا * على ان قرب الدار خير من البعد

(وقال صاحب الحمام) للحمام مجاهيل ومعروفات وخارجيات ومنسوبات والذى يشتمل عليه دواوين أصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التى تضاف الى إبن

الكلبي والشرقى بن القطامى وابن أبى اليقظان وأبي عبيدة النحوى بل الى دغفل بن حنظلة وابن لسان الحمرة بل الى صحار العبدي والى أبى السطاح اللخمي بل الى المختار العدوى وصبح الطائي بل الى ميجور بن غيلان الضبى والى سطيح الديلى بل ابن شربة الجرهمى والى زيد بن الكيس النمرى والى كل نسابة راوية وكل متفنن علامة ووصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لانساب الحمام فقال والله لهو أنسب من سعيد بن المسيب وقتادة بن دعامة للناس بل هو أنسب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقد دخلت على رجل اعرف بالامهات المنجبات من سحيم ابن حفص وأعرف بما دخلها من الهجنه والاقراف من يونس بن حبيب قال ومما أشبه فيه الحمام الناس في الصور والشمائل ورقة الطباع وسرعة القبول للالقاب انك اذا كنت صاحب فراسة فمر بك رجال بعضهم كوفى وبعضهم بصرى وبعضهم مدنى وبعضهم شامي وبعضهم يمانى لم يخف عليك أمورهم في الصور والشمائل والقدود والنغم أنه بصري وأنه كوفي وانه شامي وأنه يماني وأنه مدنى وكذلك الحمام ألا تري صاحب حمام تخفي عليه نسب جماعته وجنسها وبلادها اذا رآها وللحمام من الفضيلة والفخر ان الحمام الواحد يباع بخمسمائة دينار ولا يبلغ ذلك باز ولا شاهين ولا صقر ولا عقاب ولا طاوس ولا تدرج ولا ديك ولا بعير ولا حمار ولا بغل ولو أردنا ان نحقق الخبر بأن برذونا أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لما قدرنا عليه الا فى حديث السمر وأنت إذا أردت أن تتعرف مبلغ ثمن الحمام الذي جاء من الغايه ثم دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة وفيه أن الحمام اذا جاء من الغاية بيع الفرخ الذكر من فراخه بعشرين ديناراً أو أكثر وبيعت الأنثى بعشرة دنانير أوأكثر وبيعت البيضة بخمسة دنانير فيقوم الزوج منهما مقام ضيعة حتى ينهض بمؤنة العيال ويقضي الدين وتبني من غلاته وأثمان رقابه الدور والجنان وتبتاع الحوانيت المغلة هذا وهي فى ذلك الوقت ملهى عجيب ومنظر أنيق ومعتبر لمن فكر ودليل لمن نظر ومن دخل الحجر فرآي قصورها المبنية لها بالسامان وكيف اقتران تلك الغلات وحفظ تلك المؤونات ومن شهد ارباب الحمام وأصحاب الهدى وما يحتملون فيها من الكلف الغلاظ أيام الزجل فى حملانها على ظهور الرجال

وقبل ذلك فى بطون السفن وكيف تفرد في البيوت وتجمع اذا كان الجمع أمثل وتفرق إذا كانت التفرقة أمثل وكيف تغفل الاناث عن ذكورتها الى غيرها وكيف يخاف عليها الضوى اذا تقاربت أنسابها وكيف يخاف على اعراقها من دخول الخارجيات فيها وكيف يحتال فى صحة طرقها وتحلها لانه لا يأمن ان يقمط الانثى ذكر من عرض الحمام فيضرب فى النجل بنصيب فتعتريه الهجنة والبيضة عند ذلك تنسب الى طرقها وهم لا يحوطون أرحام نسائهم كما يحوطون أرحام المنجبات من إناث الحمام عند زجلها من الغاية والذين يعملون الحمام كيف يختارون لصاحب العلامات وكيف يتخيرون الثقة في موضع الصدق والامانة والبعد من الكذب والرشوة وكيف يتوخون ذا التجربة والمعرفة اللطيفه وكيف تسخوا انفسهم بالجعالة الرفيعة وكيف يختارون لحملها من رجال الأمانة والجلد والشفقة والبصر وحسن المعرفه لعلم ذلك عند صاحب الديك والكلب انهما لا يجريان فى هذه الحلبه ولا يتعاطيان هذه القضيه قال وللحمام حسن الاهتداء وجودة الاستدلال وثبات الحفظ والذكر وقوة النزاع الى أربابه والالاف لوطنه وكفاك أهتدآء ونزاعا أن يكون طائر من بهائم الطير يجئ من ركة لا بل من العليق من حوساء ومن الصفصاف لا بل من النقراس ومن لؤلؤة ثم الدليل على انه يستدل بالعقل والمعرفة والفكرة والعناية انه يجئ من الغايه عن التدريج والتدرب والتنزيل والدليل على علم اربابه بان تلك المقدمات قد نجعن فيه وعملن فى طباعه انه اذا بلغ الرقة غمز وانه قطره الى الدرب وما فوق الدرب من بلاد الروم بل لا يجعلون ذلك تغميزاً لمكان المقدمات والترتيبات التي قد عملت فيه وحذقته ومرنته ولو كان الحمام مما يرسل بالليل لكان مما يستدل بالنجوم لانا رأيناه يلزم بطن الفرات أو بطن دجلة أو بطون الاودية التى قد مربها وهو يرى ويبصر ويفهم انحدار الماء ويعلم بعد طول الجولان بعد الزجال إذا أشرف على الفرات أو دجلة أن طريقه وطريق الماء واحد وأنه ينبغى ان ينحدر معه وما أكثر مايستدل بالجو أو من الطرق إذا أعيته بطون الأودية فاذا لم يدر أمصعد هو أم منحدر تعرف ذلك بالريح وبموضع قرص الشمس فى السماء وإنما يحتاج الى ذلك كله اذا لم يكن وقع بعد على رسم يعمل به عليه فربما كر حتى يرحل به شمالاً

وجنوبا وصبا ودبوراً الفراسخ الكثيرة وفوق الكثيرة وفي الحمام الغمر والمجرب وهم لا يخاطرون بالاغمار لوجهين أحدهما أن يكون الغمر عريقاً فصاحبه يضن به فهو يريدأن يدربه ويمرنه ثم يكافه بعد الشيء الذى اتخذه له وبسببه إصطنعهوأما ان يكون الغمر مجهولاً فهو لا يبقى ويشقى نفسه وتوقع الهداية من الاغمار الجاهيل وخصلة أخرى إن المجهول اذا رجع مع الهدى المعروفات فحمله معها الى الغاية فجاء سابقاًلم يكن له كبير ثمن حتى تتلاحق به الاولاد فان انجب فيهن صار أبداً مذكورا وصار نسيباً يرجع اليه وزاد ذلك في ثمنه فأما المجرب غير الغمر فهو الذي قد عرفوه بالورود والتخصب لانه متى لم يقدر على أن ينقض حتى يشرب الماء من بطون أو ساط الأودية والانهار والغدران ومواقع المياه ولم يتخصب بطاب بزور البرارى وجاع وعطش التمس مواضع الناس واذامر بالقرى والعمران سقطواذا سقط أخذبالبابكس وبالفقاعة وباللقف وبالبندق وبالفخ ورمي أيضاً بالجلاهق وبغير ذلك من أسباب الصيد والحمام أنيس ملق غير موقي وأعداؤه كثير وسباع الطير تطلبهأشد الطلب وقد يترفع مع الشاهين وهو للشاهين أخوف فالحمام أطير منه ومن جميع سباع الطير ولكنه يذعر فيجهل باب المخلص ويعتريه ما يعترى الحمار من الأسد اذا رآه والشاة اذارأت الذئب والفارة اذا رأت السنور والحمام أشد طيراناً من سباع الطير الا فى انقضاض وانحدار فان تلك تحط انحطاط الصخور متى القيت وأمة من سباع الطير أو حفالة من بهائم الطير أو طرف على غرفة وخيط ممدود فكلها يعتريها عند ذلك التقصير عند ماكانت عليه اذا طارت فى غير جماعة ولن ترى جماعة طير أكثر طيراناً اذا كثرن من الحمام فانهن كلما التففن وضاق موضعن كان أشد لطير انهن وقد ذكر ذلك النابغة الذبيانى في قوله

واحكم كحكم فتاةالحي اذنظرت * الى حمام شراع وارد الثمد
يحفه جانبا نيق ويتبعه * مثل الزجاجةلم تكحل من الرمد
قالت الا ليتما هذا الحمام لنا * الى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فالفوه كما حسبت * تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزد

فكملت مائة فيها حمامتها * وأسرعت حسبة فى ذلك العدد

قال الاصمعى لما أراد مديح الحاسب وسرعة إصابته شدد الأمر وضيقه عليه ليكون أحمد له اذا أصاب فجعله حزر طيراً والطير أخف من غيره ثم جعله حماما والحمام أسرع الطير وأكثرها إجتهاداً في السرعة اذا كثر عددهن وذلك انه يشتد طيرانه عند المسابقة والمنافسة وقال يحفه جانبا نيق ويتبعه فاراد ان الحمام اذا كان فى مضيق من الهوآء كان أسرع منه اذا إتسع عليه الفضاء وصاحب الحمام قد كان يدرب ويمرن وينزل في الزجال والغاية يومئـذ اقصر فكيف يصنع اليوم بتعريفه الطريق وتعريفه الورود والتخصب مع بعـد الغاية والبغداديون يختارون للزجال من الغاية الإناث والبصريون يختارون الذكور لحجة البغداديين أن الذكر اذا سافر وبعد عهده بقمط الإناث وتاقت نفسه الى السفاد ورآي أنثاه فى طريقه ترك الطلب ان كان بعـد في الجولان أو ترك السيران كان وقع على القصد ومال الى الانثى وفي ذلك السفاد كله وقال البصرى الذكر أحن الى بيته لمكان أنثاه وهو أشد متنا وأقوى بدناً وهو أحسن اهتداآء فنحن لاندع تقديم الشيء القائم الى معني قد يعرض وقد لا يعرض وسمعت سرفوحة السائحي من نحو خمسين سنة وهو يقول لعبد السـلام بن أبى العمان اجعل كعبة حمامك فى صحن دارك فان الحمام اذا كان متى خرج من بيته الى المعلاة لم يصل الى معلاته إلا بجمع النفس والجناحين وبالنهوض ومكابدة الصعود اشتد متنه وقوي جناحه ولحمه ومتى أراد بيته فاهتاج الى أن ينتكس ويجيء منقضاً كان أقوى على الارتفاع فى الهوى بعد أن يروي وقد تعلمون ان الباطنتين أشد من الظاهرتين وان النقرس لا يصيب الباطنين فى رجله ليس ذلك الا انه يصعد الى العلالى فوق الكساويح درجة بعد درجة وكذلك نزوله فلو دربتم الحمام هذا الترتيب كان أصوب ولا يعجبني تدريب العاتق وما فوق العاتق الا من الاما كن القريبة لأن العاتق كالفتاة العاتق وكالصبي الغرير فهو لا يعدمه ضعف البدن وقلة المعرفة وسوء الالف ولا يعجبني ان تتركوا الحمام حتى اذا صار في عـدد المسان واكتهل وولد البطون بعد البطون وأخذ ذلك من قوة شبابه حملتموه على الزجل وعلى التمرين ثم رميتم به أقصى غاية لا

ولكن التدريب مع الشباب وانتهاء الحدة وكمال القوة من قبل ان تأخذ القوة في النقصان فهو يلقن بقوته مع الحداثه ويعرف بخروجه من حد الحداثه فابتدءوا به التعليم والتمرين في هذه المنزلة الوسطى وهم اذا أرادوا أن يمرنوا الفراخ أخرجوها وهي جائمة حتى اذا القوا اليها الحب أسرعت النزول ولا تخرج والريح عاصف فتخرج قبل المغرب وانتصاف النهار وحذاقهم لا يخرجونها مع ذكورة الحمام فان الذكورة يعتريها النشاط والطيران والتباعد ومجاوزة القبيلة فان طارت الفراخ معها سقطت على دور الناس فرياضتها شديدة وتحتاج الى معرفة وعناية والى صبر ومطاولة لأن الذى يراد منها اذا إحتيج اليه بعد هذه المقدمات كان أيضاً من العجب العجيب وحدثنى بعض من أثق به ان يعقوب بن داود قال لبعض من دخل عليه وقد ذهب عنى إسمه ونسيته بعد ان كنت عرفته أما ترى كيف اخلف ظننا وأخطأ رأينا حتى عم ذلك ولم يخص أما كان فى جميع من اصطنعناه واخترناه وتفرسنا فيه الخير وأردنا به واحداً تكفينا معرفته والاحتجاج عنه حتى صرت لا أفزع الا بهم ولا أدأب الا باختيارهم قال فقال له رجل ان الحمام تختار من جهة النسب ومن جهة الخلقة ثم لا يرضى له أربابه بذلك حتى ترتبه وتنزله وتدرجه ثم تحمل الجماعة معه بعد ذلك الترتيب والتدريب الى الغاية فيذهب الشطر ويرجع الشطر أو شبيها بذلك أو قريباً من ذلك وأنت عمدت الي حمام لم تنظر في أنسابها ولم تتأمل مخيلة موضع الخير فى خلقها ثم لم ترض حتى ضربت بها ضربة واحدة الى الغاية فليس ذلك بعجيب ولا بمنكر ان لا يرجع اليك واحد منها وانما كان العجب فى الرجوع فاما في الضلال فليس ذلك بعجب ولا بمنكر وعلى أنه لو رجع منهن واحد أوأكثر من الواحد لكان خطأك موفراً عليك ولم ينتقصه خطأ لانه ليس من الصواب ان يجئ طائراً من الغاية على غير تدريب

باب ومن كرم الحمام

الالف والانس والنزاع والشوق وذلك يدل على ثبات العهد وحفظ ما ينبغي ان يحفظ وصون ما ينبغي ان يصان وانه لخلق صدق فى بني آدم فكيف اذا كان ذلك الخلق فى بعض

الطير وقد قالوا عمر الله البلدان بحب الاوطان قال ابن الزبير ليس الناس بشيء في اقتسامهم أقنع منهم باوطانهم وأخبر الله عز وجل عن طبائع الناس في حب الاوطان فقال (قالوا وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) وقال (ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليل منهم) وقال الشاعر

وكنت فيهم كممطور ببلدته * فسر ان جمع الاوطان والمطرا

فتجده يرسل من موضع فيجيء ثم يخرج من بيته إلى اضيق موضع والى زحام وقفار فيرسل من ابعد من ذلك فيجيء ثم تكون الحرارة أن يغمر به الرقة الى لؤلؤة فيجيء ويسترق من منزل صاحبه فيقص ويغبر هناك حولا وأكثر من الحول فحين ينبت جناحه يحن الى الفه وينزع الى وطنه وان كان الموضع الثانى أنفع له وانعم لباله فيهب فضل ماينهما لموضع تربيته وسكنه كالانسان الذى لو أصاب فى غير بلاده الريف لم يقع ذلك فى قلبه وهو يعالجهم على ان يعطي عشر ماهو فيه فى وطنه ثم ربما باعه صاحبه فاذا وجد مخلصا رجع اليه حتى ربما فعل ذلك مرارا وربما طار دهره وجال في البلاد وألف الطيران والتقلب فى الهواء والنظر الى الدنيا فيبدو لصاحبه فيقص جناحه ويلقيه فى ديماس فينبت جناحه فلا يذهب عنه ولا يتغير له نعم حتى ربما جد وهو مقصوص فاما صار اليه واما بلغ عذراً ومتى قص أحد جناحيه كان أعجز له عن الطيران ومتى قصهما جميعاً كان اقوى له عليه ولكنه لا يبعد لانه اذا كان مقصوصاً من شق واحد اختلف خلقه ولم يعتدل وزنه وصار أحدهما هوائيا والآخر أرضيا فاذا قص الجناحان جميعاً طار وان كان مقصوصاً فقد بلغ بذلك التعديل من جناحه أكثر مما كان يبلغ اذا قص أحدهما وترك الآخر وافيافا الكلب الذى تدعون له الالف وثبات العهد لا يبلغ هذا وصاحب الديك الذي لا يفخر للديك بشيء من الوفاء والحفاظ والالف احق بأن لا يعرض في هذا الباب قال وقد يكون الانسان شديد الحضر فاذا قطعت أحدى يديه فأراد العد وكان خطوه اقصر وكان عن ذلك القصد والسنن اذهب وكانت غاية مجهوده أقرب وخبرنى من شئت من اشداء الفتيان ان نباتة الاقطع وكانت يده قطعت من دون المنكب وكان ذلك فى شقه الأيسر فكان اذا صار الى

القتال وضرب بسيفه فان أصاب الضريبة ثبت وان اخطأ سقط لوجهه اذ لم يكن
جناحه يمسكه ويثقله حتى يعتدل بدنه وقد طعن قوم في أجنحة الملائكة وقد قال الله
تعالى (الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا اولى اجنحة مثنى وثلاث
ورباع يزيد في الخلق ما يشاء) ان الجناحين كاليدين واذا كان الجناح اثنين أو أربعة
كانت معتدلة واذا كانت ثلاثة كان صاحب الثلاثة كالحاذق من الطير الذى أحد
جناحيه مقصوص فلا يستطيع الطيران لعدم التعديل وإذا كان احد جناحيه وافيا والآخر
مقصوصاً اختلف خلقه وصار بعضه يذهب الى أسفل والآخر الى فوق وقالوا انما
الجناح مثل اليد ووجدنا الايدى والارجل في جميع الحيوان لا تكون الا أزواجاً فلو
جعلتم لكل واحد منهم مائة جناح لم ننكر ذلك وان جعلتموها انقص بواحد أو أكثر
بواحد لم نجوزه قيل لهم قد رأينا من ذوات الاربع ما ليس له قرن ورأينا ماله قرنان
أملسان ورأينا ما له قرنان لهما شعب فى مقادير القرون ورأينا بعضها جما ولاخواتها
قرون ورأينا منها مالا يقال لها جم لانها ليست لها شكل ذوات القرون ورأينا لبعض
الساعدة قرون نابتة فى عظم الرأس أزواجاً وأفراداً ورأينا قرونا جوفافيها قرون ورأينا
قرونا لاقرون فيها ورأيناها مصمتة ورأينا بعضها ينصل قرنه فى كل سنة كما تسلخ
الحية جلدها وتنفض الأشجار ورقها وهى قرون الايايل وقد زعموا أن للحمار الهندى
قرنا واحداً وقد رأينا طائراً شديد الطيران بلا ريش كالخفاش ورأينا طائرا لا يطير وهو
وافى الجناح ورأينا طائراً لا يمشي وهو الزرزور ونحن نؤمن بان جعفر الطيار ابن أبي
طالب له جناحان يطير بهما فى الجنان جعلا له عوضاً من يديه اللتين قطعتا على لواء
المسلمين في يوم مؤتة وغير ذلك من أعاجيب أصناف الخلق فقد يستقيم وهو سهل
جائز شايع مفهوم ومعقول قريب غير بعيد أن يكون اذا وضع طباع الطائر على هذا
الوضع الذي تراه لا يسير الا بالازواج فاذا وضع على غير هذا الوضع وركب غير هذا
التركيب صارت ثلاثة أجنحة وفوق تلك الطبيعة ولو كان الوطواط وضع فى اخلاطه
واعضائه وامتزاجه كسائر الطير لما كان بلا ريش وقد زعم البحريون ان طائرا لم
يسقط قط وإنما يكون سقوطه من لدن خروجه من بيضه أن تم قصب ريشه ثم يطير

فليس له رزق الا من بعوض الهواء وأشباه البعوض الا انه قصير العمر سريع الانحطام وليس بمستنكر أن يمرح الطائر ويعجن غير عجنه الاول وقد يجوز أيضاً أن يكون موضع الجناح الثالث بين الجناحين فيكون الثالث للثاني كالثاني للاول وتكون كل واحدة من ريشة عاملة في التي تليها من ذلك الجسم فتستوي في القوى وفى الحصص ولعل الجناح الذي أنكره الملحد لضيق العطن أن يكون مركز قوادمه في حاق الصلب ولعل ذلك الجناح أن تكون الريشة الاولى منه معينة للجناح الايمن والثانية معينة للجناح الايسر وهذا مما لا يضيق عنه الوهم ولا يعجز عنه الجواب فاذا كان ذلك ممكنا في معرفة العبد بما أعاره الرب جل وعز كان ذلك في قدرة الله أجوز وما أكثر من يضيق صدره لقلة علمه وقد علموا أن كل ذي أربع فانه إذا مشى قدم إحدى يديه ولا يجوز أن يستعمل اليد الاخرى ويقدمها بعد الاولى حتى يستعمل الرجل المخالفة لتلك اليدان كانت اليد المتقدمة اليمنى حرك الرجل اليسرى واذا حرك الرجل اليسرى لم يحرك الرجل اليمني وهى أقرب اليدواشبه بها حتى يحرك اليد اليسرى وهذا كثير في طريق أخري فقد يقال إن كل انسان فانما ركبته في رجله وجميع ذوات الاربع فانما ركبها فى أيديها وكل شيء ذى كف وبنان كالانسان والقرد والاسد والضب والدب فكفه فى يده والطائر كفه فى رجله وما رأيت أحداً ليس له يد الا وهو يعمل برجليه ما كان بيديه وما أقف على شيء من عمل الايدى الا وأنا قد رأيت قوما يتكلفونه بأرجلهم ولقد رأيت وأحداً منهم راهن على أن يفرغ برجليه ما في دستيجية نبيذ في قناني رطليات وفقاعيات فراهنوه وأزعجنى أمر فتركته عند ثقات لا أشك في خبرهم فزعموا انه وفى وزاد قلت قد عرفت قولكم وفى فما معني قولكم زاد قالوا هو انه لوصب من رأس الدستيجة حوالى افواه القنانى كما يعجز عن ضبطه جميع أصحاب الكمال في الجوارح لما أنكرنا ذلك ولقد فرغ مافيها في جميع القنانى فما ضيع أوقية واحدة وخبرنى الخزامى عن خليل أخيه انه متى شاء أن يدخل فى بيت ليلا بلا مصباح ويفرغ فى قنانى فلا يصب استاراً واحداً فعله وحكي لى الخزامي هذا الصنيع عن رجل ولد أعمى أو عمى فى صباه كان يعجبني منه أقل فاما من تعود أن يفعل مثل ذلك وهو يبصر فما أشد

عليه أن يفعله وهو مغمض العينين فان كان أخوه قد كان يقدر على ذاك اذا غمض عينيه فهو عندى عجب وان كان يبصر في الظلمة فهو قد أشبه فى هذا الوجه السنور والفأر فان هذا عندي عجب آخر وغرائب الدنيا كثيرة عند كل من كان كلفا بتعرافها وكان له في العلم أصل وكان بينه وبين التبيين نصيب وأكثر الناس لا تجدهم الا فى حالتين اعراض عن التبيين وإهمال النفس واما فى حالة تكذيب وانكار وتسرع الى أصحاب الاعتبار وتتبع الغرائب والرغبة فى الفوائد ثم يرى بعضهم ان له بذلك التكذيب فوائد وان ذلك باب من التوقى وجنس من استعظام الكذب وانه لم يكن كذلك الا من حاز الرغبة فى الصدق أو تبين الشيء معاندة للاقرار وقهرا بالحق والذى أمر الله تعالى به ورغب فيه وحث عليه ذكر الجواز والترتيب في ذلك التثبت وأن يكون الحق في ذلك هو ضالتك والصدق هو بغيتك كائنا ما كان وقع منك بالموافقه ام وقع منك بالمكروه ومتى لم تعلم ان ثواب الحق وثمرة الصدق أجدي عليك من تلك الموافقة لم تقع على أن تعطي التثبت حقه قال وهم يصفون الرماد الذي بين الاثافى بالحمامة ويجعلون الاثافى أظئاراً لها للانحناء الذي في أعالى تلك الاحجار ولانها كانت معطفات عليها وحانيات على أولادها قال ذو الرمة

كأن الحمام الورق فى الدارا جثم * على خرق بين الاثافى جوازله

شبه الرماد بالفراخ قبل أن تنهض والجثوم فى الطير مثل الربوض فى الغنم وقال الشماخ

وإرث رماد كالحمامة ماثل * ونؤيين في مظلومتين كداهما

وقال أبو حية

كأن بها حمامات ثلاثا * مثلن ولم يطرن مع الحمام

وقال العرجى

ومربط أفراس وخيم مصرع * وهاب كجثمان الحمامة هامد

وقال البعيث

وسفع ثوين العام والعام قبله * وسحق رماد كالنصيف من العصب

وقالوا فى نوح الحمام قال جران العود

واستقبلوا وديا نوح الحمام به * كأنه صوت أنباط مثاكيل

وقالوا في ارتفاع مواضع بيوتها وأعشاشها قال الاعشي

ألم تر أن العرض أصبح بطنه * نخيلا وزرعا نابتاً وفصافصا

وذى شرفات يقصر الطرف دونه * ترى للحمام الورق فيه قوامصا

وقال عمرو بن الوليد

فتبدلت من مساكن قومى * والقصور التى بها الآطام

كل قصر مشيد ذى أواس * تتغني على ذراه الحمام

والحمام أيضاً ربما سكن أجراف الركايا ولا يكون ذلك الا للوحشي منها وفى البير التى لا تورد قال الشاعر

بدلوا غير مكربة أطابت * جماما فى مساكنه فطارا

يقول استقى بملغوة من هذه البئر ولم يستق بدلو وهذه بئر قد سكنها الحمام لانها لا تورد وقال جهم بن ضابئ

وقد هاج شوقى ان تغنت حمامة * مطوقة ورقاء تصدح في الفجر

هتوف تبكي ساق حر ولن ترى * لها دمعة يوماً على خدها تجري

تغنت بلحن فاستجابت لصوتها * نوائح بالاصناف فى فنن السدر

اذا فترت كرت بلحن شجونها * تهيج للصب الحزين جوى الصدر

دعتهن مطراب العشيات والضحي * بصوت يهيج المستهام على الذكر

فلم أر ذا وجد يزيد صبابة * عليها ولا ثكلى تبكى على وكر

فاسعدنها بالنوح حتى كأنما * شربن سلافا من معتقة الخمر

تجاوبن لحنا فى الغصون كانها * نوائح ميت يندبن على قبر

بسرة واد من تبالة مونق * كسا جانبيه الزهر وأعتم بالزهر

ويقال هدر الحمام يهدر قال ويقال في الحمام الوحشى من القمارى والفواخت والدباسى وما أشبه ذلك قد هدل يهدل هديلاً فإذا طرب قيل غرد يغرد تغريداً والتغريد يكون للحمام والانسان وأصله من الطير وأما أصحابنا فيقولون ان الجمل يهدر ولا يكون

باللام والحمام يهدل وربما كان بالراء وبعضهم يزعم ان الهديل من أسماء الحمام الذكر قال الراعى وإسمه عبيد بن الحصين

كهداهد كسر الرماة جناحه * يدعو بقارعة الطريق هديلا

وزعم الاصمعي ان قوله هتوف تبكى ساق حر انما هو حكاية صوت وحشى الطير من هذه النواحات وبعضهم يزعم ان ساق حر هو الذكر وذهب الى قول الطرماح في تشبيه الرماد بالحمام فقال

بين أظآر بمظلومة * كسرات الساق ساق الحمام

وقال آخر يصف فرساً

ينجيه من مثل حمام الاغلال * رفع يد عجلي ورجل شملال

* يظمأ من تحت وتروي من عال *

حمام الاغلال جمع غلل وهو الماء الذي يجرى بين ظهرى الشجر قال والمعنى ان الحمام اذا كان يريد الماء فهو أسرع لها وقوله شملال أي خفيفة

باب

ليس فى الارض جنس يعتريه الاوضاح والشيات ويكون فيها المصمت والبهيم أكثر ألواناً من أصناف التخاسين ما يكون فى الحمام فنهاما يكون أخضر مصمتاً وأسود مصمتاً وضروباً من ذلك كلها مصمتة الا أن الهداية للخضر والنمر فاذا ابيض الحمام فمثله من الناس الصقلابى فإن الصقلابى قطر خاص لم تنضجه الارحام في البلاد التى شمسها ضعيفة وإن أسود الحمام فانما ذلك إحتراق ومجاوزة لحد النضج ومثل به من الناس الزنج فان أرحامهم جاوزت حد الانضاج الى الاحراق وكشطت الشمس شعورهم فتقبضت والشعر إذا أدنيته من النار تجعد فان زدته تقلقل فان زدته احترق وكما ان عقول سودان الناس وحمرانهم دون عقول السمر كذلك بيض الحمام وسودها دون الخضر في المعرفة والهداية وأصل الخضرة انما هو لون الريحان والبقول ثم جعلوا بعد الحديد أخضر والسماء خضراء حتى سموا بذلك الكحل والليل قال الشماخ بن ضرار

* فنازعت جلبابا من الليل أخضرا * وقال الراجز

حتى إنتضاه الصبح من ليل خضر * مثل إنتضاء البطل السيف الذكر

* نضو هوى بال على نضو سفر *

وقال الله عز وجل (ومن دونهما جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان مدهامتان) قال خضروان من الرى سودا وان ويقال ان العراق انما سمى سواداً بلون السعف الذى فى النخل ومائه والاسودان الماء والتمر والابيضان الماء واللبن والماء أسود إذا كان مع التمر وابيض اذا كان مع اللبن ويقولون سود البطن وحمر الكلا ويقولون سود الاكباد يريدون العداوة كالاحقاد احرقت الاكباد ويقال للحافر اسود البطن لان الحوافر لايكون فى بطنها شحم ويقولون نحن بخير ما رأينا سواد فلان بين أظهرنا يريدون شخصه وقالوا بل يريدون ظله فاما خضر محارب فانما يريدون السودد وكذلك خضر غسان ولذلك قال الشاعر

ان الحضارمة الخضر الذين غدوا * أهل البريض ثمان منهم الحكم

ومن هذا المعني قول القرشي في مديح نفسه

وأنا الاخضر من يعرفني * أخضر الجلدة فى بيت العرب

واذا قالوا فلان اخضر القفا فانما يعنون به انه قد ولدته سوداء وإذا قالوا فلان اخضر البطن فإنما يريدون انه حائك لان الحائك بطنه لطول التزاقه بالخشبة التى يطوى عليها الثوب يسود وكان سبب عداوة العروضي لابراهيم النظام انه كان يسميه الاخضر البطن والاسود البطن فكان يكشف بطنه للناس يريد بذلك تكذيب ابى اسحاق حتى قال له اسماعيل بن غزوان إنما يريد انك من أبناء الحاكة فعاداه لذلك فاذا قيل أخضر النواجد فانما يريدون أنه من أهل القرى ممن يأكل الكراث والبصل وإذا قيل للثور خاضب فانما يريدون ان البقل قد خضب اظلافه بالخضرة وإذا قيل للظليم خاضب فانما يرون حمرة وطيفة فانهما يحمران في القيظ وإذا قيل للرجل خاضب فانما يريدون الحناء فإذا كان خضابه بغير الحناء قالوا صيغ ولا يقال خضب ويقولون فى شبيه بالباب الاول الاحمران الذهب والزعفران والابيضان الماء واللبن والاسودان

الماء والتمر ويقولون أهلك النساء الاحامران الذهب والزعفران وأهلك الناس الاحامر الذهب والزعفران واللحم والخمر والجديدان الليل والنهار وهما لونان والعصر الدهر والعصران صلاة العصر والعشاء والعصران الغداة والعشي قال الشاعر

وأمطاله العصرين حتى يملنى * ويرضى بنصف الدين والانف زاغم

ويقال البايعان بالخيار وانما هو البايع والمشترى فدخل المبتاع في البائع وقال الله عز وجل (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك) دخلت الام فى اسم الأبوة كأنهم يجمعون على إبنه الإسمين كالبحرين والمسلمين والزهدمين والبصرتين وليس ذلك بالواجب وقد قالوا سيرة العمرين وأبو بكر فوق عمر قال الفرزدق

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها والنجوم الطوالع

وأما قول ذى الرمة

وليل كجلباب العروس ادرعته * بأربعة والشخص فى العين واحد

فانه ليس يريد لون الجلباب ولكنه يريد سبوغه قال وكذلك قول الاعرابي حين قيل له بأي شئ تعرف حمل شاتك قال اذا استفاضت خاصرتها ودجت شعرتها فالداجي هاهنا اللابس قال الاصمعي ومسعود الفزارى الا ترونه يقول كان ذلك وثوب لأسلام داج وأما لفظ الأصمعي فانه قال كان ذلك منذ دجا الاسلام يعنى انه البس كل شيء (ثم رجع بنا القول) الى ذكر شيات الحمام وزعموا ان الاوضاح كلها ضعف قليلها وكثيرها الا ان ذلك بالحصص على قدر الكثرة والقلة كذلك هي فى جميع الحيوان سواء مستقبلها ومستدبرها وذلك ليس بالواجب حتى لايغادر شيئاً البتة لان الكلبة السلوقية البيضاء أكرم وأصيدوا صبر من السواد (والبياض في الناس) على ضروب فالمعيب منه البياض المغرب والأشقر والأحمر أقل فى الضعف والفساد واذا كان مشتقا من بياض البهق والبرص والبرش والمغرب عند العرب لاخير فيه البتة والفقيع لاينجب وليس عنده الا حسن بياضه عند من اشتهى ذلك وزعم ابن سلام الجمحى انه لم يرقط بلقاء ولا ابلق سابقا وقال الاصمعي لم يسبق الحلبة اهضم قط لانهم يمدحون المجفر من الخيل كما قال

خيط على زفرة قم ولم * يرجع الى درقة وهضم

ويقولون ان الفرس بعنقه وبطنه (وخبرني بعض أصحابنا) أنه رأي فرساً للمأمون بلقاء سبقت الحلبة وهذه نادرة غريبة والحمام طائر ألوف مألوف ومحبب موصوف بالنظافة حتى ان ذرقه لا يعاب ولا نتن له كسلاح الدجاج والديكة وقد يعالج بذرقه صاحب الحصاة والفلاحون يجدون فيه أكثر المنافع والخباز يلقى الشيء منه فى الخمير لينتفخ العجين ويعظم الرغيف ثم لا يستبين ذلك فيه ولذرقه غلات يعرف ذلك أصحاب الحجر وهو يصلح في بعض وجوه الدبغ

باب

الحمام طائر لئيم قاسى القلب وإن بر بزعمكم ولد غيره وصنع به كما يصنع بفرخه وذلك انهما يحضنان كل بيض ويزقان كل فرخ وما ذاك منهما الا فى الفرط فاما لؤمه في طريق الغيرة فانه يرى بعينه الذكر الذى هو أضعف منه وهو يطرد أنثاه ويكسح بذنبه حولها ويتطوس لها ويستميلها وهو يرى ذلك بعينه ثم لم نر قط ذكراً واثب ذكراً عند مثل ذلك فإذا قلت انه يشتد عليه ويمنعه اذا اجتمعت له وأرد أن يعلوها فكل ذكر وأنثي هنالك يفعل ذلك وليس ذلك من الذكر الغريب من طريق الغيرة ولكنه ضرب من البخل ومن النفاسة واذا لم يكن من ذكرها الا مثل ما يكون من جميع الحمام علم ان ذلك منه ليس من طريق الغيرة قال وأما ماذكرتم من أن الحمام معطوف على فراخه مادامت محتاجة الى الزق فاذا استغنت نزعت منها الرحمة فليس ذلك كما قلتم الحمام طائر ليس له عهد وذلك ان الذكر ربما كانت معه الأنثي السنين ثم تنقل عنه وتوارى شهراً واحداً ثم تظهر له مع زوج أضعف منه فيراها طول دهره وهي إلى جنب بيته ويراه فكانه لا يعرفها بعد معرفتها الدهر الطويل وانما غابت عنه الايام اليسيرة فليس يوجد ذلك الجهل الذى يعامل به فراخه بعد ان كبرت الا على الغباوة وسوء الذكر وإن الفرخ حين استوى ريشه وأشبه غيره من الحمام جهل الفضل الذى بينهما فان كان يعرف أنثاه وهو يجدها مع

ذكر ضعيف وهو مسلم لذلك وقانع به وقليل الاكتراث به فهو من لؤم في أصل الطبيعة (قال) وباب آخر من لؤمه القسوة وهي ألأم اللؤم وذلك أن الذكر ربما كان في البيت طائر ذكر قد اشتد ضعفه فينقر رأسه والآخر مستخذ له قد أمكنه من رأسه خاضعاً له شديد الاستسلام لأمره فلا هو يرحمه لضعفه وعجزه عنه ولا هو يرحمه لخضوعه ولا هو يمل وليس له عنده وتر ثم ينقر يافوخه حتى ينقب عنه ثم لا يزال ينقر ذلك المكان بعد النقب حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه فلو كان مما يأكل اللحم واشتهى الدماغ كان ذلك له عذرا إذ لم يعد ما طبع الله عليه سباع الطير فاذا رأينا من بعض بهائم الطير من القسوة مالا نرى من سباع الطير لم يكن لنا الا أن نقضي عليه من اللؤم على حسب مباينته لشكل البهيمة ونزيد في ذلك على مافي جوارح الطير مثل السبعية

﴿ باب ﴾

زعم أبو الاصبع بن ربعي قال كان روح أبو همام صاحب المعمى عند مثني بن زهير فبينما هو يوما وهو معه في السطح اذ جاء جماعة فصعدوا فلم يلبث ان جاء آخرون ثم لم يلبث ان جاء مثلهم فأقبل عليهم فقال أى شئ جاء بكم وما الذى جمعكم اليوم قالوا هذا اليوم الذي يرجع فيه مزاجيل الحمام من الغاية قال ثم ماذا قالوا ثم نتمتع بالنظر اليها اذا أقبلت قال لكنني أتمتع بتغميض العين إذا أقبلت وترك النظر اليها ثم نزل وجلس وحده وقال مثني بن زهير ذات يوم ما تلهى الناس بشيء مثل الحمام ولا وجدنا شيئا مما يتخذه الناس ويلعب به ويلهي به يخرج من أبواب الهزل الى أبواب الجد كالحمام وأبو اسحاق حاضر فغاظه ذلك وكظم على غيظه فلما رأى مثني سكوته عن الرد عليه طمع فيه فقال يبلغ والله من كرم الحمام ووفائه وثبات عهده وحنينه الى أهله أني ربما قصصت الطائر دهراً بعد أن طار عندى دهراً فمتي نبت جناحه كنباته الاول لم يدعه سوء صنعي اليه الى الذهاب عني ولربما بعته فيقصه المبتاع حينا فما هو الا أن يجد في جناحه قوة على النهوض أتاني جادفا أو غير جادف وربما فعلت ذلك به مرارا كثيرة كل ذلك

لا يزداد إلا وفاء قال أبو اسحاق اما أنت فاراك دائباً تحمده وتذم نفسك ولئن كان رجوعه اليك من الكرم إن اخراجك له من اللؤم وما يعجبني من الرجال من يقطع نفسه لصلة طائر وينسى ما عليه في جنب ماللبهيمة ثم قال خبرني عنك حين تقول رجع الى مرة بعد مرة وكلما زهدت فيه كان فى أرغب وكلما باعدته كان لى أطلب اليك جاء واليك حن أم الى عشه الذى درج منه والى وكره الذي ربي فيه أرأيت أن لو رجع الى وكره وبيته ثم لم يجدك والفاك غائبا أو ميتا أكان يرجع الى موضعه الذى خلفه وعلى انك تتعجب من هدايته وما لك فيه مقال غيره فإما شكرك على ارادته لك فقد تبين خطاؤك فيه وانما بقي الآن حسن الاهتداء والحنين الى الوطن وقد أجمعوا على أن الرخم من لئام الطير وبغاثها وليست من عتاقها وأحرارها وهى من قواطع الطير ومن موضع مقطعها الى مرجعها اليه من عندنا أكثروا طول من مقدار أبعد غايات حمامكم فان كانت وقت خروجها من أوطانها الينا خرجت تقطع الصحارى والبرارى والجزائر والغياض والبحار والجبال حتى تصير الينا فى كل عام فان قلت انها ليست تخرج إلينا على سمت ولا على هداية ولا دلالة ولا على إمارة وعلامة وإنما هربت من الثلوج والبرد الشديد وعلمت انها تحتاج الى الطعم وان الثلج قد ألبس ذلك العالم فخرجت هاربة فلا تزال فى هربها إلى أن تصادف أرضاً خصبا ودفأ فتقيم عند أدنى ما تجد فما تقول فيها عند رجوعها ومعرفتها بانحسار الثلوج عن بلادها أليست قد اهتدت طريق الرجوع ومعلوم عند أهل تلك الاطراف وعند أصحاب التجارب وعند القانص ان طير كل جهة اذا قطعت رجعت الى بلادها وجبالها وأوكارها والى غياضها وأعشتها فتجد هذه الصفة في جميع القواطع من الطير كرامها ولئامها وبهائمها كسباعها ثم لا يكون اهتداؤها على تمرين وتوطين ولا عن تدريب وتجريب ولم تتقن بالتعليم ولم تثبت بالتدبير والتقويم فالقواطع لأنفسها تصير الينا ولأنفسها تعود الى أوكارها وكذلك الأوابد من الحمام لأنفسها ترجع والفها للوطن الف مشترك مقسوم على جميع الطير فقد بطل جميع ما ذكرت ثم قال وأعجب من جميع قواطع الطير قواطع السمك الاشبور والجراف والبرستوج فان هذه الانواع تأتي دجلة البصرة من أقصى البحار

تستعذب الماء في ذلك الإبان كأنها تحمض بحلاوة الماء وعذوبته بعد ملوحة البحر كما تحمض الابل فتطلب الحمض وهو ملح بعد الخلة وهو ماء حلو عذب والأسد اذا أكثرت من حسو الدماء والدماء حلوة وأكل اللحم واللحم حلو طلبت الملح لتستملح به وتجعله كالحمض بعد الخلة ولولا حسن موقع الملح لم يدخله الناس في أكثر طعامهم والاسد يخرج للتملح فلا يزال يسير حتى يجد ملاحة وربما اعتاد الاسد مكاناً فيجده ممنوعاً فلا يزال يقطع الفراسخ الكثيرة وبعد ذلك فاذا تملح رجع الى موضعه وغيضته وعرينه ومحرابه وعريسه وان كان الذي قطع خمسين فرسخاً ونحن بالبصرة نعرف الاشهر التي يقبل الينا فيها الاشبور وأصناف السمك وهى تقبل مرتين فى كل سنة ثم نجدها فى إحداهما أسمن الجنس فيقيم كل جنس منها عندنا شهرين الى ثلاثة أشهر فاذا مضى ذلك الاجل وانقضت مدة ذلك الجنس قبل الجنس الآخر فهم فى جميع أقسام شهور السنة من الشتاء والربيع والصيف والخريف في نوع من السمك غير النوع الآخر الا ان البزسبوج يقبل الينا قاطعاً من بلاد الزنج يستعذب الماء من دجلة البصرة يعرف ذلك جميع الزنج والبحريين وهم يزعمون ان الذى بين البصرة والزنج أبعد مما بين الصين وبينها وانما غلط ناس فزعموا ان الصين أبعد لان بحر الزنج حفرة واحدة عميقة واسعة وأمواجها عظام ولذلك البحر ريح تهب من عمان الى جهة الزنج شهرين وريح تهب من بلاد الزنج تريد جهة عمان شهرين على مقدار واحد فيما بين الشدة واللين الا أنها الى الشدة أقرب فلما كان البحر عميقاً والريح قوية والامواج عظيمة وكان الشراع لا يحط وكان سيرهم مع الوتر ولم يكن مع القوس ولا يعرفون الجيب والميل صارت الأيام التى تسير فيها السفن الى الزنج أقل قال والبزسبوج سمك يقطع أمواج الماء ويسيح الى البصرة من الزنج ثم يعود ما فضل عن صيد الناس الى بلاده وبحره وذلك أبعد مما بين البصرة إلى العين المرار الكثيرة وهم يصيدون من البحر فيما بين البصرة الى الزنج ولا نرى من البزستبوج شيئاً في إبان مجيئها الينا ورجوعها عنا والا فالبحر منها فارغ خال فعامة الطير أعجب من حمامكم وعامة السمك أعجب من الطير والطير ذو جناحين يحلق فى الهواء فله سرعة الدرك وبلوغ الغاية والطيران وله إدراك العالم بما فيه بعلامات وأمارات

إذا هو حلق في الهواء وعلى فوق كل شئ والسمكة تسبح فى غمر البحر والماء ولا تسبح في أعلاه ونسيم الهواء والذى يعيش به الطير لو دام على السمك ساعة من نهار لقتله وقال ابن أبي العنبر بن ابى نخيلة الراجز وذكر السمك

تغمه النشزة والنسيم * فلا يزال مغرقا يعوم
فى البحر والبحر له حميم * وأمه الوالدة الرءوم
* تلهمه جهلا وما يريم *

يقول النشزة والنسيم الذى يحيي جميع الحيوانات اذا طال عليه الحموم واللخن والعفن والرطوبات الغليظة فذلك يغم السمك ويكربه وأمه التى ولدته تأكله لان السمك يأكل بعضه بعضا وهو فى ذلك لا يريم هذا الموضع

وقال رؤبة

والحوت لا يكفيه شئ يلهمه * يصبح عطشان وفى الماء فمه

يصف طباعه واتصاله بالماء وأنه شديد الحاجة اليه وإن كان غرقا أبدا (وأنشدني) محمد بن يسير لبعض المدنيين يهجو رجلا وهو قوله

لو رآى فى السقف فرجا * لزنا حتى يموتا
أو رآه وسط بحر * صار فيه الدهر حوتا

قال يقول فى الغوص فى البحر وفى طول اللبث فيه وقال الذكواني وهو يصف الضفدع

يدخل فى الاشدق ماء ينصفه * كما ينق والنقيق يتلفه

قال يقول الضفدع لا يصوت ولا يتهيأ له ذلك حتى يكون فى فيه ماء واذا أراد ذلك أدخل فكه الاسفل في الماء وترك الاعلى حتى يبلغ الماء نصفه والمثل الذى يتمثل به الناس فلان لا يستطيع أن يجيب خصومه لان فاه ملآن ماء وقال شاعرهم

وما نسيت مكان الامريك بذا * يا من هويت ولكن فى فمى ماء

وانما جعلوا ذلك مثله حين وجدوا الانسان اذا كان فى فمه ماء على الحقيقة لم يستطيع الكلام فهو تأويل قول الذكوانى * يدخل فى الاشداق ماء ينصفه * بفتح الياء وضم الصاد فانه ذهب الى قول الشاعر

وكنت اذا جارى دعا لمضوفة * اشمر حتى ينصف الساق مئزرى

وكقول الآخر (فان الظن ينصف أو يزيد) وهذا ليس من الانصاف الذى هوالعدل وانماهو من بلوغ نصف الساق واما قوله * كما ينق والنقيق يتلفه * فإنه ذهب الى قول الشاعر

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت * فدل عليها صوتها حية البحر

وقل معني سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفه وقرأناه فى كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدنا قريباً منه في أشعار العرب والاعراب وفى معرفة أهل لغتنا وملتنا ولولا أن يطول الكتاب لذكرت لك الجميع وعلى أني قد تركت تفسير أشعار كثيرة مع شواهد كثيرة مما لا يعرفه الا الرواة للتحرز من خوف التطويل (وقال) اقليمون صاحب الفراسة اجعل حمام النساء المسرولات العظام الحسان ذوات الاختيال والتبختر والهدير واجعل حمام الفراخ من غير ذوات الانساب الشريفة والاعراق الكريمة فإن الفراخ انما تكثر عن حسن التعهد ونظافة القراميص والبروج واتخذ لهن بيتاً محفوراً على خلقة الصومعة محفوفا من أوله الى مقدار ثلثي حيطانه بالتماريد ولتكن واسعة وليكن بينها أحجاز وأجود ذلك أن تكون تماريدها محفورة والحائط على ذلك المثال وتعهد البرج بالكنس والريش وليكن مخرجهن من كوى فى أعلى الصومعة وليكن مقتصدا فى السعة والضيق بقدر مايدخل منه ويخرج الواحد وان استطعت ان يكون البيت بقرب مزرعة فافعل فان أعجزك المنسوب منها فالتمس ذلك بالفراسة التى لا تخطيء وقلما يخطيء المتفرس وقال ليس كل الهدي ٢ تقوى على الرجعة من حيث ارسلت لان منها ماتفضل قوته على هدايته ومنها البطيء وان كان قويا ومنها السريع وان كان ضعيفا على قدر التحقيق والاعتزام ولا بد لجميعها من الصرامة ومن التعليم أولا والتوطين آخرا وقال جميع الفراسة لا تخرج من أربعة أوجه اولها التقطيع والثانى المجسه والثالث الشمائل والرابعة الحركة فالتقطيع انتصاب العنق والخلقة واستدارة الرأس من غير عظم ولا صغر مع عظم القرطمتين واتساع المنخرين وانهرات الشدقين وهذان من أعلام الكرم فى الخيل للاسترواح وغير ذلك ثم حسن خلقة العينين وقصر المنقار في غير رقة

ثم إتساع الصدر وامتلاء الجؤجؤ وطول العنق واشراف المنكبين وطول القوادم في غير إفراط ولحوق بعض الخوافي ببعض وصلابة القصب في غير انتفاخ ولا يبس واجتماع الخلق في غير الجعودة والكزازة وعظم الفخذين وقصر الساقين والوظيفين وقصر الذنب وخفته من غير تفنين وتفوق ثم توقد الحدقتين وصفاء اللون فهذه اعلام الفراسة في التقطيع واما اعلام المجسة فوثاقة الخلق وشدة اللحم ومتانة العصب وصلابة القصب ولين الريش في غير دقة وصلابة المنقار في غير دقة وأما اعلام الشمائل فقلة الاختيال وصفاء البطن وثبات النظر وشدة الحذر وحسن التقلب وقلة الرعدة عند الفزع وخفة النهوض اذا طار وترك المبادرة اذا لقط واما اعلام الحركة فالطيران في علو ومد العنق في سمو وقلة الاضطراب في جو السماء وضم الجناحين في جو السماء وتدافع الركض في غير اختلاط وحسن القصد في غير دوران وشدة المد في الطيران فاذا أصبته جامعاً لهذه الخصال فهو الطائر الكامل والا فبقدر ما فيه من المحاسن تكون هدايته وفراهته قال فاعلموا ان الحمام من الطير الرقيق الذي تسرع اليه الآفة وتعروه الادواء وطبيعته الحرارة واليبس وأكثر أدوائه الخنان والكباد والعطاس والسل والقمل فهو يحتاج الى المكان البارد والنظيف والى الحبوب الباردة كالعدس والماش والشعير المنخول والقرطم له بمنزلة اللحم للانسان لما فيه من قوة الدسم فمما يعالج به الكباد الزعفران والطبرزد وماء الهندبا يجعل في سكرجة ثم يؤجر ذلك أو يمج في حلقه مجا وهو على الريق ومما يعالج به الخنان ان يلين لسانه يوما أو يومين بدهن البنفسج ثم بالرماد والملح يدلك بهما حتى تنسلخ الجلدة العلياء التي عشت على لسانه ثم يطلى بعسل ودهن الورد حتى يبرأ ومما يعالج به السل ان يطعم الماش المقشور ويمج في حلقه من اللبن الحليب ويقطع من وظيفيه عرقان ظاهران في أسفل ذلك مما يلي المفصل ومما يعالج به القمل ان يطلى أصول ريشه بالزيبق المحلل بدهن البنفسج يفعل به ذلك مرات حتى يسقط قمله ويكنس مكانه الذي يكون فيه كنسا نظيفاً وقال اعلم ان الحمام والطير كلها لا يصلح التقمير به من البعد وهدايته على قدر التعليم وعلى قدر التوطين وأولى ذلك ان يخرج على ظهر سطح يعلو عليه وينصب عليه علم يعرفه ويكون طيرانه لا يجاوز محلته وأن يكون علفه بالغداة والعشي

يلقى له فوق ذلك السطح قريباً من علمه المنصوب له حتى يألف المكان ويتعود الرجوع اليه ولكن ينظر من أى شيء يتخذ العلم فانه لا ينبغي أن يكون اسود ولا يكون شيئاً تراه من البعد أسود وكلما كان أعظم كان أدل ولا ينبغي أن يطيره وزوجته معاً ولكن ينتف أحدهما ويطير الآخر ويخرجان الى السطح جميعاً ثم يطير الوافى الجناح فانه ينازع الى زوجته وإذا عرف المكان وداره ورجع وألف ذلك الموضع ونبت ريش الآخر صنع به كذلك وأجود من ذلك أن يخرجا الى السطح وهما مقصوصان حتى يألفا ذلك الموضع ثم يطير أحدهما قبل صاحبه ويصنع بالثانى كما صنع بالاول وما أشبه قوله هذا بقول ما سر جويه فانه وصف فى كتابه طباع جميع الالبان وشربها للدواء فلما فرغ من الصفة قال وقد وصفت لك حال الالبان فى أنفسها ولكن انظر الى من يسقيك اللبن فإنك أبداً تحتاج إلى تنظيف ثوبك وتحتاج إلى من يعرف مقدار علتك من جنس اللبن وجنس اللبن من جنس علتك ومثل ذلك قول نجار كان عندى دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له ان إحكام تعليق الباب شديد ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد وقد يذكر بالحذق في نجارة السيوف والقباب وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الاحكام والقباب عند العامة أصعب ولهذا أمثال فمن ذلك ان الغلام والجارية يشويان الجدى والحمل وهما يحكمان الشي وهما لا يحكمان شى جنب ومن لا علم له يظن ان شى البعض أهون من شي الجميع فقال لى قد أحسنت حين اعلمتني انك تبصر العمل فإن معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق فعلقه فاحكم تعليقه ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب إذا أردت إصفاقه فقلت له أكره ان أجلسك الى أن يذهب الغلام الى السوق ويرجع ولكن اثقب لى موضعها فلما ثقبه وأخذ حقه ولانى ظهره للانصراف والتفت الى فقال قد جودت الثقب ولكن انظر اى نجار يدق فيه الرزة فانه ان أخطأ بضربة واحدة شق الباب فعلمت انه يفهم صناعته فهما تاما وبعض الناس إذا أراد أن يعلم زوجا قصهما ولم ينتفهما وبين النتف والقص بون بعيد والقص لا يرجع بالنتف والنتف لا يوهن المنكبين فاذا نتف الطائر مراراً لم يقو على الغاية ولم يزل واهن المنكبين ومتي أخطأ عليه فنتفه وقد جفت أصوله وقربت من

الطرح كان أهون عليه وكلما كان النبات أطرأ كان أضر عليه وانه ليبلغ من مضرته ان الذكر لا يجيد الالقاح والانثى لا تجيد القبول وربما نتفت الانثى وقد احتشت بيضاً وقد قاربت أن تبيض فتبطئ بعد وقتها الايام وربما أضر ذلك بالبيض قال واذا بلغ الثانى مبلغ الاول في استواء الريش والاهتداء الى العلم طيرا جميعاً ومنعا من الاستقرار إلا أن يظن بهما الاعياء والكلال ويوطن لهما المزاجل برا وبحراً من حيث يبصران إذا هما ارتفعا فِي السمت ونفس العلم واقاصي ما كانا يريا منها عند التباعد فى الدوران والجولان فإذا رجعامن ذلك المكان مرات رجعا من ابعد منه وقد كانوا مرة يعجبهم ان يزجلوا من جميع التوطينات مالم تبعد مرتين فلا يزالان كذلك حتى يبلغا الغاية ويكون أحدهما محتبساً إذا أرسل صاحبه ليتذكره فيرجع اليه وان خيف عليه ان يكون قد مل زوجته عرضت عليه زوجة أخري فاذا تسنمها مرة حيل بينه وبينها يومه ذلك ثم عرضوها عليه قبل أن يحمل فاذا طاف بها نحيت عنه ثم حمل الى الزجل فان ذلك أسرع له وقال اعلموا أن أشد المزاجل ماقلت أعلامه كالصحارى والبحار قال والطير تختلف فى الطباع اختلافا شديدا فمنها القوى ومنها الضعيف ومنها البطيء ومنها السريع ومنها الذهول ومنها الذكور ومنها القليل الصبر على العطش ومنها الصبور وذلك لا يخفى فيهن عند التعليم والتوطين في سرعة الاجابة والابطاء فلا يبعدون غاية الضعيف والذهول والقليل الصبر على العطش ولا تزجلن ماكان منشؤه فى بلاد الحر فى بلاد البرد ولا ماكان منشؤه فى بلاد البرد في بلاد الحر الا ماكان بعد الاعتياد ولا يصبر على طول الطيران في غير هوائه الا بطول الاقامة في ذلك المكان ولا تستوى حاله وحال من لا يعدو دواه والهواء الذى يقرب من طباع هوائه قال ولابد أن يعلم الورود فاذا أردت به ذلك فأورده العيون والغدران والأنهار ثم خل بينه وبين النظر الى الماء حتى تكف بصره بأصابعك عن جهة الماء واتساع المورد الا بقدر ماكان يشرب فيه من المساقى ثم أوسع له اذا عب قليلا بقدر مالا يروعه ذلك النظر وليكن معطشاً فانه أجدر أن يشرب تفعل به ذلك مراراً ثم تفسح له المنظر أولا أولا حتى لا ينكر ماهو فيه فلا تزال به حتى يعتاد الشرب بغير سترة قال وأعلم ان الحمام الاهلى الذى

عايش الناس وشرب من المساقي ولقط في البيوت بخيل بالوحدة ومستوحش بالغربة قال واعلم أن الوحشى يستأنس والاهلي يستوحش بالغربة قال واعلم انه ينسي التأديب اذا أهمل كما يتأدب بعد الاهمال واذا زجلت فلا تخطرف به من نصف الغاية الى الغاية ولكن رتب ذلك فانه ربما إعتاد المجيء من ذلك البعد وان أرسلته من أقرب منه تحير وأراد أن يبتدئ أمره ابتداء وهم اليوم لا يفعلون ذلك لأنه اذا بلغ الرقة أو فوق ذلك شيئاً صار عقده وصار له ثمن وغلة فهو لا يري ان يخاطر بشيء له قدر ولكنه ان جاء من حيث درب لانه ان ذهب لم يذهب شيء له ثمن ولا طائر له رياسة وليس له إسم ولا ذكر وان جاء جاء شيء كبير وخطير وان جاء من الغاية فقد حوى به ملكا على هذا اليوم وقال لا ترسل المزاق حتى تستأنف الرياضة له ولا تدع ماتعده للزجال ان يحضن بيضا ولا يجثم عليه فان ذلك مما ينقصه ويقبحه ويعظم له رأسه لانه عند ذلك يسمن وتكثر رطوبته فتقذف الحرارة تلك الرطوبة الحادة العارضة الى رأسه فان ثقب البيض وزق وحضن احتجت الى تضميره وإستئناف سياسته ولكن ان بدا لك أن تستفرغه فانقل بيضه الى غيره بعد ان تعلمه بعلامة تعرفه بها إذا انصدع وان أصاب الحمام أيضاً فزع وذعر عن طلب شيء من الجوارح له فاياك ان تعيده الى الزجل حتى ترضمه وتستفرغه فان ذلك الذعر لايفارقه ولا يسكن حتى يحضن ثم تستأنف به التوطين وان أردت أن تستكثر من الفراخ فاعزل الذكورة عن الاناث شهراً أو نحوه حتى يصول بعضها على بعض ثم أجمع بينها فان بيضها سيكثر ويقل سقطه ومروقه وكذلك كل أرض أثيرت وكذلك الحيال لما كان من الحيوان حائلا قال الاعشي

من سراة الهجان صلبها العر * ض ورعي الحمى وطول الحيال

وقال الحارث بن عباد وجعل ذلك مثلا

قربا مربط النعامة مني * لقحت حرب وائل عن حيال

(وقال اقليمون) صاحب الفراسة لصاحبه وأنا محدثك عن نفع الحمام بحديث يزيدك رغبة فيها وذلك أن ملكين طلب أحدهما ملك صاحبه وكان المطلوب أكثر مالا وأقل رجالا وأخصب بلاداً وكانت بينهما مسافة من الارض بعيدة فلما بلغه ذلك دعا خاصته

فشاورهم في أمره وشكى اليهم خوفه على ملكه فقال له بعضهم دامت لك أيها الملك السلامة ووقيت المكروه ان الذى تافت له نفسك قد يحتال له باليسير من الطمع وليس من شأن العاقل التغرير وليس بعد المناجزة بقية والمناجز لايدرى لمن تكون الغلبة والتمسك بالثقة خير من الاقدام على الغرر وقال بعضهم دام لك العز ومد لك فى البقاء ليس فى الذل درك ولا فى الرضا بالضيم بقية فالرأى اتخاذ الحصون وإذكاء العيون والاستعداد للقتال فان الموت فى عز خير من الحياة فى ذل وقال بعضهم وقيت وكفيت وأعطيت فضل المزيد الرأي أن تطاب مصاهرته والخطبة اليه فان الصهر سبب الفة تقع به الحرمة وتثبت به المودة ويحل به صاحبه محل الاولياء ومن حل من صاحبه هذا المحل لم يخل مما غزاه ولم يمتنع منه بشئ إمتنع منه فالتمس خلطته فانه ليس بعد الخلطة عداوة ولا مع الشركة مباينة فقال له الملك كل قد أشار برأى ولكل مدة وأنا ناظر في قولكم وبالله العصمة وبشكره تتم النعمة وأظهر الخطبة الى الملك الذي فوقه وأرسل رسلا وأهدى هدايا وأمرهم بمصانعة جميع من يصل اليه ودس رجالا من ثقاته وأمرهم باتخاذ الحمام فى بلاده وتوطينهن واتخذ أيضاً عند نفسه مثلهن فرفعهن من غاية الى غاية فجعل هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم وجعل من عند الملك يرسلون من عند الملك وأمره بمكاتبته بخبر كل يوم وتعليق الكتب في أول اذناب الحمام فصار لا يخفى عليه شيء من أمره وأطمعه الملك في التزويج واستغرره وطاوله وتابع الهدايا ودس لحرسه رجالا يلاطفونهم حتي صاروا يبيتون بأبوابه معهم فلما كتب أصحابه اليه بغرتهم وصل الخبر اليه من يومه فسار اليه فى جند قد انتخبهم حتي اذا كان على ليلة أو بعض ليلة أخذ بمجامع الطرق ثم بيتهم ووثب أصحابه من داخل المدينة وهو من خارج وجنده ففتحوا الابواب وقتلوا الملك وأصبح قد غلب على تلك المدينة وعلى تلك المملكة فعظم شأنه وأعظمته الملوك وذكر فيهم بالحزم والكيد وانما كان سبب ذلك كله الحمام قال وأحدثك عن الحمام أيضاً بحديث آخر في أمر النساء والرجال وما يصاب من اللذة فيهن والصواب فى معاملتهن قال وذلك أن رجلا أتانى مرة فشكي الى حاله فى فتاة علقها فتزوجها وكانت جارية حسناء وكانت بكرا ذات

عقل وحياء وكانت غريرة فيما يحسن النساء من استمالة أهواء الرجال ومن أخذها بنصيبها من لذة النساء فلما دخل عليها امتنعت عليه ودافعته عن نفسها فزاولها بكل ضرب كان يحسنه من لطف وادخل عليها من نسائه ونسائها من يظن انها تقبل منهن فاعيتهن حتى أهتم برفضها مع شدة وجده بها فأتانى فشكا ذلك الى مرة فامرته أن يفردها ويخليها من الناس فلا يصل اليها احد وأن يضعف لها الكرامة فى اللطف والاقامة لما يصلحها من مطعم ومشرب وملبس وطيب وغير ذلك مما تلهو المرءة به وتعجب به وان يجعل خادمها أعجمية لا تفهم عنها وهى فى ذلك عاقلة ولا تفهمها الا بالاشارة ولا تستوحش اليها والى كل من يصل اليها من النساء حتى تشتهي أن تجد من يراجعها الكلام وتشكو اليه وحشة الوحدة وأن يدخل عليها أزواجا من الحمام ذات صورة حسنة وتحيل وهدير فيصيرهن فى بيت نظيف ويحمل لهن فى البيت تماريد وبين يدى البيت حجرة نظيفة ويفتح لها من بيتها بابا فيصرن نصب عينها فتلهوبهن وتنظر اليهن وتجعل دخولك عليها فى اليوم دفعة لا تزيدها فيه على النظر إلى ذلك الحمام والتسلى بهن والاستدعاء لهن الى الهدير ساعة ثم تخرج فانها لا تلبث ان تتفكر فى صنيعهن اذا رات حالهن فإن الطبيعة لا تلبث حتى تحركها ويكون اوفق المقاعد لها الدنو منهن وأغلب الملاهى عليها النظر اليهن لان الحواس لا تؤدي الى النفس شيئاً من قبل السمع والبصر والذوق والشم والمجسة الا تحرك من العقل في قبول ذلك أورده والاحتيال في أصابته أو دفعه والكراهة له أو السرور به بقدر ما حرك النفس منه فاذا رأيت الغالب عليها الدنو منهن والتأمل لهن فادخل عليها إمرأة مجربة غزلة تأنس بها وتوقظها لصنيعهن وتعجبها منهن وتستميل فكرتها اليهن وتصف لها موقع اللذة على قدر ماتري من تحريك الشهوة ثم اخرج المرأة عنها وحاول الدنو منها فإن رأيت كراهة أمسكت وأعدت المرأة اليها فإنها لا تلبث ان تمكنك فإن فعلت ما تحب وأمكنتك بعض الامكان ولم تبلغ ماتريد فأخبرني بذلك قال وقلت له مر المرأة فلتسألها عن حالها فى نفسها وحالك عندها فلعل فيها طبيعة من الحياء منعتها من الانبساط ولعلها لا تلتمس فاقبلها على ماقبلها من الخرق وأشارت عليها بالمتابعة وقالت

اعتبري بما ترين من هذا الحمام فقد ترين الزوجين كيف يصنعان قالت قد تأملت ذلك فعجبت منه واست أحسنه فقالت لها لا تمنعي يده ولا تحملي على نفسك الهيبة وان وجدت من نفسك شيئاً تدعوك اليه لذة فاصنعيه فإن ذلك يأخذ بقلبه ويزيد فى محبتك ويحرك ذلك منه أكثر مما أعطاك فلم يلبث ان نال حاجته وذهبت الحشمة وسقطت المداراة فكان سبب الصنع لها والخروج من الوحشة الى الانس ومن حال الفرقة الى حال الاتفاق الحمام وما أكثر من الرجال من ليس يمنعه من إدخال الحمام الى نسائه الا هذا الشيء الذي حث عليه صاحب الفراسة وذلك ان تلك الرؤية قد تذكر وتشتهى وتمحن وأ كثر النساء بين ثلاثة أحوال إما امرأة قدمات زوجها فتحريك طباعها خطر بأمانتها وعفافها والمغيبة في مثل هذا المعنى والثالثة امرأة قد طال لبثها مع زوجها فقد ذهب الاستطراف وماتت الشهوة وإذا رأت ذلك تحرك منها كل ساكن وذكرت ما كانت عنه بمندوحة والمرأة سليمة الدين والعرض والقلب ما لم تهجس في صدرها الخواطر ولم تتوهم حالات اللذه وتحرك الشهوة فاما اذا وقع ذلك فعزمها أضعف العزم وعزمها على ركوبها الهوى أقوى العزم فاما الابكار الغريرات فهن الى أن يؤخذن بالقراءة فى المصحف ويحتال لهن حتى يصرن الى حال التشييخ والجبن والغرارة وحتى لا يسمعن من أحاديث الباه والغزل قليلا ولا كثيراً أحوج ولقد ركبت عجوز سندية ظهر بعير فلما أقبل بها البعير وأدبر وطمر فمخضها مرة مخض السقاء وجعلها مرة كأنها ترهز فقالت بلسانها وهي سندية أعجمية أخزى الله هذا الزمل فانه يذكر بالشر تريد أخزى الله هذا الجمل فإنه يذكر بالشر حدثنا بهذا النادر محمد بن عباد بن كاسب وحدثنا ربعي الانصارى أن عجوزاً من الاعراب جلست فى طريق مكة الى فتيان يشربون نبيذا فسقوها قدحا فطابت نفسها وتبسمت ثم سقوها قدحا آخر فاحمر وجهها وضحكت فسقوها قدحا ثالثاً فقالت خبروني عن نسائكم بالعراق أيشربن من هذا الشراب فقالوا نعم فقالت زنين ورب الكعبة وزعم ابراهيم الانصارى المعتزلى ان عباس ابن يزيد بن جرير دخل مقصورة لبعض جواريه فابصر حماما قد قمط حمامة ثم كسح بذنبه ونفش ريشه فقال لمن هذا الحمام فقالوا لفلان خادمك يريدون خصيا له فقدمه

فضرب عنقه وقال الحطيئة لفتيان من بني قريريع وكانوا ربما جلسوا بقرب خيمته فيغني بعضهم غناء الركبان فقال يابني قريع إياى والغناء فانه داعية الى الزنا وأما أبو احمد التمار المتكلم فانه شاهد صاحب حمام في يوم مجيء حمامه من واسط وكانت واسط يومئذ الغاية فرآه كلما اقبل طائر من حمامه سر ورقص فقال له والله انى لا أرى منك عجبا أراك تفرح بازجال حمام من واسط وهو ذلك الذى كان وهو الذى جاء وهو الذى إهتدى وانت لم تجيء ولم تهتد وحين جاء من واسط لم يجيء معه بشيء من خبر أبي حمزة ولا بشيء من مقاريض واسط وبزبون واسط ولا جاء معه ايضا بشيء من خطمى واسط ولا بشيء من جوز ولا بشيء من زبيب وقد مر بكسكر فاين كان عن جداء كسكر وعن دجاجها وسمكها وصحناتها وسعتر كسكر ذهب صحيحاً نشيطاً ورجع مريضا كسلان وقد عرفت ما عرفت فقل لي ما وجه فرحك فقال فرحي انى أرجو أن أبيعه بخمسين دينارا قال ومن يشتريه منك بخمسين دينارا قال فلان وفلان فقام ومضي إلى فلان وفلان فقال زعم فلان أنك تشترى منه حماما جاء من واسط بخمسين دينارا قال صدق فقال له لم تشتريه بخمسين دينارا قال لانه جاء من واسط قال فاذا جاء من واسط فلم تشتريه بخمسين دينارا قال لاني أبيع الفرخ منه بثلاثة دنانير والبيضة بدينارين قال ومن يشترى منك قال مثل فلان وفلان فاخذ نعله ومضي الى فلان فقال زعم فلان انك تشترى منه فرخا من طائر جاء من واسط بثلاثة دنانير والبيضة بدينارين قال صدق قال فقل لي لم تشترى فرخه بثلاثة دنانير قال لأن اباه جاء من واسط قال ولم تشتريه بثلاثة دنانير اذا جاء أبوه من واسط قال لاني أرجو أن يجيء من واسط قال واذا جاء من واسط فأىّ شيء يكون قال ابيعه بخمسين دينارا قال ومن يشتريه منك بخمسين دينارا قال فلان فتركه ومضى الي فلان فقال زعم فلان ان فرخا من فراخه اذا جاء أبوه من واسط اشتريته أنت منه بخمسين دينارا قال صدق قال ولم تشتريه بخمسين دينارا قال فأعاد عليه مثل قول الاول فقال لا رزق الله من يشترى حماما جاء من واسط بخمسين دينارا ولا رزق الله من لا يشريه بقليل ولا بكثير وابو احمد هذا هو

الذى قال وهو يعظ بعض المسرفين لو ان رجلا كانت عنده الف الف دينار ثم انفقها كلها لذهبت وانما سمع قول القائل لو ان رجلا عنده الف الف دينار فأخذ منها ولم يضع عليها لكان خليقا ان يأتى على اكثرها وهو القائل فى قصصه ولقد عظم الله حق الجار وقال فيه قولا استحيي والله من ذكره وهو الذى قال لبعضهم بلغنى ان في بستانك اشياء تهمنى فاحب ان تهب لى منه أمراً من أمر الله عظيم وكان زجالا قبل ان يكون تماراً وزعم سليمان الزجال واخوه ثابت انه قبل ان يكون تماراً قال يوما وذكر لحمام حين زهد في بيع الحمام وذكر بعض الملوك فقال اما فلان فانه لما بلغني انه يلعب بالحمام سقط من عيني والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿ باب القول في أجناس الذبان ﴾

بسم الله وبالله ولا حول ولا قوة الا بالله وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامى وعلى آله وصحبه وسلم وعلى ابرار عشيرته الطيبين الاخيار أوصيك أيها القارئ المتفهم وأيها المستمع المنصت المتصفح أن لا تحقر شيئاً ابداً لصغر جثته ولا تستصغر قدره لقلة ثمن ثم إعلم ان الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الانسان وان صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله ولم تفترق الامور فى حقائقها وانما افترق المفكرون فيها ومن اهمل النظر واغفل مواضع الفرق وفصول الحدود فمن قبل ترك النظر ومن قبل قطع النظر ومن قبل النظر من غير وجه النظر ومن قبل الاخلال ببعض المقدمات ومن قبل ابتداء النظر من جهة النظر واستتمام النظر مع انتظام المقدمات اختلفوا فهذه الخصال هى جماع هذا الباب الا مالم نذكره من باب العجز والنقص فإن الذى امتنع من المعرفة من قبل النقصان الذى بابه في الخلقة باب على حدة وانما ذكرنا باب الخطإ والصواب والتقصير والتكميل فاياك ان تسيء الظن بشيء من الحيوان لاضطراب الخلق ولتفاوت التركيب ولانه مشنوء فى العين اولانه قليل النفع والرد فإن الذى يظن انه اقلها نفعا لعله أن يكون اكثرها ردا إن لا يكون ذلك من جهة عاجل أمر الدنيا كان ذلك فى أجل ثواب الدين وعقابه

باقيان ومنافع الدنيافانية زائلة فلذلك قدمت الآخرة على الاولى فاذا رأيت شيئا من الحيوان بعيدا من المعاونة وجاهلا لسبيل المكانفة أو كان مما يشتد ضرره وتشتد الحراسة منه كذوات الانياب من الحيات والذبان وذوات المخالب من الاسد والنمور وذوات الإبر والشعر من العقارب والدبر فاعلم أن مواقع منافعها من جهة الامتحان والبلوى ومن جهة ما أعد الله عز وجل للصابرين ولمن فهم عنه وعلم أن الاختيار والاختبار يكونان والدنيا كلها شر صرف أو خير محض فان ذلك لا يكون الا بالمزاوجة بين المكروه والمحبوب والمولم والملذ والمحقر والمعظم والمأمون والمخوف فاذا كان الحظ الاوفر فى الاختبار والاعتبار وبهما يتوسل الى ولاية الله عز وجل وإلى كرامته وكان ذلك انما يكون فى الدار الممزوجة من الخير والشر والمشتركة المركبة بالنفع والضر المشوبه باليسر والعسر فليعلم موضع النفع فى خلق العقرب ومكان الصنع فى خلق الحية فلا يحقرن الجرجس والفراش والذر والذباب ولتقف حتى تتفكر فى الباب الذى رميت اليك بجملته فانك ستكثر حمد الله عز وجل على خلق الهمج والحشرات وذوات السموم والانياب كما تحمده على خلق الاغذية من الماء والنسيم فان أردت الزراية والتحقير والعداوة والتصغير فاصرف ذلك كله الى الجن والانس واحقر منهم كل من عمل عملا من جهة الاختبار يستوجب به الاحتقار ويستحق به غاية المقت من وجه والتصغير من وجه فان انت ابغضت من جهة الطبيعة واستثقلت من جهة الفطرة ضربين من الحيوان ضربا يقتلك بسمه وضربا يقتلك بشدة أشره لم تلم الا أن عليك أن تعلم أن خالقهما لم يخلقهما لذلك وانما خلقهما لتصبر على اذاهما ولان تنال بالصبر الدرجة التي تستحق ان تنالها بالصبر والصبر لا يكون الا على حال مكروه فسواء عليك كان المكروه سبعا وثابا او كان مرضا قاتلا وعلى انك لا تدرى لعل النزع والعلز والحشرجة أن يكون أشد من لذع حية وضغمة سبع فلا يكون حرقة كحرق اللسع والم كالم الدهق فلعل هناك من الكرب مايكون موقعه من النفس فوق ذلك وقد علمنا ان الناس يسمون الانتظار لوقع السيف على العنق جهد البلاء وليس ذلك الجهد من شكل لذع النار ولا من شكل الم الضرب بالعصا فافهم

فهمك الله مواقع النفع كما يعرفها اهل الحكمة واصحاب الاحساس الصحيحة ولا تذهب فى الامور مذهب العامة وقد جعلك الله تعالى من الخاصة فانك مسئول عن هذه الفضيلة لانها لم تجعل لعباولم تترك هملا واصرف بغضك الى مريد ظلمك لا يراقب فيك الا ولا ذمة ولا مودة ولا كتابا ولا سنة وكلما زادك الله عز وجل نعمة ازدادوا عليك حنقا ولك بغضا وفر كل الفرار واهرب كل الهرب واحترس كل الاحتراس ممن لا يراقب الله عز وجل فانه لا يخلو من أحد أمرين اما ان يكون لا يعرف ربه مع ظهور آياته ودلالاته وسبوغ آلائه وتتابع نعمائه ومع برهانات رسله وبيان كتبه واماان يكون به عارفا وبدينه موقنا وعليه مجترئا وبحرماته مستخفا فان كان بحقه جاهلا فهو بحقك اجهل وله أنكر وان كان به عارفا وعليه مجترئا فهو عليك أجرأ ولحقك أضيع ولاياديك اكفر فاما خلق البعوضة والنملة والفراشة والذرة والذباب والجعلان واليعاسيب والجراد فاياك ان تتهاون بشأن هذا الجند وتستخفف بالآلة التى فى هذا الذر فربت امة قد أجلاها عن بلادها النمل ونقلها عن مساقط رؤسها الذر واهلكت بالقراد وجردت بالجراد وعذبت بالبعوض وأفسد عيشها الذبان فهى جند إن أرادا الله عز وجل ان يهلك بها قوما بعد طغيانهم وتجبرهم وعتوهم ليعرفوا أو ليعرف بهم ان كثير أمرهم لا يقوم بالقليل من أمر الله عز وجل وفيها بعد معتبر لمن اعتبر وموعظة لمن فكر وصلاح لمن استبصر وبلوى ومحنة وعذاب ونقمة وحجة صادقة وآية واضحة وسبب الى الصبر والفكرة وهما جماع الخير في باب المعرفة والابانة وفي باب الأجر وعظم المثوبة وسنذكر جملة من حال الذبان ثم نقول في جملة ما يحضرنا من شان الغربان والجعلان ويقال فى موضع الذم والهجاء ماهم الا فراش نار وذبان طمع ويقال اطيش من فراشة وأزهى من ذبان وقال الشاعر —

كان بني ذويبة رهط سلمي * فراش حول نار يصطلينا

يطفن بحرها ويقعن فيها * ولا يدرين ماذا يتقينا

والعرب تجعل الفراش والنمل والزنابير والدبر كلها من الذبان وأما قولهم أزهي من ذباب فلان الذباب يسقط على أنف الملك الجبار وعلي موق عينيه ليأ كله فيطرده ولا

ينطرد والانف هو النخوة وموضع التجبر وكان من شأن البطارقة وقواد الملوك اذا أنفوا أن ينخروا كما ينخر الثور عند الذبح والبرذون عند النشاط والانف هو موضع الخنزوانة والنعرة واذا تكبرت الناقة بعد أن تلقح فانها تزم بانفها والا صيد الملك الذي تراه أبداً من كبره مائل الوجه وشبه بالاسد فقيل أصيد لان عنق الاسد من عظم واحد فهو لايلتفت الا بكله فلذلك يقال للمتكبر إنما أنفه فى أسلوب ويقال أرغم الله أنفه وأذل معطسه وستفعل ذلك وأنفك راغم والرغام التراب ولولا كذا وكذا لهشمت انفك فانما يخصون بذلك الانف لان الكبر يضاف اليه قال الشاعر

يارب من يبغض اذوادنا * رحن على بغضائه واغتدين
لو نبت البقل على انفه * رحن اليه اصلا قد اتين

ويقال بعير مذبوب اذا عرض له مايدعو الذبان الى السقوط عليه وهم يعرفون العرة اذا فشت أو أصابت بعيراً بسقوط الذبان عليه ولسقوط الذبان على البعير يحتال الجمال للسلطان اذا كان يسخر إبله وهو لذلك كاره واذا كان في جماله الجمل النفيس أو الناقة الكريمة فانه يعمد الى الخضخاض فيصب فيه شيئاً من دبس ثم يطلى به ذلك البعير واذا وجد الذبان ريح الدبس تساقطن عليه فيدعى عند ذلك ان به عرة ويجعل الشاهد له عند السلطان مايوجد عليه من الذبان فما أكثر مايتخاصون بكرائم أموالهم بالحيل من أيدي السلطان ولا يظن ذلك السلطان الا انه متى شاء ان يبيع مائة اعرابي بدرهم فعل والعرة عندهم تعدى وطباع الابل أقبل شيء للادواء التى تعدى فيقول الجمال عند ذلك للسلطان لو لم أخف على بعيرى هذا المعر ان يعدي لم أبال ولكني أخاف إعداء العر ومضرتها في سائر مالي فلا يزال يستعطفه بذلك ويحتال له وعليه حتى يخلي سبيله ويقال ان الذبان لا يقرب قدراً فيه كماة كما لا يدخل سام ابرص بيتاً فيه زعفران ومن أصابه عض الكلب الكلب حموا وجهه من سقوط الذبان عليه قالوا وهو أشد عليه من دبيب النبر على البعير والنبر دويبة اذا دبت على البعير تورم وربما كان ذلك سبب هلاكه قال الشاعر وهو يصف سمن إبله وعظم أبدانها

حمر تحقبت الحيل كانما * بجلودهن مدارج الانبار

وليس في الارض ذباب الا وهو أقدح ولا في الارض بعير الا وهو أعلم كما أنه ليس في الارض ثور الا وهو أفطس وفى ان كل بعير أعلم يقول عنترة

وجليل غانيه تركت مجدلا * تمكو فريصته كشدق الاعلم

كما انه قال كشدق البعير اذ كان كل بعير اعلم والشعراء يشبهون الضربة بشدق البعير ولذلك قال الشاعر

كم ضربة لك تحكى فاقراسية * من المصاعب فى اشداقها شنع

وقال الكميت * مشافر قرحي اكلن البريرا * و اذا قيل الاعلم علم انه البعير كما انه اذا قيل الاقدح علم انه الذبان قال الشاعر

ولانت اطيش حين تغدو سادرا * حذر الطعان من القدوح الاقدح

يعني الذبان لانه اقدح ولانه أبدا يحك باحدى ذراعية على الاخري كانه يقدح بعود من مرخ أو عفار أو عرجون أو غير ذلك مما يقدح به ولا يعلم فى الارض شاعر تقدم فى تشبيه مصيب تام وفى معنى غريب عجيب او فى معني شريف كريم او فى بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده او معه ان هو لم يقدر على لفظه فيسرق بعضه او يدعيه بأسره فانه لا يدع ان يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكا فيه كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف الفاظهم وأعاريض أشعارهم ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط وقال إنه خطر على بالى من غير سماع كما خطر على بال الاول هذا اذا قرّعوه به الا ما كان من عنترة فى صفة الذباب فانه وصفه فأجاد وصفه فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرضوا له ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى و من اضطرابه فيه انه صار دليلا على سوء طبعه في الشعر قال عنترة

جادت عليها كل عين ثرة * فتركن كل حديقة كالدرهم

فترى الذباب بها يغني وحده * هزجا كفعل الشارب المترنم

غرد ايحك ذراعه بذراعه * فعل المكب على الزناد الاجذم

قال يريد فعل الاقطع المكب على الزناد والاجذم المقطوع اليدين فوصف الذباب اذا

كان واقعا ثم حك إحدي يديه بالاخرى فشبهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعودين ومتي سقط الذباب فهو يفعل ذلك ولم اسمع في هذا المعني بشعرا رضاه غير شعر عنترة وقد كان عندنا فى بني العروبة شيخ منهم منكر شديد العارضة فسمعني اقول قد جاء فى الحديث ان تحت جناح الذباب اليمين شفاء وتحت جناحه الايسر سما فاذا سقط فى إناء او في شراب أو في مرق فاغمسوه فيه فإنه يرفع عند ذلك الجناح الذى تحته الشفاء ويحط الذى تحته السم فقال بأبي انت وامى هـذا يجمع العداوة والمكيدة وقد كان عندنا أناس من الازد ومعهم ابن حذر وابن حذر هذا عدولى من أهل تنوخ وكان يتعصب لاصحابه من بني تميم وكانوا على نبيذ فسقط ذباب فى قدح بعضهم فقال له الآخر غط التميمى ثم سـقط آخر فى قدح بعضهم فقال الباقون غط التميمي فلما كان فى الثالثة قال إبن حذر غطه فإن كان تميميا رسب وان كان ازديا طفا فقال صاحب المنزل مايسرنى انه كان قال بعضهم مرقا وانما عني ان ازد عمان ملاحون والذباب ضروب سوى ماذكرناه من الفراش والنحل والزنابير فمنها الشعراء وقال الرجز

* ذبان شعراء وبيت ماذل * وللكلاب ذباب على حدة تخلق منها ولا تريد سواها

ومنها ذباب الكلإ والرياض وكل نوع منها يألف ماخلق منه قل أبو النجم

مستأسد ذبانه فى غيطل * يقان للرائد أعشبت إنزل

والعرب تسمى طنين الذبان والبعوض غناء وقال الاخطل فى صفة الثور

فرد تغنيـه ذبان الرياض كما * غني الغواة بصبح عند أسوار

وقال حضرمى بن عامر في طنين الذباب

مازال أهداء القصائد بيننا * شتم الصديق وكثرة الالقاب

حتي تركت كان أمرك بينهم * في كل مجتمع طنين ذباب

ويقال ماقولى هذا عندك الاطنين ذباب وللذباب وقت تهيج فيه للسفاد مع قصر أعمارها وفى الحديث ان عمر الذباب أربعون يوما ولهـا أيضاً وقت هيج فى أكل الناس وعضهم وشرب دمائهم والذبان في وقت من الاوقات من حتوف الابل والدواب والذباب والبعوض من ذوات الخراطيم ولذلك اشتد عضها وقويت على

خرق الجلود الغلاظ وقال الراجز

مثل السفاة دائم طنينها * ركب فى خرطومها سكينها

وقالوا ذوات الخراطيم من كل شئ أقوى عضا ونابا وفكا كالذيب والخنزير والكلب واما الفيل فان خرطومه هو أنفه كما ان لكل شئ من الحيوان أنفا وهو يده ومنه يغني وفيه يجرى الصوت كما يجري الزامر الصوت فى القصبة بالنفخ ومتى تضاغط الهواء صوت على قدر الضغط أو على قدر الثقب والذباب اسم الواحد والذبان اسم الجماعة واذا أرادوا التصغير والتقليل ضربوا بالذبان المثل كما قال الشاعر

رأيت الخبز عز لديك حتى * حسبت الخبز فى جو السحاب

وما روحتنا لتذب عنا * ولكن خفت مرزية الذباب

وقال آخر

لما رأيت القصر أغلق بابه * وتعلقت همدان بالاسلاب

أيقنت أن إثارة إبن مجرب * لم يبق منها قيس بن ذباب

قال بعضهم لم يذهب الى مقدار أثره وانما ذهب الى مثل قول ابن أحمر

ما كنت عن قومي بمهتضم * لو ان معصيا له أمر

كلفتني منح البعوض فقد * أقصرت لانجح ولا غدر

قال وليس شئ مما يطير يلغ فى الدم وانما يلغ في الدماء من السباع ذوات الاربع وأما الطير فانها تشرب حسوا أو عبة بعد عبة ونغبة بعد نغبة وسباع الطير قليلة الشرب للماء والاسد كذلك قال أبو زبيد الطاءي

تذب عنه كف بها رمق * طيرا عكوفا كذوّد العرس

اذا ونى ونية دلفن له * فهن من والغ ومنتهس

قال والطير لا تلغ وإنما يلغ الذباب وجعله من الطير وهو وان كان يطير فليس ذلك من أسمائه فاذ قد جاز أن يستعير له اسم الطائر جاز أن يستعير للطير ولغ السباع فيجعل حسوها ولغا وقال الشاعر

شراع الى ولغ الدماء رماحهم * وفى الحرب والهيجاء أسد ضراغم

قال وفي الذباب خصلتان من الخصال المحمودة أما أحدهما فقرب الحيلة لصرف اذاها ودفع مكروهها فمن أراد اخراجها من البيت فليس بينه وبين أن يكون البيت على المقدار الاول من الضياء ولكن مع السلامة من التأذي بالذبان إلا أن يغلق الباب فانهن يتبادرن الى الخروج ويتسابقن فى طلب الضوء والهرب من الظلمة فإذا أرخي الستر وفتح الباب عاد الضوء وسلم أهله من مكروه الذباب فإن كان في الباب شق والا جاء في المغلق أحد البابين من صاحبه ولم يطبقه اطباقا وربما خرجن من الفتح الذي يكون بين أسفل الباب والعتبة والحيلة فى إخراجها والسلامة من أذاها يسير وليس كذلك البعوض لأن البعوض إنما يشتد أذاه ويقوى سلطانه ويشتد كلبه فى الظلمة كما يقوى سلطان الذباب في الضياء وليس يمكن الناس أن يدخلوا منازلهم من الضياء ما يمنع عمل البعوض لان ذلك لا يكون الا بادخال الشمس والبعوض لا يكون الا فِي الصيف وشمس الصيف لا صبر عليها وليس فى الارض ضياء انفصل من الشمس الا ومعه نصيبه من الحر وقد يفارق الحر أيضاً في بعض المواضع والضياء لا يفارق الحر فى مكان من الاماكن فإمكان الحيلة فى الذباب يسير وفى البعوض عسير والفضيلة الاخرى أنه لولا أن الذبابة تأكل البعوضة تطلبها وتلتمسها على وجوه حيطان البيوت وفى الزوايا لما كان لاهلها فيها قرار وذكر محمد بن الجهم فيما خبرني عنه بعض الثقات انه قال لهم ذات يوم هل تعرفون الحكمة التى استفدناها فى الذباب قالوا لا قال بلى انها تأكل البعوض وتصيدها وتلقطها وتفنيها وذلك انى كنت أريد القائلة فأمرت باخراج الذباب وطرح الستر فاغلاق الباب قبل ذلك بساعة فاذا خرجن حصل فى البيت البعوض وقوى سلطانه وقوته فكنت أدخل الى القائلة فيأكلني البعوض أكلا شديداً فأتيت ذات يوم المنزل فى وقت القائلة فاذا ذلك البيت مفتوح والستر مرفوع وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك فى يومهم فلما اضطجعت للقائلة لم أجد من البعوض شيئاً وقد كان الغضب يشتد على الغلمان فنمت فى عافية فلما كان من الغد عادوا الى اغلاق الباب واخراج الذباب فدخلت التمس القائلة فاذا البعوض كثير ثم أغلقوا أغلاق الباب يوماً آخر فلما رأيته مفتوحا شتمتهم فلما صرت الى القائلة

لم أجد بعوضة واحدة فقلت في نفسي قد أراني نمت في يومي التضييع وامتنع مني النوم في أيام التحفظ والاحتراس فلم لا أجرب ترك اغلاق الباب في يومي هذا فان تمت ثلاثة أيام لا القى من البعوض أذى مع فتح الباب علمت ان الصواب في الجمع بين الذبان والبعوض فان الذبان يفنيه وان صلاح أمرنا في تقريب ما كنا نباعد ففعلت ذلك فاذا الامر قد تم فصرنا إن أردنا اخراج الذبان أخرجناها بأيسر حيلة وإذا أردنا افناء البعوض أفنيناها بأيسر حيلة فهاتان خصلتان من مناقب الذبان وكان محمد ابن الجهم يقول لا تتهاونوا بكثير مما تريدون من علاج القوابل والعجائز فان كثيراً من ذلك انما وقع اليهم من قدما الاطباء كالذبان يلقى في الاثمد ويسحق معه فيزيد في نور البصر ويقوي النظر ويشد مراكز الاشفار في حافات الجفون وقلت له مرة قيل لما سرجويه ما بال الاكره ٢ وسكان البساتين مع أكلهم الكراث والتمر وشربهم ماء السواقي على المالح أقل الناس خفشانا وعشيانا وعورا قال إني فكرت في ذلك فلم أجد له علة الا طول وقوع أبصارهم على الخضرة قال ابن الجهم ومن أهل السفالة ناس يأكلون الذبان لا يرمدون وليس لذلك اكلوا وانما هم كأهل خراسان الذين يأكلون فراخ الزنابير والزنابير ذبان وأصحاب الجبن الرطب يأخذون الجبنة التي قد نغلت دوداً فينكتها حتى يخرج ما فيها من الدود في راحته ثم يقمحها كما يقمح السويق وكان الفرزدق يقول ليت أنهم دفعوا الى نصيبي من الذبان ضربة واحدة بشرط ان آكله لراحة الابد منها وكان كما زعموا شديد التقذر لها منها وقال ثمامة وقع الذبان في مرق بعض القصاص وعلى وجهه فقال كثر الله بكن القبور وحكى ثمامة عن هذا القاص أنه سمعه بعباد ان يقول في قصصه اللهم من علينا بالشهادة وعلى جميع المسلمين وقال لي المكي مرة انما عمر الذبان أربعين يوما قلت هكذا جاء في الاثر وكنا يومئذ بواسط في أيام العسكر وليس بعد أرض الهند أكثر ذبابا من واسط ولربما رأيت الحائط وكان عليه مسحا شديد السواد من كثرة الذبان الذي عليه فقلت للمكي أحسب الذبان يموت في كل أربعين يوماً وان شئت في أكثر وان شئت في أقل ونحن كما ترى ندوسها بارجلنا ونحن هاهنا مقيمون منذ أربعين يوما بل منذ أشهر وما

رأينا ذبابا واحداً ميتاً فلو كان الامر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الاحياء قال ان الذبابة إذا أرادت ان تموت ذهبت الى بعض الحزايب قلت فانا قد دخلنا كل حزبة فى الدنيا ما رأينا فيها قط ذبابا ميتا وكان المكى طيباً طيب الحجج ظريف الحيل عجيب العلل وكان يدعى كل شيء على غاية الاحكام ولم يحكم شيئاً قط من الجليل ولا من الدقيق وإذ قد جرى ذكره فسأحدثك ببعض أحاديثه وأخبرك عن بعض علله لتالهى بها ساعة ثم نعود الى ذكر الذبان أدعى هـذا المكى البصر بالبراذين ونظر الي برذون واقف قد القى صاحبه فيه اللجام فرآى فاس اللجام وأين بلغ منه فقال لى العجب كيف لا يذرعه القيء وأنا لو أدخلت إصبعى فى حلقى لما بقى فى جوفى شيء الا خرج قلت الآن علمت انك تبصر ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه فاقبل علي فقال لى كيف لا يبرد اسنانه قلت انما يكون عند البصراء مثلك ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة سال لعابه على الارض فقال لى ان البرذون أفسد الخلق عقلا ولولا ذلك لكان ذهنه قد صفي قلت له قد كنت أشك في بصرك بالدواب فاما بعد هذا فلست أشك فيه وقلت له مرة ونحن في طريق بغداد ما بال الفرسخ في هذه الطريق يكون فرسخين والفرسخ يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ففكر طويلا ثم قال كان كسرى يقطع للناس الفراسخ فاذا صانع صاحب القطيعة زادوه واذا لم يصانع نقصوه وقلت له مرة علمت ان الشاري حدثني ان المخلوع بعث الى المأمون بجراب فيه سمسم كانه يخبران عنده من الجند بعدد ذلك وان المأمون بعث اليه بديك أعور يريدان طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب قال فان هذا الحديث أنا ولدته ولكن انظر كيف سار فى الآفاق وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة (ثم رجع بنا القول الى صلة كلامنا في الاخبار عن الذبان) فأما سكان بلاد الهند فانهم لا يطبخون قدراً ولا يعملون حلوا ولا يكادون يأكلون الا ليلاً لما يتهافت من الذبان في طعامهم وهذا يدل على عفن التربة ولخن الهواء وللذبان يعاسيب وحجلان ولكن ليس لها قائد ولا أمير ولو كانت هذه الاصناف التى يحرس بعضها بعضاً وتتخذ رئيساً يدبرها ويحوطها انما أخرج ذلك منها العقل دون الطبع وكالشيء يخص به البعض دون الكل لكان الذراحق بذلك

من الكراكي والغرانيق والثيران ولكان الفيل أحق به من البعير لانه ليس للذر قائد ولا حارس ولا يعسوب يجمعها ويحميها بعض المواضع ويوردها بعضا وكل قائد فهو يعسوب ذلك الجنس المقود وهذا الاسم مستعار من فحل النحل وأمير العسالات وقال الشاعر وهو يعني الثور .

كما ضرب اليعسوب اذعاف باقر * وما ذنبه اذ عافت الماء باقر

وكما قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه في صلاح الذبان وفساده فاذا كان ذلك ضرب يعسوب الدين بذنبه وعلى ذلك المعنى قال حين مر بعبد الرحمن بن عتاب قتيلا يوم الجمل لهفي عليك يعسوب قريش جدعت انفي وشفيت نفسي قالوا وعلى هذا المعني قيل يعسوب الطفاوة وزعم بعض الحكماء انه لا ينبغي ان يكون في الارض شيء من الاشياء انتن من العذرة فكذلك لا شيء اقذر من الذبان والقمل واما العذرة فلولا انها كذلك لكان الانسان مع طول رؤيته لها وكثره شمه لها من نفسه في كل يوم صباحا ومساء لقد كان ينبغي ان يكون ذلك قد اذهب تقذره له على الايام او يمحق او يدخله النقص فثباتها ستين عاما واكثر واقل على مقدار واحد في انف الرجل ومنهم من وجدناه بعد مائة عام كذلك وقد رأينا المرات والعادات وصنيعها في الطبائع وكيف تهون الشديد وتقلل الكثير فلولا انها فوق كل شيء من النتن لما ثبتت هذا الثبات ولعرض لها مايعرض لسائر النتن وبعد فلو كان إنما يشم شيأ خرخ من جوف غيره ولم يخرج من جوف نفسه لكان ذلك أشبه فاذ قد ثبت في أنفه على هذا المقدار من النتن وهو منه دون غيره وحتى صار يجده أنتن من رجيع الاجناس فليس ذلك الا لما قد خص به من المكروه وكذلك القول في القمل الذى إنما يخلق من عرق الانسان ومن رائحته ووسخ جلده وبخار بدنه وكذلك الذبان المخالطة لهم في جميع الحالات والملابسة لهم دون جميع الهوام والهمج والطير والبهائم والسباع حتي تكون ألزم من كل ملازم وأقرب من كل قريب حتي مايمتنع عليه شيء من بدن الانسان ولا من ثوبه ولا من طعامه ولا من شرابه لم يلزم شيأ قط كلزومه حتي أنه يسافر السفر البعيد من مواضع الخصب فيقطع البرارى والقفار التي ليس فيها ولا بقربها نبات ولا ماء ولا حيوان ثم مع ذلك يتوخي عند الحاجة

الى الغائط في تلك البرية أن يفارق أصحابه فيتباعد فى الارض وفى صحراء خلقاء فاذا تبرز فمتى وقع بصره على برازه رآى الذبان ساقطا عليه فقبل ذلك ما كان يراه فان كان الذباب شيئاً يتخلق له في تلك الساعة فهذه أعجب مما رآه ومما أردناه وأكثر مما قلنا وان كان قد كان ساقطا على الصخور الملس والبقاع الجرد فى اليوم القائظ وفى الهاجرة التي تشوى كل شئ وينتظر مجيئه فهذا اعجب مما قلناه وان كانت قد تبعته من الامصار إما سائرة معه واما ساقطة عليه فلما تبرز انتقلت عنه الى برازه فهذا تحقيق لقولنا انه لا يلزم الانسان شيء لزوم الذباب لان العصافير والخطاطيف والزرازير والسنانير والكلاب وكل شيء يالف الناس فهو يقيم مع الناس فاذا مضى الانسان فى سفره فصار كالمتوحش وكالنازل بالقفار فكل شيء أهلي يألف الناس فانما هو مقيم على ما كان من إلفه لهم لا يتبعهم من دور الناس الى منازل الوحش الا الذبان قال فاذا كان الانسان يستقذر الذبان فى مرقه وفى طعامه هذا الاستقذار ويستقذر القمل مع محله من القرابة والنسبة هذا الاستقذار فمعلوم ان ذلك لم يكن الا لما خص به من القذر والا فبدون هذه القرابة وهذه الملابسة تطيب الانفس عن كثير من المحبوب قال وفى الذبان خبر آخر وذلك انهن ربما تعودن المبيت على خوص فسيلة وأقلابها من فسائل الدور أو شجرة أو بلة باب أو سقف بيت فيطردن اذا اجتمعن لوقتهن عند العشاء ليلتين أو ثلاث ليال فيتفرقن أو يهجرن ذلك المكان فى المستقبل وان كان ذلك المكان قريباً وهو لهن معرض ثم لا يدعن ان يلتمسن مبيتاً غيره ولا يعرض لهن من اللجاج فى مثل ذلك مثل الذي يعرض لهن من كثرة الرجوع الى العينين والانف بعد الذب والطرد وبعد الاجتهاد فى ذلك وقال محمد بن حرب ينبغى أن يكون الذبان سما ناقعا لان كل شيء يشتد أذاه باللمس من غيره فهو بالمداخلة والملابسة اجدران يؤذي وهذه الافاعي والثعابين والجرار قد تمس جلودها ناس ولا وتضرهم الا بأن تلابس إبرة العقرب وناب الافعي الدم قد نجد الرجل يدخل فى خرق انفه ذباب فيجول فى أوله من غير ان يجاوز روث انفه وارنبته فيخرجه الانسان من جوف انفه بالنفخ وشدة النفس ولم يكن له هنالك لبث ولا كان منه عض وليس الا بما مس بقوائمه واطراف جناحيه فيقع ذلك المكان

من انفه من الدغدغة والآكال والحكة مالا يصنع الخردل وبصل النرجس ولبن التين فليس يكون ذلك منه الا وفي طبعه من مضادة طباع الانسان مالا يبلغه مضادة شئ وان أفرط قال وليس الشأن في أنه لم يخمش ولم يجرح ولم يغمز ولم يعض ولم يخدش وإنما هو على قدر منافرة الطباع للطباع وعلى قدر القرابة والمشاكلة قد نجد الانسان يغتم بتقض الفتيلة وصوتها عند قرب إنطفاء النار ولبعض البلل يكون قد خالط الفتيلة ولا يكون الصوت بالشر ولكن الاغتمام به والتكره له يكون فى مقدار مايعتريه من أشد الاصوات ومن ذلك المكروه الذي يدخل على الانسان من غطيط النائم وليست تلك الكراهة لعلة الشدة والصلابة ولكن من قبل الصورة والمقدار اذا لم يكن من قبل الجنس وكذلك صوت إحتكاك الآجر الجديد بعضه ببعض وكذلك شجر الآجام على الاجراف فان النفس تكرهه كما تكره صوت الصاعقة ولو كان على ثقة من السلامة من الاحتراق لما احتفل بالصاعقه ذلك الاحتفال ولعل ذلك الصوت وحده ان لا يقتله فأما الذي نشاهد اليوم الامر عليه فانه متي قرب منه قتله ولعل ذلك انما هو لان الشيء اذا اشتد صوته فسخ القوة او لعل الهواء الذى فيه الانسان والمحيط ان يحمى ويستحر للذى قد شارك ذلك الصوت من النار وهم لم يجدوا الصوت من النار شديدا جدا إلا ما خالط منه النار وقال ابن حرب الذبان قوت خلق كثير من خلق الله عز وجل وهو قوت الفراريج والخفافيش والعنكبوت والخلد وضروب كثيرة من الهمج همج الطير وحشرات السباع فاما الطير والسوذانيات والخضانيات والشاهمركات وغير ذلك من اصناف الطير وأما الضباع فانها تأكل الجيف وتدع في افواهها فضولا وتفتح افواهها للذبان فاذا احتشت ضمت عليها فهذه انما تصيد الذبان بنوع واحد وهو الاختطاف والاختلاس واعجالها عن الوثوب اذا تلقطته بأطراف المناقير أو كبعض ما ذكرنا من اطباق الفم عليها فاما الصيد الذى ليس للكلاب ولا لعناق الارض ولا للفهد ولا لشئ من ذوات الاربع مثله فى الحذق والختل والمداراة وفى صواب الوثبة وفى التسدد وسرعة الخطف مثل الذى يقال له الليث وهو الصنف المعروف من العناكب بصيد الذبان فانك تجده اذا عاين الذبان ساقطا كيف يلتطئ بالارض وكيف يسكن جميع جوارحه

للوثبة وكيف يؤخر ذلك الى وقت الغرة وكيف يريها انه عنها لاه فانك ترى من ذلك شيئاً لم ترمثله من فهد قط وان كان الفهد موصوفا منعوتا واعلم انه قد ينبغى ان لا يكون فى الارض شئ أصيد منه لأنه لا يطير ولا يصيد الاما يطير ويصيدطائراً شديد الحذر ثم يصـيد صياداً لان الذباب يصيد البعوض وخديعتك للخداع أعجب ومكرك بالماكر أغرب فكذلك يكون صيد هذا الفن من العنكبوت وزعم الجردانى ان الوزغ تختل الذبان وتصيدها صيداً حسناً شبيها بصيد الليث قال والزنبور حريص على صـيد الذبان ولكنه لا يطمع فيها إلا أن تكون ساقطة على خرء دون كل تمر وعسل لشده عجبهـا بالخرء وتشاغلها به فعند ذلك يطمع فيـه الزنبور ويصيده وزعم الجردانى وتابعه كيسان ان الفهد انما اخذذلك عن الليث ومتى رآه الفهد يصيد الذبان حتى تعلم منه فظننت انهما قلدا فى ذلك بعض من اذا مدح شيئاً اسرف فيه ويزعمون ان السبع الصيود اذا كان مع سبع هو أصيد منه تعلم منه وأخذ عنه وهـذا لم أحقه فاما الذى لاأشك فيه فان الطائرالحسن الصوت الملحن اذا كان مع نوائح ومغنيانها فـكان يقرب الطائر من شكله وهو أحذق منه وأمهر جاوبه وحكاه وتعلم منه او صنع شيئاً يقوم مقام التعلم والبرذون يراض فيعرف ما يراد منه فيعين على نفسه وربما استأجروا للطير رجلا يعلمها فأما الذى رأيته أنا في البلابل فقد رأيت رجلا يدعى لها فيطارحها من شكل اصواتها وفى الطير ما يخترع الاصوات واللحون التى لم يسمع بمثلها قط من المؤلف للحون من الناس فإنه ربما أنشأ لحنالم يمر على سماع المغنين قطوأكثر ما يجدون ذلك من الطير فى القمارى وفي السودانيات ثم فى الكرارة وهى تأكل الذبان اكلا ذريعاً ويقال إن اللجاج في ثلاثة أجناس من بين جميع الحيوان الخنفساء والذباب والدودة الحمراء فانها فى إبان ذلك تروم الصعود الى السقف وتمر على الحائط الاملس شيئاً قليلا فتسقط وتعود ثم لا تزال تزداد شيئاً ثم تسقط الى ان تمضي الى باطن السقف فربما سقطت ولم يبق عليها الا مقدار اصبع ثم تعود والخنفساء تقبل قبل الانسان فيدفعها فتبعد بقدر تلك الطردة والدفعة ثم تعود أيضاً فيصنع بها اشدمن تلك ثم تعود حتى ربما كان ذلك سبباً لغضبه ويكون غضبه سبباً لقتلها وما زالوا كذلك وما زالت

كذلك حتى سقط الى المقاييس ان الخنافس تجلب الرزق وإن دنوها دليل على رزق حاضر من صلة أو جائزة أو ربح أو هدية أو حظ فصارت الخنافس ان دخلت فى قمصهم ثم نفذت الى سراويلاتهم لم يقولوا لها قليلا ولا كثيراً وأكثر ما عندهم اليوم الدفع لها ببعض الرفق ويظن بعضهم انه إذا دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ثم دافعها فعادت ان ذلك كلما كان أكثر كان حظه من المال الذي يؤمله عند مجيئها أكثر فانظر أية واقية دائمة حافظة وأي حارس وأى حصن ان شاء الله تعالي لها بهذا القول وأي حظ لها حين صدقوا هذا التصديق والطمع هو الذى أثار هذا الامر من مدافنه والفقر هو الذى سبب هذا الطمع واجتلبه ولكن الويل لها ان الحت على غنى عالم وخاصة إن كان مع حدوثه وعلمه حديدا عجولا وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد البطش الملح في ذلك الجهير الصوت الذي تسميه العوام أمير الذبان فكانوا يحتالون فى صرفه وطرده اذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه فانه لا يغير فلما سقط اليهم أنه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم صاروا اذا دخل المنزل وأوسعهم شرا لم يهجه أحد منهم واذا أراد الله عز وجل ان ينسى في أجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً كما أنه إذا أراد أن يقصر عمره هيأ له سبباً فتعالى الله علواً كبيراً (ثم رجع بنا القول) الى الحاح الذبان كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار لم ير الناس حاكما قط ذمياً ولا ركيناً ولا وقوراً حليما ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك كان يصلى الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته ولا يحل رجلا على رجل ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر ثم يعود الى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم الى العصر ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ثم ربما عاد الى محله بل كثيراً ما كان يكون ذلك اذا بقى عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق ثم يصلي العشاء وينصرف فالحق يقال لم يقم فى طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ولا احتاج اليه ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب كذلك كان شأنه فى

طوال الأيام وفى قصارهـا وفى صيفها وفى شتائها وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه وليس إلا أن يتكلم فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفي السماطين بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ثم تحول الى مؤق عينيه فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير ان يحرك أرنبته أو يغض وجهه أو يذب بإصبعه فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصـد الى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الاعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الاطباق والفتح فتنحى ريثما سكن جفنه ثم عاد الى مؤقه باشد من مرته الأولى فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك فكان احتماله وعجزه عن الصبر عليه فى الثانية أقل فحرك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وألح فى فتح العين وفي تتابع الفتح والاطباق فتنحى عنه بقدر ماسكنت حركته ثم عاد الى موضعه فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده فلم يجد بداً من ان يذب عن عينيه بيده ففعل وعيون القوم اليه ترمقه وكأنهم لا يريدونه فتنحى عنه بقدر ماردبده وسكنت حركته ثم عاد الى موضعه ثم ألجاه الى ان ذب عن وجهه بطرف كمه ثم ألجاه الى أن تابع بين ذلك وعلم ان فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه فلما نظروا اليه قال أشهد ان الذباب ألح من الخنفساء وأزهى من الغراب وأستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً وقد علمت انى عند نفسي من أضعف الناس فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ثم تلا قوله تعالى وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب وكان بين اللسان قليل فضول الكلام وكان مهيباً فى أصحابه وكان أحد من لم يطعن عليه فى نفسه ولا فى تعريض أصحابه للمنالة فأما الذي أصابني أنا من الذبان فانى خرجت أمشى من عند ابن المبارك أريد دير الربيع ولم أقدر على دابة فمررت في عشب ونبات ملتف كثير الذبان فسقط ذباب من ذلك الذبان على أنفي فطردته فلم أقدر فتحول الى عيني فزدت في تحريك يدى فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني ولذبان الكلإ والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ثم عاد الى فعدت عليه ثم عاد فعدت بأشد

من ذلك فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي ثم عاد وأنا في ذلك احث السير أؤمل بسرعتي انقطاعه عني فلما عاد نزعت طيلساني من عنقي فذببت به عني بدل كمي فلما عاود ولم أجد له حيلة استعملت العدو فعدوت منه شوطاً لم أتكلف مثله مذ كنت صبياً فتلقاني الأندلسي فقال لى مالك ياأبا عثمان هل من حادثة قلت نعم أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان فضحك حتى جلس وانقطع عني وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جداً والعساكر أبداً كثيرة الذبان فإذا ارتحلوا لم ير المقيم بعد الظاعن منها الا ليسير وزعم بعض الناس أنهن يتبعن العساكر ويسقطن على المتاع وعلى جلال الدواب فاعجاز البراذين التي عليها حتى تؤدي الى المنزل الآخر قال المكى يتبعوننا ليؤذونا ثم لا يركبون الا أعناقنا ودوابنا ويقول بعضهم بل إنما يتخلق من تلك العفونات والابخرة والانفاس فاذا ذهب ذلك خف ويزعمون أنهم يعرفون ذلك بكثرتها فى الجنائب وبقلتها فى الشمائل قالوا وربما سددنا فم الآنية التي فيها الشراب بالصمامة فاذا نزعناها وجدنا ذبابا صغاراً وقال ذو الرمة

وايقن ان القنع صارت نطاقه * فراشاً وان البقل ذاو ويابس

وأخبرني رجل من ثقيف من أصحاب النبيذ أنهم فلقوا السفرجلة أيام السفرجل للنقل والأكل وليس هناك من صغار الذبان شئ البتة ولا يعدمهم أن يروا على مقاطع السفرجل ذبابا صغاراً وربما رصدوها وتأملوها فيجدونها تعظم حتى تلحق بالكبار في الساعة الواحدة قال وفي الذبان طبع كطبع الجعلان فهو طبع غريب عجيب ولولا أن العيان قهر أهله لكانوا خلقاء أن يدفعوا الخبر عنه فان الجعل إذا دفن فى الموردمات فى العين وفنيت حركاته كلها وعاد جامداً تارزاً ولم يفصل الناظر اليه بينه وبين الجعل الميت ما أقام على تأمله فاذا أعيد الى الروث عادت اليه حركة الحياة من ساعته وجربت أنا ذلك فى الخنفساء فوجدت الأمر فيها قريباً من صفة الجعل ولم يبلغ كل ذلك لقرابة بين الخنفساء والجعل ودخلت يوما على ابن أبى كريمة واذا هو قد أخرج من اجانة كان فيها ماء من غسالة أوساخ الثياب واذا ذبان كثيرة قد تساقطن فيه من الليل فتن هكذا كان فى رأي العين فعبرن كذلك عشيتهن وليلتهن والغد الى انتصاف النهار حتى

انتفخن وعفن واسترخين واذا ابن أبي كريمة قد أعد آجرة جديدة وفتات آجر جديد وإذا هو يأخذ الخمس منهن والست ثم يضعهن على ظهر الآجرة الجديدة ويذر عليهن من دقاق ذلك الآجر الجديد المدقوق بقدر مايغمرها فلا تلبث أن يراها قد تحركت ثم مشت ثم طارت الا أنه طيران ضعيف وكان ابن أبي كريمة يقول والله لادفنت ميتاً أبداً حتى ينتن قلت وكيف قال إن غلامي هذا نصيرا مات فأخرت دفنه لبعض الأمر فقدم أخوه تلك الليلة فقال ما أظن أخي مات ثم أخذ فتيلتين ضخمتين فروّاهما دهنا ثم أشعل فيهما النار ثم اطفاهما وقربهما الى منخريه فلم يلبث ان تحرك وها هو ذا قد تراه قلت له ان اصحاب الحروب الذين يغسلون الموتى والاطباء عندهم في هذا دلالات وعلامات فلا تحمل على نفسك فى واحد من أولئك أن لا تستره بالدفن حتى يجيف والمجوس يقربون الميت من أنف الكلاب ويستدلون بذلك على أمره فعلمت ان الذى عايناه من الذبان قد زاد في عزمه (والنعر ضرب من الذبان) والواحدة نعرة وربما دخلت في أنف البعير أو السبع فتورم أنفه للذي يلقي من المكروه بسببه فالعرب تشبه ذا الكبر من الرجال اذا صعر خده وزم بأنفه بذلك البعير في تلك الحال فيقال عند ذلك فلان فى أنفه نعرة وفي أنفه خنزوانة وقال عمر والله لا أقلع عنه أو أطير نعرته (ومنها) القمع وهو ضرب من ذبان الكلإ وقال أوس

ألم تر أن الله أنزل مزنه * وعفر الظباء في الكناس تقمع

وذلك مما يكون فى الصيف وفي الحر والذبان جند من جند الله شديد الاذى وربما كان أضر من الدبر فى بعض الزمان وربما أتت على القافلة بما فيها وذلك أنها تغشى الدواب حتى تضرب بأنفسها الارض وهى فى المفاوز وتسقط فيهلك أهل القافلة لأنهم لايخرجون من تلك المفاوز على دوابهم وكذلك تضرب الرعاء بإبلهم والجمالون بجمالهم عن تلك الناحية ولا يسلكها صاحب دابة ويقول بعضهم لبعض بادروا قبل حركة الذباب وقبل ان تتحرك ذباب الرياض والكلا والزنابير لاتكاد ترمي إذا لسعت بأذنابها والذبان تغمس خراطيمها في جوف لحوم الدواب وتخرق الجلود الغلاظ حتى تنزف الدم نزفا ولها مع شدة الوقع سموم وكذلك البعوضة ذات سم ولو زيد في

بدن البعوضة وزيد في حرقة لسعها الى ان يصير بدنها كبدن الجرادة فإنها أصغر من العقارب لما قام له شئ ولكان أعظم بلية من الجرادة النصيبية أضعافا كثيرة وربما رأيت الحمار وكانه منعر أومعصفر فإنهم مع ذلك ليجللون حمرهم ويبرقعونها وما يدعون موضعا الا ستروه بجهدهم فربما رأيت الحمير وعليها الرجال بأيديهم المناخس والمذاب وقد ضربت بأنفسها الارض واستسلمت للموت وربما رأيت صاحب الحمير اذا كان أجيرا يضربها بالعصا بكل جهده فلا تنبعث وليس لجلد البقرة والحمار والبعير عنده خطر ولقد رأيت ذبابا سقط على سالفة حمار كان تحتى فضرب بأذنيه وحك راسه بكل جهة أنا أتأمله وما يقلع عنه فعمدت بالسوط لانحيه به فنزا عنه ورأيت مع نزوه عنه الدم وقد انفجر كانه كان يشرب الدم وقد سد المخرج بفيه فلما نُحاه طلع وتزعم العامة أن الذبان يخرء ماشا قالوا لانا نراه يخرء على الشئ الأسود أبيض وعلى الأبيض أسود ويقال قد ونم الذباب فى معنى خرء الانسان وعرّا الطائر وصام النعام وذرق الحمام قال الشاعر

وقد ونم الذباب عليه حتى * كان ونيمه نقط المداد

وليس طول كوم البعير اذا ركب الناقة والخنزير اذا ركب الخنزيرة باطول ساعة من لبث ذكور الذبان على ظهور الاناث عند السفاد والذباب من الخلق الذى يكون مرة من السفاد والولادة ومرة من تعفن الأجسام والفساد الحادث في الاجرام والباقلاء اذا عتق شيئاً في الاقباء استحال كله ذباباً فربما اغفلوه فى تلك الاقباء فيعودون الي الاقباء وقد تطاير من الكوي والخروق فلا يجدون في الاقباء إلا القشور والذباب الذى يخلق من الباقلاء يكون دودا ثم يعود ذبابا وما أكثر ماترى الباقلاء مثقبا في داخله شئ كانه مسحوق اذا كان الله قد خلق فيه الذبان وطيره منه وما أكثرما تجده فيه تام الخلق ولو تم جناحاه لقد كان طار وحدثني بعض أصحابنا عن شيخ من اهل الجزيرة قال كنت أحب الباقلاء واردت إما البصرة وإما بغداد ذهب عني حفظه فصرت فى سفينة حملها باقلاء فقلت في نفسى هذا والله من الحظ وسعادة الجد ومن التوفيق والتسديد ولقد ربح من وقع له مثل هذا الذى وقع لى اجلس فى هذه السفينة على هذا الباقلاء فآكل

منه نيا ومطبوخا ومقلوا وارض بعضه وأطحنه وأخعله مرقا وإداما وهو يغذى غذاء صالحا ويسمن ويزيد في الباه فابتدأت فيما أملته ودفعنا السفينة فأنكرت كثرة الذبان فلما كان الغد جاء منه ما لم أقدر معه على الاكل والشرب وذهبت القائلة وذهب الحديث وشغلت بالذب على أنهن لم يكن يبرحن بالذب ولن أكثر من أن أكون أقوي عليهن لاني كنت لا أطرد مائة حتى يخلفها مأية مكانها وهن في أول مايخرجن من الباقلاء كان بهن زمانة فلما كان طيرانهن أسوأ الحالي فقلت للملاح ويلك أي شيء معك حتى صار الذبان يتبعك قدو الله أكلت وشربت قال وليس تعرف القصة قلت لا والله قال من هذه الباقلاء ولولا هذه البلية لجأنا من الركاب كما يجيئون الى أصحابنا وما أظنك إلا ممن قد اغتفر للين الكراء وحب التفرد بالسفينة فسألته أن يقربني الي بعض الفرض حتى أكتري من هناك الى حيث أريد فقال لى أتحب أن أزودك منه قلت ما أحب ان التقي أنا والباقلاء في طريق أبداً ولذلك كان أبو شمر لا يأكل الباقلاء وكان أخذ ذلك عن معلمه معمر أبي الأشعث وكذلك كان عبد الله بن مسامة بن محارب والوكيعي ومعمر وأبو الحسن المدائني برهة من دهرهم وكان يقول لولا أن الباقلاء عفن فاسد الطبع رديء يخثر الدم ويغلظه ويورث السوداء وكل بلاء لما ولد الذبان والذبان أقذر ما طار ومشى وكان يقول كل شيء ينبت منكوسا فهو رديء للذهن كالباقلا والباذنجان وكان يزعم ان رجلا هرب من غرمائه فدخل فى غابة باقلاء فتستر عنهم بها فاراد بعضهم إخراجه والدخول فيها لطلبه فقال أحكمهم وأعلمهم كفا كم له بموضعه شراً وكان يقول سمعت ناسا من أهل التجربة يحلفون بالله انه ماأقام أحد أربعين يوماً فى منبت باقلاء وخرج منه الا وقد أسقمه سقما لا يزايل جسمه وزعم ان الذي منع أصحاب الاذهان والتربية بالسمسم من أن يربوا السماسم بنور الباقلاء الذى يعرفون من فساد طبعه وانه غير مأمون على الدماغ وعلى الخيشوم والصماخ ويزعمون ان عمله القصد الى الاذهان بالفساد وكان يزعم ان كل شئ رديء للعصب فانه يكون رديا للذهن وان البصل يفسد الذهن إذ كان رديا للعصب وكان يقول سواء على أكلت الذبان أو أكلت شيئاً لا يولد الا الذبان وهو لا يولده والشئ لا يلد الشئ إلا وهو

أولى الاشياء به واقربها الى طبعه وكذلك جميع الأرحام وفيما ينتج أرحام الارض وارحام الحيوان وارحام الاشجار وارحام الثمار فيما يتولد منها وفيها وبينما أنا جالس يوما فى المسجد مع فتيان من المسجديين مما يلي أبواب بنى سليم وأنا يومئذ حدث السن اذ أقبل أبو سيف الممرور وكان لا يؤذي أحداً وكان كثير الظرف من قوم سراة حتى وقف علينا ونحن نري فى وجهه أثر الجد ثم قال مجتهداً والله الذى لا إله الا هو ان الخرأ لحلو ثم والله الذى لا إله إلا هو يمينا ثانية يسألني الله عنها يوم القيامة فقلت له أشهد أنك لا تأكله ولا تذوقه فمن أين علمت ذلك فإن كنت علمت أمراً فعلمنا مما علمك الله قال رأيت الذبان يسقط على النيذ الحلو ولا يسقط على الحار ويقع على العسل ولا يقع على الخل واراه على الخرء أكثر منه على التمر افتريدون حجة أبين من هذه فقلت يا أبا سيف بهذا وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب (ثم رجع بنا القول فى ذكر خلق الذبان من الباقلاء) وقد أنكر ناس من العوام وأشباه العوام أن يكون شئ من الخلق كان من غير ذكر وأنثى وهذا جهل بشأن العالم وباقسام الحيوان وهم يظنون أن على الدين من الاقرار بهذا القول مضرة وليس القول كما قالوا وكل قول يكذبه العيان فهو فحش خطأ واسخف مذهباً وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مفرطة وان ذهب الذاهب الى أن لا يقيس ذلك على مجاز ظاهر الرأى دون القطع على غيب حقائق العلل فاجراه في كل شئ وقال قد لا يدفعه العيان أيضاً مع انكار الدين له وقد علمنا ان الانسان يأكل الطعام ويشرب الشراب وليس فيهما حية ولا دودة فيخلق منها فى جوفه الوان من الحيات وأشكال من الديدان من غير ذكر ولا أنثى ولكن لابد لذلك الولاد واللقاح من ان يكون عن تناكح طباع وملاقات أشياء تشبه بطباعها الارحام وأشياء تشبه فى طبائعها ملقحات الارحام وقد قال الشاعر

فاستنكح الليل البهيم فالقحت * عن هيجه واستنتجت أحلاما

وقال الآخر

واذا الأمور تناكحت * فالجود أكرمها نتاجا

وقال ذو الرمة

وانى لمدلاج اذا ما تناكحت * مع الليل أحلام الهدان المثقل

وقال علي بن معاذ

للبدر طفل فى حصان الهوى * منزلق من رحم الشمس

وقال دكين الراجز

وقد تعللت ذميل العنس * بالسوط فى ديمومة كالندس

* اذ عرج الليل بروج الشمس *

وقال أمية بن أبى الصلت

والأرض نوخها الاله طروقة * للماء حتى كل زند مسفد

والأرض معقلنا وكانت أمنا * فيها مقابرنا وفيها نولد

وذكر أمية الأرض فقال

والطوط نزرعه فيها فنلبسه * والصوف نجتزه ما أدفأ الوبر

هي القرار فما نبغى لها بدلا * ما أرحم الارض الا اننا كفر

وطعنة الله في الاعداء نافذة * تعيي الاطباء لا يلوى لها السبر

ثم رجع اليها فقال

منها خلقنا وكانت أمنا خلقت * ونحن أبناؤها لو اننا شكر

وتقول العرب الشمس أرحم بنا فاذا سمع السامع منهم ان جالينوس قال عليكم بالبقلة الرحيمة يريد السلقة استشنعه السامع واذا سمع قول العرب الشمس أرحم بنا وقول أمية * ما أرحم الارض إلا أننا كفر * لم يستشنعه وهما سوآء فاذا سمع أهل الكتاب يقولون إن عيسى ابن مريم أخذ فى يده اليمنى غرفة وفى اليسرى كسرة خبز ثم قال هذا أبى وهذه أمي لكسرة الخبز والماء استشنعه فإذا سمع قول أمية

والارض نوخها الاله طروقة * للماء حتى كل زند مسفد

لم يستشنعه والاصل في ذلك أن الزنادقة أصحاب الفاظ فى كتبهم وأصحاب تهويل لانهم حين عدموا المعانى ولم يكن عندهم فيها طائل مالوا الى تكلف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيراً ولكل قوم الفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الارض وصاحب

كلام منثور وكل شاعر وصاحب كلام موزون فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها ليديرها في كلامه وان كان واسع العلم غزير المعاني كثير اللفظ فصار حظ الزنادقة من الالفاظ التي سبقت الى قلوبهم واتصلت بطبائعهم وجرت على ألسنتهم التناكح والنتائج والمزاج والنور والظلمة والدفاع والبقاع والساتر والغامر والمنحل والبطلان والوجدان والأثير والصداق وعمود الصبح وأشكالا من هذا الكلام نصاً وان كان غريباً من فوضى مهجوراً عند أهل ملتنا ودعوتنا وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا ولا يستعمله الا الخاص والا المتكلمون وأنا أقول في هذا قولا وأرجو ان يكون مرضياً ولم أقل أرجو لاني أعلم فيه خللا ولكني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب وذلك أنه قيل لصحاف العبدي ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه واحسانه قال اما نحن فإنا نرجوا ان نكون قد بلغنا من اداء مايجب علينا مبلغا مرضيا وهو يعلم انه قد وفاه حقه الواجب وتفضل بما لا يجب قال صحار كانوا يستحبون أن يدعوا للقول متنفسا وان يتركوا فيه فضلا وان يتجافوا عن حق إن أرادوه لم يمنعوا منه فلذلك قلت أرجو فافهم فهمك الله تعالى فإن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ أن أكون مادمت في المعاني التي هي عبارتها والعادة فيها ان ألفظ بالشيء العتيد الموجود وأدع التكليف لما عسى أن لا يسلس ولا يسهل الا بعد الرياضة الطويلة وأرى أن ألفظ بالفاظ المتكلمين مادمت خائضا في صناعة الكلام مع خاص أهل الكلام فان ذلك افهم عندي واخف لمؤنتهم على ولكل صناعة الفاظ قد حصلت لاهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم الا بعد ان كانت مشاكلا بينها وبين تلك المعاني الصناعة وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى الفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار أو في مخاطبة أهله وعبده وامته أو في حديثه اذا حدث أو خبره اذا أخبر وكذلك من الخطإ أن يجلب الفاظ الاعراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل (ثم رجع بنا القول) الى مايحدث الله عز وجل من خلقه من غير ذكر ولا أنثي فقلنا انه لابد في ذلك من تلاقي أمرين يقومان مقام الذكر والانثي ومقام الارض

والمطر وقد تقرب الطبائع من الطبائع وان لم تحول فى جميع معانيها كالنقطة والدم وكاللبن والدم وقد قال صاحب المنطق اقول بقول عام لابد لجميع الحيوان من دم أو من شكل يشا كل الدم ونحن قد نجد الجيف يخلق منها الديدان وكذلك العذرة وكذلك المجوسى كلما تبرز ذر على برازه شيئاً من التراب لئلا يخلق منها ديدان والمجوسى لايتغوط فى الآبار والبلاليع لانه بزعمه يكرم بطن الارض عن ذلك ويزعم أن الأرض احد الاركان التى تنبت العوالم الخمسة عليها بزعمهم البرسارس والبرمارس وابردس وكارس وحريرة امنة وبعضهم يجعل العوالم ستة ويزيد اسرس ولذلك لايدفنون موتاهم ولا يحفرون لهم القبور ويضعونهم فى النواويس وضعا قالوا ولو استطعنا أن نخرج تلك الجيف من ظهور الارض وأجواف الاحرار كما أخرجناها من بطون الارض انما لناوهم يسمون يوم القيامة روزسهرهار كانه يوم تقوم الجيف فمن بغضهم لابدان الموتى سموها باسمج اسمائهم قالوا وعلى هذا المثال أعظمنا النار والماء وليسا بأحق بالتعظيم من ألارض وبعد فنحن ننزع الصمامة من رؤوس الآنية التي يكون فيها بعض الشراب فتجد هنالك من الفراش مالم يكن عند ذكر ولا انثي وانما ذلك لاستحالة بعض اجزاء الهواء وذلك الشراب إذا انضم عليه ذلك الوعاء وهذا قول ذي الرمة وتأويل شعره حيث يقول

وأبصرت ان النقع صارت لطائفه * فراشاً وأن البقل ذاو ويابس

وكذلك كل ماتخلق من جمار النخلة وفيهما من ضروب الخلق والطير واشباه ذلك بنات وردان وان الذي يسمى بالفارسية تارداد وكالسوس والقوادح والارضة وليس بين بنات وردان والزنابير فرق ولا بين الزنابير والدبر والخنافس فرق ولا بين العصافير والزرازير فرق فاذا فرغوا خشاش الارض صاروا الى بغاثها ثم إلى احرارها ثم الى الطواويس والتداريج والفراريج والزمامج حتى يصعدوا إلى الناس قيل لهم ليس ذلك كذلك ينبغي لكم بدياً أن تعرفوا الطبيعة والعادة الغريزة من الطبيعة العامية والممكن من الممتنع وان الممكن على ضربين فمنه الذي لا يزال يكون ومنه الذى لا يكاد يكون وما علة الكثرة والقلة ويعرفون أن الممتنع أيضاً على ضربين فمنه ما يكون لعلة موضوعة يجوز دفعها وما كان منه للعلة التي لايجوز دفعها وهي على كل حال علة وبين الامتناع الذى لاعلة له غير الشيء وجنسه وينبغي ان تعرفوا فرق

مابين المحال الممتنع وما يستحيل كونه من الله عز وجل وما يستحيل كونه من الخلق فاذا عرفتم الجواهر وحظوظها من القوي فعند ذلك فتعاطوا الانكار والاقرار والا فكونوا فى سبيل المتعلم أو في سبيل أثر الراحة ساعة على ما يورث كد التعلم من راحة الابد قد يكون أو يجئ على جهة التوليد وشئ يبعد في الوهم من غيره لان حقائق الأمور ومغيبات الاشياء لاترد الى ظاهر الرأى وانما يرد الى الرأى مادخل فى باب الجزم والاضافة وما هو أصوب وأقرب الى نيل الحاجة وليس عند الرأي علم بالنصح والا كداء كنحو مخارج الزجاج من الرمل وإمتناع الشبه والزئبق من أن يتحول فى طبع الذهب والفضة والزئبق أشبه بالفضة المايعة من الرمل بالزجاج الفرعونى والشبه الدمشقى بالذهب الابريز أشبه من الرمل بفلق الزجاج النقي الخالص الصافى ومن العجب ان الزجاج وهو مولد قد يجرى مع الذهب في كثير مفاخر الذهب اذ كان لايغير طبعه ماء ولا أرض والفضة التى ليست بمواده اذا دفنت زماناً غير طويل استحالت أرضاً فأما الحديد فإنه فى ذلك سريع غير بطىء وقد زعم ناس ان الفرق الذى بينهما انما هو ان كل شئ له في العالم أصل وخميرة لم يكن كالشيء الذى يكتسب ويجتلب ويلفق ويلزق وان الذهب لا يخلو من أن يكون ركناً من الأركان قديما منذ كان الهواء والماء والنار والارض فإن كان كذلك فهو أبعد شئ من أن يولد الناس مثله وان كان الذهب إنما حدث فى عمق الارض بان يصادف من الارض جواهر أو من الهواء الذى فى خلالها جواهر أو من الماء الملابس لها جواهر أو من النار المحصور فيها جواهر مع مقدار من طول مرور الزمان ومقدار من مقابلات البروج فإن كان الذهب إنما هو نتيجة الجواهر على هذه الاسباب فواجب ان لا يكون الذهب أبداً الا كذلك فيقال لهؤلاء أرأيتم الفارة التي خلقت من صلب جرذ ورحم فارة وزعمتم انها فارة علي مقابلة من الامور السماوية والهوائية والارضية وكانت نتيجة هذه الخصال مع استبقاء مدة صفات التسافد وجدنا فارة أخرى تهيأ لها من أرحام الارضين ومن حضانة الهواء ومن تلقيح الماء ومن المقابلات السماويات والهوائيات فالزمان أصار جميع ذلك سبباً لفارة مثلها وكذلك كلما عددنا فمن أين يستحيل ان يحلها إنسان بين

مأية طبيعة ومأية جوهر أما من طريق التبعيد والتقريب ومن طريق الظنون والتجريب ومن طريق أن يقع ذلك اتفاقا كما صنع الناطف الساقط من يد الأجير في مذاب الصفر حتي أعطاه ذلك اللون وجلب ذلك النفع ثم ان الرجال دبرته وزادت ونقصت حتى صار شبها ذهبيا هـذا مع النوشاذر المولد والحجارة السود فلو قلتم ان ذلك قائم الجوهر في العقل مطرد في الرأى غير مستحيل في النظر ولكنا وجدنا العالم بما فيه من الناس منذ كانا فان الناس يلتمسون وينتصبون له ويتكلفون به فلو كان هذا الأمر يجيء من وجه الجمع والتفريق والتركيب ومن وجه الاتفاق لقد كان ينبغي أن يكون ذلك قد ظهر من الوف سنين وألوف إذ كان هذا المقدار اقل ما تؤرخ به الامم وكان هذا مقبولا غير مردود وعلى انه لم يتبين لنا منه انه يستحيل ان يكون الذهب الا من حيث وجد وليس قرب كون الشيء في الوهم بموجب لكونه ولا بعده في الوهم بموجب لامتناعه ولو ان قائلا قال ان هذا الامر قد يحتاج الى ان تتهيأ له طباع الأرض وطباع الماء وطباع النار ومقادير حركات الفلك ومقدار من طول الزمان فمتى لم تجتمع هذه الخصال وتكمل هذه الأمور لم يتم خلق الذهب وكذلك قد يستقيم ان يكون قد تهيأ لواحد ان يجمع بين شكل الجواهر فمزجها على مقادير وطبخها على مقادير واعانها مقدار من الزمان وقابلت مقدارا من حركات الاجرام السماوية وصادفت العالم بما فيه على هيئة وكان بعض ماجرى على يده اتفاقا وبعضه قصداً فلما إجتمعت جاء منها ذهب فوقع ذلك في خمسة آلاف سنة مرة ثم اراد صاحبه المعاودة فلم يقدر على امثال مقادير طبائع تلك الجواهر ولم يضبط مقادير ماكان قصـد اليه في تلك المدة واخطا ما كان وقع له اتفاقا ولم يقابل من الفلك مثل تلك الحركات ولا من العالم مثل تلك الهيئة فلم يعد له ذلك فان قال لنا هذا القول وقال أثبتوا لى موضع احالته ولا تحتجوا بتباعد الأمور فيه فانا نقر لكم بتباعدها هل كان عندنا في ذلك قول مقنع والدليل الذى تثلج به الصدور وهل عندنا في استطاعة الناس ان يولد وامثل ذلك الابان يعرض هذا القول على العقول السليمة والافهام التامة ويردوه الى رسول الله صلي الله عليه وسلم والكتب فاذا وجدنا هذه الامور كلها باقية له كان ذلك عندنا هو المقنع وليس الشأن فيما يظهر

اللسان من الشك فيه والتجويز له ولكن ليرده الى العقل فانه سيجده منكرا ونافيا فاذا كان العقل سليما من آفة المرض ومن آفة التخبيل والتخبيل ضروب تخبيل من المرار وتخبيل من الشيطان وتخبيل آخر كالرجل يعمد الى قلب رطب لم يتوقح وذهن لم يستمر فيحمله على الدقيق وهو بعد لا يفي بالجليل ويتخطي المقدمات متكشفا بلا امارة فرجع حيران بلا يقين وغبر زمانا لا يعرف الا الخواطر الفاسدة التى متى لاقت القلب على هذه الهيئة كانت ثمرتها الحيرة والقلب الذي يفسد فى يوم ولا يداوى فى سنة والبناء الذي ينقض فى ساعة ولا يبنى مثله فى شهر

ثم رجع بنا القول الى ذكر الذبان

قيل لعلوية كلب المطبخ اى شئ معني قولهم هذا نبيذ يمنع جانبه قال يريد ان الذبان لا يدنو منه وكان الرقاشي حاضراً فأنشد قول ابن عبدل

عشش العنكبوت في قمر دنى * ان ذا من رزيتى لعظيم
ليتنى قد عمرت ذنى حتى * ابصر العنكبوت فيه يعوم
غرقا لا يغيثه الدهر الا * زبد فوق رأسه مركوم
مخرج كفه ينادى ذبابا * أن اغثني فإننى مغموم
قال دعنى فلن اطيق دنوا * من شراب يشمه المزكوم

والذبان يضرب به المثل فى القذر وفي استطابة النتن فاذا عجز الذباب عن شم شيء فهو الذي لا يكون أنتن منه ولذلك حين رمي ابن عبدل محمد بن حسان بن سعيد بالبخر قال

وما يدنوا الى فيه ذباب * ولو طليت مشافره بقند
يرون حلاوة ويخفن موتاً * وشيكا ان هممن له بورد

ويقال لكل أبخرا أبو ذبان وكانت فيما زعموا كنية عبد الملك بن مروان وأنشد قول ابن خرابة

امسي ابو ذبان مخلوع الرسن * خلع عنان قارح من الرسن
* وقد صفت بيعتنا الابن الحسن *

وقال رجل يهجو هلال بن عبد الملك الهنانى

ألا من يشترى مني هلالا * مودته وخلته بفلس
وابرأ للذي يبتاع مني * هلالا من خصال فيه خمس
فمهن النغانغ والمكاوى * وآثار الجروح وأكل ضرس
ومن أخذ الذباب باصبعيه * وان كان الذباب برأس جمس

قالوا وضرب الله عز وجل لضعف الناس وعجزهم مثلا فقال(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) فقال بعض الناس قد سوى بين الذبان والناس في العجز وقالوا فقد يولد الناس من التعفين الفراش وهذا خلق على قوله (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير) وعلى قوله(أحسن الخالقين) وعلى قول الشاعر

وأراك تفرى ما خلقـ * ـت وبعض القوم يخلق ثم لا يفرى

قيل لهم إنما أراد الاختراع ولم يرد التقدير وأما قول ابن مبادة

الا لا نبالي ان تخندف خندف * ولسنا نبالي أن يطن ذبابها

فإنما جعل الذباب هاهنا مثلا وقد وصفه في موضع تحقير وتصغير وهو مثل قوله

بني أسد كونوا لمن قد علمتم * موالى ذات للهوان رقابها
ولو حاربتنا الجن لم نرفع القنا * عن الجن حتى لا تهر كلابها

وليس يريد الكلاب ويقال هو ذباب العين وذباب السيف ويقال تلك أرض مذبة أي كثيرة الذباب وقال أبو الشمقمق فى هجائه لبعض من إبتلى به

أسمج الناس جميعاً كلهم * كذباب ساقط فى مرقة

وسمعت أبا حكيم الكيماوي وهو يقول لثمامة بن أشرس قلنا لكم إننا ندلكم على الاكسير فاستثقلتم الغرم وأردتم الغنم بلا غرم وقلنا لكم دعونا نصنع هذه الجسور التي تهدمها المدود وتخربها المداري نحن نعمل لكم مسببات بنصف هذه المؤونة فتبقى لكم أبداً ثم قولوا للمدود ان تجتهد جهدها وللمداري أن تبلغ غايتها وقولوا الى الذباب ما ترجون منه وتشتهون من البعوض وما رغبكم فى الجرجس لم لا تدعونى أخرجها من بيوتكم

بالمؤونة اليسيرة وهو يقول هذا القول وأصحابنا يضحكون وابن مسافر جالس يستمع فلما نزلنا أخذ بيده ومضى به الى منزله فغداه وكساه وسقاه ثم قال له أحببت أن تخرج البعوض من داري وأما الذباب فاني أحتمله قال ولم تحتمل الأذى قد جاءك الله بالفرج قال فافعل قال لا بد لى من أن أخلط أدوية قال فكم تريد قال شيئاً يسيراً قال فكم مبلغه قال أريد خمسين ديناراً قال ويحك خمسون يقال لها يسير قال أنت لست تشتهي الراحة من قذر الذبان ولسع البعوض ثم لبس نعليه وقام على رجليه فقال له أقعد قال إن قعدت قبل أن آخذها ثم إشتريت دواء بمائة دينار لم تنفع به فاني لست أدخل هذه الدخنة الا للذين إذا أمرتهم باخراجهن اخرجوهن ولا تشك انى لست أقصد الا القمار فما هو الا أن سمعه بذكر القمار فذهب عقله ودعا له بالكيس ليزن الدنانير فقال له لا تشق على نفسك هاتها بلا وزن وعدد وإنما خاف ان تحدث حادثة أو يقع شغل فتفوت فعدها وهو زمع فغلط بعشرة دنانير فلما انصرف وزنها وعدها فوجدنا دنانير تنقص فكتب اليه يقتضيه الفضل فضحك أبو حكيم حتي كاد يموت ثم قال تسألني عن الفرع وقد استهلك الأصل يختلف اليه ويدافعه حتى قال له ثمامة ويلك يا مجنون قد ذهب المال والسخرية مستورة فان نافرته فضحت نفسك وربحت عداوة شيطان هو والله أضر عليك من عمار بيتك الذين ليسوا يخرجون عنه الذباب والبعوض بلا كلفة مع حق الجوار قال هم سكانى وجيرانى قالوا لو كان سمع منك أبو حكيم هذه الكلمة لكانت الخمسون ديناراً مائة دينار ومما قيل في أصوات الذباب وغنائها قال المثقب العبدى

وتسمع للذباب اذا تغنى * كتغريد الحمام على الغصون

وقال آخر حر مساربه تغنى * في غياطله ذبابه

وقال أبو النجم أتعترى ذبابة تعلله * من زهر الروض الذى يكلله

وقال أيضاً فالروض قد نور فى عزائه * مختلف الالوان في أسمائه

نوراً تخال الشمس في حمرائه * مكللا بالورد من صفرائه

يجاوب المكاء من مكائه * صوت ذباب العشب فى درمائه

يدعوا كذى العقب من بكائه * صوت مغن مد فى غنائه

وقال الشماخ

يكلفها ان لاتخفّض صوتها * أهاريج ذبان على عود عوسج

بعيدمدى التطريب أول صوته * سيحل وأعلاه نشيج المحشرج

والاجناس التي توصف بالغناء أجناس الحمام والبعوض وأصناف الذبان من الدبر والنحل والشعراء والقمع والنعرأ وليس لذبان الكلب غناء ولا لما يخرج من الباقلاء قال الشاعر

تذب عنها بأثيث ذابل * ذبان شعراء وصيف ماذل

وذبان الشعراء حمر قال والذبان التي تهلك الابل زرق قال الشاعر

تربعت والدهر ذو تصفق * خالية بذي سبيب مونق

الامن أصوات الذباب الازرق * ومن نقانق الفلا المنقنق

والذباب الذي يسقط على الدواب أصفر وقال أرطاة ابن سهية لزميل بن أم زبير

أزميل إني إن أكن لك جازيا * أعكر عليك وان ترع لاتسبق

اني امرؤ تجد الرجال عداوتي * وجد الركاب من الذباب الازرق

واذا مر بك الشعر الذي يصلح للمثل وللحفظ فلاتنس حظك من حفظه وقال المتلمس

فهذا أوان العرض حي ذبابه * زنابيره والازرق المتلمس

وبه سمى المتلمس وقال ابن ميادة

بعنتريس كان الدبر يلسعها * اذا تغرد حاد خلفها طرب

والدليل على أن أجناس النحل والدبر كلها ذبان ماحدث عباد بن صهيب واسماعيل المكي عن الاعمش عن عطية بن سعيد العوفي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذباب في النار الا النحلة وقال سليمان سمعت مجاهدا يكره قتل النحل واحراق العظام يعنى في الغزو وحدثنا عنبسة قال حدثنا حنظلة السدوسي قال أنبأنا أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر الذباب أربعون يوما والذباب في النار وقد اختلف الناس في تأويل قوله والذباب في النار وقال قوم الذباب خلق خلق للنار كما خلق الله تعالى ناسا كثيراً للنار وخلق أطفالا للنار فهؤلاء قوم خلعوا عذرهم فصار

أحدهم اذا قال ذلك عدل من الله عز وجل فقد بلغ أقصى العذر ورآى أنه اذا أضاف اليه عذاب الاطفال فقد مجده ولو وجد سبيلا إلى أن يقول ان ذلك ظلم لقاله ولو وجد سبيلا الى أن يزعم أن الله تعالى يخبر عن الشيء أنه يكون وهو لا يكون ثم يقول الا ان ذلك صدق لقاله الا انه يخاف السيف عند هـذه ولا يخاف السيف عند تلك وان كانت تلك أعظم في الفرية من هذه وبعضهم يزعم أن الله عز وجل إنما عذب اطفال المشركين ليغم بهم آباءهم ثم قال المتغافلون منهم بل عذبهم لانه هكذا شاء ولان هذا له فليت شعرى يحتسب بهذا القول فى باب التمجيد لله تعالى لان كل من فعل ما يقدر عليه فهو محمود وكل من لم يخف سوط أمير أتى قبيحاً فالذى يحس ذلك القبيح ان صاحبه كان في امن أو لانه آمن يمتنع من مطالبة السلطان فكيف وكون الكذب والظلم والعبث واللهو والضحك كله محال ممن لا يحتاج اليه ولا تدعوا اليه الدواعي وزعم ابو اسحاق ان الطاعات إذا استوت استوى أهلها في الثواب وان المعاصي إذا استوت استوي أهلها فى العقاب وإذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضيل وزعم ان أجناس الحيوان يحس ويألم فى التفضيل سواء وزعم أن اطفال المشركين والمسلمين كلهم فى الجنة وزعم انه ليس بين الاطفال ولا بين البهائم والمجانين فرق ولا بين السباع فى ذلك وبين البهائم فرق وكان يقول ان هذه السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ولكن الله عز وجل ينقل تلك الارواح خالصة من تلك الآفات فيركبها فى أى الصور الحسان أحب وكان ابو كلدة ومعمر وابو الهذيل وصحصح يكرهون هذا الجواب ويقولون سواء عند خواصنا وعوامنا اقلنا ان أرواح كلابنا تدخل الجنة أو قلنا إن كلابنا تدخل الجنه ومتى ما اتصل كلامنا بذكر الكلب على أى وجه كان فكأنا عندهم قد زعمنا أن الجنة فيها كلاب ولكنا نزعم ان جميع ماخلق الله تعالى من السباع والبهائم والحشرات والهمج قبيح المنظر مؤلم أو حسن المنظر ملذ فما كان كالخيل والظباء والطواويس والتداريج فإن تلك الجنة وتلك أولياء الله عز وجل بمناظرها وما كان منها قبيحا فى الدنيا مؤلم النظر جعله الله عذابا الى عذاب اعدائه فى النار اذ جاء فى الأثران الذباب في النار وغير ذلك من الخلق فانما يراد به هذا المعني

وذهب بعضهم الى أنها تكون في النار وتلذ بذلك كما ان خزنة جهنم والذين يتولون من الملائكة التعذيب يلذون موضعهم من النار وذهب بعضهم الى ان الله تعالى يطبعهم على استلذاذ النار والعيش فيها كما طبع حيوان الثلج والخل على العيش في أماكنها وذهب آخرون الى ان الله عز وجل يحدث لابدانهم علة لا تصل النار اليها وتنعم قلوبهم وابدانهم من وجه آخر كما شاء وقالوا قد وجدنا الناس يحتالون لانفسهم فى الدنيا حيلا حتى يدخل أحدهم بعض الناس بذلك الطلا ولا تضره النار وهو فى معظمها وموضع الجماجم منها ففضل ما بين قدرة الله وقدرة عباده كفضل ما بين قوة حر نار الدنيا والآخرة وذهب بعضهم الى أن سبيلهم فيها كسبيل نار ابرهيم فانه لما قذف فيها بعث الله عز وجل ملكا يقال له الظل فكان يحدثه ويؤنسه فلم تصل النار الى أذاه مع قربه من طباع ذلك الملك وكيف دار الأمر في هذه الجوبات فإن أخسها واشنعها أحسن من قول من زعم أن الله تعالى يعذب بنار جهنم من لم يسخطه ولا يعقل كيف يكون السخط ومن العجب أن بعضهم يزعم أن الله تعالى انما عذبه ليغم آباءه وانما يفعل ذلك من لا يقدر على أن يوصل اليهم ضعف الاغتمام وضعف الألم الذي ينالهم بسبب ابنائهم فأما من يقدر على ايصال ذلك المقدار الى من يستحقه فكيف يوصله ويصرفه الى من لا يستحقه وكيف يصرفه الى من لا يستخطه دون من اسخطه وقد سمعوا قول الله عز وجل (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن فى الارض جميعاً ثم ينجيه كلا انها لظي نزاعة للشوى) وكيف يقول هذا القول من يتلو القرآن (ثم رجع بنا القول الى الذبان) وأصناف الذبان والذبان أجهل الخلق لأنها تغشى النار من ذات أنفسها حتى تحترق وقال الشاعر

ختمت الفؤاد على حبها * كذاك الصحيفة بالخاتم
هوت بى الى حبها نظرة * هوي الفراشة للجاحم

وقال آخر

كان مشافر النجدات منها * اذا مامسها قمع الذباب
بأيد متائم متساعدات * نعال السبت أو عرب الثياب

وقال بعض الشعراء يهجو حارثة بن بدر الغدانى

زعمت عذانة أن فيها سيداً * ضخما يوازنه جناح الجندب

وزعم ناس انه قال

يرويه مايروى الذباب فينتشى * سكرا ويشبعه كراع الجندب

قالوا لايجوز أن يقول يرويه مايروى الذباب ويوازنه جناح الجندب ثم يقول ويشبعه كراع الأرنب وأما سماعي فهو الرواية الأولى

يرويه مايروى الذباب فينتشى * سكراً ويشبعه كراع الأرنب

وانما ذكر كراع الأرنب لان يدالأرنب قصيرة ولذلك تسرع الصعود ولا يلحقهامن الكلاب الا كل قصير اليد وذلك محمود من الكلب والفرس يوصف بقصر الذراع وحدثنى الحسن بن ابراهيم العلوى قال مررت بخالى واذا هو وحده يضحك فأنكرت ضحكه لانى رأيته وحده فانكرته لانه كان رجلا زميتا ركينا قليل الضحك فسألته عن ذلك فقال أتاني فلان يعني شيخاً مدينيا وهو مذعور فقلت له ما وراءك فقال أنا والله هارب من بيتى قلت ولم قال فى بيتى ذباب أزرق كلما دخلت دارفي وجهي وطار حولى وطن على أذني فاذا وجد مني غفلة لم يخطئ مؤق عينى هذا والله دأبه ودأبي دهراً معه قلت له إن شبه الذباب بالذباب كشبه الغراب بالغراب فلعل الذي آذاك اليوم أن يكون غير الذي آذاك أمس ولعل الذى آذاك أمس غير الذي آذاك أول أمس فقال اعتق ماأملك ان لم أكن أعرفه منذ خمس عشرة سنة فهذا هو الذى أضحكني وقال الخليل بن يحيي قد رأيت الخنزير يركب الخنزيرة عامة نهاره ورأيت الجمل يركب الناقة ساعة من نهاره وكنت قبل ذلك أغبط العصفور والعصم وان الذكر وان كان سريع النزول عن ظهر الانثي فإنه لسرعة العودة ولكثرة العدد كانه فى معني الخنزير والجمل حتى رأيت الذباب وفطنت له فاذا هو يركب الذبابة عامة نهاره فقال له محمد ابن عمر البكراوى ليس ذلك هو السفاد قال أما الذى رات العينان فهذاحكمه فان كنت تريد أن تطيب نفسك بانكار ماتعرف مما قسم الله عز وجل بين خلقه من فضل الله فدونك ويزعمون أن للولى في ذلك ماليس عند غيره

وأنشد إبن داحة في مجلس أبي عبيدة قول السيد الحميري

أترى ضهاكا وإبنها وإبن إبنها * وأبا قحافة آكل الذبان

كانوا يرون وفي الأمور عجائب * يأتي بهن تصرف الأزمان

ان الخلافة فى ذؤابة هاشم * فيهم تصير وهيبة السلطان

وكان إبن داحة رافضياً وكان أبو عبيدة خارجياً صفريا فقال له ما معناه في قوله آكل الذبان فقال لانه كان يذب عن عطر ابن جدعان قال ومتى احتاج العطارون الى المذاب قال غلطت إنما كان يذب عن حيسة ابن جدعان قال فابن جدعان وهشام بن المغيرة كان يحاس لاحدهما الحيسة على عدة أنطاع فكان يأكل منها الراكب والقائم والقاعد فاين كانت تقع مذبة أبي قحافة من هذا الجبل قال كان يذب عنها ويدور حواليها فضحكوا منه فهجر مجلسه سنة قال وفي باب تحقير الذبابة وتصغير قدرها يقول الرجل لو كانت الدنيا تساوي عند الله تعالى جناح ذباب ما أعطى الكافر منها شيئاً وعندنا بالبصرة فى الذباب أعجوبة لو كانت بالشامات أو بمصر لأدخلوها فى باب الطلسم وذلك ان التمر يكون مصبوباً فى بيادر التمر فى شق البساتين فلا ترى على شيء منها ذبابة لا في الليل ولا في النهار ولا في البرد ولا فى انصاف النهار نم وتكون هناك المعاصر ولأصحاب المعاصر ظلال ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل وإنما تلك المعاصر بين تمرة رطبة ودبس ثم لا تكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر فى انتصاف النهار وفي وقت طلب الذبان الكن الادون ما تراه فى المنزل الموصوف بقلة الذبان وهذا شئ يكون موجوداً في جميع الشق الذي فيه البساتين فان تحول شيء من تلك البادية الى جميع ما يقابلها فى نواحي البصرة غشيه من الذبان ماعسى أن لا يكون بأرض الهند أكثر منه وليس بين جزيرة نهر ذبيس وبين موضع الذبان الا فيض البصرة ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذبان مما يقابله الا فرسخان وهو ذلك التمر وتلك المعصرة ولا تكون تلك المسافة الا مائة ذراع أو أزيد شيئاً أو أنقص شيئاً وأعجوبة أخرى وهي عندي أعجب من كل شيء صدرنا به جملة القول فى الذباب فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط فانهما اذا كان الليل فان

أحدهما يتدلى من غصن الشجرة ويضم عليه رجليه وينكس رأسه ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور والآخر لا يزال يتنقل فى زوايا بيته ولا يأخذه القرار خوفا على نفسه فلا يزال كذلك وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الاشجار مما يشتبه بالليف فنفشه ثم فتل منه حبلا ثم عمل منه كهيئة القفة ثم جعله مدلا بذلك الحبل وعقده بطرف غصن من تلك الاغصان إلا ان ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ثم يتخذ عشه فيه ويأوى اليه مخافة على نفسه والأعراب يزعمون ان الذئب شديد الاحتراس وأنه يراوح بين عينيه فتكون واحدة مطبقة نائمة والأخرى مفتوحة حارسة ولا يشكون ان الأرنب تنام مفتوحة العينين وأما الدجاج والكلاب فإنما تعرف عقولها في النوم ثم ترجع اليهما بمقدار رجوع الأنفاس فاما الدجاج فانه يفعل ذلك من الجبن وأما الكلب فانه يفعل ذلك من الاحتراس وجاؤا كلهم يخبرون أن الغرانيق والكراكى لا تنام أبداً الا في أبعد المواضع من الناس وأحرزها من صغار سباع الارض كالثعلب وابن آوي وانها لا تنام حتى تقلد أمرها رئيساً وقائداً وحافظاً وحارساً وان الرئيس إذا أعيا رفع احدى رجليه ليكون أيقظ له وسلطان النوم معروف فاى رجل ممن يغرق فى البحر ليعتصم بالشراع وبالعود وبغير ذلك وهو يعلم ان النوم متى خالط عينيه استرخت يده ومتى استرخت يده باينه الشيء الذي كان يركبه واستعصم به وأنه متى يأتيه لم يقدر عليه ومن عجز عن اللحاق فقد عطب ثم هو في ذلك لا يخلو اذا سهر ليلة أو ليلتين من أن يغلبه النوم ويقهره وأما ان يحتاج اليه الحاجة التي يريد الرائي الخوان ، وفساد العقل المغمور بالعلة الحادثة انه قد تمكن أن يغفى وينتبه فى أسرع الاوقات وقبل ان تسترخي يده كل الاسترخاء وقبل أن تباينه الخشبة ان كانت خشبة وليس فى جميع ما رأينا وروينا في ضروب نوم الحيوان أعجب من نوم الذبان وذلك انها ربما جعلت مأواها دورة الباب وقد غشوه ببطانة ساج أملس كانه صفاة فإذا كان الليل لزمت به وجعلت قوائمها مما يليه وعلقت أبدانها الى الهواء فإن كانت لا تنام البتة ولا يخالطها عزوب المعرفة فهذا أعجب ان تكون أمة من أمم الحيوان لا تعرف النوم ولا تحتاج اليه وان كانت تنام ويعزب عنها ما يعزب عن جميع الحيوان سوى ما ذكرنا فما تخلوا

من أن تكون قابضة على مواضع قائمها ممسكة بها أو تكون مرسلة لها فان كانت مرسلة لها فكيف لم تسقط وهي أثقل من الهواء وان كانت ممسكة لها فكيف يجامع التشدد والتثبيت النوم ونحن نرى كل من كان في يده كيس دراهم أو حبل أو عصا فإنه متى خالط عينه النوم استرخت يده وتفتحت أنامله ولذلك يتثاءب المحتال للعبد الذي في يده عنان دابة مولاه ويتناوم له وهو جالس لان من عادة الأنسان اذا لم يكن بحضرته من يشغله ورأى إنسانا يتثاءب وينعس فتى استرخت يده أو قبضته عن طرف العنان وقد خامره سكر النوم ومتى صار الى هذه الحال ركب المحتال الدابة ومر بها

باب القول في الغربان

اللهم جنبنا التكلف وأعذنا من الخطأ واحمنا العجب بما يكون منه والثقة بما عندنا واجعلنا من المحسنين (نذكر على إسم الله) جمل القول في الغربان والاخبار عنها وعن غريب ما أودعت من الدلالة واستخزنت من عجيب الهداية وقد كنا قدمنا ماتقول العرب في شأن منادمة الغراب الديك وصداقته له وكيف رهنه عند الخمار وكيف خاس به وسخر منه وخدعه وكيف خرج سالما غير غارم وغانما غير خائب وكيف ضربت به العرب الأمثال وقالت فيه الأشعار وأدخلته في الاشتقاق لزجرها عند عيافتها وقيافتها وكيف كان السبب في ذلك فهذا الى ما حكى الله عز وجل من خبر ابني آدم حين قربا قربانا فحسد الذي لم يتقبل منه المتقبل منه فقال عند ماهم به من قتله وعند امساكه عنه والتخلية بينه وبين ما اختار لنفسه (إني أريد ان تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) ثم قال (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه) حتى قال القائل وهو أحد إبني آدم ماقال فلولا أن للغراب فضيلة وأمورا محمودة وآلة وأشياء ليست لغيره من جميع الطير لما وضعه الله تعالى في موضع تأديب الناس ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك وقد قال الله عز وجل (فبعث الله غرابا يبحث

فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه) فاخبر انه مبعوث وانه هو اختاره لذلك من بين جميع الطير قال صاحب الديك جعلت الدليل على سوء حاله وسقوط الدليل على حسن حاله وإرتفاع مكانه وكلما كان ذلك المقرع به أسفل كانت الموعظة فى ذلك أبلغ ألا تراه يقول (ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخي فأصبح من النادمين) ولو كان في موضع الغراب رجل صالح أو إنسان عاقل لماحسن به أن يقول ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا العاقل الفاضل الكريم الشريف اذ كان دوناً وحقيراً فقال أعجزت وأنا إنسان أن أحسن ما يحسنه هذا الطائر ثم طائر من شرار الطير واذا أراد ذلك فى طائر اسود محترق قبيح الشمائل ردىء الشية ليس من بهائم الطير المحمودة ولا من سباعها الشريفة وهو بعد طائر يتنكد به ويتطير منه آكل الجيف ردىء الصيد وكلما كان أجهل وانذل كان أبلغ فى التوبيخ والتقريع وأما قوله فاصبح من النادمين فلم يكن به على جهة الإخبار أنه كان قتله ليلا وانما هو كقوله (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله) ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل فى الكلام من عادات الناس كان من فر من الزحف ليلا لم يلزمه وعيد وانما وقع الكلام على ماعليه الاغلب من ساعات أعمال الناس وذلك هو النهار دون الليل وعلى ذلك المعنى قال صالح بن عبد الرحمن حين دفعوا اليه خواتا الخارجي ليقتله وقالوا ان قتله برئت الخوارج منه وان ترك قتله فقد أبدى لنا صفحته فتأول صالح عند ذلك تأويلا مستنكرا وذلك أنه قال قد نجد التقية تسيغ بالكفر والكفر باللسان أعظم من القتل والقذف بالجارحة فاذا جازت التقية في الاعظم كانت في الاصغر أجوز فلما رأى هذا التأويل يطرد له ووجد على حال بصيرته ناقصة وأخبر بأنه إنما التمس عذراً ولزق الحجة تلزيقا قال أى يوم أقتل خواتا على هذا الضرب من التأويل الحريص على الحياة ولو كان حين قال اى يوم أقتل خواتا انما عني النهار دون الليل كان عند نفسه اذا قتلة تلك القتلة ليلا لم يأثم به وهذا أيضاً كقوله تعالى (ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله)ولو كان هذا المعنى انما يقع على ظاهر اللفظ دون المستعمل بين الناس لكان اذا قال من أول الليل انى فاعل ذلك

غداً في السحر أو مع الفجر أو قال الغداة إني فاعل يومي كله وليالي كلها لم يكن عليه حنث ولم يكن مخالفا اذا لم يستثن وكان إذا لا يكون مخالفا الا فيما وقع عليه اسم غد فاما كلما خالف ذلك في اللفظ فلا وليس التأويل كذلك لانه جل وعلا إنما الزم عبده أن يقول إن شاء الله ليبقى عادة المتألي ولئلا يكون كلامه ولفظه يشبه لفظ المستبد والمستغنى وعلى أن يكون عبده ذلك ذاكرا لله لانه عبد مدبر ومقلب ميسر ومصرف مسخر واذا كان المعنى فيه والغاية التي جرى اليها اللفظ انما هو على ما وصفنا فليس بين أن يقول افعل ذلك بعد طرفة وبين أن يقول افعل ذلك بعد سنة فرق وأما قوله (فأصبح من النادمين) فليس انه كان هنالك ناس قتلوا أخوتهم وندموا فصار هذا القاتل واحداً منهم وإنما ذلك على قوله لآدم وحواء عليهما السلام (ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) على معني أن كل من صنع صنيعكما فهو ظالم وعجبت من ناس ينكرون قولنا في الاستثناء وقد سمعوا الله عز وجل يقول (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم) مع قوله عز وجل (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله) (العرب تسمى الغراب ابن داية) لأنه اذا وجد دبرة في ظهر البعير أو في عنقه قرحة سقط عليها ونقره وعقره حتى يبلغ الدايات قال الشاعر

نجيبة قوم دابها القت والنوى * بيثرب حتي نيها متظاهر
فقلت لها سيرى فما بك علة * سنامك ملموم ونابك فاطر
فمثلك أو خيراً تركت رذيه * تقلب عينيها اذا مر طائر

ومثله قول الراعى

فلو كنت معذوراً بنصرك طيرت * صقورى غربان البعير المقيد

هذا البيت لعنترة في قصيدة له ضرب ذلك مثلا للبعير المقيد في الدبر اذا وقعت عليه الغربان واذا كان بظهر البعير دبرة غرزوا في سنامه إما قوادم نسرا سود وإما خرقة سوداء لتفزع الغربان منه ولا تسقط عليه قال الشاعر وهو ذو الخرق الطهوي

لما رأت إبلي حطت حمولتها * هزلى عجافا عليها الريش والخرق

قالت ألا تبتغى عيشاً نعيش به * عما نلاقى فشر العيشة الرنق

وقال آخر كأنها ريشة في غارب جرد * في حيثما ضربته الريح ينصرف

وقد يوضع الريش فى أسنمتها وتغرز فيها لغير ذلك وذلك أن الملوك كانت تجعل الريش علامة لجمالها تحميها بذلك بشرف أصحابها قال الشاعر

يهب الجلاد بريشها ورعاتها * كالليل قبـل صباحـه المتبلج

ولذلك قالوا فى الحديث فرجع النابغة من عند النعمان وقد وهب له مائة من عصافيره بريشها وللريش مكان آخر وهو أن الملوك إذا جاءتها الخرائط بالظفر غرزت فيها قوادم ريش سود وقال الشاعر

سأرفع قولا للحصين ومالك * تطير به الغربان شطر المواسم

وتروى به الهيم الظماء ويطبى * بأمثالها الغازين سجع الحمائم

يعني غربان الليل واما قوله وتروي به الهيم الظماء فمثل قول المسانح

علقت يا حارث عند الورد * بجاذل لا وجـل التود

* ولا يمني بابتناء المجد *

وقالوا فى البعير اذا كان عليه حمـل من تمر أوحب فيقدم الابل بفضل قوته ونشاطه فعرض ما عليه للغربان قال الراجز

قد قلت قولا للغراب اذ حجل * عليك بالعود المسانف الاول

* من بعد ما مشت على غير عجل *

ومثله يقدمها كل أمون مظعان * حمراء من معرضات الغربان

ويقال أصح بدنا من غراب وأبصر من غراب وأصفى عيناً من غراب وقال ابن ميادة

ألا طرقتنا أم أوس ودونها * حراج من الظلماء يعشى غرابها

فبتنا كأنا بيننا لطمـية * من المسك أودارية وكغابها

يقول اذا كان الغراب لا يبصر فى حراج الظلماء وواحد الحراج حرجة وهي ها هنا مثل جعل كل شئ التف وكثف من الظلام حراجا وانما الحراج من السدر واشـباه السدر يقول فاذا لم يبصر فيها الغراب مع حدة بصره وصفاء مقلته فما ظنك بغيره

وقال أبو الطمحان القيني

اذا شاء راعيها استقى من وقيعة * كعين الغراب صفوها لم يكدر

والوقيعة المكان الصلب الذى يمسك الماء والجمع الوقائع قال وأنشد محمد بن العلاء فى الوقائع

إذا ما استبالوا الخيل كانت أكفهم * وقائع للأبوال والماء أبرد

يقول اذا كانوا فى فلاة فاستبالوا الخيل في أكفهم فشربوا أبوالها من العطش ويقال شهد الوقيعة والوقعة بمعنى واحد قال الشاعر

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط * على دفر داء من الشر باقيا

وقال الحارث

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط * لمرو ان صدعا بيننا متباينا

وقال الاخطل

لقد أوقع الجحاب بالشر وقعة * إلى الله منها المشتكى والمعول

وفي صحة بدن الغراب يقول الآخر

ان معاذ بن مسلم رجل * قد ضج من طول عمره الابد

شاب رأس الزمان واكتهل الدهـ * ـر وأثواب عمره جدد

يانسر لقمان كم تعيش و كم * تسحب ذيل الحياة يالبد

قد أصبحت دار آدم خربت * وأنت فيها كأنك الوتد

تسال غربانها اذا حجلت * كيف يكون الصداع والرمد

ويقال في أرض لا يطير غرابها قال النابغة

ولرهط حراب وقد سورة * فى المجد ليس غرابها بمطار

جعله مثلا يعنى أن هذه الأرض تبلغ من خصبها انه اذا دخلها الغراب لم يخرج منها لان كل شيء يريده فيها وفى زهو الغراب يقول حسان فى بعض بني قريش

إن الفرافصة بن أحوص عنده * شجن لامك من بنات عقاب

أجمعت انك أنت ألأم من مشى * فى فحش مومسة وزهو غراب

ويقال وجد فلان ثمرة الغراب كأنه يتبع عندهم أطيب الثمر ويقال إنه لاحذر من غراب

وأشد سواداً من غراب وقد مدحوا سواد الغراب قال عنترة

فيها إثنتان وأربعون حلوبة * سودا كخافية الغراب الاسحم

وقال أبو دواد

تنفي الحصى صعدا شرقي منسمها * نفي الغراب باعلى أنفه الغردا

والمغاريد كم صغار وأنشد

لحج مأمومة في قعرها لجف * فاسي الطبيب قذاها كالمغاريد

وقد ذكرنا شدة منقاره وحدة بصره في غير هذا المكان وقالوا في مديح السواد قال امرؤ القيس

والعين قادحة واليد سابحة * والاذن مصغية واللون غربيب

وفي السواد يقول ربيعة بن أيوب الأسدى قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب

ان المودة والهوادة بيننا * خلق كسحق اليمنة المنجاب

الا بجيش لايكت عديده * سود الجلود من الحديد غضاب

وفي المثل لايكون ذلك حتي يشيب الغراب وقال العرجى

لا يحول الفؤاد عنه بود * أبداً أو يحول لون الغراب

وقال ساعدة بن جؤية

شاب الغراب ولا فؤادك تاركا * عهد الغضوب ولا عتابك يعتب

ومما يذكر للغراب ماحدث به أبو الحسن عن أبي سليم ان معاوية قال لابى هودة بن شماس الباهلى لقد هممت أن أحمل جمعا من باهلة في سفينة ثم أغرقهم فقال أبو هودة اذا لا ترضى باهلة بعدتهم من بني أمية قال اسكت أيها الغراب الابقع وكان به برص فقال أبو هودة ان الغراب ربما درج الى الرخمة حتى ينقر دماغها ويقلع عينيها فقال يزيد بن معاويه ألا تقتله يا أمير المؤمنين فقال مه ونهض معاوية ثم وجهه بعد في سرية فقتل فقال معاوية ليزيد هذا أخفى وأصوب وقال آخر في نقر الغراب العيون

أتوعد أسرتى وتركت حجراً * يريغ سواد عينيه الغراب

ولو لاقيت علباء بن جحش * رضيت من الغنيمة بالاياب

وقال أبو حية فى أن الغراب يسمونه الاعور تطيرا منه

وإذا يحـل قتودها بتنوفة * غرت تليح من الغراب الاعور

لانها تخاف من الغربان لما تعلم من وقوعها على الدبر ومما يمدح به الشعر لون الغراب قال أبو حية

غراب كان أسود حالكيا * الا سقيا لذلك من غراب

وقال آخر

زمان على غراب غداف * فطيره الدهر عني فطارا

فلا يبعد الله ذاك الغـدا * فوإن كان لاهو الا ادكارا

فأصبح موضعـه بأنضا * محيطا خطاما محيطا عذارا

وقال أبو حية فى غير ذلك وهو مما يعد للغراب

كان عصيم الورس منهن حاسد * بما سال من غربانهن من الخطر

والغراب ضروب ويقع هذا الاسم فى أماكن فالغرب حد السكين والفاس فاس حديدة الغراب وقال الشماخ

فانحى عليها ذات حد غرابها * عدو لاوساط العضاه مشارز

المشارزة المعاداة والمخاشنة والغراب حد الورك ورأسه الفقارة التي تلى الظهر تبدأ من مؤخر الردف والجمع غربان قال ذوالرمة

وقربن بالزرق الحمائل بعـدما * تقوب من غربان أوراكها الخطر

تقوب تقشر ماعلى أوراكها من سلحها وبولها من ضربها بأذنابها وكل غراب فقد يقال له غراب البين إذا أرادوا به الشؤم الا غراب البين نفسه فانه غراب صغير وانما قيل لكل غراب غراب البين لسقوطها في مواضع منازلهم إذا بانوا عنها قال أبو خولة الرياحي

فليس بيربوع الى العقل فاقة * ولا دنس يسود منها ثيابها

فكيف بنوكى مالك ان كفرتم * لهم هذه أم كيف بعد خطابها

مشائم ليسوا مصلحين عشيرة * ولا ناعب الا ببين غرابها

ومن الدليل على أن الغراب من شرار الطير ما رواه أبو الحسن قال كان ابن الزبير يقعد مع معاوية على سريره فلا يقدر معاوية أن يمتنع منه فقال ذات يوم أما أحد يكفيني ابن الزبير فقال الوليد بن عقبة أنا أكفيك يا أمير المؤمنين فسبق فقعد في مقعده على السرير وجاء ابن الزبير فقعد دون السرير ثم أنشد ابن الزبير

يسمى أبانا بعد ما كان نافعاً * وقد كان ذكوان يكني أبا عمرو

فانحدر الوليد حتى صار معه ثم قال

ولولا حرة مهدت عليكم * صفية ما عددتم في النفير
ولا عرف الزبير ولا أبوه * ولا جلس الزبير على السرير
ووددنا أن أمكم غراب * فكنتم شر طير في الطيور

قال أبو زيد إذا كان الشتاء قطعت الينا الغربان أى جاءت بلادنا فهي قواطع الينا فاذا كان الصيف فهى رواجع والطير التى تقيم بأرض شتاءها وصيفها أبداً فهى الاوابد والاوابد أيضاً هى الدواهي يقال جاءنا بآبدة ومنها أوابد الوحش ومنها أوابد الاشعار والاوابد أيضا الابل اذا توحش منها شئ فلم يقدر عليه الا بعقر وأنشد أبو زيد فى الاوابد

ومنهل وردته التقاطا * طام فلم نلف به فراطاً
* الا القطا أوابد اغطاطا *

ويقال نغق الغراب ينغق نغيقا بغين معجمة ونعب ينعب نعيباً بعين غير معجمة فاذا مرت عليه السنون الكثيرة وغلظ صوته قيل شحج يشحج شحيجا وقال ذو الرمة

ومستشحجات بالفراق كأنها * مثاكيل من صيابة النوب نوح

والنوبة توصف بالجزع وأصحاب الابل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للأبل يرون انهم يصلحون على معايشها وتصلح على قيامهم عليها ومن العجب أن حال الروم تصلح فى البدو مع الأبل ودخول الابل بلاد الروم هو هلاكها فاما السند فان السندى صاحب الحربة اذا صار الى البدو وهو طفل خرج أفصح من أبي مهدية ومن أبى مطرف الغنوى ولهم طبيعة في الصرف لا ترى بالبصرة صيرفيا الا وصاحب كيسه سندى

واشترى محمد ابن السكن أبا رواح السندى فكسب له المال العظيم فقل صيد لانى عندنا الاوله غلام سندي فبلغوا أيضاً فى البر بها والمعرفة بالعقافير وفى صحة المعاملة واجتلاب الحرفاء مبلغاً حسناً وللسند فى الطبخ طبيعة ما أكثر ما يحبون فيه وقد كان يحي أراد أن يحول أجراء الخيل عن صبيان الحبشان والنوبة الى صبيان السند فلم يفلحوا فيه وفى السند حلوق جياد وكذلك بنات السند والغراب يسمي أيضاً حاتماً وقال عوف بن الجزع

ولكنما أهجو صفي بن ثابت * منيحة لاقته من الطير حاتما

وقال آخر

ولقد غدوت وكنت لا * أغدو على واق وحاتم

وأنشد لحاتم بن عدى

وليس بهياب إذا شد رحله * يقول عدانى اليوم واق وحاتم

ولكنه يمضي على ذاك مقدما * إذا صدعن تلك الهناة الخثارم

والخثارم هو المتكبر من الرجال وأما قوله واق وحاتم فحاتم هو الغراب والواقي هو الصرد كانه يرى أن الزجر بالغراب اذا اشتق من اسمه الغرابة والاغتراب والغريب فان ذلك حتم ويشتق من الصرد التصريد والصرد هو البرد على ذلك قوله

دعا صرد يوما على غصن شوحط * وصاح بذات البين فيها غرابها

فقلت أتصريد وشحط وغربة * فهذا لعمرى نايها وإغترابها

ويقال أغرب الرجل إذا اشتد ضحكه فهو مغرب قال والعنقاء المغرب العقاب لانها تجيء من مكان بعيد قال وأصل التطير إنما كان من الطير من جهة الطير إذا مر بارحا وسانحا أوراه يتفلى وينتتف حتى صاروا اذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الابتر زجروا عند ذلك وتطيروا عندها كما تطيروا من الطير اذا رأوها على تلك الحال فكان زجر الطير هو الأصل ومنه اشتقوا التطير ثم استعملوا ذلك في كل شيء والغراب لسواده إن كان أسود ولاختلاف لونه ان كان أبقع ولانه غريب لا يقطع اليهم ولأنه . لا يوجد فى موضع خيامهم يتقمم الا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم

لدورهم ولانه ليس شيء من الطير أشد على ذوات الدبر من إبلهم من الغربان ولانه حديد البصر فقالوا عند خوفهم من عينه الأعور كما قالو غراب لاغترابه وغربته وغراب البين لانه عند بينونتهم يوجد فى دورهم ويسمونه بن داية لانه ينقب عن الدبر حتى يبلغ الى دايات العنق وما اتصل بها من خرزان الصلب وفقار الظهر وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكنوا الاعمى أبا بصير والاسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم اذ كان يحتم الزجر به على الامور فصار تطيرهم من القعيد والنطيح ومن جرد الجراد ومن ان الجراد ذات الوان وجميع ذلك دون التطير بالغراب ولإيمان العرب بباب الطيرة عقدوا الرتأيم وعشروا اذا دخلو القرى تعشير الحمار واستعملوا في القداح الآمر والناهي والمتربص وهن غير قداح الايسار ويدل على انهم يشتقون من إسم الشيء الذى يعاينون ويسمعون قول بشار بن المضرب

تغني الطائر ان ببين ليلى * على غصنين من غرب وبان
فكان البان ان بانت سليمى * وفي الغرب اغتراب غير دان

فاشتق كما ترى الاغتراب من الغرب والبينونة من البان وقال جران العود

جرى يوم رحنا بالجمال يزفها * عقاب وشحاج من البين يبرح
فأما العقاب فهي منها عقوبة * وأما الغراب فالغريب المطوح

فلم يجد في العقاب الا العقوبة وجعل الشحاج هو الغراب البارح وصاحب البين واشتق منه الغريب المطوح ورآى السهمى غرابا على بانة ينتف ريشه فلم يجد في البان الا البينونة ووجد فى الغراب جميع معاني المكروه فقال

رأيت غراباً واقعاً فوق بانة * ينتف أعلا ريشه ويطايره
فقلت ولو أنى أشاء زجرته * بنفسى للهندى هل أنت زاجره
فقال غراب باغتراب من النوى * وبالبان بين من حبيب نحاذره

فذكر الغراب بأكثر مما ذكر غيره ثم ذكر بعد شأن الريش وتطايره وقال الأعشى

ما نعيف اليوم فى الطير الروح * من غراب البين أو تيس برح

فجعل التيس من الطير اذ تقدم ذكر الطير وجعله من الطير فى معنى التطير وقال النابغة

زعم البوارح أن رحلتنا غدا * وبذاك خبرنا الغراب الاسود

وقال عنترة ظعن الذين فراقهم أتوقع * وجرى ببينهم الغراب الابقع

خرق الجناح كان لحيي رأسه * جلمان بالاخبار هش مولع

فزجرته أن لا يفرخ طيره (١) * أبداً ويصبح خائفا يتفجع

ان الذين نعبت لي بفراقهم * هم أسهروا ليلى التمام فاوجعوا

فقال وجرى ببينهم الغراب لانه غريب ولانه غراب البين ولانه ابقع ثم قال خرق الجناح تطيرا أيضاً من ذلك ثم جعل لحيي رأسه جلمين والجلم يقطع وجعله بالاخبار هشا مولعا وجعل نعيبه شحيجه كالخبر المفهوم قال فالغراب أكثر من جميع مايتطير به فى باب الشؤم الا تراهم كلماذكروا مما يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره ثم اذا ذكروا كل واحد من هذا الباب لم يمكنهم ان يتطيروا منه الا من وجه واحد والغراب كثير المعاني فى هذا الباب فهو المقدم فى الشؤم قال صاحب الغراب الغراب وغير الغراب في ذلك سواء والاعرابى ان شاء اشتق من الكلمة وتوهم فيها الخير وان شاء اشتق منها الشر وكل كلمة تحتمل وجوها ولذلك قال الشاعر

نظرت وأصحابي ببطن طويلع * ضحيا وقد افضى الى اللبب الحمل

الى ظبية تعطو سيا لا تصوره * يجاذبها الافنان ذو جدد طفل

فقلت وعفت الحبل حبل وصالها * تجدد من سلماك وانصرم الحبل

وقلت سيالا قد تسات مودتي * تصور غصونا صار جثمانها يعلو

وعفت الغرير الطفل طفل أتت به * فقلت لاصحابى مضيكم جهل

رجوعي حزم وامترائى ضلة * كذلك كان الزجر يصدقني قبل

وقال ابن قيس الرقيات

بشر الظبي والغراب بسعدى * مرحبا بالذى يقول الغراب

وقال آخر بدا اذ قصدنا عامدين لاهلها * سنيح فقال القوم مر سنيح

وهاب رجال ان يقولوا وجمجموا * فقلت لهم جار الى ربيح

---

(١) ويروى عشه

عقاب بأعقاب من النار بعدما * مضت نية لا تستطاع طروح
وقالوا دم دامت مودة بيننا * وعادلنا غض الشباب قريح
وقال صحابي هدهد فوق بانة * هدي وبيان في الطريق يلوح
وقالوا حمامات فحم لقاؤها * وطلح فزيرت والمطي طليح

قالوا فهو اذا شاء جعل الحمام من الحمام والحميم والحمي وان شاء قال وقالوا حمامات فحم لقاؤها واذا شاء أشتق البين من البان واذا شاء أشتق منه البيان وقال آخر

وقالوا عقاب قلت عقبي من الهوى * دنت بعد هجر منهم ونزوح
وقالوا حمامات فحم لقاؤها * وعادلنا حلو الشباب ربيح
وقالو تغنى هدهد فوق بانة * فقلت هدى نغدوا به ونروح

ولو شاء الاعرابى إذا رآى سواد الغراب سواد سوذد وسواد الانسان شخصه وسواد العراق سعف نخله والاسودان الماء والتمر وأشباه ذلك لقاله قال وهؤلاء باعيانهم الذين يصرفون الزجر كيف شاؤا واذا لم يجدوا من وقوع شيء بعد الزجر بداهم الذين اذا بدا لهم فى ذلك بد أنكروا الطيرة والزجر البتة وقد زعم الاصمعى أن النابغة خرج مع زبان بن يسار يريدان الغزو فبينماهما يريدان الرحلة اذ نظر النابغة واذا على ثوبه جرادة تجرد ذات ألوان فتطير وقال غيرى الذى خرج فى هذا الوجه فلما رجع زبان من تلك الغزوة سالما غانما قال

تخبر طيرة فيها زياد * لتخبره وما فيها خبير
اقام كان لقمان بن عاد * أشار له بحكمته مشير
تعلم انه لا طيرا لا * على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء * واحيانا وباطله كثير

فزعم كما ترى زبان وهو من دهاة العرب وساداتهم ان الذي يجدونه إنما هو شيء من طريق الاتفاق وقال

تعلم انه لا طير الا * على متطير وهو الثبور

وهذا لا ينقض الاول من قوله إلا واحدة فانه ان جعل ذلك من طريق العقاب للمتطير لم ينقض قوله في الاتفاق وان ذهب الى ان مثل ذلك قد يكون ولا يشعر به اللاهي عن ذلك

والذى لا يؤمن بالطيرة فاما المتوقع فهو فى بلاء مادام متوقعا وان وافق بعض المكروه جعله من ذلك ويقال ان ابن الزبير لما خرج مع أهله من المدينة إلى مكة سمع بعض إخوته ينشد

وكل بنى أم سيمسون ليلة * ولم يبق من أعيانهم غير واحد

فقال لاخيه مادعاك الى هذا قال أماني ماأردته قال ذلك أشد له وهذامنه إيمان شديد بالطيرة كما ترى ومن كان لا يرى الطير المرقش من بني سدوس حيث قال

فاذا الاشائم كالايا * من والايامن كالاشائم
فكذاك لا خير ولا * شر على أحد بدائم

قال سلامة بن جندل

ومن تعرض للغربان يزجرها * على سلامته لابد مشؤم (١)

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك الحارث بن حلزة وهو قوله قال أبو عبيدة أنشدنيها عمرو وليست الا هذه الابيات وسائر القصيدة مصنوع مولد وهو قوله

* يا أيها المزمع ثم انثني * لا يثنك الحادى ولا الشاحج
ولا قعيد أعضب قرنه * هاج له من مربع هائج
بينا الفتى يسعي ويسعى له * تاح له من أمره خالج
يترك ما رقح من عيشه * يعيش منه همج هامج

وقال الاصمعي قال مسلم بن قتيبة أضللت ناقة لى عشراء وانا بالبدو فخرجت فى طلبها فتلقانى رجل بوجهه شين من حرق النار ثم تلقانى رجل آخر بخطام بعيره وهو ينشد

فلئن بغيت لها البغا * ة فما البغاة بواجدينا

ثم من بعد هذا كله سألت عنها بعض من لقيته فقال لى التمسها عند تلك النار فأتيتهم فاذا هم قد نتجوها حوارا وقد أوقدوا لها نارا فاخذت بخطامها وانصرفت وأخبرني أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام قال جعت حتى أكلت الطين وماصرت الى ذلك حتى قلبت قلبي اتذكر هل بها رجل اصيب عنده غداء وعشاء فما قدرت عليه وكان على جبة وقميصان فنزعت القميص الاسفل فبعته بدريهمات وقصدت الى فرضة الاهواز اريد قصبة

(١) البيت لعلقمة الفحل

الأهواز وما اعرف بها احدا وما كان ذلك الاشئ اخرجه الضجر وبعض التعرض فوافيت الفرضة فلم اصب فيها سفينة فتطيرت من ذلك ثم اني رأيت سفينة فى صدرها خرق وهشم فتطيرت من ذلك أيضا واذا فيها حمولة فقلت للملاح تحملني قال نعم قلت ماسمك قال داود وهو بالفارسية الشيطان فتطيرت من ذلك ثم ركبت معه تصك الشمال وجهى وينثر الليل الصقيع على رأسي فلما قربنا من الفرضة صحت ياحمال ومعى لحاف لي سمل ومضربة خلق وبعض مالابد لمثلى منه فكان أول حمال أجابني أعور فقلت لبقار كان واقفا بكم تكرى ثورك هذا الى الخان فلما ادناه من متاعي اذا الثور اعضب القرن فازددت طيرة الى طيرة فقلت فى نفسى الرجوع اسلم لي ثم ذكرت حاجتى الى أكل الطين فقلت ومن لى بالموت فلما صرت في الخان وأنا جالس فيه ومتاعى بين يدى وانا اقول ان انا خلفته فى الخان وليس عنده من يحفظه فش الباب وسرق وان جلست احفظه لم يكن لمجيء الى الاهواز وجه فبينما أنا جالس اذ سمعت قرع الباب قلت من هذا عافاك الله تعالي قال رجل يريدك قلت ومن أنا قال أنت ابراهيم فقلت ومن ابراهيم قال النظام قلت هذا خناق اوعدو اورسول سلطان ثم انى تحاملت وفتحت الباب فقال ارسلني اليك ابراهيم بن عبد العزيز ويقول نحن وان كنا اختلفنا فى بعض المقالة فانا قد نرجع بعد ذلك الى حقوق الاخلاق الحرية وقد رايتك حين مررت على حال كرهتها منك وماعرفتك حتى خبرنى عنك بعض من كان معي وقال ينبغى ان يكون قد نزعته حاجة فان شئت فاقم بمكانك شهرا اوشهرين فعسى ان نبعث اليك ببعض ما يكفيك زمنا من دهرك وان اشتهيت الرجوع فهذه ثلاثون مثقالا فخذها وانصرف وانت أحق من عذرفهجم والله على امر كاد ينغصني اما واحدة فانى لم اكن ملكت قبل ذلك ثلاثين دينارا فى جميع دهرى والثانية انه لم يطل مقامي وغيبتى عن وطنى وعن أصحابى الذين هم على حال أشكل بى وافهم عنى والثالثة مابين لى من أن الطيرة باطل وذلك أنه قد تتابع على منها ضروب والواحدة منها كانت عندهم معطبة قال وعلى مثل ذلك الاشتقاق يعمل الذين يعبرون الرؤيا وبالبصره من شأن الغربان ضروب من العجب لو كان ذلك بمصر اوببعض الشامات لكان عندهم من أجود الطلسم وذلك أن الغربان

تقطع الينا فى الخريف فترى النخل وبعضها مصرومة وعلى كل نخلة عدد كثير من الغربان وليس منها شيء يقرب نخلة واحدة من النخل الذى لم يصرم ولو لم يبق عليها الا عذق واحد وانما أوكار جميع الطير المصوت فى أقلاب تلك النخل والغراب طير وأقوى منها لا يجترئ أن يسقط على نخلة منها بعد أن يكون قد بقي عليها عذق واحد ومنقار الغراب معول وهو شديد النقر وانه ليصل الى الكماة المندفنة فى الأرض بنقرة واحدة حتى يشخصها ولهو ابصر بمواضع الكماة من أعرابى يطلبها في منبعث الأجرد والقصيص فى يوم له شمس حارة وان الأعرابي ليحتاج الى أن يرى ما فوقها من الأرض فيه بعض الانتفاخ والانصداع وما يحتاج الغراب الى دليل وقال أبو دواد الايادى

تنفى الحصا صعدا شرقى منسمها * نفى الغراب باعلى انفه الغردا

ولو أن الله عز وجل أذن للغراب أن يسقط على النخلة وعليها الثمرة لذهبت وفي ذلك الوقت لو أن انسانا نقر العذق نقرة واحدة لانتثر عامة ما فيه ولهلكت غلات الناس ولكنك تري منها على كل نخلة مصرومة الغربان الكثيرة ولا ترى على التى تليها غرابا واحداً حتى اذا صرموا ما عليها تسابقن الى ما سقط من التمر فى جوف الليف وأصول الكرب ليستخرجه كما يستخرج الشاك الشوكة فان قال قائل انما أشباح تلك الاعذاق المدلاة كالخرق السود التى تغرز والطيران تقع على البزور وكالقوادم السود تغرز في اسنمة ذوات الدبر من الابل لكيلا تسقط عليها الغربان وكأنها اذا رأت سواد الاعذاق فزعت كما يفزع الطير من الخرق السود قال الآخر قد نجد جميع الطير الذى يفزع بالخرق السود فلا يسقط على البزور يقع كله على النخل وعليه الحمل وهل لعامة الطير وكور الا فى أقلال النخل ذوات الحمل قال الآخر يشبه أن تكون الغربان قطعت الينا من مواضع ليس فيها نخل ولا اعذاق وهذا الطير الذي يفزع بالخرق السود انما خلقت ونشأت في المواضع التى لم تزل ترى فيها النخيل والاعذاق ولا نعرف لذلك علة سوى هذا قال الآخر وكيف يكون الشان كذلك من الغربان غربان أوابد بالعراق فلا تبرح تعشش في رؤوس النخل وتبيض وتفرخ الا انها لا تقرب النخلة التى يكون عليها الحمل والدليل على أنها تعشش في نخل البصرة في رءوس اشجار البادية قول الاصمعي

ومن زرنك مثل مكن الضباب * يناوح عيده انه السيمكان
ومن سكر فيه عش الغراب * ومن خيشوان وبيذان جان

وقال ابو محمد الفقعسي وهو يصف نخل هجمة

يتبعها عدبس جرائض * اكلف نهاض هصور ناهض
* بحيث يفتش الغراب النابض *

والعامة تتطير من الغراب اذا صاح صيحة واحدة فاذا ثني تفاءلت به والبوم عند أهل مرو يتفاءل به لان اسمه بالفارسية بارمال يريد تبقي وبالعربيه خلاف والخلاف غير الوفاق والريحان يتفاءل به لانه مشتق من الروح ويتطير منه لان طعمه مر وان كان في العين والانف مقبولا وقال شاعر من المحدثين

أهدى له أحبابه اترجة * فبكى واشفق من عيافة زاجر
متطيراً مما أتاه فطعمه * لونان باطنه خلاف الظاهر

(والفرس) تحب الآس وتكره الورد لأن الورد لايدوم والآس دائم قال واذا صاح الغراب مرتين فهو شر واذا صاح ثلاث مرات فهو خير على قدر الجزاء ويقال ان بين الغراب والحمار عداوة كذا قال صاحب المنطق وانشد لبعض النحويين

عاديتنا لازلت في تباب * عداوة الغراب للحمار

وانشد وأصلب هامة من ذي جنود * ودون صداعه حمى الغراب

وزعم لى داهية من دهاة العرب الحوايين أن الافاعي واجناس الأحناش تأتى أصول الشيح والحرمل تستظل وتستريح اليه ويقال أغرب من غراب وانشد قول مضرس ابن لقيط

كأنى وأصحابي وكرسي عليهم * على كل حال من نشاط ومن سأم
غراب من الغربان ايام فره * راين لحاما بالعراض على وضم

وقد اعترض قوم علينا في الحديث الذي جاء في تفرقة مابين الطيرة والفأل وزعموا انه ليس لقوله كان يعجبه الفال الحسن ويكره الطيرة معني وقالوا ان كان ليس لقول القائل ياهالك وانت باغ وجه ولا تحقيق فكذلك اذا قال ياواجد ليس له تحقيق

وليس قوله يامضل ويا مهلك أحق بأن يكون لايوجب ضلالا ولا هلاكا من قوله ياواجد ويا ظافر من أن لايكون يوجب ظفرا ولا وجوداً فاما أن يكونا جميعاً يوجبان وإما ان يكونا لا يوجبان قيل لهم ليس التأويل ما اليه ذهبتم لوان الناس أملوا فائدة الله عز وجل ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف وقوى لكانوا على خير ولو غلطوا فى جهة الرجاء لكان لهم بنفس ذلك الرجاء خير ولو انهم بدلوا ذلك فقطعوا أملهم ورجاءهم من الله تعالى لكان ذلك من الشر والفال ان يسمع كلمة في نفسها مستحسنه ثم أحب بعد ذلك أو عند ذلك أن يحدث طمعاً فيما عند الله تعالى كان نفس الطمع خلاف الياس وانما خبر أنه كان يعجبه وهذا إخبار عن الفطرة كيف هي وعن الطبيعة الى أى شيء تتقلب وقد قيل لبعض الفقهاء ما الفال قال ان تسمع وانت مضل ياواجد وانت خائف ياسالم ولم يقل إن الفال يوجب لنفسه السلامة ولكنهم يحبون له إخراج الياس وسوء الظن وتوقع البلاء من قلبه على كل حال وحال الطيرة حال من تلك الحالات ويحبون أن يكون لله راجيا وان يكون حسن الظن فان ظن ان ذلك المرجو يوافق بتلك الكلمة ففرح بذلك فلا بأس وقال الأصمعي هرب بعض البصريين من بعض الطواعين فركب ومضى بأهله نحو سفوان فسمع غلاما له اسود يحدو خلفه وهو يقول

ان يسبق الله على حمار * ولا على ذى ميعة مطار

أو يأتى الحين على مقدار * قد يصبح الله امام السارى

فلما سمع ذلك رجع بهم قال والغربان تسقط فى الصحارى تلتمس الطعم ولا تزال كذلك فاذا وجبت الشمس نهضت الى أوكارها معاً وقل ما تختلط البقع بالسود المصمتة قال ومنها أجناس كثيرة عظام كامثال الحدء السود ومنها صغار وفي مناقيرها اختلاف في الالوان والصور ومنها غربان تحكى كل شيء سمعته حتي انها فى ذلك أعجب من الببغاء وما أكثر ما يختلف منها عندنا بالبصرة في الصيف فاذا جاء القيظ قلت وأكثر المختلفات منها البقع فاذا جاء الخريف رجعت الى البساتين لتنال مما يسقط من التمر فى كرب النخل وفى الارض ولا تقرب النخلة اذا كان عليها عذق واحد واكثر هذه الغربان سود ولا تكاد ترى فيهن ابقع وقال الاصمعى قال خلف لم ار قط اقبح من

فرخ الغراب رأيته مرة فاذا هو صغير الجسم عظيم الرأس عظيم المنقار اجرد اسود الجلد ساقط النفس متقارب الاعضاء قال وبعضها يقيم عندنا فى القيظ واما في الصيف فكثير واما في الخريف فالدهم واكثر ما تراه في سطوحنا في القيظ والصيف البقع واكثر ما تراه في الخريف والشتاء في البيوت وفى جبل تكريت فى تلك الايام غربان سود كامثل الحدء عظاماء وناس يزعمون ان تسافدها على غير تسافد الطير وانها تزاف بالمناقير وتلقح من هناك

(نذكر شيئا من نوادر واشعار من احاديث من حارها وباردها) قال سحيم كان ابن ميادة يستحسن هذا البيت لارطاة بن سهية

فقلت لها يا ام بيضاء انه * هريق شبابي واستشق اديمي

وكان الاصمعي يستحسن قول الطرماح بن حكيم فى صفة الظليم

مجتاب شملة برجد لسراته * قدر وسلم ما سواه البرجد

ويستحسن قوله في صفة الثور

يبدو وتضمره البلاد كانه * سيف على شرف يسل ويغمد

وكان أبو نواس يستحسن قول الطرماح

اذا قبضت نفس الطرماح اخلقت * عرى المجد واسترخي عنا القصائد

وقال كثير

اذ المال لم يوجب عليك عطاؤه * صنيعة بر او خليل توامقه

منعت وبعض المنع حزم وقوة * فلم يفتلتك المال الا حقائقه

وقال سهل بن هارون يمدح يحى بن خالد

عـد وتلاد المـال فيما ينوبه * منوع اذا ما نعته كان احزما

قال وكان ربعى بن الجارود يستحسن قوله

فخير منـك من لا خير فيـه * وخير من زيارتك القعود

وقال الاعشى

قد نطعن العير في مكنون فائله * وقد يشيط على أرماحنا البطل

لا تنتهون ولن ينهى ذوى شطط * كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

وقال العلاء بن الجارود

أظهروا للناس نسكا * وعلى المنقوش داروا

وله صاموا وصلوا * وله حجوا وزاروا

وله قاموا وقالوا * وله حلوا وساروا

لو غدا فوق الثريا * ولهم ريش لطاروا

وقال الآخر فى مثل ذلك

شمر ثيابك واستعد لقابل * واحكك جبينك للقضاء بثوم

وامش الدبيب اذا مشيت لحاجة * حتى تصيب وديعة ليتيم

وقال ابو الحسن كان يقال من رق وجهه رق علمه وقال عمر تفقهوا قبل أن تسودوا وقال الاصمعي وصلت بالملح وكسبت بالعلم ومن الاشعار الطيبة قول الشاعر فى السمك والخادم

مقبل مدبر خفيف جفيف * دسم الثوب قد شوى سمكات

من شبابيك لجة ذات غمر * حدب من شحومها زمنات

فذكر بينهما فانهما سميتانك ساعة وقال الشاعر

ان اجز علقمة بن زيد سعيه * لا أجزه ببلاء يوم واحد

لاحبني حب الصبي وذمني * ذم البذى الى الغنى الواجد

ولقد شفيت غليلتي ونقعتها * من آل مسعود بماء بارد

وقال رجل من جرم

نبئت اخوانى أرادوا نقيصتي * بشنعة فيها تابل السم منقعا

سأركبها فيكم وأدعي مفرقا * وان شئتم من بعد كنت مجمعا

وقال يونس بن حبيب ما أكلت فى شتاء شيئاً قط الا وقد برد ولا أكلت فى صيف شيئاً الا وقد سخن وقال أبو عمر المدنى لو كانت البلايا بالحصص ما نالني كما نالني اختلفت الجارية بالشاة الى التياس إختلافا كثيراً فرجعت الجارية حاملا و الشاة حائلا وقال جعفر بن محمد الخلاف موكل بكل شيء حتى القذا في الماء فى رأس الكوز فان اردت

ان تشرب الماء جاءت الى فيك وان أردت ان تصب من رأس الكوز لتخرج رجعت وقال اسماعيل بن غزوان بكرت اليوم الى أبي عمران فاستقبلني واحد فلزم الجادة التي أنا عليها فلما غشيني انحرفت عنه يمنة فانحرف معي فعدت الى سمتى فعاد فعدت فعاد ثم عدت فعاد فلولا ان صاحب برذون فرق بيننا لكان الى الساعة يدكني فدخلت الى أبي عمران فدعى بغدائه فأهويت بلقمتي الى الصباغ فأهوى اليه بعضهم فنحيت يدى فنحى يده ثم عـدت فعاد ثم نحيت فنحى فقلت لأبي عمران ألا ترى ما نحن فيه قال سأحدثك باعجب من هـذا انا أكثر من منذ سنة أشفق أن يرانى عون الخياط فلم يتفق لى أن يراني مرة واحـدة فلما كان أمس ذكرت لأبي الحارث الصنيع في السلامة من رؤيته فاستقبلني أمس أربع مرات وذكر محمد بن سلام عن محمد بن القاسم قال قال جرير أنا لا أبتدي ولكن أعتدي وقال أبو عبيدة قال الحجاج أنا حديد حقود حسود قال وقال قديد بن منيع لجديع بن على لكم حكم الصبي على أهله وقال أبو اسحاق وذكر انساناً هو والله أترف من زينب بنت مالك وأخرق من امرأة وأظلم من صبي قال لى أبو عبد الله ما ينبغي أن يكون فى الدنيا مثل هذا النظام قلت وكيف قال مر بى يوما فقلت والله لأمتحننه ولأسمعن كلامه فقلت له ماعيب الزجاج قال يسرع اليه الكسر ولا يقبل الجبر من غير ان يكون فكر أو ارتدع قال وقال حماد بن مالك بن سليمان وذكر عامر بن الطفيل فقال كان لا يضل حتى يضل النجم ولا يعطش حتى يعطش الجمل ولا يهاب حتى يهاب السيل كان والله خير مايكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً وقال ابن الاعرابى قال اعرابى اللهـم لا تنزلني ماء سوء فأكون امرء سوء يقول يدعونى قلته الى منعه وقال محمد بن سلام عن حماد بن سلمة عن الازرق بن قيس ان الاحنف كان يكره الصلاة فى المقصورة فقال له بعض القوم يا أبا بحر لم لا تصلي في المقصورة قال وأنت لم لا تصلي فيها قال لأترك وهذا الكلام يدل على طرق من الخير كثيرة ودخل عبد الله ابن الحسن على هشام فى ثياب سفره فقال اذكر حوائجك فقال عبـد الله ركابى مناخة وعلى ثياب سفرى فقال انه لاتجدنى خيراً لك من الساعة قال أبو عبيدة بلغ عمر بن عبد العزيز قدوم عبد الله بن

الحسن فارسل اليه انى أخاف عليك طواعين الشام وإنك لا تغنم أهلك خيراً لهم منك فالحق بهم فان حوائجهم ستسبقك وكان ظاهر ما يكلمون به ويرونه جميلا مذكوراً وكان معناهم الكراهة لمقامه بالشام وكانوا يرون جماله ويعرفون بيانه وكماله فكان ذلك العمل من أجود التدبير فيه عند نفسه وأنشد

تليح من الموت الذى هو واقع * وللموت باب أنت لا بد داخله

وقال آخر

الموت باب لنا لا بد ندخله * فليت شعرى بعد الباب ما الدار

لو كنت أعلم من يدرى فيخبرنى * أجنة الخلد مأوانا أم النار

وقال آخر اصبر لكل مصيبة وتجلد * واعلم بان المرء غير مخلد

فاذا ذكرت مصيبة تشجي بها * فاذكر مصابك بالنبى محمد

وقال آخر والشمس تنعى ساكنى الدنيا * ويسعدها القمر

أين الذين عليهم * ركم الجنادل والمدر

أفناهم غلس العشا * يهزأ جنحة السحر

ما للقلوب رقيقة * وكان قلبك من حجر

ولعل ما تبقى وعو * دك كل يوم يهتصر

وقال زهير

ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه * الى مطمئن البر لا يتجمجم

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه * ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

ومن لا يزل يسترحل الناس نفسه * ولا يعفها يوما من الذم يندم

وقال وجار البيت والرجل المناوى * امام الحي عقدهما سواء

جوار شاهد عدل عليكم * وسيان الكفالة والتلاء

فان الحق مقطعة ثلاث * يمين أو نفار أو جلاء

فتفهم هذه الاقسام الثلاثة كيف فصلها هذا الاعرابى وقال أيضاً

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت * ولكن حمد المرء ليس بمخلد
ولكن منه باقيات وراثة * فأورث بنيك بعضها وتزود
تزود الى يوم المماث فانه * وان كرهته النفس آخر معهد

وقال الأسدى

فاني أحب الخلد لو استطيعه * وكالخلد عندى ان أموت ولم ألم

وقال الحادرة

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم * باحساننا ان الثناء هو الخلد

وقال الغنوى

فاذا بلغتم أرضكم فتحدثوا * ومن الحديث متالف وخلود

وقال آخر

فقتلا بتقتيل وعقرا بعقركم * جزاء العطاش لا يموت من ارتآ

وقال زهير

والأثم من شرما تصول به * والبر كالغيث نبته أمرء

أى كثير ولوشاء ان يقول والبر كالماء نبته أمر استقام الشعر ولكن كان لا يكون له معنى وانما أرادأن يكون النبات عن الغيث أجود ثم قال

قد أشهد الشارب المعذل لا * معروفه منكر ولا حصر
فى فتية لينى المآزر لا * ينسون أحلامهم اذا سكروا
يشوون للضيف والعفاة ويو * فون قضاء اذا هم نذرو

يمدح كما ترى أهل الجاهلية بالوفاء بالنذر أنشدني حبان بن عتبان عن أبى عبيدة من الشوارد التى لا أرباب لها قوله

أن يغدروا أو يفجروا * أو يخلوا لم يحفلوا
يغدوا عليك مرجلين * كأنهم لم يفعلوا
كأبى براقش كل يو * م لونه يتبدل *

وقال الصلتان السعدى وهو غير الصلتان العبدى

أشاب الصغير وافنى الكبير * كر الغداة ومر العشى
اذا ليلة هرمت يومها * أتى بعد ذلك يوم فتى
نروح ونغدوا لحاجتنا * وحاجة من عاش لاتنقضي
يموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة ما بقى
إذا قلت يوما لدى معشر * أرونى السرى أروك الغني
ألم ترى لقمان أوصى بنيه * وأوصيت عمرا فنعم الوصي
وسرك ماكان عندإمرئ * وسر الثلاثة غير الخفي

أنشدنى محمد بن زياد الاعرابي

ولا تلبث الاطماع من ليس عنده * من الدين شئ ان تميل به النفس
ولا يلبث الدحس الاهاب تحوزه * بجمعك أن ينهاه عن غيرك الترس

وأنشدنى ابوزيد النحوى لبعض القدماء

ومهما يكن ريب المنون فانني * أرى قمر الليل المعذر كالفنا
يعود ضئيلا ثم يرجع دائباً * ويعظم حتى قيل قدثاب واستوي
كذلك زيد المرء ثم انتقاصه * وتكراره فى أثره بعد ماضى

وقال أبو النجم

ميز عنه قنزعا عن قنزع * جذب الليالى أبطئ أواسرعى
أفناه قيل الله للشمس اطلعي * ثم اذا واراك أفق فارجعى

وقال عمرو ابن هند

وان الذى ينهاكم عن طلابها * يناغي نساء الحى فى طرة البرد
يعلل والايام تنقص عمره * كما تنقص النيران من طرف الزند

وقال ابن مياده

هل ينطق الربع بالعلياء غيره * سافي الرياح ومستف له طنب

وقال ابو العتاهية * أسرع فى نقص إمرء تمامه * وقال

ولمر القناة في كل شئ * حركات كأنهن سكون

وقال ابن ميادة

أشاقك بالقنع الغداة رسوم * دوارس أدنى عهدهن قديم
يلحن وقد حر من عتبي حجة * كما لاح في ظهر البنان وشوم

وقال في مرفقيها اذا ماعونقت حجم * على الضجيع وفي انيابها شنب

وقال ابن ميادة في جعفر بن سليمان وهو يعني أمير المؤمنين المنصور

وما لكم يا إبنى سليمان قاسم * بجدُ النبي اذ يقسم الخير قاسمه
فبينكما بيت رفيع بناؤه * متى يلق شيئاً محدثا فهو هادمه
لكم كبش صدق شذب الشوك عنكم * وكسر قرني كل كبش يصادمه

باب في من يهجا ويذكر بالشؤم

قال دعبل بن على في صالح الافقم وكان لايصحب رجلا الامات أوقتل أوسقطت منزلته

قل للأمين أمين آل محمد * قول امرئ شفق عليه محامي
اياك أن تغتر عنك صنيعة * في صالح بن عطية الحجام
ليس الصنائع عنده بصنائع * لكنهن طوائل الإسلام
أضرب به نحر العدو فإنه * جيش من الطاعون والبرسام

وقال محمد بن عبد الله في محمد بن عائشة

للهلالى قتيل * أبدا في كل عام
قتل الفضل بن سهل * وعلى بن هشام
وعجيفاً آخر القو * م باكناف الشآم
وغدا يطلب من يقـ * ـتل بالسيف الحسام
فاعاذ الله منه * أحمدا خير الانام

وقال عيسى ابن زينب في الصحرى وكان مشؤوما

يا قوم من كان له والد * يا كل ما يجمع في الدهر
فان عندى لابنه حيلة * يموت ان صحبة الصحرى

كانما في كفه مبرد * يبرد ما طال من العمر

وقال الاعشي فما ان على قلبه غمرة * وما ان بعظم له من وهن

وقال الكميت لم يقل عند زلة لهم * كروا المعاذير انما حسوا ٢

وقال آخر

فلا تعذراني في الاساءة انه * شرار الرجال من يسيء فيعذر

وقال العتابي

رحل الرجاء اليك مرتغبا * حسدت عليه نوائب الدهر

ردت عليك ندامتي املي * وثني اليك عنانه شكري

وجعلت عتبك عتب موعظة * ورجاء عفوك منتهى عذري

وقال أعشى بكر

قلدتك ياسلامة ذا الافضـ * ـال والشي حيث ما جعلا

والشعر يستنزل الكريم كما * استنزل رعد السحابة السبلا

لو كنت عدا جمت اذا * ماورد القوم لم تكن وشلا

انجب آباؤه الكرام به * اذ نجلاه فنعم ما نجلا

استأثر الله بالبقاء وبالـحمد وولى الملامة الرجلا

وقال الكرار الحرمازي

لو كنتم شاء لكنتم نقدا * أو كنتم ماء لكنتم زبدا

أو كنتم قولا لكنتم فندا

وقال الاعشي في الثياب

فعلى مثلها ازور بنى قيـ * ـس اذا شط بالحبيب الفراق

المهينين مالهم في زمان الـ * ـسوء حتي اذا افاق أفاقوا

وإذا ذو الفضول ضن على المو * لى وصارت لخيمها الاخلاق

ومشي القوم بالعماد الى الـ * ـرزحى واعيا المسيم أين المساق

أخذوا افضلهم هناك وقد تجـ * ـرى على عرقها الكرام العتاق

وإذا الغيث صوبه وضع القد * ح وجن التلاع والآفاق
لم يزدهم سفاهة شرب الخمـ * ـر ولا اللهو فيهم والسباق
واضعا في سراة نجران رحلي * ناعما غير أنني مشتاق
في مطايا أربابهن عجال * عن ثواء وهمهن العراق
درمك غدرة لنا ونشيل * وصبوح مبارك واغتباق
وندامي بيض الوجوه كأن الـ * ـشرب منهم مصاعب افناق
فيهم الخصب والسماحة والنجـ * ـدة جمعا والخاطب المسلاق
وابيون لا يسامون ضيما * ومكيثون والحلوم وثاق
وترى مجلسا يغص به المحـ * ـراب بالقوم والثياب رقاق

وقال أيضا في الثياب

أزور يزيد وعبد المسيح * وقيسا هم خير أربابها
وكعبة نجران حتم عليـ * ـك حتى تحل بأبوابها
اذ الحبرات تلوت بهم * وجروا أسافل هدابها

وفي الثياب يقول الآخر

اسيلم ذاكم لا حقا بمكانه * لعين ترجي أو لاذن تسمع
من النفر البيض الذين اذا انتموا * وهاب لرجال حلقة الباب فعقعوا
جلا الاذفر الاحوى من المسك فوقه * وطيب الدهان رأسه فهو انزع
إذا النفر السود اليمانون حاولوا * له حوك برديه أجادوا واوسعوا

وقال الجعدي

أتاني نصرهم وهم بعيد * بلادهم بأرض الخيزران

يريد أرض الخصب والاغصان اللينة وقال أصحر الشاعر

في كفه خيزران ريحها عبق * بكف أروع في عرنينه شمم

لان الملك لا يختصر الا بعود لدن ناعم وقال آخر

تجاوبها أخرى على خيزرانة * يكاد يدنيها من الارض لينها

وقال آخر

تبتم ثبات الخيزراني في الثري * حديثاً متى ما يأتك الخير ينفعا

وقال المسيب بن علس

فصار الهم إلا في صديق * كأن وطاتهم موتى الضباب

وقال المسيب بن علس

قادت فؤادك اذ عرضت لها * حسن في كل عين من تود (١)

وقال عبد الله بن معاوية

وعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

وقال روح بن همام

وعين السخط تبصر كل عيب * وعين أخي الرضى عن ذاك تعمى

وقال الفرزدق

الا خبروني أيها الناس انما * سألت ومن يسأل من الناس يعلم

سؤال امرئ لم يعقل العلم صدره * وما السائل الواعي الأحاديث كالعمي

وقيل لرجل اني لك هذا العلم قال لسان سؤول وقلب عقول وقال النابغة

فآب مضلوه بعين جلية * وغودر بالجولان حزم ونائل

مضلوه دافنوه على حد قوله تعالى أإذا ضللنا في الارض وقال المخبل

أضلت بنو قيس بن سعد عميدها * وفارسها في الدهر قيس بن عاصم

وقال زهير أوغيره في سنان بن أبي حارثة

إن الرزية لا رزية مثلها * ما تبتغى غطفان يوم أضلت

ولذلك زعم ان سنان بن ابي حارثة خرف فذهب على وجهه فلم يوجد ويزعمون ان ثلاثة نفر هاموا على وجوههم فلم يوجدوا طالب بن أبي طالب وسنان بن ابى حارثة ومرداس بن أبي عامر وقال جرير

واني لأستحي أخي أن أرى له * على من الفضل الذي لا يرى ليا

---

(١) وهذا الشطر لابن أبي ربيعة ويدل على ذلك ان بحره يخالف بحر الشطر الاول

وقال امرؤ القيس

وهل يعمن الا خلى منعم * قليل الهموم مايبيت بأوجال

وقال الاصمعي هو كقولهم استراح من لا عقل له

وقال ابن أبي ربيعة

وأعجبها من عيشها ظل غرفة * وريان ملتف الحدائق أخضر

ووال كفاها كل شيء يهمها * فليست لشيء آخر الدهر تسهر

باب في مديح الصالحين والفقهاء

قال أنس بن الخياط يمدح مالك بن أنس

يأبى الجواب فما يراجع هيبة * والسائلون نواكس الاذقان

هدى التقى وعز سلطان التقى * فهو المطاع وليس ذا سلطان

وقال أنس بن الخياط في بعضهم

فتى لم يجالس مالكا منذان نشا * ولم يقتبس من علمه فهو جاهل

وقال آخر

فانت بالليل ذئب لا حريم له * وبالنهار على سمت ابن سيرين

وقال الخليل بن احمد وكان عنده الحظ والجد فقال اما الجد فلا اقول فيه شيئا واما الحظ فاخزى الله الحظ فانه يبلد الطالب اذا اتكل عليه ويعز المطلوب اليه من مذمة الطالب وقال ابن شبرمة

لو شئت كنت ككرز في تعبده * أو كابن طارق حول البيت والحرم

قدحال دون لذيذ العيش خوفهما * وسارعا فى طلاب العز والكرم

وقال آخر يرثى الاصمعي

لادردرخطوب الدهر اذا فجعت * بالاصمعى لقد أبقت لنا أسفا

عش مابدالك فى الدنيا فلست ترى * في الدهر منه ولا من علمه خلفا

وقال الحسن بن هانئ فى مرثية خلف الاحمر

لو كان حي وائلا من التلف * لواءلت شعواء فى ذرى الشعف
* أم فريخ أحرزته لجف * مزغب الاكفا ٢ ولم يا كل بكف
هاتيك أم عصماء في أعلا الشرف * تظل في الطباق والنزع الالف
اودي جماع العلم مذأودي خلف * قلذـدم من العيالم الخسف *

وقال يرثيه في كلمة

بت اعزى الفؤاد عن خلف * وبات دمعى انلا يغض يكف
أنسى الرزايا ميت فجعت به * أضحي رهينا للترب في جدف
كما ينسى برفقـه خلق الا * افهام في لاخرق ولا عنف
يجوب عنك التي عشيت لها * حيران حتى تشفيك فى اطف
لا يهم الحاء فى القراءة بالخاء * ولا لامها مع الالف *
ولا مضلا سبل الكلام ولا * يكون إسناده على الصحف
وكان فيما مضي لنا خلف * فليس إذ مات عنه من خلف

وقال آخر فى ابن شبرمة

إذا سألت الناس اين المكرمه * والعز والجرثومـة المقـدمه
واين فاروق الامور المحـكمه * تتابع النـاس على ابن شبرمه

وقال ابن عرفطة

ليهنيك بغض للصديق وظنة * وتحديثك الشيء الذي انت كاذبه
وانك مهدـ الخنانطف الحشا * شديد السباب رافع الصوت غالبه

وقال النابغة الجعدى

أبالى البلاء وانى امرؤ * إذا ماتبينت لم أرتب

وليس يريدانه فى حال بيانه غير مرتاب وانما يعنى ان بصيرته لا تتغير وقال ابن الجهم ذات يوم انا لا اشك قال له المكى وانا لا أكاد أوقن وقال طرفة

وكرى اذا نادي المضاف محنبا * كسيد الغضا فى الطخية المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب * ببكهنة تحت الخباء الممدد *

أريـــ قبر نحام بخيـل بماله * كقبر غوي في البطالة مفسد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى * لـكالطول المرخى وثنياه باليـد
أرى الموت إعداد النفوس ولا أري * بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
وظلم ذى القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند
وفى كثرة الأيدى على الظلم زاجر * إذا حضرت أيدى الرجال بمشهد

باب القول في الجعلان والخنافس

وسنقول في باب المحقرات من حشرات الارض وفى المذكور من بغاث الطير وخشاشه مما تقتات العذرة وتوصف باللؤم ويتقذر بلمسه وأكل لحمه كالخنفساء والجعل والهداهد والرخم فان هذه الاجناس أطلب للعذرة من الخنازير فاول ماذكر من أعاجيبها صداقة مابين الخنافس والعقارب وصداقة ما بين الحيات والوزغ وزعم الاعراب أن بين ذكورة الخنافس وذكورة الجعلان تسافد وانهما ينتجان خلقا ينزع اليهما جميعاً وانشد حسام الأعور عن سيبوية النحوي عن بعض الاعراب في هجائه عدواً له كان شديد السواد

عاديتنا ياخنفسا أم الجعل * عداوة الأوعال حيات الجبل
من كل عود مرهف الناب عتل * يخرق ان مس وان شم قتل

ويثبت أكل الاوعال للحيات الشعر المشهور الذى في أيدى أصحابنا وهو

عل زيداً أن يلاقى مرة * فى التماسي بعض حيات الجبل
غاير العينـين مقطوع القفـا * ليس من حيات حجر والقلل
يتـوارى في صـدوع مرة * وبذى الخطفة كالقدح المؤل
وتري السهم على أشـداقه * كشعاع الشمس لاحت في طفل
طرد الا روى فما تقربه * ونفي الحيات عن بيض الحجل

وانما ذكر الأروى من بين جميع مايسكن الجبال من أصناف الوحش لأن الأروى من بينها تأكل الحيات للعداوة التي بينها وبين الحيات والأروى اناث الاوعال وأحدتها

أروية والناس يسمون بناتهم باسم الجماعة ولا يسمون البنت الواحـدة باسم الواحدة منها لا يسمون بأروية ويسمون بأروي وقال شماخ بن ضرار

فما أروى وان كرمت علينا * بأدنى من موقفة حرون

وقال أبوزيد فى جماعة الأروية

فما لك من أروي تماديت بالعمى * ولاقيت كلاباً مطلا وراميا

يقال تمادى القوم وتفاقدوا إذا مات بعضهم على أثر بعض وقالت فى ذلك ضباعة بنت قرط في مرثية زوجها هشام بن المغيرة

إن أبا عثمان لم انسه * وإن صمتى عن بكاه لحوب

تفاقدوا من معشر ما لهم * اي ذنوب صوبوا فى القليب

وأما قوله ونفى الحيات عن بيض الحجل فان الحيات تطلب بيض كل طائر وفراخه وبيض كل طائر مما يبيض على الأرض أحب اليها فما أعرف لذلك علة الا سهولة المطلب والأيايل تأكل الحيات والخنازير تأكل الحيات وتعاديها وزعم صاحب المنطق ان بين الحمار والغراب عداوة وأنشدنا بعض النحويين

عاديتنا لا زلت فى تباب * عداوة الحمار للغراب

وأنشد ابن أبي كريمة لبعض الشعراء في صريع الغواني

فما ريح السذاب أشد بغضا * الى الحيات منه الى الغوانى

ويقال ألج من الخنفساء وأفحش من فاسية وهي الخنفساء وأفحش من فالية الأفاعي والفساء يوصف به ضربان من الخلق الخنفسا. والظربان وفي لجاج الخنفساء يقول خلف الأحمر

لنا صاحب مولع بالخلاف * كثير الخطاء قليل الصواب

ألج لجاجا من الخنفساء * وأزهى اذا مامشى من غراب

وقال الرقاشي ذكرت صبر الخنزير على نفوذ السهام في جنبه فقال لى اعرابى الخنفساء أصبر منه ولقد رأيت صبياً من صبيانكم البارحة وأخذ شوكة وجعل فى رأسها فتيلة ثم أوقدها نارا ثم غرزها في ظهر الخنفسا حتى أنفذ الشوكة فعبرنا ليلتنا وانها لتجول

فى الدار وتصبح لنا وإني لاظنها كانت مقربا لانتفاخ بطنها قال وقال العتابي العواسا الحامل من الخنافس وأنشد * بكرا عواسا تعاسا مقربا * قال ومن أول أعاجيب الجعل أنه يموت من ريح الورد ويعيش اذا أعيد الى الروث ويضرب بشدة سواد لونه المثل قال الراجز وهو يصف أسود سالخا

منهرة الشدقين عود قد كمل * كانما قصص من ليط جعل

والجعل يظل دهرا لا جناح له ثم ينبت له جناحان كالنمل الذي يغبر دهرا لا جناح له ثم ينبت له جناحان وذلك عند هلكته والدعاميص قد تغبر حينا بلا اجنحة ثم تصير فراشا وبعوضاً وليس كذلك الجراد والذبان لان أجنحتها تنبت على مقدار من العمر ومرور من الايام وزعم ثمامة عن يحيى بن خالد ان البرغوث قد يستحيل بعوضة والجعل يحرس النيام فكلما قام منهم قائم فمضى لحاجته تبعه طمعا في أنه إنما يريد الغائط وأنشد لبعضهم

يبيت في منزل الاقوام يربؤهم * كانه شرطي بات في حرس

وأنشدوا لبعض الاعراب في هجائه رجلا بالفسولة وبكثرة الاكل وبعظم حجم النجو

ثم اذا أضحى تلدى واكتحل * لجارتيه ثم ولى فنثل

* رزق الانوقين القرنبي والجعل *

سمي القرنبي والجعل اذ كانا يقتاتان الزبل أنوقين والانوق الرخمة وهي تقتات العذرة وقال الاعشى

يارخما قاظ على منجوب * يعجل كف الخارئ المطيب

المطيب الذي يتطيب بالحجارة أي يتطيب بها وهم يسمون بالانوق كل شئ يقتات النجو والزبل الا ان ذلك على التشبيه لها بالرخم في هذا المعنى وقال آخر

يا أيهذا المانحي نهج القبل * يدعو على كلما قام يصل

رافع كفيه كما يقرى الجعل * وقد ملأت بطنه حتى أتل

* غيظاً فأمسى ضغنه قد اعتدل *

والقبل ما أقبل عليك من الجبل وقوله اتل أي امتلا غيظاً فقصر في مشيته وقال الجعدي

منع الغـدر فـلم أهمم به * وأخو الغـدر اذا هم فعـل
خشية الله وانى رجـل * إنمـا ذكرى كنار بقبل

وقال الراجز وهو يهجو بعضهم بالفسولة وبكثرة الاكل وعظم حجم النجو * بات يعشى وحده الفي جعل * وقال عنترة

اذا لاقيت جمع بني أبان * فاني لائم للجعـد لا حي
كسوت الجعد جعد بني أبان * ردائي بعد عراى وافتضاحي

ثم شبهه بالجعل فقال

كأن مؤشر العضدين حجلا * عروجا بين أقلبة ملاح
تضمن نعمتى فغـدا عليها * بكوراً أو تهجر في الرواح

وقال الشماخ

وان يلقيا شاوا بأرض هوى له * معرف أطراف الذراعين أفلح

والشأو هاهنا الروث كانه كثر حتى ألحقه بالشأو الذى يخرج من البئر كما يقول أحدهم اذا أراد أن ينقى البئر أخرج من تلك البئر شأوا أو شأوين يعني من التراب الذى قد سقط فيها وهو شيء كهيئة الزنبيل الصغير والشأو الطلق والشأو القوت والمعرض الافلح الذى عني هو الجعل لان الجعل فى قوائمه تحزيز وفيها تعريج وللجعل جناحان لا يكادان يريان الا عند الطيران لشدة سوادهما وشبههما بجلده وشـدة تمكنهما فى ظهره قال الشاعر حيث عدد الخونة وحث الامين على محاسبتهم

واشـدد يديك بزيد ان ظفرت به * واشف الارامل من دحروجة الجعل

والجعل لا يدحرج الا بعرا يابساً أو بعرة وقال سعد بن طريف يهجو بلال بن رباح مولى بني بكر

وذاك اسود نوبي له زفر * كأنه جعل يمشى بقرواح

وسنذكر شأنه وشأن بلال فى موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وكان بالكوفة رجل من ولد عبد الجبار بن وائل بن حجر الحضرمي يكنى أبا الخنافس راضياً بذلك ولم تكن الكنية لقبا ولا نبزا وكان من الفقهاء وله هيئة ورواء وسألته

هل كان فى أبائه من يكنى أبا الخنافس فان أبا المقارب في آل سلم مولى بني العباس كثير على اتباع أثر وكان أبو الخنافس هذا اكتنى به ابتداء وقال لى الفضل العنبرى يقولون للضب أطول شيء ذماء والخنافس أطول منه ذماء وذلك انه يغرز فى ظهرها شوكة ثاقبة وفيها ذبالة تستوقد وتصبح لاهل الدار وهى تدب بها وتجول وربما كانت في تضاعيف حبل قت أو فى بعض الحشيش والعشب والخلافتصير فى فم الجمل فيبتلعها من غير ان يضغم الخنفساء فاذا وصلت الى جوفه وهى حية جالت فيه فلا تموت حتى تقتله فاصحاب الابل يتعاورون تلك الاوارى والملوفات خوفا من الخنافس وقال حواس ابن المتعطل فى حسان ابن بجدل

هل يهلكني لا أبا لكم * دنس الثياب كطابخ القدر
جمل تمطى في عمايته * زمر المروءة ناقص الشبر
لربابة سوداء حنظلة * والعاجز التدبير والوبر

فاما الهجاء والمدح ومفاخرة السودان الحمران فان ذلك كله مجموع في كتاب الهجناء والصرحاء وقدمنا فى صدر هذا الكتاب جملة فى القول فى الجعلان وغير ذلك من الاجناس اللئيمة والمستقذرة فى باب النتن والطيب فكرهنا اعادته فى هذا الموضع والله سبحانه وتعالي أعلم بالصواب

باب القول فى الهدهد

وأما القول فى الهدهد فان العرب والاعراب كانوا يزعمون ان القنزعة التى على رأسه ثواب من الله تعالى على ما كان من بره لأمه لان أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهدة والهدهد طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته فرب شيء يكون منتناً من نفسه من غير عرض يعرض له كالتيوس والحيات وغير ذلك من أجناس الحيوان فأما الاعراب فيجعلون ذلك النتن شيأ خامره لسبب تلك الجيفة التى كانت مدفونة في رأسه وقد قال فى ذلك أمية أو غيره من شعرائهم فاما أمية فهو الذي يقول

تعلم فان الله ليس كصنعه * صنيع ولا يخفى على الله ملحد
وبكل منكرة له معروفة * أخرى على عين بما يتعمد
جدد وتوسيم ورسم علامة * وخزائن مفتوحة لا تنفد
عمن أراد بها وجاب عيانه * لا يستقيم لخالق يتزيد
غيم وظلماء وغيم سحابة * ان مان كفروا استزاد الهدهد
يبقى القرار لامه ليجنها * فبني عليها فى قفاها يمهد
مهدا وطيئا فاستقل بحمله * فى الطير يحملها ولا يتأود
من أمه فجزى بصالح حملها * ولدا وكلف ظهره لا تفقد
فتراه يضبح ماشيا بجنازة * فيها وما اختلف الجديد المنشد

ويزعمون ان الهدهد هو الذى كان يدل سليمان عليه السلام على مواضع الماء فى قعور الارضين اذا أراد استنباط شيء منها ويروون ان نجدة الحرورى ونافع بن الازرق قالا لابن عباس رضي الله تعالى عنهما انك تقول إن الهدهد إذا نقر الارض عرف مسافة ما بينه وبين الماء والهدهد لا يبصر الفخ دوين التراب حتي اذا نقر التمرة انضم عليه الفخ قال لهما ابن عباس اذا جاء القدر عمى البصر ومن امثالهم اذ جاء الحين غطى العين وابن عباس ان كان قال ذلك فانما عنى هدهد سليمان عليه السلام بعينه فان القول فيه خلاف القول فى سائر الهداهد وسنأتى على ذكر هذا الباب من شأنه في موضعه إن شاء الله تعالى وقد قال الناس في هدهد سليمان وغراب نوح وحمار عزير وذئب اهبان بن اوس وغير ذلك من هذا الفن أقاويل وسنقول في ذلك بجملة من القول في موضعه وقد قال صاحب المنطق وزعم فى كتاب الحيوان ان لكل طائر يعشش شكلا يتخذ عشه منه فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص وزعم ان الهدهد من بينها يطلب الزبل حتى اذا وجده نقل منه كما تنقل الارضة من التراب ويبنى منه بيتا كما تبنى الارضة ويضع خرء على خرء فاذا طال مكثه فى ذلك البيت وفيه أيضاً ولد وفى مثله تربى وبدنه ينمو بتلك الرائحة واخلق به أيضا ان يورث ابنه النتن الذى علقه كما اورث جده أباه وكما

أورثه أبوه قال ولذلك يكون منتنا وهذا وجه ان كان معلوماً أنه لا يتخذ عشه الا من الزبل فاما ناس كثير فيزعمون ان رب بدن يكون طيب الرائحة كفأرة المسك التى ربما كانت في البيوت ومن ذلك ما يكون منتن البدن كالذى يحكى عن الحيات والافاعى والثعابين ويوجد عليه التيوس وذكر صاحب المنطق ان الطير الكبير الذى يسمى باليونانية اعتيو ليس يحكم عشه ويتقنه ويجعله مستديرا مداخلا كانه كرة معمولة ورووا انهم يزعمون أن هذا الطائر يجلب الدارصيني من موضعه فيفرش به عشه ولا يعشش الا فى أعالى الشجر المرتفعة المواضع قال وربما عمد الناس الى سهام فيشدون بها رصاصا ثم يرمون بها أعشتها فيسقط عليهم الدارصيني فيلتقطونه ويأخذونه ويزعم البحريون ان طائرين يكونان ببلاد الصقالبة أحدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهم وقبل أن يمكن البحر من نفسه لخروجهم ومتاجرهم فيقول الطائر قرب أمد فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا وان الامكان قد قرب قالوا ويجيء به طائر آخر وشكل آخر فيقول سماروا وذلك فى وقت رجوع من قد غاب منهم فيسمون هذين الجنسين من الطير قرب وسماروا كانهم سموهما بقولهما وتقطيع أصواتهما كما سمت العرب ضربا من الطير القطا لان القطا كذلك تصيح وتقطيع أصواتها قطا كما سموا الببغا بتقطيع الصوت الذي ظهر منه فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين لا يطير أحدهما أبداً إلا فى إناث وأن الآخر لا يطير أبداً الا في ذكورة وزعم لى بعض الاطباء ممن أصدق خبره أن الشفنين إذا هلكت امرأته لم يتزوج أبداً وإن طال عليه التعزب وان هاج تسفد ولم يطلب الزواج وحكوا أن عندهم طائرين أحدهما وافي الجناحين وهو لم يطرقط والآخر وافى الجناحين ولكنه من لدن ينهض للطيران فلا يزال يطير ويقتات الفراش واشباه الفراش وانه لا يسقط الا ميتا الا أنهم ذكروا انه قصير العمر ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن خبر صاحب الدار صينى وان كنت لا أعرف الوجه فى ان طائرا ينهض من وكره فى الجبال أو بفارس أو باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدار صيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد وان كان من القواطع فكيف يقطع الصحصحان الأملس وبطون الأودية واهضاب الجبال

بالتدويم فى الاجواء وبالمضي على السمت لطلب مالم يره ولم يشمه ولم يذقه وأخرى فانه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً الا بالاختلاف الطويل وليس بالوطيء الوثير ولا هوله بطعام فانا وان كنت لا أعرف العلة فلست انكر الأمور من هذه الجهة فانكر هذا وقال أبو الشيص فى الهدهد

لاتأمنن على سرى وسركم * غيري وغيرك اوطى القراطيس
أو طائراً سأحليه وانعتـه * مازال صاحب تنقير وتأسيس
سود براثنـه ميل ذوائبـه * صفر حمالقه في الحسن مغموس
قدكان هم سليمان ليذبحـه * لولا سعايتـه في ملك بلقيس

وقد قدمنا فى هذا الكتاب فى تضاعفه عدة مقطعات فى أخبار الهدهد

باب القول فى الرخم

يقال ان لئام الطير ثلاثة الغربان والبوم والرخم ويقال إنه قيل للرخمة ما أحمقك قالت وما حمقي وأنا أقطع فى أول القواطع وأرجع في أول الرواجع ولا أطير فى التحسير ولا أغتر بالتبكير ولا أسقط على الحقير وقد ذكرنا تفسير هذا وقال الكميت

ان قيل يارخم انطقي * فى الطير انك شر طائر

وقال أبو الحسن المدائني أمر بعض ملوك العجم الجلندى بن عبد العزيز الازدي وكان يقال له في الجاهلية عرجدة فقال له صدلى شر الطير وإشوه بشر الحطب واطعمه شر الناس فصاد رخمة وشواها ببعر وقربها الى خوزنى فقال له الخوزني أخطأت فى كل شيءٍ أمرك به الملك ليس الرخمة شر الطير وليس البعرة شر الحطب وليس الخوزنى شر الناس ولكن صد له بومة وإشوها بدفلى واطعمها نبطياً ولد زنا ففعل وأتي الملك فاخبره فقال ليس يحتاج الى ولد زنا يكفيه أن يكون نبطيا والغراب يقوى على الرخمة والرخمة أعظم من الغراب وأشد والرخمة تلتمس لبيضها المواضع البعيدة والأماكن الوحشية والجبال الشامخة وصدوع الصخر فلذلك يقال في بيض الأنوق ما يقال وقال عتيبة بن شماس

ان أولى بالحق في كل حق * ثم أولى بان يكون حقيقا
من أبوه عبد العزيز بن مروا * ن ومن كان جده جده الفاروقا
رد أموالنا الينا وكانت * في ذرى شاهق تفوت الأنوقا

وطاب رجل من أهل الشام الفريضة من معاوية فجاد له بها فقال لولده فأبى فسأل لعشيرته فقال معاوية طلب الأبلق العقوق فلما لم ينله أراد بيض الأنوق وليس يكون العقوق الامن الاتان فاذا كانت من البلق كانت بلقاء وهذا كقولهم زل في سلا جمل والجمل لا يكون له سلا وقد يرون بيض الأنوق ولكن ذلك قليل ما يكون وأقل من القليل لان بيضها في المواضع الممتنعة وليست فيها منافع فيتعرض في طلبه للمكروه وأنا أظن ان معاوية لم يقل كما قالوا ولكنه قدم في اللفظ بيض الانوق فقال طلب بيض الانوق فلما لم يجده طلب الابلق العقوق وأما قول ابن أحمر

تمشي باوظفة شديد أسرها * رثم السنابك لا يقي بالجدجد
قد أصحبته طائرا ذا شرة * وفؤاده رجل كعرف الهدهد

فقد يكون الا أن يكون عنا هذا الهدهد لان ذكورة الحمام وكل شيء غنا من الطير وهدر ودعا فهو هدهد ومن أراد كعرف الهدهد فليس من هذا في شيء وقد قال الشاعر في صفة الحمام

واذا استشرن ارن فيها هدهد * مثل المداد خضبته بجساد

وخطب رجل جميل امرأة وخطبها رجل ذميم فتزوجت الذميم لماله وتركته فقال

الا ياعباد الله ما تأمروني * باحسن من صلى واقبحهم بعلا
يدب على أحشائها كل ليلة * دبيب القرنبي بات يقرو نقاسهلا

والاجناس التي تريد العذرة وتطلبها كثيرة كالخنازير والدجاج والكلاب والجراد وغير ذلك ولكنها لا تبلغ مبلغ الجعل والرخمة وقال ابن أبي كريمة كنت عند أبي مالك عمر ابن كركرة وعنده اعرابي فجرى ذكر القرنبي قال فقلت له أتعرف القرنبي قال وما لي لا أعرف القرنبي فوالله لربما لم يكن غذائي الا القرنبي يخشخش لي قال فقلت انها دويبة تأكل العذرة قال ودجاجكم يأكل العذرة قال بعض المدنيين لبعض الاعراب

تأكلون الحيات والعقارب والجعلان والخنفساء فقال نأكل كل شيء الا أم حبين فقال المدنى لتهن أم الحبين العافية قال وأنبأنا ابن جريج عن ابن شهاب عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن بن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من الدواب أربع لا يقتلن النملة والنحلة والصرد والهدهد

﴿القول فى الخفاش﴾

فأول ذلك ان الخفاش طائر وهو مع انه طائر من عرض الطير فانه شديد الطيران كثير التكفي فى الهواء سريع التقلب فيه ولا يجوز ان يكون طعمه الا من البعوض وقوته الا من الفراش ثم لا يصيده الافى وقت طيرانه فى الهواء وفى وقت سلطانه لان البعوض انما يتسلط بالليل ولا يجوز ان يبلغ ذلك الا بسرعة اختطاف واختلاس وشدة طيران ولين اعطاف وشدة متن وحسن تأن ورفق فى الصيدوهو مع ذلك كله ليس بذى ريش انما هولحم وجلد فطيرانه بلا ريش عجب وكلما كان أشدكان اعجب ومن أعاجيبه أنه لا يطير في ضوء ولا في ظلمة وهو طائر ضعيف قوى البصر قليل شعاع العين الفاصل من الناظر ولذلك لا يظهر فى الظلمة لانها تكون غامرة لضياء بصره غالبة لمقدار شعاع ناظره ولا يظهر نهارا لان بصره يضعف ناظره ويلتمع في شدة ضوء النها ولأن الشيء المتلألئ ضار بعيون الموصوفين بحدة البصر ولان شعاع الشمس بمخالفة مخرج أصوله وذهابه يكون رادعا لشعاع ناظره ومفرقا له فهو لا يبصر ليلا ولا نهارا فلما علم ذلك واحتاج الى الكسب والطعم التمس الوقت الذى لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامرا قاهرا وعاليا غالبا ولا من الضياء ما يكون مغشيا رادعا ومفرقا مانعا فالتمس ذلك فى وقت غروب القرص وبقية الشفق لانه فى وقت هيج البعوض وأشباه البعوض وهو وقت ارتفاعها فى الهواء ووقت انتشارها وطلب ارزاقها فالبعوض يخرج للطعم وطعمه دماء الحيوان وتخرج الخنافيس لطلب الطعم فيقع طالب رزق على طالب رزق فيصير ذلك هو رزقه وهذا ايضاً مما جعل الله في الخفاش من الاعاجيب ويزعمون أن السك الاذان والممسوحة من

جميع الحيوان انها تبيض بيضا وأن كل أشرف فهو يلد ولا يبيض ولا يدري ان الحيوان إذا كان أشرف الاذان وإذا كان ممسوحا باض ولآذان الخفافيش حجم ظاهر وشخص بين وإن كانت من الطير فان هـذا لها فهى تحبل وتلد وتحيض وترضع والناس يتقذرون من الارانب والضباع لمكان الحيض وقـد زعم صاحب المنطق ان ذوات الاربع كلها تحيض على اختلاف اجناسها فى القلة والكثرة والحمرة والصفرة والرقة والغلظ قال ويبلغ من ضن أنثي الخفافيش بولدها ومن خوفها عليه انها تحمله تحت جناحها وربما قبضت عليه بفيها وربما أرضعته وهي تطير وتقوى من ذلك ويقوى ولدها على ما لا يقوى عليه الحمام والشاهمرك وسباع الطير وقال معمر أبو الاشعث ربما إرتمأت الخفافيش فتحمل معها الولدين جميعا فان عظما عاقبت بينهما والخفاش من الطير وليس له منقار مخروطة وله فم فيما بين مناسر السباع وأفواه البوم وفيه أسنان حداد صلاب من أطراف الحنك إلى أصول الفك الاما كان من نفس الفك الخطم وإذا قبضت على الفرخ وعضت عليه لتطير به عرفت درب أسنانها فعرفت أي نوع ينبغى أن يكون ذلك العض فتجعله ازما ولا تجعـله عضاً ولا نشباً ضغطيا كما تفعل الهرة بولدها فانها مع ذرب أنيابها وحدة أظفاوها ورقتها لاتندش لها جـلدا لانها تمسكها ضربا من الامساك وتأزم عليه ضربا من الازم قد عرفته ولـكل شئ حدبه يصلح وبمجاوزته والتقصير دونه يفسد وقـد نرى الطائر يغوص فى الماء نهاره ثم يخرج منه كالشعرة سللتها من العجين غير مبتل الريش ولا لثق الجناحين ولو أن أرفق الناس رفقا راهن على أن يغمس طائرا منها فى الماء غمسة واحدة ثم حلي سربها ليكون هو الخارج منه لخرج وهو منعجن الريش مفسد النظر منقوص التأليف ولـكان أجود ما يكون طيرانا أن يكون كالجاذف فهذا أيضا من أعاجيب الخفاش ومن أعاجيبها تركه ذروة الجبال وتبسط الفيافى واقلاب النخل واعالى الاغصان ودغل الرياض وصدع الصخر وجزائر البحر ومجيئها تطلب مساكن الناس وقربهم ثم اذا أصات الى بيوتهم وقربهم قصدت الى ارفع مكان واحصنه والى ابعد المواضع من مواضع الاختبـار واعراض لحوائج ثم الخفاش بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر حتى يجوز فى ذلك العقاب والورشان

لى النسر ويجوز حد الفيلة والأسد وحمير الوحش الى اعمار الحيات ومن اعاجيب الخفاش ان ابصارها تصلح على طول العمر والصبر على فقد الطعم فتقول ان اللواتى يظهرن فى القمر من الخفافيش المسنات المعمرات وان اولادهن اذا بلغن لم تقو أبصارهن على ضياء القمر ومن أعاجيبها أنها تضخم وتجسم وتقبل الشحم على الكبر وعلى السن وقد زعم صاحب المنطق أن الكلاب السلوقية كلما دخلت فى السن كان أقوي لها على المعاظلة وهذا غريب جدا وقد علمنا أن الغلام أحد ما يكون وأشبق وأ نكح وأحرص عند أول بلوغه ثم لا يزال كذلك حتى يقطعه الكبر وتعرض له آفة ولا تزال الجارية من لدن ادراكها وبلوغها وحدة شهوتها على شبيه بمقدار واحد من ضعف الارادة كذلك عامتهن فاذا اكتهلن وبلغت المرأة حد النصف فعند ذلك يقوى عليها سلطان الشهوة والحرص على الباه فانما تهيج الشهوة عند سكون تهيج الكهل وعند إدبار شهوته وكلال حده وأما قول النساء وأشباه النساء فى الخفافيش فانهم يزعمون أن الخفاش إذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي فما أنسى فزعى من سن الخفاش ووحشتي من قربه أيامنا بذلك القول الى أن بلغت وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافات عسى أن نذكر منها شيئا اذا بلغنا الى موضعه ومن الطير ذوات الاربع ما يكون ناقد البصر بالليل ومنها ما يكون سيء البصر فاما ان الفأرة والسنور واشياء أخرا بصر بالليل فهذا باطل والانسان رديء البصر بالليل والذي لا يبصر منهم بالليل تسمية الفرس بشكوز وتاويله انه اعمى بالليل وليس له في لغة العرب اسم اكثر من انه يقال لمن لا يبصر بالليل هديد ما سمعت الا بهذا فأما الاغطش فانه السيء البصر بالليل والنهار جميعا واذا كانت المرأة مقربة العنق فكانت ردية البصر قيل لها جهراء وانشد الاصمعي فى غير النساء

جهراء لا تألوا اذا أظهرت * نظرا ولا من عيلة تغنيني

وذكروا أن الاجهر الذى لا يبصر فى الشمس وقوله لا تألوا أى لا تستطيع وقوله أظهرت صارت فى الظهيرة والعيلة الفقر قال يعنى به نساءه وقال يحيي بن منصور في هجاء بعض الصعق

ياليتني والمني ليست بمغنية * كيف اقتصاصك من نار الاحابيش

أتنكحون مواليهم كما فعلوا * أم تغمضون كاغماض الخفافيش

وقال أبو الشمقمق وهو مروان بن محمد

أنا بالاهواز محزو * ن وبالبصرة داري
في بني سعد وسعد * حيث أهلي وقراري
صرت كالخفاش لا أبـ * ـصر الا في النهار

وقال الاخطل التغلبي

وقد غبر العجلان حينا اذا بكى * على الزاد ألقته الوليدة في الكسر
فيصبح كالخفاش يدلك عينه * فقبح من وجه لئيم ومن حجر

وقالوا السحاة مقصورة اسم الخفافيش والجمع سحا كما ترى وقالوا فى اللغز وهم يعنون الخفاش

أيا شعراء الناس لا تخبروني * وقد ذهبوا في الشعر في كل مذهب
بجلدة انسان وصورة طائر * وأظفار يربوع وأنياب ثعلب

هشام صاحب الدستوائي قال حدثنا قتادة عن زرارة بن أوفي عن عبد الله بن عمر انه قال لا تقتلوا الضفادع فان نقيقهن تسبيح ولا تقتلوا الخفاش فانه لما خرب بيت المقدس قال يارب سلطني على البحر حتى أغرقهم حماد عن سلمة قال حدثنا قتادة عن زرارة بن أوفى قال قال عبد الله بن عمر لا تقتلوا الخفاش فإنه إستأذن فى البحر أن يأخذ من مائه فيطفئ نار بيت المقدس حيث حرق ولا تقتلوا الضفادع فان نقيقها تسبيح وعثمان ابن سعد القرشي قال سمعت الحسن يقول نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الوطواط وأمر بقتل الاوزاغ قال والخفاش يأتى الرمانة وهي على شجرتها فينقب عنها فيأكل كل شيء فيها حتى لا يدع الا القشر وحده وهم يحفظون الرمان من الخفافيش بكل حيلة قال ولحوم الخفافيش موافقة للشواهين والصقورة قال والبازي ولكثير من جوارح الطير وهي تسمن عنها وتصح أبدانها عليها ولها فى ذلك عمل محمود نافع عظيم النفع بين الأثر والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ تم المصحف الثالث من كتاب الحيوان ويتلوه المصحف الرابع في الذر ﴾

فهرست

﴿ الجزء الرابع من كتاب الحيوان ﴾

صحيفه

﴿ تم الفهرست ﴾



الجزء الرابع من كتاب

الحيوان

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

البصرى المتوفى سنة ٢٥٥ هجريه

وهذا الكتاب هو

البارع فى الأدب والجامع فى حكم العرب

الحاج محمد افندى ساسى المغربى التونسى

سنة ١٣٢٤هـ — و١٩٠٦م

مطبعة التقدم بشارع محمد على بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

نبدأ في هذا الجزء بعون الله وتأييده بالقول في جملة الذرة والنملة كما شرطنا به آخر المصحف الثالث ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم قدعلمنا أن ليس عند الذرة غناء الفرس فى الحرب والدفع عن الحريم ولكنا إذا أردنا موضع العجب والتعجيب والتنبيه على التدبير ذكرنا الخسيس القليل والسخيف المهين فأريناك ماعنده من الحس اللطيف والتقدير الغريب ومن النظر فى العواقب ومشاكلة الانسان ومزاحمته والانسان هو الذي سخر له هذا الفلك بما يشتمل عليه وقد علمنا ان الذرة تدخر للشتاء فى الصيف وتتقدم في حال المهلة ولا تضيع أوقات امكان الحزم ثم يبلغ تفقدها وحسن خبرها والنظر فى عواقب أمرها انها تخاف على الحبوب التى أدخرتها للشتاء فى الصيف أن تعفن وتسوس ويقبلها بطن الأرض فتخرجها الى ظهرها ليبسها ويعيد اليها جفوفها وليضربها النسيم وينفي عنها اللخن والفساد ثم ربما كان بل يكون أكثر مكانها ندياً وخافت ان ينبت بقرب موضع القطمير من وسط الحبة وتعلم انها من ذلك الموضع تبتدئ وتنبت وتنقاب فهى تفلق الحب كله انصافا فأما اذا كان الحب من حب الكزبرة فلقته أرباعا لان انصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب فهى على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان حتى ربما كانت فى ذلك أحزم من كثير من الناس ولها مع لطافة شخصها وخفة وزنها فى الشم والاسترواح ما ليس لشئ وربما

أ كل الانسان الجراد أو بعض ما يشبه الجراد فتسقط من يده الواحدة أو صدر الواحدة وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل فلا يلبث ان تقبل ذرة قاصدة الى تلك الجرادة فترومها وتحاول قلبها ونقلها وجرها فإذا أعجزتها بعد ان بلغت عذرا مضت الى جحرها راجعة فلا يلبث ذلك الانسان ان يراها قد أقبلت وخلفها كالخيط الأسود الممدود حتى يتعاون عليها فيحملنها فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الانسان الجائع ثم بعد الهمة والجراءة على محاولة نقل شيء فى وزن جسمها مائة مرة وأ كثر من مائة مرة وليس شيء من الحيوان يقوى على حمل ما يكون ضعفه مراراً غيرها وعلى انها لا ترضى باضعاف الاضعاف الا بعد انقطاع الأنفاس فان قلت وما علم الرجل ان التى حاولت نقل الجرادة فعجزت هى التى أخبرت صويحباتها من الذر وانها كانت على مقدمتهن قلنا لطول التجربة ولا نالم نر ذرة قط حاولت نقل جرادة فعجزت عنها ثم رأيناها راجعة إلا رأينا معها مثل ذلك وان كنا لا نفصل فى العين بينها وبين اخواتها فانه ليس يقع فى القلب غير الذى قلنا وعلى انا لم نر ذرة قط حملت شيأ أو مضت الى حجرها فارغة فتلقاها ذرة الا واقفتها ساعة وخبرتها بشيء فدل ذلك على انها فى رجوعها عن الجرادة انما كانت لاشباهها كالرائد لا يكذب أهله ومن العجب انك تنكر انها توحي الى أختها بشيء والقرآن قد نطق بما هو أ كثر من ذلك أضعافا وقال رؤبة بن العجاج

لو كنت علِمت كلام الحكل * علم سليمان كلام النمل

وقال الله تعالى (فلما أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التى أنعمت علي) فقد أخبر القرآن انها قد عرفت سليمان فاثبتت عينه وان علم منطقها عنده وأنها أمرت صويحباتها بما هو أحزم وأسلم ثم أخبر انها تعرف الجنود من غير الجنود وقد قالت وهم لا يشعرون ونخالك أيها المنكر تشبه بجاهل إنك لم تعرف قبل ذلك ان لها بيانا وقولا ومنطقا يفصل بين المعانى التي هى بسبيلها فلعلها مكلفة ومأمورة منهية ومطيعة عاصية فأول ذلك ان المسألة عن مسائل الجهالات

وان من دخلت عليه الشبهة من هـذا المكان الناقص الرؤية ودنى الفكرة وقد علمنا وهم ناس ولهم فضيلة في الغريزة وفى الجنس والطبيعة وهم ناس الى ان ينتهوا الى وقت البلوغ ونزول الغرض حتى لو وردت ذرة لشربت من أعلاه وقال أبو دهبل

أربّ هذا الليل فاكتنعا * وأمر النوم فامتنعا
في قباب وسط دسكرة * حولها الزيتون قد ينعا
خرفة حتى اذا ارتبعت * سكنت من جلق بيعا
عند غيرى فالتمس رجلا * يأكل التنوم والسلعا
ذاك شيء لست آكله * وأراه ما كلا فظعا

وقال أبو النجم فى مثل ذلك

وكان نشاب الرياح سنبلة * واخضر نبتا سدره وحرمله
وأبيض الاقاعه وجـدوله * وأصبح الروض لويا حوصله
وأصفر من تلع فليح بقله * وأنحت من خرساء فلح خردله
وانشق عن فصح سواء عنطله * وانتفض البرذون سودا فلفله
واختلف النمـل فطار نيقله * طار عن المهر يسيل سنبله

قال أبو زيد الحمـكة القملة وجمعه حمك وقد ينقاس ذلك فى الذرة قال أبو عبيدة قرية النمل من التراب وهى أيضاً جرثومة النمل وقال غيره قرية النمل ذلك التراب والحجر بما فيه من الذر والحب والمازن والمازن هو البيض وبه سموا ما زن قال أبو عمر والزبال ما حملت النملة بفيها وهو قول ابن مقبل

كرم النجار حمي ظهره * فلم يرنو بركوب زبالا

وأنشد ابن لحيم

هلكوا بالرعاف والنمـل طورا * ثم بالنحس والضباب الذكور

وقال الأصمعى فى تسليط الله الذر على بعض الأمم

لحقوا بالزهويين ٢ فأمسوا * لا ترى عقـد دارهم بالمبين
سلط الله فازرا وعقيقا * ن فجازاهم به إشطون *

يتبع الفار والمسافر منهم * تحت ظل الهدى بذات الغصون

فازرو عقيقان صنفان من الذر وكذلك ذكروه عن دغفل الناسب ويقال إن أهل تهامة هلكوا بالرعاف مرتين قال هشام بن المغيرة قال أمية ابن أبي الصلت في ذلك

نزع الذكر في الحياة وغنا * وأراه العذاب والتدميرا

أرسل الذر والجراد عليهم * وسنينا فاهلكتهم ومورا

ذكر الذر أنه يفعل الشـ*ـروان الجراد كان ثبورا

وقرأ أبو اسحق قوله عز وجل (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادي النمل) فقال كان ذلك الوادى معروفا بوادى النمل فكانه كان حمى فكيف ينكر ان يكون (حمى النمل) ربما أجلت أمة من الامم عن بلادهم ولقد سألت أهل كسكر فقلت شعيركم عجب وأرزكم عجب وسمكم عجب وجداؤكم عجب وبطكم عجب ودجاجكم عجب فلو كانت لكم أعناب فقالوا كل أرض كثيرة النمل لا تصلح فيها الاعناب ثم قرأ (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) فجعل تلك الحجرة مساكن والعرب تسميها كذلك ثم قال (لا يحطمنكم سليمان) فجمعت من اسمه وعينه وعرفت الجند من قائد الجند ثم قالت وهم لا يشعرون فكانوا معذورين وكنتم ملومين وكان أشد عليكم فلذلك قال (فتبسم ضاحكا من قولها) لما رأى من غورها وتسديدها ومعرفتها فعند ذلك قال (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين) قال ويقال الطف من ذرة واضبط من نملة قال والنملة ايضاً قرحة تعرض للساق وهي معروفة فى جزيرة العرب قال ويقال انسب من ذرة فاما قوله

لويدب الحولى من ولد الذ * ر عليها لاندبتها الكلوم

فان الحولى منها لا يعرف من مسكنها وانما هو كما قال الشاعر

تلقط حولى الحصافى منازل * من الحى امست بالجبيبين بلقعا

قال وحولى الحصا صغارها فشبهه بالحولى من ذوات الأربع (ابن جريج عن ابن شهاب) عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال من الدواب أربع لايقتلن النملة والنحلة والصرد والهدهد (وحدثنا عبد الرحمن) ابن عبد الله المسعودى قال حدثنا الحسن بن سعد مولى على بن عبد الرحمن بن عبد الله قال نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا فانطلق لحاجته فجاء وقد أوقد رجل على قرية نمل اما في شجرة واما فى أرض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل هذا اطفئها اطفئها ويحيي بن ايوب عن ابى زرعة بن جرير قال أنبأنا ابو زرعة عن أبى هريرة قال نزل نبي من الانبياء تحت شجرة فعضته نملة فقام الى نمل كثير تحت شجرة فقتلهن فقيل له افلا نملة واحدة وعبد الله ابن زياد المدنى قال اخبرني ابن شهاب عن ابى سلمة بن عبد الرحمن عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نزل نبي من الانبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر بقرية النمل فاحرقت فأوحي الله اليه افى ان قرصتك نملة اهلكت امة من الأمم يسبحون الله تعالى فهلا نملة واحدة (يحيي بن كثير) قال حدثنا عمر بن المغيرة بن الحارث الزناتي عن هشام ابن الدستواى قال ان النمل والذر اذا كانا في الصيف كله ينقلن الحب فاذا كان الشتاء وخفن ان ينبت فلقنه (هشام بن حسان) ان أهل الاحنف ابن قيس لقوا من النمل اذى فأمر الاحنف بكرسي فقال لتنتهن او لنحرقن عليكن او لنفعلن اولتفعلن قال فذهبن وعوف بن ابى جميلة عن قسامة بن زهير قال قال ابو موسى الاشعري ان لكل شئ سادة حتى ان للنمل سادة (عبد الله بن زياد) المدنى قال أنبأنا ابن شهاب عن ابى سلمة بن عبد الرحمن عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله علية وسلم يقول خرج نبي من الانبياء بالناس يستسقون فاذا هم بنملة رافعة رأسها الى السماء فقال ذلك النبي ارجعوا فقد استجيب لكم من اجل هذا النمل (مسعود بن كدام) قال حدثنا زيد القمي عن أبى الصديق الباجي قال خرج سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام يستسقى فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها الى السماء وهي تقول اللهم انا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن سقيك فاما ان تسقينا وترزقنا وإما ان تميتنا وتهلكنا فقال ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم (وحدثني) أبو الجهجاه قال سأل أبو عمرو المكفوف عن قوله تعالى (حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة

يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمانُ وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها) فقلت له ان نذيراً يعجب منه نبي من الانبياءِ ثم يعظم خطره حتى يضحكه لعجيب قال فقال ليس التأويل ما ذهبت اليه قال فانه قد يضحك النبي عليه السلام من الانبياء من كلام الصبي ومن نادرة غريبة وكل شيءٍ يظهر من غير معدنه كالنادرة تسمع من المجنون فهو يضحك فتبسم سليمان عندي على انه استظرف ذلك المقدار من النملة فهذا هو التأويل (وقال أبو الجهجاه) سألته عن قول أبي موسى ان لكل شيءٍ سادة حتى الذر قال يقولون ان سادتها اللواتى يخرجن من الجحر يرتدن بجماعتها ويستبقن الى شم الذي هو من طعامهن وقال زهير

وقال سأقضي حاجتى ثم أتقي * عدوى بألف من ورائى ملجم
فشد ولم تفزع بيوت كثيرة * لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

(قال بعض العلماء) قرية النمل قال ويقال فى لسانه حبسة اذا كان فى لسانه ثقل يمنعه من البيان فاذا كان الثقل الذى في لسانه من قبل العجمية قيل في لسانه حكلة والحكل من الحيوان كله ما لم يكن له صوت يستبان باختلاف مخارجه عند حرجه وضجره وطلبه ما يغذوه أو عند هياجه اذا أراد السفاد أو عند وعيد لقتال وغير ذلك من أمره (وتزعم الهند) أن سبب ماله كثر كلام الناس واختلفت صور ألفاظهم واتسعت على قدر اتساع معرفتهم ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم فى اللين والشده وفي المد والقطع كثرت حاجاتهم ولكثرت حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف ألفاظهم واتسعت على قدر اتساع معرفتهم قالوا لخوانج السنانير لا تمد وخمسة أوجه منها صياحها إذا ضربت ولذلك صورة وصياحها اذا دعت أخواتها والآلافهات ولذلك وجه وصياحها اذا دعت أولادها للطعم ولذلك صورة وصياحها اذا جاعت ولذلك صورة فلما قلت وجوه المعرفة ووجوه الحاجات قلت وجوه مخارج الاصوات وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها وقالوا ثم من الاشياء ما يكون صوتها خفيا فلا يفهمه عنها الا ما كان من شكلها ومنتهي ما يفهم صاحبه بضروب الحركات والاشارات والشمائل وحاجاتها ظاهرة جلية وقليلة العدد يسيرة ومعها من المعرفة ما لا يقصر عن ذلك المقدار ولا

يجوزه راضة الابل والرعاء ورواض الدواب فى المروج والسواس وأصحاب القنص بالكلاب والفهود يعرفون باختلاف الاصوات والهيآت والتشوف واستحالة البصر والاضطراب ضروبا من هذه الاصناف ما لا يعرف مثله من هو أعقل منه اذالم يكن له من معاينة أصناف الحيوان ما لغيرهم فالحكل من الحيوان هذا الشكل وقد ذكرناه مرة قال رؤبة

لواني عمرت عمر الحسل * أوانني أوتيت علم الحكل

علم سليمان كلام النمل

وقال أبو العباس محمد بن ذؤيب الفقيمى وهو الذى يقال له العمانى فى بعض قصايده في عبدالملك بن صالح والعمانى ممن يعد ممن جمع الرجز والقصيد كعمرو بن لجإ وجرير ابن الخطفا وابى النجم وغيرهم قال العمانى

ويعلم قول الحكل لو أن ذرة * تساور أخرى لم يفته سوادها

يقول الذر الذى لم يسمع لمناجاته صوت لو كان بينها سواء لفهمه والسواد هو السواد وطول السواد قال أبو كبير الهذلى

ساورت عنها الطالبين فلم أنم * حتى نظرت الى السماك الأعزل

وقال النمر بن تولب

ولقد شهدت اذا القداح توحدت * وشهدت عند الليل موقد نارها

عن ذات أولية أساور ربها * وكان لون الملح تحت شفارها

وقد فسرنا شأن الحكل وقال التيمى الشاعر المتكلم وأنشد لنفسه وهو يهجو ناسا من بني تغلب معروفين

عجم وحكل لا تبين ودينها * عبادة أعلاج عليها البرانس

ففصل بين الحكل والعجم فجعل ذوات العجم مثل ذوات الحافر والظلف والخف وجعل الحكل كالذر والنمل والخنافس والاشكال التى ليست تصيح من أفواهها فقال لي يومئذ حفص الفرد ان الذي يقال فيه حتى كان والله نصرانيا ثم صار يخبر عن النصارى كما يخبر عن الاعراب قال الأصمعي للمفضل لما أنشد المفضل جعفر بن

سليمان قول أوس بن حجر

وذات هدم عار نواشرها * تصمت بالماء تولبا جدعا

فجعل الذال معجمة وفتحها وصحف وذهب الى الاجذاع قال الاصمعى انما هى تولبا جدعا الدال مكسورة وفى الجدع يقول أبو زبيد

ثم استقاها فلم يقطع نظائمها * عن التضبب لا عبل ولا جدع

وانما ذلك كقول ابن حنباء الأشجعى

وأرسل مهملا جدعا وخفا * ولا جدع النبات ولا جديب

فنفخ المفضل ورفع بها صوته وتكلم وهو يصيح فقال الأصمعى لو نفخت بالشبور لم ينفعك تكلم بكلام النمل واصب والشبور شيء مثل البوق والكلمة بالفارسيه وهو شيء يكون لليهود إذا أراد رأس الجالوت أن يحرم كلام رجل منهم نفخوا عليه بالشبور وليس تحريم الكلام من الحدود القائمه فى كتبهم ولكن الجاثليق ورأس الجالوت لا يمكنهما فى دار الاسلام حبس ولا ضرب فليس عندهما الا أن يغرما المال ويحرما الكلام على أن الجاثليق كثيرا ما يتغافل عن الرجل العظيم القدر الذي له من السلطان ناحية وكان طيمانو رئيس الجاثليق قدهم بتحريم كلام عون العبادى عند ما بلغه من اتخاذ السرارى فتوعده وحلف لئن فعل ليسلمن وكما ترك الاشفيل وميخاييل وتوفيل وسموعين ومنويل وفى حكمهم أن من أعان المسلمين على الروم يقتل وان كان ذا رأى سملوا عينيه ولم يقتلوه فتركوا سنتهم فيه وقد ذكرنا شأنهم فى غير ذلك فى كتابنا على النصري فان أردته فاطلبه هنالك وقال عمر بن أبي ربيعة

لو دب ذرفوق ضاحي جلدها * لأبان من آثارهن حدورا

والحدر والورم الأثر يكون عن الضرب وقد يسمي نملة ونميلة ويكتنون بها وتسموا بذر واكتنوا بأبى ذر ويقال سيف فى متنه ذر وهو ذر السيف وقال ابن ضبة

وقد أغدو مع الفتيا * ن بالخنجر والبتر

وذى البركة كالتابو * ت والمحزم كالقر

* معى قاضبة كالملـ * ـح فى متنيه كالذر

وقد أعسر الضربة * تثني شثن الشبر

وقال الآخر تكاد الريح ترميها صرارا * وترجف إن يلثمها خمار

وتحسب كل شيء قيل حقا * ويرعب قلبها الذر الصغار

وقال أوس بن حجر في صفة السيف

كأن مدب النمل يتّبع الدبا * ومدرج ذر خاف بردا فاسهلا

على صفحة من بعد حين جلائه * كفى بالذى أبلي وأنعت منصلا

قال وخطب الى عقيل بن علفة بعض بناته رجل من الحرقة من جهينة فاخذه فشده قماطا ودهن أسته برب وقمطه وقربه من قرية النمل فاكل النمل حشوة بطنه وقال ذو الرمة

وقرية لاجن ولا أنسية * مداخلة أبوابها بنيت شزرا

نزلنابها ماتبتغي عندها القرى * ولكنها كانت لمنزلنا قدرا

وقال أبو العتاهية

أخبث بدارهما أشب * حبل الفروع كثيرة شعبه

أزرا سياستها بمن صرعت * فبقدر ما نقلوا به رتبه

واذا استوت للنمل أجنحة * حتى يطير فقد دنا عطبه

وقال البعيث

ومولى كبيت النمل لاخير عنده * لمولاه الا سعيه بنميم

قال وقد سمعت بعض الاعراب يقول انه لنمام نملي على قولهم كذب على نمل إذا أرادوا أن يخبروا أنه نمام وقال حميد بن ثور في تهوين قوة الذر

منعمة لو يصبح الذر ساريا * على جلدها بضت مدارجه دما

وقال الله عز وجل (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)

قال وقيل لعائشة رضى الله تعالى عنها وقد تصدقت بحبة عنب أتتصدقين بحبة عنب قالت إن فيها لمثاقيل ذر ومما قيل في الشعر من اللغز

فماذ وجناح له حافر * وليس يضر ولا ينفع

يعني النمل فزعم أن للنمل حافرا وإنما يحفر جحره وليس يحفره بفمه وعذب عمرو بن هبيرة سعيد بن عمر الجرشي بأنواع العذاب فقيل له إن أردت أن لا يفلح أبداً فرهم أن ينفخوا فى دبره النمل ففعلوا فلم يفلح بعدها قالوا وأجناس من الحيوان تدخر وتشبه فى ذلك بالانسان ذى العقل والرؤية وصاحب النظر فى العواقب والتفكير فى الامور مثل الذر والنمل والفأر والجرذان والعنكبوت والنحل الا ان النحل لا يدخر من الطعام الا جنسا واحداً وهو العسل وزعم اليقطرى أنك لو أدخلت نملة فى جحر ذر لأكلتها حتى تأتى على عامتها وذكر أنه قد جرب ذلك وقال صاحب المنطق إن الضباع تأكل النمل أكلا ذريعا وذلك أن الضباع تأتى قرية النمل فى وقت إجتماع النمل فتلحس ذلك النمل بلسانها بشهوة شديدة وارادة قوية قالوا وربما أفسدت الارضة على أهل القرى منازلهم وأكلت كل شيء لهم ولا يزالوا كذلك حتى ينشبوا فى تلك القرى النمل فيسلط الله ذلك النمل على تلك الارضة حتى تأتى على آخرها وعلى أن النمل بعد ذلك سيكون له أذي إلا أنه دون الارضة تعديا وما أكثر مايذهب النمل أيضاً من تلك القرى حتى تتم لاهلها السلامة من النوعين جميعاً وزعم بعضهم أن تلك الأرضة باعيانها تستحيل نملا وليس فناؤها لأكل النمل لها ولكن الارضة نفسها تستحيل نملا فعلى قدر ما تستحيل منها يري النقص فى عددها ومضرتها على الايام قال وبالنمل يضرب المثل يقال جاءوا مثل النمل والزنج نوعان أحدهما يفخر بالعدد وهم يسمون النمل والآخر يفخر بالصبر وعظم الابدان وهم يسمون الكلاب وأحدهما يكبو والآخر ينبو فالكلاب تكبو والنمل تنبو قال ومن أسباب هلاك النمل نبات الاجنحة له وقد قال الشاعر

وإذا استوت للنمل أجنحة * حتى يطير فقد دنا عطبه

واذا صار النمل كذلك أخصبت العصافير لانها تصطادها فى حال طيرانها وتقتل بان يصب فى أفواه بيوتها القطران والكبريت الاصفر ويدس فى أفواهها الشعر وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلا انتهى

باب جملة القول في القرد والخنزير

وفى تأويل المسخ وكيف كان وكيف يمسخ الناس على خلقتهما دون كل شىء وما فيهما
من العبرة والمحنة وفى خصالهما المذمومة وما فيهما من الأمور المحمودة وما الفضل
الذي بينهما فى النقص وفى الفضل وفى الذم وفى الحمد وقد ذكر الله عزوجل في القرآن
العنكبوت والذر والنمل والكلب والحمار والنحل والهدهد والغراب والذئب والفيل
والخيل والبغال والحمير والبقر والبعوض والمعز والضأن والبقرة والنعجة والحوت
والنون فذكر منها أجناساً فجعلها مثلافي الذلة والضعف وفىالوهن وفى البذاء والجهل
وقال الله عز وجل (إن الله لايستحيي أن يضرب مثلامابعوضة فما فوقها) فقللها كما ترى
وحقرها وضرب بها المثل وهو مع ذلك جل وعلا لم يمسخ أحداً من حشو أعدائه
وعظمائهم بعوضة وقال تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون
من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه
ضعف الطالب والمطلوب) وإنما قرع الطالب فى هذا الموضوع بانكاره وضعفه اذ عجز
ضعفه عن ضعف مطلوب لا شيء أضعف منه وهو الذباب ثم مع ذلك لم نجده جل
وعلا ذكر أنه مسخ أحداً ذبابا وقال وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت فدل بوهن
بيته على وهن خلقه فكان هذا القول دليلا على التصغير والتقليل وإنما لم يقل إنى
مسخت أحداً من أعدائى عنكبوتاً وقال تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث
أو تتركه يلهث) فكان فى ذلك دليل على ذم طباعه والأخبار عن تسرعه وبذائه وعن
جهله فى تدبيره وتركه وأخذه ولم يقل إنى مسخت أحداً من أعدائى كلبا وذكر الذرة
فقال (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فكان ذلك
دليلا على أنه من الغايات في الصغر والقلة وفى خفة الوزن وقلة الرجحان ولم يذكر
أنه مسخ أحداً من أعدائه ذرة وذكر الحمار فقال كمثل الحمار يحمل أسفاراً فجعله مثلا
في الجهل والغفلة وفي قلة المعرفة وغلظ الطبيعة ولم يقل إنى مسخت أحداً من أعدائى
حماراً وكذلك جميع ما خلق وذكر من أصناف الحيوان بالذم والحمد فأما غير ذلك مما

ذكر من أصناف الحيوان فانه لم يذكره بذم ولا نقص بل قد ذكرا كثرهن بالأمور المحمودة حتى صار الى ذكر القرد فقال (وجعل منهم القردة والخنازير) فلم يكن لهما فى قلوب الناس حال ولم يكن جعل لهما فى صدور العامة والخاصة من القبح والتشويه ونذالة النفس ما لم يجعله لشيء غيرهما من الحيوان لما خصهما الله تعالى بذلك وقد علمنا أن العقرب أشد عداوة وأذي وأفسد وأن الافعى والثعبان وعامة الاجناس أبغض اليهم وأقتل لهم وأن الأسد أشد صولة وأنهم عن دفعهم له أعجز وبغضهم له على حسب قوته عليهم وعجزهم عنه وعلى حسب سوء أثره فيهم ولم نره تعالى مسخ أحداً من أعدائه على صورة شيء من هـذه الاصناف ولو كان الاستنذال والاستثقال والاستسقاط أراد لكان المسخ على صورة بنات وردان أولي وأحق ولو كان التحقير والتصغير أراد لكانت الصؤابة والخرجسة أولى بذلك ولو كان الى الاستصغار ذهب لكان الذر والقمل والذباب أولى بذلك والدليل على قولنا قوله تبارك وتعالى (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين) وليس أن الناس رأوا شيطاناً قط على صورة ولكن لما كان الله قد جعل لها في طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهته وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالايحاش والتنفير وبالاخافة والتقريع الى ما قد جعله الله فى طباع الاولين والآخرين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الامم وهـذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن وقال الله عز وجل لنبيه (قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) فذكر أنه رجس وذكر الخنزير وهو أحد الممسوخ ولم يذكر فى هذه الآية التي أحصى فيها أصناف الحرام وأباح ما وراء ذلك القرد وصار بعضهم الى تحريمه من جهة الحديث وهو عند كثير منهم يحتمل المعارضة فلولا ان فى الخنزير معنى متقدما مما سوى المسخ وسوى ما فيه من قبح المنظر وسماجة التمثيل وقبح الصوت وأكل العذرة مع الخلاف الشديد واللواطة المفرطة والاخلاق السمجة ما ليس في القرد الذي هو شريكه فى المسخ لما

ذكره دونه وقد زعم ناس ان العرب لم تكن تأكل القرود وكان من تنصر من كبار القبايل وملوكها يأكل الخنزير فأظهر لذلك تحريمه اذ كان هناك عالم من الناس وكثير من الاشراف والوضعاء والملوك والسوقة يأكلونه أشد الأكل ويرغبون فى لحمه أشد الرغبة قالوا ولأن لحم القرد ينهى عن نفسه ويكفى الطبائع في الزجر عنه غثه ولحم الخنزير مما يستطاب ويتواصف وسبيل لحم القرد كسبيل لحم الكلب بل هو شر منه وأخبث وقد قال الشاعر للاسدى الذى لم يأكل لحم الكلب

يافقعسى لم أكلتـه لمـه * لو خافك الله عليه حرمه
* فما أكلت لحمه ولا دمه *

وليس يريد بقوله لو خافك الله عليه ان الله يخاف على شئ أو يخاف من شئ ولكنه لما كان الكلب عنده مما لا يأكله أحد ولا يخاف على أكله الا المضطر جعل بدل قوله أمن الكلب على أكل لحمه إن الله هو الذي لم يخف ذلك فيحرمه وهذا مما لا تقف الاعراب عليه ولا تتبع الوهم مواضعه لان هذا فى باب يدخل فى باب الدين فيما يعرف بالنظر وقد يأكل أجراء الكلاب ناس ويستطيبونها فيما يزعمون ويقولون ان جرو الكلب أسمن شيء صغيرا فاذا شب استحال لحمه كانه يشبه بفرخ الحمام مادام فرخا وناهضا إلى أن يستحكم ويشتدوما أكثر من يأكل السنانير والذين يأكلونها صنفان من الناس أحدهما الفتى المغرور الذى يقال له أنت مسحور ويقال له من أكل سنورا أسود بهيما لم يعمل فيه السحر فيأكله لذلك فاذا اكله لهذه العلة وقد غسل ذلك وعصره اذهب الماء زهومته ولم يكن ذلك المخدوع بمستقذر ما استطابه ولعله أيضاً أن يكون عليه ضرب من الطعام فوق الذى هو فيه فاذا أكله على هذا الشرط ودبر هذا التدبير ولم ينكره عاوده فاذا عاوده صار ذلك ضراوة له والصنف الآخر أصحاب الحمام فما أكثر ما ينصبون المصائد للسنانير التى يلقون منها فى حمامهم وربما صادف غيظ أحدهم وحنقه وغضبه عليه أن السنور مفرط السمن فيدع قتله ويذبحه فاذا فعل ذلك مرة أو مرتين صار ضراوة عليها وقد يتقذر الرجل من أكل الضب والورل والارنب فما هو الا أن يأكله مرة لبعض التجربة أو لبعض الحاجة حتى صار ذلك سببا الى اكلها حتى يصير

بهم الحال الي ان يصيروا أرغب فيها من أهلها وها هنا قوم لا يا كلون الجراد الاعرابي السمين ونحن لا نعرف طعاما أطيب منه والاعراب انما ياكلون الحيات على شبيه بهذا الترتيب ولهذه العوارض وزعم بعض الاطباء والفلاسفة ان الحيات والافاعي تؤكل نية ومطبوخة ومشوية فانها تغذو غذاء حسنا وزعم أبوزيد انه دخل على رؤبة وعنده جرذان قد شواهن فاذا هو يأكلهن فانكر ذلك عليه فقال رؤبة هن خير من اليرابيع والضباب وأطيب لانها عندكم تاكل الخبز والتمر واشباه ذلك وكفاك باكل الجرذان ولولا أن الحيات في الصدور من جهة السموم لكانت من جهة التقذر أسهل امراً من الجرذان وناس من الصقالبة يأكلون الذبان وأهل خراسان يعجبون باتخاذ البزماورد من فراخ الزنابير ويعافون أذناب الجراد الاعرابي السمين وليس بين ريح الجراد اذا كانت مشوية وبين ريح العقارب مشوية فرق والطعم تبع للرائحة خبيثها لخبيثها وطيبها لطيبها وقد زعم ناس ممن يا كلون العقارب مشوية ونية انها كالفراخ السمان وكان الفضل بن يحيي يوجه خدمه في طلب فراخ الزنابير ليأكلها وفراخها ضرب من الذبان فأما لحوم البراذين فقد كثر علينا وفينا حتى أنسنا به وزعم بعضهم أنه لم يأكل أطيب من رأس برذون وسرته فأما السرة والمعرفة فإنهم يزاحمون بها الجداء والدجاج ويقدمون الاسرام المحشوة ومن أصحابنا من يأكل السراطين أكلا ذريعاً فأما الرق والكوسج فهو من أعجب طعام البحريين وأهل البحر يأكلون اللبل وهو اللحم الذي في جوف الاصداف والاعرابى اذا وجد اسود سالخاً رأى فيه مالا يرى صاحب الكسمير فى كسميره وخبرني كم شئت من الناس أنه رأى أصحاب الجبن والرطب بالاهواز وقراها يأخذون القطعة الضخمه من الجبن والرطب وفيها ككواء الزنابير وقد تولد فيها الديدان فينفضها وسط راحته ثم يقمحها فى فيه كما يقمح السويق والسكر أو ما هو أطيب منه وقد خبر الله تعالى عن أصحاب النقم وما أنزل الله من العذاب وما أخذ من الشكل والمقابلات فقال (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا) وقال (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم

طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل) وليس من هذه الاصناف شئ أبلغ فى المثلة والشنعة من أن جعل منهم القردة والخنازير فالخنزير يكون أهليا ووحشيا كالحمامير والسنانير مما يعايش الناس وكلها لا تقبل الآداب وان الفهود وهي وحشية تقبل كلها كما تقبل البوازى والشواهين والصقور والزرق واليؤيؤ والعقاب وعتاق الارض وجميع الجوارح الوحشيات ثم يفضلها الفهد بخصلة غريبة وذلك ان كبارها ومسانها أقبل للآداب وان تقادمت في الوحش من أولادها الصغار وان كانت تقبل الآداب لان الصغير اذا أدب فبلغ خرج حبيبا مواكلا والمسن الوحشى يخلص لك كله حتى يصير أصيد وأنفع وصغار سباع الطير وكبارها على خلاف ذلك وان كان الجميع يقبل الأدب والخنزير وان كان اهليا فانه لايقبل الادب على حال حتى كأنه وان كان بهيمة فى طباع ذئب وذلك ان إعرابياً أخذ جرو ذئب وكان التقطه التقاطافقال أخذته وهو لا يعرف أبويه ولا عمامها وهو غر لم يصد شيئاً فهو اذا ربيناه والفناه أنفع لنا من الكلب فلما شب عدا على شاة له فقتلها وأكل لحمها فقال الاعرابي

أكلت شويهتى وربيت فينا * فمن أدراك أن أباك ذيب

فالذئب وجرو الذئب اذا كانا سبعين واحشيين ثم من أشد الوحش توحشا وألزمها للقفار وأبعدها من العمران والذئب أغدر من الخنزير والخنوص وهما بهيمتان وأما ضرره وإفساده فما ظنك بشيء يتمني له الأسد وذلك ان الخنزير اذا كانت بقرب ضياع قوم هلكت تلك الضياع وفسدت تلك الغلات وربما طلب الخنازير بعض العروق المدفونة فى الارض فيخرب مائة جريب ونابه ليس يغابه معول فإذا إشتد عليهم البلاء تمنوا أن يصير في جنبتهم أسد ولربما صار فى ضياعهم الأسد فلايهيجونه ولا يؤذونه ولو ذهب انسان ليحفر له زبية منعوه أشد المنع إذ كان ربما حمى جانبهم من الخنازير فقط فما ظنك بافسادها وما ظنك ببهيمة يتمنى أن يكون بدلها أسد ثم مع ذلك اذا إجتمعوا للخنازير بالسلاح وبالآلات والادوات التي تقتل بها فربما قتل الرجل منهم أو عقره العقر الذي لا يندمل لانه لا يضرب بنابه شيئاً الا قطعه كائنا ما كان فلو قتلوا فى كل يوم منها مائة وقتلت فى كل يوم انساناً واحداً لما كان فى ذلك عوض

والخنازير تطلب العذرة وليست كالجلالة لانها تطلب أحرها وأرطبها وأنتنها وأقربها عهدا بالخروج فهي في القرى تعرف أوقات الصبح والفجر قبل ذلك وبعده لبروز الناس للغائط فيعرف من كان في بيته نائما في الاسحار ومع الصبح أنه قد أصحر وأصبح باصواتها ومرورها ووقع أرجلها الى تلك الغيطان وتلك المتبرزات ولذلك ضربوا المثل ببكور الخنزير كما ضربوا المثل بحذر الغراب وروغان الثعلب على ان الثعلب ليس باروغ من الخنزير ولا أكد للفارس ولا أشد إتعابا لصاحبه فأما قبح وجهه فلو ان القبح والافلاس والغدر والكذب تجسم وتصور لما زادت على قبح الخنزير وكل ذلك بعض الاسباب التي مسخ لها الانسان خنزيرا وان القرد لسمج الوجه قبيح كل شيء وكفاك به أنه للمثل المضروب ولكنه في وجه آخر مليح فملحه يعترض على قبحه فيمازجه ويصلح منه والخنزير أقبح منه لانه ضرب مصمت بهيم فصار أسمج ببعيد (وحدثني) بعض اهل العلم ممن طال ثواؤه في أرض الجزيرة وكان صاحب أخبار وتجربة وكان كلفا بحب التبيين معترضا للامور يحب ان يفضي الى حقائقها وتثبيت أعيانها بعللها وتميز أجناسها وتعرف مقادير قواها وتصرف أعمالها وتنقل حالاتها وكان يعرف للعلم قدره وللبيان فضله قال ربما رأيت الخنزير الذكر وقد ألجأه أكثر من عشرين خنزيرا الى مضيق والى زاوية فينزون عليه واحداً واحداً حتى يبلغ آخرهم وخبرني هذا الرجل وغيره من أهل النظر وأصحاب الفكر انهم رأوا مثل ذلك من الحمير وذكروا ان ذلك إما تأنيث في طبعه وإما ان يكون له في أعينها من الاستحسان شبيه بالذي يعتري عيون بعض الرجال في الغلمان والاحداث الشباب وقد يكون هذا بين الغرانق والكراكي والتسافد بين الذكر والانثى والسافد والمسفود اذا كانا من جميع الذكورة كثير في جميع أصناف الحيوان الا أنه في جميع الخنازير والحمير أفشى فأما تسافد الحمام الذكر للأنثى والأنثي للذكر فاكثر من ان يكون فيه تنازع (وباب آخر) مما ذكر صاحب المنطق فزعم ان من الخنازير ماله ظلف واحد وليس لشيء من ذوات الأنياب في نابه من القوة والذرب ما للخنزير الذكر وللجمل والفهد والكلب قال والانسان لا يلقي اسنانه وكذلك الحافر والخف قال والخنزير لا يلقي اسنانه البتة ويقال ان عبد

الصمد بن على لم يثغر قط وانه دخل قبره باسنان الصبا وزعم بعضهم ان اسنان الذئب مخلوقة فى الفك ممطوطة فى نفس العظم وذلك مما توصف به اسنان الحية قال الشاعر

مطلن فى اللحيين مطلا الى الـ * ـرأس واشداق رحيبات

والشاعر يمدح الشئ فيشدد أمره ويقوى شأنه وربما زاد فيه ولعل الذى قال فى الذئب ما قال هذا اراد ولا يشكون ان الضبع كذلك قال وليس يجمل مرق لحم الحيوان السمين مثل الخنزير والفرس واما ما كان كثير الثرب فرقته تجمل مثل مرق لحم المعزي قال والخنزير الذكر يقاتل فى زمن الهيج فلا يدع خنزيرا الاقتله ويدنوا من الشجرة ويدلك جلده ثم يذهب الى الطين والحمأة فيتلطخ به فاذا تساقط عاد فيه قال وذكورة الخنازير تطرد الذكورة عن الاناث وربما قتل احدهما صاحبه وربما هلكا جميعا وكذلك الثيران والكباش والتيوس في اقاطيعها وهى قبل ذلك الزمان متسالمة والجمل في تلك الحالات لايدع جملا ولا انسانا يدنوا من هجمته والجمل خاصة يكره قرب الفرس ويقاتله ابدا ومثل هذا يعرض للذئبة والذئب والاسد ليس ذلك من صفاتها لان بعضها لا يأوي الى بعض بل ينفرد كل واحد بلبوته واذا كان للذئبة الانثي جراء ساءت اخلاقها وصعبت وكذلك اناث الخيل والفيل يسوء خلقها فى ذلك الزمان والفيالون يحمونها النزو لانها اذا نزت جهلت جهلا شديدا واعتراها هيج لا يقام له واذا كان ذلك الزمان أجادوا عقله وارسلوه في الفيلة الوحشية فاما الخنزير والكلب فانهما لا يجهلان على الناس لمكان الالفة قال وزعم بعض الناس ان اناث الخيل تمتلئ ريحا في زمان هيجها فلا يبا عدون الذكورة عنها واذا اعتراها ذلك ركضت ركضا شديدا ثم لا تأخذ غربا ولا شرقا بل تأخذ فى الشمال والجنوب ويعرض مثل هذا العرض لاناث الخنازير فاذا كان زمن هياج الخنازير تطاطئ رؤسها وتحرك اذنابها تحريكا متتابعا وتتغير اصواتها اذا طلبت السفاد واذا طلبت الخنزيرة السفاد بالت بولا متتابعا قال واناث الخنازير تحمل اربعة اشهر واكثر ما تحمل عشرون خنوصا واذا وضعت اجراء كثيرة لم تقو على رضاعها وتربيتها قال واناث الخنازير تحمل من نزوة واحدة وربما كان من اكثر واذا طلبت الذكر لم تنزع حتى تطاوع وتسامح وترخي أذنابها فاذا فعلت ذلك تكتفى بنزوة واحدة

ويعلف الذكر الشعير فى اوان النزو ويصلح للانثى والخنزيرة تضع في اربعة اشهر والشاة فى خمسة والمرأة والبقرة في تسعة أشهر والحافر كله فى سنة قال ومتي قلعت العين الواحدة من الخنزير هلك وكثير من الخنازير تبقى خمسة عشر عاما والخنزير ينزو اذا تم له ثمانية اشهر والانثى تريد الذكر اذا تمت لها ستة اشهر وفى بعض البلدان ينزو اذا تم له لربعة اشهر والخنزيرة اذا تمت لها ستة أشهر ولكن اولادهما لا تجئ كما يريدون وأجود النزو ان يكون ذلك منه وهو ابن عشرة أشهر الى ثلاث سنين واذا كانت الخنزيرة بكرا ولدت جراء ضعافا وكذلك من كل شئ وقال الله تبارك وتعالى (كلوا من طيبات ما رزقنا كم واشكروا الله إن كنتم اياه تعبدون) ثم ذكر الطيبات فقال (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النُّصب وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق) ثم قال (هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل) وقال (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وقوله تعالى (طيبات) تحتمل وجوها كثيرة يقولون هذا ماء طيب يريدون العذوبة واذا قالوا للبر والشعير والارز طيب فانما يريدون انه وسط وانه فوق الدون ويقولون فم طيب الريح وكذلك البر يريدون انه سليم من النتن ليس ان هناك ريحا طيبة ولا ريحا منتنة ويقولون حلال طيب وهذا لا يحل ولا يطيب لك وقد طاب لك أى حل لك كقوله (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) قال طويس المغني لبعض ولد عثمان بن عفان لقد شهدت زفاف أمك المباركة الى ابيك الطيب يريد الطهارة ولو قال شهدت زفاف أمك الطيبة الى ابيك المبارك لم يحسن ذلك لان قولك طيب انما يدل على قدر ما اتصل به من الكلام وقد قال الشاعر * والطيبون معاقد الازر * وقد يخلو الرجل بالمرأة فيقول وجدتها طيبة يريد طيبة الكوم لذيذة نفس الوطء واذا قالوا فلان طيب الخلق فانما يريدون الظرف والملح وقال الله عز وجل (حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة) يريد ريحا ليست بالضعيفة ولا القوية ويقال لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس

منه وقال الله عز وجل (فان طبن لكم عن شئ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) وقال (لقد كان لسبإٍ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) وذلك اذا كانت طيبة الهواء والفواكه خصيبة وقال (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) ثم قال (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) وفى هذا دليل على أن التأويل فى امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام على غير ما ذهب اليه كثير من أصحاب التفسير وذاك أنهم حين سمعوا قوله عز وجل (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأةَ نوح وامرأةَ لوط كانتا تحت عبد من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما) فدل ذلك على انه لم يعن الخيانة في الفرج وقد يقع اسم الخيانة على ضروب أولها المال ثم يشتق من الخيانة فى المال الغش فى النصيحة والمشاورة وليس لاحد ان يوجه الخبر اذا نزل فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحرم الرسل على اسمج الوجوه اذا كان للخبر مذهب في السلامة أو فى المقصود على ادنى العيوب وقد علمنا أن الخيانة لا تحظي الى الفرج قد تبتدئ بالمال وقد يستقيم ان يكونا من المنافقين فيكون ذلك منهما خيانة عظيمة ولا تكون نساؤهم زوانى فيلزمهم أسماء قبيحة وقال الله عز وجل (اذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة) وقال (فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) وقال (من عمل صالحا من ذكر أو أنثي وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وقال تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) وقال (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) ومثل (كلمة طيبة كشجرة طيبة) وقال (وظللنا عليكم الغمام وانزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم) فقوله طيب يقع فى مواضع كثيرة وقد فصلنا بعضها فى هذا الباب

﴿ ثم رجع بنا القول الى موضعنا من ذكر الخنزير ﴾

ثم قال (قل لا أجد فيما أوحي الى محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميته أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس اوفسقا اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد

فان ربك غفور رحيم) الا تراه قد ذكر اصناف ما حرم ولم يذكرها باكثر من التحريم فلما ذكر الخنزير قال فانه رجس فجعل الخنزير وإن كان غير ميتة او ذكر الذابح عليه اسم الله رجسا ولا نعلم لهذا الوجه الذى خصه الله به من ذكر المسخ فاراد تعظيم شأن العقاب ونزول الغضب وكان ذلك القول ليس مما يضر الخنزير وفيه الزجر عن محارمه والتخويف من مواضع عذابه وينبغي ان يكون مسخ صورة القرد فهلا ذكره فى التحريم مع اصناف ما حرم ثم خصه ايضا أنه من بينها رجس وهو يريد مذهبه وصفته قلنا إن العرب لم تكن تأكل القرود وتلتمس صيدها للاكل وكل من تنصر من ملوك الروم والحبشة والصين وكل من تمجس من ملك أو سوقه فانهم كانوا يرون لحم الخنزير فضيلة وان لحومها مما تقوم اليه النفوس وتنازع اليه الشهوات وكان فى طباع الناس من التكره للحوم القردة والتقذر منها ما يغنى عن ذكرها فذكر الخنزير اذ كان بينهما هذا الفرق ولو ذكر ذلك والحق القرد بالخنزير لموضع التحريم لكان ذلك إنما كان على وجه التوكيد لما جعله الله تعالى في طبائعهم من التكره والتقذر ولا غير ذلك وقال الله عز وجل (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) الآية وقد انبأناك كما ترى عن التحريم أنه يكون من وجوه فمنها ما يكون كالكذب والظلم والغشم والغدر وهذه امور لا تحل على وجه من الوجوه ومنها ما يحرم فى العقل من ذبح الانسان الطفل وجعل في العقول التبيين بان خالق الحيوان أو المالك له والقادر على تعويضه يقبح ذلك فى السماع على السنة رسله وهذا مما يحرم بعينه وبذاته وانه حرم لعلة قد يجوز دفعها والظلم نفسه هو الحرام ولم يحرم لعلة غير نفسه وباب آخر هو ماجاء من طريق التعبد وما يعرف بالجملة ويعرف بالتفسير ومنه مايكون عقابا ويكون مع أنه عقاب امتحانا واختبارا كنحو ماذكر من قوله ذلك جزيناهم ببغيهم وكنحو اصحاب البقرة الذين قيل لهم اذبحوا بقرة فانى اريد ان اضرب بها القتيل ثم احييهما جميعا ولو اعترضوا من جميع البقر بقرة فذبحوها كانوا غير مخالفين فلما ذهبوا مذهب التلكى والتعليل ثم التعرض والتعنت فى طريق التعنت صار ذلك سبب تغليظ الفرض وقد قال الله عز وجل (من أجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل

نفسا بغير نفس او فساد فى الارض فكانما قتل الناس جميعا)قال الله تعالى(الذين يتبعون الرسول النبي الامى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم)ومثله (ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا)يجوز أن يكون إنما يريدون صرف العذاب ويجوز ان يكون انما يريدون تخفيف الفرائض وقد يجوز اذا على قول من قال لا استطيع النظر الى فلان على معني الاستقبال وباب آخر من التحريم وهو قوله(كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة)وقال مروان بن محمد

يمشى رويدا يريد ختلكم * كمشي خنزيرة الى غذرة

وقال آخر نعم جار الخنزيرة المرضع الغر * ثي اذا ما غدا ابو كلثوم

طاويا قد اصاب عند صديق * من ثريد ملبد مادوم

ثم انحى بجمره حاجب الشمس * فالقى كالمعلف المهدوم

(وقال ابو الحسن) وفد جرير على هشام فقال الحضرمي ايكم يشتمه فقالوا ما احد يقدم عليه قال فأنا أشتمه ويرضى ويضحك قال فقام اليه فقال انت جرير قال نعم قال فلا قرب الله دارك ولاحيا مزارك يا كاب فجعل جرير ينتفخ ثم قال له رضيت في شرفك وفضلك وعفافك ان تهاجي الفاجر العاجز يعني الفرزدق فضحك فحدث صديق لى ابا الصلع السندى بهذا الحديث قال فشعرى اعجب من هذا لانى شتمت البخلاء فشتمت نفسي بأشد مما شتمتهم فقال وما هو قال قولى

لا ترى بيت هجاء * أبدا يسمع مني

الهجا ارفع ممن * قدره يصغر عني

(قال ابو الحسن) كان واحد يسخر بالناس ويدعي انه يرقي من الضرس اذا ضرب على صاحبه فكان اذا اتاه من يشتكى ضرسه قال له اذا رقاه اياك ان تذكر اذا صرت الى فراشك القرد فإنك ان ذكرته بطلت الرقيه فكان اذا آوي الى فراشه اول شئ يخطر على باله ذكر القرد فيبيت على حاله من ذلك الوجع فيغدو الى الذى

رقاه فيقول له كيف كنت البارحة فيقول بت وجعا فيقول لعلك ذكرت القرد فيقول نعم فيقول من ثم لم تنتفع بالرقية وقال بعض ظرفاء الكوفيين

فإن يشرب ابو فروخ اشرب * وان كانت معتقة عقارا
وأن يأكل أبو فروخ آكل * وان كانت خنانيصا صغاراً

وقال يزيد بن معاوية

فمن مبلغ القرد الذى سبقت به * جياد أمير المؤمنين اتان
تعلق أبا قيس بها إن اطعتني * فليس عليها ان هلكت ضمان

(وزعم الجرداني ان بشار الاعمى لم يجزع من هجاء قط) كجزعه من بيت حماد عجرد حيث يقول (ويا اقبح من قرد * اذا ما عمي القرد)

وقال بشر بن الهندى

اتخطر للاشراف حذيم كبرة * وهل يستعد القرد للخطران
ابى قصر الاذناب ان يخطروا بها * والأم قرود وسط كل مكان
لقد سمنت قردا نكم آل حذيم * واحسابكم فى الحى غير سمان

وقال الاصمعي عن أبي الاشهب عن أبي السليل قال ما أبالي أخنزيرا رأيت يجر برجله أو مثل عبيد ينادي يال فلان (الاصمعي) عن أبي ظبيان قال الخزر هم البنات الذين بنوا الصرح وإسمهم مشتق من الخنزير ذهب الى اسمه بالفارسية هزر فجعلت العرب خزر خنزيرا الى هذا ذهب (وقال الناس فى المسخ) باقاويل مختلفة فمنهم من زعم ان المسخ لا يتناسل ولا يبقى الا بقدر ما يكون موعظة وعبرة فقطعوا على تلك الشهادة ومنهم من زعم أنه يبقى ويتناسل حتى جعل الضب والجرى والارانب والكلاب وغير ذلك من أولاد تلك الامم التي مسخت في هذه الصور وكذلك قولهم فى الحيات وقالوا في الوزغ إن أباها لما صنع في نار ابراهيم وبيت المقدس ما صنع أصمه الله وأبرصه فقيل سام أبرص فهذا الذي نرى هو من ولده حتى صار فى قتله الاجر العظيم ليس على ان الذي يقتله كالذي يقتل الاسد والذئاب اذا خافها على المسلمين وقالوا في سهيل وفى الزهرة وفى هاروت وماروت وفي فزى ٢ وعبرى وفي أبوى ذوى القرنين وجرهم ماقالوا

فأما القول في نفس المسخ فإن الناس اختلفوا في ذلك فأما الدهرية فهم فى ذلك صنفان فمنهم من جحد المسخ وأقر بالخسف والريح والطوفان وجعل الخسف كالزلازل وزعم انه يقرب من القذف بما كان من البرد الكبار فأما الحجارة فإنها لا تجيء من جهة السماء وقال لست أجوز الاما اجتمعت عليه الامة انه قد يحدث في العالم فأنكر المسخ البتة وقال الصنف الآخر لا ننكر ان يفسد الهواء فى ناحية من النواحى فيفسد مائهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الايام كما عمل ذلك فى طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد يأجوج ومأجوج وقد رأينا العرب وكانوا اعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضرا أو تراها في غير الخضرة على غير ذلك وترى القملة فى رأس الشاب الاسود الشعر سوداء وتراها فى رأس الشيخ الابيض الشعر بيضاء وتراها في رأس الاشمط شمطاء وفى لون الجمل الاورق ورقاء فإذا كانت فى رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء فإن نصل خضابه صار فيها شكله من بين بيض وحمر وقد نرى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء وقد خبرنا من لا يحصى من الناس انهم قد أدركوا رجالا من نبط بيسان ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح والاسد والبقر والخيل والا كاذناب السلاحف والجرذان فقد كان لهم عجوب طوال كالاذناب وربما رأينا الملاح النبطي فى بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المشوهين والانباط ويكونون جهالا فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون فإذا طال ذلك عليهم زاد فى تلك الشعور وفي تلك الاذناب وفي تلك الالوان الشقر وفي تلك الصور المناسبة للقرود قالوا ولم نعرف ولم يثبت عندنا بالخبر الذى لا يعارض ان الموضع الذى قلب صور قوم الى صور الخنازير هو الموضع الذي نقل صور قوم الى صور القرود وقد يجوز أن تكون هذه الصور انقلبت فى مهب الريح الشمالى والاخرى فى مهب الجنوب ويجوز

ان يكون ذلك كان فى دهر واحد ويجوز ان يكون بينهما دهر ودهور قالوا فلسنا ننكر المسخ ان كان على هذا الترتيب لانه ان كان على مجري الطبائع وماتدور به الادوار فليس ذلك بناقض لقولنا ولا مثبت لقولكم قال أبو اسحق الذي قلتم ليس بمحال ولا ينكر ان يحدث فى العالم برهانات وذلك المسخ كان على مجرى ماأعطوا من سائر الاعاجيب والدلائل ولآيات ونحن إنما عرفنا ذلك من قبلهم ولولا ذلك لكان الذى قلتم غير ممتنع ولو كان ذلك المسخ فى هذا الموضع على ماذكرتم ثم خبر بذلك نبي أو دعا به نبي لكان ذلك أعظم الحجة (فأما) أبو بكر الاصم وهشام بن الحكم فانهما يقولان بالقلب ويقولان إنه اذا جاز ان يقلب الله خردلة من غير ان يزيد فيها جسما وطولا جاز أن يقلب ابن آدم قرداً من غير أن ينقص من جسمه طولا أو عرضاً وأما أبو اسحق فقد كان لولا ماصح عنده من قول الانبياء وإجماع المسلمين على أنه قد كان وإنه قد كان حجة وبرهاناً في وقته لكان لاينكر مذهبهم في هذا الموضع وقوله هذا قول جميع من قال بالطبائع ولم يذهب مذهب جهم وحفص القروي وقال ابن الميسي يذكر القرد

فهلا غداة الرمل ياقرد حذيم * تؤامرها في نفسها تستشيرها

قال وسأل سائل في تحريم الخنزير عن مسألة فمنهم من أراد الطعن ومنهم من أراد الاستفهام ومنهم من أحب أن يعرف ذلك من جهة الفتيا اذا كان قوله خلاف قولنا قالوا إنما قال الله (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) فذكر اللحم دون الشحم ودون الرأس ودون المخ ودون العصب ودون سائر أجزائه ولم يذكره كما ذكر الميتة بأسرها فكذلك الدم لان القول وقع على جملتهما فاشتمل على جميع خصالهما بلفظ واحد وهو العموم وليس ذلك فى الخنزير لانه ذكر اللحم من بين جميع أجزائه وليس بين ذكر اللحم والعظم فرق ولا بين اللحم والشحم فرق وقد كان ينبغى فى قياسكم هذا وقال حرمت عليكم الميتة والدم وشحم الخنزير ان تحرموا الشحم وإنما ذكر اللحم فلم حرمتم الشحم وما بالكم تحرمون الشحم عند ذكر غير الشحم فهلا حرمتم اللحم بالكتاب وحرمتم ماسواه بالخبر الذى لايدفع فان بقيت خصلة أو خصلتان مما لم تصيبوا ذكره فى

كتاب منزل وفى أثر لا يدفع رددتموه الى جهة العقل قلنا ان للناس عادات وكل مايعرف كل شيء بموضعه وإنما ذلك على قدر استعمالهم له وانتفاعهم به وقد يقول الرجل لوكيله اشتر لى بهذا الدينار لحما أو بهذه الدراهم فيأتيه باللحم فيه الشحم والعظم والعرق والعصب والغضروف والفؤاد والطحال والرئة وببعض أسقاط الشاة وحشو البطن والرأس لحم والسمك أيضاً لحم وقال الله تعالى هو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها فان كان الرسول ذهب الى المستعمل من ذلك وترك بعض مايقع عليه إسم لحم فقد أخذ بما عليه صاحبه فاذاقال حرمت عليكم لحما فكأنه قال لحم الشاة والبقرة والجزور ولو أن رجلا قال أكلت لحما وإنما أكل رأسا أو كبداً أو سمكا لم يكن كاذبا وللناس ان يضعوا كلامهم حيث أحبوا إذا كان لهم مجاز إلا فى المعاملات فان قلت فما تقول فى الجلد فليس للخنزير جلد كما أنه ليس للانسان جلد الا بقطع ما ظهر لك منه بما تحته وإنما الجلد مايسلخ ويدحس فيتبرأ مما كان به ملتزقاً ولم يكن ملتحما كفرق مابين جلد الحوصلة والعرقين فان سألت عن الشعر وعن جلد المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع فانى أزعم ان جلده لا يدبغ ولا ينتفع به الا الأساكفة والقول في ذلك أنه كله محرم وإنما ذلك كقوله تعالى (ومن يولهم يومئذ دبره) وكقوله عزوجل (ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله) والعرب تقول للرجل الصانع نجارا وإن كان لا يعمل بالمثقب والمنشار ونحوه ولا يضرب بالمضاع ونحو ذلك وتسميه خبازا اذا كان يطبخ ويعجن وتسمي العير لطيمه وإن لم يكن فيها مايحمل العطر الا واحد وتقول هذه ظعن فلان للهوادج اذا كانت فيها امرأة واحدة ويقال هؤلاء بنو فلان وان كانت نساؤهم أكثر من الرجال فلما كان اللحم هو المعمود الذى اليه يقصد وصار في أعظم الأجزاء قدراً دخل سائر تلك الاجزاء فى اسمه ولو كان الشحم معتزلا من اللحم ومفرداً في جميع الشحام كشحوم الكلا والثروب لم يجز ذلك واذا تكلمت على المفردات لم يكن المخ لحما ولا الدماغ ولا العظم ولا الشحم ولا الغضروف ولا الكروش ولا ما أشبه ذلك فلما قال (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) وكانت هذه الاشياء

المشبهة باللحم تدخل فى باب العموم فى اسم اللحم كان القول واقعا على الجميع وقال الشاعر

من يأتنا صبحا يريد غداءنا * فالهام منضجة لدى الشحام

لحم نضيج لا يعنى طابخا * يؤتى به من قبل كل طعام

واذ قد ذكرنا بعض الكلام والمسائل فى بعض الكلام فنذكر شأن الهدهد والمسألة فى ذلك قال الله عزوجل (وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أولأذبحنه أولا يأتيني بسلطان مبين) ثم قال (فمكث غير بعيد) يعنى الهدهد فقال لسليمان المتوعد له بالذبح عقوبة له والعقوبة لا تكون الا على المعصية لبشرى آدمي لم تكن عقوبته الذبح فدل ذلك على ان المعصية إنما كانت له ولا تكون المعصية لله الا ممن يعرف الله أو ممن كان يمكنه ان يعرف الله تعالى فترك ما يجب عليه من المعرفة وفى قوله لسليمان (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين إني وَجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم) ثم قال بعد ان عرف فضل ما بين الملوك والسوقة وما بين النساء والرجال وعرف عظيم عرشها وكثرة ما أوتيت فى ملكها قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) فعرف السجود للشمس وأنكر المعاصى ثم قال (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما يخفون) ويتعجب من سجودهم لغير الله ثم علم ان الله يعلم غيب السموات والارض ويعلم السر والعلانية ثم قال (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) وهذا يدل على أنه أعلم من ناس كثير من المميزين المستدلين الناظرين قال سليمان (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) ثم قال (اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتوني مسلمين) فلما جاء سليمان قال (أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) وذلك أنها قالت (ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) قال سليمان للهدهد (ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون

قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى ءأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غني كريم) فطعن فى جميع ذلك طاعنون فقال بعضهم قد ثبت أن الهدهد يحتمل العقاب والعتاب والتكليف والثواب والولاية ودخول الجنة بالطاعة ودخول النار بالمعصية لان المعرفة توجب الامر والنهي والامر والنهى يوجبان الطاعة والمعصيه والطاعة والمعصية يوجبان الولايةوالعداوة فينبغى للهداهد أن يكون فيها العدو والولي والكافر والمسلم والزنديق والدهرى واذا كان حكم الجنس حكما واحدا الزم الجميع ذلك وان كان الهدهد لايبلغ عند جميع الناس فى المعرفة مبلغ الذرة والنملة والقملة والفيل والقرد والخنزير والحمام وجميع هذه الامم تقدمها عليه فى المعرفة فينبغى أن تكون هذه الاصناف المتقدمة عليه فى عقول هذه الامة والانبياء وقد رأينا العلماء يتعجبون من خرافات العرب والاعراب في الجاهلية ومن قولهم فى الديك والغراب ويتعجبون من الرواية فى طوق الحمام فان الحمام كان رائد نوح على نبينا وعليه السلام وهذا القول الذى تؤمنون به في الهدهد من هذا النوع قلنا ان الله تعالى لم يقل (وتفقد الطير فقال مالى لاأرى هدهد) من عرض الهداهد فلم يوقع قوله على الهداهد جملة ولا على واحد منها غيرمقصود اليه ولم يذهب الى الجنس عامة ولكنه قال (وتفقدالطيرفقال مالى لاأري الهدهد) فادخل فى الاسم الالف واللام فجعله معرفة فدل بذلك القصد على أنه ذلك الهدهد بعينه وكان كغراب نوح وحمار عزير وكذلك ذئب أهبان بن أوس فقد كان لله فيه وفيها تدبير وليجعل ذلك آية لانبيائه وبرهانا لرسله ولايستطيع أعقل الناس أن يعمل عمل أجرء الناس كما لايستطيع أجرأ الناس ان يعمل أعمال أعقل الناس فباعمال المجانين والعقلاء عرفنا مقدارهما من صحة أذهانهما وفسادهما وباختلاف اعمال الاطفال والكهول عرفنا مقدارهما فى الضعيف والقوة وفى الجهل والمعرفة وبمثل ذلك فضلنا بين الجماد والحيوان والعالم وأعلم منه والجاهل وأجهل منه ولو كان عند

السباع والبهائم ماعند الحكماء والادباء والوزراء والخلفاء والامم والانبياء لاثمرت تلك العقول باضطرار إثمار تلك العقول وهذا باب لايخطيء فيه الا المانية وأصحاب الجهالات فقط فاما عوام الامم فضلا عن خواصهم فهم يعلمون من ذلك مثل مانعلم وانما يتفاضل بالبيان والحفظ وبنسق المحفوظة فاما المعرفة فنحن فيها سواء ولم نعرف العقل وعدمه ونقصانه وافادته واقدار معارف أسباب الحيوان وما يظهر منها وبتلك الادلة عرفنا فرق مابين الحي والميت وبين الجماد والحيوان (فان قال الخصم) مانعرف كلام الذئب ولا معرفة الغراب ولاعلم الهدهد قلنا نحن ناس نؤمن بان عيسى عليه السلام خلق من غير ذكر وانما خلق من أنثى وأن آدم وحواء خلقا من غير ذكر وأنثي وان عيسى تكلم في المهد وان يحيي بن زكريا نطق بالحكمه في الصبا وان عقيما القح وان عاقرا ولدت وباشياء كثيرة خارجة عن نسق العادة فالسبب الذى به عرفنا أنه قد كان لذلك الهدهد مقدار من المعرفة دون ماتوهمتم وفوق مامع الهدهد ومتى سألتمونا عن الحجة فالسبيل واحدة ونحن نقربان من دخل الجنة من المجانين والاطفال يدخلون عقلاء كاملين من غير تجارب وتمرين وترتيب فمسألتكم عماالهم الهدهد هى المسألة عما الهم الطفل فى الجنة فان قال قائل فان ذلك القول كله الذى كان من الهدهد انما كان على الالهام والتسخير ولم يكن ذلك عن معرفة منه فلم قال لأعذبنه عذابا شديداأولاذبحنه (قلنا) فانه قد يتوعد الرجل ابنه وهو بعد لم يجر عليه الاحكام بالضرب الوجيع ان هو لم يأت السوق او يحفظ سورة كذا وكذا فلا يعنفه أحد على ذلك الوعيد ويكذب فيضربه على الكذب ويضرب صبيا فيضربه لانه ضربه وهو فى ذلك قد حسن خطه وجاد حسابه وشدا من النحو والعرائض شدوا حسنا ونفع أهله وتعلم اعمالا وتكلم بكلام أجاب فى الفتيا بكلام فوق معانى الهدهد فى اللطافة والغموض وهوفى ذلك لم يكمل لاحتمال الغرض والولاية والعداوة (فان قال) فهل يجوز لاحد ان يقول لابنه إن أنت لم تأت السوق ذبحتك وهو جاد قلنا لا يجوز ذلك ونما جاز ذلك فى الهدهد لان سليمان ومن هو دون سليمان من جميع العالم له ان يذبح الهدهد والحمام والديك والعناق والجدي والذبح سبيل من سبل منایاهم فلو ذبحه سليمان لم يكن في ذلك

الا بقدر التقديم والتأخير والا بقدر ضرب ما بين أن يموت حتف أنفه أو يموت بالذبح ولعل صرف ما بينهما لا يكون الا بمقدار ألم عشرين درة ولعل نتف جناحه يفي بذلك الضرب واذا قلنا ذلك فقد أعطينا ذلك الهدهد بعينه حق ما دلت عليه الآية ولم يجز ذلك في جميع الهداهد ولم يكن كمن ينكر قدرة الله على ان تركب عصفورا من العصافير ضربا من التراكيب يكون ادهى من قيس بن زهير ولو كان الله تعالى قد فعل ذلك بالعصافير لظهرت كذلك دلائل على انا لو تأولنا الذبح على مثال تأويل قولنا في ذبح ابراهيم اسماعيل عليهما السلام انما كان ذلك ذبحا في المعنى لغيره أو على معنى قول القائل اما أنا فقد ذبحته وضربت عنقه ولكن السيف خانني أو على قولهم المسك الذبيح أو على قولهم فجئت وقد ذبحني العطش لكان ذلك مجازا ولو ان صبيا من صبياننا سئل قبل ان يبلغ فرض البلوغ بساعة رأى ملكة سبإٍ في جميع حالاتها لما كان بعيدا ولا ممتنعا ان يقول رأيت امرأة ملكة ورأيتها تسجد للشمس من دون الله ورأيتها تطيع الشيطان وتعصي الرحمن ولا سيما ان كان من صبيان الخلفاء والوزراء او من صبيان الاعراب والدليل على ان ذلك الهدهد كان مسخرا وميسرا مضيه الى اليمن ورجوعه من ساعته ولم يكن من الطير القواطع فرجع الى وكره والدليل على ذلك ان سليمان عليه السلام لم يقل نعم قد رأيت كل ما ذكرت وأنت لم تعلم حين مضيت بطالا هاربا من العمل أتكدى أم تنجح أو ترى الاعجوبة أو لا تراها ولكنه توعده على ظاهر الرأي ونافره القول ليظهر الآية والاعجوبة ثم طعن في ملك سليمان وملكة سبإٍ ناس من من الدهرية وقال زعمتم ان سليمان سأل ربه (رب هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي) وان الله تعالى أعطاه ذلك فملكه على الجن فضلا عن الانس وعلمه منطق الطير وسخر له الريح فكانت الجن له خولا والرياح له مسخرة ثم زعمتم وهو اما بالشام واما بسواد العراق أنه لا يعرف باليمن مملكة هذه صفتها وملوكنا اليوم دون سليمان في القدرة لا يخفي عليهم صاحب الخزر ولا صاحب الروم ولا صاحب الترك ولا صاحب النوبة وكيف يجهل سليمان موضع هذه المملكة مع قرب دارها واتصال بلادها وليس دونها بحار ولا اوعار والطريق نهج الخف والحافر والقدم فكيف والجن والانس طوع

عينه ولو كان حين خبره الهدهد بمكانها اضرب عنها صفحا لكان لقائل ان يقول ما
أتاه الهدهد الا بامر يعرفه فهذا وما أشبهه دليل على فساد اخباركم قلنا ان الدنيا اذا
خلاها الله وتدبير أهلها ومجارى أمورها وعاداتها كان لعمرى كما تقولون ونحن نزعم
ان يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم كان أنبه أهل زمانه لانه نبي ابن نبي وكان يوسف
وزير ملك مصر ومن النباهة بالموضع الذى لا يدفع وله البرد واليه يرجع جواب الاخبار
ثم لم يعرف يعقوب مكان يوسف ولا يوسف مكان يعقوب عليهما السلام دهرا من
الدهور مع النباهة والقدرة واتصال الدار وكذلك القول فى موسى بن عمران ومن كان
معه في التيه فقد كانوا أمة من الامم يكسعون أربعين عاما في مقدار فراسخ يسيرة
ولا يهتدون الى المخرج وما كانت بلاد التيه الامن ملاعبهم ومنتزهاتهم ولا يعدم مثل
العسكر الادلاء والجمالين والمكارين والفيوج والرسل والتجار ولكن الله صرف
أوهامهم ورفع ذلك القصد من صدورهم وكذلك القول فى الشياطين الذين يسترقون
السمع في كل ليلة فنقول انهم لو كان كلما أراد مريد منهم ان يصعد ذكر انه قد رجم
او رجم صاحبه وانه كذلك منذ كان لم يصل معه أحد الى استراق السمع كان محالا ان
يروم ذلك احد منهم مع الذكر والعيان ومثل ذلك قد علمنا ان ابليس لا يزال عاصيا
الى يوم البعث ولو كان ابليس فى حال المعصية ذكر إخبار الله تعالى انه لا يزال
عاصيا وهو يعلم ان خبره صدق كان محالا ان تدعوه نفسه الى الايمان ويطمع فى ذلك
مع تصديقه بانه لا يختار الايمان ابدا ومن المحال ان يجمع بين وجوب الاستطاعة وعدم
الدواعى وجواز الفعل ولو ان رجلا علم يقينا انه لا يخرج من بيته يومه ذلك كان محالا
أن تدعوه نفسه الى الخروج مع علمه بانه لا يفعل ولكن ابليس لما كان مصروف
القلب عن ذكر ذلك الخبر دخل في حد المستطيعين ومثل ذلك أن النبي صلى الله
عليه وسلم لما بشره الله بالظفر وتمام الامر وبشر اصحابه بالنصر ونزول الملائكة ولو
كانوا لذلك ذاكرين فى كل حال لم يكن عليهم من المحاربة مؤونة واذا لم يتكلفوا المؤونة
لم يؤجروا ولكن الله تعالى بنظره اليهم رفع ذلك فى كثير من الحالات عن أوهامهم
ليحتملوا مشقة القتال وهم لا يعلمون ايغلبون أم يغلبون او يقتلون ام يقتلون ومثل

ذلك ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد ان تحداهم الرسول بنظمه ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلف بعضهم ذلك لجاء بأمر فيه أدنى شبهة لعظمت القصة على الاعراب واشباه الاعراب والنساء واشباه النساء ولا لقى ذلك للمسلمين عملا ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال فقد رأيت أصحاب مسيلمة وأصحاب بني النواحة انما تعلقوا بما الف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمعه انه انما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه فكان لله ذلك التدبير الذي لا يبلغه العباد ولو اجتمعوا له فان كان الدهرى يريد من أصحاب العبادات والرسل ما يريد من الدهرى الصرف الذى لا يقر الا بما أوجده العيان وما يجرى مجرى العيان فقد ظلم وقد علم الدهري ان لنا ربا يخترع الاجسام اختراعا وانه حي لا بحياة وعالم لا بعلم وانه شئ لا ينقسم وليس بذى طول ولا عرض ولا عمق وان الانبياء تحي الموتى وهذا كله عند الدهري مستنكر وانما كان يكون له علينا سبيل لو لم يكن الذى ذكرنا جائزا فى القياس واحتجنا الى تثبيت الربوبية وتصديق الرسالة فاذا كان ذلك جائزا وكان كونه غير مستنكر ولا محال ولا ظلم ولا عيب فلم يبق له الا أن يسألنا عن الاصل الذي دعا الى التوحيد والى تثبيت الرسل وفي كتابنا المنزل الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التى جاء بها من جاء به وفيه مسطور ان سليمان بن داود غبر حينا وهو ميت معتمدا على عصاه في الموضع الذى لا يحجب عنه انسي ولا جني والشياطين منهم المكدود بالغل الشديد ومنهم المحبوس والمستعبد وكانوا كما قال الله تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات) وقال (والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد) وانه غبر كذلك حينا وهو تجاه أعينهم فلاهم عرفوا سجية وجوه الموتي ولا هو اذ كان ميتا سقط سقوط الموتي وثبت قائما معتمد على عصاه وعصاه ثابتة قائمة فى يده وهو قابض عليها وليست هذه الصفة صفة موتانا وقال (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا

فى العذاب المهين) ونحن دون الشياطين والجن في صدق الحس ونفوذ البصر ولو كنا من بعض الموتي بهذا المكان لما خفي علينا أمره وكان أدنى ذلك ان نظن ونرتاب ومتى ارتاب قوم وظنوا وماجوا وتكلموا وشاوروا ولقنوا وثبتوا ولا سيما اذا كانوا في العذاب وراوا تباشير الفرج ولولا المعرفة التى يلقيها الله تعلي على قلب من أحب وأن الله يقدر على ان يشغل الاوهام كيف شاء ويذكر بما يشاء وينسي ما يشاء لما اجتمع أهل داره وقصره وسوره وربضه وخاصته ومن يخدمه من الجن والانس والشياطين على الاطباق بانه حي كذلك كان عندهم لحدث ماحدث من موته فلما لم يشعروا به كانوا على مالم يزالوا عليه فعلمنا أن الجن والشياطين كانت توهم الاغبياء والعوام والحشوة والسفلة أن عندها شيئاً من علم الغيب والشياطين لا تعلم ذلك فاراد الله أن يكشف من أمرهم للجهال ما كان كشفه للعلماء فبهذا وأشباهه من الامور نحن الى الاقرار به مضطرون بالحجج الاضطرارية فليس لخصومنا حيلة الا أن يوافقونا وينظروا فى العلة التى اضطرتنا إلى هذا القول فان كانت صحيحة فالصحيح لا يوجب الا الصحيح وان كانت سقيمة علمنا أن ما أوتينا من تأويلنا وأما قوله (لاعذبنه) فان التعذيب يكون بالحبس كما قال الله عز وجل (لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) وانما كانوا محبوسين وقد يقول العاشق لمعشوقته يامعذبتى وقد عذبتيني ومن العذاب مايكون طويلا ومنه مايكون قصير الوقت ولو خسف الله تعالى بقوم في أقل من عشر ساعات لجاز لقائل أن يقول كان ذلك يوم أحل الله عذابه ونقمته ببلاد كذو كذا (وقال أبو ناصرة الخنزير ربما قتل الاسد) وما أكثر ما يلحق بصاحب السيف والرمح فيضربه بنابه فيقطع كل ما لقيه من جسده من عظم وعصب حتى يقتله وربما احتال أن ينتطح على وجهه على الارض فلا يغني ذلك عنه شيأ وليس لشئ من الحيوان كاحتمال بدنه لوقع السهام ونفوذها فيه وهو مع ذلك أروغ من ثعلب اذا أراده الفارس واذا عدا أطمع فى نفسه كل شئ واذا طولب أعيا الخيل العتاق والخنزير مع ذلك أنسل الخلق لان الخنزيرة تضع عشرين خنوصا وهو مع كثرة أنساله من أقوى الفحول على السفاد ومع القوة على السفاد هو أطولها مكثا فى سفاده فهو بذلك أجمع الفحولة بهذا واذا كان الكلب

والذئب موصوفين بشدة القلب لطول الخطم فالخنزير أولى بذلك وللفيل ناب عجيب ولكنه لقصر عنقه لا يبلغ الباب يقصرعنه ولا يبلغ به الناب مبلغا وانما يستعين بخرطومه وخرطومه هو أنفه والخطم غير الخرطوم قال أبو ناصرة وله طيب وهو طيب لحمه ولحم أولاده واذا أرادوا وصف اختلاف ودك الكركرى في مرق طبيخ قالوا كان اهالته أهالة خنزير لانه لا يسرع اليها الجمود وسرعة جمود أهالة الماعز في الشتاء عيب وللضأن في ذلك بعض الفضيلة على الماعز ولا يلحق بالخنزير واذا نقص من الانسان عظم واحتيج الي صلتة في بعض الامراض لم يلتحم به الاعظم الخنزير واذ ضرب فصاح لم يكن السامع يفصل بين صوته وبين صوت صبي مضروب وفى إطباق جميع الامم على شهوة أكله واستطابة لحمه دليل على أن له في ذلك ماليس لغيره والمجوس تزعم أن المنخنقة والموقوذة والمتردية وكلما اعتبط ولم يمت حتف أنفه فهو أطيب لحماً وأحلى لان دمه فيه والدم حلو دسم وإنما عافه من عافه من طريق العادة والديانة لا من طريق الاستقذار والزهد الذى يكون في أصل الطبيعة وقد عاف قوم الجرى والضباب على مثل ذلك وشغف به آخرون وقد كانت العرب فالجاهلية تأكل دم الفصد وتفضل طعمه وتخبر عما يورث من القوة قال وأي شئ أحسن من الدم وهل اللحم الادم استحال كما يستحيل اللحم شحما ولكن الناس اذا ذكروا معناه ومن أين يخرج وكيف يخرج كان ذلك كاسراً لهم ومانعاً من شهوته وكيف حال النار فى حسنها فانه ليس في الارض جسم لم يصبغ أحسن منه ولولا معرفتهم بقتلها واحراقها واتلافها والالم والحرقة المولودين عنها لتضاعف ذلك الحسن عندهم وإنهم ليرونها فى الشتاء بغير العيون التى يرونها بها فى الصيف ليس ذلك الا بقدر ما حدث من الاستغناء عنها وكذلك جلاء السيف فان الانسان يستحسن قد السيف وخرطه وطبعه وبريقه واذا ذكر صنيعه والذى هيئ له بداله فى أكثر ذلك وتبدل في عينه وشغله ذلك عن تأمل محاسنه ولولا علم الناس بعداوة الحياة لهم وأنها وحشية لا تأنس ولا تقبل أدبا ولا ترعى حق تربية ثم رأوا شيئا من هذه الحياة البيض المنقشة الظهور لما بيتوها ونوموها الا فى المهد مع صبيانهم فيقال لصاحب هذه المقالة تحريم الاغذية إنما يكون من طريق العبادة والمحنة وليس

أن جوهر شيء من المأكول يوجب ذلك وانما قلنا إنا وجدنا الله تعالى قد مسخ عباداً من عباده في صور الخنزير فكان المسخ على صورته أبلغ من التنكيل لم نقل الا هذا (والقرد يضحك) ويطرب ويقمى ويحكي ويتناول الطعام بيديه ويضعه في فيه وله أصابع وأظفار وينقي الجوز ويأنس الانس الشديد ويلقن بالتلقين الكثير واذا سقط في الماء غرق ولم يسبح كالانسان قبل أن يتعلم السباحة فلم تجد الناس للذى اعترى القرد من ذلك دون جميع الحيوان علة الا هذه المعاني التى ذكرتها من مناسبة الانسان من قبلها ويحكى عنه من شدة الزواج والغيرة على الازواج ما لا يحكى مثله الا عن الانسان لان الخنزير يغار وكذلك الجمل والفرس الا أنها لا تزاوج والحمار يغار ويحمى عانته الدهر كله ويضرب فيها كضربه لو أصاب أتانا من غيرها وأجناس الحمام تزاوج ولا تغار واجتمع في القرد الزواج والغيرة وهما خصلتان كريمتان واجتماعهما من مفاخر الانسان على سائر الحيوان ونحن لم نر وجه شيء غير الانسان أشبه صورة وشبها على ما فيه من الاختلاف ولا أشبه فما ووجها بالانسان من القرد وبما رأينا بعض وجه الحمر اذا كان ذا خطم فلا نجد بينه وبين القرد إلا اليسير وتقول الناس أكيس من قشة وأملح من رباح ولم يقل أحد أكيس من خنزير وأملح من خنوص وهو قول العامة القرد قبيح ولكنه مليح وقال الناس في الضب إنه مسخ وقالوا انظر الى كفه وأصابعه فكيف والقرد أصابعه أشبه وأصنع فقدمت القرد على الخنزير من هذا الوجه (وأما) القول في لحمه فانا لم نزعم أن الخنزير هو ذلك الانسان الذى مسخ ولا هو من نسله ولم ندع لحمه من جهة الاستقذار لشهوته في العذرة ونحن نجد الشبوط والجرى والدجاج والجراد يشاركنه في ذلك ولكن للخصال التى عددنا من أسباب العبادات وكيف صار أحق بان تمسخ الأعداء على صورته في خلقته قال وقلت مرة لعبيد الكلابي وأظهر من حب الإبل والشغف بها ما دعاني الى ان قلت له أبينها وبينكم قرابة قال نعم لها فينا خؤولة إني والله ما أعني البخاتى ولكني أعني العراب التي هي أعرب قلت له مسخك الله تعالى بعيرا قال ألله لا يمسخ الانسان على صورة كريم وانما يمسخه على صورة لئيم مثل الخنزير والقرد فهذا قول إعرابي جاف تكلم علي فطرته وقد تكلم المخالفون في

قوله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) وقد طعن ناس في تأويل هذه الآية بغير علم ولا بيان فقالوا وكيف يكون ذلك وليس بين أن يجيء في كل هلال فرق ولا بينها اذا جاءت فى رأس الهلال فرق ولا بينها اذا جاءت في رأس السنة فرق وهذا بحر البصرة والابلة يأتيهم ثلاثة أشهر معلومة معروفة السمك الاشبور فيعرفون وقت مجيئه وينتظرونه ويعرفون وقت انقطاعه ومجيء غيره فلا يمكث بهم الحال الا قليلا حتى يقبل السمك من ذلك البحر فى ذلك الاوان فلا يزالون فى صيد ثلاثة أشهر معلومة من السنة وذلك فى كل سنة مرتين لكل جنس ومعلوم عندهم أنه يكون فى أحد الزمانين أسمن وهو الجراف ثم يأتيهم الاشبول على حساب مجيء الاشبول والجراف فاما الاشبول فهو يقطع اليهم من بلاد الزنج وذلك معروف عند البحريين وان الاشبول في الوقت الذى يقطع إلى دجلة البصرة لا يوجد في الزنج وفى الوقت الذى يوجد فى الزنج لا يوجد فى دجلة وربما اصطادوا منها شيأ في الطريق فى وقت قطعها المعروف وفي وقت رجوعها ومع ذلك أصناف من السمك كالارسان والرق والكوسج والبردوالكرنوح كل ذلك معروف الزمان متوقع المخرج وفى السمك أوابد وقواطع وفيها سيارة لا تقيم وذلك الشبه يصاب ولذلك صاروا يتكلمون بخمسة السنة يهدونها سوى ما تعلقوا به من غيرها ثم القواطع من الطير قد تأتينا إلى العراق منهم فى ذلك الا بان جماعات كثيرة تقطع الينا ثم تعود في وقتها قلنا لهؤلاء القوم لقد أصبتم في بعض ما وصفتم وأخطأتم فى بعض قال الله تعالى (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) ويوم السبت يدور مع الاسابيع والاسابيع تدور مع شهور القمرية وهذا لا يكون مع استواء من الزمان وقد يكون السبت في الشتاء والصيف والخريف وفيما بين ذلك وليس هذا من باب أزمان قواطع السمك وهيج الحيوان وطاب السفاد وازمان الفلاحة وأوقات الجزر والمد وفى سبيل الانواء والشجر كيف ينقض الورق والثمار وكيف تسلخ الحيات والايائل كيف تلقي قرونها والطير كيف تنطق ومتي تسكت ولو قال لنا قائل

إني نبي قلنا له وما آيتك وما علامتك فقال اذا كان في آخر تشرين الآخر أقبل اليكم الاشبور من جهة البحر ضحكوا منه وسخروا به ولو قال اذا كان يوم الجمعة أو يوم الاحد أقبل اليكم الاشبور حتى لا يزال يصنع ذلك فى كل جمعة علمنا اضطراراً اذا عاينا الذى ذكر على نسقه أنه صادق وأنه لم يعلم ذلك الا من قبل خالق السمك تعالى الله عن ذلك وقد أقررنا بعجيب ما نري من مطالع النجوم ومن تناهي المد والجزر على قدر امتلاء القمر ونقصانه وزيادته ومحاقه وإسراره واستدارته وكل شيء يأتى على هذا النسق من المجاري فانما الآية فيه لله وحده على وحدانيته فاذا قال قائل لاهل شريعة ولاهل مرسى من أصحاب بحر أونهر أوواد أوعين أو جدول تأتيكم الحيتان فى كل سبت أو قال في كل رمضان ورمضان متحول الازمان فى الشتاء والصيف والربيع والخريف والسبت يتحول في جميع الازمان فاذا كان ذلك كانت تلك الاعجوبة فيه دالة على توحيد الله تعالى وعلى صدق صاحب الخبر وأنه رسول ذلك المسخر لذلك الصنف فكان ذلك المجيء خارجاً من النسق القائم والعادة المعروفة وهذا الفرق بذلك بين والحمد لله قال الله تعالى (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وفى الموضع الذى ذكر أنه مسخ ناساً خنازير وقد ذكر القرود ولم يذكر أنه مسخ قوماً قرود ولم يمسخ منهم خنازير واذا كان الامر كذلك فالمسخ على صورة القرد أشنع اذ كان المسخ على صورتهما أعم وكان العقاب به أكبر وان الوقت الذى قد ذكر أنه قد مسخ ناساً قروداً فقد كان مسخ ناساً خنازير فلم يدع ذكر الخنازير وذكر القرود الا والقرود في هذا الباب أوجع وأشنع وأعظم فى العقوبة وأدل على شدة السخط هذا قول بعضهم قال ويقال لموضع الانف من السباع الخطم والخرطوم وقد يقال ذلك للخنزير والفنطيسة والجمع الفناطيس وقال الاعرابى * كان فناطيسها كراكر الابل * وقال صاحب المنطق لايكون خنزير ولا أيل بحريا وذكر أن خنازير بعض البلدان يكون لها ظلف واحد ولا يكون بارض نهاوند حمار لشدة برد الموضع ولان الحمار صرد وقال في أرض كذا وكذا لا يكون بها شيء من الخلد وإن نقله انسان اليها لم يحفر ولم يتخذ بها بيتا وفى الجزيرة التي تسمي صقلية لا يكون بها صنف من النمل الذي يسمى

أقرشان وأهل الكتابين ينكرون أن يكون الله تعالى مسخ الناس قروداً وخنازير وانما مسخ إمرأة لوط حجراً كذلك يقولون

القول في الحيات

اللهم جنبنا التكلف واعذنا من الخطل واحمنا من العجب بما يكون منا والثقة بما عندنا واجعلنا من المحسنين (حدثنا أبو جعفر) المكفوف النحوي العنبرى وأخوه روح الكاتب ورجال من بني العنبر أن عندهم في رمال بالعنبر حية تصيد العصافير وصغار الطير باعجب صيد زعموا أنها إذا انتصف النهار واشتد الحر فى رمال بالعنبر وامتنعت الارض على الحافى والمنتعل ورمض الجندب غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ثم انتصبت كانها رمح مركوز أوعود ثابت فيجيء الطائر الصغير اوالجرادة فإذا رآى عودا قائما وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس الحية على انها عود فاذا وقع على رأسها قبضت عليه فان كان جرادة أوجعلا أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها وان كان الواقع على رأسها طائرا يشبعها مثله أكلته وانصرفت وان ذلك دأبها ما منع الرمل جانبه في الصيف والقيظ فى انتصاف النهار والهاجرة وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود وانه سيقوم له مقام الجذل للحرباء الى ان يسكن الحر ووهج الرمل وفي هذا الحديث من العجب ان تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود وفيه قلة أكتراث الحية بالرمل الذى عاد كالجمر وصلح أن يكون ملة وموضعا للخبزة ثم يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من اعاجيب ما فى الحيات (وزعم لى) رجال من الصقالبة خصيان وفحول ان الحية في بلادهم تأتي البقر فتنطوي على فخذي البقرة وركبتيها الى عراقيبها ثم تشخص صدرها نحو اخلاف ضرعها حتى تلتقم الخلف فلا تستطيع البقرة أن تترمرم فلا تزال تمص اللبن وكلما مصت استرخت فاذا كادت تتلف ارسلتها وزعموا أن تلك البقرة اما أن تموت واما ان يصيبها فى ضرعها فساد شديد تعسر مداواته والحية تعجب باللبن واذا وجدت الافاعي الاناء غير مخمر

كرعت فيه وربما مجت فيه ماصار في جوفها فيصيب شارب ذلك اللبن أذى ومكروه كثير ويقال ان اللبن محتصر وقد ذهب ناس الى العمار على قولهم إن الثوب المعصفر محتصر فظن كثير من العلماء أن المنى في اللبن انما رجع الى الحيات والحية تعجب باللفاح والبطيخ وبالحرف والخردل المزخرف وتكره ريح السذاب والشيح كما تكره الوزغ ريح الزعفران وليس في الارض شئ جسمه مثل جسم الحية الا والحية اقوى بدنا منه أضعافا ومن قوتها انها اذا أدخلت رأسها فى جحرها أو فى صدع الى صدرها لم يستطع أقوى الناس وهو قابض على ذنبها بكلتى يديه ان يخرجها لشدة اعتمادها وتعاون أجزائها وليست بذى قوائم لها أظفار أو مخالب لها أظلاف تنشبها في الارض تتشبث بها وتعتمد عليها وربما انقطعت في يد الجاذب لها من انها لدنة ملساء علكة فيحتاج الرفيق فى أمرها عند ذلك ان يرسلها من يديه بعض الارسال ثم ينشطها كالمختطف والمختلس وربما انقطع ذنبها فى يد الجاذب لها فاما أذناب الافاعي فانها تنبت ومن عجيب مافيها من هذا الباب أن نابها يقطع بالكار فينبت حتى يتم نباته فى أقل من ثلاث ليال والخطاف في هذا الباب خلاف الخنزير لان الخطاف اذا قلعت احدى عينيه رجعت وعين البرذون يركبها البياض فيذهب فى أيام يسيرة وناب الافعي يحتال له بان يدخل فى فيها حماض أترج ويطبق لحييها الاعلى على الاسفل فلا تقتل بعضتها أياما صالحة والمغناطيس الجاذبة للحديد اذا حك عليه الثوم لم يجذب الحديد والافعى لاتدور عينها فى رأسها وهى تلد وتبيض وذلك أنها اذا طرقت بيضها تحطم في جوفها فترمي بفراخها أولادا حتى كأنها من الحيوان الذى يلد حيوانا مثله وفى الافاعى من العجب انها تذبح حتى يفرى منها كل ودج فتبقى كذلك أياما لاتموت فأمرت الحاوى فقبض على خرزة عنقها فقلت له افبضها من الخرزة التى تليها قبضا رفيقا ففتح بينها بقدر سم الابرة حتى بردت ميتة وزعم أنه قد ذبح غيرها من الحيات فعاشت على شبيه بذلك ثم انه فصل تلك الخرزة على مثال ماصنع بالافعى فماتت بأسرع من الطرف وكل شئ ممسوخ البدن ليس بذي أيد ولا رجل فإنه يكون شديد البدن كالسمك والحية وزعم أحمد بن غالب قال بأعني حواء ثلاثين افعي بدينارين واهدي الى خمسا اصطادها من

قبالة القاب فى تلك الصحارى على شاطىء دجلة قال واردتها للترياق فقال لى حين جاءنى بها قل لى من يعالجها فقلت فلان الصيدلانى فقال ليس عن هذا سألتك قل لى من يذبحها ويسلخها قال قلت هذا الصيد لانى بعينه قال أخاف أن يكون مغروراً من نفسه انه والله ان اخطأ موضع المفصل من قفاها وحركته أسرع من البرق فإن كان لا يحسن ولايدري كيف يتغفله فينقره نقرة لم يفلح بعدها أبداً ولكني سأتطوع لك بأن أعمل ذلك بين يديه قال فبعثت اليه وكان رأسه الحونة فيغفل الواحدة فيقبض على قفاها باسرع من الطرف ثم يذبحها فإذا ذبحها سال من أفواهها لعاب ابيض فيقول هذا هو السم الذى يقتل قال فجالت يده جولة وقطرت من ذلك اللعاب قطرة على طرف قميص الصيد لانى قال فتغشى ذلك القاطر حتى صار في قدر الدرهم العظيم ثم إن الحواء امتحن ذلك الموضع فتهافت فى يده وبقيت الافاعي مذبوحة فى الطست يكدم بعضها بعضاً حتى أمسينا قال وبكرت على أبى رجاء الى باب الجسر أحدثه بالحديث فقال لى وددت أنى رأيت موضع القطرة فى قميص الصيد لانى قال فوالله ما رمت حتى مر مى الى الصيد لانى فاريته موضعه واصحابنا يزعمون ان لعاب الافاعى لايعمل فى الدم الا أن احمد بن المثني زعم أن من الافاعى جنسا لا يضر الفراريج من بين الاشياء ولا أدري اى الخبرين أبعد أخبر ابن غالب فى تفسيخ الثوب اوخبر ابن المثني فى سلامة الفروج على الأفعى (وزعم) محمد بن الجهم أن العيون التى تضيء بالليل كأنها مصابيح عيون الاسد والنمور والسنانير والأفاعي فبينا نحن عنده اذ دخل عليه بعض من يجلب الافاعي من سجستان ويعمل الترياقات ويبيعها أحياء ومعمولة فقال له حدثهم بالذى حدثتني به من عين الافعى قال نعم كنت في منزلى نائما فى ظلمة وقد كنت جمعت رؤوس أفاعي كن عندي لارمي بها واغفلت تحت السرير رأسا واحداً ففتحت عيني تجاه السرير فى الظلمة فرأيت ضياء الا أنه ضئيل ضعيف رقيق فقلت عين غول أو بعض أولاد السعالى وذهبت نفسى في الوان من المعانى فقمت فقدحت ناراً وأخذت المصباح مني ومضيت نحو السرير فلم اجد تحته الا رأس أفعى فأطفأت السراج ونمت وفتحت عيني فاذا ذلك الضوء على حاله فنهضت فصنعت كصنيعي الأول

حتى فعلت ذلك مرارا قال فقلت آخر مرة لا أرى شيئاً الا رأس أفعي فلو نحيته فنحيته وأطفأت السراج ثم رجعت الى منامي ففتحت عيني فلم أر الضوء فعلمت أنه من عين الافعى ثم سألت عن ذلك فاذا الامر حق واذا هو مشهور في أهل هذه الصناعة قال وربما قبض الرجل الشديد الاسر والقوة القبضة على قفا الحية فتلتف عليه فتصرعه وفى صعودها وفى سعيها خلف الرجل الشديد الحضر أو عند هربها حتى تفوت وتسبق وليست بذات قوائم وانما تنساب على بطنها وفى تدافع اجزائها وتعاونها فى حركتها الكل من ذات نفسها دليل على افراط قوة بدنها ومن ذلك أنها لا تمضغ وانما تبتلع فربما كان في البضعة أو فى الشيء الذى ابتلعته عظم فتاتى جذم شجرة أو حجرا شاخصا فتنطوي عليه انطواء شديدا فيتحطم ذلك العظم حتى يصير رفاتا ثم يقطع ذنبها فينبت ثم تعيش فى الماء ان صارت فى الماء بعد ان كانت برية وتعيش في البر بعد ان طال مكثها فى الماء وصارت مائية قال وانما أتتها هذه القوة واشتدت فقر ظهرها هذه الشدة لكثرة أضلاعها وذلك ان لها من الاضلاع عدد أيام الشهر وهي مع ذلك أطول الحيوان عمرا ويزعمون أن الحية لا تموت حتف أنفها وإنما تموت بعرض يعرض لها ومع ذلك فإنه ليس فى الحيوان شيء هو أصبر على جوع من حية لانها ان كانت شابة فدخلت في حائط صخر فتتبعوا موضع مدخلها بوتد أو بحجر ثم هدموا هذا الحائط وجدوها هناك منطوية وهي حية فالشابة تذكر الضمر عند هذه العلة فان هرمت صغرت فى بدنها وأقنعها النسيم ولم تشته الطم وقد قال الشاعر وهو جاهلي

فابعث له من بعض أعراض اللمم * لميمة من حنش أعمي أصم
قد عاش حتى هو لا يمشى بدم * فكلما أقصد منه الجوع سم

وهذا القول لهذا المعني وفى هذا الوجه يقول الشاعر

داهية قد صغرت من الكبر * صل صفاما ينطوى من القصر
طويلة الاطراف من غير تفر * كأنما قد ذهبت بها الفكر
جاء بها الطوفان أيام زخر

(ومن أعاجيبها) أنها وان كانت موصوفة بالشره والنهم وسرعة لا ابتلاع فلها في الصبر

فى أيام الشتاء ماليس للزهيد ثم هي بعد يصير بها الحال الى أن تستغني عن الطعم ثم قد يزعمون أن بمصر دويبة يقال لها النمس يتخذها الناطور اذا اشتد خوفه من الثعابين لان هذه الدابة تنقبض وتنضم وتتصال وتستدق حتى كأنها فريدة أوقطعة حبل فاذ عضها الثعبان وانطوي عليها زفرت وأخذت بنفسها وزخرت جوفها فانتفخ فتفعل ذلك وقد انطوى عليها فتقطعه قطعا من شدة الزخرة وهذا من أعجب الاحاديث والثعابين احدى القواتل ويزعمون أنها ثلاثة أجناس لاينجع فيها رقية ولاحيلة كالثعبان والافعى والهندية ويقال إن ماسواها فانما يقتل مع مايعدها من الفزع فقد يفعل الفزع وحده فكيف إذا قارنه سمها ان لم يقتل أمرض ويزعمون أن رجلا قال تحت شجرة فتدلت عليه حية منها فعضت رأسه فانتبه محمر الوجه فحك رأسه ويلتفت فلم ير شيأ فوضع رأسه ينام وأقام مدة طويلة لا يرى بأسا فقال له بعض من كان رآى حاله ثم تقاصها عنه وهو وبها منه هل علمت من أى شئ كان انتباهك تحت الشجرة قال لا والله ماعلمت قال بلى فان الحية الفلانية نزلت عليك حتى عضت رأسك فلما جلست تقاصت عنك وتراجعت ففزع فزعة وصرخ صرخة كانت فيها نفسه وكأنهم توهموا أنه لما فزع واضطرب وقد كان ذلك السم مغمورا ممنوعا فزال مانعه واوغله ذلك الفزع حتى تفتحت منافسه الى موضع الصميم والدماغ وعمق البدن فانحل موضع العقد الذى انعقدت عليه أجزاؤه وأخلاطه وأنشد الاصمعى * ونكشة تنهشه بمنبذ *

وأنشد لابى دواد الايادى

فأتانى تفخيم كعب الى المنـ * ـطق ان النكيشة الاخام

قال فالفزع إما ان يكون يوصل السم إلى المقاتل واما ان يكون معينا له كتعاون الرجلين على نزع وتراهم لا يجزمون على ان الحية من القواتل البتة الا ان تقتل اذا عضت النائم والمغشي عليه والطفل الغرير والمجنون الذي لا يعقل وحتى تجرب عليه الادوية وكنت يوما عند أبي عبد الله أحمد بن أبي دواد وكان أخذ داود عنده سامويه وابن ماسوية وبختيشوع بن جبريل فقال هل ينفع الترياق من نهشة أفعي فقال بعضهم اذا عضت الافعي فادركت قبل ان تنقلب نفع الترياق وان لم تدرك لم ينفع لانهم ان قللوا

من الترياق قتله السم وان كثروا منه قتله الفاضل عن مقدار الحاجة قلت فان ابن العجوز خبرني بانها ليست تنقلب لمج السم وافراغه ولكن الافعى في نابها عصل واذا عضت استفرغت ادخال الناب كله وهو احجن اعصل فيه مشابه من النقص فاذا انقلبت كان أسهل لنزعه وسله فاما لصب السم وافراغه فلا قال والله لعله ما قلت ما اسرع ما شككت ثم قلت له فانما وضعوا الترياق واجتلبوا الافاعي وضعوا وعزموا على انه لاينفع الا بدرك الافعي قبل ان تنقلب وكيف صار الترياق بعد الانقلاب لا يكون الا في احدى منزلتين اما أن يقتل بكثرته واما أن لا ينفع بقلته فكان الترياق ليس نفعه الا المنزلة الوسطى التي لا تكون فاضلة ولا ناقصة ولكني اقول لك كيف يكون نفعه اذا كان الترياق جيدا قويا وعوجل فسبق المقدار الاوسط قبل ان يبلغ الصميم ويغوص في العميق وعلى هذا وضع وهم كانوا احزم واحذق من ان يتكلفوا شيئا ومقداره من النفع لا يوصل الى معرفته ويقول بعض الحذاق ان سقى الترياق بعد النهش بساعة او ساعتين موت المنهوش ثم قلت له وما علمك وبأى سبب علمت أنها تمج من جوف نابها شيئا ولعله ليس هنالك الا مخالطة جوهر ذلك الناب لدم الانسان او لسنا قد نجد من الانسان من بعض صاحبه فيقتله ويكون معروفا بذلك وقد تقرون أن الهندية والثعبان يقتلان إما لمخالطة الريق الدم وإما لمخالطة السن الدم من غير ان تدعوا ان أسنانهما مجوفة وقد اجمع جميع أصحاب التجارب ان الحية تضرب بقصبة فتكون اشد عليها من العصا وقد يضرب الرجل على جسده بقضبان اللوز وقضبان الرمان وقضبان اللوز أعلك وألدن ولكنها اسم وقضبان الرمان أخف وأسخف ولكنها أعطب وقد يطؤ الانسان على عظم حية أو إبرة عقرب وهما ميتتان فيلقى الجهد وقد يخرج السكين من الكير وهو محمي فيغمس في اللبن فمتى خالط الدم قام مقام السم من غير أن يكون مج في الدم رطوبة غليظة أو رقيقة وبعض الحجارة يكوي بها وهو رخو الاورام حتي يفرقها او يحمصها من غير أن يكون نفذ اليها شيء منه وليس الا الملاقاة فان قلت ولعل قوي قد انفصلت من أنياب الافاعي الى دماء الناس وقد رووا أنه قيل لجالينوس إن هاهنا رجلا يرقى العقارب فتموت أو

تنحل فلا تعمل فرآه يرقيها ويتفل عليها فدعا به بحضرة جماعة وهو على الريق ودعا بغدائه فتغدى معه ثم دعي له بالعقارب فتفل عليها فلم يجد لعابه يصنع شيأ الا أن يكون ريقا وهو حديث يدور بين أهل الطب وأنت طبيب فلم أره في يومه ذلك قال شيأ الا من طريق الحزر والحدس والبلاغات وسموم الحيات ذوات الانياب والعقارب ذوات الابر إنما تعمل في الدم بالاجماد والاذابة وكذا سموم ذوات الشعر والقرون والجم إنما تعمل فى العصب ومنها مايعمل في الدم وحدثني بعض أصحابنا قال كنت إما برماى وأما بباري وهما بلاد حيات وأفاعي ونحن فى عرس اذ أدخلوا الخدر العروس فابطؤا عليه شيأ فاغني وتلوت على ذراعه أفعى فذهب ينفضها وحجمت على ذراعه وقد يقال ذلك اذا كانت العضة في صورة شرط الحجام فصرخ وجاؤا يتعادون فوجدوها فقتلوها وسقوه فى تلك الليلة لبن أربعين عنزاً كلما استقر في جوفه قعب من ذلك اللبن قاء فيخرج منه كأمثال الفحال الابيض فيه طرائق من دسم تعلوه خضرة حتى استوفى ذلك اللبن كله قال فعندها قال شيخ من أهل القرية ان كنتم أخرجتم ذلك السم فقد أخرجتم نفسه معه قال فغبر أياماً بأسوء حال ثم مات قال وكنت أعجب من سرعة إستحالة اللبن وجموده قلت والحيات البرية اذا هرمت تنسمت النسيم فاكتفت به وكذلك الضباب اذا هرمت قال ولا يكون ذلك للمائية من حيات الغياض وشطوط الانهار ومنافع المياه قال والحيات المائية إما أن تكون برية أو جبلية فاكتسحتها السيول واحتملتها فى كثير من أصناف الحشرات والدواب والسباع فتوالدت تلك الحيات وتلاقحت هناك وأما أن تكون كانت أمهاتها وآباؤها فى حيات الماء وكيف دارت الامور فان الحيات فى أصل الطبع مائية وهي تعيش فى الندى وفي الماء وفى البر وفي البحر وفى الصخر والرمل ومن طباعها أن ترق وتلطف على شكلين أحدهما لطول العمر والآخر للبعد من الريف وعلى حسب ذلك تعظم فى المياه والغياض قال وكل شيء في الماء مما يعايش السمك مما أشبه الحيات كالماء ماهي والانكليس وأنها كلها على ضربين فاحدهما من أولاد الحيات انقلبت بما عرض لها من طباع البلد والماء والآخر من نسل سمك وحيات وتلاقحت اذ كان السمك قريباً من طباع

تلك الحيات والحيات في الاصل مائية وكلها كانت حيات وقد زعم أهل البصرة أن مسان الكوفة قريباً من مسان البصرة قلبته البلدة ويزعم أهل الحجاز أن نخل النار جيلي هو نخل المقل ولكنه انقلب لطباع البلدة وأشباه ذلك كثير ويزعمون أن الفيلة مائية الطباع بالجاموسية والخنزيرية التي فيها قال والذئب أيضاً وان كان عنده الهرم منها لا يجتزى بالنسيم فانه من الحيوان الذي يفتح فاه للنسيم ليبرد جوفه من اللهيب الذي يعترى السباع ولان ذلك يمد قوته ويقطع عنه ببرودته ولطافته الريق فان كان ذاسحر احتشى ريحا وربما جاع الاسد ففعل فعل الذئب فالاسد والذئب يختلفان في الجوع والصبر لان الاسد شديد النهم رغيب حريص شره وهو مع ذلك يحتمل أن يبقى أياما لا يأكل شيأ والذئب وان كان أقفر منزلا وأقل خصبا وأكثر كداً وإخفاقا فلابد له من شيء يلقيه في جوفه فاذا لم يجدشيأ استعار النسيم والناس اذا جاعوا واشتد جوعهم شدوا على بطونهم العمائم فان استقلوا والا شدوا الحجز وأنشدوا

كسيد الغضى العادى أضل جراءة * على شرف مستقبل الريح يلحب

كانه يجمع استدخال الريح والنسيم فلعله أن يجد ريح جرائه وقال الراجز

يستخبر الريح اذا لم يسمع * بمثل مقراع الصفا الموقع

والظليم يكون على بيضه فيشم ريح القانص من أكثر من غلوة ويبعد * عن رئاله فيشم ريحها من مكان بعيد وأنشدني يحيي بن لجيم بن زمعة قال * أشم من هيق وأهدى من جمل * وأنشدني عمر بن كركرة * مازال يشتم اشتمام الهيق * قال وإنما جعله ذئب غضاً لانهم يقولون ذئب الخمر أخبث ويقولون شيطان الحماطة يريدون الحية وكل حية خفيفة الجسم فهي شيطان والثقال لاتنشط من أرض الى أرض وتثقل عن متابعه المستطيلات الخفاف وقال طرفة

تلاعب مثنى خضرمى كانه * تعمج شيطان بذى خروع قفر

الكرماني عن أنس ولا أدري من أنس هذا في صفة ناقة

شنا حية فيها شناح كانه * حباب بكف الشاء من أسطع حشر

والحباب الحية الذكر وكما يقولون ذئب الخمر يقولون أرنب الخلة وتيس الرمل وضب

السحا والسحا بقلة تحسن حاله من أكلها وكذلك يقولون ماهو الا قنفذ برقة لانه يكون أخبث له وذلك كله على قدر طبائع البلدان والاغذية العاملة في طبائع الحيوان ألا تري أنهم يزعمون أن من دخل أرض تبت لم يزل ضاحكا مسروراً من غير عجب حتى يخرج منها ومن أقام بالموصل حولا ثم تفقد قوته وجد فيها فضلا ومن أقام بالاهواز حولا فتفقد قوته ذو فراسة وجد النقصان فيه بينا كما يقال في حمى خيبر وطحال البحرين ودماميل الجزيرة وقال الشماخ

كأن قطاة خيبر زودته * بكور الورد رنقه القلوع

وقال أوس بن حجر

كأن به أدحية خيبرية * يعود عليه وردها وقلالها

وقال آخر * كأن حمي خيبر تمله * وكذلك القول في وادى جحفة وفى مهيعة وفي أصول النخل حيث كان وقال عبد الله بن همام السلولى فى دماميل الجزيرة

أتيح له من سوطة الحي جانب * غليظ القيصرى لحمه متفاوس

تراه اذا يمضي يحك كأنما * به من دماميل الجزيرة ناخس

فحدثني أبو زفر الضارى قال مات ضرار بن عمرو وهو ابن تسعين سنة بالدماميل قلت والله ان هذا لعجب قال كلا انما احتملها من الجزيرة وكذلك القول في طواعين الشام قال أحد بنى المغيرة فيمن مات منهم بطواعين الشام ومن مات منهم بطعن الرماح أيام تلك المغازى

من ينزل الشام ويعرس به * فالشام ان لم يفنه كاذب

أفني بني ريطة فرسانهم * عشرين لم يقصص لهم شارب

ومن بني اعمامهم مثلهم * لمثل هذا عجب العاجب

طعن وطاعون منایاهم * ذلك ما خط لنا الكاتب

قال ولما قدم عبد الله بن الحسن بن الحسن رضى الله عنهم على عمر بن العزيز رضى الله عنه فى حوائج له فلما رأى مكانه بالشام وعرف سنه وسمته وعقله ولسانه وصلاته وصيامه فلم يكن شئ أحب اليه من أن لا يراه أحد من أهل الشام فقال له إني أخاف

عليك طواعين الشام فانك لن تغنم أهلك أكثر منك فالحق بهم فان حوائجك ستسبقك اليهم ثم قدم على هشام فكره عبدالله ان يدخل منزله حتى يأتيه في ثياب سفره مخافة شرطته فلما اعلمه الحاجب مكانه ودخل عليه وعاينه كره ان يقيم بها طرفة عين قال اذكر حوائجك قال احط رحلي واضع ثياب سفرى واتذكر حوائجى قال انك ان تجدني فى حال خيرا لك مني الساعة يريد ان القلوب ارق ما تكون اذا تلاقت العيون عن بعد عهد وليس ذلك اراد والعامة تنشد

من يسكن البحرين يعظم طحاله * ويغبط بما فى بطنه وهو جائع

ونظر دكين الراجز الى بن العباس محمد بن ذؤيب الفقيمي الراجز وهو غليم مصفر مطحول وهو يمتح على بكرة ويرتجز فقال من هذا العماني فلزمته هذه النسبة وحدثني يوسف الزنجي انه لابد لكل من قدم من شق العراق الى بلاد الزنج ان لا يزال جربا ما أقام بها وان أكثر من شرب نبيذها أو شراب النار جيل طمس الخمار على عقله حتي لا يكون بينه وبين المعتوه الا الشئ اليسير وخبرني كم شئت من الغزاة أن من أطال الصوم بالمصيصة في أيام الصيف هاج به المرار وان كثيرا منهم قد جنوا من ذلك الاحتراق فاما قضية الاهواز فانها قلبت كل من نزلها من بني هاشم الى كثير من طباعهم وشمائلهم ولا بد للهاشمي قبيح الوجه كان أو حسنا أو دميما كان أو بارعا رائعا من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب فلقد كادت البلدة ان تنقل ذلك فتبدله ولقد تخفيه وأدخلت الضيم عليه وبينت أثرها فيه فما ظنك بصنيعها فى سائر الاجناس ولفساد عقولهم ولؤم طبع بلادهم لاتراهم مع تلك الاموال الكثيرة والضياع الفاشيه يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الامصار على الثروة واليسار وان طال ذلك والمال منهبة كما تعلمون وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ولا يرضى للسانه بمثل الذي كان يرضاه قبل ذلك وليس فى الارض صناعة مذكورة ولا أدب شريف ولا مذهب محمود لهم فى شئ منه نصيب وان حسن ولم أرّ بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية ولا دما ظاهرا ولا قريبا من ذلك وهى قتالة للغرباء وعلى أن حماها خاصة ليست للغريب

باسرع منها الي القريب ووباها وحماها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان وكل محموم في الارض فان حماه لاتنزع عنه ولا تفارقه وفى بدنه منها بقية فاذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة الى ان يعود إلى الخلط وأن يجمع فى جوفه الفساد وليست كذلك الاهواز لانها تعاود من نزعت عنه من غير حدث كما تعاود أصحاب الحدث لانهم ليسوا يؤتون من قبل النهم ومن قبل الخلط والاكثار وانما يؤتون من عين البلدة وكذلك جمعت سوق الأهواز الافاعي فى جبلها الطاعن فى منازلها المطل عليها والجرارات فى بيوتها ومقابرها ومنابرها ولو كان فى العالم شيء هو شر من الافعى والجرارة لما قصرت قصبة الاهواز عن توليده وتلقيحه وتليينه انها من ورائها سباخ ومناقع مياه غليظة وفيها أنهار تسقيها مسائل كنفهم ومياه أمطارهم ومتوضئهم واذا طلعت الشمس وطال مقامها وطالت مقابلتها لذلك الجبل قبل الصخرة التى فيها تلك الجرارات فاذا امتلأت يبسا وحرارة وعادت جمرة واحده قذفت ماقبلت من ذلك عليهم وقد تحدث السباخ وتلك الانهار بخارا فاسدا فاذا التقى عليهم ماتحدث السباخ وماقذفه ذلك الجبل فسد الهواء وبفساد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء وحدثني ابراهيم بن عباس بن محمد بن منصور عن شيخه من أهل الاهواز عن القوابل أنهن ربما قبلن الطفل المولود فيجدنه في تلك الساعة محموما يعرفن ذلك ويتحدثن به ويعرض لفراخ الحيات مثل الذى يعرض لفراخ الخطاطيف فان نازعا لو نزع عيون فراخ الخطاطيف وفراخ الحيات لعادت بصيرة وزعم ان السلحفاة والرق والضفدع مما لابد له من التنفس ولابد لها من مفارقة الماء وأنها تبيض وتكتسب الطعم وهي خارجة من الماء وذلك للنسب التى بينها وبين الضب وان كان هذا بريا وهذا بحريا ويزعمون أنما كان فى البر من الضب والورل والحرباء والحلكى وشحمة الارض والوزغ والعظاء مثل الذي فى البحر من السلحفات والرق والتمساح والضفدع وان تلك الاجناس البرية وان اختلفت فى أمورها فانها قد تتشابه في أمور وان هذه الاجناس البحرية من تلك ككلاب الماء من كلاب الارض وقد زعم صاحب المنطق ان تلك الحية من سام أبرص من العظاء والتمساح تسكن فى أعشتها اربعة أشهر شديدة البرد لا تطعم شيأ وان سائر الحيات

تسكن بطن الارض فاما الافاعي فانها تسكن فى صدوع الصخر وليس لشئ من الحيوان من الصبر عن الطعم مالهذه الاجناس وإن الفيل ليناسبها من وجهين أحدهما من طول العمر فان منها ماقد عاش أربعمائة سنة والوجه الآخر ان الفيلة مائية وأن كان بعضها لايسكن الماء قال وسمعت يونس بن حرب يقول داهية القبر قال وقيل ذلك لانها ربما سكنت بقرب ماء إما غدير وإما عين فتحس ذلك الموضع وربما غبر ذلك الماء فى المنقع حينا وقد حمته وقال الكذاب الحرمازى

يابن المعلي نزلت احدى الكبر * داهية الدهر وصماء العبر

قال وسأل الحكم بن مروان بن زنباع عن بني عبد الله بن غطفان قال ان أيقظتها لسعتك وان تركتها لم تضرك وذكر عن سعيد بن صخر قال نهش رجل من أهل البادية كثير المال فاشفى على الموت فأتاهم رجل فقال أنا أرقيه فمان تعطونى فارقوه عن ثلاثين درهما فرقاه وسقاه أشياء ببعض الاخلاط فلما أفاق قال الراقى والمداوى حتى قال الملدوغ وما حقه قالوا ثلاثون درهما قال أعطيه من مالى ثلاثين درهما في نفثات نفثها وحمض سقاه لا تعطوه شيأ وحدثني بعض أصحابنا عن سكر الشطرنجى وكان أحمق القاصين وأحذقهم بلعب الشطرنج وسألته عن خرق كان فى خزامة أنفه فقلت له ما كان هذا الخرق فذكر أنه خرج الى الجبل يتكسب بالشطرنج فقدم البلدة وليس معه الا درهم واحد وليس يدرى أينجح أم يخفق ويخد وصاحبه الذى اعتمده أيجده أم لا فورد على حواء وبين يديه جون عظام فيها حياة جليله والحية اذا عضت لم تكن غايتها النهش والعض وإن ترضي بالنهش ولكنها لا تعض الا للاكل والابتلاع وربما كانت الحيات عظاما جدا ولا سموم لها ولا تنقر بالعض كحيات الجولان وفى البادية حية يقال لها الخناث والخناث من الحيات تأكل الفار وأشباه الفار ولها وعيد منكر ونفخ واظهار للصولة وليس وراء ذلك سيما والجاهل ربما مات من الفزع منها وربما جمعت الحية السم وشدة الجرح والعض والابتلاع وخطم العظم فوقف سكر على الحواء وقد أخرج من جونته أعظم حيات فى الارض وادعى نفوذ الرقية وجودة الترياق فقال له سكن خذمني هذا الدرهم وارقني رقية لا

تضرني معها حية أبدا قال فانى افعـل قال فارسـل قبل ذلك حية حتى ترقيني بعـد ان تعضني فان أفقت علمت ان رقيتك صحيحة قال فاني أفعل فاختر أيتهن شئت فأشار الى واحدة مما تعض للاكل دون السم فقال دع هذه فان هذه ان قبضت على لحمك لم تفارقك حتى تقطعك قال فاني لا أريد غـيرها وظن أنه انمازواها عنه لفضيلة فيها قال أما اذ أبيت الا هذه فاختر موضعا من جسـدك حتى أرسلها عليه فاختار أنفه فناشده وخوفه فأبى الا ذلك أو يرد عليه درهمه فأخذها الحواء وطواها على يده كى لايدعها تنكر فتقطع أنفه من أصله ثم أرسلها عليه فلما أنشبت أحدنابيها في شق أنفه صرخ عليه صرخة جمعت عليه أهل تلك البلدة ثم غشى عليه فأخذ الحواء فوضع فى السجن وقتلوا تلك الحيات وتركوه حتى أفاق كأنه أجن الخلق فتطوعوا بحمله فحملوه مع المكارى وردوه الى البصرة وبقى أثرنابها في أنفـه الى ان مات قال وأشـياء من الحشرات لاتتخذ لنفسها ولا لبيضـها ولا أولادها بيوتا بل تظلم كل ذى جحر جحره فتخرجـه منه أو تأكله إذ ثبت لهـا والعرب تقول للمسـيء أظلم من حية لان الحية لاتتخذ لنفسها بيتاً وكل بيت قصدت نحوه هرب أهله منه وأخلوه لها والورل يقول على الحيات ويأكلها أكلا ذريعاً وكل شـدة يلقاها ذو جحر منها فهي تلقى مثل ذلك من الورل والورل ألطف جرما من الضب وزعم انهم يقولون أظلم من ورل كما يقولون أظلم من حية وكما يقولون أظلم من ذئب ويقولون من اسـترعى الذئب ظلم وبراثن الورل أقوى من براثن الضب والضباب تحفرا جحرتها في الكدا والورل لا يحفر لنفسه بل تخرج الضب من بيتـه فتزعم الاعراب أنهاإنمـا صارت لايحفر لان أسنانها أكل من أسنان الفار فهي لاترى ان تعانى ذلك وحفر غيرها ومعاناته يكـفيها وفي ضرب المثل بظلم الحية يقول مضرس بن لقيط

لعمرك إنى لو أخاصم حية * الى فقعس ما انصفتني فقعس

اذا قلت مات الداء بيني وبينهم * سعا حاطب منهم لآخر يقبس

فما لـكم طلسى الى كانكم * ذآب الغضى والذئب بالليل أطلس

وجعله اطلس لانه حين تشتد ظلمة الليل فهو أخفى له ويكون حينئذ اخبث له وأضرى

وقال جرير بن نشبة العدوي لبني جعفر بن كلاب وضرب جور الحية والذئب في الحكم مثلا فقال

كأنني حين احبو جعفرا مِدَحِي * اسقيهم طرق ماء غير مشروب
ولو اخاصم أفعي نابها لثق * او الاساود من صم لاهاضيب
لكنتم البا معها وكان لها * باب باسفل ساق اوبعرقوب
ولو اخاصم ذئبا في اكيلته * لجاءني جمعكم يسعى مع الذيب

قال والحية واسعة الشحو والفم لها خطم ولذلك ينفذنا بها وكذلك كل فم واسع الشحو كفم الاسد فاذا اجتمع له سعة الشحو وطول اللحيين وكان ذا خطم وخرطوم فهو اشد له كالخنزير والذئب والكلب ولو كان لرأس الحيه خطم كان اشد لعضها ولكنه جلد قد انطبق على عظمين رقيقين مستطيلين بفكها الاعلى والاسفل وكذلك اذا اهوى الرجل بحجر أو عصي رأيتها تلوى رأسها وتحتال فى ذلك وتمنعه بكل حيله لانها تعلم وتحس بضعف ذلك الموضع منها وهو مقتل وما اكثر ما يكون في اعناقها تخصير ولصدورها اغباب وذلك فى الافاعى اعم وذلك الموضع المستدق انما هو شيء كهيئة الخريطة وكهيئة فم الجراب ضم الانسناء ٢ مثنى الغضون فاذا شئت ان تفتح انفتح لك فم واسع ولذلك قال إبراهيم بن هانيء كان فتح فم الجراب يحتاج الى ثلاثة أيد ولولا ان الحمالين قدجعلوا أفواههم بدل اليد الثالثة لقد كان ذلك ممتنعا حتى يستعين بيد إنسان وهذا مما يعد في مجون ابن هانئ وكذلك حلوق الحيات واعناقها وصدورها قد تراها فتراها في العين رقيقة ولا سيما اذا افرطت فى الطول وهى تبتلع فراخ الحمام والحية انهم واشره من الاسد والاسد يبلع البضعة العظيمة من غير مضغ وذلك لما فيه من فضل الشره وكذلك الحية وهما واثقان بسهولة وسعة المخرج مما عظمها وزاد في فزع الناس منها الذي يرويه اهل الشام واهل البحرين واهل إنطاكية وذلك انى رأيت الثلث الاعلى من منارة مسجد انطاكية أظهر جدة من الثلثين الاسفلين فقلت لهم ما بال هذا الثلث الاعلى اجد واطرى قالوا لان تسميتنا ترفع من بحرنا هذا فكان لا يمر بشيء الاهلكه فمر على المدينة في الهواء محاذيا لرأس هذا المنارة

وكان اعلى مما هى عليه فضربه بذنبه ضربة خرقت من الجميع اكثر من هذه المقدار فاعادوه بعد ذلك ولذلك اختلاف فى المنظر ولم يزل أهل البقاع يتدافعون امر التنين ومن العجب انك تكون فى مجلس وفيه عشرون رجلا فيجرى ذكر التنين فينكره بعضهم واصحاب التثبيت يدعون العيان والموضع قريب ومن يعاينه كثير وهذا اختلاف شديد والاعراب تقول في الاصلة قولا عجيبا تزعم ان الحية التى يقال لها الاصلة لا تمر بشئ الا احترق مع تهاويل كثيرة وأحاديث شنيعة وتزعم الفرس أن الاجد هاني اعظم من البعير وأن لها سبعة رؤوس وربما لقيت ناسا فتبتلع من كل جهة فم ورأس انسانا وهو من أحاديث الباعة اوالعجائز وقد زعم صاحب المنطق انه قد ظهرت حية لها رأسان فسئلت اعرابيا عن ذلك فزعم أن ذلك حق فقلت له فمن اى جهة الراسين تسعي ومن ايهما تأكل وتعض فقال فاما السعى فلا تسعي ولكنها تسعي الى حاجتها بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل واما الأكل فانها تتعشي بفم وتتغدى بفم واما العض فانها تعض برأسيها معا فاذا به اكذب البرية وهذه الاحاديث كلها مما يزيد فى الرعب منها وفى تهويل امرها ومثل شأن التنين مثل امر غرانق الاسد فان ذكره يجرى في المجالس فيقول بعضهم انا رأيته وسمعته وربما زاد فى الرعب منها والاستهالة لمنظرها قول جميع المحدثين ان من اعظم ما خلق الله الحية والسرطان والسمك وتقول الاعراب ان الحية اطول عمرا من النسر وان الناس لم يجد واحية قط ماتت حتف انفها وانما تموت بالامر الذى يعرض لها وذلك لأمور منها قولهم إن فيها شياطين وان فيها من مسخ وأن ابليس انما وسوس الى آدم والى حواء من جوفها وزعم لى الفضل بن اسحاق انه كان لابيه (١) وأن طول كليهما تسعة عشر ذراعا ومن الحيات الجرد والزعر وذلك فيهما من (٢) ومنها ذوات شعر ومنها ذوات قرون وانما تخلق لها في كل عام قشر وغلاف فاما مقادير اجسامها فقط واما الجلود فإن الارميني زعم أنه كان عندهم رجل يتقشر من جلده وينسلخ فى كل شهر مرة قال فجمع ذلك فوجد فيه ملء جراب او قال اكثر وأما الذي لاأشك في انه قد زاد فى اقدارها فى

---

(١) بياض بالاصل (٢) بياض آخر بالاصل

النفوس وعظم من اخطارها وهول من امرها ونبه على ما فيها من الآية العجيبة والبرهان النير والحجة الظاهرة في قلب العصا حية وفي ابتلاعها ما هول به القوم وسحروا من اعين الناس وجاؤا به من الافك قال الله عز وجل (وقال موسى يافرعون انى رسول من رب العالمين حقيق على أن لا اقول على الله الا الحق (الى) فارسل معى بني اسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين) الى قوله (فألقوا حبالهم وعصيهم) فان قلت انه انما حول العصا ثعبانا لانهم جاؤا بحبال وعصي لخولوها في اعين الناس كانها حيات فلذلك قلب الله العصا حية على هذه المعارضة ولو كانوا حين سحروا اعين الناس جعلوا حبالهم وعصيهم ذآبا فى اعين الناس ونمور الجعل الله عصى موسى ذئبا او نمرا فلم يكن ذلك لخاصة فى بدن الحية قلنا الدليل على باطل ما قلتم قول الله تعالى (وما تلك بيمينك ياموسى قال هي عصاى أتوكأ عليها واهش بها على غنمي ولى فيها مآرب اخرى قال القها ياموسى فالقاها فاذا هى حية تسعى) وقال الله عز وجل (اذ قال موسى لاهله انى آنست نارا) الى قوله (والق عصاك فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى اقبل ولا تخف انك من الامنين) فقلبت العصا جاناً وليس هناك حبال ولا عصى (وقال الله لئن اتخذت إلهـا غيري لا جعلنك من المسجونين) قال اولو جئتك بشيء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقي عصاه فأذا هى ثعبان مبين فقلب العصا حية كان فى حالات شتا فكان هذا مما زاد في قدر الحية وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال فى دعائه ان لا يميته الله لديغا وتأويل ذلك انه صلى الله عليه وسلم مستعاذ بالله ان يموت لديغا وأن تكون ميتته بأكل هذا العدو الا وهو من اعداء الله بل من اشدهم عداوة وقال النبي صلى الله عليه وسلم اشد الناس عذابا يوم القيامه من قتل نبيا او قتله نبى كانه كان فى المعلوم ان النبي لا يقتل احدا ولا يتفق ذلك إلا فى شرار الخلق ويدل على ذلك الذي اتفق من قتل ابى بن خلف بيده والنضر بن الحارث وعقبة بن ابى معيط ومعاوية بن ابي المغيرة بن أبي العاصى صبرا وحدث عن عبد الله بن ابي هند قال حدثنى صيفى بن ابي ايوب انه سمع ابا بشير الانصاري يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من

هؤلاء السبع كان يقول اللهم اني اعوذ بك من الهدم واعوذ بك من التردى واعوذ بك من الغم والفرق واعوذ بك من الحرق والهدم واعوذ بك ان يتخبطني الشيطان عند الموت واعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرا واعوذ بك أن اموت لديغا وطلحة ابن عمرو قال حدثنى عطاء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اللهم إني أعوذ بك من الاسد الاسود واعوذ بك من الهدم قال ويقال للحية صفرت تصفر صفيرا والرجل يصفر بالطير للتنفير وبالدواب وببعض الطير للتعليم وتخذ الصفارة للحمام وللطير فى المزارع قال اعشي همدان يهجوا رجلا

واذا جثا للزرع يوم حصاده * قطع النهار تأوها وصفيرا

والحية مشقوقة اللسان سوداؤه وزعم بعضهم ان لبعض الحيات لسانين وهذا عندي غلط واظن أنه لما رآى افتراق طرفى اللسان قضى بأن له لسانين ويقال بأن للضب أيرين ويسمي إير الضب طرك قال الشاعر

كضب له طركان كانا فضيلة * على كل حاف في الانام وناعل

قال أبو خلف النمري سئل أبو حية النميرى عن اير الضب فزعم ان اير الضب كلسان الحية الاصل واحد والفرع اثنان وبعض أصحاب التفسير يزعم ان الله عاقب الحية حين أدخلت ابليس في جوفها حتى كلم آدم وحواء وخدعهما على لسانها بعشر خصال منها شق اللسان قالوا فلذلك ترى الحية اذا ضربت للقتل كيف تخرج لسانها لترى الضارب عقوبة الله كانها تسترحم وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك الا لحية كانت عنده تتكلم ولولا ذلك لانكر آدم كلامها وإن كان ابليس لا يحتال الا من جهة الحية ولا يحتال بشيء غير مموه ولا مشبه قال ويقال أرض محواة ومحياة من الحيات كما يقال أرض مضببة ومضبة من الضباب وفأرة من الفار وقال الاصمعي فى تفسير قولهم في المثل هذا أجل من الحرش ان الضب قال لابنه اذا سمعت صوت الحرش فلا تخرجن قال وذلك أنهم يزعمون ان الحرش تحريك اليد عند جحر الضب ليخرج اذا ظن أنه حية قال وسمع ابنه صوت الحفر فقال يا أبة هذا الحرش قال يا بنى هذا أجل من الحرش فارسلها مثلا (أسماء ما يأكل الحيات) بين الحيات وبين الخنازير عداوة والخنازير

تأكلها أكلا ذريعاً وسموم ذوات الانياب من الحيات ومن ذوات الابر سريعة فى الخنازير وهي تهلك عند ذلك هلاكا وشيكا فلذلك لاترضي بقتلها حتي تأكلها وتأكل الحيات العقبان والايايل والاراوى والاوعال والسنانير والشاهمرك والقنفذ الا أن القنفذ أكثر مايقصد الى الافاعي وإنما يظهر بالليل قال الراجز * قنفدليل دائم التجاب * وهذا الراجز هو أبو محمد الفقعسى وكذلك يشبه النمام والمداخل والدبيس بالقنفذ لخروجه بالليل دون النهار ولاحتياله للافاعي قال عبدة بن الطبيب .

أعصو الذى يلقي القنافذ بينكم * متنصحا وهو السمام الانقع
يرخى عقاربه ليبعث بينكم * حرباً كما بعث العروق الاخدع
حران لا يشفى غليل فؤاده * عسل بماء في الاناء مشعشع
لا تأمنوا قوماً يشب صبيهم * بين القوابل بالعداوة ينشع

وهذا البيت الآخر يضم الى مجنون بني عامر .

أتانى هواها قبل ان أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ويضم اليه قول ابن أود الطينة * تقتل الطبائع ما كانت لينة * ثم قال عبدة ابن الطبيب فى صلة الابيات التى ذكر فيها القنفذ والنميمة

ان الذين ترونهم خلانكم * يشفى صداع رؤسهم ان تصرعوا
قوم اذا دمس الظلام عليهم * جدعوا قنافذ بالنميمة تمزع

وهذا الشعر من غرر الاشعار وهو مما يحفظ وقال الاودى

كقنفذ القن لاتخفى مدارجه * خب اذا نام عند الناس لم ينم

وفى عهد آل سجستان على العرب حين افتتحوها لاتقتلوا قنفذا ولا ورلا تصيدونه لانها بلاد أفاعى وأ كثر ما يجتلب أصحاب صنعة الترياق والحواون الافاعي من سجستان وذلك كسب لهم وحرفة ومتجر ولولا كثرة قنافذها لما كان لهم بها قرار والقنفذ لايبالى أى موضع قبض من الافعى وذلك أنه ان قبض على رأسها أوعلى قفاها فهي مأكولة على أسهل الوجوه وان قبض على وسطها أو على ذنبها جذب ما قبض عليه فاستدار وتجمع ومنحه سائر بدنه فتى فتحت فاها لتقبض على شيء منه

لم تصل الى جلده مع شوكه النابت فيه والافعى تهرب منه وطلبه لها وجرأته عليها على حسب هربها منه وضعفها عنه وأما قولهم أضل من حية وأضل من ورل وأضل من ضب فاما الحية فانها لاتتخذ لنفسها بيتا والذكر لايقيم فى الموضع وإنما يقيم على بيضها بقدر ماتخرج فراخها وتقوى على الكسب والتماس الطعم ثم تصير الانثى سيارة فتى وجدت جحرا دخلت واثقة بان الساكن فيه بين أمرين إما أقام فصار طعما لها وإما هرب فصار البيت لها ما أقامت فيه ساعة كان ذلك من ليل أو نهار وقد رأيت بيض الحياة وكسرتها لأتعرف مافيها فإذا هو بيض مستطيل اكدر اللون أخضر وفى بعضه هش ولمع فاذا داخله فلم أر فيحافظ ولا صديد اخرج من جرح فاسد إلا والذى في بيضها أسمج منه واقذر ويزعمون انها كثيرة البيض جدا وأن السلامة فى بيضها دون ذلك وان بيضها يكون منضدا في جوفها طولا على عرار واحد وعلى خيط واحد وهي طويلة البطن والارحام وعدد اضلاعها عدد ايام الشهر وكان ذلك بعض ما زاد في شدة بدنها كنت بعجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحدة نحو ارزة حرره أبو بكر السروكني (والخلق الكثير الذر) الدجاج والضب اكثر بيضا من الدجاجة والخنزيرة تضع عشرين خنوصا ويخرج من اجواف العقارب عقارب صغار كثيرة العدد جدا وعامة العقارب اذا حبلت كان حتفها في اولادها لان اولادها اذا استوى خلقها اكلت بطون الامهات حتى تثقبها وتكون الولادة من ذلك الثقب فتخرج والامهات ميتة وأكثر من ذلك كله ذرء السمك لان لانسان لو زعم أن بيضة واحدة من بعض الاشبور عشرة آلاف بيضة لكان ذلك لعظم ماتحمل ولدقة جثته وصغره ولكن يعتريها أمران أحدهما الفساد والآخر أن الذكورة فى أوان ولادة الاناث تتبع أذنابها فكلما زحرت بشئ التقمته والتهمته ثم السمك بعد ذلك فى الجملة إنما طبعها أن يأكل بعضها بعضاً ويزعمون أن الكثرة فى الاولاد انما تكون من العفن واللخن وعلى قدر كثرة المائية وقلتها فذهبوا الى أن أرحام الروميات والنصرانيات أكثر لخنا ورطوبة لان غسل الفروج بالماء البارد مراراً فى اليوم مما

يطيب الارحام وينفي اللخن والعفن ويزعمون أن المرأة اذا كان فرجها نظيفاً وكانت معطرة قوية المنة قل حملها فان أفرطت فى السمن عادت عاقرا وسمان الرجال لا يكاد يعتريهم ذلك وكذلك العاقر من إناث الابل والبقر والغنم والنخل اذا قويت النخلة وكانت شابة وسمن جمارها صارت عاقرا لا تحمل فيحتالون عند ذلك بادخال الوهن عليها وقد طعن فى ذلك ناس فقالوا إن فى الضب على خلاف ماذكر ثم قد تبيض الانثى سبعين بيضة فيها سبعون حسلا ولولا أن الضب يأكل ولده لانتفشت الصحارى ضباباً والضب لايحفر الا في كدية وفي بلاد العرار واذا هرمت تبلغت بالنسيم وهذا كله مما يستدل به على بعض طبعها من اللخن والعفن قيل لهم قد يمكن أن يكون ذلك كذلك فى جميع صفاتها الا في أرحامها فقط وليس للحيات سفاد معروف ينتهي اليه علم ويقف عليه عيان وليس عند الناس في ذلك الا الذى يرون من ملاقاة الحية والتواء كل منهما على صاحبه حتي كأنهما زوج خيزران مفتول أو خلخال مفتول فأما أن يقفوا على عضو يدخل أو فرج يدخل فيه فلا والعرب تذكر الحيات باسمائها وأجناسها فاذا قالوا أيم فانما يريدون الذكر دون الانثى ويذكرونه عند جودة الانسياب وخفة البدن كما تذكر الشعراء فى صفة الخيل والجرادة الذكر دون الانثي فهم وان ألحقوا لها فانما يريدون الذكر قال بشر بن أبي خازم * جرادة هبوة فيها إصفرار * لان الانثى لا تكون صفراء وانما الموصوف بالصفرة الذكر لان الانثي تكون بين حالتين إن جلى بيضها فهي مثقلة وإما أن تكون مرأت وقذفت بيضها فهى أضعف ما تكون قال الشاعر

أتذهب سلمى فى اللمام ولا ترى * وفى الليل أيم حيث شاء يسيب

واذا انسابت فى الكثبان والرمل يبين مواضع مزاحفها وعرفت آثارها وقال آخر

كان مزاحف الحيات فيها * قبيل الصبح آثار السياط

وكذلك يعرفون آثار العظاء وأنشد ابن الاعرابى

بها ضرب أذناب العظاء كأنها * ملاعب ولدان تخط وتمصع

وقال الآخر وهو يصف حيات

كان مراحفها انسع * جررن فرادى ومثناتها

وقال ثمامة الكلبي

كأن مزاحف الهذلى صباحا ٥ خدود رضائع خذلت تواما

والهذلى من الحيات قال جرير أو غيره

ومن ذات إصفاء سهوب كأنها * مزاحف هذلى بينها متباعد

وقال بعض المحدثين وذكر حال البرامكة كيف كانت والى أى شيء صارت

واذا نظرت الى الثري بعراصهم * قلت الشجاع بها ثوى والارقم

وقال البعيث

فتي حملته أمه وهى ضيفة * فجاءت بيتن للضيافة أرشما

مدافع جرعات كان عروقها * مسارب حيات يسربن سمسما

ولا ثوب ولا جناح ولا ستر عنكبوت الا وقشر الحية أحسن منه وأرق وأخف وأنعم وأعجب صنعة وتركيباً ولذلك وصف كثير قميص ملك فشبهه بسالخ الحية حيث يقول

اذا ما أفاد المال أودي بفضله * حقوق فكره العاذلات يوافقه

يجرر سربالا عليه كأنه * سبيء لهذلى لم تقطع سرادقه

والسبيء السالخ والجلد قال الشاعر * وقد نصل الاظفار وانسبأ الجلد * وتزعم العرب ان النعام والافعي صم لاتسمع وكذلك هما من بين جميع الخلق وسنذكر من ذلك فى هذا الموضع طرفاً ونؤخر الباقى الى الموضع الذى نذكر فيه جملة القول في النعام وقد ابتلينا بضربين من الناس ودعواهما كبيرة احدهما يبلغ من حبه للغريب ان يجعل سمعه هدفا لتوليد الكذابين وقلبه قرار الغرائب الزور ولكلفه بالغريب وشغفه بالطرف لايقف على التصحيح والتميز فهو يدخل الغث فى السمين والممكن في الممتنع ويتعلق بأدنى سبب ثم يدفع عنه كل الدفع والصنف الآخر وهوان بعضهم يرى ان ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم الا من خاف التقذر من الكذب فزعم ناس ان الدليل على ان الافاعي صم قول الشاعر

انعت نضناضا من الحيات * اصم لا يسمع للرقات

وقد ذكروا بالصمم اجناسا من خبيثات الحيات وذهبوا الى امتناعها من الخروج عند

رقية الراقي عند رأس الجحر فقال بعضهم

وذات قرنين من الافاعي * صماء لا تسمع صوت الداعي

ويزعمون أن كل نضناض أفعى وقال آخر

ومن حنش لا يجيب الرقا * ة ارقش ذى حمة كالرشا

أصم سميع طويل السبا * ت منهرت الشدق عارى النسا

فزعم انه أصم سميع فجاز له ان يجعله أصم بقوله ومن حنش لا يجيب الرقاة وقال الآخر

أصم أعمى لا يجيب الرقا * يفتر عن عصل حديدات

والافعى ليس باعمي وعينه لا تنطبق وإن قلمت عينه عادت وهو قائم العين كعين الجرادة كأنها مسمار مضروب ولها بالليل شعاع خفي قال الراعى يصف الافعى

ويدنى ذراعيه اذا ما تبادرا * الى رأس صل قائم العين أسفع

وهذه صفة سليم الافعى فيجوز ان يكون الشاعر وصفها بالتمنع من الخروج بالصمم كما وصفها بالعمى لمكان السبات وطول الاطراق قال الشاعر

أصم سميع طويل السبات * منهرت الشدق عارى القرا

وقال آخر

منهرت الشدق رقود الضحى * سار طمور بالدجنات

وتارة تحسبه ميتاً * من طول إطراق وإخبات

يثبته الصبح وطورا له * نفخ ونقب فى المغارت

ويعلم انه وصف أفعي بقوله

أصم أعمى لا يجيب الرقا * يفتر عن عصل حديدات

* منهرات الشدق رقود الضحى * الخ ثم ذكر أنيابه فقال

قدمن عن ضرسيه واستأخرا * الى صماخين ولهوات

فجعله أعصل الانياب منهرت الاشداق ثم وصفها بالسبات وطول الاطراق وبسرعة النشطة وخفة الحركة اذا همت بذلك وكانت تعظم وقد وصفتها امرأة جاهلية بجميع هذه الصفات الا أنها زادت شيئاً والشعر صحيح وليس فى ايدي اصحابنا من صفة الافاعي

مثلها وقد رأيت عند دواد بن محمد الهاشمى كتابا فى الحيات اكثر من عشرة اجلاد ما يصح منها مقدار جلد ونصف ولقد ولدوا على لسان خلف الاحمر والاصمعي ارجاز اكثيرة فما ظنك بتوليد هم على السنة القدماء ولقد ولدوا على لسان جحشويه في الحلاق اشعار اما قالها جحشويه قط فلو تقذروا من شيء تقذروا من هذا الباب والشعر الذى فى الافعي

قد كاد يقتلني أصم مرقش * من حبكم والخطب غير كبير
خلقت لها زمه عزين ورأسه * كالقرص أفطح من دقيق شعير
ويدير عينا للوقاح كأنها * سمراء طاحت من نفيض برير
وكان ملقاها بكل تنوفة * ملقاك كفة منجل ما طور
وكان شدقيه اذا استعرضته * شدقا عجوز مضمضت لطهور

فقد زعم كما ترى انها تدير عينا وزعم الاول انها قائمة العين الا أن تزعم انها لم ترد بالادارة أن مقلتها تزول عن موضعها ولكنها ارادت انها جوالة فى ادراك الاشخاص البعيدة والقريبة والمتيامنة والمتياسرة وقد يجوز ان يكون إنما جعلها سميعة لدقة الحس وكثرة الاكتراث وجودة الشم لاجودة السمع فان الذين زعموا ان النعامة صماء زعموا أنها تدرك من جهة الشم والعين جميع الامور التى كانت تعرفها قبل السمع لو كانت سميعة وقد قال الشاعر في صفة الحية

تهوى الى الصوت والظلماء عاكفة * تعود السيل لاقي الجيد فاطلعا

هذا بعد ان قال

إني وما تبتغي مني كملتمس * صيدا وما نال منه الري والشبعا
أهوى إلى باب جحر فى مقدمه * مثل العسيب ترى في رأسه نزعا
اللون أربد والانياب شائكة * عصل ترى السم يجرى بينها قطعا
أصم مانم من خضراء أيبسها * أو نم من حجر أوهاه فانصدعا

فقد جعلوا لها أنياباً عصلا ووصفها بغاية الخبث وزعم أنها تسمع فهؤلاء ثلاثة شعراء فان قلت إن المولد لايؤمن عليه الخطأ إذ كان دخيلا فى ذلك الامر وليس كالاعرابي

الذى انما يحكى الموجود الظاهر له الذي عليه نشأ وبمعرفته غذى فالعلماء الذين اتسعوا فى علم العرب حتى صاروا اذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم هم الذين نقلوا الينا وسواء علينا جعلوه كلاماً أو حديثا منثورا أوجعلوه رجزا أو قصيدا موزونا ومتى أخبرنى بعض هؤلاء بخبر لم أستظهر عليه بمسألة الاعراب ولكنه ان تكلم وتحدث فانكرت فى كلامه بعض الاعراب لم أجعل ذلك قدوة حتى أوقفه عليه لانه ممن لا يؤمن عليه اللحن الخفي قبل التفكر فهذا وما أشبهه حكمه خلاف الاول والرقية تكون على ضروب فمنها الذى يدعيه الحواء والرقاء وذلك يشبه بالذي يدعيه ناس العزئم على الشياطين والجن وذلك أنهم يزعمون أن فى تلك الرقية عزيمة لا يمتنع منها الشيطان فكيف العامر وإن العامر اذا سئل بها أجاب فيكون هو الذى يتولى اخراج الحياة من الصخر فان كان الامر على ما قالوا فما ينبغي أن يكون بين خروج الافاعى الصم وغيرها فرق اذا كانت العزائم والرقا والنفث ليس شيئاً يعمل في نفس الحية وانما هو شيء يعمل فى الذى يخرج الحية واذا كان ذلك فالسميع والاصم فيه سواء وكذلك يقولون فى التحبيب والتبغيض وفى النشرة وحل العقدة وفي التعقيد والتحليل ويزعمون ان الجن لاتجيب صاحب العزيمة حتى يتوحش ويأتى الخرابات والبرارى ولا يأنس بالناس ويتشبه بالجن ويغسل بالماء القراح ويتبخر باللبان الذكر ويراعى المشترى فاذا دق ولطف وتوحش وعزم اجابته الجن وذلك بعد أن يكون بدنه يصلح هيكلا لها حتى يلذ دخوله وأرى منازلها وأن لا يكره ملابسته والكون فيه فان هو ألح عليها بالعزائم ولم يأخذ لذلك أهبته خبلته وربما قتلته لانها تظن أنه متي توحش لها واحتمي وتنطق فقد فرغ وهو لايجيب بذلك فقط حتى يكون المعزم مشاكلا لها فى الطباع فيزعمون ان الحيات إنما تخرج اخراجاً وان الذي يخرجها هو الذى يخرج سمومها من أجساد الناس اذا عزم عليها والرقية الاخرى بما يعرف من التعويذ وقال سمعت أبا عبيدة يقول قد جاءكم أحدكم يسترقيكم فارقوه قال فعوذوه ببعض العوائذ والوجه الآخر مشتق من هذا ومحمول عليه كالرجل يقول مازال فلان يرقى فلاناً حتى لان وأجاب وقد قالت الشعراء في الجاهلية والاسلام في رقى الحيات وكانوا يؤمنون

بذلك ويصدقون به وسنخبر بأقاويل المتكلمين في ذلك وبالله التوفيق ومن زعم ان اخراج الحية من جحرها الى الراقي انما كان للعزيمة والاقسام عليها ولانها اذا فهمت ذلك أجابت ولم تمتنع وكان أمية بن أبى الصلت لايعرف قولهم في ان العمار هم الذين يجيبون العزائم باخراج الحيات من بيوتها وفي ذلك يقول

والحية الذكر الرقشاء أخرجها * من جحرها امنات الله والقسم
إذادعاباسمها الانسان اوسمعت * ذات الاله بدا فى مشيها رزم
من خلفها حمة لولا الذى سمعت * قد كان ثبتها فى جحرها الحمم
ناب حديد وكف غيروا دعة * والخلق مختلف فى القول والشيم
اذا دعين بأسماء أجبن لها * لنافث يفتديه الله والكلم
لو لا مخافة رب كان عذبها * عرجاء تطلع في انيابها غشم
وقد بلته فذاقت بعض مصدقه * فليس في سمعها من رهبة صمم
فكيف يأ منها ام كيف تألفه * وليس بينهما قربى ولا رحم

يقول لو أنها أخرجت حين استحلفت بالله لما خرجت اذ ليس بينهما قربى ولا رحم ثم ذكر الحمة والناب وقال آخرون انما الحية مثل الضب والضبع اذا سمع بالله والهدم والصوت خرج ينظر والحواء إذا دنا من الجحر رفع صوته وصفق بيديه وأكثر من ذلك حتي يخرج الحية كما يخرج الضب والضبع وقال كثير

وسوداء مطراق الي من الصغا * أتي اذ الحانوت دنا؟فضدا لها

والتصدية التصفيق قال الله تعالى وما كان صلاتهم عند البيت الامكاء وتصدية الاية فالمكاء صوت بين النفخ والصفير والتصدية تصفيق اليد باليد فكان الحواء يحتال بذلك للحية ويوهم من حضر انه بالرقية أخرجها وهو فى ذلك يتكلم ويعرض الا ان ذلك صوت رفيع وهو لو رفع صوته ببيت شعر اوبخرافة لكان ذلك والذى يظهر من العزيمة عند الحية سواء وإنما ينكر الصوت كما ينكره الضب وغير ذلك من الوحش ثم قال

كففت يدا عنها وارضيت سمعها * من القول حتى صدقت ما وعي لها
واشعرتها نفثا بليغا فلو ترى * وقد جعلت ان ترعي النفث بالها

تسللتها من حيث ادركها الرقى * الى الكف لما سالمت وانسلالها

فقال كما تري كففت يداعنها وارضيت سمعها البيت ثم قال * واشعرتها نفثا بليغا فلو ترى *

وقال الاعشي

ابا مسمع إني امرؤ من قبيلة * بني لي عزا موتها وحياتها

فلا تلمس الافعى يديك تريدها * اذا ما سعت يوما اليها سمى لها

وقال آخر يدعو به الحية فى أقطاره * فان ابى شم سفا وجاره

والسفا التراب اليابس بين التربين يقال سفا وسفاه والحواء الراقى يري الناس أنه اذا رآى جحر حية لم يخف عليه أجحر حية هو ام جحر شئ غيره فان كان جحر حية لم يخف عليه اهي فيه ام لا ثم اذا رقى وعزم فأمتنعت من الخروج وخاف أن يكون أفعي صماء لا تسمع واذا راءها ليأخذها فاخطأ لم يأمن من أن تنقره نقرة لا يفلح بعدها ابدا فهو عند ذلك يستبرى بأن يشم من تراب الجحر فلا يخفى عليه أهي أفعي ام حية من سائر الحياة فلذلك قال * يدعو به الحية فى اقطاره * البيت والوجار الجحر وزعم لى بعض الحوائين ان للحيات نتنا وسهكا وأن ريح الافعي معروفة وليس شيء اعاق ولا أعق ولا أسرع اخذا لرائحة من طين أو تراب فإنه إذا شم من طينة الجحر لم يخف عليه وقال اعتبر ذلك بهذا الطين السداني والراهطي اذا القي فى الزعفران والكافور او غير ذلك من الطيب فانه متى وضع الي جنب روثة أوعذرة قبل ذلك الجسم والرقاء يوهم الناس اذا دخل دورهم لاستخراج الحيات أنه يعرف أماكنها برائحتها فلذلك يأخذ قصبة ويشعب رأسها ثم يطعن بها في سقف البيت والزوايا ثم يشمها ويقول مرة فيها حيات ويقول مرة بلى فيها حيات على قدر الطمع في القوم وفى عقولهم (وأمر الصوت عجيب وتصرفه فى الوجوه عجب) فمن ذلك أن منه ما يقتل كصوت الصاعقة ومنها مايسر النفوس حتى يفرط عليه السرور فتقلق حتى ترقص وحتي ربما رمى الرجل بنفسه من حالق وذلك مثل هذه الاغاني المطربة ومن ذلك ما يكمد ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشي على صاحبه كنحو هذه الاصوات الشجية والقرا آت الملحنة وليس يعتريهم ذلك من قبل المعانى لانهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم وقد

بكاى ماسرجويه من قراءة ابى الخوخ فقيل له كيف بكيت من كتاب الله ولا تصدق به قال إنما أبكاني الشجا وبالاصوات ينومون الصبيان والاطفال والدواب تصر آذانها إذا غنى المكارى والابل تصر آذانها إذا حدا فى آثارها الحادي وتزداد نشاطاً وتزيد في مشيها وتجمع بها الصيادون السمك فى حظائرهم التي يتخذونها له وذلك أنهم يضربون ببعض معهم ويعطمطون فتقبل اجناس السمك شاخصة الابصار مصغية الى تلك الاصوات حتى تدخل فى الحظيرة ويضرب بالطساس للطير وتصاد بها ويضرب بالطساس للاسد وقداقبلت فتروعها تلك الاصوات وقال صاحب المنطق الايايل تصاد بالصفير والغناء وهي لاتنام ما دامت تسمع ذلك من حاذق الصوت فيشغلونها بذلك ويأتون من خلفها فان رأوها مسترخية الاذان وثبوا عليها وإن كانت قائمة الاذنين فليس اليها سبيل والصفير تسقى به الدواب الماء وتنفر به الطير عن البذور وزعم صاحب المنطق أن الرعد الشديد إذا وافق سباحة السمك فى أعلا الماء رمت ببعضها قبل إنتهاء الاجل فيسمع الرعد الشديد فيتعطل عليها اياما بعد الوقت وقال أبو الوجيه العكلى أحب السحابة الخرساء ولا أحبها فقيل له وكيف ذلك قال لانها لا تخرس حتى تمتلئ ماء وتصب صباً كثيراً ويكون غيثاً طبقا وفي ذلك الحيا الا أن الكماة لا تكون على قدر الغيث ذهب الى ان للرعد فى الكمأة عملا وقال جعفر بن سعيد سأل كسرى عن الكماة فقيل له لا تكون بالمطر دون الرعد ولا بالرعد دون المطر قال فقال كسرى رشوا بالماء وأضربوا بالطبول وكان من جعفر على التملح وقد علم جعفر أن كسرى لا يجهل هذا المقدار فالحية واحدة من جميع أجناس الحيوان الذي للصوت في طبعه عمل فاذا دنا الحواء وصفق بيديه وتكلم رافعاً صوته حتى يزيد خرج اليه كل شيء كان في الجحر فلا يشك من لا علم له أن الحية خرجت من جهة الطاعة وخوف المعصية وأن العامر أخرجها تعظيما للعزيمة ولان المعتزم مطاع فى العمار والعامة أسرع شيء الى التصديق وفى أن البدن هيكل لها يقول سليمان الاعمى وكان اخا مسلم بن الوليد الانصارى وكانوا لا يشكون بأن سليمان هذا الاعمي كان من محي بشار الاعمي وانه كان يختلف اليه وهو غلام فقبل عنه ذلك الدين وهو الذي يقول

إن ذا العلم معتبر * لطلوب العلم مقتبسه

هيكل للروح ينطقه * عرفه والصوت من نفسه

لا تعظ الا اللبيب فما * يعدل الضلع على قوسه

رب مغروس يعاش به * فقدته كف مغترسه

وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الاشياء من عرسه

وكانت العرب تقول كان ذلك إذ كان كل شيء ينطق وكان ذلك والحجارة رطبة قال أمية

وإذهم لا لبوس لهم تقيهم * واذ صم السلام لهم رطاب

بآية قام ينطق كل شيء * وخان أمانة الديك الغراب

وأرسلت الحمامة بعد سبع * تدل على المهالك لاتهاب

تلمس هل ترى فى الارض عينا * وعاينة بها الماء العباب

فجاءت بعدما ركضت بقطف * عليها الناط والطين الكباب

فلما فرسوا الآيات صاغوا * لها طوقا كما عقد السخاب

اذا ماتت تورثه بينها * وإن تقتل فليس له انسلاب

فذكر رطوبة الحجارة وأن كل شيء قد كان ينطق ثم خبر عن منادمة الديك الغراب واشتراط الحمامة على نوح وغير ذلك مما يدل على ما قلنا ثم ذكر الحيه وشأن إبليس وشأنها فقال

كذى الافعى تربيها لديه * وذي الجنى أرسلها تساب

فلا رب البرية يأمنها * ولا الجنى أصبح يستتاب

فان قلت إن أمية كان أعرابياً وكان مدربا وهذا من خرافات أعراب الجاهلية وزعمت أن أمية لم يأخذ ذلك عن أهل الكتاب فانى سأنشدك لعدى بن زيد وكان نصرانيا ديانا وترجمانا وصاحب كتب وكان من دهاة أهل ذلك الدهر قال عدى بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه وكيف دخل فى الحية وان الحية كانت فى صورة جمل فمسخها الله عقوبة لها حين طاوعت عدوه على وليه فقال

قضى لستة ايام خليقة * وكان آخرها أن صور الرجلا

دعاه آدم صوتا فاستجاب له * بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
ثمت أورثه الفردوس يعمرها * وزوجه صنعة من ضلعه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدة * من شجر طيب ان شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء اذ خلقت * كما تري ناقة في الخلق أوجملا
فعمدا للتي عن أكلها نهيا * بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا
كلاهما خاط اذبرا لبوسهما * من ورق التين ثوبا لم يكن غزلا
فلاطها الله اذ أغوت خليفته * طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشي على بطنها في الدهر ماعمرت * والترب تأكله حزنا وإن سهلا
فابقيا أبوانا في حياتهما * وأوجدا الجوع والاوصاب والعللا
وأوتيا الملك والانجيل نقرؤه * نشفي بحكمته أحلامنا عللا
من غير ما حاجة الا ليجعلنا * فوق البرية أربابا كما فعلا

(فرووا) أن كعب الاحبار قال مكتوب في التوراة إن حواء عند ذلك عوقبت بعشر خصال وإن آدم لما أطاع حواء وعصى ربه عوقب بعشر خصال وإن الحية التي دخل فيها ابليس عوقبت أيضاً بعشر خصال وأول خصال حواء التي عوقبت بها وجع الافتضاض ثم الطلق ثم النزع ثم بقناع الرأس ومايصيب الوحم والنفساء من المكروه والقصر في البيوت والحيض وأن الرجال هم القوامون عليهن وان تكون عند الجماع هي الاسفل (وأما خصال آدم) صلى الله عليه وسلم فالذى انتقص من طوله وبما جعله الله يخاف من الهوام والسباع ونكد العيش وبتوقع الموت وبسكني الارض وبالعرى من ثياب الجنة وبأوجاع أهل الدنيا وبمقاساة التحفظ من ابليس وبالمحاسبة بالطرف وبما شاع عليه من اسم العصاة (وأما الحية) فانها عوقبت بنقص جناحها وقطع أرجلها والمشي على بطنها وباعراء جلدها حتى يقال أعري من حية وبشق لسانها ولذلك كلما خافت من القتل أخرجت لسانها لتريهم العقوبة وبما ألقى عليها من عداوة الناس وبمخافة الناس وبجعله لها أول ملعون من اللحم والدم وبالذي ينسب اليها من الكذب والظلم فاما الظلم فقولهم أظلم من حية وأما الكذب فانها تنطوى في الرمل على الطريق

وتدخل بعض جسدها في الرمل فتظهر كأنها طبق خيزران ومنها حيات بيض قصار تجمع بين أطرافها على طرق الناس وتستدير كأنها طوق خلخال أو سوار ذهب أو فضة ولما تلقى على نفسها من السبات ولما تظهر من الهرب من الناس وكل ذلك انما تغرهم وتصطادهم بتلك الحيلة فذلك هو كذبها قال وعوقبت الارض حين شربت دم ابن آدم بعشر خصال أنبت فيها الشوك وصير فيها الفيافى وخرق فيها البحار وملح أكثر مائها وخلق فيها الهوام والسباع وجعلها قراراً لابليس والعاصين وجعل جهنم فيها وجعلها لاتربي ثمرتها الا فى الحر وهي تعذب بهم الى يوم القيامة وجعلها توطؤ بالاخفاف والحوافر والاظلاف والقوادم وجعلها مالحة الطعم ثم لم تشرب بعد دم ابن آدم دم أحد من ولده ولا من غير ولده قال ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لابي مريم الحنفي لأنا أشد لك بغضاً من الارض للدم وزعم صاحب المنطق أن الارض لاتشرب الدم الا يسيراً من دماء الابل خاصة واذا أرادوا أن يمتحنوا جودة العسل من رداءته قطروا على الارض منه قطرة فان استدارت كأنها قطعة زئبق ولم تأخذ من الارض ولم تعطه فهو الماذي الخالص الذهبي فان كان فيه غشوشة نفشت القطرة على مافيها وأخذت من الارض وأعطتها وان لم يقدروا على اللحم الغريض دفنوه وغرقوه فى العسل فانهم متى رجعوا فغسلوه عنه وجدوه غضاً طريا لانه ذهبي الطباع ليس بينه وبين سائر الاجرام شئ فهو لا يعطيه شيئاً ولا يأخذ منه وكذلك الذهب اذا كان مدفونا وهذه الاحاديث وهذه الاشعار تدل على أنهم قد كانوا يقولون إن الصخور كانت رطبة لينة وإن كل شئ قد كان يعرف وينطق وأن الاشجار والنخل لم يكن عليها شوك وقد قال العجاج أو رؤبة

أو عمر نوح زمن الفطحل * والصخر مبتل كطين الوحل

وأنا أظن أن كثيراً مما يحكى عن كعب أنه قال مكتوب في التوراة إنه إنما قال نجد فى الكتب وهو إنما يعني كتب الانبياء والذى يتوارثونه من كتب سليمان وما فى كتبهم من كتب أشعياء والذين يروون عنه فى صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأشباه ذلك فان كانوا صدقوا عليه وكان الشيخ لايضع الاخبار فما كان وجه كلامه

عندنا الاعلى ماقلت لك وفي أن الحيـة قد كانت تسـمع وتنطق يقول النابغة في المثل الذى ضربه وهو قوله

أليس لنا مولى يحب سراحنا * فيعـذرنا من مرة المتناصره
ليهنأ كم أن قد لقيتم بيوتنا * محـل عبيـدان المحـلإ بافره
وإنى للاق من ذوى الضغن نكبة * بلا عثرة والنفس لابد عاثره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها * وما انفكت الامثال في الناس سائره
فقالت له أدعوك للعقل وافراً * ولا تغشيني منك للظلم بادره
فواثقها بالله حتى تراضيا * فكانت تديه الجزع خفياً وظاهره
فلما توفي العـقل الا أقـله * وجارت به نفس عن الخير جائره
تفكر أني يجمع الله شمله * فيصـبح ذا مال ويقتل واتره
فطل على فاس يحـد غرابها * ليقتلها والنفس للقتل حاذره
فلما وقاها الله ضربة فاسه * ولله عـين لا تغمض ناظره
فقال تعالى نجعل الله بيننا * على العقل حتى تنجزى لى آخره [1]
فقالت يمين الله أفعل إنني * رأيتك ختاراً يمينك فاجره
أبا لك قبر لا يزال مواجها * وضربة فاس فوق رأسى فاقره

فذهب النابغة في الحيات مذهب أمية بن أبى الصلت وعدى بن زيد وغيرهما من الشعراء وأنشدنى عبد الرحمن بن كيسان

فكان رطيباً يوم ذلك صخرها * وكان نضيدا طلحها وسيالها

فزعم كما ترى أن الصخور كانت لينة وأن الاشجار الطالح والسيال كانت خضيدة لا شوك عليها وزعم بعض المفسرين وأصحاب الاخبار أن الشوك إنما اعتراها فى صبيحة اليوم الذى زعمت النصارى فيه أن المسيح ابن الله وكان مقاتل يقول حدثنا بذلك أبو عقيل السواق وكان أحد رواته والحاملين عنه أن الصخور كانت لينة وان قدما ابراهيم عليه السلام أثرتا فى تلك الصخرة كتاثير أقدام الناس فى ذلك الزمان الا أن

---

(١) وروي فقال تعالى نجعل الله بيننا * على مالنا أوتجزي لى آخره

الله تعالى توفى تلك الآثار وعفى عليها ومسحها ومحاها وترك أثر مقام ابراهيم صلى الله عليه وسلم والحجة إنما هي فى إفراده بذلك ومحو ماسواه من آثار أقدام الناس ليس أن ابراهيم صلي الله عليه وسلم كان وطئ علي صخرة يابسة فأثر فيها وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة ونعوذ بالله من الهذر والتكلف وانتحال مالا أقوم به أقول إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل فان لم أقل ولولا أصحاب ابراهيم وابراهيم لهلكت العوام من المعتزلة فانى أقول إنه قد أنهج لهم سبلا وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة وأنا أزعم أن الناس يحتاجون ندباً إلى طبيعة ثم الى معرفة ثم إلى إنصاف وأول ماينبغى أن يبتدئ به صاحب الانصاف أمره أن لا يعطى نفسه فوق حقها وأن لا يضعها دون مكانها وان يتحفظ من شيئين فان نجاته لاتتم الا بالتحفظ منهما أحدهما تهمة الالف والآخر تهمة السابق الى القلب والله الموفق وما أكثر مايعرض فى وقت الباب على هذا الكتاب وإطالتي الكلام وأطنابى فى القول بيت ابن هرمة حيث يقول

ان الحديث تغر القوم خلوته * حتى يلج بهم عي وإكثار

وقولهم فى المثل كل مجر في الخلاء يسر وأنا أعوذ بالله ان أغر من نفسى عند غيبة خصمي وتصفح العلماء لكلامي فانى أعلم أن فتنة اللسان والقلم أشد من فتنة النساء والحرص على المال وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه أول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الاعوان والثالثة طول الكتاب والرابعة انى لو تكلفت كتاباً فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتوليد والمداخلة والغرائز والنحاس لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغا لانى كنت لاأفزع فيه الى تلفظ الاشعار وتتبع الامثال واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية مع تفرق هذه الامور في الكتب وتباعد مابين الاشكال فان وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف و من تقطيع نظام و من وقوع الشئ فيغير موضعه فلا تنكر بعد ان صورت عندك حالى التي ابتدأت عليها

كتابي ولولا ماأرجو من عون الله على إتمامه اذ كنت لم ألتمس به الا افهامك مواقع الحجج لله وتصاريف تدبيره والذى أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته لما تعرضت لهذا المكروه فان نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ولا يذهب مذهب التعنت ومذهب من اذا رآي خيراً كتمه واذا رأى شراً أذاعه وليعلم من فعل ذلك أنه قد تعرض لباب إن أخذ بمثله وتعرض له في قوله وكتبه ان ليس ذلك الا من سبيل العقوبة والاخذ منه بالظلامة فلينظر فيه على مثال ماأدّب الله به وعرف كيف يكون النظر والتفكير والاعتبار والتعليم فان الله عزوجل يقول (واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه) فينبغى أن تكون اذا مررت بذكر الآية والاعجوبة في الفراشة والخرجسة أن لاتحقر تلك الآية وتصغر تلك الاعجوبة لصغر قدرهما عندك وقلة معرفتهما عندك معرفتك واصغر أجسامهما عند جسمك ولكن كن عند الذي يظهرلك من تلك الحكم من ذلك التدبير كما قال الله عزوجل (وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء) ثم قال (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) ثم قال الله تعالى (واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه) وقد قال عامر بن عبد قيس الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الاذان وأنا أعيذ نفسى بالله أن أقول الا له وأعيذك بالله أن تسمع الا له وقد قال الله عزوجل (وإن تدعهم الى الهدى لايهتدوا وتراهم ينظرون اليك وهم لايبصرون) فاحذر من أن تكون منهم وممن ينظر الى حكمة الله وهو لايبصرها وان يبصرها بفتح العين واستماع الآذان ولكن بالتوقف من القلب والتثبت من العقل وبتحفيظه وتمكينه من اليقين والحجة الظاهرة ولايراها من يعرض عنها وقد قال الله عزوجل (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون) وقال (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون) ولو كانوا صما بكما وكانوا هم لايعقلون لما عيرهم بذلك كما لم يعير من خلقه معتوها كيف لم يعقل ومن خلقه أعمى كيف لم يبصر وكما لم يلوم الدواب ولم يعاقب السباع ولكنه سمي البصير المتعامي أعمي والسميع المتصامم أصم

والعاقل المتجاهل جاهلا وقد قال الله عز وجل (فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) فانظر كما أمرك الله وانظر من الجهة التى دلك منها وخذ ذلك بقوة قال تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه) (ثم رجع بنا القول الى مافي الحيات من العلم والعبرة والفائدة والحكمة) ولذلك قال أبو ذر الغفارى لقد تركنا رسول الله صلي الله عليه وسلم ومايمر بنا طائر الا وعندنا من شأنه علم وهذا القول صحيح عن أبى ذر ولم يخص أبو ذر خشاش الطير من بغاثها واحرارها ولاما يدخل في بابه الهمج وقد أريناك من تحقيق قوله طرفاً ولعلك ان جمت نظرك الى نظرنا لم تستتم هذا الباب فقد قال الشاعر

خليلي ليس الرأي فى رأي[1] واحد * أشيرا على اليوم ماتريان

وقال الاحنف ما من الناس أحد الا وقد تعلمت منه شيئا حتى من الامة الورهاء والعبد الاوره والحيات مختلفات الجهات جدا وهي من الامم التى يكثر اختلاف أجناسها فى الضرر والسم وفي الصغر والعظم وفي التعرض للناس وفى الهرب منهم فمنها ما لا يؤذي الا ان يكون الناس قد آذوها مرة واما الاسود فانه يحقد ويطالب ويكمن فى المتاع حتى يدرك بطائلته وله زمان يقتل فيه كل شيء نهشه وأما الافعى فليس ذلك عندها ولكنها تظهر فى الصيف مع أول الليل اذا سكن وهج الرمل وظاهر الارض فتأتى قارعة الطريق حتى تستدير وتنطحن كانها رحي ثم تلصق بذنبها بالارض وتشخص رأسها لئلا يدركها السبات معترضة لئلا يطأها انسان او دابة فتنهشه كانها تريد ان لا تنهش الا بان يعترض لها وهي قد تعرضت لنهشه باعتراضها في الطريق وتناومها عليه وهى من الحيات التى ترصد وتوصف بذلك قال معقل بن خويلد

ابا معقل لا توطئنكم بغاضتي * رؤس الافاعي فى مراصدها العرم

يريد بالافاعي العرم فى مراصدها وكل منقطعة فهى عرماء من شاة أو غير ذلك وقال آخر

وكم طوت من حنش وراصد * للسفر فى اعلى البيات قاصد

والافعي تقتل فى كل حال وفي كل زمان والشجاع يواثب ويقوم على ذنبه وربما بلغ

(١) وروى فى صدر واحد

رأسه رأس الفارس وليس يقتلها اذا تطوقت على الطريق وفى المناهج او اعترضتها لتقطعها عابرة الى الجانب الآخر شيء كقاطيع الشياه اذا مرت بها وكذلك الابل الكثيرة اذا مرت فان الحية اذا وقعت بين ارجلها كان همتها نفسها ولم يكن لها همة الا التخلص بنفسها لئلا تعجلها بالوطيء فان نجت من وطيء أيديها لم تنج من وطيء أرجلها وإن سلمت من واحدة لم تسلم من التي تليها الى آخرها وقال عمر بن لجإ وهو يصف إبله * تعرض الحيات فى عساسها * وقال ذو الاهدام * تعجلها عن نهشها والمنكر * ومن ذلك ان العقرب تقع فى يد السنور فيلعب بها ساعة من الليل وهى فى ذلك مسترخية مستخذية لا تضربه والسنانير من الخلق الذى لا تسرع السموم فيه وربما باتت الافعي عند رأس الرجل وعلى فراشه فلا تنهشه وأكثر ما يوجد ذلك من القاص والراعي قال الشاعر

تبيت الحية النضناض منه * مكان الحب مستمع السرار

قال الحب الحبيب والنضناض من الحيات الذي يحرك لسانه وعن عيسى بن عمر قال قلت لذى الرمة ما النضناض فاخرج لسانه يحركه وإنما يصف القانص وانه يبيت بالقفر ومثله قول ابي النجم

يحكى بها الغروال فى غروالها * جرى الرحى تجرى على ثفالها

الغروال المكان وفي ذلك يقول ابو وجزة

تبيت جارته الافعي وسامره * ربد به عاذر منهن كالجرب

وقوله ربد يريد البعوض وعاذر أثر قال وبات يحيي بن منقاش مع دارم الدارمي فلما اصبح يحيي رآى بينهما أفعى مستوية فوثب يحيي ليقتلها فقال له دارم قد اعتقتها وحررتها ولم تقتلها وهى ضجيعتى من اول الليل فقال يحيي

اعوذ بربى أن ترى لى صحبتى * يطيف بنا ليلا محرر دارم

من الخرس لا ينجو صحيحا سليمها * وإن كان معقودا بحلى التمائم

(والعقارب فى ذلك دون الحيات) الا الجرارات فانها ربما باتت فى لحاف الرجل الليلة بأسرها وتكون فى قميصه عامة يومها فلا تلسعه فهى بالافعى اشبه فاما سائر العقارب

فانها تقصد الى الصوت فاذا ضربت انسانا فرت كما يصنع المسيء الخائف للعقارب والعقرب لا تضرب الميت ولا المغشى عليه ولا النائم الا أن يحرك شيئاً من جسده فانها عند ذلك تضربه ويقال إنها تأوى مع الخنافس وتسالمها ولا تصادق من الحيات إلا كل أسود سالخ وحدث أبو اسحاق المكي قال كان في دار نصر بن الحجاج السلمي عقارب اذا لسعت قتلت فدب ضيف لهم على بعض أهل الدار فضربته عقرب على مذاكيره فقال نصر يعرض به

وداري اذا نام سكانها * أقام الحدود بها العقرب
اذا غفل الناس عن دينهم * فان عقاربها تضرب

قال فادخل الناس بها حواء وحكوا له شأن تلك العقارب فقال إن هذه العقارب تستقى من أسود سالخ ونظر الى موضع في الدار فقال احفروا ها هنا فحفروا عن اسودين ذكر وأنثى وللذكر خصيتان ورأوا حول الذكر عقارب كثيرة فقتلوها (قال) وقال الفضل بن عباس حين راهنه عقرب بالشعر وقيل لكل واحد منهما لست فى شئ حتى تغلب صاحبك فقال الفضل

قد تجر العقرب فى سوقنا * لا مرحبا بالعقرب التاجره
كل عدو يتقى مقبلا * وعقرب تخشى من الدابره
كل عدو كيده فى استه * فغير ذي أيد ولا ضائره
قد ضاقت العقرب واستيقنت * بان لا دنيا ولا آخره
ان عادت العقرب عدنا لها * وكانت النعل لها حاضره

وأسم ام حارثة بن بدر عقرب وآل أبي موسى يكتنون بأبى العقارب ومن هؤلاء الذين يكتنون بالعقرب ابن أبي العقرب الليثي الخطيب الفصيح الراوية ورووا ان عقربا لسعت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لعنها الله فانها لا تبالى من ضربت وقال الضبي أنا عقرب أضر ولا أنفع وكان الرجل تلسعه الجرادة بعسكر مكرم أو بجنديسابور فتقتله وربما تناثر لحمه وربما تعفن وأنتن حتى لا يدنو منه أحد الا وهو مخمر انفه مخافة إعدائه ولا سيما ان كان قد نال من اللحم وهو لا يعلم ان الوخزة التى وخزها كانت من جرارة وكانوا اذا شعروا

بها دعوا حجاما يحجم ذلك الموضع ويمصه قبل أن يتفشي فيه السم ويدخل تلك المداخل فكان الحجام لا يجيئهم حتى يقبض دنانير كثيرة وانما كانوا يجودون له بذلك لما كان لصاحبهم في ذلك من الفرج وما على الحجام فى ذلك من الضرر وذلك أن وجهه ربما اسمارّ واربدّ وربما عطلت مقاديم أسنانه وتوجعت عليه فيلقى من ذلك الجهد وذلك لما كان يتصل الى فيه من بخار الدم ومن ذلك السم المخالط لذلك الدم ثم انهم بعد ذلك حشوا أذباب المحاجم بالقطن فصار القطن لا يمنع قوة المص والجذب ولم يدعه يصل لى فم الحجام ثم انهم بعد مدة سنيات أصابوا نبتة في بعض الشعب فاذا عالجوا الملسوع بها حسنت حاله والجرارات تألف الاحواء التى تكون بحضرة الاتانين وتألف الحشوش والمواضع النارية وسمها نار وقيل لما سرجويه قد نجد العقرب تلسع رجلين فتقتل أحدهما ويقتلها الآخر وربما نجت ولم تمت كما انه ربما عقرت ولم تفت ونجدها تضرب رجلين فى ساعة واحدة فيختلفان في سوء الحال ونجدها تختلف مواضع ضررها على قدر الأغذية وعلى قدر الأزمان وعلى قدر مواضع الجسد ونجد واحداً يتعالج بالامسوس فيحمده ونجد آخر يدخل يده مدخل حار من غير أن يكون فيه ماء فيحمده ونجد آخر يعالجه بالنخالة الحارة فيحمدها ونجد آخر يحجم ذلك الموضع فيحمده ونجد كل واحد من هؤلاء يشكو خلاف مايوافقه ثم إنا نجده يعاود ذلك العلاج عند لسعة أخرى فلا يحمده (قال) ماسرجويه لما اختلفت السموم فى أنفسها بالجنس والقدر وفى الزمان وباختلاف مالقاه اختلف الذى وافقه على حسب اختلافه وكان يقول إن قول القائل في العقرب شر ماتكون حين تخرج من جحرها ليس يعنون من ليلتها وإذا كان لابد من أن يكون لها نصيب من الشدة ولكنهم انما يعنون فى أول ما تخرج من جحرها عند استقبال الصيف بعد طول مكثها في غير عالمنا وغذائنا وأنفاسنا ومعايشنا والعامة تزعم انها شر ماتكون اذا ضربت الانسان وقد خرج من الحمام لتفتح المسام وسعة المجارى وسخونة البدن ولذلك صار سمها فى الصيف أشد هذا قول أبى اسحاق كانه كان يروى ان الهواء كلما كان أحر وكان البدن أسخن كان شرا و نحن نجدهم يصرخون من لسعتها الليل كله واذا طلعت الشمس سكن مابهم فاذا بقيت فضلة

من تلك الجارحة في الشمس فما أكثر ما يسكن وسمومها بالليل أشد الا أن يزعم أن أجواف الناس فى برد الليل أسخن وفي حر النهار افتر وزعم لى في بعض العلماء ممن قد روى الكتب وهو فى إرث منها ان حية يقال لها الدساس تلد ولا تبيض وان أنثى النمور لم تضع نمراً قط إلا ومعه افعى والاعراب تزعم أن الكماة تبقى فى الارض فتمطر مطرة صيفية فيستحيل بعضها أفاعى فسمع هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائيين فزعم لى أنه عاين كماة ضخمة فتأملها فاذا هى تتحرك فنهض اليها فقلعها فاذا هى أفعي هذا ماحدثته عن الاعراب حتى برئت الى الله من عيب الحديث وزعم صاحب المنطق ان الوزغة والحيات تأكل اللحم والعشب وزعم أن الحيات أظهر كلبا من جميع الحيوان مع قلة شرب الماء وان الاسد مع نهمه قليل شرب الماء قال ولا تضبط الحيات انفسها اذا شمت ريح السذاب وربما اصطيدت به واذا أصابوها كذلك وجدوها وقد سكرت قال والحيات تبتلع البيض والفراخ والعشب وزعم أن الحيات تسلخ جلودها في أول الربيع عند خروجها من أعشتها وفى أول الخريف وزعم أن السالخ يبتدئ من ناحية عيونها أولا قال ولذلك يظن بعض من يعانيها انها عمياء وهى تسلخ من جلودها في يوم وليلة من الرأس إلى الذنب ويصير داخل الجلد هو الخارج كما يسلخ الجنين من المشيمة ولذلك جميع الحيوان المحزز الجسد وكل طائر لجناحه غلاف مثل الجعل والدبر وكذلك السرطان يسلخ أيضاً فيضعف عند ذلك عن المشى وتسلخ جلودها مراراً والسالخ يصيب عامة الحيوان أما الطير فخسيرها وأما ذوات الحوافر فسلخها عقايقها وسلخ الايايل القاء قرونها وسلخ الأشجار إسقاط ورقها والاسروع دويبة تنسلخ فتصير فراشة وقال الطرماح شعراً

وتجرد الاسروع وأطرد السفا * وجرت بحاليها الجراد القردد

وانساب حيات الكثيب وأقبلت * ورق الفراش لما يشب الموقد

يصف الزمان والدعموص ينسلخ فيصير إما بعوضة وإما فراشة وزعم ثمامة عن يحيي بن برمك ان البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة وان البعوضة التي من سلخ دعموص ربما تصلحت برغوثا والنمل تحدث لها أجنحة ويتغير خلقها وذلك هو سلخها وهلكها يحين

عند طيرانها والجراد ينسلخ على غير هذا النوع قال الراجز

* ملعونة تسلخ لونا لونين *

قال وعض السباع ذوات الاربع ولدغ الهوام يختلف بقدر اختلاف البلدان كالذى يبلغنا عن أفاعى الرمل وعن جرارات قرى الاهواز وعقارب الصين وثعابين مصر وهذريات الخرابات وفي الشبثان والزنابير والرتيلات ما يقتل فأما الطبوع فانه شديد الأذى وللصمخ أذى لا يبلغ ذلك وقال صاحب المنطق ويكون بالبلدة التي تسمي باليونانية طبقون حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ولم أفهم هذا ولم كان ذلك وإذا أكل بعض ذوات السموم من جسد بعضها كانت أردأ ماتكون سماً مثل العقارب والافاعي (قال) والايل اذا ألقي قرونه علم أنه قد ألقى سلاحه فهو لا يظهر وكذلك ان سمن علم أنه يطلب فلا يظهر وكذلك أول ماينبت قرنه يعرضه للشمس ليصلب ويجف وإن لدغت الايل حية أكل السراطين فلذلك نظن ان السراطين صالحة للدبغ من الناس قال وإذا وضعت أنثى الايل ولداً أكلت مشيمتها فتظن أن المشيمة شيء يتداوى به من علة النفاس والدبة فانها إذا هربت دفعت جراها بين يديها وإن خافت على أولادها غيبتها وإذا ألحقت صعدت فى الشجر وحملت معها جراها قال والفهد إذا عراه الداء الذي يقال له خانق الفهود أكل العذرة فبرئ منه قال والسباع تشتهي رائحة الفهود والفهد يتغيب عنها وربما فر بعضها منه فيطمع في نفسه فاذا أراده السبع وثب عليه الفهد فأكله قال والتمساح يفتح فاه اذا غمه ماقد تعلق بأسنانه حتى يأتى طائر فيأكل ذلك فيكون طعاما له وراحة للتمساح قال وأما السلحفاة فانها اذا أكلت الافعي أكلت صعتراً جبلياً وقد فعلت ذلك مراراً فربما عادت فأكلت منها ثم أكلت من الصعتر مراراً كثيرة فاذا أكثرت من ذلك هلكت قال واما ابن عرس فانه اذا قاتل الحية بدا بأكل السذاب لان رائحة السذاب مخالفة للحية كما أن سام أبرص لا يدخل بيتاً فيه زعفران قال والكلاب اذا كان فى أجوافها دود أكلت سنبل القمح قال ونظن أن ابن عرس يحتال للطير بحيلة الذئب للغنم فانه يذبحها كما يفعل الذئب بالشاة قال وتتقاتل الحيات المشتركة فى الطعم وزعم أن القنافذ لايخفي عليها شيء من جهة الريح

وتحولها وهبوبها وانه كان بقسطنطينية رجل يقدم ويعظم لانه كان يعرف هبوب الريح ويخبر بذلك وانما كان يعرف الحال فيها بما يرى من هيئة القنافذ والعيون الحمر للعرض المفارق كعين الغضبان وعين السكران وعين الكاب وعين الرمد والعيون الذهبية وعيون أصناف البزاة من بين العقارب الى الزرق والعيون التى تسرج بالليل عيون الاسد وعيون النمور وعيون السنانير وعيون الافاعي قال أبو حية

غضاب يثيرون الذحول عيونهم * كجمر الغضا ذكينه فتوقدا

وقال آخر

ومدجج يسمي بشكته * محمرة عيناه كالكاب

رجع بالكاب الى صفة المدجج وقال معاوية لصحار العبدى يا أحمر قال والذهب أحمر قال يا أزرق قال والبازي أزرق وأنشدوا

ولا عيب فيها غير شكلة عينها * كذاك عتاق الطير شكل عيونها

وقال آخر

وشكلة عين لو حبيت ببعضها * لكنت مكان العين مرأى ومسمعا

ومن العيون المغرب والازرق والاشكل والاسحر والاشهل والاخف وذلك اذا اختلفا وعين الفارة كحلاء وهي أبصر بالليل من الفرس والعقاب وفى حمرة العينين وضيائهما يقول محمد بن ذؤيب العمانى في صفة الاسد

أجرأ من ذي لبدة هماس * غضنفر مضير رهاس
مناع أجناس الي أجناس * كانما عيناه في مراس
* شماع مقباس الى مقباس *

وقال المرار * كأنما وقد عينيه النمر *

أصوات خشاش الارض

نحو الضب والورل والحية والقنفذ وما أشبه ذلك يقال للضب والحية والورل فح يفح فحيحا وقال رؤبة

نحي فلا أفرق ان تفحي * وان ترحي كرحي المرحي

أصبح من نحنحة واح * يحكى سعال النشز الابح

قال الفحيح صوت الحية من فيها والكشيش والنشيش صوت جلدها اذا حكت بعضه ببعض قال الراجز في صفة الشخب والحلب

حلبت للابرش وهو مغض * حمراء منها شخبة بالمخض

ليست بذات وبرمبيض * كان شخب صوتها المرفض

* كشيش أفعي أجمعت لعض *

ويقال للضب والورل كش يكش كشيشا وأنشد أبو الجراح

ترى الضب إن لم يرهب الضب غيره * يكش له مستنكراً ويطاوله

باب من ضرب المثل للرجل الداهية وللحى الممتنع بالحية

قال ذو الاصبع العدواني

عذير الحي من عدوا * ن كانوا حية الارض

* بغى بعضهم ظلما * فلم يرع على بعض

وفيهم كانت السادا * ت والموفون بالقرض

يقال فلان حية الوادي وما هو الاصل اصلال والصل الداهية والحية قال النابغة

ماذا رأينا به من حية ذكر * نضناضة بالرزايا صل اصلال

وقال آخر

صل صفا تنطف أنيابه * سمام ذيفان مجيرات

وقال آخر

مطرق يرشح سما كما * أطرق أفعي ينفث السم صل

ومن أمثالهم صمي صمام وصمي ابنة الجبل وهي الحية قال الكميت

اذا ألقى السفير لها ونادى * بها صمى ابنة الجبل السفير

ومن أمثالهم جاء بأم الربيق على أريق أم الربيق أحدي الحيات وأريق الطبق ضربوا به

مثلا فى الدواهي وأصلها من الحيات قال

اذا وجـدت بواد حيـة ذكرا * فاذهب ودعنى أمارس حية الوادى

وفي المثل أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة يعنى الصبي الذي يدرج ويتناول كل شئ سنح له ويهوى به الى فيه كانه قال لامه أدركيه لا تأكله الهامة وهى الحية وهو قوله فى التعويذ ومن كل شيطان وهامة ونفس وعين لامه وقال الاخطل فى جعلهم الرجل الشجاع واذا لراي الداهية حية وكذلك يجعلون اذا أرادوا تعظيم شأنها واذا أرادوا ذلك فما أكثر ما يجعلون الحية ذكرا قال الاخطل

أُنبئت كلبا تمـني أن يسافهنا * وطال ما سافهونا ثم ما ظفروا
كلفتمونا رجالا قاطعى قرن * مستحلقين كما يستحلق السرز
ليست عليهم اذا عدت خصالهم * خصل وليس لهم أيجاب ما قروا (١)
قد أنذروا حية في راس هضبته * وقد أتتهم به الانباء والنذر
باتوا رقوداً على الامهاد ليلهم * وليلهم ساهر فيها وما شعروا (٢)
ثمت قالوا أمات الماء حيته (٣) * وما يكاد ينام الحيـة الذكر

وما أكثر ما يذكرون حية المساء لان حية المساء فيها تفاوت إما أن تكون لا تضر كبير ضرر واما أن تكون اقتل من الحيات والافاعي ويقال إن الهنديات انما تصير فى البيوت والدور والاصطبلات والخرابات لانها تحمل في القضب وفى اشباه ذلك والحيات تأكل الجراد أكلا شديداً فربما فتح رأس كرزه وجرابه وجوالقه الذى يأتي الجراد وقد ضربه برد السحر وقد تراكم بعضه على بعض لانها موصوفة بالصرد والحيات توصف بالصرد وكذلك الحمير والماعز من الغنم ولذلك قال الشاعر

بليت كما يبلى الوكاء ولا أرى * جنابا ولا أكناف ذروة تخلق
الوى حياز يمي بهن صبابة * كما يتلوى الحية المتشرق

---

(١) وروى ليست عليهم ديات يأخذون بها * ولا يكون لهم ايجاب ما قروا

(٢) وروى باتوا نياما على الانماط ليلهم * وليله ساهر فيها وما شعروا

(٣) وروى * هناك قالوا أنام الماء حيته *

وانما تشرق اذا أدركها برد السحر ولم تصر بعد الى صلاحها وخرجت بالليل تكتسب الطعم كما يفعل ذلك سائر السباع فربما اجترف صاحب الكرز للجراد فأدخله كرزه وفيه الافعي وأسود سالخ حتي ينقل ذلك الى الدور فربما اتى الناس منها جهداً وقال بشر بن المعتمر فى شعره المزاوج

ياعجبا والدهر ذو عجائب * من شاهد وقلبه كالغائب
وحاطب يحطب فى بجاده * فى ظلمة الليل وفى سواده
يحطب في بجاده الايم الذكر * والاسود السالخ مكروه النظر

فمن ذكر حية الماء عبد الله بن همام السلولى فقال

كحية الماء لاتحاش من أحد * صلب المراس اذا ماحلت النطق

وقال الشماخ بن ضرار

خوص العيون تبارى في أزمتها * اذا تفصدن من حر الصياخيد
* وكلهن تبارى ثنى مطرد * كحية الماء ولى غير مطرود

وقال الاخطل

ضفادع فى ظلماء ليل تجاوبت * فدل عليها صوتها حية البحر

وقال أيضا

هلم ابن صفار فان قتالنا * جهارا وما منا ملاوذة العذر
فانك في قيس لتال مذبذب * وغيرك منهم ذو الثناء وذو الفخر
ونحن منعنا ماء دجلة منكم * ونمنع مابين العراق الى البشر
الايابن صفار فلا ترم العلى * ولاتذكرن حيات قومك في الشعر
فما تركت حياتنا لك حية * تحرك فى أرض براح ولابحر

وقال تقيع بالكحيل

فان تك قتلا كم بدجلة غرقت * فما أشبهت قتلي حنين ولابدر
ثووا إذ لقونا بالكحيل كما ثوي * شمام الى يوم القيامة والحشر
بدجلة حالت حربنا دون قومنا * وأوطاننا مابين دجلة فالحصر

ولو كنتم حيات بحر لكنتم * كذات الكحيل اذتقومون في القمر

فالأيم الحية الذكر يشبهون به الزمام وربما شبهوا الجارية المجدولة الخميصة الخواصر في مشيها بالأيم لان الحية الذكر ليس له غبب وموضع بطنه مجدول غير متراخ وقال ابن ميادة

قعدت على السعلاة تنفض مسحها * وتجذب مثل الأيم في بلد قفر

تيمم خير الناس من آل حاضر * وتحمل حاجات تضمنها صدري

وقال الآخر في حمرة عين الافعي

لولا الهراوة والكفاة أوردني * حوض المنية قتال لمن علقا

أصم مهرة الشدقين ملتبد * لم يفد الا المنايا من لدن خلقا

كأن عينيه مما كان من ذهب * جلاهما مدوس التلاّق فابتلقا

وقال في حمرة عيون الناس في الحرب وفي الغضب ابن ميادة

وعند القرارى العراقى عارض * كأن عيون القوم في نبضة الجمر

وفي حمرة العين من جهة الخلقة يقول أبو قردودة في ابن عمار حين قتله النعمان

إني نهيت ابن عمار وقلت له * لا تأمنن أحمر العينين والشعره

إن الملوك متى تنزل بساحتهم * تطر بنارك من نيرانهم شرره

ياجفنة كازاء الحوض قد هدمت * ومنطقاً مثل وشي اليمنة الحبره

وأكثر مايذكرون من الحيات بأسمائها دون صفاتها الافعي والاسود والشجاع والارقم قال عمر بن لجإ * يلزق بالصخر لزوق الأرقم * وقال آخر

ورفع أولى القوم وقع خرادل * ووقع نبال مثل وقع الأساود

وفي بعض كتب الانبياء أن الله تبارك وتعالى قال لبني اسرائيل يا أولاد الأفاعى ونقال رماه الله بأفعى جارية وهى التي تجرى وكلما كبرت في السن صغرت في الجسم وأنشد الاصمعي في شدة إسوداد أسود سالخ

مهروتة الأشداق عود قد كمل * كأنما قيظ من ليط جعل

وقال جرير في صفة عروق بطن السنان

وأعور من نبهان أما نهاره * فأعمى وأما ليله فبصير
رفعت له مشبوبة يلتوي بها * يكاد سناها في السماء يطير
فلما استوت جنباه لاعب ظله * عروض أفاعي الجلهتين ضرير

قال ويقال أبصر من حية كما يقال أسمع من فرس وأسمع من عقاب وقال الراجز * أسمع من فرخ العقاب الأشجع * وقال آخر

أسود شرى لاقت أسود خفية * تساقوا على حرد دماء الأساود

ضرب المثل بجنسين من الاسود اذ كان عنده الغاية فى الشدة والهول فلم يقنع بذلك حتى رد ذلك كله إلى سموم الحيات وفي هول منظر الأسود يقول الشاعر

من دون سيبك لون ليل مظلم * وحفيف نافخة وقاب موسد
والضيف عندك مثل أسود سالخ * لا بل أحبهما اليك الأسود

ويصفون ذوائب النساء فإذا بلغوا الغاية شبهوها بالأساود قال جران العود

ألا لا تغرن امرءً نوفلية * على الرأس منها والترائب أوضح
ولا فاحم يسقى الدهان كأنه * أساود يزهاها لعينك أبطح

قال والخرشا القشرة الغليظة بعد أن تنقب فيخرج ما فيها وجماعة الخراش غير مهموز قال وخرشا الحية سلخها حين تسلخ وقال هذا أسود سالخ وهذان أسودان سالخان وأساود سالخة وقال مرقش

إن يغضبوا يغضب لذاكم كما * ينسل عن خرشائه الأرقم

وكانوا يرون أن تعليق الحلى وخشخشة الخلاخيل على السليم مما لا يفيق ولا يبرأ إلا به وقال زيد الخيل

أيم يكون النعل منه ضجيعه * كما علقت فوق السليم الخلاخل

وخبرنى خالد بن عقبة من بني سلمة بن الاكوع وهو من بني المسبع أن رجلا من حزن من بني عذرة يسمى أسباط قال فى تعليقهم الحلى على السليم

أرقت فلم تطعم لى العين مهجعاً * وبت كما بات السليم مقرعا
كأني سليم ناله كلم حية * ترى حوله حلى النساء مرصعا

وقال الذبياني

فبت كأني ساورتني ضئيلة * من الرقش في أنيابها السم ناقع

يسهد من ليل التمام سليمها * لحلي النساء في يديه قعاقع

قال ويقال لسان طاق ذلق ويقال للسليم إذا لدغ قد طاق وذلك حين ترجع اليه نفسه وهو قول النابغة

تبادرها الراقون من سوء سمها * تطلقه طوراً وطوراً تراجع

وقال العبدي إن كان قاله

تبيت الهموم الطارقات تعدنني * كما تعتري الأهوال رأس المطلق

وأنشد

تلاقى من تذكر آل ليلى * كما يلقي السليم من العداد

والعداد الوقت يقال ان تلك اللسعة لتعتاده اذا عاده الوجع في الوقت الذى لسع فيه وذكر النبي صلى الله عليه وسلم السم الذي كان في الحمل المصلى الذي كانت اليهودية قدمته اليه فنال منه فقال إن تلك الأكلة لتعتادني وفي الحية قشرها وهو أحسن من كل ورقة وثوب وجناح وطائر وأعجب من ستر العنكبوت وغرقيء البيض ويقال في مثل إذا مدح الخف اللطيف والقدم اللطيفة قالوا كأنه لسان حية وبالحية يتداوى من سم الحية وللدغ الأفاعى يؤخذ الترياق الذى لا يؤخذ إلا بمنون الأفاعي قال كثير

وما زالت رقاك تسل ضغني * وتخرج من مكامنها ضبابي

وترقيني لك الحاذون حتى * أجابك حية تحت الحجاب

جويبر بن اسماعيل عن عمه قال حججت فأنا اني وقعة من قوم إذ نزلوا منزلنا ومعنا امرأة فنامت فانتبهت وحية منطوية عليها قد جمعت رأسها مع ذنبها بين ثديها فهالها ذلك وأزعجنا فلم تزل منطوية عليها لا تضرها بشيء حتى دخلنا انصاب الحرم فانسابت فدخلت مكة فقضينا نسكنا وانصرفنا حتى إذا كنا بالمكان الذي انطوت عليها فيه الحية وهو المنزل الذى نزلناه نزلت فنامت واستيقظت فإذا الحية منطوية عليها ثم صفرت الحية فإذا الوادي يسيل حيات عليها فنهشتها حتى نقت عظامها فقلت لجارية

كانت لها ويحك اخبرينا عن هـذه المرأة قالت بغت ثلاث مرات كل مرة تأتى بولد فاذا وضعته شجرت التنور ثم ألقته فيه قال (ونظرت امرأة) الى على والزبير وطلحة رضى الله تعالى عنهم وقد اختلفت أعناق دوابهم حين التقوا فقالت من هذا الذى كأنه أرقم يتلمظ قيل لها الزبير قالت فمن هذا الذي كأنه كسر ثم جبر قيل لها على قالت فمن هذا الذى كأن وجهه دينار هرقلى قيل لها طلحة وقال أبو زيد نهشت أنهش نهشاً والنهش هو تناولك الشيء بفيك فتمضغه فتؤثر فيه ولا تجرحه وكذلك نهش الحية وأما نهش السبع فتناوله من الدابة بفيه ثم يقطع ما أخذ منه فوه ويقال نهشت اللحم أنهشه نهشاً وهو انتزاع اللحم بالثنايا للأكل ويقال نشطت العقد نشطاً اذا عقدته بالنشوطة ونشطت الابل تنشط نشطاً إذا ذهبت على هدى أو غير هدى نزعا أو غير نزع ونشطته الحية فهى تنشطه نشطا وهو أن تعضه عضا ونكزته الحية تنكزه نكزاً وهو طعنها الانسان بفيها فالنكز من كل دابة سوى الحية العض ويقال نشطته شعوب نشطاً وهي المنية قال وتقول العرب نشطته الشعوب فتدخل عليها التعريف ويسمون النهيش سليما على الطيرة قال ابن ميادة

كأنى بها لما عرفت رسومها * قتيل لدى أيدى الرقاة سليم

ومما يضربون به المثل بالحيات فى دواهي الامر كقول الاقيبل العتبي

لقد علمت وخير القول أنفعه * ان انطلاقي الى الحجاج تغرير
لئن ذهبت الى الحجاج يقتلني * انى لاحمق من تحدى به العير
مستحلياً صحفا تدمي طوائمها * وفى الصحائف حيات منا كير

وقال الاصمعي يقال للحيـة الذكر أيّم وأيم مثقل ومخفف نحو ليّن ولين وهيّن وهين قال الشاعر

هينون لينون أيسار ذوو يسر * سواس مكرمة أبناء أيسار

وأنشد فى تخفيف الأيم وتشديده

ولقد وردت الماء لم تشرب به * زمن الربيع الى شهور الصيف
الا عواسر كالمراط معيدة * بالعسل مورد أيّم متغضف

الصيف يعني مطراً الصيف والعواسر يعني ذنابا رافعة أذنابها والمراط السهام التي قد تمرط ريشها ومعيدة يعني معاودة للورد يقول هو مكان الخلاية يكون فيه الحيات وترده الذئب ومتغضف يريد بعضه على بعض يريد تثني الحية وأنشد لابن هند

أودي بأم سليمي لاطئ لبد * كحية منطو من بين أحجار

وقال محمد بن سعد

قريحة لم تدنيها السياط ولم * تردد عراكا ولم تعصر على كدر

كمنطوى الحية النضناض مكمنها * فى الصدر مالم يهيجها على زور

الليث لليث منسوب أظافره * والحية الصل نجل الحية الذكر

وقال ذو الرمة

وأحوى كايم الضال أطرق بعدما * حبا تحت فينان من الظل وارف

قال ويقال انبثت الحية اذا تفرقت وكثرت وذلك عند اقبال الصيف قال أبو النجم

* وانبث حيات الكثيف الاهيل * وقال الطرماح

وتجرد الاسروع وأطرد السفا * وجرت بجالتها الحداب القردد

وانساب حيات الكثيب وأقبلت * زرق الفراش لما يشب الموقد

قال ويقال جبأ عليه الاسود من حجره اذا فاجاه وهو يجبأ جبأ وجبوا وقال رجل من بني شيبان

وما من ريب المنون بجبأ * وما أنا من سيب الاله بيائس

قال ويقال واللبن محتضر فغط اناءك كأنهم يرون أن الجن تسرع فيه على تصديق الحديث فى قول المفقود لعمر حين سأله وقد استهوته الجان ما كان طعامهم قال الرمة يريد العظم البالى قال فما شرابهم قال الجدف قال وهو كل شراب لايخمر وتقول الاعراب ليس ذلك الا فى اللبن وأما الناس فيذهبون الى أن الحيات تسرع فى اللبن وكذلك سام أبرص وكذلك الحيات تسرع فى كثير من المرق وجاء فى الحديث لاتبيتوا فى العصفر فانها محتضرة أي يحضرها الجن والعمار وقال الشاعر فيما يحكون به من ذكر الأفعي

رماك الله من أير بأفعي * ولا عافاك من جهد البلاء

أجبنا في الكريهة حين تلق * ونعظا ماتفتر فى الخلاء
فلولا الله ما أمسى رفيق * ولولا البول عوجل بالخصاء

وقال أبو النجم

نظرت فأعجبها الذى فى درعها * من حسنها ونظرت فى سرباليا
فرأت لها كفلا ينوء بخصرها * وعثا روادفه وأخثم ناتيا
ورأيت منتشر العجان مقبضا * رخوا حمائله وجلدا باليا
أدني له الركب الحليق كأنما * أدني اليه عقاربا وأفاعيا

وقال آخر

مريضه أثناء التهادي كأنما * تخاف على أحشائها أن تقطعا
تسيب إنسياب الأيم أخصره الندى * يرفع من أطرافه ما ترفعا

وقال إياس بن الأرت

كأن مرعى أمكم سوءة * عقربة يكومها عقربان
اكليلها زول وفى شولها * وخز حديد مثل وخز السنان
كل امرئ قد يتقى مقبلا * وأمكم قد تتقى بالعجان

وقال آخر لمضيفه

تبيت تدهده القذان حولى * كأنك عند رأسى عقربان
فلو أطعمتني حملا سمينا * شكرتك والطعام له مكان

وقال النابغة فلو يستطيعون دبت لنا * مذاكي الافاعى وأطفالها

وقال رجل من قريش

مازال أمر ولاة السوء منتشرا * حتى أظل عليهم حية ذكر
ذو مرة تفرق الحيات صولته * عف الشمايل قد شدت له المرر
لم يأتهم خبر عنه يلين له * حتي أتاهم به عن نفسه الخبر

وقال بشار تزل القوافى عن لسانى كأنها * حماة الأفاعي ريقهن قضاب
فكم من أخ قد كان يأمل نفعكم * شجاع له ناب حديد ومخلب

أخ لو شكرتم فعله لعضضتم * رؤس الافاعى عض لا يتهيب

وقال الحارث دعى الوليد فى ذكر الأسود بالسم من بين الحيات

فان أنت أقررت الغداة بنسبتى * عرفت والا كنت فقما بقردد
ويشمت أعداء ويجذل كاشح * عمرت لهم سما على رأس أسود

(قال آخر)

ومعشر منقع لى فى صدورهم * سم الأساود يغلى في المواعيد
وسمتهم بالقوافى فوق أعينهم * وسم المعيدى أعناق المقاحيد

وقال أبو الأسود

ليتك آذنتني بواحدة * جعلتها منك آخر الأبد
تحلف أن لا تبرنى أبدا * فان فيها بردا على كبدي
ان كان رزقى اليك فارم به * في ناظرى حية على رصد

وقال أبو السفاح يرثى أخاه يحى بن عميرة ويسميه بالشجاع

يعدو فلا تكذب شداته * كما عدا الليث بوادى السباع
يجمع عزما وأناة معا * ثمت ينباع إنبياع الشجاع

وقال المتلمس

فأطرق اطراق الشجاع ولو يري * مساغا لنابيه الشجاع لصمما

وقال معمر بن لقيط أو ابن ذى القروح

شموس يظل القوم معتصما به * وان كان ذا حزم من القوم عاديا
أبيت كمابات الشجاع الى الذري * وأغدو على همي وان بت طاويا
واني أهض الضيم مني بصارم * رهيف وشيخ ماجد قد بني ليا

وهكذا صفة الافعي لانها أبداً نابتة مستوية فان أنكرت شيئا فنشطتها كالبرق الخاطف

ووصف آخر أفعى فقال

وقد أرانى بطوي الحس * وذات قرنين كجون الترس
نضناضة مثل انثناء الرس * تدير عينا كشهاب القبس

لما التقينا بمضيق شكس * حتى قنصت فوتها بخمس

وهم يتهاجون بأكل الأفاعي والحيات قال الشاعر

فاياكم والريف لا تقربنّه * فان لديه الموت والحتم قاضياً
هم طردوكم عن بلاد أبيكم * وأنتم حلول تشتوون الافاعيا

وقال عمر بن أبي ربيعة

ولما فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح شبت بالعشاء وأنؤر
وغاب قمير كنت أرجو مغيبه * وروح رعيان وهوم سمر
ونفضت عني الليل أقبلت مشية * الحباب وركني خيفة القوم أزور

ضرب كلثوم بن عمرو المثل بسم الاساود فقال

تلوم على ترك الغناء لأهله * طوي الدهر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الكسا * مقلدة أجيادها بالقلائد *
يسرك اني نلت ما نال جعفر * من الملك أو ما نال يحي بن خالد
وان أمير المؤمنين أعضني * معضها بالمرهفات الفوارد
ذريني تجئني ميتتي مطمئنة * ولم أتقحم هول تلك الموارد
فان كريمات المعالي مشوبة * بمستودعات في بطون الاساود

وفي التشنيع لحيات الجبل يقول اللعين المنقري لرؤبة بن العجاج

انى أنا ابن جلا ان كنت تعرفني * يارؤب والحية الصماء في الجبل
أبا الاراجيز يا ابن اللؤم يوعدنى * وفي الاراجيز جاب اللؤم والكسل

الاصمعي قال حدثنى ابن أبي طرفة قال مرّقوم حجاج من أهل اليمن مع المساء برجل من هذيل يقال له ابو خراش فسألوه القرى فقال لهم هذه قدر وهذه مسقاة وبذلك الشعب ماء فقالوا ماوفيتنا حق قرانا فأخذ القربة فتقلدها يسقيهم فنهشته حية قال أبو اسحاق بلغني وأنا حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن اجتثاث فم القربة والشرب منه قال فكنت أقول ان لهذا الحدث لشأنا وما في الشرب من فم قربة حتى يجيء فيها هذا النهي حتى قيل ان رجلا شرب من فم قربة فوكعته حية فمات وأن

الحيات تدخل فى أفواه القرب علمت أن كل شئ لا أعرف تأويله من الحديث ان له مذهباً وإن جهلته وقال الشاعر فى سلخ الحية

حتى اذا تابع بين سلخين * وعاد كالميسم أحماه القين

أقبل وهو واثق بثنتين * بسمة الرأس ونهش الرجلين

قال كأنه ذهب الى أن سمه لا يكون قاتلا مجهزاً حتى تأتى عليه سنتان وزعم بعضهم أن السلخ للحية مثل البزول والقروح للخف والحافر قال وليس ينسلخ إلا بعد سنين كثيرة ولم يقفوا من السنين على حد وزعم بعضهم أن الحية تسلخ فى كل عام مرتين والسلخ في الحيات كالتحسير من الطير وأن الطير لا تجتمع قوبة إلا بعد التحسير وتمام نبات الريش وكذلك الحية تضعف في أيام السلخ ثم تشتد بعد (قال الأصمعى) أخبرنى أبو رفاعة شيخ من أهل البادية قال رأيت في المنام كأني أتخطا حيات فمطرت السماء فجعلت أتخطا سيولا (وحكى الاصمعي) أن رجلا رآى فى المنام في بيوته حيات فسأل عن ذلك ابن سيرين أو غيره فقال هذا رجل يدخل منزله أعداء المسلمين وكانت الخوارج تجتمع في بيته وقال العرجي في دبيب السم فى المنهوش

وأشرب جلدى حبها ومشى به * كمشي حميا الكأس في جلد شارب

يدب هواها في عظامى وحبها * كما دب في الملسوع سم العقارب

وقال العرجي فى العرما من الأفاعي وكونها فى صدوع الصخر فقال

تأتى بليل ذو سعادة فسلها * بها حافظ هاد ولم أرق سلما

كمثل شهاب النار فى كف قابس * إذا الريح هبت من مكان تضرما

أبر على الأجواد حتى تبادروا * حماه محاماة من الناس فاحتما

يظل مشيحاً سامعاً ثم انها * إذا بعثت لم تال الا تقدما

قال ويقال تطوت الحية وأنشد العرجي

ذكرتني اذ حية قد تطوت * برقاً عند عرسه في الثياب

وقال الشماخ أو البعيث

وأطرق أطراق الشجاع ولو جرى * على حد نابيه الذعاف المسمم

والأجناس التى تذكر بالنباح الكلب والحية والظبي اذا أسن والهدهد وقد كتبنا ذلك مرة ثم قال أبو النجم

والاسد قد تسمع من زئيرها * وبات الافعي على محفورها
تأسيرها يحنك فى تأسيرها * مر الرحي تجري على شعيرها
كرعدة الجزاء أو هديرها * تضرم القضاء فى تنورها
توقر النفس على توقيرها * تعلم الاشياء فى تنقيرها
* فى عاجل النفس وفى تأخيرها *

(وسنذكر مسئلة وجوابها) وذلك أن ناسا زعموا أن جميع الحيوان على أربعة أقسام شيء يطير وشيء يمشى وشيء يعوم وشيء ينساح وقد قال الله عز وجل (والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله مايشاء) وقد وضع الكلام على قسمة أجناس الحيوان وعلى تصنيف ضروب الخلق ثم قصر عن الشيء الذي وضع عليه كلامه فلم يذكر مايطير وما يعوم ثم جعل ماينساح مثل الحيات والديدان مما يمشى والمشي لايكون الا برجل كما أن العض لايكون الا بفم والرمح لا يكون الا بحافر وذكر ما يمشي على أربع وهاهنا دواب كثيرة تمشي على ثمان قوائم وعلى ست وعلى أكثر من ثمان ومن تفقد قوائم السرطان وبنات وردان وأصناف العناكب عرف ذلك قلنا قد أخطأتم فى جميع هذا التأويل وحده فما الدليل على أنه وضع كلامه في استقصاء أصناف القوائم وبأي حجة جزمتم على ذلك وقد قال الله عز وجل (وقودها الناس والحجارة) وترك ذكر الشياطين والنار لهم آكل وعذابهم بها أشد فترك ذكرهم من غير نسيان وعلى أن ذلك معلوم عند المخاطب وقد قال الله عز وجل (خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) أخرج من هذا العموم عيسى ابن مريم وقد قصد فى مخرج هذا الكلام جميع ولد آدم وقال (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً) أدخل فيها آدم وحواء ثم قال على صلة الكلام (انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه) أخرج منها آدم وحواء وعيسي ابن مريم وحسن ذلك اذ كان الكلام لم يوضع على جميع ماتعرفه النفوس من

جهة استقصاء اللفظ فقوله (فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع)فهو مما يمشي على أربع كان على هذا المثال الذى ذكرنا وعلى أن كل شئ يمشي على أربع فهو مما يمشي على رجلين والذى يمشي على ثمان هو مما يمشي على أربع وعلى رجلين واذا قلت لي على فلان عشرة آلاف درهم فقد خبرت أن لك عليه مابين درهم الى عشرة آلاف وأما قولكم إن المشي لايكون الا بالارجل فينبغى أيضا أن تقولوا فاذا هي حية تسعى أن ذلك خطا لأن السعي لا يكون الا بالأرجل وفى هذا الذي جهلتموه ضروب من الجواب اماوجه منه فهو قول القائل وقول الشاعر ماهو إلا كأنه حية وكان مشيته مشية حيه يصفون ذلك ويذكرون عنده مشية الأيم والحباب وذكور الحيات ومن جعل للحيات مشياً من الشعراء أكثر من أن نقف عليهم ولوكانوا لايسمون انسيابها وانسياحها مشياً وسعيا لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبدل وان قام الشيء مقام الشيء أو مقام صاحبه فمن عادة العرب أن تشبه به فى حالات كثيرة قال الله تعالى (هذا نزلهم يوم الدين) والعذاب لايكون نزلا ولكنه أجراه مجرى كلامهم كقول حاتم حين أمروه بفصد بعير وطعنه فى سنامه وقال هذا فصده [1] وقال الاخر

فقلت يا عمرو أطعمني تمرا * فكان تمرى كهرة وزبرا

وذم بعضهم الفأر وذكر سوء أثرها فى بيته فقال

ياعجل الرحمن بالعقاب * لعامرات البيت بالخراب

يقول هذا هو عمارتها كما يقول الرجل ما نرى من خيرك ورفدك الا ما يبلغنا من خطبك علينا وفتكك فى أعضائنا وقال النابغة فى شبيه بهذا وليس به

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

ووجه آخر أن الاعراب تزعم وكذلك قال ناس من الحوائين والرقائين أن للحية خزوزاً فى بطنه فاذا مشي قامت خزوزه واذا ترك المشى تراجعت الى مكانها وعادت تلك المواضع ملسا ولم توجد بعين ولا لمس ولا يبلغها الا كل حواء دقيق الحس وليس ذلك بأعجب من شقشقة الجمل العربى فانه يظهرها كالدلو فاذا هو أعادها الى لهاته

---

(١) والمعروف هذا فصدي أنه وفى رواية فزدي بالزاى

تراجع ذلك الجلد الى موضعه فلا يقدر أحد عليه بلمس ولا عين وكذلك عروق الكلى الى المثانة التي تجرى فيها الحصا المتولد في الكلية اذا قذفتها في تلك العروق الى المثانة فاذا بال الانسان انضمت العروق واتصلت بأماكنها والتحمت حتى كان موضعها كسائر ماجاوز تلك الاماكن ووجه آخر وهو أن هذا الكلام عربي فصيح اذ كان الذى جاء به عربياً فصيحاً ولولم يكن قرآنا من عند الله تبارك وتعالى ثم كان كلام الذى جاء به وكان ممن يجهل اللحن ولا يعرف مواضع الاسماء في لغته لكان هذا خاصة مما لايجهله فلو أننا لم نجعل لمحمد صلى الله عليه وسلم فضيلة في نبوة ولا مزية في البيان والفصاحة لكننا لانجد بدا من أن نعلم أنه كواحد من الفصحاء فهل يجوز عندكم أن يخطئ أحد منهم في مثل هذا في حديث أو وصف أو خطبة أو رسالة فزعم أن كذا وكذا يمشي أو يسمى أو يطير وذلك الذى قال ليس من لغته ولا من لغة أهله فمعلوم عند هذا الجواب وعند ما قبله أن تأويلكم هذا خطأ وقال الله عز وجل (ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) وأصحاب الجنة لايوصفون بالشغل وانما ذلك جواب لقول القائل خبرني عن أهل الجنة بأى شيء يتشاغلون أم لهم فراغ أبداً فيقول المجيب لاماشغلهم الافى افتضاض الابكار وأكل فواكه الجنة وزيارة الاخوان على نجائب الياقوت وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس حين قيل له وقد أقبل من جهة الحلبة وهو بالشام من سبق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل فمن صلى قال أبو بكر قال انما أسألك عن الخيل قال وأنا أجيبك عن الخير وهو كقول المفسر حين سئل عن قوله لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا فقال ليس فيها بكرة وعشى وقد صدق القرآن وصدق المفسر ولم يتنا كرا ولم يتنافيا لأن القرآن ذهب الى المقادير والمفسر ذهب الى الموجود من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها وعلى ذلك المعنى روى عن عمر أنه قال متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما قد كان المسلمون يتكلمون في الصلاة ويضبعون اذا ركعوا فنهى عن ذلك امام من الأئمة وضرب عليه بعد أن أظهر النسخ وعرفهم أن ذلك من المنسوخ فكان قائلا قال أتنهانا عن شيء وقد كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيقول نعم وقد قدم

الاحتجاج في الناسخ والمنسوخ ومن العجب أن ناسا جعلوا هـذا القول على المنبر من عيوبه فان لم يكن المعني فيه على ما وصفنا فما فى الارض أجهل من عمر حين يظهر الكفر فى الاسلام على منبر الجماعة وهو انما علاه بالاسلام ثم في شيء ليس له حجة فيه ولا علة وأعجب منه تلك الامة وتلك الجماعة لم تنكر تلك الكلمة في حياته ولا بعد موته ثم ترك ذلك جميع التابعين وأتباع التابعين حتى أفضى الامر الى أهـل دهرنا هذا وتلك الجماعة هم الذين قتلوا عثمان على أن سير رجلا وهـذا لا يقوله الا جاهل أو معاند وعلى تأويل قوله (هـذا نزلهم يوم الدين) قال جهنم يصلونها فبئس المهاد وقال تعالى (حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزانتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذورنكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) فجعل للنار خزائن وجعل لها خزنة كما جعل فى الجنة خزائن وجعل لها خزنة ولو أن جهنم فتحت أبوابها ونحي عنها الخزنة ثم قيل لكل لص فى الارض ولكل خائن في الارض دونك فقـد أبيحت لك لما دنا منها وقد جعل لها خزائن وخزنة وانما هـذا على مثال ما ذكرنا وهـذا كثير في كلام العرب والآى التي ذكرنا فى صدق هذ الجواب كلها حجج علي الخوارج في انكارهم المنزلة بين المنزلتين وقال خلف الاحمر في ذكر الحيات

يرون الموت دونى إن رأوني * وصـلَّ صفا لنابيـه ذباب
من المتجربات بكهف ظود * عرام ما يرام له جنـاب
أبى الحاورن أن يطؤا حماه * ولا تسرى بعقوته الذئاب
كأن دما أمر على قراه * وقطـرانا أمر به كباب
اذا ما استحرش الاصوات أبدى * اسانا دونه الموت الضباب
اذا ما الليـل ألبسـه دجاه * سرى أسمى تصيح له الشعاب

فقات لحيات بن عتبي قال موسي بن جابر الحنفى

طرد الاروى فما تقر به * ونفا الحيات عن بيض الحجل

قال لان الذئاب تأكل الحيات فلم قال خلف الاحمر * ولا تسرى بعقوته الذئاب * قال لان الذئاب تأكل الحيات فظننت أنه حدس ولم يقل بعلم وقال الزيادي في يحي بن أبى حفصة

إني ويحى وما يبغي كملتمس * صيداً وما نال منه الرّي والشبعا
أهوى الى باب جحر فى مقدمه * مثل العسيب ترى فى رأسه قزعا
اللون أربد والانياب شائلة * عصلا ترى السم يجرى بينها قطعا
يهوى الى الصوت والظلماء عاكفة * تعوذ السيل لاقى الحيد فاطلعا
لو نال كفك آبت منه مخضبة * بيضاء قد جلت أنيابها قذعا
بيعت بوكس قليل فاستقل بها * من الهزال أبوها بعد ما ركعا

فرد عليه يحيى فقال

كم حية ترهب الحيات صولته * يحمى لريديه قد غادرته قطعا
يلقين حية قف ذا مساورة * تسقى به القرن من كاس الردي جرعا
تكاد تسقط منهن الجلود لما * يعلمن منه اذا عاينه قذعا
أصم ماشم من خضراء أيبسها * أومس من حجر أوهاه فانصدعا

وقال آخر

وكم طوت من حنش راصد * للسفر فى أعلا الثنيات
أصم أعمي لا يجيب الرقا * يفتر عن عصل حديدات
منهرت الشدق رقود الضحي * سار طمورا فى الدجنات
ذى هامة رقطاء منطوحة * من الدواهى الجبليات
صل صفا تنطف أنيابه * سمام ذيفان مجيرات
مطان فى اللحيين مطلا إلى * رأس وأشداق رحيبات
قدمن عن ضرسين واستأخرت * الى سماخين ولهوات
يسبته الصبح وطوراً له * نفخ ونفث فى المغارات
* وتارة تحسبه ميتاً * من طول أشراق واخبات

وقال آخر وهو جاهلي

لاهم إن كان أبو عمرو ظلم * وخانني فى علمه وقد علم
فابعث له فى بعض اعراض اللمم * لميمة من حنش أعمى أصم

اسمر زحافا من الرقط القدم * فدعاش حتى هو لا يمشي بدم
فكل ماأفضل منه الجوع شم * حتى اذا أمسى أبو عمرو ولم
يمسّ منه مضض ولا سقم * قام وودُ بعدها ان لم يقم
* ولم يقم لإبل ولا غنم * ولا لخوف راعه ولا لهم
حتى دنامن أس نضناض أصم * نخاضه بين الشراك والقدم
بمذرب أخرجه من جوف كم * كأن وخزنا به اذا انتظم
* وخزة إشفى فى عطوف من أدم *

ومخالب الاسد وأشباه الاسد من السباع تكون في غلق إذا وطئت على بطون أكفها ترفعت المخالب ودخلت فى أكمام لها وهو قول أبي زبيد

بحجن كالمحاجن فى فتوح * يقيها قصة الارض الدخيس

وكذلك أنياب الافاعي هي مالم تمض فمصونة فى أكمام الاتراه يقول

نخاضه بين الشراك والقدم * بمذرب أخرجه من جوف كم

وقال آخر أنعت نضناضاً كبير الظفر * مولده ومولد ابن الطهر
كانا جميعا ولدا فى شهر * يظل فى مرأى بعيد القعر
* بين حوافي صدر وصخر * وقال
وكيف وقد أسهرت عينك تبتغي * عنادا لنابي حية قد تربدا
من الصم يكفى مره من لعابه * وماعاد الا كان في العود أحمدا

وقال خلف الأحمر وهى مخلوطة فيها شيء وله شيء من الغبرة وما علمت أن أحداً وصف عين الأفعى على معرفة واختبار غيره وهو قوله

أفعي زحوف العين مطراق البكر * داهية قد صغرت من الكبر
صل صفاء ينطوى من القصر * طويلة الاطراف من غير حسر
كأنما قد ذهبت به الفكر * شقت له العينان طولا فى شتر
مهروتة الشدقين حولاء النظر * جاء بها الطوفان أيام زخر
كأن صوت جلدها اذا استدر * نشيش جمر عند طاه مقتدر

هشام بن عروة قال أخبرني أبي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت تقتل الاوزاغ (يحيي) ابن أبي أنيسة عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ فويسق قالت ولم أسمع رسول الله صلي الله عليه وسلم أمر بقتله قال قالت عائشة رضي الله عنها سمعت سعداً يقول امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلة (عبد الرحمن بن زياد) قال وأخبرني هشام عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ الفويسق أبو بكر الهذلي عن معاذ عن عائشة قالت دخل رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم عليّ وفي يدي عكاز فيه زج فقال يا عائشة ماتصنعين بهذا قلت أقتل به الوزغ في بيتي قال ان تفعلي فان الدواب كلها حين القي ابراهيم صلى الله عليه وسلم في النار كانت تطفيء عنه وإن هذا كان ينفخ عليه فصم وبرص وهذه الأحاديث كلها يحتج بها أصحاب الجهالات ومن زعم أن الاشياء كلها كانت ناطقة وأنها أمم مجراها مجرى الناس وتأولوا قوله (تعالى وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقالوا قال الله عز وجل (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) وقوله تعالى (يا جبال أوبي معه والطير) وقال (وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله) فذهبت الجهمية ومن أنكر ايجاد الطبائع مذهبا وذهب ابن حافظ ومن لف لفه من اصحاب الجهالات مذهبا وذهب ناس من غير المتكلمين واتبعوا ظاهر الحديث وظاهر الاشعار وزعموا أن الحجارة كانت تعقل وتنطق وانما سلبت المنطق فقط فأما الطير والسباع فعلى ما كانت عليه قالوا والوطواط والصرد والضفدع مطيعات ومثابات والعقرب والحية والحداة والغراب والوزغ والكلاب واشباه ذلك عاصيات معاقبات ولم افق على واحد منهم فاقول له ان الوزغة التي تقتلها على انها كانت تضرم النار على ابراهيم أهي هذه أم هي من أولادها فمأخوذة هي بذنب غيرها أم تزعم انه في المعلوم ان تكون تلك الوزغ لا تلد ولا تبيض ولا تفرخ الا من يدين بدينها ويذهب مذهبها وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الاحاديث وأي ضرب منها

يكون مردودا وأى ضرب منها يكون . متأولا وأى ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل ولذلك أقول لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون (شريك) عن النخعي عن ليث عن نافع أن ابن عمر كان يقتل الوزغ فى بيته ويقول هو شيطان (هشام بن حسان) عن خالد الربعي قال لم يكن شىء من خشاش الارض الا كان يطفىء النار عن ابراهيم الا الوزغ فانه كان ينفخ عليه (حنظلة بن أبي سفيان) قال سمعت القاسم بن محمد يقول ان الاوزاغ كانت يوم حرق بيت المقدس تنفخه والوطاوط باجنحتها (شريك) عن النخعى عن جابر عن ابن عباس قال الوزغ شريك الشيطان أبو داود الواسطى قال أخبرنا أبو هاشم قال من قتل وزغة حط الله عنه سبعين خطيئة ومن قتل سبعاً كان كعتق رقبة (هشام) بن حسان عن واصل مولي أبى عيينة عن عقيل عن يحي بن يعمر قال لأن أقتل مائة من الوزغ أحب الى من أن أعتق مائة رقبة وهذا الحديث ليس من شكل الأول لان يحي بن يعمر لم يزعم أنه يقتله لكفره أو لكفر أبيه ولكنها دابة تطاعم الحيات وتزاقها وتقاربها وربما قتلت بعضها وتكرع فى المرق واللبن ثم تمجه في الاناء فينال الناس بذلك مكروه كبير من حيث لايعلمون وقتله فى سبيل قتل الحيات والعقارب وأهل السحر يعملون منها سموما انفذ من سم البيش ومن ريق الافاعى وذلك أنهم يدخلون الوزغ قارورة ثم يصبون فيها من الزيت مايغمرها ويضعونها فى الشمس أربعين يوما حتى تختلط بالزيت وتصير شيئا واحدا فان مسح السجين منه على رغيف مسحة يسيرة فأكل منه عشرة أنفس ماتوا ولا أدرى لم توخوا من مواضع الدفن عتب الابواب يحي ابن أبى أنيسة عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال أمرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم بأربع ونهانا عن أربع مرنا أن نجيف أبوابنا وأن نخمر آنيتنا وأن نوكي أسقيتنا وأن نطفي سرجنا فان الشيطان اذا وجد بابا مجافا لم يفتحه واناء مخمرا لم يكشفه وسقاء موكا لم يحله وان الفويسقة تأتي المصباح فتضرمه على أهل البيت ونهانا عن أربع نهانا عن اشتمال الصماء وان يمشى أحدنا في النعل الواحدة أو الخف الواحد وأن يحتبي الرجل منا فى الثوب الواحد ليس عليه غيره وأن يستلقي أحدنا على ظهره ويرفع أحدى رجليه على الاخرى وهذا

الحديث ليس هذا موضعه وهو يقع فى باب جملة القول في النار وهو يقع هذا الذى يلى القول فى النعام (ماجاء في الحيات) من الحديث شعبة أبو بسطام قال أخبرنى أبو قيس قال جلست الى علقمة بن قيس وربيع بن خيثم فقلت افعلوا خيراً تجزوا خيرا وقال علقمة من استطاع منكم أن لا يرى الحية الا قتلها الا الى مثل الميل فانها جان وأنه لا يضره قتل حية أو كافر اسماعيل المكي عن أبي اسحاق عن علقمة قال قال عبد الله بن مسعود من قتل حية فقتل كافراً ثم سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول من قتل حية أو عقربا قتل كافراً وهذا مما يتعلق به أصحاب بن حافظ وتأويله في الحديث الآخر عبد الرحمن بن عبد الله السعودي قال سمعت القاسم بن عبد الرحمن يقول قال عبد الله من قتل حية أو عقربا فكأنما قتل كافراً فعلى هذا المعني يكون تأليف الحديث سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما سالمناهن مذ حاربناهن سعيد بن عروبة عن قتادة قالت عائشة من قتل حية مخافة إثارها فعليه لعنة الله والملائكة (الربيع بن صبيح) عن عطاء الخراسانى قال كان فيما أخذ على الحيات أن لا يظهرن فمن ظهر منهن حل قتله وقتالهن كقتال الكفار ولا يترك قتلهن إلا شاك وهذا مما يتعلق به أصحاب ابن حافظ (محمد بن عجلان) قال سمعت أبى يحدث عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ما سالمناهن مذ حاربناهن (ابن جريج) قال أخبرنى عبد الله بن عمر قال أخبرنى أبو الطفيل أنه سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول اقتلوا من الحيات ذا الطفيتين والكلب الاسود البهيم ذا القرنين قال والفرة حوة تكون بعينيه . قال صاحب المنطق (الطير على ضربين) أوابد وقواطع ومنه ما يأكل اللحم لا يأكل غيره وان لم يكن ذا سلاح فأما ذو السلاح فواجب أن يكون طعامه اللحم ومن الطير ما يأكل الحبوب لايعدوها ومنه المشترك الطباع كالعصفور والدجاج والغراب فانها تأكل النوعين جميعا وكطير الماء يأكل السمك ويلقط الحب ومنه ما يأكل شيئا خاصا مثل جنس النحل العسل الذى غذاؤه شيء واحد وجنس العنكبوت فان طعم النحل العسل والعنكبوت يعيش من صيد الذباب ومن الحيوان ماله مسكن ومأوى كالخلد والفار والنمل والنحل والضب ومنه مالا

يتخذ شيئا يرجع اليه لان ذكورة الحيات سيارة وانها انما تقيم فى المكان الى تمام خروج الفراخ من البيض واستغناء الفراخ بأنفسها ومنها ما يكون يأوى الى شقوق الصخور والحيطان والمداخل الضيقة مثل سام أبرص قال والحيات تألفها كما تألف العقارب الخنافس والعظايا تألف المزابل والخرابات والوزغ قريبة من الناس (دراذشت) إن العظايا ليست من ذوات السموم وإن سام أبرص من ذوات السموم لانه لما قعد لقسم السموم كان الحظ الاوفر لكل شئ سبق الى طلبه كالافاعي والثعابين والجرارات وإن نصيب الوزغ نصيب وسط قصد لا يكمل أن يقتل ولكنه يزاق الحية فتميره مما عندها ومتي دبر الوزغ جاء منه السم القاتل أسرع من سم البيش ومن لعاب الافاعي فأما العظاية فانها احتبست عن الطلب حتى نفد السم وأخذ كل شيء قسطه على قدر السبق والبكور فلما جاءت العظاية وقد فني السم دخلها من الحسرة ومما علاها من الكرب حتى جعلت وجهها الى الخرابات والمزابل فاذا رأيت العظاية تمشي مشيا سريعا ثم تقف فان تلك الوقفة إنما هى لما يعرض لها من التذكر والحسرة على ما فاتها من نصيبها من السم ولا أعلم العظاية في هذا القياس إلا أكثر شروراً من الوزغ لانها لولا افراط طباعها في الشرارة لم يدخلها من قوة الهم مثل الذى دخلها ولم يستبن الناس من اغتباط الوزغ بنصيبه من السم بقدر ما استبان من ثكل العظاية وتسلبها واحضارها وبكائها وحزنها وأسفها على ما فاتها من السم ويزعم زرادست وهو مذهب المجوس أن الفارة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان وهو ابليس وهرمن فاذا قيل له كيف تقول ذلك والفأرة مفسدة تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والقبائل الكثيرة والمدن العظام والارباض الواسعة بما فيهامن الناس والحيوان والأموال وتقرض دفاتر العلم وكتب الله ودقائق الحساب والصكاك والشروط وتقرض الثياب وربما طلبت القطن لتأكل بزره فتدع اللحاف غربالا وتقرض الجرب وأوكية الاسقية والازقاق والقرب فتخرج جميع ما فيها وتقع فى الآنية وفى البئر فتموت فيه وتحوج الناس الى مؤن عظام وربما عضت رجل النائم وربما قتلت الانسان بعضتها والفار بخراسان ربما قطعت اذن الرجل وجرذان

أنطاكية تفجر عنها السنانير وقد جلا عنها قوم وكرهها آخرون لمكان جرذانها وهي التي فجرت المسناة حتى كان ذلك سبب الخمر بارض سبأ وهي المضروب بها المثل وسيل العرم مما تؤرخ بزمانه العرب والعرم المسناة وانما كان جرذا وتقتل النخل والفسيل وتخرب الضيعة وتأتى على أفرحة الركاب والخضر وغير ذلك من الاموال والناس ربما اجتلبوا السنانير ليدفعوا بها بوائق الفار فكيف صار خلق الضار المفسد من الله وخلق النافع من الضرر من خلق الشيطان والسنور يعدى به على كل شيء خلقه الشيطان من الحيات والعقارب والجعلان وبنات وردان والفأرة لاتقع لها ومؤنها عظيمة قال لأن السنور لوبال فى البحر لقتل عشرة آلاف سمكة فهل سمعت بحجة قط أو بحيلة أو بأضحوكة أو بكلام ظهر على تلقيح هرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم وأنشد أبو زيد

والله لو كنت لهذا خالصا * لكنت عبدا أكل الابارصا

يعني جماع سام أبرص أبارص وسام أبرص ربما قتل أكله وليس يؤكل الا من الجوع الشديد وربما قتل السنانير وبنات عرس والشاهمرك وجميع اللفاعات وقال آخر

كان القوم عشوا لحم ضأن * فهم يعجون قد مالت طلاهم

وهو شيء يعرض عن أكل دسم الضأن وهو أيضا يلقي على دسمه النعاس وقد يفعل ذلك الحبق والخشخاش يسمي بالفارسية أباركوا وتأويله رمان الخس وانما اشتق له ذلك اذ كان يورث النعاس كما يورثه الخس وأكل الطعام الذى فيه سمانى يورث الدوار وزعموا أن صبيا من الأعراب فيما مضى من الدهر صاد هامة على قبر فظنها سمانى فأكلها فغثت نفسه فقال * نفسي تمقس من سماني الاقبر * ويقال غثت نفسه غثيانا وغثيا ولقست تلقس لقسا وتمقس تمقس مقسا اذا غثيت وأخبرنى صباح ابن خاقان قال كنت بالبادية فرأيت ناسا حول نار فسألت عنهم فقالوا قد صادوا حيات فهم يشوونها ويأكلونها إذ نظرت الى رجل منهم ينهش حية قد أخرجها من الجمر فرأيته اذا امتنعت عليه يمدها كما يمد عصب لم ينضج فما صرفت بصرى عنه

حتى ليط به فما لبث أن مات فسألت عن شأنه فقيل لى عجل عليها قبل أن تنضج وتعمل النار في متنها وقد كان فى بغداد وفى البصرة جماعة من الحوائين يأكل أحدهم أى حية أشرت اليها فى جونته غير مشوية وربما أخذ المرارة وسط راحته فلطعها بلسانه ويأكل عشرين عقربانة نية بدرهم وأما المشوى فان ذلك عنده عرس وقال كثير

ومازالت رقاك تسل ضغني * فتخرج من مكانها ضبابى
وترقيني لك الحاوون حتى * أجابت حية خلف الحجاب

وقال أبو عدنان وذكر أبا ثروان الخارجي حين صار الى ظهر البصرة وخرج اليه من خرج من بنى نمير

حسبت نميرا يا ابن ثروان كالالى * لقيتهم بالامس ذهلا ويشكرا
كما ظن صياد العصافير أن فى * جميع الكوى جهلا فراخا وأطيرا
فأدخل يوما كفه جحر أسود * فشرشره بالنهش حتى تشرشرا

أراد قول رؤبة

كنتم كمن أدخل فى جحر يدا * فأخطأ الأفعي ولاقي الأسودا
لو مس حر فى حجر تفصدا * بالسم لا بالاسم منه قصدا

فقدم الاسود على الافعى وهذا لا يقوله من يعرف مقدار سم الحيات وقال عنترة

حلفنا لهم والخيل تردي بنا معاً * نزايلكم حتى تهروا العواليا
عوالى سمر من رماح ردينة * هرير الكلاب يتقين الافاعيا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم اتقوا ذا الطفيتين والابتر شبه الخيطين على ظهره بخوص المقل وأنشدت لأبى ذؤيب

عفت غير نؤي الدار لا يأبينه * وأقطاع طفي قد عفت في المعالف

والطفى خوص المقل وهم يصفون بطن المرأة الهيفاء الخميصة البطن ببطن الحية وهى الأيم وقال العجاج

وبطن أيم وقواما عسلجا * وقال أدهم بن أبى الزعبرى

وشبه نفسه بحية

وما أسود بالبأس ترتاح نفسه * اذا حابة جاءت ويطرق للحس
به نقط حمر وسود كأنما * تنضّح نضحا بالكحيل وبالورس
أصم قطارى يكون خروجه * قبيل غروب الشمس مختلط الدمس
له منزل أنف بن قترة يغتذى * به السم لم يظهر نهارا الى الشمس
يقيل اذاما قال بين شواهق * تزل العقاب عن نقانقها الملس
باجرامني يابنة القوم مقدما * اذا الحرب دبت أولبست لها البس

فأجابه عنترة الصابى فقال

عساك تمنا من أراقم أرضنا * بأرقم يسقي السم من كل منطف

وقال عنترة

أترجوا حياة يابن بشر بن مسهر * وقد علقت رجلاك في ناب أسودا
أصم جبالى اذا عض عضة * تزايل عنه جلده فتبددا
بسلع صفا لم يبد للشمس قبلها * اذا ما رآه صاحب اليم أرعدا
له ربقة فى عنقه من قميصه * وسائره عن متنه قد تقددا
* رقود ضحيات كأن لسانه * اذا سمع الاجراس مكحال أرمد
يفيت النفوس قبل أن يقع الرقا * وان أبرق الحاوي عليه وأرعدا

وقال آخر

لاينبت العشب في واد تكون به * ولا يجاورها وحش ولا شجر
ربداء شابكة الانياب ذابلة * ينبوا من اليبس عن يافوخها الحجر
لو سرحت بالندا ما مسها بلل * ولو تكنفها الحاوون ما قدروا
قد حاوروها فما قام الرقاة لها * وخاتلوها فما نالوا ولا ظفروا
تقصر الورل العادى بضربتها * نكزا ويهرب عنها الحية الذكر

جملة القول في الظليم

فما فيه من الاعاجيب أنه يغتذى الصخر ويبتلع الحجارة ويعمد لى المرو من الحجارة التى

توصف بالملاسة ويبتلع الحصا والحصا أصلب من الصخر ثم يميعه ويذيبه من قانصته حتى يجعله كالماء الجارى ويقصد اليه وهو واثق باستمرائه وهضمه وأنه له غذاء وقوام وفى ذلك أعجوبتان احداهما التغذى بما لا يتغذى به والاخرى استمراؤه وهضمه للشئ الذى لو القى فى شئ ثم طبخ أبدا ما انحل ولا لان والحجارة هو المثل المضروب فى الشدة قال الشاعر * حتى يلين لضرس الماضغ الحجر وقال آخر

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر * تنبوا الحوادث عنه وهو ملموم

ووصف الله قلوب قوم بالشدة والقسوة فقال (فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقال فى التشديد (النار وقودها الناس والحجارة) لأنه حين حذر الناس أعلمهم أنه يلقى العصاة فى نار تأكل الحجارة ومن الحجارة ما يتخذه الصائغون علاة دون الحديد لأنه أصبر على دق عظام المطارق والمغطيسات بجوف النعامة يذيب هذا الجوهر الذى هذه صفته وقال ذو الرمة

وذاك أم خاضب بالسئ مرتعه * أبو ثلاثين أمسي فهو منقلب
شخت الجزارة مثل البيت سائره * من المسوح خدب شوقب حدب
كان عينيه مسما كان من عشر * صقبان لم يتشر عنهما النجب
ألهاه آء وتنوم وعقبته * من لائح المرو والمرعي له عقب

(وقال أبو النجم)

والمرء يلقيه الى معائه * فى سرطه مار على التوائه
تمر في الحلق على علبائه * تمعج الحية فى عشائه
* هاد ولو جاد بحو صلائه *

ومن زعم أن جوف الظليم انما تذيب الحجارة بقيظ الحرارة فقد أخطأ ولكن لابد من مقدار للحراوة نحو غرائز أخر وخاصيات أخر ألا ترى ان القدور التي يوقد تحتها الايام والليالى لا تذوب وساد لك على أن القول فى الخاصيات والمقابلات والغرائز حق ألا ترى أن جوف الكلب والذيب يذيبان العظام ولا يذيبان نوى التمر ونوى التمر أرخي وألين وأضعف من العظام المصمته وما أكثر ماتهضم العظم وقد يهضم العظم جوف

الاسد وجوف الحية اذا ازدردت بضع اللحم بالشره والنهم وفيها بعض العظام والبراذين التى يحل أجوافها ألقت والتبن روثا لا تستمرى الشعير والابل تقبض بأسنانها على أغصان أم غيلان وله شوك كصياصى البقر والقضبان حالكة يابسة جرد وصلاب متينة تستمرئها وتجعلها ثلطا ولا تقوى على هضم الشعير المنقع وليس ذلك الا بالخصائص والمقابلات وقد قدر كل شيء لشيء ولولا ذلك لما نفذ خرطوم البعوضة والجرجسة في جلد الفيل والجاموس ولما رأيت الجاموس يهرب إلى الانغماس فى الماء مرة ومرة يتلطخ بالطين ومرة يجلله أهله على ربيث الدكان ولو دفعو اليك مسلة شديدة المتن لما أدخلتها فى جلد الجاموس الا بعد التكلف والا ببعض الاعتماد ولذى سخر جلد الجاموس حتى انفرى وانصدع لطعنة البعوضة وسخر جلد الحمار لطعنة الذباب وسخر الحجارة لجوف الظليم والعظم لجوف الكلب هو الذى سخر الصخر الصلب لاذناب الجراد اذا أرادت أن تلقي بيضها فانها فى تلك الحال متى عقدت ذنبها فى ضاحي صخرة انصدعت لها ولو كان انصداعها من جهة الاسر ومن قوة الآلة ومن الصدع وقوة الغمز لانصدعت لما هو في الحس أشد وأقوى ولكنه على جهة التسخير والمقابلات والخصائص وكذلك عود الحلفاء مع دقته ورخاوته ولين انعطافه إذا نبت فى عمق الارض وتلقاه الاجر والخزف الغليظ ثقب ذلك عند نباته وشبابه وهو فى ذلك عبقر نضير وزعم لى ناس من أهل الاردن أنهم وجدوا الحلفاء قد خرق جوف الفار وزعم لى أبو عتاب الجزار أنه سمع الاكرة يخبرون أنهم وجدوه قد خرق فلسا بصريا وليس ذلك لشدة الغمز وحدة الرأس ولكنه يكون على قدر ملاقاة الطباع ويزعمون أن الصاعقة تسقط فى حانوت الصيقل فتذيب السيوف بطبعها وتدع الاغماد على شبيه بحالها وتسقط على الرجل ومعه الدراهم فتسبك الدراهم ولا يصيب الرجل أكثر من الموت والبحريون عندنا بالبصرة والابلة التى تكون عنها الصواعق لا يدعون فى صحون دورهم وأعالى سطوحهم شيئا من الصفر الا رفعوه لانها عندهم تنقض من أصل مخارجها على مقدار من محاذاة الارض ومقابلة المكان فاذا كانت الصفر لها ضاحيا عدلت اليه عن سننها وما أنكر ما قالوا وقد رأيتهم يستعملون ذلك وقد تسقط النواة فى تراب المتوضإ فاذا صهرج نبت فاذا انتهى الى الصاروج أمسك

وإن كان الصارج رقيقا فان قير وجعل غلاظة بقدر طول الابهام نبت ذلك النوى حتى يخرق ذلك القار ولو رام رجل خرقه بمسمار أو بسلة لما بلغ إرادته حتى يشق على نفسه والذى سخر هذه الأمور القوية في مذهب الرأي واحساس الناس هو الذى سخرى القمقم والطيجن والمرجل والطست لإبرة العقرب فما أحصى عدد من أخبرنى عن الحوائين من أهل التجارب أنها ربما خرجت من جحرها فى الليل لطلب الطعام ولها نشاط وغرام فتضرب كلما لقيت ولقيها من حيوان أو نبات أو جماد وزعم لى خاقان بن صبيح واستشهد المثنى بن بشر وما كان يحتاج خبره الى شاهد لصدقه أنه سمع فى داره نقرة وقعت على قمقم وقد كان سمع بهذا الحديث فنهض نحو الصوت فاذا هو بعقرب فتعاورها هو والمثني بنعالهما حتى قتلاها ثم دعوا بماء فصباه فى القمقم فى عشيتهما وهو صحيح لا يسيل منه شئ فمن تعجب من ذلك فليصرف بديا تعجبه الى الشئ الذى تقذفه بديها العقرب فى بدن الانسان والحمير والبغال فيفكر فى مقدار ذلك من القلة والكثرة فقد زعم لى ناس من أهل العسكر أنهم وزنوا جرادة بعد أن التقوها فوجدوا وزنها على تحقيق الوزن على مقدار واحد فان كان الشيء المقذوف من شكل الحار فلم قصرت النار عن مبلغ عمله وان كان من شكل الشئ البارد فلم قصر الثلج عن مبلغ عمله فقد وجب الآن أن السم ليس يقتل بالحرارة ولا بالبرودة اذا كان باردا ولو وجدنا فيما أردنا شيئاً بلغ مبلغ الثلج والنار لذكرناه فقد دل ما ذكرنا على أن جوف النعامة ليس يذيب الصخر الأملس بالحرارة ولكنه لا بد على كل حال من مقدار من الحرارة مع خاصيات أخر ليس بذات أسماء ولا تعرف الا بالوهم فى الجملة والسم يقتل بالكم والكيف والجنس والكم المقدار والكيف الحد والجنس غير الجوهر وذاته وتزعم الهند أن السم انما يقتل بالغرابة وأن كل شيء غريب خالط جوف حيوان قتله وقد أبى ذلك ناس فقالوا وما باله يكون غريباً اذا لاقى العصب واللحم وربما كان عاملا فيهما جميعا بل ليس يقتل الا بالجنس وليس تحس النفس الا بالجنس ولو كان الذى يميت حسهما انما يميته لأنه غريب جاز أيضا أن يكون الحساس انما حس لأنه غريب ولو كان هذا جائزاً لقيل في كل شيء وقال ابن الجهم لولا أن الذهب المائع والفضة المائعة يجمدان اذا صارا

في جوف الانسان واذا جمدا لم يجاوزا مكانهما لكان من القواتل بالغرابة وهذا القول دعوي فى النفس والنفس تضيق جداً و ! قرأت للقدماء فى النفس الاجلاد الكثيرة انما يستدل ببقاء تلك الكتب على وجه الدهر الى يومنا هذا ونسخ الرجال لها أمة بعد أمة وعمراً بعد عمر على جهل أكثر الناس بالكلام والمتكلمون يريدون أن يعلموا كل شيء ويأبي الله ذلك فهذا باب من أعاجيب الظليم

باب آخر وهو عندى أعجب من الأول

وهو ابتلاعه الجمر حتى ينفذ الى جوفه فيكون جوفه هو العامل فى اطفائه ولا يكون الجمر هو العامل فى احراقه وأخبرنى أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع أو عيان أنه شهد محمد بن عبد الله يلقي الحجر فى النار فاذا عاد كالجمر قذف به قدامه فاذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر وكنت قلت له إن الجمر سخيف سريع الانطفاء اذا لقي الرطوبات ومتى أطبق عليه شئ يحول بينه وبين النسيم خمد والحجر أشد امساكا لما يتداخله من الحرارة وأثقل ثقلا وألزق لزوقا وأبطأ انطفاء فلو أحميت الحجارة فأحماها ثم قذف بها اليه فابتلع الاولى فارتبت به فلما ثنى وثلث اشتد تعجبى له فقلت له لو أحميت أواقي الحديد ما كان منها ربع رطل ونصف رطل ففعل فابتلعه فقلت هذا أعجب من الاول والثانى وقد بقيت علينا واحدة وهو أن ننظر أيستمرى الحديد كما يستمرى الحجارة ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق ان نتعرف ذلك على الايام وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لاذائبا ولا خارجا فعمد بعض ندمائه الى سكين فأحمى ثم ألقاه اليه فابتلعه فلم يجاوز اعلى حلقه حتى طلع طرف السكين من موضع مذبحه ثم خر ميتا فمنعنا بخرقه من استقصاء ماأردنا وفى النعامة انها لا طائر ولا بعير وفيها من جهة المنسم والخزامة والشق الذى فى أنفه ماللبعير وفيها من الريش والجناحين والذنب والمنقار ماللطائر وفيها الى مافيها من شكل الطائر حذقها ونقلها الى البيض وماكان فيهامن شكل البعير لم يخرجها ولم ينقلها الى الواعر؟ وسماها أهل فارس اشترمرك كأنهم قالوا هو

طائر وبعير وقال يحيي بن نوفل

فأنت كساقط بين الحشايا * تصير الى الخبيث من المصير
ومثل نعامة تدعى بعيرا * تعاظمها اذا ماقيل طيرى
فان قيل احملى قالت فانى * من الطير المربة بالوكور

(ثم هجا خالداً فقال)

وكنت لدي المغيرة عبد سوء * تصول من المخافة للزمير
لاعلاج ثمانية وعلج * كبير السن ذي بصر ضرير
هتفت بكل صوتك أطعمونى * شرابا ثم بلت على السرير

وإنما قيل ذلك فى النعامة لان الناس يضربون بها المثل للرجل اذا كان ممن يعتل فى شئ يكلفونه بعلة وان اختلف ذلك التكليف وهو قولهم إنما أنت نعامة اذا قيل لها احملى قالت أنا طائر واذا قيل لها طيرى قالت أنا بعير وتزعم الاعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فرجعت مقطوعة الاذنين فلذلك يسمونه الظليم ويصفونه بذلك وقد ذكر أبو العباس الهذلى ذلك فقال

وأخال إن أخاكم رعنانة * اذ جاءكم بتعطف وسكون
يمشى اذا يمشى ببطن جائع * صفر ووجه ساهم مدهون
فغدا يموت ولا يرى فى بطنه * مثقال حبة خردل موزون
أو كالنعامة اذ غدت من بيتها * لتصاغ قرناها بغير أذين
فاجتثت الاذنان منها فانثنت * صلماء ليست من ذوات قرون

(ويقولون ذهب الغراب يتعلم) مشية العصفور فلم يتعلمها ونسي مشيته فلذلك صار يحجل ولا يقفز قفزان العصفور والبرغوث والجرادة ذات قفز ولا تمشى مشية الديك والصقر والبازى ولكن تمشي مشية المقيد أو الحجل قال أبو عمران الاعمى فى تحول قضاعة الى قحطان بن نزار

كما استوحش الحى المقيم ففارقوا الـ * ـخليط فلا عز الذين تحملوا
كتارك يوما مشيه من سجية * لاخرى ففاته فأصبح يحجل

(ومن أعاجيبها) أنها مع عظم عظامها وشدة عدوها لامخ فيها وفى ذلك يقول الاعلم الهذلى

على حث البراية زمخرى السـ * واعد ظل فى شرى طوال

يعني ظليما شبه عدو فرسه والحث السريع والشرى الحنظل وبرايته قوته على مايبريه من السير والسواعد مجاري مخه فى العظم وكذلك مجارى عروق الضرع يقال لها السواعد قال ونظن أنماقيل لها ذلك لان بعضها يساعد بعضا كأنه من التعاون أو من المساواة قال والزمخرى الاجوف ويقال ان قصب عظم الظليم لامخ له وقال أبو النجم

* ها ويظل المخ فى هوائه * وواحد السواعد ساعد (وقال صاحب المنطق)

ليس المخ الافى المجوفة مثل عظم الاسد وفى بعض عظامه مخ يسير وكذلك المخ قليل فى عظام الخنازير وليس فى بعضها منه شئ البتة ومن أعاجيبها أنها مع عظم بيضها تكثر عدد البيض ثم تضع بيضها طولا حتى لومددت عليها خيطا لما وجدت لها منها خروجاً عن الاخرى تعطي كل بيضة من ذلك قسطه ثم هي مع ذلك ربما تركت بيضها وذهبت تلتمس الطعام فتجد بيض أخري فتحضنه وربما حضنت هـذه بيض تلك وربما ضاع البيض بينهما وأما عدد بيضها ورئالها فقد قال ذو الرمة

أذاك أم خاضب بالسيء مرتعه * أبو ثلاثين أمسى وهو منقلب

وفى وضعها له طولا وعرضا على خط وسطر يقول

وما بيضات ذى لبد بخف * سقين بزاجل حتى روينا

وضعن فكاهن على غرار * هجان اللون لم تقرع جنينا

تبيت تحفهن بمرفقيها * وتلحفهن هفهافا ثخينا

وقال الآخر

تهوى بنا ملزمات في مرافقها * فتل صلاب مياسير معاجيل

يدامهاة ورجلا خاضب أشق * كأنه من جناه الشرى مخلول

هيق هجف وزفافيـة مرطا * زعراء ريش جناحيها هذاميل

كانما منثني أقماع ما هصرت * من الفقار بلبتيها ثآليل

تروحا من سنام العرق فالتبطا * الى الفقار التي فيها المداخيل

اذا استهل بشؤبوب فقد فعلت * بما أصاب من الارض الافاعيل
فصادف البيض قد أبدت مناكبها * منها الرآل لها منها سرابيل
فكبا ينقفان البيض أعينها * كأنها المذق البسباس مغسول

والشعراء يشبهون القدر الضخمة التي تكون بمنزل العظيم واشباهه من الاجواد بالنعامة قال الرماح ابن ميادة

وقلت لها الا تعجلي [1] * كذلك تقري الشوك مالم تزدد
الي جامل مثل النعامة يلتقى * عوازبه فوق | [2]

جامع يعني القدر وجعلها مثل النعامة وقال ابن ميادة يمدح الوليد بن يزيد

نتاج المشار اذا المنقيات شتت * روابدها مثل النعام المواطف

وقال الفرزدق

وقدر كحيزوم النعامة أحشمت * بأجفال خشب زال منها هيشما

وضحك أبو كلدة حين أنشد شعر ابن النطاح وهو قوله

والذئب يلعب بالنعام الشارد * قال وكيف يلعب بالنعام والذئب لا يعرض لبيض النعام وفراخه حين لا يكونان حاضرين أو يكون أحدهما لانهما متى ناهضاه ركضه الذكر فرماه الى الانثى وأعجلته الانثي فركضته ركضة تلقيه الي الذكر فلا يزال كذلك حتى يقتلاه أو يعجزهما هربا واذا حاول ذلك منه أحدهما لم يقو عليه قال فكيف يقول والذئب يلعب بالنعام الشارد وهذه حاله مع النعام (وزعم) ان نعامتين اعتورتا ذئبا فهزمتاه وصعد شجرة لجلدهما فنقره أحدهما فتناول الذئب رأسه فقطعه ثم نزل الى الآخر فساوره فهزمه والظليم يوصف بالجبن ويوصف بالنفار والتوحش وقال سهم بن حنظلة في هجائه بني عامر

إذا ما رأيت بني عامر * رأيت جفاء ونوكا كثيرا
نعام تجر بأعناقها * ويمنعها نوكها أن تطيرا

والنعامة تخذها الناس في الدور وضررها شديد لانها ربما رأت في أذن الجارية أو الصبية قرطا فيه حجر أو حبة لؤلؤ فتخطفه لتأكله فكم أذن قد خرقتها وربما رأت ذلك في

(١) بياض بالاصل (٢) بياض. بالاصل

لبة الصبي أو الصبية فتضربه بمنقارها فربما خرقت ذلك المكان ومما يشبه به الفرس مما في الظليم قول امرئ القيس بن حجر

وخد أسيل كالمسن وبركه * كجؤجؤ هيق دفه قد تمورا

وقال عبدة بن شاس

وله بركة كجؤجؤ هيق * ولبان مضرج بالخضاب

وقال أبو داود الايادى

يمشي كمشي نعامتين * يتابعان أشق شاخص

وقال آخر كأن حماته كردوس نحل * مقلصة على شقي ظليم

وقال أبو دواد الايادى

كالسيد ما استقبلته واذا * ولىّ تقول ململم ضرب

لام اذا استقبلته ومشي * متتابعا ما خانه عقب

يمشى كمشي نعامة تبعت * أخرى إذا ماراعها خطب

القول فيما اشتق له من البيض اسم

قال العديس الكناني باضت البهمى أى سقطت نصالها وباض الصيف وباض القيظ اشتد الحر وخرج كل مافيه من ذلك وقال الاسدى

فجئنا وقد باض الكرى من عيوننا * فتى من عيون المقرفين مسلما

وقال أمية بن أبي الصلت

ركبت بيضة البيات عليهم * لم يحسوا منها سراها نذيرا

وقال الراعي يهجو ابن الرقاع

لو كنت من أحد يهجا هجوتكم * يا ابن الرقاع ولكن لست من أحد

تأبي قضاعة لم تقبل لكم نسبا * وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

وفي المديح قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنا بيضة البلد ومنه بيضة الاسلام وبيضة القبة أعلاها وكذلك الصومعة والبيض قلانس الحديد وقال أبو حية النمرى

وصد الغانيات البيض عني * وما إن كان ذلك عن تقالى

رأين الشيب باض على لداتى * وأفسد ما على من الجمال

وبيض الجرح والجراح والجبن الوعاء الذي يجمع فيه الصديد اذا خرج برئ وصلح وقد يسمون مافي بطون اناث السمك بيضا وما في بطون الجراد بيضاً وان كانوا لا يرون قشراً يشتمل عليه ولا قيضاً يكون لما فيه حضناً والخرشاء قشرة البيض إذا خرج مافيه وسلخ الحية يقال له الخرشاء وقال الأعشى في تشبيه الذلفاء الحسناء بالبيضة

أو بيضة في الدعص مكنونة * أودرة سيقت إلى تاجر

وقال فى بيض الحديد

كأن نعام الدوِ باض عليهم * اذا شام يوما للصريخ الممدد

وقال الأعشي

أتينا من البطحاء يبرق بيضنا * وقد رفعت نيرانها فاستقلت

وقال زيد الخيل

كأن نعام الدوِ باض عليهم * فأحدافهم تحت الحديد خوازر

قال ويقال تقيضت البيضة والاناء والقارورة تقيضاً إذا انكسرت فلقا فاذا هى لم تفلق فهى متلازقة فهى منقاضة انقياضاً وقيض البيضة قشرتها اليابسة وغرقئها القشرة الرقيقة التى بين اللحم وبين الصميم قال والصميم الجلدة قال ويقال غرقأت البيضة إذا خرجت وليس لها قشر ظاهر غير الغرقئة قال الرّداد غرقات الدجاجة بيضها فالبيضة غرقات والخرشاء مغرقات الجلدة الغليظة من البيضة بعد أن تثقب فيخرج مافيها من البلل وجماعها الخراشى غير مهموز قال وقال رداد خرشاء الحية سلخها حين يسلخ جلدها قال وتغدى إعرابي عند بعض الملوك فدبت على حلقه قملة فتناولها فقصعها بإبهامه وسبابته ثم قتلها فقالوا له ويلك ماصنعت فقال بأبي أنتم وأمي ما بقى إلا خرشاءها وقال المرقش

إن تغضبوا نغضب لذاكم كما * تنسل من خرشائها الأرقم

وقال دريد بن الصمة في بيض الحديد (١)

---

(١) بياض بالاصل

قال ويقال فى الحافر نزى ينزو وأما الظليم فعا يقعوا مثل البعير يقال قاع يقوع قعيا وقياعاً وقعا يقعوا قعواً فهذا ما يسوون فيه بينه وبين البعير ويقال خف البعير والجمع أخفاف ومنسم البعير والجمع مناسم وكذلك يقال للنعامة وقال الراعي

ورجل كرجل الاخدرى يشيلها * وظيف على خف النعامة أروح

وقال جران العود

لها مثل أظفار الكناء ومنسم * أزج كظنبوب النعامة أروح

قال والزاجل ماء الظليم وهو كالكراض من ماء الفحل وأنشد ابن أحمر

وما بيضات ذى لبد هجف * سقين بزاجل حتى روينا

وقال الطرماح

سوف تدنيك من لميس سبنداة * أمارت بالبول ماء الكراض

وربما استعاروا المناسم قال الشاعر

توعدنى بالسجن والاداات * إذا غدت تأظبت أداات

* تربط بالحبل أكيرعات *

قال ويقال لولد النعام الرال والجمع رئال ورئلان وحفان وحفانة للواحدة والجمع حفان وحسكل ويقال هذا خيط نعام وخيطان وقال الأسود بن يعفر

وكأن مرجعهم مناقف حنظل * لعب الرئال بها وخيط نعام

ويقال قطيع من نعام ورعلة من نعام وقال الاصمعى الرعلة القطعة من النعام والسرب من الظباء والقطا والاجل من الظاف وقال طفيل الغنوى في بيضة الحلي وما أشبه ذلك

صوائغ تنبى بيضة الحلى بعد ما * أذاعت بريعان الشباب المغرب

قال ويقال للظليم اذا رعي فى هـذا النبات ساعة وفى هذا ساعة قد عضب يعضب تعضيبا وأنشدني لذي الرمة

الهاه آء وتنوم وعقبته * من لائح المرو والمرعى له عقب

قال ويقال للرجل اذا كان صغير الاذنين لاصقتين بالرأس أصمع وامرأة صمعاء

ويقال خرج السهم أصمع إذا ابتلت قذذه من الدم وانضمت وقال أبو ذؤيب * سهما فخر وريشة متصمع * ويقال أتانا بثريدة متصمعة إذا رققها وحدد رأسها وصومعة الراهب منه لانها دقيقة الرأس وفلان أصمع القلب اذا كان ذكياً حديداً وقال طرفة

لعمرى لقد مرت عواطس جمة * ومني قبيل الصبح ظبي مصمع

أراد ماضيا وقال الشاعر فى بيضة البلد

أقبلت ترضع بكراً لاخطام لها * حسبت رهطك عندى بيضة البلد

ويشبه عظام جماجم الرؤوس ببيض النعام وقال الاعرج القيني

بكينا بالرماح غداة طرق * على قتلي بناصفة كرام
جماجم غودرت بحمام عرق * كأن فراشها بيض النعام

وقال مقاتل بن طلبة

رأيت سحيما فاقد الله بينها * تنيك بأيديها وتأبي أيورها

وقال السحيمي يرد عليه

مقاتل بشرها ببيض نعامة * وأن لم تبشرها فأنت أميرها

وقال أبو الشيص الخزاعى في بيضة الخدر

وأبرز الخدر من ثنييه بيضته * وأعجل الروع نصل السيف مخترط
فثم تفديك منا كل غانية * والشيخ يفديك والولدان والشمط

وقال جحش بن نصيب

كأن فلاق الهام تحت سيوفنا * خذاريف بيض عجل النقف طائره

وقال مهلهل في بيضة الخدر

وتجول بيضات الخدور حواسرا * يمسحن فضل ذوائب الأيتام

وهو وماقبله يدلان على أنهم لايشبهون ببيض النعام الا الابكار قال الشاعر

وبيض فلقنا بالضحى من متونها * سماوة بيض كالخباء المقوض
هجوم علينا نفسه غير أنه * متي يرم في عينيه بالشخص ينهض

يعنى بالبيض بيض النعام وسماوة الشيء شخصه لان الظليم لما رآهم فزع ونهض وهذا

البيت أيضاً يدل على أنه روحه وقال ذو الرمة في بيض النعام

تراه اذا هب الصبا ذرفت به * غرابيب من بيض هجائن دردق

قال والصبا والجنوب تهبان في أيام يبس البقل وهو الوقت الذي يثقب النعام فيه البيض يقول درجت به رئلان سود غرابيب وهي من بيض هجائن أي بيض والدردق الصغار وهو من صغر الرئلان قال طفيل بن عوف الغنوى وذكر كيف يأخذون بيض النعام

عوازب لم تسمع نبوح مقامة * ولم تر ناراً تم حول مجرم

سوى نار بيض او غزال معفر * أغر من الخنس المناخر توأم

هذه ابل راع معزب صاحب بوادى وبدوة لا يأتى المحاضر والمياه حيث تكون الثيران وهو صاحب ابن وليس صاحب بقل فابله لا ترى ناراً سوى نار بيض أو غزال وهذه النار هي النار التى يصطاد بها الظباء والرئلان وبيض النعام لأن هذه كلها تعشى اذا رأت ناراً ويحدث لها فكرة فيها ونظر والصبى الصغير كذلك وأول مايعاتب الرضيع أول ماينا غى المصباح وقد يعترى مثل ذلك الاسد ويعترى الضفدع لان الضفدع ينق فاذا رأى نارا سكت وهذه الاجناس قد تفتر بالنار ويحتال لها بها وتوصف الغيوم المتراكمة بان عليها نعاما قال الشاعر

كان الرباب دوين السحا * ب نعام تعلق بالارجل

وقال آخر

خليلى لا تستسلما وادعوا الذى * له كل أمر أن يصوب ربيع

حبا لبلاد أبعد المحل أهلها * وفى العظم شئ فى شظاه صدوع

بمنتضك عن النشاص كانها * جبال عليهن النسور وقوع

وقال آخر

وضع النعامات الرجال برمدها * من بين مخفوض وبين مضلل

والنعائم في السماء والنعائم والنعامتان من آلات السر وبيت الصديد وقال في مثل ذلك عروة بن مرة الهذلى

ذات فرند بزلف الفاس مشرفة * طويلها سرب بالناس مجنوب

لم يبق من عرسها الا نعامتها * حالان منهزم منها ومصبوب

وفي المثل مايجمع بين الاروي والنعام لان الاروي تسكن الجبال ولا تسهل والنعام تسكن السهل ولا ترقي في الجبال ولذلك قال الشاعر

وتبل يكردس بالدراعين * كمشي الوعول على الظاهر

وقال كثير

يهدى مطايا كالحنى ضوامراً * بنباط أغبر شاخص الامثال
فكأنه اذ يغتدي متسما * وهد فوهد ناطق برئال

وقال الاعشى في تشبيه النعام بما يتدلى من السحاب من قطع الرباب

ياهل ترى برقاً على الجبلين * يعجبني انحيابه *
متساقط الأكناف ذي * زجل أرب به سحابه
مثل النعام معلق * لما رقا ودنا ربابه

وقال وشبه ناقته بالظليم

واذا أطاف لبابه بسديسه * ومسافراً ولجابه وتزيدا
شبهته صعلا يباري هقلة * زبداء في نبط تعانق أربدا

وذكر زهير الظليم وأولاده حتى شبه ناقته بالظليم

كاني وردفي والقراب ونمرقي * على خاضب الساقين أرعن نقنق
ترامى به حب الصحاري وقد أرى * سماوة قشراء الوظيفة عيهق
تحن الى ميل الجناحين جثم * لدى سكن عن بيضها المتفلق
تحطم عنها عن خراطم أسيح * وعن حدق كالمح لم يتفلق

السيح الجدور وكان اسم فرس خالد بن نضلة النعامة قال

تدارك أحساء النعامة جيداً * ودودان أردته الى مكبلا

وقال عروة بن الورد

أليس ورائي أن أدب على العصا * فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قعر البيت كل عشية * يطيف بي الولدان أهدج كالرأل

وشبيه بهذا أن الشيخ الضعيف فى مشيته شبيه بهدجان الرأل وقال أبو المرهف

أشكو اليك وجعاً بركبتى * وهدجانا لم يكن فى مشيتى
* كهدجان الرال حول النقنق *

وقال آخر ولست أدرى أيهما حمل على صاحبه

أشكو اليك وجعا بمرفقي * وهدجانا لم يكن فى خلق
* كهدجان الرّال حول النقنق *

ولم يفضحه إلا قوله أشكو اليك وجعا بمرفقى لأن الأول حكى أن وجعه فى المكان الذى يصيب الشيوخ ووجع المرفق مثل وجع الأذن وضربان الضرس ليس من أوجاع الكبر فى شئ وقال ابن ميادة وذكر بني نعامة من بنى أسد وقد كان قطري بن الفجاءة يكني أبا نعامة

فهل يمنعني أن أسير ببلدة * نعامة مفتاح المخازى وبابها

وهجا دريد بن الصمة رجلا فجعل البيضة الفاسدة مثلاله ثم الحق النسر بأحرار الطير وكرامها وماراً يتهم يعرفون ذلك لنسر فقال

فانى على رغم العذول لنازل * بحيث التقي عيط وبيض بنى بدر
أيا حكم السوآت لاتهج واضطجع * فهل أنت إن هاجيت إلا من الحصر
وهل أنت الا بيضة مات فرخها * ثوت فى سلوخ الطير في بلد قفر
حواها بغاث شرطير علمتها * وسلاء ليست من عقاب ولا نسر

ويقال للأنثي من ولد النعامة قلوص على التشبيه بالنعام من الابل وهذا الجمع الى ماجعلوه له من اسم البعير والى ما جعلوا له من الخف والمنسم والخزامة وغير ذلك قال عنترة

تأوى به قلص النعام كما أوت * حزق يمانية لأعجم طمطم

وقال شماخ بن ضرار

*قلوص نعام زفها قد تموراً *

ووصف لبيد الرئال فقال

فأضحت قد خلت الاغرارا * وعرفا بعد احياء حلال

ونيطا من خواضب مزلفات * كأن رئالها ورق الامال

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه

لعمرك ان إلّك فى قريش * كإلّ الفيل من رال النعام

وقد عاب عليه هذا البيت ناس وظنوا أنه أراد التبعيد فذكر شيئين قد يتشابهان من وجوه وحسان لم يرد هذا وإنما أراد ضعف نسبه فى قريش وأنه حين وجد أدني نسب انتحل ذلك النسب وقال الفرزدق وذكر الفرس الذي يقال له النعامة وهو فرس الحارث ابن عباد التي يقول فيها

قربا مربط النعامة مني * لقحت حرب وائل عن حيال

وقول الفرزدق

تريك نجوم الليل والشمس حية * كرام بنات الحارث بن عباد

نساء أبوهن الاغر ولم تكن * من الازد في جاراتها وهداد

أبوها الذي قاد النعامة بعد ما * أبت وائل فى الحرب غير تماد

وقد مدحوا بنات الحارث بن عباد هذا فمن ذلك قوله

جاؤا بحارشة الضباب كأنهم * جاؤا ببنت الحارث بن عباد

ويلحق هذا البيت بموضعه من قولهم باض السيف ومن باض القيظ وقال مضرس

بداعية قد باكر الصيف ماءها * وباضت عليها شمسه وحرائره

وابن النعامة فرس حرز بن لوذان وهو الذي يقول لامرأته حين أنكرت عليه ايثاره فرسه باللبن (١)

كذب العتيق وماء شن بارد * ان كنت سائلي غبوقا فاذهبي

إنى لاخشي أن تقول خليلي * هـذا غبار ساطع فتلبب

إن العدو لهم اليك وسيلة * إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

ويكون مركبك القعود وحدجه * وابن النعامة يوم ذلك مركبي

وقال أبو بكر الهذلي

(١) المشهوران هذه الابيات لعنترة العبسي

وقع النعامات الرجال بربدها * يدفعن بين مشمشع ومهلل

وقال ذو الاصبع العدوانى

ولى ابن عم على ما كان من خلق * مخالف لى أقليه ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا * فخالني دونه بل خلته دونى

وقال أبو دواد الايادى في ذكر الصيد وذكر فرسه

وأخذنا به الضرار وقلنا * بحقير بنانه أضمار *
وأتى يبتغي تفرس أم البيـ * ـض شدا وقد تعالى النهار
غير جعف أوابد ونعام * ونعام خلالها أثوار *
فى حوال العقارب العمر فيها * حين ينهضن بالصباح عذار

ثم قال

يتكشفن من صرائع ست * قسمت بينهن كأس عقار
بين ربداء كالمصلتة أفق * وظليم مع الظليم حمار
ومهاتين حرس ورئال * وسيوف كأنها أوتار

ووصف علقمة بن عبدة ناقته وشبهها بأشياء منها ثم أطنب فى تشبيهه إياها بالظليم

تلاحظ السوط شزرا وهي ضامزة * كما توجس طاوى الكشح موشوم
كأنها خاضب زعر قوائمه * أجني له باللوى شرى وتنوم
يظل فى الحنظل الخبطان ينقفه * وما استطف من التنوم مخذوم
فوه كشق العصا لا يأتبينه * أسك ما يسمع الاصوات مصلوم
* يكاد منسمه يختل مقلته * كأنه حاذر للنخس مشهوم *
حتى تذكر بيضات وهيجه * يوم رذاذ عليه الريح مغيوم
فلا تزيده في مشيه نفق * ولا الزفيف دوين الشد مشؤوم
يأوي الى حسكل زعر حواصلها * كأنهن إذا بركن جرثوم
وضاعة كعصى الشرع جؤجؤه * كأنه بتناهى الروض علجوم
حتى تلافى وقرن الشمس مرتفع * أدحي عرسين فيه البيض مركوم

يومي اليها بانقاض وتقنقة * كما تراطن فى أفدانها الروم
صعل كأن جناحيه وجؤجؤه * بيت أطافت به خرقاء مهجوم
تحفه هقلة سطعاء خاضبة * تجيبه بزمار فيه ترنيم

(الأصمعي) قال أخبرني رجل من أهل البصرة قال أرسل شيخ من ثقيف ابنه فلانا ولم يحفظ اسمه الى ابن سيرين فكلمه بكلام وأم ابنه هذا قاعدة ولا يظن أنها تفطن فقال له يابني اذهب إلى ابن سيرين فقل له رجل رأي أن له نعامة تطحن قال فقلت له ذلك فقال هذا رجل اشترى جارية فخبأها فى بنى حنيفة قال فجئت أبي فاخبرته فنافرته أمي وما زالت به حتي اعترف أن له جارية فى بنى حنيفة وما أعرف هذا التأويل ولولا أنه من حديث الأصمعي مشهور ماذكرته فى كتابي (وأما قول الشاعر) الهذلى فى مسيلمة الكذاب فى احتياله وتمويهه وتشبيه مايحتال به من أعلام الانبياء بقوله

ببيضة قارور وراية شادن * وتوصيل مقصوص من الطير جائف

قال هذا شعر أنشدناه أبو الزرقاء سهم الخثعمى هذا أكثر من أربعين سنة والبيت من قصيدة قد كان أنشدنيها فلم أحفظ منها إلا هذا البيت فذكر أن مسيلمة طاف قبل التنبي فى الاسواق التى كانت بين دور العجم والعرب يلتقون فيها للتسوق والبياعات كنحو سوق الابلة وسوق لقه وسوق الانبار وسوق الحيرة قال وكان يلتمس تعلم الحيل والنيرجات واختيارات النجوم والمتنبئين وقد كان أحكم حيل السدنة والحواء وأصحاب الزجر والخط ومذهب الكاهن والعياف والساحر وصاحب الجن الذى يزعم أن معه تابعه قال فخرج وقد أحكم من ذلك أمورا فمن ذلك أنه صب على بيضة من خل قاطع والبيض اذا أطيل إنقاعه فى الخل لان قشره الاعلاحتى اذا مددته استطال واستدق وأمتد كما يمتد العلك أو على قريب من ذلك قال فلما تم له فيها ماحاول وأمل طولها ثم ادخلها قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى جفت ويبست فلما جفت انضمت وكلما أنضمت استدارت حتى عادت كهيئتها الأولى فأخرجها إلى مجاعة وأهل بيته وهم أعراب وادعى بها أعجوبة وأنها جعلت له آية فآمن به في ذلك المجلس مجاعة وكان قد حمل معه ريشاً فى لون ريش أزواج حمام وقد كان يراهن فى منزل مجاعة مقاصيص

فالتفت بعد أن أراهم الآية فى البيض الى الحمام فقال لمجاعة إلى كم تعذب خلق الله بالقص ولو أراد الله للطير خلاف الطيران لما خلق لها أجنحة وقد حرمت عليكم قص أجنحة الحمام فقال له مجاعة كالمتعنت فسل الذى أعطاك فى البيض هذه الآية أن ينبت لك جناح هذا الطائر الذكر الساعة وقلت لهم أما كان أجود من هذا وأشبه أن يقول فسل الذي أدخل لك هذه البيضة فم هذه القارورة ان يخرجها كما أدخلها قال فقال كان القوم كانوا أعرابا ومثل هذا الامتحان من مجاعة كثير ولعمرى إن المتنبئ يخدع ألفاً مثل قيس بن زهير قبل أن يخدع واحداً من آخر المتكلمين وان كان ذلك المتكلم لا يشق غبار قيس فيما قيس بسبيله قال مسيلمة فان أنا سألت الله ذلك فانبته له حتى يطير وأنتم ترونه أتعلمون انى رسول الله اليكم قال نعم قال فانى أريد أن أناجي ربي وللمناجاة خلوة فانهضوا عنى وان شئتم فادخلوه هذا البيت وادخلونى معه حتى أخرجه اليكم الساعة وافى الجناحين يطير وأنتم ترونه ولم يكن القوم يسمعوا بتغرير الحمام ولا كان عندهم باب الاحتياط في أمر المحتالين وذلك ان عبيدا الكيس فأنه المقدم فى هذه الصناعة لو منعوه الستر والاختفاء لما وصل إلى شئ من عمله جل ولا دق ولكان واجداً من الناس فلما خلا بالطائر اخرج الريش الذى قدهياه فأدخل طرف كل ريشة كما كان معه فى جوف ريش الحمام المقصوص من عند المقطع والقص وقضيب الريش أجوف وأكثر الأصول حداد وصلاب فلما وفي الطائر ريشه صار فى العين كأنه برذون موصول الذنب لايعرف ذلك الا من ارتاب به والحمام بنفسه قد كان له أصول ريش فلما غرزت تمت فلما أرسله من يده طار وينبغي أن لا يكون فعل ذلك بطائر قد كانوا قطوه بعد أن ثبت عندهم فلما فعل ذلك ازداد من كان آمن به بصيرة وآمن به آخرون لم يكونوا آمنوا به ونزع منهم فى أمره كل من كان مستبصراً في تكذيبه قال ثم إنه قال لهم وذلك فى مثل ليلة منكرة الرياح مظلمة فى بعض زمان البوارح ان الملك على أن ينزل إلى والملائكة تطير وهى ذوات أجنحة ولمجيء الملك زجل وخشخشة وقعقعة فمن كان منكم ظاهراً فليدخل منزله فان من تأمل اختطف بصره ثم صنع راية من رايات الصبيان التى تعمل من الورق الصيني ومن الكاغدوتجعل

لها الاذناب والاجنحة وتعلق في صدورها الجلاجل وترسل يوم الريح بالخيوط الطوال الصلاب قال فبات القوم يتوقعون نزول الملك ويلاحظون السماء وأبطأ عنهم حتى قام جل أهل اليمامـة وطلبت الريح وقويت فأرسلها وهم لا يرون الخيوط والليل لا يبين عن صورة الرق وعن دقة الـكاغـد وقد توهموا قبل ذلك الملائـكة فلما سمعوا ذلك ورأوه تصارخوا وصاح من صرف بصره ودخل بيته فهو آمن فأصبح القوم وقـد أطبقوا على نصرته والدفع عنه فهو قوله

ببيضـة قارور وراية شادن * وتوصيل مقصوص من الطير جائف

فقلت لسهم يكون مثل هذا الأمر العجيب فلا يقول فيـه شاعر ولا يشيع به خبر قال وكلما كان فى الارض عجب أو شئ غريب فقـد وجب أن يشيع ذكره ويقال فيه الشعر ويجعل زمانه تاريخاً ألسنا معشر العرب نزعم أن كسري أبرويز وهو من أحرار فارس من الملوك الاعاظم وسـليل ملوك وأبو ملوك مع حزمه ورأيه وكماله خطب إلى النعمان بن المنذر وإلى رجـل يرضى أن تـكون امرأته ظئراً لبعض ولد كسرى وهو عامله ويسميه كسري عبداً وهو مع ذلك أحيمر أقيشر أمامن اشلاء قصي بن معد وأمامن عرض لخم وهو الذى قالوا تزوج مومسة وهى الفاجرة ولا يقال لها مومسة الا وهي بذلك مشهورة وعرفها بذلك وأقام عليها وهجى بها ولم يحفل بهجائهم ومما زاد فى شهرتها قصة المرقش وناكها قرة بن هبيرة حين سباها فعلم بذلك وأقام عليها ثم لم يرض حتي قال لها اهل مسك قالت وأنت والله لو قدر عليك لمسك فلم يرض بها حتى قال لها صفيه لى فوصفته حتى قالت كان شعر خديه حلق الدرع وبال على رأسه خلف ابن نوالة الـكنانى عام حج ونضره عدى بن زيد بأحمق سبب وخطب أخوه المنذر إلى عبيدة بن همام فرده أقبح الرد وقال

أتونى ولم أرض مابيتوا * وقد طرقونى بأمر نكر

لأنكح أيتهم منـذراً * وهل ينكح العبد حراً بحر

ثم مع ذلك خطب اليه كسرى بعض بناته فرغب بها عنه حتي كان ذلك سبب هربه وعلة لقتله فهل رأيت شاعراً في ذلك الزمان مع كثرة الشعراء فيه ومع افتخارهم بالذى

كان منهم في يوم جلولى ويوم ذى قار وفي وقائع المثني بن حارثة وسعد بن أبي وقاص فهل سمعت فى ذلك بشعر صحيح ظريف المخرج كما سمعته فى جميع مفاخرهم مما لايدانى هـذا المفتخر ولقد خطب بعض اخوانه الى رجال من نزار من غـير أهل البيوتات فرغبوا عنهم وأم النعمان سلمى بنت الصائغ يهودى من أنباط الشام ثم كان بخله افعل غير محمود وقد قال خلف بن الايهم لحسان بن ثابت قد دخلت على ورأيتني فاين أنا من النعمان قال والله مع هذه المثالب كلها قد رغب بنفسه عن مصاهرة كسرى وهو من ابنه الـكسور وكلما كان أبرويز أعظم خطراً كانت ألفته أنفر للعرب وأدل على مايدعون من العلو فى النسب وكان الامر مشهوداً ظاهراً وموروداً على الاسماع مستفيضا فاذقد تهيأ أن يكون مثل هذا الامر الجليل والمفخر العظيم والعرب أنفر الامم ومع ذلك قد أغفلوه فشأن مسيلمة أحق بأن يجوز ذلك عليه وأنشدني يوسف لبعض شعراء بنى حنيفة وكان يسمى مسيلمة ويكنى أبا ثمامة

لهـفى عليـك أبا ثمـامه ٭ لهفي على ركنى شمامه

كم آية لأبيهم ٭ كالشمس تطلع من غمامه

وقد كتبنا قصته وقصة ابن النواحة فى كتابنا الذى ذكرنا فيه فصل مابين النبي والمتنبي وذكرنا جميع المتنبئين وشأن كل واحد منهم على حدته وبأى ضرب كان يحتال وذكرنا جملة احتيالاتهم والابواب التى تدور عليها مخاريقهم فإن أردت أن تعرف هذا الباب فاطلب هذا الكتاب فانه موجود وقد هجا عبد القيس خفاف البرجمى النعمان بن المنذر في الجاهلية وذكر والده الصائغ فقال

لعن الله ثم ثني بلعن ٭ ابن ذا الصائغ الظلوم الجهولا

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ٭ ثم لا يرزء العدو فتيلا

وكان سهم الحنفى يلى طبرستان لمعن بن زائدة مع حداثة سنه يومئذ وكان له مروءة وقدر في نفسه وبنو حنيفة مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم حتى كانهم واحدهم يعدلون بكرا كلها ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم وفي إخوتهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجازون وليس

ذلك المكان الخصب وانهم أهل مدر وآكالو تمر لان الاوس والخزرج كذلك وهم في الشعر كما قد علمت وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحر فقد تعرف أن طعامهم أخبث من طعام أهل اليمامة وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً وهم وان كان شعرهم أقل فان ذلك القليل يدل على طبع فى الشعر عجيب وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ولا من قلة الخصب الشاغل والغنا عن الناس وانما ذلك عن قدر ماقسم الله لهم من الحظوظ والغرائز والبلاد والاعراق مكانها وبنو الحارث بن كعب قبيل شرُف يجرون مجاري ملوك اليمن ومجارى سادات أعراب أهل نجد ولم يكن لهم فى الجاهلية كبير حظ في الشعر ولهم فى الاسلام شعراء مفلقون وبنو بدر كانوا مفحمين وكان ماأطلق الله به السنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر فى أنفسهم وقد يحظابالشعر ناس ويخرج آخرون وان كانوا مثلهم أو فوقهم ولم تمدح قبيلة فى الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم ولم يتهيأ من الشاهد والمثل لمادح فى أحد من العرب ماتهيأ لبنى بدر وقد كان في ولد زرارة لصلبه شعراء كلقيط وحاجب وغيرهما من ولده ولم يكن لحذيفة ولا حصن ولا عيينة بن حصن ولا لحمل بن بدر شعر مذكور وقد كان عبد العزيز بن مروان أخطأ في الشعر من كثير من خلفائهم ولم يكن أحدمن أصحابنا من خلفائنا وأئمتنا أخطأ فى الشعر من الرشيد وقد كان يزيد بن مزيد وعمه ممن أخطأه الشعر وما أعلم فى الارض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً (الصم من الحيوان) تقول العرب ضربان من الحيوان لا يسمعان الاصوات وذلك عام في الافاعي والنعام واعتد من أدعي للنعام الصمم بقول علقمة

فوه كشق العصا لايا تبينه * أسك مايسمع الاصوات مصلوم

قال ولايصلح أن تكون مافى الموضع لذى ذكر لان ذلك يصير كقول القائل التمر حلو والثلج بارد والنار حارة لا يحتاج الى أن يخبران الذي يسمع هذا الصوت لانه لامسموع الا الصوت قال خصمه فقد قال علقمة بن عبدة

حتى تلافى وقرن الشمس مرتفع * أدحي عرسين فيه البيض مركوم

يوحي اليها بانقاض ونقنقة * كما تراطن فى أفدانها الروم

ثم قال تحفة هقلة سفعاء خاذلة * تجيبه بزمار فيه ترنيم

واحتج من زعم أنها تسمع بقوله

وضخم صنام بين ضمر ورحله * وبيض تؤام بين ميث ومذنب
متى ماتشأ تسمع عواراً بقفرة * تجيب زماراً كاليراع المثقب

وقال الطرماح

يدعو العوار بها الزمار كأنه * أيم تجاوبه النساء العود

قال وصوت النعامة الذكر العوار وصوت الانثى الزمار وأنشد الذى زعم الهذلى أنها لاتسمع قول أسامة بن الحارث الهذلى

تذكرت إخوانى فبت مسهدا * كما ذكرت بردا من الليل فاقدا
لعمرى لقد أمهلت في نهى خالد * الى الشام اما يعصينك خالدا
وأمهلت في اخوانه فكأنما * تسمع بالنهى النعام المشردا

وقال الذي زعم انها تسمع فقد قال الله عز وجل (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) ولوعني أن عماهم كعمى العميان وصممهم كصمم الصمان لما قال (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وانما ذلك كقوله (انك لا تسمع الموتي ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وكيف تسمع المدبر عنك ولذلك يقال ان الحب يعمى ويصم وقد قال الهذلى * تسمع بالنهى النعام المشردا * والشارد النافر عنك لايوصف بالفهم ولوقال تسمع بالنهي وسكت كان أبلغ فيما يريدوهو كما قال الله تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) قال الراجز

ردى ردى ورد قطاة صما * كدرية أعجبها بردُ الما

أي لأنها تسمع صوتا يثنيها ويردها وأنشد قول الشاعر

دعوت خليداً دعوة وكأنما * دعوت به ابن الطود أوهو أسرع

والطود الجبل وابنه الحجر الذي يتدهده منه كقوله * كجلمود صخر حطه السيد من عل *
وقال الراجز

ومنهل أعور إحدى العينين * بصيرة الاخرى أصم الاذنين

كأنه كان في ذلك المنهل بيران والآبار أعين فغورت احدى البيرين وتركت الاخرى وقوله أصم الاذنين لا ان كان عنده في الارض فضل وخلا حيث لا يسمع فيه صوت جعله إذ كان لا يسمع صوتا أصم وان كان ذلك لفقد الاصوات قال وقد قال الحارث بن حلزة قولا يدل على أنها لا تسمع حيث قال

ولقد أستعين يوما على الهـ * ـم اذا خف بالثوى الثواء
بزفوف كأنها هقلة * أم رئال دوية سقفاء

ثم قال

آنست نبأة وأفزعها القـ * ـناص عصرا وقد دنا الأمساء
فترى خلفهن من سرعة المشـ * ـي منينا كأنه اهباء

ولو قال افزع القناص ولم يقل آنست نباة والنبأة الصوت لكان لكم في ذلك فقال وقال امرؤ القيس

وصم صلاب ما تعبن من الوجا * كأن مكان الردف منه على رال

وانما يعنى انها مصمتة غير جوفاء وقال الآخر

قل مابدالك من زور ومن كذب * حلمي أصم وأذني غير صماء

يريد أن حلمه ليس بسخيف متخلخل وليس بخفيف سار ولكنه مصمت وقال الشاعر

* واسأل من صماء ذات صليل * وانما يريد أرضا يابسة ورملة نشافة تسال الماء أى تريده وتبتلعه وهى في ذلك صماء وقد قال الله لناس يسمعون (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) وذلك على المثل وقال (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) وذلك كله على مافسرنا وقال (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) وقال أيضا (انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) وقال عنترة

ظللنا نكر المشرفية فيهم * وخرصان صم السمهري المثقف

وقال العجير السلولى

وقد جذب القوم العصائب مؤخرا * ففيهن عن صلع الرجال حسور
فظل نداء العصب ملقى كأنه * سلا فرس تحت الرجال عقور

لو أن الصخور الصم يسمعن صلقنا * لرحن وفي أعراضهن فطور

وقال زهير ليتني خلقت للابد * صخرة صماء فى كبدى

لا تشتكى شر جارتها * خلقت غليظة الكبد

وقالت جمل بنت جعفر

بنى جعفر لاسلم حتى نزوركم * بكل رديني وأبيض ذى أثر

وحتى تروا وسط البيوت مغيرة * تصمكم بالضرب خاشية الذعر

تبين لذي الشك الذى لم يكن درى * ويبصرها الاعمى ويسمع ذو الوقر

وقال دريد

متى كان الملوك لكم قطينا * على ولاية صماء منى *

ومن الامثال قولهم صمت حصاة بدم قال فاصله أن يكثر القتل وسفك الدماء حتي لو وقعت حصاة على الارض لم يسمع لها صوت لانها لاتلقي صلابة الارض وقد جاء فى بعض الحديث اذا كانت تلك الملاحم بلغت الدماء السن يعني سن الخيل وهو الشعر الذي خلف الحافر وقال الزبير بن عبد المطاب

وينبي نخوة المختال عنى * جراز الحد ضربته صموت

لأن السيف اذا مر في العظم مر سريعا فلم يكن له صوت كان فى معني الصامت وقال ابن ميادة

متى أدع فى قيس بن عيلان خائفا * الى فزع تركب الى خيولها

بملمومة كالطود شهباء فيلق * رداح يصم السامعين صليلها

لان الصوت اذا اشتد جداً لم يفهم معناه ان كان صاحبه أراد أن يخبر عن شيء ومتى كثرت الاصوات صارت رغاء ومنع بعضها بعضا من الفهم فاذا لم يفهمها صارفى معنى الاصم فجاز أن يسمي باسم الاصم وعلى ذلك قال الاضبط بن قريع حين آذاه بنو سعد فتحول من جوارهم في آخرين فآذوه فقال بكل واد بنو سعد وقال جران العود

وقالت لنا والعيس صعر من البرى * واخفافها بالجندل الصم تقذف

وقال الذي ينكر صمم شيء من الخلق اعتللتم فى صمم النعام بقول زهير وبقول أوس بن حجر

وينهى ذوى الاحلام عني حلومهم * وارفع صوتي للنعام المخزم

يريد عرض أنفه وهو فى موضع الخزامة من البعير واما قوله وارفع صوتى للنعام فانما خص بذلك النعام لانها تجمع الشرود والنفار الى الموق وسوء الفهم ولو قال وارفع صوتى للحمير والدواب لكان كذلك والمصلمة السك التى ليس لآذانها حجم قال الذى زعم انها ليست بصماء لايجوز لان الدواب تسمع وتفهم الزجر وتجيب الدعاء بل لوقال وأرفع صوتى للصخور والحجارة كان صوابا وكان لرفع صوته معنى اذ لو كان الرفع والوضع عند الصخور سواء وليس كذلك الدواب ولو كان انما جعله مصلما وجعل آذان النعام مصلومة لأنه ليس لآذانها حجم فالطير كله كذلك الأخفاش وكل شئ يبيض من الحيوان فليس لها حجم آذان ففي قصدهم بهذه الكلمة الى النعام بين جميع ماليس لاذنيه حجم دليل على أن تأويلكم خطا قال علقمة بن عبدة

فوه كشق العصا الا يأتبينه * أسك مايسمع الاصوات مصلوم

وقالت كبشة بنت معدى كرب

وأرسل عبد الله اذ حان يومه * الى قومه لاتعقلوا لهم دم

ولا تأخذوا منهم أفالا وأبكراً * وأترك في بيت بصعدة مظلم

جدعتم بعبد الله آنف قومكم * بني مازن أن سب راعي المخزم

فان أنتم لم تثأروا لاخيكم * فمشوا بآذان النعام المصلم

فلو كانت انما تريد أنه ليس لمسامعها حجم كانت الدنيا لها معرضة وقال عنترة

وكأنما أقص الاكام عشية * بقريب بين المنسمين مصلم

تأوى له حزق النعام كما أوت * حزق يمانية لأعجم طمطم

ولو كان عنترة إنما أراد عدم الحجم لقد كانت الدنيا له معرضة وقال زهير

بآرزة الفقارة لم يخنها * قطاف فى الركاب ولاخلاء

كأن الرحل منها فوق صعل * من الظلمان جؤجؤه هواء

أصك مصلم الاذنين أجنى * له بالسّي تنوم وآء *

قال القوم فانا لا نقول ذلك ولكن العرب فى أمثالها تقول ان النعامة ذهبت تطلب

قرنين فقطعوا أذنيها ليجعلوها مثلا في الموق وسوء التدبير فاذا ذكر الشاعر الظليم وذكر أنه مصلم الأذنين فانما يريد هذا المعنى فكثر ذلك حتى صار قولهم مصلم الاذنين مثل قولهم صكاء وسواء قال صكاء أوقال نعامة كما أنه سواء قال خنساء أوقال مهاة ونعجة وبقرة وظبية لأن الظباء والبقر كلها فطس خنس واذا سموا امرأة خنساء فليس الخنس والفطس يريدون بل كأنهم قالوا مهاة وظبية ولذلك قال المسيب ابن علس في صفة الناقة

صكاء ذعلبة اذا استقبلتها * حرج اذا استدبرتها هلواع

فتفهم هذا البيت فإنه قد أحسن فيه جدا والصكك في الناس والاصطكاك في رجلى الناقة عيب فهو لم يكن ليصفها بما فيه عيب ولكنه لايفرق بين قوله نعامة وكذلك لايفرقون بين قولهم اعلم وبين قولهم نم قال الراجز

اني لمن أنكر أوتوسما * أخو خنائير يقود الاعلما

كأنه يقول يقود بعيرا وهو كقول عنترة

وحليل غانية تركت مجدلا * تمكو فريصته كشدق الاعلم

فقال من ادعي للنعام الصمم أما قولكم من الدليل على أن النعامة تسمع قول الشاعر *تدعوا النعام به العرار * وقوله

متى تأتنا تسمع عرارا بقفرة * يجيب زمارا كاليراع المثقب

وقوله آنست نبأة وأفزعها القناص عصرا وقد دنا الامساء

فليس ذلك أراد (وقد يراك الاخرس)من الناس والاخرس أصم فيعرف ماتقول بما يرى من صورة حركة كما يعرف معانيك من اشارتك ويدعوك ويطلب اليك بصوت وهو لم يسمع صوتك قط فيقصد اليه ولكنه يريد تلك الحركة وتلك الحركة تولد الصوت أراده هو أو لم يرده ويضرب فيصيح وهو لم يقصد الى الصياح ولكنه متى أدار لسانه في جوحة الفم بالهواء الذي فيه والنفس الذى يحضره جماع الفم حدث الصوت وهذا انما غايته الحركة فيعرف صورة تلك الحركة والاخرس من يرى الناس يصفقون بايديهم عند دعاء انسان أو عند الغضب والجد فيعرف صورة تلك الحركة لطول

تردادها على عينيه كما يعرف سائر الاشارات واذا تعجب ضرب بيديه كما يضربون فالنعامة تعرف صورة إشارة الرئلان وارادتها فتعقل ذلك وتجاوبها بما تعقل عنها من الاشارة وغدت لحركتها أصوات ولو كانا يسمعان لم تزد حالهما فى التفاهم على ذلك والعرب تقول اشم من نعامة واشم من ذرة قال الراجز * اشم من هيق واهدي من جمل * وقال الحرمازى فى أرجوزته * وهو يشتم اشتمام الهيق * قال واخبرنا ابن الأعرابى أن اعرابياً كلم صاحبه فرآه لا يفهم عنه ولا يسمع كلامه فقال أصلَمُ كصلم النعامة وقد يكون الفرس فى الموكب وخلفه على قاب غلوتين حجر أو رمكة فيشخص تحت راكبه من غير أن تكون صهلت والذئب يشتم ويستروح من ميل والذرة تشتم ماليس له ريح مما لو وضعته على أنفك ما وجدت له رائحة وان أجدت التشمم كرجل الجرادة تنفذها من يدك في موضع لم تر فيه ذرة قط فلا تلبث أن ترى الذر اليها كالخيط الاسود الممدود وقال الشاعر وهو يصف استرواح الناس

وجاء كمثل الرال يتبع انفه * لعقبيه من وقع الصخور قعاقع

فان الرال يشتم رائحة أبيه وأمه والسبع والانسان من مكان بعيد وشبه به رجلا جاء يتبع الريح فيشتم وقال الآخر

والمرء لم يغضب لمطلب أنفه * أو عرسه لكريهة لم يغضب

ومطلب أنفه فرج أمه لان الولد اذا تمت ايامه فى الرحم قلا مكانه وكرهه وضاق به موضعه فطلب بأنفه موضع المخرج مما هو فيه من الكرب حتى يصير أنفه ورأسه على فم الرحم تلقاء فم المخرج فالاناء والمكان يرفعانه فى تلك الجهة والولد يلتمس تلك الجهة بأنفه ولولا انه يطلب الهواء من ذاته ويكره مكانه من ذاته ثم خرج الى عالم آخر خلاف عالمه الذى ربى فيه لمات كما يموت السمك اذا فارقه الماء ولكن الماء لما كان قابلا لطباع السمك مريداً له كان فى مفارقته له عطبه وكان في مفارقة الولد لجوف البطن واغتذائه فضلات الدم شيئاً من طباعه وطباع المكان الذي كان له مرة مسكناً فلذلك قال الشاعر الجاهلي * والمرء لم يغضب لمطلب أنفه * البيت يقول متى لم يحم فرج أمه وامرأته فليس ممن يغضب من شيء يؤول اليه وزعم المتكلمون ان الاخرس أصم وانه

لم يوت من العجز عن المنطق لشيء في لسانه ولكنه انما أتي في ذلك لانه حين لم يسمع صوتاً قط مؤلفاً أو غير مؤلف لم يعرف كيفيته فيقصد اليه وان جميع الصم ليس فيهم مصمت وانما يتقاربون في الشدة واللين فبعضهم يسمع الهدة والصاعقة ونعيق الحمار اذا كان قريباً منه والرعد الشديد لا يسمع غير ذلك ومنهم من يسمع السرار واذا رفعت له الصوت لم يسمع ومتى كلمته وقرّت الشكاية في أذنه فهم عنك كل الفهم وان تكلمت على ذلك المقدار في الهواء ولم يكن ينفذ في قناة تحصره وتجمعه حتى يؤديه الى دماغه لم يفهمه فالاصم في الحقيقة انما هو الاخرس والاخرس إنما سمي بذلك على التشبيه والقرابة ومتى ضرب الاصم من الناس انساناً أو شيئاً غيره ظن انه لم يبالغ حتى يسمع صوت الضربة قال الشاعر

أشاربهم لمع الاصم فاقبلوا * عرانين لا يأتيه للنصر مخاب

وقال الاسدي

وأوصيكم بطعان الكماة * فقد تعلمون بأن لا خلودا

وضرب الجماجم ضرب الاصم * حنظل شأنه يجنى الوليدا٢

وقال الهذلى

فالطعن شعشعة والضرب مقمعة * ضرب المعول تحت الديمة العضدا

وانما جعله تحت الديمة لان الاغصان والاشجار تصير الدن واعلك فيحتاج الذى يضرب تلك الاصول قبل المطر الى عشر ضربات حتى يقطع ذلك المضروب فاذا أصابه المطر احتاج الى أكثر من ذلك وانشدني يحيي الاغر

كضرب القيون سبيك لحديـ * ـديوم الجنائب ضربا وكيدا

فلم أعرفه فسألت بعض الصياقلة فقال نعم هذا بين معروف إذا أخرجنا الحديدة من الكير في يوم شمال واحتاجت في القطع الى مائة ضربة احتاجت في قطعها يوم الجنوب الى أكثر من ذلك والى أشد من ذلك الضرب لان الشمال ييبس ويقصف والجنوب يرطب ويلدن والانسان أبداً اخرس اذا كان لا يسمع ولا يتبين الاصوات التي تخرج من فيه على معناه ويقال في غير الانسان على غير ذلك قال كثير

ألم تسألي يا أم عمرو فتخبري * سلمت واسقاك السحاب البوارق
بكيا الصوت الرعد خرس روائح * ونعق ولم يسمع لهن صواعق

وتقول العرب مازالت تحت عين خرساء والعين السحابة تبقي أياما تمطر واذا كثر ماؤها وكثف ولم يكن فيها مخارق لم تمدح ببرق ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعد والرعد يكون في الاصل قبله ولكن الصوت لا يصل اليك في سرعة البرق لان البارق والبصر أشد تقاربا من الصوت والسمع وقد ترى الانسان وبينك وبينه رحله فيضرب بعصا اما حجراً واما دابة واما ثوبا فترى الضرب ثم تمكث وقتا الى أن يأتيك الصوت فاذا لم تصوت السحابة لم تبشر بشيء ولم يكن لها رز سميت خرساء واذا كانت الصخرة في هذه الصفة سميت صماء قال الاعشي

واذا تجيء كتيبة ملمومة * مكروهة يخشى الكماة نزالها

وعلى غير هذا المعني قال كثير

كأني أنادي صخرة حين أعرضت * من الصم لو تمشي بها العصم زلت

ومن هذا الشكل قول زهير

وتنوفه عمياء لا يجتازها * الا المشيع ذو الفؤاد الهادى
قفر هجعت بها ولست بنائم * وذراع ملقية الجران وسادي
ووقعت بين قتود عنس ضامر * لحاظة طفل العشي سنادى

فجعل التنوفه عمياً حين لم تكن بها أمارات ودابة يقال لها الزبابة عمياء تشبه الفارة وليست بالخلد لان الخلد اعمي وليس بأصم والذباب يكون في الرمل وقال الشاعر
* فهو ذباب حائر لا يسمع الاذان رعداً * (وكل مولود في الارض يولد اعمي) ان كان تأويل العمى أنه لا يبصر الا بعد أيام فمنه ما يفتح عينيه بعد أيام كالجرذ الا أولاد الدجاج فان فراريجها تخرج من البيض كاسية كاسبة وقال أبو الشمقمق وجعل الاير أعمى اصم على التشبيه فقال

فسلم عليه فاتر الطرف ضاحكا * وصوت له بالحارث بن عباد
بأصلع مثل الجرو جهم غضنفر * معاود طعن جائف وسناد

أصم وأعمى ينفض الدهر رأسه * يسير على مهل بغير قياد

ومن زعم ان النعامة تسمع يدل على ذلك قول طرفة

هل بالديار الغداة من خرس * أم هل بربع الجميع من أنس

سوي مهاة تقرو أسرته * وجؤذر يرتمي على كنس

أو خاضب يرتعي بهقلته * متى ترعه الاصوات يهتجس

فقد قال طرفة كما ترى * متى ترعه الاصوات يهتجس * وقال الآخر جوابنا فى هذا هو جوابنا فيما قبله وروى الهيثم بن عدى وسمعه بعض أصحابنا من أبي عبيدة قال تضارط اعرابيان عند خالد بن عبد الله أحدهما تميمي والآخر أزدى فضرط الازدى ضرطة ضئيلة فقال التميمي

حبقت عجيفاً مجتلا ولو أننى * حبقت لأسمعت النعام المشردا

فمركرا المنجنيق وصوته * يبذ هزيم الرعد بدءً عمردا

(وزعم) أبو عمرو الشيبانى عن بعض العرب ان كل عربى كان يلقب نعامة فانما يلقب بذلك لشدة صممه وأنه سأله عن الظليم هل يسمع فقال يعرف بأنفه وعينه ولا يحتاج معهما الى سمع وانشدنى

فجئتك مثل الهقل يشتم راله * ولا عرف الا شوءها وشميمها

وزعم أن لقب بيهس نعامة وأنه لقب بذلك لانه كان في خلق نعامة وكان شديد الصمم مائقا فانشد لعدي بن زيد

ومن حذر الايام ماحز أنفه * قصير وخاض الموت بالسيف بيهس

نعامة لما صرع القوم رهطه * تبين في أثوابه كيف يلبس

وقال المتنخل الهذلى وذكر سيفا

منتخب اللب له ضربة * حدباء كالمطمن الخزعل

يقول هذا السيف اهوج لاعقل له والحدب فى هذا الموضع الهوج وتهاوى الشيء لا يتمالك ويقال للسيف لايبالى مالقى وقال الاعشى في غير هذا الباب

كحوصلة الرال في جريها * اذا جليت بعد أقعادها

كحوصلة الرال يصف الخمر بالحمرة جليت أخرجت وهو مأخوذ من جلوة العروس القاعدة اذا قعدت عن الطلب ومثله في الخمر قول علقمة

تأوى الى حسكل حمر حواصله * كأنهن اذا بركن جرثوم

وقال الاخنس بن شهاب

تظل بها ربد النعام كأنها * اماء تزجى بالمساء حواطب

تزجي ترفع وذلك أنه يثقل حملها فتمشى مشية النعامة وقال الراجز

واذا الرياح تروحت بعشية * رتك النعام إلى كثيف العرفج

والرتك مشيء سريع يقول تبادر الى الكثيف تستتر به من البرد وقال * رتك النعامة فى طريق حام * وليس لقول من زعم ان الظليم اذا عدا استقبل الريح قال عبدة بن الطبيب يصف الثور

يستقبل الريح يهفو وهو مشتبك * لسانه عن شمال الشدق معدول

ووصف الذيب طفيل الغنوى فقال

كسيد الغضا العاوى أضل جراءه * على شرف مستقبل الريح يلهث

ويلحق بموضع ذكر الضرب الشديد قولهم فى المثل ضربناهم ضرب غرائب الابل قال أبو حية

جديرون يوم الروع ان يخضبوا القنا * وان يتركوا الكبش المدجج ثاويا

ضربناهم ضرب الحسا ما غرائب * واذا جاءك عطاشا العساحر ارا ضواريا[1]

واذا جاءت عطاشا قد بلغ منها العطش واليبس قيل جاءت تصل أجوافها صليلا قال الراعي

فسقوا صوادى يسمعون عشية * للماء فى أجوافهن صليلا

قال وأنشدنا أبو مهدية لمزاحم العقيلى

غدت من عليه بعدما تم ظمؤها * تصل وعن قيض بزيزاء مجهل

قال الزيزاء المكان الغليظ وقال آخر

ألم تعلمى ياأم حسان اننى * اذا عبرة نهنهتها فتجلت

(١) هكذا وجدنا هذا البيت وهو مكسور فليحرر

رجعت الى صدر كجرة حنتم * اذا قرعت صفرا من الماء صلت

(وزعم ابن أبي العجوز الحواء) ان الافاعى صم فلذلك لاتجيب الرقا ثم زعم لى فى ذلك المجلس ان أمير المؤمنين المنصور أراد إمتحان رقى جد وأن يتعرف صحتها من سقمها فأمرهم فصاغوا له أفعى من رصاص فجاءت ولا يشك الناظر فيها ثم أمر بالزاقها فى موضع من السقف وأنه أحضره وقال ان هذه الافعي قد صارت في هذه الدار وقد كرهتها لمكانها فان احتلت لى برقية أو بما أحسنت أحسنت اليك قال ان أردت ان آخذها هربت ولكن أرقيها حتى تنزل فرقاها فلما رآها لاتتحرك زاد في رفع صوته وألقى قناعه فلما رآها لاتتحرك نزع عمامته وزاد في رفع صوته فلما رآها لاتتحرك نزع قلنسوته وزاد في رفع صوته فلما رآها لاتتحرك نزع ثيابه وزاد في رفع صوته حتى أزبد وتمرغ فى الارض فلما فعل ذلك سال ذلك الرصاص وذاب حتى صار بين أيديهم فأقر عند ذلك المنصور بجودة رقيته فقلت له ويلك زعمت قبيل ان الافاعي لاتجيب الرقي لانها لاتسمع وهي حيوان ثم زعمت انها أجابت وهى جماد وقال الشاعر

وربداء يكفيها الشميم ومالها * سوى الربد من انس بتلك المجاهل

يخبر أن النعامة لاتستأنس بشئ من الوحش وان الشم يغنيها فى فهم ماتحتاج اليه وهي مع ذلك اذا صارت الى دور الناس فليس معها من الوحشة منهم على قدر مايذكرون وفي الوحش مايأنس وفيها مالا يأنس وقال كثير

فاقسمت لا أنساك ما عشت ليلة * وان شحطت دار وشط مزارها

وما استن رقراق السراب وماجرت * ببيض الربا أنسيها ونوارها

ووصف بلاداً قفاراً غير مأنوسة فقال

ما ترى العين حولها من أنيس * قربها غير رابدات الرئال

خصها بالذكر لانها أنفر وأشرد وأقل أنسا من جميع الوحش وقال الاحيمر كنت آتي الظبي حتى آخذ بذراعيه وما كان شئ من بهائم الوحش ينكرنى الا النعام وأنشد قول ذى الرمة

* وكل أحم المقلتين كأنه * أخو الانس من طول الخلاء المغفل

يدل على ذلك فى قدر ماشاهدنا أنهم يخرجون الى الصحارى الاغفال التى لم يذعر صيدها ولا يطاؤها الناس فيأتون الوحش فوضى هملا ومعهم كلابهم وفهودهم تتلوى بايديهم فيتقدمون الى المواضع التى لو كانوا ابتدأوا الصيد من جهتها لاخذوا ماأخذوا فاذا نفرت وحوش هذه الارض ومرت بالارض المجاورة لها نفرت سكان تلك الارض مع هذه النوافر ولا تعود تلك الصحارى الى مثل ماكانت عليه من كثرة الوحش حينا ومتى لم تنفرها الاعراب بالكلاب والقسي ونصب الحبائل رتعت بقربهم ثم دنت منهم أولا فاولا حتي تطأ أكناف بيوتهم وهي اليوم فى حيز المعتصم بالله والواثق بالله على هذه الصفة وخبرنى ابراهيم بن السندى قال خبرني عبد الملك بن صالح واسحق بن عيسى وصالح صاحب الموصل ان خالد بن برمك بينا هو على سطح من سطوح القري مع قحطبة وهم يتغدون وذلك فى بعض منازلهم حين فصلوا من خراسان الى الجبل قال وبين قحطبة وبين الاعداء مسيرة أيام وليال قال فبينا خالد يتغدا معه وذلك حين نزلوا وبهم كلال السير وحين علقوا على دوابهم ونصبوا قدورهم وقربوا سفرهم قال فنظر خالد الى الصحراء فرآى أقاطيع الظباء قد أقبلت من جهة الصحارى حتي كادت تخالط العسكر فقال لقحطبة أيها الامير ناد في الناس ياخيل الله اركبي فان العدو قد حث اليك السير وغاية أصحابك ان يسرجوا ويلجموا قبل ان يروا سرعان الخيل فقام قحطبة مذعورا فلما لم ير شيأ يروعه ولم ير غبارا قال لخالد ماهذا الرأى قال أيها الامير لا تتشاغل بي وبكلامى ونادى فى الناس أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت فارقت مواضعها حتى خالطت الناس ان وراءها جمعاً عظيما قال فوالله ما ألجموا وأسرجوا حتى رأوا ساطع الغبار ولا تلبسوا وتسلحوا حتى رأوا الطليعة فما التأموا حتى استوى أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم ولولا نظرة خالدبن برمك وفراسته لقد كان ذلك الجيش اصطلم (وكان ابراهيم السندى) يحدثنا من صدق حس أبيه في الشم بشئ ما يحكى مثله الا عن السباع والذر والنعام وزعم ان أباه قال ذات يوم أجد ريح بول فارة ثم تشمم واجال أنفه فى المجلس فقال هو فى تلك الزاوية فنظروا فاذا على طرف البساط من البلل بقدر الدرهم أو أوسع شيأ فقضوا أنه بول

فأرة قال وشهدته مرة واشراطه قيام على رأسه فى السماطين فقال أجد ريح جورب عفن منتن فتشممنا بأجمعنا فلم نجد شيأ ثم تشمم وقال انزعوا خف ذاك فنزعوا خفه فكلما مد النازع له شيأ بدا من لفافته فما زال النتن يكثف ويزداد حتى خلع خفه ونزعه من رجله فظهر من نتن لفافته ما عرف به صدق حسه ثم قال انزعوا الآن اخفافكم بأجمعكم فلا بد من ان لايكون فى جميع اللفائف منتن غير لفافته أو تكون لفافته أنتنها فنزعوا فلم يجدوا فى جميعها لفافة منتنة غيرها وأنشدوا

غزا ابن عمير غزوة تركت لنا * ثناء كنتن الجورب المتخرق

(وليس الذى يحكى من صدق الحس فى الشم) عن بعض الناس وعن النعام والسباع والفار والذر وضروب من الحشرات مما نطق به القرآن العظيم من شأن يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام حين يقول تعالى (قال أبوهم انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) وكان هذا من يعقوب بعد ان قال يوسف اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين ولذلك قال (ولما فصلت العير قال أبوهم انى لاجد ريح يوسف لولاأن تفندون) ثم قال (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) وإنما هذا علامة ظهرت له خاصة اذ كان الناس لا يشتمون أرواح أولادهم اذا تباعدوا عن أنوفهم ومافى طاقة الحصان الذي يجد ريح الحجر مما يجوز الغلوتين والثلاث فكيف يجد الانسان وهو بالشام ريح ابنه في قميصه ساعة فصل من أرض مصر ولذلك قال (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) (وقد غبر موسى) وهو يسير أربعين عاماً لا يذوق ذواقاً وجاع أهل المدينة فى تلك الحطمة حتى كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشدون الحجر على بطونهم من الجوع والجهد وكان النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين يقول إنى لست كأحدكم إنى أبيت عند ربى يطعمني ويسقيني (ورجال) ممن ينتحل الاسلام يظهرون التقذر من الصيد ويرون أن ذلك من القسوة وأن أصحاب الصيد لتؤديهم الضراوة التى اعترتهم من طروق الطير في الأوكار ونصب الحبائل للظباء التي تنقطع عن الخشفان حتى تموت هزلا وجوعا واشلاء السباع على بهائم الوحش مستلم

أهلها الى القسوة والى التهاون بدماء الناس والرحمة شكل واحد ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الظبي ومن لم يرحم الظبي لم يرحم الجدى ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصبى وصغار الأمور تؤدى إلى كبارها وليس ينبغي لأحد أن يتهاون بشيء مما يؤدى الى القسوة يوماً ما وأكثر ما سمعت هذا الباب من ناس من الصوفية ومن النصارى لمضاهاة النصارى سبيل الزنادقة في رفض الذبائح والبغض لاراقة الدماء والزهد فى أكل اللحمان وقد كان يرحمك الله على الزنديق أن لا يأتى ذلك فى سباع الطير وذوات الاربع من السباع فأما قتل الحية والعقرب فما كان ينبغى لهم البتة أن يقفوا فى قتلهما طرفة عين لأن هذه الأمور لا تخلو من أن تكون شراً صرفاً أو يكون ما فيها من الخير مغموراً بما فيها من الشر والشر شيطان والظلمة عدو النور فاستحياء الظلمة وأنت قادر على إماتتها لا يكون من عمل النور بل قد ينبغي أن تكون رحمة النور لجميع الخلائق والناس الى استنقاذها من شرور الظلمة وكما ينبغي أن يكون حسناً فى العقل استحياء النور والعمل فى تخليصه والدفع عنه فكذلك ينبغى أن يكون قتل الظلمة وإماتتها والعون على اهلاكها وتوهين أمرها حسناً والبهيمة التى يرون أن يدفعوا عنها أيضاً ممزوجة إلا أن شرها أقل فهم اذا استبقوها فقد استبقوا الشرور المخالطة لها فان زعموا أن ذلك انما جاز لهم لأن الأغلب على طباعها النور فليغتفروا فى هذا الموضع ادخال الاذى على قليل ما فيها من أجزاء الخير كما اغتفروا مافي ادخال الروح والشرور على ما فى البهيمة من أجزاء الظلمة لدفعهم عن البهيمة إذ كان أكثر أجزائها من النور وإنما ذكرت ما ذكرت لأنهم قالوا الدليل على أن الذى أنتم فيه من أكل الحيوان كل يوم ومن الذبائح مكروه عند الله أنكم لم تروا قط ذابح الحيوان ولا قتال الانسان ولا الذين لا يقتاتون إلا اللحمان يفلحون أبداً ولا يستغنون كنحو صياد السمك وصياد الوحش وأصناف الجزارين والقصابين والشوائين والطهايين والفهادين والبيازة والصقارين والكلابين لا ترى أحداً منهم صار إلى غنى ويسر ولا تراه أبداً إلا فقيراً محارفا وعلى حال مشبهة بحاله الاولى وكذلك الجلادون ومن يضرب الأعناق بين يدى الملوك وكذلك أصحاب الاستخراج والعذاب وإن أصابوا الاصابات

وجميع أهل هذه الاصناف نم وحتى ترى بعضهم وإن خرج نادراً خارجياً ونال منهم ثروة وجاهاً وسلطانا فاما أن يقتل وإما يغصب نفسه بميتة عاجلة عند سروره بالثروة أو يبعث الله عليه المحق فلا ينمو له شيء واما أن لا يجعل من نسلهم عقباً مذكوراً ولا ذكراً نبيهاً وذرية طيبة مثل الحجاج بن يوسف وأبي مسلم ويزيد بن مسلم ومثل أبي الوعد ومثل رجال ذكروهم لا نحب أن نسميهم قال فان هؤلاء مع كثرة الطروقة وظهور القدرة ومع كثرة الانسال قد قبح الله أمرهم وأخمل أولادهم فهم بين من لم يعقب أو بين من هو في معنى من لم يعقب فقلت للنصارى بديا كيف كان الناس أيام الحكم بما في التوراة أيام موسى وداود وهما صاحبا حروب وقتل وسباء وذبائح نم حتى كان القربان كله أو عامته حيوانا مذبوحاً لذلك سميتم بيت المذبح ولسنا نسألكم عن سيرة النصارى اليوم ولكنا نسألكم عن دين موسى وحكم التوراة وحكم صاحب الزبور وما زالوا عندكم إلى أن أنكروا ربوبية المسيح على أكثر من حالنا اليوم فى الذبائح وأنتم في كثير من حالاتكم تغلون علينا السمك حتى نتوخي أياماً بأعيانها فلا نشتري السمك إلا فيها طلباً للامكان والاسترخاص وهي يوم الخميس ويوم السبت ويوم الثلاثاء لأن شراءكم في ذلك اليوم يقل على أنكم تكثرون من الذبائح فى أيام الفصح وهل تدعون أكل الحيوان إلا أياماً معدودة وساعات معلومة فاذا كانت الحرفة والمحن إنما لزما القصابين والجزارين والشوائين وأصناف الصيادين من جهة العقوبة فأنتم شركاء صيادي السمك خاصة لأنكم آكل الخالق له وأنتم أيضاً شركاء القصابين فى عامة الدهر فلا أنتم تدينون للاسلام فتعرفوا ما عليكم ولكم وفضل مابين الرحمة والقسوة وما الرحمة وفي أي موضع يكون ذلك القتل رحمة فقد أجمعوا على ان قتل البعض إحياء للجميع وان اصلاح الناس في اقامه جزاء الحسنة والسيئة (ولكم في القصاص حياة) والقود حياة وهذا شيء تعمل به الامم كلها غير الزنادقة والزنادقة لم تكن قط أمة ولا كان لها ملك ومملكة ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق فلا أنتم زنادقة ولا ننكر لمن كان ذلك مذهبه أن يقول هذا القول فأنتم لا دهرية ولا زنادقة ولا مسلمون ولا أنتم راضون بحكم الله أيام التوراة فان كان هذا

الحكم قد أمر الله به وهو عدل فليس بين الزمانين فرق وبعد فانا نجدكم تأكلون السمك أكلا ذريعا وتتقذرون من اللحمان أفلأن السمك لا يألم القتل أم لان السمك لما قتلتموه بلا سكين لم يحسن قتله فالجميع حيوان وكل مقتول يألم وكل يحس فكيف صار أكل اللحم قسوة وأكل السمك ليس بقسوة وكيف صار ذبح البهائم قسوة ولا تكون تفرقة مابين السمك والماء حتى تموت قسوة وكيف صار ذبح الشاة قسوة وصيد السمك بالسنانير المذربة المعقفة ليس لها شعائر تخالف العقاب المنصوص فى جهاتها وكيف وهي وان لم تنشب فى أجوافها وتقبض على مجامع أرواحها لم تقدر على أخذها وكيف صار وجأ اللبلة من الجزور أقسي من ضرب النبائل أم كيف صار طعن العير بالرمح ونصب الحبائل للظباء وارسال الكلاب عليها أشد من وقع النبائل فى ظهر السمك ولانكم تكثرون قولكم لا نأكل شيأ فيه دم أيام صومنا فللسمك دم ولا بد لجميع الحيوان من دم أو شيء يشاكل الدم فما وجه اعتلالكم بالدم الا ان كل شيء فيه دم فهو أشد ألما فكيف نعلم ذلك وأما الدليل عليه فان زعمتم ان ذلك داخل فى باب التعبد والمصلحة لافى باب القياس والرحمة والقسوة فهذا باب آخر إلا ان تدعوا ان دواب الماء أقوي للابدان وأسر للنفوس فأردتم بذلك قلة الاشر وضعف البدن فان كان ذلك كذلك فقد ينبغي أن يكون هذا المعني مستبينا فى أكل السمك من البحرين وأماماذكرتم من ملازمة الحرفة لهؤلاء الاصناف فان كل من نزلت صناعته ودق خطر تجارته كذلك سبيله (وأحل الكسب كله وأطيبه عند جميع الناس سقى الماء) اما على الظهر واما على دابة ولم أر سقاء قط بلغ حال اليسار والثروة وكذلك ضراب اللبن والطيان والحراث وكذلك ماصغر من التجارات والصناعات ألا ترون ان الاموال كثيرا ماتكون عند الكتاب وعند أصحاب الجوهر وعند أصحاب الوشى والانماط وعند الصيارفة والحناطين وعند البحريين والبصريين والجلاب أبدا والبيازرة أيسر ممن يبتاع منهم وجمل الاموال حق بان تربح الجمل من تفاريق الاموال وكذلك سبيل القصاب والجزار اوالشواء والبازباز والفهاد وأما ماذكرتم من انقطاع نسل القساة وخمول أولادهم كانقطاع نسل فرعون وهامان ونمرود وبخت نصر وأشباههم فان الله

يقول (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وان شئتم أن تعدوا من المذكورين بالصلاح أكثر من هؤلاء ممن كان عقيما أو كان ميناثا أو يكون ممن نبت لهم أولاد سوء عقوهم فى حياتهم وعرضوهم للسب بعد موتهم لوجدتموهم وعلى انى لم أنصب نفسى حربا للحجاج ابن يوسف ويزيد بن أبى مسلم أحرى بهما وهما عندي من أهل النار ولكني عرفت مغزاكم وعلى انكم ليس القصابين أردتم ولكنكم أردتم دين المسلمين وقد خرج الحجاج من الدنيا سليما فى بدنه وظاهر نعمته وعلى مرتبته من الملك ومكانه من جواز الامر والنهي فان كان الله عندكم سلمه وعاقب أولاده وكان ذلك دينكم فان هذا قول ان خاطبتم به الجبرية فعسى أن تتعلقوا منهم بسبب فاما من صحح القول بالعدل فان هذا القول عنده من الخطا الفاحش الذى لا شبهة فيه وكان مما أنشدوا من الدليل على ان القانص لا يزال فقيرا قول ذى الرمة

حتى اذا ما لها بالجدر واتخذت * شمس النهار شعاعا بينها قبب
ولاح أزهر مشهور بنقبته * كانه حين يعلو عاقرا لهب
هاجت به عوج طلس مخصرة * شوازب لاحها التقريب والخبب
جرد مهرتة الاشداق ضارية * مثل السراحين فى أعناقها العذب
ومطعم الصيد هبال لبغيته * ألفي أباه بذاك الكسب يكتسب
مقزع اطلس الاطمار ليس له * الا الضراء وإلا صيدها نشب
فانصاع جانبه الوحشى وانكدرت * يلحبن لا يأتلي المطلوب والطلب

قال فجعله كما ترى مقزعا اطلس الاطمار وخبر ان كلابه نشبه وانه ألفى أباه كذلك وأنشدوا في ذلك قول الآخر

واعصم انسته المنية نفسه * رعي النبت والطيان في شاهق وعر
موارده قلت تصفقه الصبا * بنيق مزل غير كدر ولا نزر
قرته السحاب ماءها وتهدلت * عليه غصون دانيات من السمر
أتيح له طلح أذاه بكفه * خنوف وأشباه تخيرن من حجر
أبو صبية لا يستدار اذا شتا * لقوحا ولا عنزا وليس بذى وفر

له زوجة شمطاء يدرج حولها * فطيم تناجيه وآخر فى الحجر
مشوهة لم تعب طيبا ولم تبت * تقتر هنديا بليل على جمر
محددة العرقوب ثلم نابها * تعرقها الاوزار من فقر الجمر
مسفعة الخدين سود درعها * تقذرها بالليل والاخذ بالقدر
كغول الفلاة لم تخضب بنانها * ولم تدر مازى الخرائد بالمصر
فارسل سهما أرهف القين حده * فانفذ حضنيه فخر على النحر

كان أبو اسحق يسأل المنانية عن مسألة قريبة المأخذ قاطعة وكان يزعم أنها ليست له وذلك ان المنانية تزعم ان العالم بما فيه من عشرة أجناس خمسة منها خير ونور وخمسة منها شر وظلمة وكلها حاسة وحارة وأن الانسان مركب من جميعها على قدر مايكون فى كل انسان من رجحان أجناس الخير على أجناس الشر فاحتاج الشر على أجناس الخير وان الانسان وان كان ذا حواس خمسة فان في كل حاسة متونا من ضده من الاجناس الخمسة فمتى نظر الانسان نظرة رحمة فتلك النظرة من النور ومن الخير ومتي نظر نظرة وعيد فتلك النظرة من الظلمة وكذلك جميع الحواس وان حاسة السمع جنس على حدة وان الذى فى حاسة البصر من الخير والنور لايعين الذى فى حاسة السمع من الخير ولكنه لايضاره ولايفاسده ولا يمنعه فهو لايعينه لمكان الخلاف والجنس ولا يعين عليه لانه ليس ضدا وأن أجناس الشر خلاف لاجناس الشر ضد لاجناس الخير وأجناس الخير يخالف بعضها بعضاً ولا يضاد وان التعاون والتأذي لايقع بين مختلفها ولا بين متضادها وانما يقع بين متفقها قال فيقال للمنانى ماتقول فى رجل قال لرجل يافلان هل رأيت فلانا فقال المسؤل نعم قد رأيته أليس السامع قد أدى الى الناظر والناظر قد أدى الى الذائق والا فلم قال اللسان نعم الا وقد سمع الصوت صاحب اللسان وهذه المسألة قصيرة كما تري ولا حيلة له بان يدفع قوله (ومسألة أخرى) سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذى كان يكني بابى على وذلك عند مارأى من تطويل محمد بن الجهم وعجز العتبي وسوقهم القاسم بن سيار فقال له المأمون أسألك عن حرفين فقط خبرنى هل ندم مسئ قط على إساءته أو نكون نحن لم نندم على شئ كان منا قط قال بل ندم كثير من المسيئين

على إساءتهم قال فخبرني عن الندم على الاساءة اساءة أو إحسان قال احسان قال فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره قال الذى ندم هو الذى أساء قال فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر وقد بطل قولكم ان الذى ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة قال فاني أزعم ان الذى أساء غير لذى ندم قال فندم على شيء كان منه أو على شيء كان من غيره فقطعه بمسألته ولم يتب ولم يرجع حتى مات وأصلاه الله نار جهنم وقد ذكر حماد عجرد ناسا في هجائه لبشار فقال

لو كنت زنديقا عمار حبوتني * أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتني * كالنضر او الفيت كابن المقعد
أو كابن حماد ربيئة دينكم * جبل وما جبل القوى بمرشد
لكنني وحدت ربي مخلصا * فجفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت * والارض خالقها لها لم يمهد
والنعم مثل الزرع ان حصاده * منه الحصيد ومنه مالم يحصد

وحماد هذا أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذى هجاه بهذه الابيات وأما قوله * وحبوت من زعم السماء تكونت * البيت فليس يقول أحد ان الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه فجعل حماد بهذا المقدار من مقالة القوم كأنه عندى مما يعرفه من براءته الساحة فان كان قد أجابهم فانما هو من مقلديهم وهجا حماد ابن الزبرقان حماد الراوية فقال

نعم الفتى لو كان يعرف ربه * ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه * مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه * فبياضه يوم الحساب سواد

فقد كان كما تري هدلت مشافره الدنان فأنفه مثل القدوم البيت فقد رأيت جماعة ممن يعاقرون الشراب قد عظمت آنفهم وصارت لهم خراطيم منهم روح الصائغ وعبد الواحد صاحب اللؤلؤى وجماعة من ندمان حماد بن الصباح وعبد الله أخا نهر ابن عسكر وناسا كثيرا ويدل على ذلك من المنافرة قول جرير للاخطل

وشربت بعد أبي ظهير وابنه * سكر الدنان كأن انفك دمل

وكان منهم يونس بن فروة وفي يونس يقول حماد عجرد

أما ابن فروة يونس فكأنه * من كفره اير الحمار القائم
ماالناس عندك غير نفسك وحدها * والخلق عندك ماخلاك بهائم
ان الذى أصبحت مفتونا به * سيزول عنك وأنف جارك راغم
فتعض من ندم يديك على الذي * فرطت فيه كما يعض النادم
فلقد رضيت بعصبة آخيتهم * أوخاهم لك بالمعرة لازم
فعلمت حين جعلتهم لك دخلة * أني لعرضك فى أخائك ظالم

وكان حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان ويونس بن هرون وعلى ابن الخليل ويزيد بن الفيض وعبادة وجميل بن محفوظ وقاسم ومطيع ووالبة بن الحباب وأبان بن عبد الحميد وعمارة بن حربية يتواصلون وكأنهم نفس واحدة وكان بشار ينكر عليهم ويونس الذي زعم حماد عجرد انه قد غر نفسه بهؤلاء كان أشهر بهذا الرأي منهم وقد كان كتب كتابا لملك الروم فى مثالب العرب وعيوب الاسلام بزعمه وذكر أبو نواس أبان بن عبد الحميد اللاحق وبعض هؤلاء ذكر انسان يرى لهم قدرا وخطرا في هجائية لأبان وهو قوله

جالست يوما أبانا * لادر در أبان
ونحن حضر وان ا لا مير بالنهروان
حتى اذا ماصلاة ا لا ولى أتت الاذان
فقام ثم بها ذو * فصاحة وبيان
فكل ما قال قلنا * الى انقضاء الاذان
فقال كيف شهدتم * بذا بغير عيان
لاأشهد الدهر حتى * تعاين العينان
فقلت سبحان ربى * فقال سبحان ماني
فقلت عيسي رسول * فقال من شيطاني

فقلت موسى كليم الـ * ـمهيمن المنانى
فقال ربك ذو مقـ * ـلة اذا ولسان
فنفسه خلقته * أم من فقمت مكانى
عن كافر يتمارى * بالكفر بالرحمن
يريد أن يتسوى * بالعصبة المجان
بعجرد وعباد * والوالبي الهجان
وقاسم ومطيع * ريحانة الندمان

وتعجبي من أبي نواس وقد كان جالس المتكلمين أشد من تعجبي من حماد حين يحكى عن قوم من هؤلاء قولا لا يقوله أحد وهذه قرة عين المهجو والذى يقول سبحان مانى يعظم أمر عيسى تعظيما شديداً فكيف يقول انه من قبل شيطان وأما قوله فنفسه خلقته أم من فان هذه مسالة نجدها ظاهرة على السن العوام والمتكلمون لا يحكون هذا عن أحد وفي قوله والوالبي الهجان دليل على انه من شكلهم والعجب انه يقول فى ابان انه ممن يتشبه بعجرد ومطيع ووالبة بن الحباب وعلى بن الخليل وأصبغ وأبان فوق ملء الارض من هؤلاء ولقد كان أبان وهو سكران أصح عقلا من هؤلاء وهم صحاة فاما اعتقاده فلا أدرى ماأقول لك فيه لان الناس لم يؤتوا فى اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظير ولكن للناس تأس وعادات وتقليد للآباء والكبراء ويعملون على الهوي وعلى مايسبق الى القلوب ويستثقلون التحصيل ويهملون النظر حتى يصيروا فى حال متى عاودوه وأرادوه ونظروا بأبصار كليلة واذهان مدخولة مع سوء عادة والنفس لا تجيب وهى مستكرهة وكان يقال الطفل اذا كره عمى ومتى عمى الطباع جسا وغلظ وأهمل حتى يألف الجهل ولم يكد يفهم ما عليه وله فلهذا وأشباهه قاموا على الالف والسابق الى القلب وقال حماد عجرد

اعلموا أن لودى * ثمنا عندى ثمينا
ليت شعري أى حكم * قد أراكم تحكمونا
أن تكونوا غير معطيـ * ـن وأنتم تأخذون

أين لقمان بن عاد * فى أست هذا الدين دينا

وما رأيت أحداً وضع لقمان بن عاد فى هذا الموضع غيره وقال حماد عجرد فى بشار

يا ابن الخبيثة إن أمـ * ـك لم تكن ذات اكتتام
وتبدلت ثوبين ذا الاير المضبر والعرام
ثوبان دقاقا الأزار باروات حسام *
عرد كقائمة السـيـ * ـر يسلها عند الوطام
وأتت سميعة بعدها * بالمصمئلات العظام
أخت لهم كانت لكابر * أن تسافح من قيام

وقال حماد يذكر بشار

غزالة الرجسة أو بنتها * سميعة الناعية الفهرا

وقال ذو الرمة

ابنى غزالة يا جشم استها * ليحقكم أن تفرحوا لا تجزعوا

وما ينبغى لبشار أن يناظر حماداً من جهة الشعر وما يتعلق بالشعر لأن حماداً فى الحضيض وبشارا مع العيوق وليس فى الارض مولد قروى يعد شعره فى المحدث الا وبشار أشعر منه وقال أبو الشمقمق فى جميل بن محفوظ

وهذا جميل على بغله * وقد كان يعدو على رجله
يروح ويغد كاير الحمار * ويرجع صفرا الى أهله
وقد زعموا أنه كافر * وأن التزندق من شكله
كأنى به قد دعاه الامام * وآذن ربك فى قتله

وأما أبو نواس فقد كان يتعرض للقتل بجهده وقد كانوا يعجبون من قوله

كيف لا يدنيك من أمل * من رسول الله من نفره

فلما قال

فاحبب قريشا لحب أحمدها * وأشكر لها الجزل من مواهبها

اء بشيء غطا على الأول وأنكروا عليه قوله * لو أكثر التسبيح ما نجاه * فلما قال

يا أحمد المرتجى في كل نائبة * قم سيدى نعص جبار السموات

غطا هذا على الاولى وهذا البيت مع كفره مقيت جداً وكان يكثر فى هذا الباب وأما سوى هذا الفن فلم يعرفوا له من الخطإ الا قوله

أخبر الديار هل تنطق * أنا مكان الدار لا أنطق

كأنها اذ خرست جارم * بين ذوى تفنيده مطرق

فعابوه بذلك وقالوا لايقول أحد لقد سكت هذا الحجر كأنه إنسان ساكت وانما يوصف خرس الانسان بخرس الدار ويشبه صممه بصمم الصخر وعابوه بقوله حين وصف عين الأسد بالجحوظ فقال

كأن عينه اذا التهبت * بارزة الجفن عين مخنوق

وهم يصفون عين الاسد بالغوور قال الراجز * كأنما ينظر من جوف حجر * وقال أبو زبيد

كأن عينيه فى وقبين من حجر * قيضا اقتناصاً بأطراف المناقير

ومع هذا فانا لانعرف بعد بشار أشعر منه وقال أبو زبيد

وعينان كالوقبين فى مل ء صخرة * ترى فيهما كالجمرتين تسعر

وحدثني أبو شعيب القلال وهو صفرى قال رهبان الزنادقة سياحون لانهم جعلوا السياحة بدل تعلق النسطوري فى المطامير والملكانى فى الصوامع ومقام النسطوري في المطامير قال ولا يسيحون الا أزواجا ومتى رأيت منهم واحدا فالتفت رأيت صاحبه والسياحة عندهم أن لا يبيت أحدهم فى منزل ليلتين قال ويسيحون على أربع خصال على القدس والطهر والصدق والمسكنة فاما المسكنة فان يأكل من المسألة ومما طابت به أنفس الناس له حتى لايأكل الا من كسب غيره الذى عليه غرمه ومأثمه وأما الطهر فترك الجماع وأما الصدق فعلى ان لايكذب وأما القدس فعلى أن يكتم ذنبه وان سئل عنه قال فدخل الاهواز منهم رجلان فمضي أحدهما نحو المقابر للغائط وجلس الآخر بقرب حانوت صائغ وخرجت امرأة من بعض تلك القصور ومعها حق فيه أحجار نفيسة فلما صعدت من الطريق الى دكان الصائغ زلقت فسقط الحق من يدها وظليم

لبعض أهل تلك الدور يتردد فلما سقط الحق وبانه الطبق تبدد مافيه من الاحجار فالتقم ذلك الظليم أعظم حجر فيه وأنفسه وذلك بعين السائح ووثب الصائغ وغلمانه فجمعوا تلك الاحجار ونحو الناس وصاحوا بهم فلم يدن منهم أحدوفقدوا ذلك الحجر فصرخت المرأة فكشف القوم وتناجوا فلم يصيبوا الحجر فقال بعضهم والله ما كان بقربنا الا هذا الراهب الجالس وما ينبغى ان يكون الا معه فسألوه عن الحجر فكره أن يخبرهم أنه فى جوف الظليم فيذبح الظليم فيكون قد شارك فى دم بعض الحيوان فقال ما أخذت شيأ وبحثوه وفتشوا كل شئ معه وألحوا عليه بالضرب وأقبل صاحبه وقال اتقوا الله فأخذوه وقال دفعته الى هذا حتي غيبه فقال مادفعت اليه شيأفضربوهما ليموتا فبينما هما كذلك اذ مر رجل يعقل ففهم عنهم القصة ورأى ظليما يتردد فقال لهم أكان هذا الظليم يتردد فى الطريق حين سقط الحجر قالوا نعم قال فهو صاحبكم فعوضوا أصحاب الظليم وذبحوه وشقوا عن قانصته فوجدوا الحجر وقد نقص فى ذلك المقدار من الزمان شبيهابشطره الا انها أعطته لونا صار الذى استفادوه من جهة اللون أربح لهم من وزن ذلك الشطر أن لو كان لم يذهب ونار القانصة غير نار الحجر

القول فى النيران وأقسامها

ونحن ذاكرون جملا من القول فى النيران وأجناسها ومواضعها وأى شيء منها يضاف إلى العجم وأي شئ منها يضاف الى العرب ونخبر عن نيران الديانات وغير الديانات وعمن عظمها وعمن استهان بها وعمن أفرط فى تعظيمها حتى عبدها ونخبر عن المواضع التى عظم فيها من شأن النار فمن مواضعها التى عظمت بها ان الله عز وجل جعلها لبني اسرائيل فى موضع امتحان أخلاصهم وتعرف صدق نياتهم فكانوا يتقربون بالقربان فمن كان منهم مخلصا نزلت نار من قبل السماء حتى تحيط بهم فتأكله فاذا فعلت ذلك كان صاحب القربان مخلصا في تقربه ومتى لم يروها وبقى القربان على حاله قضوا بانه كان مدخول القلب فاسد النية ولذلك قال الله تعالى في كتابه(الذين قالوا ان الله عهد

الينا أن لانؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين) والدليل على أن ذلك قد كان معلوما قول الله عز وجل (قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) ثم ان الله ستر على عباده وجعل بيان ذلك فى الآخرة وكان ذلك التدبير مصلحة ذلك الزمان ووافق طبائعهم وعللهم وقد كان القوم من المعاندة والغباوة على مقدار لم يكن ينجع فيهم ويكمل لمصلحتهم الا ماكان فى هذا الوزن فهذا باب من عظم شأن النار فى صدور الناس ومما زاد فى تعظيم شأن النار فى صدور الناس قول الله عز وجل (وهل أتاك حديث موسى اذ رأي ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو أجد على النار هدي فلما أتاها نودى ياموسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوي) وقال عز وجل (فقال لأهله امكثوا انى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودى أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) وكان ذلك مما زاد فى قدر النار فِي صدور الناس ومن ذلك نار إبراهيم صلى الله عليه وسلم وقال الله عز وجل (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) ثم قال (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) فلما قال الله عز وجل (قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم كان ذلك مما زاد في نباهة النار وقدرها فى صدور الناس

﴿ باب آخر ﴾

وهو قوله عز وجل (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون) والنار من أكثر الماعون وأعظم المرافق ولو لم يكن فيها الا أن الله عز وجل قد جعلها الزاجرة عن المعاصى لكان ذلك مما يزيد في قدرها وفى نباهة ذكرها وقال تعالى (أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون) ثم قال (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) فقف عند قوله (نحن جعلناها تذكرة ومتاعا) فان كنت بهذا القول مؤمناً فتذكرما فيها من النعمة أولا ثم آخراً ثم توهم مقادير النعم وتصاريفها

وقد علمنا أن الله تعالى عذب الأمم بالغرق والرياح وبالحاصب والرجم والصواعق وبالخسف والمسخ وبالجوع وبالنقص من الثمرات ولم يبعث عليهم ناراً كما بعث ماء وريحا وحجارة وجعلها من عقاب الآخرة ونهى أن يحرق بها شئ من الهوام وقال لا تعذبوا بعذاب الله فقد عظمها كما ترى فتفهم رحمك الله فقد أراد الله افهامك وقال الله تعالى للثقلين (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان) فجعل الشواظ والنحاس وهما النار والدخان من الآية ولذلك قال على نسق الكلام فبأي آلاء ربكما تكذبان ولم يعن أن التعذيب بالنار نعمة يوم القيامة ولكنه أراد التحذير والخوف والمواعيد بها غير ادخال النار فيها واحراقهم بها وقال المرار بن منقذ

وكأن أرجلنا بجو مخصب * بلوى عنيزة من مقيل الترمس

في حيث خالطت الخزاما عرفجا * يأتيك قابس أهلها لم يقبس

أراد خصب الوادي ورطوبته واذا كان كذلك لم تقدح عيدانه فان دخلها مستقبس لم يور نارا وقال كثير

له حسب في الحي وارى زناده * عفار ومرخ حثة الورى عاجل

والعفار والمرخ من بين جميع العيدان التي تقدح أكثرها في ذلك وأسرعها قال ومن أمثالهم في كل الشجر نار واستمجد المرخ والعفار (ونار أخرى) وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية الاولى فانهم كانوا اذا تتابعت عليهم الازمان وركد عليهم البلاء واشتد الجدب واحتاجوا إلى الاستمطار اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ثم صعدوا بها في جبل وعر واشعلوا فيها النيران وضجوا بالدعاء والتضرع فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا ولذلك قال أمية

سنة أزمة تخيل بالنا * س ترى للعضاه فيها صريرا

اذ يَسُقّوْن بالدقيق وكانوا * قبل لا يأكلون شيئاً فطيرا

ويسوقون باقراً يطرد السه * ل مهازيل خشية أن يبورا

عاقدين النيران في شكر الاذ * ناب عمداً كيما تهيج البحورا

فاشتوت كلها فهاج عليهم * ثم هاجت الى صبير صبيرا

فرآها الاله ترسم بالقط * ر وأمسى جنابهم ممطورا

فسقاها نشاطه واكف النب * ت منهم إذ رادعوه الكبيرا

سلع ما ومثله عشر ما * عائل ما وعالت البيقورا

هكذا كان الاصمعى ينشد هذه الكلمة فقال له علماء بغداد صحفت إنما هى البيقور مأخوذة من البقر فأنشد القحدمي للورل الطائى

لادر در رجال خاب سعيهم * يستمطرون لدى الازمات بالعشر

أجاعل أنت بيقورا مسلعة * ذريعة لك بين الله والمطر

قال ويقال بقر وبقير وبيقور وباقر ويقال للجماعة منها قطيع وأجل وكور وأنشد

فسكنتهم بالقول حتى كأنهم * بواقر جلح أسكنتها المراتع

وأنشد

ولا شبوب من الثيران أفرده * عن كوره كثرة الاعداء والطرد

(ونار أخرى) هى التى توقد عند التحالف فلا يعقدون حلفهم الا عندها فيذكرون عند ذلك منافعها ويدعون الى الله عز وجل بالحرمان والمنع من منافعها على الذى ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد ويقولون فى الحلف الدم الدم والهدَم الهدَم يحركون الدال في هذا الموضع لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً وطول الليالى إلا مداً وما بل البحر صوفة وما أقام رضوى في مكانه ان كان جبلهم رضوى وكل قوم يذكرون جبلهم والمشهور من جبالهم وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم ويهولون على من يخاف عليه الغدر بحقوقها ومنافعها والتخويف من حرمان منفعتها وقال الكميت

* لهولة ما أوقد المحلفون للحالفين وما هولوا * وأهل الحلف والتحالف انما هو من الحلف ولا عاو ولقد تحالفت قبائل من قبائل مرة بن عوف فتحالفوا عند نار فدنوا منها وعشوا بها حتى محشتهم فسموا المحاش وكان سيدهم والمطاع فيهم أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة ولذلك يقول النابغة

جمع محاشك يا يزيد فانني * جمعت يربوعا لكم وتميما

ولحقت بالنسب الذى عيرتنى * وتركت أصلا يا يزيد ذميما

وقوله تميم يريد تميمة فحذف الهاء وربما تحالفوا وتعاقدوا على الملح والملح شيآن أحدهما المرقة والاخرى اللبن وأنشدوا لشتيم بن خويلد الفزارى

لا يبعد الله رب العباد * والملح ماولدت خالده

وأنشدوا في قول أبى الطمحان

وانى لأرجو ملحها فى بطونكم * وما بسطت من جلد أشعث أغبرا

وذلك انه كان جاورهم فكان يسقيهم اللبن فقال ارجو أن تشكروا لي رد ألبانى على ماشربتم من البانها وما بسطت من جلد أشعث أغبر كأنه يقول كنتم مهازيل والمهزول يتقشف جلده وينقبض فبسط ذلك من جلودكم (ونار أخرى) وهي النار التي كانوا ربما أوقدوها خلف المسافر وخلف الزائر الذى لايحبون رجوعه وكانوا يقولون فى الدعاء أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً خلفه وفى إثره وهو معني قول بشار وضرب به مثلا

صحوت وأوقدت للجهل نارا * ورد عليك الصبا ما استعارا

وأنشدوا

وجمة أقوام حملت ولم تكن * لتوقد ناراً إثرهم للتندم

والجمة الجماعة يمشون في الصلح وقال الراجز فى إبله * تقسم فى الحق وتعطى فى الجمم * يقول لاتندم على ما أعطيت في الحمالة عند كلام الجماعة فتوقد خلفهم ناراً كيلا يعودوا (ونار أخرى) وهى النار التى كانوا اذا أرادوا حربا وتوقعوا جيشاً عظيما وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلا على جبلهم ناراً ليبلغ الخبر أصحابهم وقد قال عمرو بن كلثوم

ونحن غداة أوقد فى خزاز * رفدنا فوق رفد الرافدينا

ولما وجدوا في جميع عشائرهم اليهم أوقدوا نارين وهو قول الفرزدق

لولا فوارس تغلب ابنة وائل * سد العدو عليك كل مكان

ضربوا المصانع والتلول وأوقدوا * نارين أشرفتا على النيران *

(ونار أخرى) وهى نار الحرتين وهي نار خالد بن سنان أحد بنى مخزوم من بنى قطيعة بن عبس ولم يكن في بني اسمعيل نبي قبله وهو الذى أطفأ الله به نار الحرتين

وكانت حرة ببلاد بني عبس فاذا كان الليل فهي نار تسطع فى السماء وكانت طيء تتبين بها ابلها من مسيرة ثلاث وربما ندرت منها العنق فتأتى على كل شئ فتحرقه وإذا كان النهار فانما هى دخان يفور فبعث الله خالد بن سنان فاحتفر لها بئراً ثم أدخلها فيها والناس ينظرون ثم اقتحم فيها حتي غيبها وسمع بعض القوم وهو يقول كذب ابن راعيـة المعز لأخرجن منها وجبتى تندل فلما حضرته الوفاة قال لقومه إذا أنا مت ثم دفنتمونى فاحضرونى بعد ثلاث فانكم ترون عيرا أبتر يطوف بقبرى فاذا رأيتم ذلك فانبشونى فانى أخبركم بما هو كائن الى يوم القيامة فاجتمعوا له فى ذلك اليوم فلما رأوا العير وذهبوا ينبشونه اختلفوا فصاروا فرقتين وابنه عبـد الله فى الفرقة التى أبت أن تنبشـه وهو يقول اذا أدعي ابن المنبوش فتركوه وقد قدمت ابنته على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه وقال هـذه ابنة نبي ضيعة قومه قال وسمعت سورة قل هو الله أحد فقالت قد كان أبى يتلو هذه السورة والمتكلمون لا يؤمنون بهذا ويزعمون أن خالداً هـذا كان أعرابياً وبرياً من أهل سرح وناصرة ولم يبعث الله نبيا قط من الأعراب ولا من الفدادين أهل الوبر وانما يبعثهم من أهل القري وسكان المدن وقال خليد عبس

وأى نبي كان في غـير قومـه * وهل كان حكم الله الا مع النخل

وأنشدوا

كنار الحرتين لها زفير * تصم مسامع الرجل السميع

وما زال الناس كافة والأمم قاطبة حتى جاء الله بالحق مولعين بتعظيم النار حتي ضل كثير من الناس لافراطهـم فيها انهم يعبدونها (فاما النار العـلوية كالشمس والـكواكب) فقد عبدت البتة قال الله تعالى (وجدتها وقومها يسجدون للشـمس من دون الله) وقد يجيئ في الاثر وفي سـنة بعض الانبياء تعظيمها على جهة التعبـد والمحنة وعلى إيجاب الشـكر على النعمة بها وفيها فيغلط لذلك كثير من الناس فيجوزون الحد ويزعم أهل الـكتاب ان الله تعالى أوصاهم بها وقال لا تطفئوا النيران من بيوتى فلذلك لا تجد الـكنائس والبيع وبيوت العبادات إلا وهى لا تخلو من نار أبداً ليلا ولا

نهاراً حتى اتخذت للنيران البيوت والسدنة ووقفوا عليها الغلات الكثيرة (أبو الحسن) عن مسلمة ومحدم أن زياداً بعث عبد الله بن أبي بكرة وأمره أن يطفيء النيران فأراد عبد الله أن يبدأ بنار جوم فيطفئها فقيل له ليست للمجوس نار أعظم من نار الكاريان من دار الحارث فان أطفأتها لم يمتنع عليك أحد وان أطفأت سافلتها استعدوا للحرب وامتنعوا فابدأ بها فخرج الى الكاريان فتحصن أهلها في القلعة وكان رجل من الفرس من أهل تلك البلاد معروفا بالشدة لا يقدر عليه أحد وكان يمر كل عشية يأتى منزله استخفافا وادلالا بنفسه فغم ذلك عبد الله فقال أما لهذا أحد وكان مع عبد الله بن أبي بكرة رجل من عبد القيس من أشد الناس بطشا وكان جبانا فقالوا له هذا العبدى هو شديد جبان وان أمرته به خاف القتال فلم يعرض له فاحتل له حيلة فقال نعم قال فبينا هو في مجلسه إذ مر الفارسى فقال عبد الله ما رايت مثل خلق هذا وما فى الارض كما زعموا أشد منه بطشاً ما يقوي عليه أحد فقال العبدى ماتجعلون لي ان احتملته حتى أدخله الدار وأكتفه فقال له عبد الله لك أربعة آلاف درهم فقال تفون لى بالف قال نعم فلما كان الغد مر الفارسى فقام اليه العبدى فاحتمله فما امتنع ولا قدر أن يتحرك حتى أدخله الدار وضرب به الأرض ووثب عليه الناس فقتلوه وغشى على العبدى حين قتلوه فلما قتل أعطي أهل القلعة بايديهم فقتل ابن أبي بكرة الهرابذة وأطفأ النار ومضى يطفيء النيران حتى بلغ سجستان والمجوس تقدم النار في التعظيم على الماء وتقدم الماء فى التعظيم على الارض ولا تكاد تذكر الهوي (ونار أخرى) التى يحكونها من نيران السعالى والجن وهي غير نار الغيلان وأنشد أبو زيد لسهم بن الحارث

ونار قد حضأت بعيد هدء * بدار لا أريد بها مقاما
سوي تحليل راحلة وعين * أكالئها مخافة أن تناما
أتوا نارى فقلت منون أنتم * فقالوا الجن قلت عموا ظلاما
فقلت الى الطعام فقال منهم * زعيم نحسد الانس الطعاما

وهذا غلط وليس من هذا الباب وسنضعه في موضعه ان شاء الله تعالى بل الذى يقع ههنا قول أبي المطراب عبيد بن أيوب

فلله در القول أى رقيقه * لصاحب قفر خائف متقفر
أذنت بلحن بعد لحن وأوقدت * حوالى نيران تبوخ وتزهر

وما زالت السدنة تحتال للناس جهة النيران بانواع الحيل كاحتيال رهبان كنيسة القمة بيت المقدس بمصابيحها وأن زيت قناديلها تستوقد لهم من غير نار فى بعض ليالي أعيادهم قال ومثل احتيال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان أو عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حتى قال

ياعز كفرانك لاسبحانك * انى وجدت الله قد أهانك

حتى كشف الله ذلك الغطاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم (ونار أخرى) وهي النار التى توقد للظباء وصيدها لتعشي اذا أدامت النظر وتجعل من ورائها ويطلب بها بيض النعام فى أفاحيصها ومكناتها ولذلك قال طفيل الغنوى

عوازب لم تسمع نبوح مقامة * ولم تر ناراً تم حول مجرم
سوى نار بيض أوغزال بقفرة * أغن من الخنس المناخر توأم

وقد يوقدون النيران يهولون بها على الاسد إذا خافوها والاسد إذا عاين النار حدق اليها وتأملها فما أكثر ماتشغله عن السابلة ومر ابن ثعلب الاعرج على وادى السباع فعرض له سبع فقال له المكارى لوأمرت غلمانك فأوقدوا ناراً وضربوا على الطساس ففعلوا فأحجم عنها فأنشدنى له ابن أبى كريمة في حبه بعد ذلك للنار ومدحه لها وللصوت الشديد بعد بغضه لها وهو قوله

فاحببتها حباً هويت خلاطها * ولو في صميم النار نار جهنم
وصرت ألذ الصوت لو كان صاعقاً * وأطرب من صوت الحمار المرقم

وروى أن إعرابيا اشتد عليه البرد فاصاب ناراً فدنا منها ليصطلي بها وهو يقول اللهم لاتحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة ومما اذا أبصر النار اعترته الحيرة الضفدع فانه لا يزال ينق فاذا أبصر النار سكت (ومن النيران نار الحباحب) وهي أيضاً نار أبى الحباحب وقال أبو حية

تعسر فى تغريبه فاذا انحنى * عليهن فى قف أرثت جنادله

وأوقد نيران الحباحب والتقى * عصاً تتراقي بينهن ولاوله

وقال القطامي فى نار أبى الحباحب

تجرد تجريد النعامة بعد ما * تصوتت الجوزاء قصر المغارب
ألا إنها نيران قيس اذا استوت * لطارق ليل مثل نار الحباحب

ويصفون ناراً أخرى وهى قريبة من نار أبى الحباحب وكل نار تراها العين لا حقيقة لها عند التماسها فهى نار أبي الحباحب ولم أسمع فى أبى حباحب نفسه شيأ وقال الاعرابى وذكر البرق

نار تعود به للعود جدته * والنار تشعل نيرانا فتحترق

يقول كل نار فى الدنيا فهى تحرق العيدان وتبطلها وتهلكها الا نار البرق فانها تجىء بالغيث واذا غثيت الأرض ومطرت أحدث الله للعيدان جدة وللاشجار أغصانا لم تكن (ونارا أخرى) وهي شبيهة بنار البرق ونار أبى حباحب وهى نار اليراعة واليراعة طائر صغير ان طار بالنهار كان كبعض الطير وان طار بالليل كان كانه شهاب قذف أو مصباح يطير وفي الأحاديث السائرة المذكورة فى الكتب أن رجلا ألقى في ماء راكد فى شتاء بارد فى ليلة من الحنادس لاقمر ولا ساهور وانما ذكر ذلك لان ليلة العشر والبدر والطوق الذي يستدير حول القمر يكون كاسداً من برد تلك الليلة قالوا فما زال الرجل حياً وهو في ذلك بارد جامد ما دام ينظر الى نار كانت تجاه وجهه في القرية أومصباح فلما طفئت انطفأ وقال الشاعر

ونار قبيل الصبح بادرت قدحها * خبا النار قد أوقدتها للمسافر

يقول بادرت الليل لأن النار لاترى بالنهار كأنه كان خليعاً أومطلوبا وقال آخر

ودوية لايثقب النار سغرها * وتضحى بها الوجناء وهي نهيد

كأنهم كانوا هرابا من حثهم السير لايوقدون لبرمة ولا ملة لان ذلك لايكون الا بالنزول والتمكث وانما يجتازون بالبسبسة أوبادني علقة وقال بعض اللصوص

ملساً برود الحى مني ملسا * نبهت عنهن غلاما قلسا
لما تغشي فروة وحلسا * من غدوة حتى كان الشمسا

بالافق الشرقى تكساورسا * لاتخبزا خبزا وبسابسا
ولا تطيلا بمناخ حبسا * وجنباها أسداً وعبسا

قال والبسبسة أن يبل الدقيق بشيء حتى يجتمع ويوكل (ونار أخرى) وهي نار الوسم والميسم يقال للرجل ما نار إبلك فيقول علاط وخباط أو حلقة وكذا وكذا وقرب بعض اللصوص إبلا من النواسة وقد أغار عليها من كل جانب وجمعها من قبائل شتى فقر بها الى بعض الاسواق فقال له بعض التجار مانارك وانما يسأله عن ذلك لانهم يعرفون بميسم كل قوم كرم ابلهم من لؤمها فقال

تسألني الباعة مانجارها * اذ زعزعوهافسمت أبصارها
فكل دار لأناس دارها * وكل نار العالمين نارها

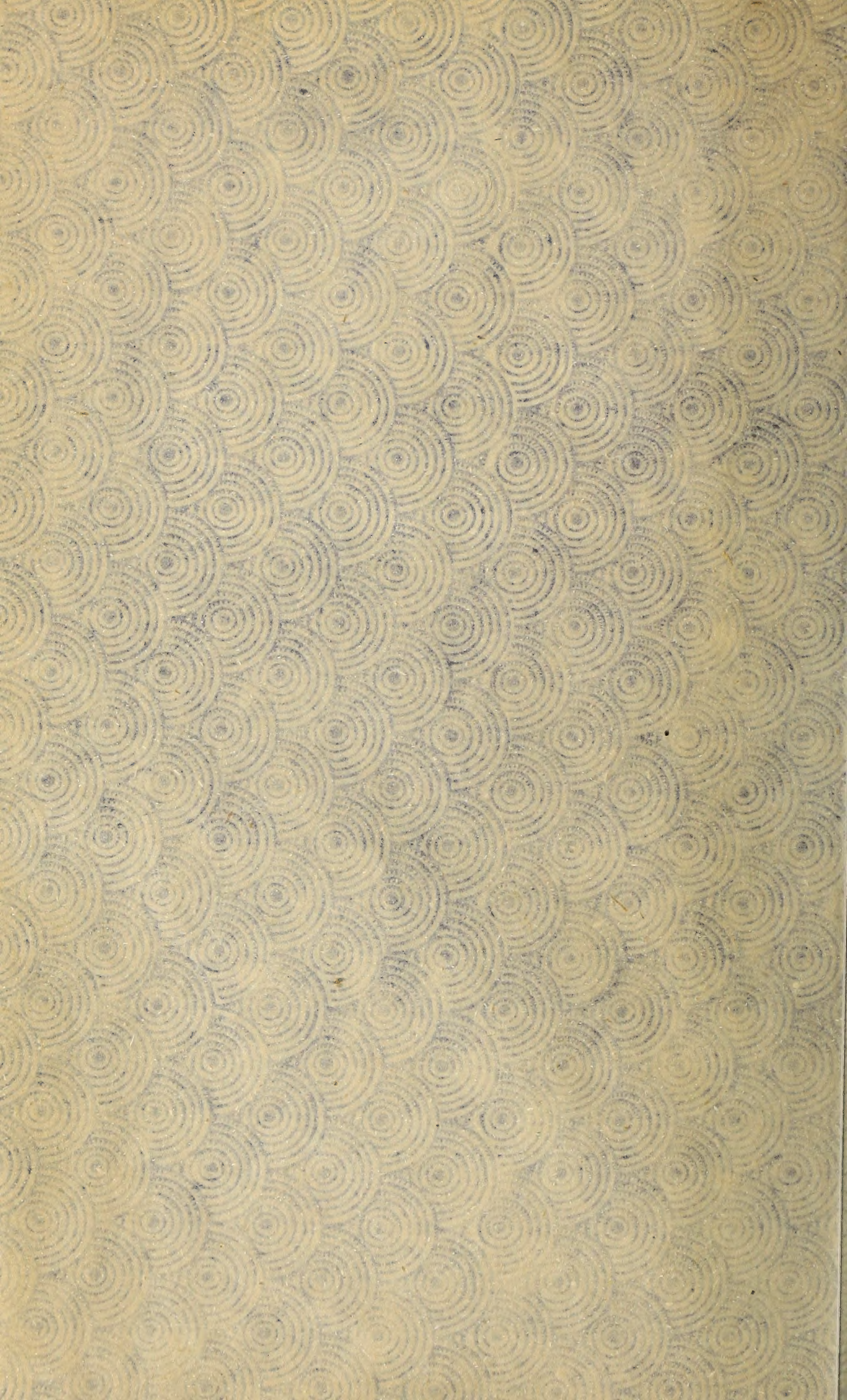
وقال الكردوس المرادى

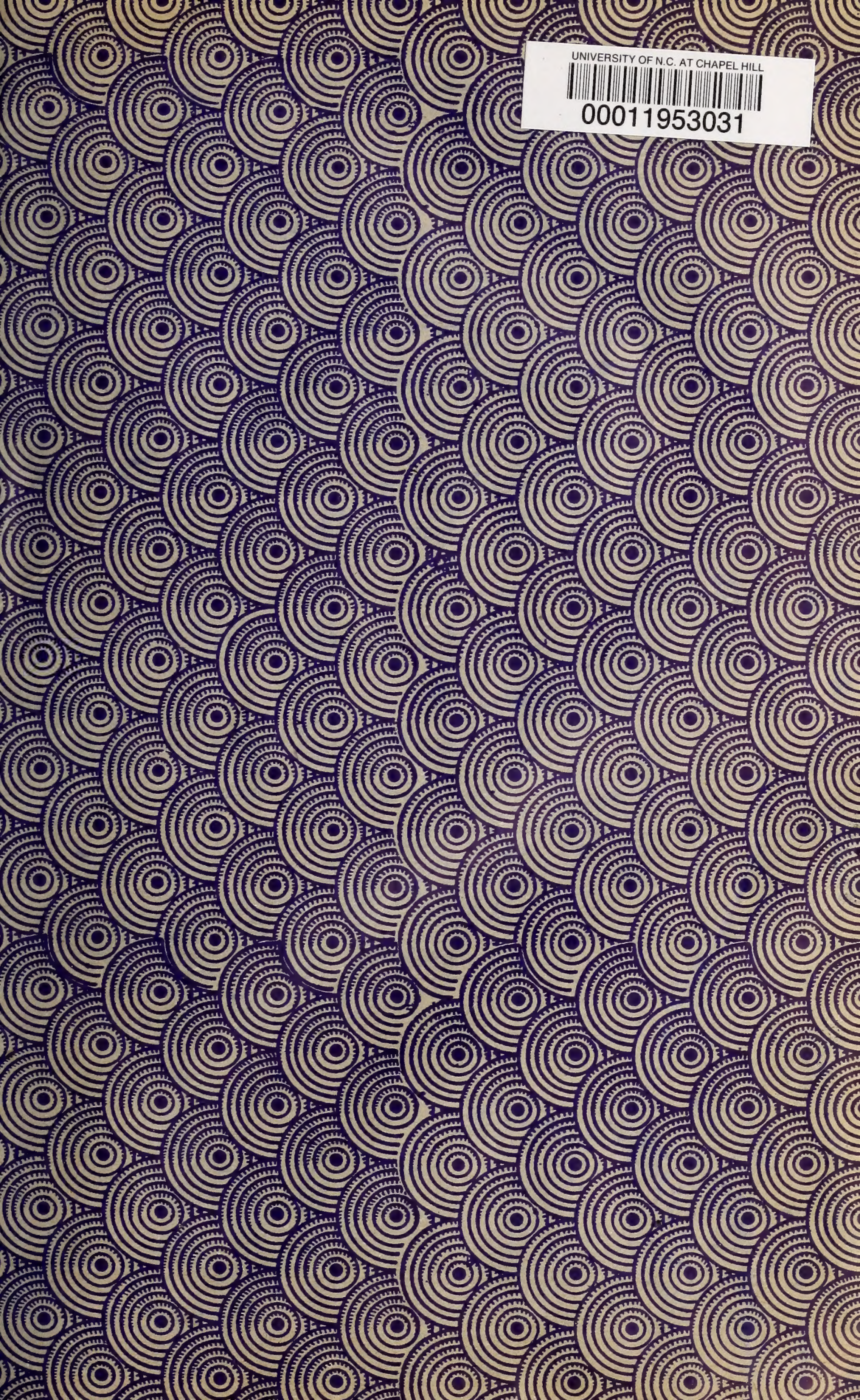
تسائلني عن نارها ونتاجها * وذلك علم لا يحيط به الطمس

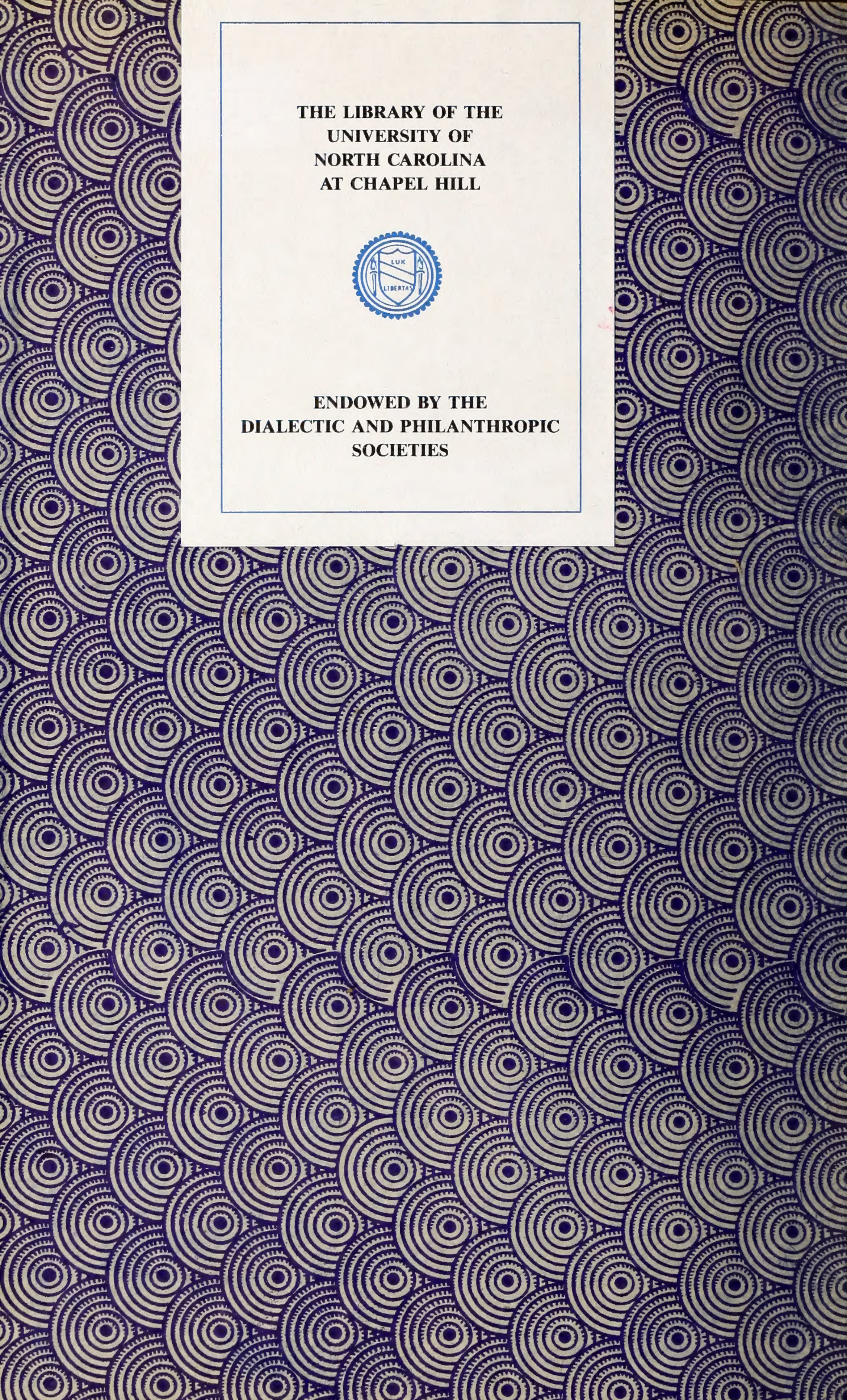
والطمس الخلق والودى الناس خاصة

(تم هذا المصحف الرابع من كتاب الحيوان)
(ويليه ان شاء الله تعالى المصحف الخامس)
(وأوله نبدأ فى الجزء بتمام القول)
(فى نيران العجم والعرب)
(ونيران الديانة ومبلغ)
(أقدارها)








THE LIBRARY OF THE
UNIVERSITY OF
NORTH CAROLINA
AT CHAPEL HILL
LUX
LIBERTAS
ENDOWED BY THE
DIALECTIC AND PHILANTHROPIC
SOCIETIES